

تاريخ الحروب الصليبية

ستيفن رنسيمان

تاريخ الحروب الصليبية

١

الحرب الاولى وقيام مملكة بيت المقدس

نقله الى اللغة العربية

الدكتور السيد الباز العريني
استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الثالثة

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

مقــــدمة

جرى المؤرخون المحدثون في كتابتهم عن الحروب الصليبية على اتخاذ اتجاهين، يتعلق الأول منها بامتداد الحد الزمني ، حتى شمل دراسة ما سبق القرن الحادي عشر الميلادي من أحداث ، وما تلى سقوط عكا سنة ١٢٩١ ، مما جرت تسميته بالحروب الصليبية المتأخرة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . أمـا الاتجاه الثاني فنبع من ازدياد الاهتمام في السنوات الأخيرة بالمظاهر الحضارية لما لهـا من تأثير في توجيه الحملات الصليبية ، ومـا ترتب عليها من قيام الإمارات اللاتينية وتنظيماتها .

والمعروف ان الشرق الاوسط تعرض اواخر القرن الحـادي عشر لحركة استعمارية من قبل الغرب ، لم يشهد لهـا مثيلاً في العصور الوسطى ، فاتخذت من الدين ستاراً لإخفاء ما انطوت عليه من مطامع وأغراض .

وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية تعتبر أخطر المغامرات التي اقدم عليها المحاربون المسيحيون واكثرها إثارة ، فـلا زالت تؤلف حقيقة ثابتة في العصور الوسطى . إذ أن مراكز الحضارة استقرت قبـل نشوب الحروب الصليبية في العالم الاسلامي وبيزنطة ، بينما غلب على اوربا النظام الإقطاعي . فلمـا ركدت ريح الحروب الصليبيـة في القون الرابع عشر ، اختفي في اوربا مـا سبق أن اشتهرت بـه في مستهل الحركة الصليبية من الروح الدينية والتفكير في الحياة الاخرى ، وسيطر عليها العلمانية والدنيوية ، فانصرفت الى دراسة القانون والفلسفة .

وفي العـالم المسيحي ، اجتمع في الحرب الصليبية الاولى مظهران دينيان اساسيان ، هما الحج والحرب المقدسة ، والحج أقدم هذين المظهرين ، لأنه يرجع الى بداية ظهور المسيحية، ولم يلبث أن لقي الحج التوجيه والاهتمام من الكنيسة،

فأضحى من مظاهر التوبة والاستغفار ، وتضاعفت قيمة الحج ، بما تهيأ للحاج أن يسعى للأراضي المقدسة . وبتأثير الحركة الكلونية ، التي بدأت في القرن العاشر ازداد نشاط حركة الحج . ولم يلبث هذا النشاط أن تحول الى الحرب المقدسة ، في القرن الحادي عشر الميلادي ، بعد أن ارتفع شأن البابوية ، وصار لها السيادة على سائر الكنائس الاوربية بفضل سلسلة من البابوات الأقوياء ، امثال جريجوري السابع وايربان الثاني . إذ حضت البابوية على نبذ الحروب الداخلية بين امراء الاقطاع ، وتوجيهها ضد غير المسيحيين. واكثر ما امتاز به ايربان على جريجوري السابع ، انه دعا الى تحول القتال الى الشرق الاسلامي وانتزاع الاراضي المقدسة من ايدي المسلمين . فالموجة العارمة من الحماس والعاطفة التي اجتاحت غرب اوربا ، وحشدت الألوف من فقراء الرجال والنساء تحت ألوية امثال بطرس الناسك ووالتر المفلس تعتبر مرحلة هامة في التاريخ .

وعلى الرغم من أن غرب اوربا استجاب لنداء بيزنطة ، بأن امد الحركة الصليبية الى شرق البحر المتوسط ، فالواقع ان بيزنطة لم تتصور ما حدث من تدفق القوات الصليبية التي باتت تهدد كيانها ، إذ أن بيزنطة درجت في علاقاتها مع جيرانها من المسلمين وغير المسلمين ، على أن تلتمس من الوسائل الحربية والدبلوماسية ، ما يكفل لها المحافظة على كيانها ، فتوقفت سياستها الصليبية على ما يربطها بالمدن الايطالية وسائر القوى بإيطاليا ، من علاقات ودية او عدائية ، وعلى ما كان بينها من علاقات تقليدية مع شعوب وإمارات ودول الشرق الأوسط ، وعلى ما تزعمه لنفسها من حقوق في حماية المسيحيين بالشرق .

وكان النظام الاقطاعي في اوربا يدعو للتوسع والسيطرة والقتال . فلم تجد نفعاً فكرة سلام الله وهدنة الله ، وما لجأت اليه الكنيسة من فرض قيود على المبارزات الفردية لم يؤد الى نتيجة ايجابية ، ولذا حرصت الكنيسة على تشجيع الفرسان على قتال المسلمين ، فيشبع الفارس بذلك نزعته الحربية ، وينال الخلاص والتطهير من الذنوب ، وهو ما يرضي الجانب الروحي من طبيعته . يضاف الى ذلك ما حدث في غرب اوربا من ازدياد عدد السكان ، وتقاصر الاراضي عن

سد حاجة المقطعين ، فكان لا بـد من السعي للحصول على اقطاعات جديدة ، بالتوسع شرقاً ، وهذا يفسر اشتراك امثال بلدوين وبوهمند وتانكرد في الحروب الصليبية ، إذ هيأت لهم الفرصة لإقامة إمارات في الشرق .

ولم يكن التجار الايطاليون من دعاة السلام . فما قامت به جنوة وبيزا من مهاجمـــة المسلمين في البحر المتوسط في سردينيا وشمال افريقية ، جعل الحرب مهنة مقبولة لتحقيق الاغراض التجارية . أما توسع النرمان في صقلية ، فلقي من موافقة الكنيسة وتشجيعها ، مـــا جعل امراء النرمان يعتبرون انفسهم اتباعاً للكنيسة ، فتقلدوا منها حكم كل مـــا فتحوه في صقلية . فلما تحدث البابا اربان الثاني اواخر القرن الحادي عشر الى المسيحيين بالغرب ، لمس من استجابتهم ما يصور خصائص اوربا الإقطاعية ومـــا تنطوي عليه من نشاط وحماس ديني ونزوع للقتال .

وما كانت ترمي اليه البابوية من اقامة حكومة تيوقراطية في الشرق ، تجمع بين السلطتين الزمنية والروحية ، لم يكن إلا أملاً بددته قوة الاحداث والمطامع الدنيوية والتجارية .

وإذ حل الصليبيون بالشرق ، اتخذوا من النظم والوسائل مـــا يتفق مع اوضاعهم الادارية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية ، وابقوا على صلاتهم بالغرب المسيحي ، وشجعوا الهجرة الى الشرق الاوسط .

على ان نجاح الصليبيين اول الأمر ، لم يرجع فحسب الى كثرة اعدادهم ، والى ما تلقوه من مساعدات من الغرب المسيحي ومن الدولة البيزنطية ، بـل يرجع اساساً الى تفرق كلمة المسلمين ، ونشوب الفتن الداخلية واضطراب الأمن ، والى مـا اتبعه القادة الصليبيون من اساليب الغدر والخيانة ، واستخدام العملاء من السكان الوطنيين في تحقيق اغراضهم ، والى ما اجروه من مذابح في سكان البلاد التي استولوا عليها برغم ما بذلوه لهم من الأمان .

وأدرك المسلمون آخر الأمر ان الصليبيين لم يستهدفوا إلا مصلحتهم الخاصة ،

وانهم يتطلعون الى مد نفوذهم وسلطانهم الى سائر البلاد الاسلامية ، ولم تلبث فكرة الجهاد ان خرجت الى حيز التنفيذ ، واشتدت ثائرة المسلمين ، وتهيأ للأمة الاسلامية القادة الذين مضوا بها الى طريق النصر .

هذه هي الخطوط العريضة للجزء الاول من كتاب تاريخ الحروب الصليبية، الذي ألفه السير ستيفن رنسيمان ، في ثلاثة اجزاء نقلتها الى اللغة العربية .

تلقى رنسيمان تعليمه في ايتون وكمبردج ، وقام بالتدريس في جامعات كمبردج واكسفورد وسانت اندرو واستانبول . واكثر ما اهتم به ، الدراسات البيزنطية والعلاقات بين الشرق والغرب ، وله في ذلك مؤلفات ومقالات عديدة بالغة القيمة .

ونظراً لأنه لم يكن من اليسير فهم الحروب الصليبية ، إلا بعد دراسة ما كان من ثقافات وحضارات الاقاليم والبلاد ، التي تعتبر جسراً بين الشرق والغرب ، والتي خضعت لمؤثرات حضارية واحدة ، والتي اجتازتها الحملات الصليبية ، تطلب ذلك دراسة نقدية لمصادر الحروب الصليبية التي حفلت بالمتناقضات والتكرار والاوهام والاساطير . وما اتصف به رنسيمان من الصبر والدأب على الدراسة ، والعلم الغزير ، وسلاسة الاسلوب ورقته ، وسلامة العرض التاريخي ، كل ذلك يتجلى في كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » . فما اورده من وصف مثير للمعارك الطاحنة ، والمذابح الفاجعة ، والاطماع المتعارضة، وما كان من تأثيرها على التاريخ في الشرق والغرب ، كان من اهداف المؤلف .

والواقع ان ما بذله رنسيمان من صدق الدراسة وما اشتهر به من سلامة الادراك ، والسيطرة على كل ما يربط الشرق بالغرب من صلات ، جعل لهذا الكتاب من المكانة العلمية ما شهد به المؤرخون والنقاد .

بيروت ربيع الأول ١٣٨٧
يوليو (تموز) ١٩٦٧

السيد الباز العريني

تصدير

هذا المجلد الذي يعتبر الأول من ثلاثة مجلدات ، تشمل تاريخ الحركة التي نطلق عليها اسم الحروب الصليبية ، وذلك منذ قيام تلك الحروب في القرن الحادي عشر ، حتى تدهورها في القرن الرابع عشر ، فضلاً عن تاريخ الدول والإمارات الصليبية ، التي أنشأتها في فلسطين والبلاد المجاورة . وأرجو أن استطيع أن أقدم في المجلد التالي تاريخاً ووصفاً لمملكة بيت المقدس ، وعلاقاتها بسكان الشرق الادنى ، وللحملات القرن الثاني عشر ، على أن يتناول المجلد الثالث تاريخ مملكة عكا والحملات الصليبية المتأخرة .

وسواء اعتبرنا الحروب الصليبية أعنف وأروع ما قام به المسيحيون من مغامرات ، أم آخر ما قام به المتبربرون من غارات ، فانها تؤلف حقيقة أساسية في تاريخ العصور الوسطى . فالمعروف ان مركز المدنية الأوربية كان قبل نشوب الحروب الصليبية يقع في بيزنطة ، وفي بلاد الخلافة الاسلامية . غير ان التفوق في المدنية انتقل الى الغرب ، قبل ان ينتهي عصر الحروب الصليبية ، ومن ثنايا هذا الانتقال ، نبت التاريخ الحديث .

ولفهم الحركة الصليبية ينبغي علينا ألا ندرس فحسب ، من الاحوال

في غرب اوربا مــا أدى الى الباعث الصليبي ، بل لا بد ايضاً ، ولعل ذلك يعتبر أكثر اهمية ، أن نفهم من الأحوال في الشرق ما هيأ للصليبيين الفرصة ، ورسم طريق تقدمهم وسيرهم . ولذا ينبغي ان يتحرك نظرنا من المحيط الاطلنطي الى منغوليا ، فاذا جرت رواية قصة الحروب الصليبية من وجهة نظر الفرنج فحسب ، أو العرب وحدهم ، او من وجهة نظر ضحاياها الأولين ، وهم المسيحيون في الشرق ، فإن ذلك يجعلها تفتقد الدلالة والأهمية ، لأنها على قول جيبون ، كانت قصة نزاع عالمي .

على أن تاريخ الحركة الصليبية كلها ، لم تشملها دراسة عامة في اللغة الانجليزية ، بل انه لم يكن بانجلترا مدرسة ناشطة لدراسة تاريخ الحركة الصليبية . والواقع ان ما ورد من الفصول في كتاب جيبون الذي عنوانه : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها [١] ، لا يزال جديراً بالدراسة ، على الرغم من تحيّزه ، والوقت الذي ألف فيه كتابه .

وأحدث من ذلك الكتاب ، ما أمدنا به سير ارنست باركر ، من خلاصة رائعة عن الحركة الصليبية ، الـتي صدرت لأول مرة في دائرة المعارف البريطانية [٢] ، ثم بعد ذلك مـــا ألفه و . ب . ستيفنسون W. B. Stevenson من تاريخ رائع للدول الصليبية [٣] . غير ان ما أسهم به البريطانيون في معظم الأحوال ، يشمل مقالات قيمة ، فضلاً عن نشر مصادر شرقية وبضعة كتب تاريخية عامة لم يؤلفها علماء مختصون .

---

(١) Gibbon : The Decline and Fall of the Roman Empire.

(٢) صدرت هذه الدراسة في كتاب مستقل ، ونقلها المترجم الى اللغة العربية ، ونشرهـــا بالقاهرة ١٩٥٨ ، وفي بيروت ١٩٦٧ .

(٣) W. B. Stevenson : The Crusaders in the East .

أما فرنسا وألمانيا ، فان أثرهما يزيد اتساعاً وطولاً ، فاستهلت التواريخ الالمانية الضخمة عن الحروب الصليبية ، بكتاب فيكلن الذي صدر اوائل القرن التاسع عشر . ولا يزال كتاب فون سيبل ، الذي صدر لأول مرة سنة ١٨٤١ محافظاً على أهميته الفائقة . وحدث أواخر القرن التاسع عشر ، أن اثنين من ألمع العلماء الالمان ، وهما روريخت وهيجنماير ، لم يكتفيا بما قاما به من جهد بالغ الأهمية في جمع مصادر المواد الصليبية ونقدهـا ، بل كتبا في موضوعها مؤلفـات تاريخية شاملة . وفي سبيل المحافظة على التقاليد الألمانية قام ايردمان حديثاً بدراسته الشاملة عن الحركة الدينية في الغرب ، وهي الحركة التي أدت الى الحروب الصليبية .

وفي فرنسا ، البلد الذي قدم منـــه أكبر عدد من الصليبيين ، من الدليل على اهتمام علمائها ، ما نشر في منتصف القرن التـاسع عشر من المصادر الاصلية الغربية واليونانية والشرقية والعربية ، في المجموعة الضخمة عن مؤرخي الحروب الصليبية [1]: Recueil des Historiens des Croisades .

وأصدر المؤرخ الفرنسي ميشو تاريخه الضخم في السنوات التالية لسنة ١٨١٧ [2] . وفي اواخر ذلك القرن ، قام ريان Riant ورفاقه في جمعية الشرق اللاتيني Sociètè de l'Orient Latin ، ببذل مجهود بالغ القيمـة . وفي هـذا القرن أيضاً ، وجه الاهتمام الى الحروب الصليبية اثنـان من أشهر علماء فرنسا في الدراسات البيزنطية ، وهما شالاندون وبريهييه [3] . وقبيل نشوب الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ ، أصـدر جروسيه مؤلفه

---

(١) يجري حالياً اعادة طبع هذه المجموعة .
(٢) Michaud , J. F. Histoire des Croisades , 5 vols (1817 - 1822) .
(٣) انظر المصادر والمراجع في آخر هذا المجلد .

عن تاريخ الحروب الصليبية في ثلاثة اجزاء . ووفقاً للتقليد الفرنسي جمع جروسيه بين غزارة العلم وسلامة الكتابة ، وبين حماسة الغالين المعروفة .

على ان أنشط مدرسة لمؤرخي الحروب الصليبية ، هي التي نلمسها حالياً في الولايات المتحدة الامريكية ، وهي المدرسة التي أنشأها مونرو D. C. Munro . ومما يدعو للأسف ان ما أصدره مونرو من انتاج يعتبر قليلاً ، لا يقاس الى ما بلغه من مكانة في الأستاذية والتدريس . فالمؤرخون الامير كيون ظلوا حتى وقتذاك يركزون جهودهم على نواح تفصيلية . ولم يحاول أحد منهم ان يؤلف كتاباً عاماً شاملاً عن الحروب الصليبية ، غير أنهم وعدوا بإصدار مؤلف مشترك ، يسهم فيه بعض الاساتذة العالميين ، يتناول جميع مراحل تاريخ الحروب الصليبية [1] . ويؤسفني انه لم يظهر في الوقت المناسب ، حتى أفيد منه في كتابة هذا الجزء .

وربما يكون من غير المعقول أن ينافس مؤلف انجليزي واحد حشداً من الآلات الكاتبة الأمريكية . غير أنه ليس ثمة منافسة ؛ مع العلم بأنه ليس في استطاعة مؤرخ واحد ان يباري مجموعة من المؤرخين المختصين ، لكنه ربما يستطيع ان ينجح في ان يجعل لكتابه صفة الترابط

---

(١) يصدر هـذا الكتاب جامعة بنسلفانيا ، فيلادلفيا ، الولايات المتحـدة الاميركية ، والمسئول الاول عن نشره Kennet M . Setton ويقع في خمسة مجلدات ، الاول وعنوانه :
The First Hundred Years . Edited by Marshall Baldwin, 1955 .
والثاني وعنوانه: The Later Crusades 1189 - 1311. Edited by Robert Lee Wolff and Harry W . Hazard .1962 .
والثالث وعنوانه : The Fourteenth and Fifteenth Centuries .
والرابع وعنوانه : Civilizations and Institutions .
والخامس وعنوانه: Inflnence and Correspondences With Genealogies and Bibliognaphy .
ويجري حالياً إعداد الاجزاء الثلاثة الأخيرة للطبع والنشر .

المتصل ، وهو ما لا يتحقق لكتاب يشترك فيه مؤلفون عديدون . فإذا كان هومر يعتبر ، شأن هيرودوت ، أب التاريخ كما أدرك ذلك جيبون ، أعظم المؤرخين الانجليز ، فمن العسير ان نعتقد ان هومر كان مجموعة ، على الرغم من بعض الآراء المعروفة .

على أن كتابة التاريخ في العصر الحاضر ، انتقلت الى ما هو معروف باسم العصر السكندري في التاريخ القديم ، وهو العصر الذي كان النقد فيه أكثر من الابتكار والانتاج والخلق . واذ يواجه المؤرخ الحديث أكداساً ضخمة من دقائق المعرفة ، ويروعه ما يكون من قسوة زملائه المتحفزة ، لا يسعه إلا أن يلتمس لنفسه ملاذاً فيما ينشره من مقالات قيمة ، او رسائل بالغة التخصص ، وكلها حصون صغيرة من السهل الدفاع عنها إزاء أي هجوم ، على أنه يصح ان يكون لعمل هذا الصنف من المؤرخين أعظم قيمة ؛ غير انه ليس غاية في ذاته . وأعتقد ان الواجب الأسمى للمؤرخ هو ان يكتب تاريخاً ، وبمعنى آخر ، يحاول ان يؤلف كتاباً واحداً مترابط الأجزاء عن أهم الأحداث والحركات التي تحكمت في أقدار الانسان . والمؤرخ الذي يقوم بمثل هذا العمل لا ينبغي انتقاده لطموحه ، مهما استحق من النقد ، لقصور عدته ، او لتفاهة ما وصل اليه من نتائج .

أوردت في كل حاشية من الحواشي المصدر الذي استقيت منه معلوماتي ، وأثبت في آخر الكتاب ، قائمة عن المؤلفات التي رجعت اليها ، وإن ديني عظيم لكثير منها ، ولو لم استق منها شيئاً في ملاحظاتي . أما الاصدقاء الذين وجهوا إلي من النقد والنصيحة البناءة ، فانهم من الكثرة ما يجعلني عاجزاً عن ذكرهم بأسمائهم .

ويعوزني في هذا المقام ملاحظة عن كتابة الأسماء . فحيثما نصادف من الأسماء المسيحية ما يحمل الصيغة الانجليزية مقبولة مثل يوحنا او جودفري او ريموند ، فلا يجوز ان نستخدم غيرها .

حاولت دائماً ان استخدم من الصيغ ما هو اكثر شيوعاً ، ولذا يعتبر أكثر قبولاً عند أوساط الانجليز . أما الألفاظ اليونانية فاستخدمت الصيغ اللاتينية القديمة ، التي لا يتم الاتساق والوحدة إلا بها . وأثارت الأسماء العربية مشكلة كبيرة . فالنقط وحروف الحلق التي يصرّ عليها المختصون في العربية ، يجعل القراءة عسيرة ، ولذا أسقطتها ، غير إني ارجو ان يكون نهجي برغم ذلـك واضحاً . وأما في اللغة الارمنية ، حيث : P , b , g , k تعتبر متطابقة وصحيحة وفقاً لزمن اللفظة او موطنها ، فإني التزمت بالصورة القديمة منها . وأثارت اللفظة الفرنسية de ، مشكلة فعلاً ، فحيثما لم تعتبر جزء من لقب معين ، فقد ترجمتها .

وفي الختـام أرجو ان اشكر مديري مطبعة جامعة كمبردج وأمينهـا العام ، لما أظهروه من عطف ومساعدة أكيدة .

لندن ١٩٥٠ ستيفن رنسيان

الكتاب الاول

الأماكن المقدسة بالعالم المسيحي

الفصل الاول

وحشة الخراب

الأمبراطورية البيزنطية في الشرق :

في أحد أيام شهر فبراير سنة ٦٣٨ ، دخل الى بيت المقدس ، الخليفة عمر بن الخطاب ، راكباً جملاً أبيض اللون . وكان يرتدي وقتذاك ثياباً خلقة قديمة . ومع ان الجيش الذي قاده كان خشناً ، فانه بلغ الاكتمال في نظامه . وسار الى جانب الخليفـــة البطريرك صفرونيوس باعتباره رأس رجال الادارة في المدينة التي أذعنت . على ان عمر بادر بالتوجه رأساً الى موقع هيكل سليمان ، الذي صعد منه صاحبه سيدنا محمد الى السماء . وبينما كان البطريرك ينظر اليه أثناء وقوفه ، استذكر أقوال المسيح ، وأخـذ ينبس بها من خلال دموعه : « فمتى نظرتم رجسة الخراب ، التي قال عنها دانيال النبي [1] » .

ثم طلب الخليفة زيارة مشاهد المسيحيين ، فصحبه البطريرك الى كنيسة

---

(١) انجيل متى ، الاصحاح ٤ ، آية ١٥ .

القيامة ، وأطلعه على كل ما بهـــا . وبينما كانا بالكنيسة ، اقترب وقت الصلاة عند المسلمين . فتساءل الخليفــة ، أين يستطيـع ان يفرش قباءه للصلاة . فتوسل اليه صفرونيوس ، ان يبقى في مكانه ، غير ان عمر خرج الى المدخل الخارجي للكنيسة ، كيلا يزعم ، على حد قوله ، اتباعه المتحمسون في دينهم ، ان للإسلام حقاً في المكان الذي أدى فيه الصلاة . والواقع ان هذا هو الذي حدث ، اذ اخــذ المسلمون هذا الباب ؛ غير ان الكنيسة بقيت على ما كانت عليه ، أقدس مشاهد العالم المسيحي (١) .

على ان ما جرى إنمــا كان وفقاً للشروط التي أذعنت بهــا المدينة . فحينما أمر النبي عليه الصلاة والسلام ، بأن يختار الوثنيون بين الإسلام والقتل ، أجاز لأهل الكتاب من المسيحيين واليهود . (فضلاً عن المجوس الذين قضت دماثته ان يضيفهم الى اهل الكتاب) ، بأن يحتفظوا بما لهم من دور العبادة ، وأن يترددوا عليها ، دون ان يمنعهم عنها احــد ، غير أنه لا ينبغي ان يزيدوا في عــدد هــذه الدور ، او يحملوا سلاحاً ، او يركبوا جياداً ، وينبغي ان يؤدوا ضريبة الرأس المعروفة بالجزية (٢) . لم يكن صفرونيوس ليأمل فيما هو أحسن من هذه الشروط ، حينما ركب حماره ، بعــد أن حصل على الأمان ، ليلتقي بالخليفة على جبل الزيتون ، بعد ان رفض ان يسلم المدينة لمن هو اقــل من الخليفة مكانة وسلطة . تعرضت بيت المقدس لحصار استمر ما يزيــد على سنة ، ولمــا افتقر اليه

---

(١) انظر : Theophanes , ad . ann . 6127 , p. 333 .
Eutychius : Annales col . 1099 .
Michel the Syrian vol . II . p. p. 425 - 426 .
Elias of Nisibin , p. 64 .
وورد موجز رائع للمصادر في : Vincent and Abel : Jéruselem Nouvelle vol . II . p. p. 930 - 932 .

(٢) انظر ما كتبه عن الجزية : Becker : Djizya (En . I s .) .
Brown : The Eclipse of Chiristianity in Asia . pp. 29 - 31 .

العرب من الخبرة في حرب الحصار ، ولقصورهم في العدة الحربية ، أضحوا عاجزين عن اقتحام الاستحكامات التي تجددت عمارتهـــا . غير ان المؤن بداخل المدينة أخذت في النفاد ، ولم يكن ثمة بارقـة أمل في إنجادها . صارت القرى بأيدي العرب ، وأخذت مدن الشام وفلسطين تهوي بأيديهم الواحدة بعد الاخرى ، على ان اقرب الجيوش المسيحية إليها إنما تلك التي ترابط بمصر ، ولم تصمد الحامية المرابطـة في قيسارية على ساحل البحر المتوسط ، إلا بفضل حماية البحرية البيزنطية لها . وكل ما استطاع ان يحصل عليه [صفرونيوس] من الفاتح ، بالإضافة إلى ما جرى الاتفاق عليه من شروط ، لم يتعـد السماح للموظفين البيزنطيين بالمدينـة ، بأن ينسحبوا الى قيسارية على الساحل ، بأسرهم وأمتعتهم .

كان هذا آخر ما قام به البطريرك من الاعمال العامة ، وكان الذروة الفاجعة لحياة طويلة أنفقها في سبيل الأرثوذكسية ووحدة العالم المسيحي . فمنذ ايام شبابه ، حينما اخذ يطوف مع صديقه يوحنا موسكوس بالأديرة في الشرق ، يجمعان لكتابها « الرياض الروحانية » اقوال القديسين وسيرهم ، حتى السنوات المتأخرة من حياته ، حينما عينّه الأمبراطور ، بطريركاً لبيت المقدس ، على الرغم من انـه عارض سياسته ، مضى قدماً ، في جرأة وجسارة ، في مناهضة النحل والقومية النامية ، التي تنبأ بأنها سوف تدمر الامبراطورية . على ان حامي الإيمـان ذا الحديث العذب ، كما جرى نعته بذلك ، لم يغن إرشاده واجتهاده شيئاً . ويعتبر الفتح العربي دليلاً على ما اصابـه من الفشل ، ولم تمض اسابيـع قليـلة حتى قضى نحبـه مكسور الخاطر (١) .

---

(١) انظر : Mansi : Concilia , Nova Collectio , vol X , col . 607 .
ثبت ان صفرونيوس البطريرك ، وصفرونيوس صديق موسكوس هما رجل واحد ، انظر : (Usener : Der Heilige Tychon pp. 85 - 104) .

بقايا الأمبراطورية في الشرق :

الواقع أنه لم يكن في وسع قوة بشرية أن توقف ما ساد في الأقاليم الرومانية بالشرق من حركات التفكك . إذ أن نضالاً كامناً ظل مستمراً بين الشرق والغرب ، طوال تاريخ الامبراطورية الرومانية . فعلى الرغم من ان الغرب أحرز النصر في معركة اكتيوم البحرية ، فإن الشرق لم يلبث أن انقلب على غزاتــه . إذ تعتبر مصر والشام اغنى اقاليم الامبراطورية وأكثرها سكاناً ، وبقيتا اهم المراكز الرئيسية للصناعة ، فتحكمت اساطيلها وقوافلها في تجــارة الشرق ، وما كان بها من حضارة ، الروحيــة منها والمادية فاقت ما كان معروفاً بالغرب . ولا يرجع ذلك فحسب الى ما استقر بها من تقاليد راسخة ، بل يرجع ايضاً الى الحافز الذي اثاره فيها اقترابها من مملكة فارس الساسانية ، التي تعتبر المنافس الوحيد لروما في المدنيــة . ولا شك أن تأثير الشرق ازداد شدة ، حتى انتهى الامر بأن اعتنق قسطنطين الكبير ديانة شرقية (المسيحية) ، ونقــل عاصمة ملكه جهــة الشرق ، الى بيزنطة الواقعــة على البوسفور . وحينما صار لزاماً على الأمبراطورية في القرن التالي ، بعد أن تطرق اليها التداعي في الداخل ، أن تواجه هجوم المتبربرين ، تحطم الغرب ، بينما بقي الشرق قائماً بفضل سياسة قسطنطين الى حد كبير . وبينما اقام المتبربرون ممالكهم في غالة ، واسبانيا ، وافريقية ، وفي بريطانيا النائيــة ، فضلاً عن ايطاليا ، كان الأمبراطور الروماني يحكم من القسطنطينية الأقاليم الشرقية . ولم يرض عن حكومة روما سكان الشام ومصر ، ولم تلبث حكومة القسطنطينيــة ان لقيت من الكراهية في هذه الجهات ما يزيد على ما لقيته حكومة روما . على ان هذه الكراهية ترجع الى حد كبير الى ظروف وأحوال خارجية . فما اصاب الغرب من الفقر ، اضاع ما كان من اسواق للتاجر السوري ، وصانع المنسوجات المصري . وما نشب من حروب مستمرة مع فارس ، عطل طريق التجــارة ، الذي كان يجتــاز الصحراء الى انطاكية ومدن

لبنان . وما حدث بعد فترة قصيرة من هذا التاريخ ، من سقوط الامبراطورية الحبشية ، ومن الفوضى السائدة في بلاد العرب أغلق مسالك البحر الاحمر ، التي كان يسيطر عليها الملاحون المصريون ، وأرباب القوافل في البتراء Petra ، وشرق الأردن وفلسطين . وأضحت القسطنطينية اكبر أسواق الامبراطورية . على ان تجارة الشرق الأقصى ، استطاعت بفضل تشجيع اساليب الامبراطور جستنيان الدبلوماسية ، ان تلتمس لها طريقاً مباشراً ، يقع الى شمال الطريق التجاري المعروف ، ويجتاز براري وسط آسيا . فزاد ذلك في المرارة عند سكان أنطاكية والإسكندرية ، اللتين اشتد حقدهما وحنقهما على القسطنطينية ، المدينة التي تعتبر حديثة العهد بالثروة ، والتي تهدد بتقويضها وزاد في مرارة اهل الشام ومصر ، قيام النظام الحكومي الجديد على المركزية . فما كان من امتيازات محلية واستقلال ذاتي ، جرى انتقاصه . وصار جابي الضرائب من القسوة وابتزاز الاموال ، أشد مما كان معروفاً زمن الرومان القدماء . وولّد السخط قوة جديدة للروح القومية في الشرق ، والتي لم تتوقف منذ زمن طويل .

النساطرة والمونوفيزتيون :

ونشب النضال صريحاً حول أمور تتعلق بالدين ، فالمعروف أن الأباطرة الوثنيين اشتهروا بالتسامح مع العقائد المحلية ، فمن اليسير تطويع الآلهة المحلية وجعلها ملائمة للبانتيون الروماني ، ولم يتعرض لمحنة الاضطهاد من حين الى آخر ، سوى المتعنتين من الموحدين ، أمثال المسيحيين واليهود . على أن الأباطرة المسيحيين لم يبلغوا هذا الحد من التسامح . فالمسيحية تعتبر ديانة مانعة ، لا تقبل ان تعيش معها ديانة اخرى . وأراد الأباطرة المسيحيون ان يفيدوا منها ، باعتبارها قوة موحدة ، في ربط رعاياهم بالحكومة . فعلى الرغم من ان قسطنطين نفسه لم يعرف من أصول الدين إلا قليلاً ، فانه حرص على توحيد الكنيسة التي مزقتها وقتذاك المشكلة

الأريوسية . أما تيودوسيوس الكبير فإنه بعد نصف قرن جعل من برنامجه الامبراطوري ، فكرة التوفيق بين المذاهب الدينية وتوحيدها . على أنـه لم تتحقق بسهولة فكرة التوفيق ، إذ ان الشرق اشتد تعلقه بالمسيحية ، واستخدم اليونانيون في حل مشاكل المسيحية ، ما اشتهروا به من الميل الى الجدل المتزن الرزين ، وأضاف اليه أهل الشرق الهليني ما عرفوا به من شدة العاطفة ، التي لم تلبث ان ولدت التعصب والكراهية . أمـا الموضوع الاساسي الذي دارت حوله خصوماتهم ومنازعاتهم ، فكان طبيعة المسيح ، التي تعتبر أهم وأعقـد المشاكل في أصول الدين المسيحي . وعلى الرغم من ان الجدل كان دينياً خالصاً ، فـان رجل الشارع في تلك الايام ، أولى اهتماماً خاصاً بما يجري من جدل ديني ، لم يضارعه في التسلية في نظره سوى ألعاب السرك . على ان ثمة خصائص اخرى : إذ اراد المصري والسوري للكنيسة الارثوذكسية طقوساً بالغة البساطة ، لا مـا اتسمت به من الأبهة . فما اشتهرت به من الأبهة والترف أشقاه في فقره المتزايد . وأكثر من ذلك أنه اعتبر رجال الكنيسة وقسيسيها عملاء للحكومة في القسطنطينية . أما كبار رجال الدين عندهم (المصريين والسوريين) ، فقد يسّر ما يكنونه من الحقد والغيرة ، لرجال الدين الرومان ، حملهم على كراهيتهم . إذ استبد الغضب ببطركي الكرسيين الرسولين العريقين ، في الاسكندرية وأنطاكية ، حين صار لأخيهما المحدث بطريرك القسطنطينية الصدارة عليهما . فكان حتماً أن تظهر الهرطقة ، ولا بد أن تتخذ صورة حركة قومية انفصالية .

ولم تلبث الاريوسية ان اختفت من الشرق ، باستثناء اثيوبيا ، غير انه طال أمد ما ظهر في القرن الخامس من نحل وهرطقات . ففي اوائل القرن الخامس ، أذاع بطريرك القسطنطينية ، نسطوريوس ، وهو سوري المولد ، مذهباً يؤكد الطبيعة البشرية للمسيح . وكان علماء الدين بمدرسة انطاكية يجنحون الى هذا الاتجاه ، فكثر اتباع نسطوريوس بشمال الشام .

على ان المجمع المسكوني المنعقد في افيسوس سنة ٤٣١ اعلن بطلان هذه العقيدة ، وعندئذ خرجت على نسطوريوس طوائف سورية عديدة . وإذ تعرّض النساطرة للنفي والتشريد ، اتخذوا مراكز لهم في اراضي ملك فارس ، باقليم الجزيرة . ولم يلبثوا أن وجهوا اهتمامهم الاسامي الى أعمال التبشير ، فيما يليهم من بلاد الشرق ، في الهند ، والتركستان ، فضلاً عن الصين . ومع ذلك لا زالت لهم ، في القرنين السادس والسابع ، كنائس بالشام ومصر ، ينتمي اليها بصفة خاصة ، التجار الذين يمارسون التجارة مع الشرق الاقصى .

على ان مسألة المذهب النسطوري ، أدت الى ظهور مذهب آخر ، ازدادت المناقشة والجدل حوله شدة ومرارة . ذلك أن اغتباط علماء الدين بالاسكندرية لما احرزوه من نصر مزدوج على عقائد انطاكية ، وعلى بطريرك القسطنطينية ، حملهم على أن يتجاوزوا حدود الارثوذكسية ، باتخاذ الاتجاه المتطرف (المقابل) . إذ قالوا بمذهب يرمي الى إنكار ما للمسيح من طبيعة بشرية . وهذه النِحلة اتخذت في بعض الاحوال اسم نحلة اوتيخا Eutychianism ، نسبة الى قسيس مغمور اسمه اوتيخا Eutyches وهو أول من قال بها . على ان اكثر ما اشتهرت به عادة هو المونوفيزتية Monophysitism . غير أنه تقرر بطلانها في المجمع المسكوني الرابع الذي انعقد سنة ٤٥١ في خلقيدونية . وإذ استبد الغضب بالمونوفيزتيين ، انشقوا عن كتلة العالم المسيحي ، وتبعهم معظم المسيحيين في مصر ، وعدد من الطوائف المسيحية في الشام ، وسار في فلك المونوفيزتيين ، الكنيسة الأرمنية ، التي لم تشترك وفودها في المناقشات لأنها وصلت متأخرة ، فلم تقبل قرارات المجمع . ولم يكف الاباطرة المتأخرون عن التماس صيغة للتوفيق ، ترتق الصدع ، ويجمع الناس على قبولها في تحديد العقيدة السليمة ، بعد ان يقرها مجمع مسكوني آخر ، غير ان الاباطرة تعرضوا لمناهضة عاملين : الاول ان الهراطقة لا يرغبون

اساساً في العودة الى حظيرتهم إلا بشروطهم التي لا تلقي قبولاً ، أما العامل الثاني ، فهو ما تكنه روما والكنيسة الغربية من بالغ الكراهية لكل توفيق . وإذ ارتكن البابا ليو الأول الى فكرة ، انه لا يحدد العقيدة الدينية ويفسرها ، سوى خليفة القديس بطرس (البابا) ، لا المجمع المسكوني ، ولأنه ضاق ذرعاً بالحيل الجدلية التي لم يفهمها ، اصدر قراراً نهائياً عن الرأي الصحيح في هذه المشكلة . وهذا القرار الذي اشتهر في التاريخ باسم قرار التوفيق Tomus of Pope Leo ، برغم إنكاره لمآزق الجدل ، لقي القبول عند سلطات المجمع في خلقيدونية ، باعتباره اساساً صالحاً للمناقشات ، واندرجت صيغته في سجلاتها . واتسمت صيغة ليو بدقة التعبير والبساطة ، فلم تنطو على حاشية او تعديل . فكل اتفاق يرضي الهراطقة ، سوف يؤدي الى اغفالها ومـا يترتب على ذلك من الشقاق مع روما . وهذا ما لا يقبله بحال من الاحوال امبراطور ، له مصالح وأطماع في ايطاليا والغرب . وإذ وقعت الحكومة الامبراطورية في هـذه الورطة ، لم تصر على اتباع سياسة ثابتة ، فلجأت تارة الى اضطهاد الهراطقة ، واتجهت تارة الى استرضائهم ومهادنتهم ، على حين أنهم ازدادوا قوة في اقاليم الشرق ، يساندهم مـا ينبعث من قومية عند الشرقيين (١) :

وبالإضافة الى المونوفيزتيين والنساطرة ، استقر في الاقاليم الشرقيـة ، طائفة اخرى ، تتمثل في اليهود ، اشتهرت بمقاومتها الدائمـة للحكومة

---

(١) ان خير ما يعالج التاريخ المبكر للكنائس النسطورية والمونوفيزتية ، هو ما ورد في :
Vacant and Mangenot : Dictionnaire de Théologie Catholique
من مقالات عن Nestorius بقلم Amann ، وعن Monophysitism بقلم Jugie ، وما جاء في الفصول التي كتبها Bardy في الجزء الرابع ، والتي كتبها Bréhier في الجزءين الرابع والخامس من كتاب : Histoire de l'Eglise الذي اصدره Fliche and Martin .

الأمبراطورية . إذ ان اعداداً كبيرة من اليهود ، اقاموا بكل المدن الكبيرة بالشرق ، وتجردوا من بعض الحقوق المدنية ؛ فكلما جرت فتنة ، يصح ان يلحق الضرر بهم وبأمتعتهم . وفي مقابل ذلك اغتنموا كل فرصة ، لانزال الأذى بالمسيحيين ، وبفضل ما اشتهروا به من موارد مالية ضخمة ، وما كان لهم من اتصالات واسعة النطاق ، أضحوا خطراً قوياً يهدد الحكومة[1] .

اضطراب الاحوال بالشام :

على ان الموقف ازداد سوء أثنـــاء القرن السادس . اذ ان حروب جستنيان استغرقت زمناً طويلاً ، وكلفت الدولة أموالاً باهظة ، وأثارت ارتباكاً في سياسته الدينيــة ، وترتب عليها ازدياد الضرائب ، ولم يحصل رعاياه في الشرق مقابل ذلـك على امتيازات او حقوق . وكانت سوريا أكثر ما تعرض من البـلاد للخسارة . فبالإضافة الى ما تحملته من عبء مالي ، تعرضت لسلسلة من الغارات العنيفــة التي شنتها الجيوش الفارسية ، فضلاً عن هزات أرضية عديدة بالغـــة الخطورة . ولم يزدهر بسوريا إلا الهراطقة ، فانتظم المونوفيزتيون في قوة عاتية ، على يــد يعقوب البرادعي اسقف الرها ؛ يساندهم ما لقوه من العطف من قبل الامبراطورة تيودورا ، ومنذئذ ، اشتهرت كنيستهم ، بالكنيسة اليعقوبيــة . أما المونوفيزتيون في مصر ، والمعروفون الآن بالقبط ، فشملوا كل السكان الوطنيين على وجـــه التقريب . واذ اطمأن النساطرة في مواضعهم وراء الحد الفارسي ، وبادروا الى مد سلطانهم جهة الشرق ، عززوا مركزهم في داخل حدود الامبراطورية . وفيما عدا مدن فلسطين ، لم يكن الارثوذكس إلا أقليــة من الأقليـات .

---

(١) عن قوانين الامبراطورية لناهضة اليهود ، انظر : Bury : Later Roman Empire (395 - 565) vol . II p. 36 .
Krauss : Studien zur byzantinisch - judischen Geschichten pp. 1 - 36 .

فصاروا يعرفون ، من قبيل الازدراء بالملكانيين ، أي رجال الملك ، ولهذه التسمية ما يبررها ، اذ ان بقاءهم توقف على ما كان للإدارة الامبراطورية من قوة وهيبة [1] .

وفي سنة ٦٠٢ استولى على السلطة فوكاس قائد احدى الكتائب الامبراطورية ، واغتصب العرش الامبراطوري . وطفح عهده بالهمجية وانعدام الكفاية والاضطراب ، فبينا عانت القسطنطينية عهد ارهاب ، ساد بالأقاليم ما نشب من الفتن والحرب الداخلية بين أحزاب الملعب في المدن ، وبين المذاهب الدينية المتنازعة . ففي أنطاكية عقد البطريركان اليعقوبي والنسطوري ، مجمعاً مشتركاً ، للتشاور في اتخاذ اجراء مشترك لمناهضة الارثوذكس . على ان فوكاس أنزل بها العقاب ، بأن أنفذ جيشاً أجهز على أعداد ضخمة من المتهرطقين ، وبذل اليهود عن طيب خاطر مساعدتهم . وبعد سنتين ثار اليهود ، وعذبوا البطريرك الارثوذكسي بالمدينة ، ثم ذبحوه [2] .

الحرب الفارسية :

وفي سنة ٦١٠ ، أزاح فوكاس عن العرش ، نبيل شاب ، ينتمي الى أصل أرمني ، وهو هرقل ، ابن حاكم افريقية . وفي نفس السنة أتم كسرى الثاني

---

(١) انظر : Bréhier : op . cit . vol IV pp. 484 - 493 .
Devresse : Le Patriarchat d'Antioche pp. 77 - 99 .

(٢) انظر : Theophanes , ad . ann . 6101 . p. 296 .
John of Nikiu p. 166 . Sebeos pp.113 - 114 .
Eutychius : Annales , 1084 . (يشير الى الثورات في صور)
Chronicon Paschale. p. 699. (يشير الى ان العساكر المتمردين هم الذين قتلوا البطريرك)
Kulakovsky , « Criticism of evidence in Theophanes » .
مقال باللغة الروسية منشور في Vizantisky Vrmennik vol . XXI pp. 1 - 14 .
وانظر ايضاً للمؤلف السابق (باللغة الروسية) حيث قابل الأدلة وحقق التاريخ :
Id : History of Byzantium pp. 12 - 14 .

ملك الفرس استعداداته الحربيــة ، لغزو الامبراطورية ، وتقطيــع أوصالها .
استمرت الحرب الفارسية تسع عشرة سنة ، على ان الامبراطورية ظلت اثنتي عشرة سنة تتخذ خطة الدفـــاع ، بينما احتـل جيش فارس بلاد الاناضول ، وقام جيش فارسي آخر بفتح الشام . فسقطت في أيديهم ، انطاكية سنة ٦١١ ، ودمشق سنة ٦١٣ . وفي ربيـع سنة ٦١٤ دخل فلسطين القائد الفارسي شهرباراز ، فصار ينهب الاراضي ويحرق الكنائس أينما سار . ولم يفلت من يده إلا كنيسة المهد في بيت لحم ، لما كان يعلو بابها من فسيفساء تمثل رسم صورة الحكماء القادمين من الشرق ، في أزياء فارسية . وفي ١٥ ابريل سنة ٦١٤ ، اقتحم شهرباراز بيت المقدس ، واستعد البطريرك زكريا لتسليم المدينة ، ليتجنب سفك الدماء ، غير ان السكان المسيحيين رفضوا الاستكانة الى التسليم . وفي ٥ مايو سنة ٦١٤ ، وبفضل مساعـدة اليهود المقيمين داخل المدينة ، شق الفرس طريقهم الى داخل المدينة ؛ فتلى ذلك من المناظر المريعة ما يجل عن الوصف . اذ صحب اشتعال النار بالكنائس والدور من حول المسيحيين ، أن تعرضوا للقتل دون تمييز ، فقام العساكر بالإجهاز على بعضهم ، بينما زاد عدد الذين لقوا مصرعهم على ايدي اليهود . وبلغ عدد الذين تعرضوا للقتل نحو ٦٠ الفاً على ما جاء في بعض الروايات ، وزاد على ٣٥ الفاً من جرى استرقاقه وبيعه . أما المقدسات الدينية ، مثل صليب الصلبوت ، وأدوات تعذيب المسيح ، فانها اختفت ، غير انه جرى التنقيب عنها وإخراجهــا ، وتقرر إنفاذها مع البطريرك ، صوب الشرق ، هدية لملكة فارس المسيحية ، مريم النسطورية . ومــا حل من الخراب في داخل المدينة وحولها بلغ من الضخامة ، ان الاراضي المحيطة بها لم تنهض او تنتعش حتى اليوم [١] . وزحف الفرس على مصر بعـــد ثلاث سنوات

---

(١) انظر : Antiochus the Stratege pp. 9 - 15 .
= Sebeos pp. 130 - 131 . Anon . Guidi p. 3 .

(٦١٧ م) ، واضحوا سادتها في خلال سنة واحدة . وفي تلك الأثنــاء تقدمت جيوشهم شمالاً حتى بلغت البوسفور [١] .

على ان سقوط بيت المقدس ، في أيدي الفرس كان صدمة عنيفة للعالم المسيحي ، وما قام به اليهود من دور في ذلك لم يجر مطلقاً نسيانه او اغتفاره ، فاتخذت الحرب مع الفرس صفة الحرب المقدسة . فلمــا صار هرقل آخر الامر ، سنة ٦٢٢ ، قادراً على ان يتخذ خطة الهجوم على العدو ، نذر نفسه وجيشه لله ؛ ومضى على انه محارب مسيحي يقاتل قوى الظلمة (الشر) . فتصورته الأجيال التالية على انه أول محارب صليبي . وحينما ألف وليم الصوري بعد خمسة قرون ، تاريخه عن الحروب الصليبية ، ضمنه قصة الحرب الفارسية ، واشتهر كتابه في ترجمته الى الفرنسية القديمة باسم كتاب هرقل Livre d'Eracles [٢] .

ونجحت الحرب الصليبية . واستطاع هرقل آخر الأمر ، برغم مــا جرى من تقلبات عديدة في الاحداث ، وما اشتد من القلق واليأس في أوقات عديدة ، ان ينزل الهزيمة الساحقة بالفرس عند نينوي ، في ديسمبر

= Chronicon Paschale pp. 704 - 705.
Theophanes ad . ann . 6106 . pp. 300 - 301 .
أما أمر الفسيفساء في بيت لحم فوردت الاشارة اليه في رسالة موجهــة من البطاركة الشرقيين الى تيوفيلس Theophilus انظر :
Patrologia Graeco - Latina vol XCV cols . 380 - 1 .
(١) انظر : William of Tyre I . 1 - 2 . vol . I . pt . I pp. 9 - 13 .
وعنوان ترجمة النسخة المكتوبة باللغة الفرنسية القديمة هو :
l'Estoire de Eracles Empereur et la Conquête de la Terre d'Outremer.
(٢) عن تاريخ الحرب الفارسية ، انظر :
Kulkovsky : History of Byzantium vol . III . pp. 33 - 49 .
Ostrogorowsky , Geschichte des byzantinischen Staates pp. 51 - 66 .
Bréhier : op . cit. pp. 79 - 101 .
Pernice , L'Imperatore Eraclio pp. 58 - 179 , passim .

سنة ٦٢٧ . على ان الملك كسرى لقي مصرعه في اوائل سنة ٦٢٨ ، وسعى خليفته لعقد الصلح . ومع ذلك فان السلام لم يستقر ، ولم تسترد الامبراطورية أقاليمها التي استولى عليها الفرس ، إلا سنة ٦٢٩ . واحتفل هرقل في اغسطس سنة ٦٢٩ بانتصاره في القسطنطينية . وفي الربيع التالي ارتحل صوب الجنوب مرة اخرى ، لتسلم الصليب المقدس ، الذي حمله في احتفال مهيب الى بيت المقدس .

كان منظراً مثيراً ، ومع ذلك لم يلق المسيحيون بالشرق معاملة سيئة في ظل الحكم الفارسي . ولم يلبث كسرى ان امتنع عن العطف على اليهود بل انه طردهم من بيت المقدس . وعلى الرغم من ان بلاطه كان يمالىء النساطرة فانه من الناحية الرسمية ، كان يحسن الى المونوفيزتيين والارثوذكس على السواء . فعادت اليهم كنائسهم وجرت عمارتها من جديد . وانعقد تحت رعايته مجلس في حاضرته كتسيفون ، للتشاور في توحيد المذاهب الدينية . أما عودة الادارة الامبراطورية ، فأضحت في صالح الارثوذكس وحدهم ، بعد ان خمدت جذوة الحماس الاولى . اذ ورث هرقل خزانة خالية من المال ، ولم يستطعَ الإنفاق على حروبه إلا بما حصل عليه من الكنيسة من قرض كبير . وما حازه من فارس من غنائم لم تكن كافية لتسديد هذا القرض . وكان لا بد للسوريين والمصريين من ان يؤدوا مرة اخرى ضرائب باهظة ، وأن يروا اموالهم تنساب الى خزائن الحكومة الارثوذكسية (١) .

على ان هرقل لم يستطع معالجة الامور ، بسبب ما سار عليه من سياسة دينية . ففي اول الامر اتخذ بعض الاجراءات ضد اليهود ، فعلى

(١) ورد وصف مجمع اكتسيفون في Sebeos, pp. 189 - 192 ، وفي Anon. Guidi p.20 على ان المرجع الاخير بالغ في تقدير دور النساطرة ونجاحهم .

الرغم من أنه لم يكنّ لهم الكراهية والعداء ، فانه وقف على التفاصيل الكاملة لمـــا قاموا به من دور اثناء غزوات الفرس ، وذلك حينما نزل ضيفاً على رجل يهودي كريم في طبرية ، في طريقـــه الى بيت المقدس . وإذ تأثر ايضاً ، فيما يبدو بنبوءة غامضة عن ان عنصراً يتخذ عادة الختان سوف يدمر الامبراطورية ، فأصدر امراً بفرض التنصير على جميع اليهود بالامبراطورية ، وكتب الى ملوك الغرب يحثهم على ان يحذوا حذوه .

كان من المستحيل تنفيذ الامر ، غير انه هيـأ للمسيحيين المتحمسين فرصة رائعة لاجراء مذبحة في هـذا العنصر البغيض . ولم تكن النتيجة النهائية الوحيدة لذلك ، سوى ازدياد كراهية اليهود للحكم الامبراطوري[1]. ثم انغمس الامبراطور في أغوار اصول الدين المسيحي برغم خطورتها . ذلك ان سرجيوس ، بطريرك القسطنطينية ، وهو مونوفيزتي ، سوري المنبت ، أخذ يكشف رويداً رويداً عن مذهب ، ظن انـــه يوفق بين المونوفيزتيين والارثوذكس . وأقر هرقل هذا المذهب ؛ وهـــذا المذهب الجديد المعروف باسم Monoenergism (الارادة الواحدة) ، تقرر اذاعته في سائر انحاء الامبراطورية اثر انتهاء الحروب الفارسية . وعلى الرغم من مساندة الامبراطور والبطريرك لهـذا المذهب ، وإقرار هونوريوس ، بابا رومـا ، له في شيء من التحفظ والاحتراز ، لم يجمع الناس على قبوله ، إذ بادر الى رفضه رجال الدين المونوفيزتيون . ولم يرض به ايضاً معظم رجال الدين الارثوذكس بزعامة الزاهـد المشهور ، مكسيموس المعترف ،

---

(١) انظر التفاصيل والمراجع عن هذا الموضوع في :

Bréhier : op . cit . pp. 108 - 111, Theophanes ad . ann . 6120 pp , 328 - 329 . Eutychius , col . 1089 .

أما المرسوم الصادر بتنصير اليهود فأورده :

Dôlger : Regesten no . 206 . vol . I . p. 24 .

انظر ايضاً : Doctrina Jacobi , cd . Bonwetsch , p. 88 .

بالقسطنطينية ، وصفرونيوس في الشرق . على أن هرقل ، الذي غلب عليه من الحماس ما يزيد على الفطنة واللباقة ، حاول جاهداً فرض هذه العقيدة على كل رعاياه ، غير ان هذه العقيدة لم تظفر بأنصار ، إلا بين رجـال بلاطه ، وبعض الارمن واللبنانيين المعروفين فيما بعد بالمارونيين ، وعدّل هرقل فيما بعد في هذه العقيـدة ، فما اصدره سنة ٦٣٨ من تقرير الايمان المعروف باسم Ecthesis لم يكن ايضاً مثمراً في الدفـاع عن مذهب المشيئة الواحدة Monotheletism . وهذا الحادث بأسره الذي لم يتضح إلا بعد المجمع المسكوني السادس المنعقد في سنة ٦٨٠ ، زاد فيما كان يعمل على تدمير المسيحيين في الشرق ، من العداء والكراهية والفوضى [١] .

بلاد العرب قبل ظهور الاسلام :

وبينما كان هرقل في القسطنطينية ، سنة ٦٢٩ ، يستقبل السفارات القادمة من الجهات النائية ، من فرنسا والهند ، قالت الرواية انـه وصل اليه وقتذاك كتاب وجهـه اليه زعيم عربي ، أعلن انه رسول الله ، وأمر الامبراطور بأن يعتنق دينه . وجرى إنفاذ كتب من هذا القبيل الى ملك فارس ، ونجاشي الحبشة ، ووالي مصر . والراجح أن القصة موطن شك وارتياب . فلم يكن عنـد هرقل ، حتى ذلك الحين ، فيما يبدو ، فكرة عن الاحداث الكبيرة التي انشبت الثورة في شبه الجزيرة العربية . ففي مستهل القرن السابع الميلادي ، عاش في بلاد العرب ، عـدد من القبائل المستقلة الثائرة ، ومن هذه القبائل ما يعتبر بدواً ، ومنها ما احترف الزراعة ، وعاشت فئـة قليلة في المدن التجارية التي قامت على امتداد طرق القوافل . كانت هذه القبائل تعبد الاصنام ، فلكل منطقة اصنامها الخاصة ، غير أن اشد الجهات قداسة ، كانت الكعبة بمكة ، التي

(١) انظر Bréhier : op . cit . III - 124 , 166 - 200 .

تعتبر اهم المدن التجارية . على أن عبـــادة الاصنام اخذت وقتذاك في التداعي ، إذ أن المبشرين من اليهود والمسيحيين والزرادشتيين ، نشطوا منذ زمن طويل في نشر دعوتهم بهذه البلاد . فكان لليهود مستعمراتهم في مدن عربية عديدة ، ولا سيا في المدينة ، واستطاعوا ان يجعلوا جماعة من العرب تعتنق اليهودية . امـا المسيحيون فحققوا أهم النتائج وأكثرها انتشاراً . فكان للمسيحية الارثوذكسية انصارهـــا في سيناء والبتراء . والنساطرة كالزرادشتيين ، في أن مواضعهم قامت حيث توافرت الحمـــاية الفارسية . على انه كان للمونوفيزتيين مستعمراتهم وجالياتهم عـلى امتداد طريق القوافل الكبير حتى اليمن وحضرموت ، بينما كانت القبائل العديدة الهامة النازلة على حافة الصحراء ، مثل بني غسان ، وبني تغلب ، من المونوفيزتيين ايضاً . وإذ درج التجار العرب على الارتحـــال إلى مدن الشام وفلسطين والعراق ، توافر لهم من الوقت مـــا يحملهم على دراسة سائر ديانات العالم ، بينما كان ببلاد العرب ، مذهب سابق لمذهب التوحيد وهو المعروف بالحنيفية . واشتدت الحاجة في بلاد العرب ايضـاً الى التوسع . فالموارد الضئيلة بشبه الجزيرة ، ازدادت قلة منـذ تدمير ما أنشأته حمير من نظم للري ، ولم تكن كافية لعـــدد السكان المتزايد ، والمعروف من سجلات التاريخ أن سكان الصحراء ، كانوا ينسابون الى ما يحيط بهم من الاراضي الزراعية ، على ان الضغط اشتد وقتذاك وازداد قوة (١) .

وما اشتهر به محمد من عبقرية فذة رائعة ، كانت شديدة الملائمة لهذه الاحوال ، إذ كان ينتمي الى المدينة المقدسة ، مكة ، وهو من فقراء عشيرة كبيرة بمكة ، وهي قريش . ارتحل كثيراً ، وشهد العالم ، ودرس دياناته .

---

(١) انظر : Browne : op. cit. ch . I
Lammens : l'Arabie occidentale avant l' Hegrie , passim .

واسترعى اهتمامه بصفة خاصة المسيحية المونوفيزتية ، غير ان عقيدة التثليث ، تراءى له انها لا تتفق مع فكرة التوحيد الخالصة التي اجتذبته اليها الديانة الحنيفية . أما العقيدة التي دعا اليها ، فعلى الرغم من انها لم تنكر المسيحية مطلقاً ، فهي ليست إلا صورة معدلة ومبسطة ، اكثر قبولاً عند قومه . على ان نجاحه ، باعتباره زعيماً دينياً ، يرجع اساساً الى ادراكه التام ودرايته بالعرب . ومع انه لم يكن اقدر العرب وأكثرهم كفاية ، فإنه كان من اصدقهم في مشاركتهم احساساتهم وحزبياتهم ، يضاف الى ذلك ما ادخره من مهارة سياسية نادرة . فهذه الصفات مجتمعة ، هيأت له في عشر سنوات أن يقيم من العدم امبراطورية ، تجهزت لقهر العالم . ففي سنة ٦٢٢ ، وهي السنة التي هاجر فيها النبي ، لم يتجاوز اتباعه ، اهل داره وطائفة قليلة العدد من اصدقائه . وحينما توفي سنة ٦٣٢ ، صار سيداً على بلاد العرب ، وأخذت جيوشه تعبر الحدود . على ان ظهور المغامرين الفجائي لم يكن من الامور غير المألوفة في الشرق ، بل ان تداعيهم يحدث فجأة ايضاً . غير ان محمداً خلّف نظاماً متيناً ، كفل له القرآن البقاء والدوام . وهذا الكتاب المجيد (القرآن) ، الذي جمع الاحكام وقراراته ، لم يشمل المثل العليا والنوادر الرائعة فحسب ، بل حوى ايضاً القواعد التي تسيّر سلوك الحياة ، والاصول التي تسير عليها حكومة امبراطورية ، ومجموعة كاملة من القوانين ؛ وكان القرآن من السلاسة والسهولة مما حمل العرب المعاصرين على تقبله في سهولة ويسر ، وبلغ من الشمول ما جعله يلائم حاجات البلاد الشاسعة ، التي كان لا بد لخلفائه ان يقيموها . والواقع ان ما للاسلام من قوة انما يرجع الى بساطته . فلا إله إلا الله في السموات ، ولا يحكم على الارض إلا امير المؤمنين ، والذي لا يحكم إلا بمقتضى قانون واحد ، هو القرآن . ويختلف الإسلام

عن المسيحية التي دعت الى السلام ، الذي لم يتحقق ، في انـه لم ينتشر إلا بحد السيف دون وجل او خجل [١] .

الغزوة العربية الاولى :

وأصاب السيف اقاليم الامبراطورية ، أثناء حياة النبي ، بما انطلق الى فلسطين من بعض الغارات التي لم تحرز نجاحاً كبيراً . على أن سياسة التوسع اضحت جلية زمن ابي بكر خليفة محمد . فاكتمل فتح بلاد العرب ، بطرد الفرس من ولايتهم بالبحرين ، بينما اجتاز جيش عربي البتراء متخذاً الطريق التجاري الى ساحل فلسطين الجنوبي ، فأنزل الهزيمة بحاكم المنطقـة مرجيوس ، في مكـان يقع بالقرب من البحر الميت ، وزحف الى غزة فاستولى عليها بعد حصار لم يستمر طويلاً . ولقي سكان المدينـة معاملة طيبة ، غير ان عساكر الحامية اضحوا اول شهـداء مسيحيين لسيف الاسلام [٢] .

فتح العرب للشام :

وولي الخلافة بعد وفاة ابي بكر سنة ٦٣٤ ، عمر بن الخطاب الذي اتصف ايضاً بما اشتهر به ابو بكر من العزم والاصرار على مد سلطان الاسلام . وفي تلك الأثنـاء أدرك الامبراطور هرقل ، الذي لا زال وقتذاك بشمال

---

(١) انظر: Caetani, Annali dell' Islam vol I. En. Is. Art. Islam by Buhl:
عن تأثير المونوفيزقية عند محمد انظر : Grégoire « Mahomet et le Monophysisme » in Mélanges Charles Diehl , vol . I pp. 107 - 119 .

(٢) انظر : Theophanes ad . ann . 6123 - 4 pp. 333 - 6 .
« Thomas the Priest » in Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium Scriptores Syr. vol IV p. 114 . Michael the Syrian , vol . II p. 413 .
عن وقعة غزة انظر : Passio LX Martyrum et Legenda Sancti Floriani ed . by Delehaye , in Analecta Bollandiana vol . XXIII pp. 289 - 307 .

الشام ، أنه لا بد من اتخاذ الحزم في معالجة غارات العرب ، على أن الخسائر التي تكبدها هرقل أثناء الحرب الفارسية كانت فادحة . فمنذ أن انتهت الحرب الفارسية ، امر هرقل بتسريح كتائب عديدة من الجيش البيزنطي ، على سبيل الاقتصاد والتوفير ، ولم يجر الحماس للانخراط في سلك الجيش . وخيم على الامبراطورية من جو التراخي والتشاؤم ، ما يصيب عادة بعد حرب طويلة مريرة ، كلاً من الغالبين والمغلوبين على امرهم . ومع ذلـك أنفذ هرقل اخاه تيودور على رأس جيوش إقليم الشام ، لاعادة الامن الى فلسطين . والتقى تيودور بالجيشين العربيين الرئيسيين معاً في جالوت او اجنادين ، جنوبي غربي بيت المقدس ، فتعرض لهزيمة ساحقة . واذ اطمأن العرب في جنوب فلسطين ، واصلوا الزحف على الطريق التجـاري الذي يسير شرقي نهر الاردن الى دمشق ووادي نهر الاورنت . فسقطت في ايديهم دون قتال طبرية ، وبعلبك ، وحمص ، وأذعنت دمشق في اغسطس سنة ٦٣٥ بعد حصار قصير الامد . فاشتد قلق هرقل ، ولم ينفذ جيشاه صوب الجنوب إلا بمشقة وعناء . وتألف احد الجيشين من عساكر ارمنية بقيادة الامير الارمني باهان Vahan ، ومن عدد كبير من العرب المسيحيين يرأسهم شيخ من بني غسان . أما الجيش الآخر فتولى قيادتـــه تيودور تريتيريوس Trithyrius ، وتألف من أخلاط من الجنود . ولما سمع المسلمون بأنباء اقتراب هذين الجيشين ، بادروا بالجـــلاء عن وادي نهر الاورنت ودمشق ، وتراجعوا نحو الاردن . والتقى بهم تريتيريوس عنـد الجابية في حوران ، غير انه حلت به الهزيمة . ومع ذلك استطاع ان يتخذ له موضعاً على نهر اليرموك ، في الجنوب الشرقي لبحر الجليل ، حتى يلحق به جيش باهان . وفي هذا الموضع دارت المعركة الحاسمة في ٢٠ اوغسطس ، في يوم حجبت فيه الرؤيا العواصف الرمليـة . وتفوق المسيحيون في كثرة عدد الجيش ، غير ان العرب فاقوهم في المناورات الحربية ، وفي قمـة المعركة انحاز الى المسلمين امير غسان ، مع العرب المسيحيين الذين يبلغ عددهم اثني

عشر الف رجل . كانوا يدينون بالمذهب المونوفيزتي، ويكرهون هرقل، ولم ينالوا مرتباتهم شهوراً عديــدة . وكان من اليسير ان يجري من قبل تدبير المؤامرة ، فحسمت المعركة بذلك أمر النزاع ؛ وأحرز المسلمون نصراً تاماً ، وهلك تريتيريوس وباهان بكل من معهما من الرجال تقريباً ؛ فأصبحت فلسطين والشام مفتوحة امام الغزاة (١) .

كان هرقل في انطاكية حينما بلغته أنباء المعركة ، فاستبد به اليأس ، لقد امتدت اليه يد الله ، لتنزل به العقاب لما أقدم عليه من زواج باطل من ابنة اخته مارتينا . ولم يتوافر له الرجال والمـال ، للمضي في الدفاع عن الاقليم . وبعــد ان ادى قداس الرحمة في كاتدرائية أنطاكية ، هرع الى البحر ، واستقل السفينة الى القسطنطينية ، وحينما غادر الشاطىء صاح في مرارة : الوداع ، الوداع الى الابد يا سوريا (٢) .

وبادر العرب الى الانثيال في الاقليم ، فلم يتردد المسيحيون الملاحدة في

---

(١) عن أجنادين انظر : Theophanes ad . ann . 6125 pp. 336 - 337 .
أشار تيوفانس الى المعركة على انها جرت في (الجابيه): Gabitha ، Sebeos p. 165. واختلط الامر على سيبيوس فجعلها (العربة) Rabboth - Moab . أما معركة اليرموك ، فأشار اليها :
Nicephorus pp. 23 - 24 ; Theophanes ad . ann - 6126 pp. 337 - 8 .
Michael the Syrian vol II . pp. 420 - 4 .
Sebeos . pp. 166 - 7 .
Eutychius , col , 1097 .
وردت روايات المصادر العربية موجزة في : Pernice , op cit pp. 279 - 281 .
وعن مكان المعركة انظر : Ibid p. 321 .
(٢) عن رواية وداع الشام انظر: Michael the Syrian vol . II . p . 424
وقد اتهم هرقل انه قبل ان يغادر الشام ، نهب ما زخرت به مدنها من الثروات . وما غلب عليه مـــن روح الهزيمـــة ، ورد في Agapius , Kitab al - Unvan p . 471 ، وورد في Nicephorus p. 23 ان تيودور اعتبر ما وقع من الكوارث ، انما يرجع الى زواج هرقل الباطل .

الخضوع لهم ، وبذل اليهود لهم خدمة جليلة ، بأن عملوا أدلاء لهم . ولم يلقوا مقاومة منظمة إلا في المدينتين الكبيرتين بفلسطين ، قيسارية وبيت المقدس ، ومن حصني بيلا Pella ودارا على تخوم فارس . ففي بيت المقدس حينما علم صفرونيوس بأنباء اليرموك ، أصلح استحكامات المدينة . ولما احس بأن المسلمين وصلوا الى اريحا ، جمع ما يتعلق بالمسيح من مقدسات دينية ، وأرسلها ليلاً الى الساحل ، فاتخذت طريقها الى القسطنطينية ، حتى لا تقع من جديد في ايدي المسلمين . وصمدت بيت المقدس للحصار ما يزيد على سنة ، واستمرت قيسارية ودارا على مقاومتها حتى سنة ٦٣٩ ، غير انهما لم يكونا وقتذاك سوى معقلين معزولين . على ان انطاكية حاضرة الشرق ، سقطت في السنة السابقة ، فصار كل الاقليم الممتد من برزخ السويس الى جبال الاناضول في قبضة المسلمين (١) .

وفي تلك الاثناء أزال العرب ايضاً دولة فارس ، التي نافست روما قديماً . فما احرزوه سنة ٦٣٧ من انتصار في معركة القادسية ، أكسبهم العراق ، وبفضل النصر الذي نالوه في السنة التالية في معركة نهاوند ، صارت لهم هضبة ايران . على ان يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين ، ظل في خراسان حتى سنة ٦٥١ . على حين ان العرب بلغوا وقتذاك الاطراف الشرقية لبلاده ، عند نهر جيحون وتلال الافغان (٢) .

---

(١) انظر : Caetani : op cit. vol. III. pp. 1119 ff .
De Goeje : Mémoire sur la Conquête de la Syrie , passim .
بيلا = خربة فحيل — Pernice : op . cit . pp . 267 - 289 .
Kulakovsky : op . cit . vol . III . pp. 152 - 156 .
عن دور اليهود انظر : Sebeos pp . 143 - 144 .
Doctrina Jacobi pp . 86 - 88 .

(٢) انظر : Caetani : op . cit . vol . III . pp . 629 ff .
Christensen :L'Iran sous les Sassanides pp . 494 - 503 .

فتح مصر :

وفي ديسمبر سنة ٦٣٩ غزا عمرو بن العاص مصر ، بجيش مؤلف من اربعة آلاف مقاتل . والمعروف أن ادارة الاقليم استبدت بها الفوضى منذ نهاية الاحتلال الفارسي ، وكان والي مصر وقتذاك ، كيرس ، بطريرك الاسكندرية معروفاً بالحماقة والفساد ، ارتد عن النسطورية ، وصار اكبر سند للامبراطور في عقائده المونوثليتية ، التي عزم على ان يفرضها على الاقباط كرهاً . وبلغ من اشتداد كراهية الناس لحكم هرقل ، أن عمراً لم يلق صعوبة في التماس حلفاء من بين رعاياه . وفي اوائل سنة ٦٤٠ استولى عمرو بن العاص على حصن الفرما الضخم الواقع على الحدود ، بعد حصار استمر شهرين . وفي هذا الموضع تلقى الامدادات من الخليفة عمر بن الخطاب؛ ثم زحف على حصن بابليون (مصر القديمة) ، حيث رابطت به الحامية الامبراطورية . على أن معركة هليوبوليس التي دارت في اغسطس سنة ٦٤٠ ارغمت الرومان على الانسحاب الى قلعة بابليون ، التي استمرت في المقاومة حتى ابريل سنة ٦٤١ . وفي تلك الاثناء استولى العرب على اقليم الصعيد . وحينما سقط حصن بابليون ، سار عمرو الى الفيوم ، ومنها توجه ، بعد ان هرب امامه حاكم الاقليم وحاميته ، الى الاسكندرية . اما كيرس فجرى استدعاؤه الى القسطنطينية لما تحقق من خيانته في انه دخل مع عمرو بن العاص في مفاوضات لعقد اتفاق ، غير ان هرقل مات في فبراير ، وبلغ العجز بأرملته الامبراطورة الوصية في القسطنطينية ، ما يمنعها من الدفاع عن مصر . تقرر إعادة كيرس الى مصر ، ليبذل كل ما في وسعه للوصول الى اتفاق . فقدم الى عمرو في نوفمبر في بابليون ، ووقع على تسليم الاسكندرية . غير أنه حدث في تلك الاثناء ، أن هوت مارتينا ، وأنكرت الحكومة الجديدة أمر كيرس ومعاهدته . أما عمرو فانه نقض ما يخصه من هذه المعاهدة ، بأن أغار على الروم (البيزنطيين) . على انه تراءى وقتذاك انه من المستحيل أن يحتفظ العرب بالاسكندرية بعد أن

صار في ايدي العرب بقية مصر. فاستسلمت الاسكندرية في نوفمبر سنة ٦٤٢ . ولم تضع آمال البيزنطيين . ففي ٦٤٤ ، ترددت الأنبــاء بالغضب على عمرو واستدعائه الى المدينة . وجرى إنفاذ جيش من القسطنطينية بطريق البحر ، فاحتل الاسكندرية من جديد في سهولة ويسر ، وذلك اوائل سنة ٦٤٥ ، ثم واصل السير الى الفسطاط ، العاصمة التي أقامها عمرو بالقرب من بابليون . عاد عمرو الى مصر ، وأنزل هزيمــة ساحقة بالقوات الامبراطورية بالقرب من الفسطاط . فارتـــد الى الاسكندرية قائدهم الارمني مانوبل . واذ راعه ما صادفه عند السكان المسيحيين من عدم الاكتراث بهذه المحاولة لاعادة البلاد الى المسيحية ، لم يحفل بالدفاع عن المدينــة ، بل رجع الى القسطنطينية بحراً .

أما الاسكندرية فأعادها الى يدي عمرو ، بنيامين بطريرك الأقباط [١] . وضاعت مصر من أيدي الرومان للأبد . وفي سنة ٧٠٠ م ، صارت افريقيــة الرومانية في أيدي العرب . وبعد ١١ سنة استولى العرب على اسبانيا . وفي سنة ٧١٧ امتدت الامبراطورية العربية من جبــال البرانس الى جوف الهند ، وأخذ المحاربون العرب يدكون اسوار القسطنطينية .

---

(١) انظر : Bréhier : op. cit. pp. 134 - 138. 152 - 5.
Amelineau : «La Conquête de l'Egypte par les Arabes» in Revue Historique vol. CXIX pp. 275 - 301.
Butler : The Arab Conquest of Egypt.

الفصل الثاني

المسيحيون والمسلمون

قبل المسيحيون في الشرق عن طيب خاطر سيطرة سادتهم المسلمين . ولم يكن في وسعهم ان يفعلوا غير ذلك . فلم يكن ثمة إلا احتمال ضئيل في ان تنهض بيزنطة من جديد ، مثلما حدث زمن الحرب الفارسية ، لإنقاذ الأماكن المقدسة . على ان العرب الذين زادوا عن الفرس فطنة ، لم يلبثوا ان أنشأوا اسطولاً اتخذ قاعدته بالاسكندرية وانتزع من البيزنطيين اثمن ما يدخرونه من رصيد ، وهو السيطرة البحرية . وظل العرب ما يقرب من ثلاثة قرون محتفظين بخطة الهجوم براً . وتراءى انه لا امل للبيزنطيين في ان يلتمسوا من امراء العالم المسيحي النهوض لانقاذهم .

ولم تكن هذه النجدة لتلقى الترحيب من المذاهب المتهرطقة . اذ ان تغيير الحكام جلب اليهم الراحة والسرور. فالبطريرك اليعقوبي بانطاكية، ميخائيل السرياني الذي ألف كتابه بعد خمسة قرون زمن الممالك اللاتينية ، انما يعكس ما كان لقومه من أثر سابق ، حينما روى : « أن الله المنتقم ، الواحد القهار، أثار من الجنوب أبناء اسماعيل لانقاذنا من أيدي الرومان » .

وأضاف : « أن هـذا الخلاص لم يكن ميزة هينة لنا [١] » . وردد النساطرة هذه العواطف . اذ روى المؤرخ النسطوري المجهول بأن « قلوب المسيحيين انشرحت لسيادة العرب،فليزد الله في قوة هذه السيادة، وليجعلها زاهرة[٢]». أما اقباط مصر فانهم أثاروا بعض النقد ، وما كان عندهم من عداوة اكثر ما وجهوها الى للغـازي المشهور بالقسوة ، وهو عمرو بن العاص ، والى ما عرف به من الخيانة والابتزازات المالية ، لا الى قومه وديانته[٣] . بل إن المسيحيين الارثوذكس ، حينما تبين لهم انهم افلتوا من الاضطهـاد الذي كانوا يخشونه ، وأن ما يؤدونه من الضرائب ، على الرغم من الجزية المطلوبة من المسيحيين ، يقل كثيراً عما كان معروفاً زمن البيزنطيين ، لم يحفلوا إلا قليلاً بأمر مصيرهم. ولم يمض في القتال إلا بعض القبائل النازلة بالجبـال مثل الجراجمة بلبنان وطوروس . على ان ما أنشبوه من القتـال إنمـا يرجع الى ما اتصفوا به من الخروج على القانون ، وإلى ما اشتهروا به من الاعتزاز بالكرامة، لا من أجل الدين [٤] .

أهل الذمة :

وترتب على الفتح العربي ، انـه كان لا بد لكنائس الشرق ان تجمد في المواقع التي قامت بهـا حتى وقتذاك . وما حاولته الامبراطورية المسيحية من فرض وحدتها الدينية على سائر المواطنين بهـا ، وهو مبدأ لم يتحقق مطلقاً ،

---

(١) انظر (النص السرياني ص ٤١٢) :
Michael the Syrian. vol. II. pp. 412 - 413.
(٢) انظر : Chronicle of Seert pt. II, XCIV in Patrologia Orientalis vol. XIII. p. 582.
(٣) John of Nikiu pp. 195, 200 - 201.
(٤) ما اشتهر به الجراجمة من الخروج على القانون زمن الخليفة معاوية ، ورد في :
Theophanes ad. ann. 6169 p. 355.
Sathas : Bibliotheca Graeca Medii Aevi vol. II. pp. 45.

لأن اليهود لم يعتنقوا المسيحية ، ولم يجر طردهم ، وخالفـــه العرب ، الذين اظهروا الاستعداد ، مثلما فعل الفرس من قبلهم ، لأن يرضوا الأقليـــات الدينية،بشرط أن يكونوا من اهل الكتاب.فأضحى المسيحيون والزرادشتيون واليهود من الذميين، اي الذين تقررت حمايتهم، والذين كفل لهم حريةالعبادة، تأدية الجزية التي كانت اول الامر عبـارة عن جزية الرأس ، غير انها لم تلبث ان تحولت الى ضريبة تؤدى مقابل الخدمة العسكرية ، وأضيف اليها ضريبة جديدة على الارض ، وهي ضريبـة الخراج . وأضحى كل مذهب يعامل على انه جالية شبه مستقلة في داخل الدولة ، تخضع لزعيم ديني يعتبر مسؤولاً عن سلوكها الطيب نحو حكومة الخليفة . ولا بـد لكل منها ان تحافظ على ما كانت تملكه من اماكن العبادة زمن الفتح ، وهـذا الاجراء أكثر ما يلائم الارثوذكس لا المسيحيين المخالفين لهم ، نظراً لأن هرقل أجرى حديثاً عمارة كنائس عديـــدة ، فأضحت صالحة للاستعمال . على ان النص الأخير لم يجر الالتزام به. اذ استولى المسلمون على بعض الكنائس المسيحية ، مثل كاتدرائية القديس يوحنا الكبيرة بدمشق ، ودمروا من حين لآخر كثيراً من الكنائس؛ على حين أنه استمر بناء عدد كبير من الكنائس ومعابد اليهود . والواقع ان الفقهاء المسلمين المتأخرين ، أجازوا للذميين ، إقامة المبـاني طالما لم ترتفع عن مباني المسلمين ، ولم يصل الى آذان المسلمين صوت نواقيسهم وصلواتهم . غير انه لم يجر التّهاون في قاعدة التزام الذميين بارتداء ازياء مميزة ، وفي ألا يركبوا افراساً ؛ ولا ينبغي ان يجرأوا على إلحاق الأذى بأعمال المسلمين ، او يحاولوا ان يفتنوا مسلماً عن دينـه ، او يتزوجوا من نساء مسلمات ، او يتحدثوا في استخفاف عن الاسلام ، وينبغي ان يبقوا مخلصين للدولة (١) .

(١) انظر : En. Is. Art. « Djizya » by Becker, and « Kharadj » by Juynboll. Brown : op. cit. ch. V. Tritton : The Caliphs and their non-muslim Subjects ch. XV. Vincent and Abel : op. cit. vol. II. pp. 935 - 944.

المسيحيون الارثوذكس في ظل الحكم الاسلامي :

على ان نظام الجوالي أقرّ فكرة مخالفة من بعض الوجوه لما كان مفهوماً من القومية، اذ ان القومية في الشرق لم تقم لقرون عديدة على اساس العنصر، إلا فيما يتعلق بحالة اليهود ، الذين افضت عزلتهم الدينيــة الى ان يحتفظوا بدمائهم خالصة نسبياً ، بل قامت على التراث الحضاري ، والوضع الجغرافي ، والمصلحة الاقتصادية ، مثال ذلك ألا يعتبر المصري نفسه من مواطني مصر ، انما يعتبر مسلماً او قبطياً او ارثوذكسياً ، وفقاً لحالته ووضعه . فتحكم في ولائه ، ديانته او جاليته . فهيأ هذا للارذثوذكس ميزة لم تظفر بها المذاهب المتهرطقة. فقد ظلوا يعرفون بالملكانيين، اي رجال الامبراطور. فاعتبروا انفسهم رجال الامبراطور . على ان الحاجة القاسية قد جعلتهم يخضعون لسلطان المسلمين ، فكان لا بد لهم من ان يطيعوا قوانينهم . على ان الامبراطور كان نائباً عن الله على سطح الارض ، وسيدهم الفعلي . فالقديس يوحنا الدمشقي ، الذي كان موظفاً ببلاط الخليفة الاموي ، كان دائمــاً يخاطب الامبراطور البيزنطي ، على الرغم من اختلافه الشديد معه فيما يتعلق باصول الدين ، على انه مولاه وسيده ، ولم يشر الى الخليفــة الذي يعمل عنده إلا على انه امير . واستخدم عبارات مشابهة ، البطاركة في الشرق ، عنــد كتابتهم في القرن التاسع الى الامبراطور تيوفيلوس ، يعلنون احتجاجهم على سياسته الدينية . وقبل الاباطرة تحمل المسؤولية ، ولم يغب عن خاطرهم سعادة من يقطن وراء حدودهم من الارثوذكس ، وذلك في كل حروبهم وعلاقاتهم الدبلوماسية مع الخلفاء . لم يكن ذلك من قبيل الادارة ؛ فلم يكن في وسعهم ان يتدخلوا في الادارة الجارية بالبــلاد الاسلامية ، وليس لبطريرك القسطنطينية شيء من الولاية على زملائه بالشرق . لم يكن ذلــك إلا تعبيراً عاطفياً قوياً ، عن

استمرار فكرة ان العالم المسيحي لا زال وحدة لا تتجزأ ، وان الامبراطور يعتبر رمزاً لوحدته [١] .

لم يكن الكنائس المنشقة هذا الحامي الدنيوي . اذ جعلت كل اعتمادها على ما الخليفة من نية طيبة ، ووفقاً لذلك تعرض نفوذها وهيبتها للشدة والفناء. يضاف الى ذلك أن نحلها ترجع في اصولها الى حد كبير الى رغبة الشرقيين في تبسيط المذاهب والشعائر المسيحية . أما الاسلام الذي بلغ من شدة اقترابه من المسيحية أن اعتبره الكثيرون منهم انه ليس إلا صورة راقيـــة من المسيحية، وانه أضحى له ميزة اجتماعية ضخمة باعتباره عقيدة الطبقة الجديدة الحاكمة، فانه صار مقبولاً عند عدد كبير من المسيحيين.الواقع انه لم يتوافر من الأدلة ما يوقفنا على عدد من اعتنق الاسلام من المسيحيين، غير انه من المحقق ان معظم الذين اعتنقوا الاسلام لم يكونوا من الارثوذكس ، بل من المتهرطقين . ففي اثناء القرن الذي جرت فيه الفتوح ، صارت سوريا – التي يعتبر سكانها اساساً من المسيحيين المتهرطقين – من الاقاليم الاسلامية الاساسية ؛ غير انه لم يقل كثيراً عـــدد الارثوذكس ، ولم يخسر الأقباط الموقعة في مصر إلا في بطء ، بسبب ما كان لهم من ثروة، غير انها كانت معركة خاسرة لهم . على ان استمرار بقاء الهراطقة ، من جهة اخرى ، كفله نظام الجاليـــة ، وبفضل توطيد مركزهم ، جعلوا من المستحيل تحقيق توحيد الكنيستين .

ولم يكن نمو الاسلام في سوريا وفلسطين ، راجعاً الى ما كان من انطلاق العرب فجأة من الصحراء . فلم تكن جيوش الغزاة بالغة الضخامة . ولم يكن لديهم سوى فئـة عسكرية تفرض سلطانهـــا على السكان . فالتركيب العنصري لسكان الاقليم يكاد لم يتعرض لأي تغيير . فسكان المـدن والقرى ،

---

(١) انظر : Runciman. « The Byzantine » Protectorate in the Holy Land' in Byzantion vol. XVIII, pp. 207 - 215.

سواءاعتنقوا الاسلام او بقوا مسيحيين، لم يلبثوا ان تعلموا اللغة العربية واستخدموها في جميع الاغراض العامة . ونطلق اليوم، في شيء من التساهل ، على ذريتهم، لفظ العرب ؛ غير أنهم تألفوا من امتزاج عناصر عديدة ، من القبائل الــتي نزلت البلاد قبل قدوم اليهود من مصر ، مثل العمالقة او اليبوسيين او المؤابيين او الفينيقيين ، ومن قبائل ، كالفلسطينيين ، استقرت بالبلاد زمناً بالغ الطول، ومن الآراميين الذين ظلوا طوال التاريخ المعروف، ينفذون في بطء ، دون أن يجري الاحساس بهم، الى الاراضي المزروعة، ومن اولئك اليهود الذين انحازوا الى كنيسة المسيح ، أمثال الرسل الاوائل . ولم يبق على نقائهم العنصري إلا اليهود المهنيون، بل ان نقاء عنصرهم شابه شيء من الكدر . ولم يتعرض العنصر الحامي في مصر لاختلاط كبير ، غير انه ازداد ، بمــا حدث من الزواج من المهـــاجرين من الشام ، والصحاري ، والنيل الاعلى ، وكل شواطىء حوض البحر المتوسط .

ولا شك ان هجرة العرب بلغت ذروة الكثافة في المناطق الــتي تحف بالصحراء ، وفي المدن الواقعة على طرق القوافل التي تسير على حافة الصحراء. وما أعقب الفتح من تداعي تجارة البحر المتوسط ، جعل لهــذه المدن ، التي تفوق فيها من الناحية العددية ، السكان المسلمون ، أهمية تزيد على ما كان من أهمية للمدن الهلينية بالغة القرب من الساحل . وتعتبر الاسكندرية المينـــاء الكبير الوحيد الذي ابقى عليه العرب على البحر المتوسط. وفي الاسكندرية، وفي سائر المـــدن الهلينية في سوريا ، حافظ المسيحيون على وفرة عددهم ، والراجح انهم فاقوا المسلمين في العدد . وهذا الاختلاف نصادفه ايضــاً في الريف السوري ، اذ ازداد عــدد المسلمين في السهول والوديان الداخلية . على حين أن عدد المسيحيين من جميع المذاهب ، ساد فيما بين جبل لبنان والبحر المتوسط. وفي مصر، اكثر ما حدث من الاختلاف كان بين المدينة والقرية. فصار الفلاحون يعتنقون الاسلام رويداً رويداً ، بينما ظــل معظم سكان المدن من المسيحيين . وكان التقسيم تحكمياً في فلسطين ، فبينما صار عدد كبير من سكان

القرى مسلمين ، لا زالت مدن كثيرة متعلقة بالديانة السابقة . فالمدن التي لها أهمية خاصة عند المسيحيين، كالناصرة ، وبيت لحم، كانت بأسرها مسيحية. وعلى الرغم مما كان لبيت المقدس من تبجيل خاص عند المسلمين ، ظل المسيحيون يؤلفون به غالبية السكان . وكان الفلسطينيون المسيحيون بأسرهم ينتمون الى المذهب الارثوذكسي، يضاف الى ذلك ما كان من جاليات يهودية هامة ، في بيت المقدس ، وفي مدن عديدة صغيرة ، مثل صفد وطبرية . وتعتبر الرملة ، حاضرة الادارة الجديدة ، أهم مدينة اسلامية . وظل سكان سوريا وفلسطين ومصر ، متجمعين على هذه الصورة في القرون الاربعة التالية (١) .

الخلافة الاموية :

كان خامس الخلفاء، وهو معاوية الاموي، والياً على الشام،فلما تولى الخلافة سنة ٦٦٠ ، أقام عاصمته في دمشق . وظل خلفاؤه يحكمون بها نحو قرن من الزمان . ويعتبر عهد الامويين فترة رخاء لسوريا وفلسطين . وباستثناء بعض الحالات، اشتهر الخلفاء الامويون بالكفاية النادرة، وبالتسامح الشديد ، إذ أن قيام بلاطهم في الشام كفل لهم حكومة سليمة،ونشاطاً تجارياً حيوياً، وشجعوا ما صادفوه بهذا الاقليم من حضارة . وكانت حضارة هلنستية مسيحية تأثرت بأذواق وأفكار تحملنا على ان نربطها باسم بيزنطة ، فدخل في إدارة المدينة مسيحيون يتحدثون باللغة اليونانية . وظلت حسابات الدولة عشرات السنوات تدوّن باللغة اليونانية . واستخدم الخلفاء في اعمالهم فنانين وصناعاً مسيحيين .

---

(١) عن تركيب المجتمع في فلسطين وسوريا زمن الخلفاء ، انظر :

Le Strange : Palestine under the Moslems.

Gaudefrcy - Demombynes and Platonov : Le Monde Musulman pp. 233 - 247.

Browne : op. cit. ch. V.

O'Leary : How Greck Science passed to the Arabs. pp. 135 - 139.

فقبة الصخرة، التي اكتمل بناؤها سنة ٦٩١ ، زمن الخليفة عبد الملك ، تعتبر اعظم نموذج لمـــا اشتهر به فن العمارة البيزنطي من اتخاذ اساوب القباب في المباني. ومن اروع نماذج الفن البيزنطي، ما كان بقبة الصخرة من الفسيفساء، ومـــا انتصب من فسيفساء بالغة الجمـــال في فناء المسجد في دمشق ، زمن الوليد بن عبد الملك . ولا زال الجدل قائماً حول ما اذا كانت هـذه الاعمال قد قام بها صناع وطنيون ، والى اي حد تلقوا المساعدة من الصناع المهرة ، والمواد التي لا شك في ان الوليـد استوردها من بيزنطة . على أن الامويين اجازوا استخدام الجصيات التي اتخذت هيئة الانسان، حتى في وضعه العادي، في القصور التي اقاموها بالريف،بعيداً عن عيون رجال الدين الذين لا يقرونها، كالتي أقاموها في مواطن الصيد ، مثل قصير عمره، في البراري الواقعة وراء نهر الاردن . والواقع أن حكم الامويين ، لم يؤد الى انقطـاع تطور الحضارة الهلنستية في الشرق الادنى ، والتي بلغت وقتئـــذ ذروة ازدهارهـــا وخاتمته [١] .

ولذا ليس ثمة مـــا يدعو المسيحيين لأن يأسفوا لانتصار الاسلام . فعلى الرغم من الاضطهاد الذي كان يجري لفترة قصيرة من حين الى آخر ، وبرغم بعض إشهادات تقضي بإذلالهم،فان المسيحيين اصابوا من الثراء ما يزيد على ما كانوا عليه، زمن الاباطرة المسيحيين ، اذ استتب الامن ، ونشطت التجارة ،

---

(١) عن الحضارة الأموية ، انظر :

Diehl et Marçais : Le Monde Oriental de 395 à 1081. pp. 335 - 344.
Lammens : Etudes sur le Siècle des Omayades.

عن الفنون ، انظر :

Creswell : Early Muslim Architecture, ch. V.

عن الفسيفساء ، انظر : M. Van Berchem.

انظر : Richmond : The Dome of the Rock.

Kuseir Amra - (Kaiserliche Akademie der Wissenschaften of Vienna.

وازداد هبوط الضرائب . يضاف الى ذلك ان الامبراطور المسيحي في اثناء الشطر الاكبر من القرن الثامن ، كان متهورا ، مناهضاً لعبادة الصور ، ظالماً لكل الارثوذكس الذين يبجلون عبادة الصور . وازدادت سعادة المسيحيين الاتقياء في ظل حكم المسلمين .

الخلافة العباسية :

على أن هذه الفترة السعيدة لم تستمر ، إذ أن تداعي الامويين ، والحروب الاهلية التي أدت الى قيام الخلفاء العباسيين ببغداد سنة ٧٥٠ ، أثار الفوضى والاضطراب في سوريا وفلسطين . فقام العمال المحليون ، الذين لم يحفلوا او يخضعوا لسلطان ، بجباية الاموال ، فصادروا الكنائس المسيحية ، التي كان لزاماً على المسيحيين وقتذاك ان يفتدوها . وثارت موجات من التعصب ، اقترنت بالاضطهاد ، وحمل الناس على اعتناق الاسلام [١] . على ان انتصار العباسيين أعاد الامن الى نصابه ، غير ان ثمة فارق ، ذلك ان بغداد كانت بالغة البعد . فتضاءل الاشراف على ادارة الاقاليم ، وظلت التجارة نشطة على امتداد طرق القوافل ، غير انه لم تقم سوق كبيرة تثير التجارة محلياً . على أن العباسيين كانوا يفوقون الامويين في شدة الايمان والتعلق بالاسلام ، ويقلون عنهم في التسامح مع المسيحيين ، ومع انهم ارتكنوا ايضاً الى حضارة غابرة ، فانها لم تكن هلنستية بل كانت فارسية . وإذ كانت بغداد تقع في نطاق املاك الدولة الساسانية ، حاز الفرس الوظائف الرئيسية بالحكومة ، وتقرر الأخذ بالمثل الفارسية وما يجري في الحياة اليومية من عادات فارسية . وتقرر ايضاً مثلما حدث زمن الامويين ، استخدام الموظفين المسيحيين . على ان هؤلاء المسيحيين كانوا جميعاً ، باستثناء حالات قليلة ، من النساطرة ، الذين تطلعوا

---

(١) Diehl & Marçait : op. cit. pp. 345 - 348.
Gaudefroy - Demombynes and Platonov : op. cit. pp. 260 - 268.

نحو الشرق، لا نحو الغرب . وفي الجملة فاق البلاط العباسي الامويين في الاهتمام بالأمور العقلية. فازداد استخدام النساطرة في ترجمة المؤلفات الفلسفية والعلمية عن اللغة اليونانية القديمة ، وجرى تشجيع رجال العلم والرياضة على القدوم ، حتى من بيزنطة ، للتدريس في مدارس بغداد . غير أن هذا الاهتمام كان ظاهرياً . فالمدنية العباسية لم تتأثر اساساً بالتفكير اليوناني ، غير انها اتبعت التقاليد التي جاءتها من اقليمي الجزيرة وايران ، ولم تستمر الحياة الهلنستية في العالم الاسلامي إلا في اسبانيا التي هرب اليها الامويون التماساً للمأوى .

ومع ذلك لم يكن المسيحيون في جملتهم اشقياء في ظل الحكم العباسي ، فيصح انهم تعرضوا لهجمات عنيفة من قبل المؤلفين المسلمين ، كالجاحظ في القرن التاسع ، غير ان ذلك يرجع الى ما أصابوه من ثراء وافر ، وإلى أنهم ازدادوا تجبراً وعتواً،وأنهم لم يأبهوا للإشهادات التي صدرت ضدهم[1]. على ان بطريرك بيت المقدس ، عند كتابته احوال ذلك الوقت الى زميله في القسطنطينية ، يقول عن السلطات الاسلامية : « انها عادلة ، ولم تنزل بنا الضرر ، ولم تظهر شيئاً من العنف نحونا » [2] . اضحى ما اشتهروا به من العدل وضبط النفس أمراً مشهوراً . وحينما ساءت امور العرب في حروبهم مع بيزنطة في القرن العاشر، وتعرض المسيحيون لهجوم العرب، الذين غضبوا لما أظهره المسيحيون من العطف على عدو المسلمين ، حرص الخليفة دائماً على أن يبذل تعويضاً عن الخسائر والأضرار التي وقعت . ولعل الباعث له على ذلك، هو خوفه من القوة النامية للامبراطور، الذي توافر وقتذاك في أملاكه

---

(١) انظر : Al-Jahiz: Three Essays ed. by Finkel, p. 18.
Labourt : De Timotheo I. Nestorianorum Patriarcha pp. 33 - 34.
يورد الأدلة على تأثير النساطرة في بلاط الخليفة .

(٢) هذه الرسالة الموجهة من تيودوسيوس بطريرك بيت المقدس ، الى اجناتيوس بطريرك القسطنطينية ، وردت في : Mansi : Concilia vol. XVI. pp. 26 - 27.

من المسلمين ما يصح ان يضطهدم على سبيل الانتقام [١] . على أن الكنائس الارثوذكسية التي تساندها دول اجنبية ، احتفظت دائماً بوضع ممتاز . ففي أوائل القرن العاشر ، وحينما احتدم الجدال بين ابراهـــام الثالث جاثليق النساطرة وبين بطريرك انطاكية الارثوذكسي ، أشار الى الوزير : « اننـــا نحن النساطرة أصدقاء العرب ، وندعو لهم دائماً باحراز الانتصارات » . ثم أضاف : « فلترع النساطرة الذين ليس لهم من ملك ، سوى العرب » [٢] . والواقع انه لم يجعله يظفر بالقضية ، إلا ما حصل عليه من هبة قدرها نقداً الف قطعة ذهبية ، لا مـــا حدث من الجدال . على ان الفئة الوحيدة من المسيحيين ، التي تعرضت دائماً للعداء والكراهية ، هي التي انحدرت من اصل عربي خالص، مثل بني غسان او بني تنوخ. فحينما رفض افراد هاتين القبيلتين ان يعتنقوا الاسلام كرهاً، جرى اجبارهم على اجتياز الحدود ، والتماس المأوى في بيزنطة [٣] .

شارلمان وفلسطين :

على ان هجرة المسيحيين الى بلاد الامبراطور ظلت مستمرة ، ولم يتخذ المسلمون اجراءات لمناهضتها . فلم تجر فيما يبدو محاولة جدية لمنع المسيحيين في داخل الخلافة او خارجها ، حتى في اوقات الحرب ، من إقامة علاقات وثيقة بينهم . ففي أثناء الشطر الاكبر من زمن العباسيين ، لم يكن للامبراطور

---

(١) حـــدث في ٩٢٣ ، ٩٢٤ أن دمر الرعـــاع الكنائس المسيحيـــة الارثوذكسية بالرملة وعسقلان وقيسارية ودمشق ، وعندئذ بادر الخليفة المقتدر بمساعدة المسيحيين على عمارتها (Eutychius, col. 1151) .

(٢) Bar Hebraeus quoted in Assemani , Bibliotheca Orientalis vol II . pp . 440 - 441 .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٤٢ .

Baladhuri, trans, by Hitti and Murgotten pp. 208 - 209.

Nau : Les Arabes Chrétiens de Mesopotamie et de Syrie pp. 106 - 111.

البيزنطي من القوة ، ما يكفي لأن يسدي لاخوانه في الدين نفعاً كبيراً . فما أصاب العرب من الفشل أمام القسطنطينية سنة ٧١٨ ، كفل للأمبراطورية البيزنطية البقاء ، غير أنها لم تقدم على اتخاذ خطة لمهاجمة العرب إلا بعد قرنين من الزمان . والواقع ان المسيحيين الارثوذكس في الشرق اكتشفوا عدواً أجنبياً جديداً . فما حدث في القرن الثامن من ظهور امبراطور الكارولنجيين لم يغب عن إدراك الشرق . فحينما أظهر شارل الكبير ، في نهاية هذا القرن وقد أوشك على أن يتوج إمبراطوراً في روما ، اهتماماً خاصاً برفاهية الاماكن المقدسة ، لقيت نواحي اهتمامه ترحيباً كبيراً . واذ فرح الخليفة هرون الرشيد للعثور على حليف ضد بيزنطة ، بذل له كل تشجيع لإنشاء مؤسسات في بيت المقدس ، ولارسال الصدقات لكنيسة القيامة . فحل شارل فترة من الزمن مكان الامبراطور البيزنطي ، باعتباره ملكاً له من السلطة ما يكفل حماية الارثوذكس في فلسطين . فعبّروا عن امتنانهم لإحسانه بأن بعثوا إليه بكل ما يعرب عن تقديرهم من مظاهر الشرف . على أن ما حدث من انهيـــار امبراطوريته زمن أخلافه ، وما جرى من نهوض بيزنطة ، جعل تدخل الفرنجة قصير الأجل ، ولم يعد له من ذكرى، إلا فيما أنشأه شارل من فنادق، وفيما كان يؤدى من الشعائر اللاتينية في كنيسة القديسة ماري اللاتينية ، وفي الراهبات اللاتينيات اللائي يباشرن الخدمة في كنيسة القيامة. غير انهذا الحادث لم يجر نسيانه مطلقاً في الغرب ، اذ بالغ فيه ما ذاع من أساطير وتقاليد . ولم يلبث النـــاس ان ظنوا ان شارل أجرى حماية شرعية على الأماكن المقدسة ، بل شاع في وقت من الاوقات ، أن شارل قام بنفسه بالحج الى تلك الجهات . وبذا جرى الاعتراف والاقرار، بما للفرنجة في الأجيال المتأخرة من حق الحكم في بيت المقدس [١] .

---

(١) انظر : Runciman : « Charlemagne and Palestine » in English Historical Review . vol. I pp. 600 ff.

واشتد اهتمام المسيحيين الشرقيين بإفاقة الدولة البيزنطية . اذ ان الامبراطورية (البيزنطية) ظلت في القرن التاسع تلتزم خطة الدفـــاع . اذ سقطت صقلية وكريت في ايدي المسلمين ، وكادت كل سنة تشهد غـارة عنيفة للعرب في جوف آسيا الصغرى . على انه حدث في منتصف القرن التاسع أن جرى إعادة تنظيم البحرية البيزنطية وتجهيزها وإعدادها ، ويرجـع ذلك الى حد كبير ، الى ما اتخذته الامبراطورة الوصية تيودورا من تدابير اقتصادية سليمة . وبفضل قوة الاسطول البيزنطي ، لم تلبث سيطرة بيزنطة ان توطدت من جديد على جنوب ايطاليا ودالماشيا . ظهرت أمرات حاكمة محلية ، من أهمهـا الحمدانيون بالموصل وحلب ، والإخشيديون بمصر . واشتهر الاولون (الحمدانيون) بأنهم محاربون بواسل ، ومسلمون غيورون، واستمروا فترة من الزمن سياجاً مانعاً لكل اعتداء من قِبل بيزنطة . غير انه لم يكن بوسعهم أن يمنعوا تداعي الدولة الاسلامية ، بل انهم أسهموا فيه وزادوا منه، بما لجأوا اليه من تشجيع الحروب الداخلية. وفي أثناء هذه الحروب الداخلية، ظفر الاخشيديون بالسيطرة على فلسطين وجنوب الشام . وبادر البيزنطيون الى الإفادة من هـــذا الموقف : فالتزموا اول الأمر جانب الحذر في خطة الهجوم ، غير انه حدث سنة ٩٤٥ ، وبرغم بسالة الامير ، سيف الدولة ، قائد الحمدانيين أن حاز يوحنا كركواس للامبراطورية البيزنطية من البــلاد والمناطق بأعالي الجزيرة التي لم تشهد منذ ثلاثة قرون جيشاً مسيحياً [١] ، على ان الامور ازدادت سرعة في حركتها ، بعد سنة ٩٦٠ ، حينما تولى الجندي الكبير نقفورفوقاس قيادة الجيش الامبراطوري . ففي سنة ٩٦١ استرد نقفور جزيرة كريت ، وفي سنة ٩٦٢ توجه بحملة الى طرف قليقيــة ، فاستولى على

---

(١) انظر : Vasiliew : Byzantium and the Arabs. vol. II, pp. 229 - 237.
(باللغة الروسية) .
Runciman : The Emperor Romanus Lecapenus pp. 135 - 150.

عين زربه ومرعش ، فعزل بذلك قليقية الاسلامية. على أن نقفور أمضى سنة ٩٦٣ في بيزنطة، حيث دبّر الانقلاب الذي جاء به الى العرش بمساندة الجيش والامبراطورة الوصية . وعـاد نقفور الى الشرق سنة ٩٦٤ ؛ فأتم سنة ٩٦٥ فتح قليقية ، وأرسل حمـلة الى قبرص أعادت سيطرة بيزنطة المطلقة على الجزيرة. وفي سنة ٩٦٦ ، توجه نقفور بحملة الى الحوض الاوسط لنهر الفرات، كيما يقطع الاتصال بين حلب والموصل [١] . فنهض كل الشرق المسيحي ، وأدرك أن وقت الخلاص وشيك الوقوع . وكتب اليه يوحنا بطريرك بيت المقدس ، يحثه على الإسراع بالقدوم الى بيت المقدس . على ان هـذه الخيانة بلغت من الشدة ، ما استنفدت صبر المسلمين ، فتقرر إلقاء القبض على يوحنا ، وبادر الناس الثائرون الى إحراقه [٢] .

الواقع ان آمال البطريرك يوحنا كانت سابقة لأوانها ، ففي سنتي ٩٦٧ ، ٩٦٨ كان نقفور منصرفاً الى ما يجري من الأحداث على الطرف الشمالي . غير انه قاد سنة ٩٦٩ جيشه صوب الجنوب مرة اخرى ، الى جوف بلاد الشام . فاتخذ طريق وادي نهر الأورنت ، ومضى الى الاستيلاء على المـدن الكبيرة ونهبها ، الواحدة بعد الاخرى ، أمثال شيزر ، وحماه ، وحمص ، ثم اجتـاز البلاد الى الساحل ، حتى بلغ أرباض طرابلس . ثم عاد صوب الشمال ، بعـد ان خلف وراءه انطرسوس ، وجبيل ، واللاذقية ، وقد اشتعلت بها النيران، بينما قام نوابه بإلقاء الحصار على انطاكية وحلب. فسقطت في اكتوبر الحاضرة القديمة ، انطاكية ، واستسلمت حلب في نهاية السنة .

---

(١) Schlumberger : Un Empereur Byzantin , Nicéphore Phoces . Chs . VIII & X .

(٢) Yachya of Antioch, in P.O,Vol. XVIII pp. 799 - 802

ناقش Rosen تاريخ هذا الحادث في كتابه الذي ألفه باللغة الروسية بعنوان :
Emperor Basil the Bulgar - Slayer .

انضم الى الامبراطورية انطاكية ، التي زاد فيها ، ترجيحاً، عدد المسيحيين على عدد المسلمين ، واضطر المسلمون ، فيما يبدو الى الهجرة من أراضيها . أما حلب التي تعتبر بأمرها مدينة اسلامية ، فصارت إمارة تابعة ، والمعاهدة التي انعقدت مع أميرها ، جرى الاهتمام بالنص فيها على تعيين الحد الفاصل بين الولاية الامبراطورية الجديدة،وتوابعها من المدن. وتقرر ان يتولى الامبراطور ترشيح أمير حلب لولايتها . وكان لزاماً على الإمارة التابعة ان تؤدي ضرائب باهظة ، الى الخزانة الامبراطورية ، وتقرر إعفاء المسيحيين منها ، وكان لا بد للتجار البيزنطيين وقوافلهم ان تحصل على امتيازات وحماية خاصة . هذه الشروط المهينة كانت فيما يبدو تنذر بنهاية حكم المسلمين في الشام (١) .

يوحنا زمسكيس (الشميشق) :

على انه حدث قبل سقوط حلب ، ان اغتال الامبراطور نقفور في القسطنطينية ، الامبراطورة وعشيقها ، ابن عمه يوحنا زمسكيس . كان نقفور رجلاً عبوساً صارماً ، ولذا لم يكن مقبولاً . فعلى الرغم من انتصاراته ، تعرض للكراهية في القسطنطينية لما لجأ اليه من ابتزاز الاموال ، ولما اتهم به من الفساد ، ولنضاله المرير مع الكنيسة . أما يوحنا زمسكيس الذي اشتهر فعلاً بأنه قائد نابه ، فتولى العرش دون أن يلقى عقبة من العقبات ، وصالح الكنيسة ، بأن تخلى عن عشيقته الامبراطورة . على أن ما نشب من الحرب مع بلغاريا حمله على الاهتمام بأوربا في السنوات الاربع التالية. وفي تلك الأثناء ظهرت في الاسلام حركة إفاقة، قامت بها أسرة الفاطميين التي استقرت بمصر وامتد حكمها الى جنوب الشام، بل انها حاولت سنة ٩٧١ استعادة انطاكية. وفي ٩٧٤ ، تهيأ للامبراطور يوحنا زمسكيس ان يوجه اهتمامه الى الشرق . ففي الخريف هبط بجيوشه الى شرق اقليم الجزيرة ، فاستولى على نصيبين ،

---

(١) Schlumberger : op . cit . ch . XIV .

واعترفت الموصل بالتبعية له، وفكر زمسكيس في القيام بزحف مفاجيء على بغداد . غير انـه ادرك ان الفاطميين لأشد في عداوتهم وخصومتهم له ، من منافسيهم العباسيين، ولذا توجه في الربيع التالي الى الشام . وإذ اتخذ الطريق الذي سلكه منذ ست سنوات الامبراطور نقفور ، اجتاح وادي الاورنت ، فخضعت له حمص ، دون قتال ، بينما استولى على بعلبك عنوة ، ثم نفـذ الى دمشق ، التي وعـدت ببذل الجزية ، وانصاعت الى محالفته . ومن دمشق توجه الى الجليل ، وإلى طبرية والناصرة ، ومنها الى قيسارية على الساحل . وقدمت إليه الرسل من بيت المقدس ، تلتمس منه أن يجنبهم مخاطر نهب المدينة . غير أنه لم يشعر بالقدرة على المضي الى بيت المقدس ذاتها ، ما لم يستولِ على مدن الساحل الفينيقي من خلفه . فانسحب الى الشمال ، وتغلب على هذه المدن الواحدة بعد الأخرى باستثناء حصن ميناء طرابلس . وإذ أقبل الشتاء اضطر الامبراطور الى إرجاء مشروعاته طوال هذا الفصل ، وفي طريق عودتـه الى أنطاكيـة ، استولى على القلعتين الكبيرتين برزيه وصهيون ، بشمال لبنان . ثم عاد الى القسطنطينية غير أنه لم يواصل حملته ، إذ مات فجأة في يناير سنة ٩٧٦ [١] .

هذه الحروب جعلت الامبراطورية المسيحية مرة أخرى من الدول الكبيرة في الشرق ، وإذ اضحى الأمـل في تخليص المسيحيين في الشرق قريب المنال ، صار لهذه الحروب صفة الحروب الدينية . على أن ما قامت به الامبراطورية حتى ذلك الحين من الحروب ضد المسلمين ، إنما نشبت بانتظام من أجل الدفاع عنها ، وجرى اعتبارها ، اذا جـاز القول ، من أمور الحياة اليوميـة . وعلى الرغم من أنه كان يحدث من وقت الى آخر أن يترك المسلم المتعصب الظافر ، للأسرى المسيحيين ، أن يختاروا بين الارتداد

---

(١) Schlumberger : L'Epopée Byzantine vol . I ch . IV .

عن دينهم او الموت ، ولقي استشهاد المسيحيين ما هو جدير بـــه من الذكرى والتمجيد ، فإن هذه الأحوال أضحت نادرة . على أن الرأي العام البيزنطي لم يعتبر أن الموت في ساحة القتال ضد المسلمين من أجل حماية الامبراطورية ، يزيد مكانة وأهميـــة على ما يجري ضد البلغار ، ولم تفرق الكنيسة ايضاً بينهما . غير أن كلا من نقفور ويوحنا زمسكيس أعلن أن القتال كان وقتئذ من أجل مجد العالم المسيحي ، ومن اجل إنقاذ الأماكن المقدسة ، ومن أجل تدمير الإسلام . وكلما احتفل امبراطور بإحراز النصر على المسلمين ، هتف المنشدون : « المجد لله ، الذي قهر العرب [١] » . وأصر نقفور على أن حروبه كانت حروباً مسيحية ، ولعله كان يحاول بذلـك ، أن يوقف من بعض الوجوه ما كان من علاقات سيئة بينه وبين الكنيسة . على أنه فشل في إغراء البطريرك بمساندة قرار يقول إن من يموت من العساكر على الجبهة الشرقية ، يعتبر شهيداً . إذ أن مقتضيات الحرب ، لا تستلزم في نظر الكنيسة الشرقية ، الالتجاء الى القتل [٢] .

على أن الامبراطور نقفور ، في إنذاره الحافل بالشتائم ، الذي وجهه الى الخليفة قبل المضي في حملته سنة ٩٦٤ ، اعتبر نفسه بطل المسيحيين ، بل إنـه هدد بالزحف على مكة ، ليقيم بهـا عرش المسيح [٣] . واستخدم

---

(١) Constantine Porphyrogennetus : De Ceremoniis (Bonn ed.) vol. I pp. 332 - 333 . ed . by Vogt , vol . II pp. 135 - 136 .
والراجح أن هذه الهتافات ارتفعت لأول مرة ، حينما احتفل الامبراطور ميخائيل الثـــالث بالانتصار على العرب سنة ٨٦٣ .
انظر Bury, «The Ceremonial Book of Constantine Porphyrogennetus» in E. H. R. vol. XXII p. 434 .

(٢) انظر : Zonaras , vol . III p. 506 .

(٣) انظر : Schlumberger: Un Empereur Byzantin pp. 427 - 430 .
نقلا عن مخطوطة عربية محفوظة بفينا .

يوحنا زمسكيس نفس اللغة ؛ ففي الرسالة التي كتبها الى ملك أرمينيا ، يصف فيها حملته سنة ٩٧٤ ، يقول : « لم تكن لنا من رغبة ، سوى تخليص كنيسة القيامة من الافعال الشنيعة التي يرتكبها المسلمون » . ويروي كيف أنه منع نهب مدن الجليل ، لما كان لها من أهميـــة في تاريخ العقيدة المسيحية ، وحينا أشار الى توقفه امام طرابلس ، ذكر أنه لولا ذلك ، لتوجه الى مدينـة بيت المقدس ، وأقام الصلاة في الاماكن المقدسة [١] .

على أن العرب كانوا اكثر استعداداً لاعتبار الحرب من امور الدين ، على أنهم تباطأوا في ذلك . فلمـا أثار المسيحيون لهم القلق والانزعاج ، حاولوا بعث حماسهم الديني . ففي سنة ٩٧٤ حدث في بغداد من الثورات ما أرغم الخليفة على إعلان الجهـاد الديني ، على الرغم من أنه لم يأسف لما حل بالفاطميين من الهزيمة [٢] .

الصلح بين مصر وبيزنطة :

وتراءى آخر الأمر احتمال عودة الارض المقدسة الى حكم المسيحيين . غير أن انتظار الأرثوذكس بفلسطين ضاع هباء . ذلـك أن خليفة يوحنا على العرش ، وهو الامبراطور الشرعي باسيل الثـاني ، لم تتهيأ له الفرصة مطلقاً لمواصلة الزحف جنوباً ، على الرغم من أنـه اصبح قائداً كبيراً . فما حدث من الحروب الاهلية ، التي تلتها حرب طويلة الأمد ضد البلغار ، تطلب منه كل اهتمام . ولم يقم بزيارة الشام إلا مرتين ، كما يعيد السيادة

---

(١) انظر : Matthew of Edessa pp. 13 - 20.

(٢) انظر : Miskawaihi: The Experiences of the Nations, in Amedroz and Margoliouth: The Eclipse of Abbasid Caliphat. vol. II pp. 303 - 305 (Arabic Text) and vol. V. pp. 326 - 328 (English Translation).

البيزنطيـة على حلب سنة ٩٩٥ ، ويمضي في مسيره على الساحـل حتى طرابلس سنة ٩٩٩ . على أنـه قرر سنة ١٠٠١ ، أنـه لا جدوى في مواصلة الفتوح . فانعقدت الهدنة مع الخليفة الفاطمي لمدة عشر سنوات . وإذ جرى استهلال الصلح على هـذا النحو ، لم ينتقض أمره لأكثر من نصف قرن . فتقرر أن يجري الحد الفاصل بين الامبراطوريتين من نقطة على الساحل بين بانياس وانطرسوس الى نهر الأورنت ، عنـد نقطة تقع جنوب قيصرية (شيزر) . فبقيت حلب رسمياً في منطقة نفوذ بيزنطة ، على أن الأسرة المرداسية التي استقر لها الحكم بحلب حصلت على الاستقلال فعلاً . ففي سنة ١٠٣٠ أنزل أميرهـا الهزيمة بجيش بيزنطي . غير أن ضياع حلب ، عوضه مـا حدث في السنة التالية من اندماج الرهـا في الامبراطورية البيزنطية [١] .

ولقي الصلح قبولاً عند الامبراطورية البيزنطية والفـاطميين ، لأن كلا منهما ازعجه ما حدث من نهوض الخلافة في بغداد ، على ايدي المغامرين الترك القادمين من وسط آسيا . فالامير الفاطمي ، الذي اعتبره المسلمون الشيعة الخليفة الصادق ، ليس في وسعه مطلقاً ان يقبل كل ما يؤدي الى

---

(١) ما جرى وصفه من نشاط باسيل الثاني مستمد من المصادر العربية (كال الدين بن العديم ، ابن الأثير ، ابو المحاسن) ، الواردة في :

Rosen : op. cit . pp. 239 - 266 , 309 - 311 .

وفي ٩٨٧ — ٩٨٨ أرسل باسيل الثاني سفيراً الى القاهرة ، يلتمس المال لصيانة كنيسة القيامة (انظر رواية أبي المحاسن الواردة في :

Rosen : op. cit . 202 - 5 .

عن الحدود ، انظر : Honigman : Die Ostgrenze des Byzantinischen Reiches . pp. 106 - 108 . 134 .

لا زالت شيزر يحكمها باسم الامبراطور أحد الأساقفة حتى سنة ١٠٨١ .

Id : Shaizar En . Is . (Michael The Syrian II . p. 178) .

اشتداد مزاعم العباسيين ، واعتبر البيزنطيون أن حدهم الشرقي لأكثر تعرضاً للخطر من الحد الجنوبي . وترتب على الخوف من الترك ، أن بادر باسيل الثاني الى أن يضيف الى الامبراطورية أقرب ما يقع من اقاليم أرمينيا ، بأن استولى على امارة فاسبوركان التي تقع في اقصى الطرف الجنوبي الشرقي من البلاد . وواصل خلفاؤه هذه السياسة . ففي سنة ١٠٤٥ قام ملك آني ، اكبر ملوك ارمينيا ، بتسليم بلاده الى الامبراطور . وفي سنة ١٠٦٤ ، ابتلعت الامبراطورية البيزنطية آخر إمارة أرمنية مستقلة ، وهي امارة قارس .

والواقع أن ضم أرمينيا [1] الى اراضي الامبراطورية البيزنطية اقتضته اعتبارات عسكرية . اذ اثبتت التجارب انه لا يصح الركون الى الامراء الارمن . فعلى الرغم من انهم كانوا مسيحيين ، وأنهم لم يفيدوا من الفتح الاسلامي ، فإنهم كانوا متهرطقين ، فأظهروا باعتبارهم هراطقة ، من الكراهية الشديدة للارثوذكس ما يزيد على ما يكنونه لكل ظالم من المسلمين . ولم تختف ابداً العداوة ، على الرغم من استمرار العلاقات التجارية والحضارية ، وبرغم كثرة الأرمن الذين هاجروا الى الامبراطورية البيزنطية ، وارتقوا الى الوظائف العالية . على انه كان من اليسير التغلغل من وديان أرمينيا الى جوف آسيا الصغرى ، كما دل على ذلك ما جرى من قبل من الحروب على الحدود . ومن الحماقة أن تجيز السلطات العسكرية ، بقاء هذه البقعة الخطرة ، بعيدة عن إشرافها وضبطها . على أن اضافتها الى الامبراطورية لم يكن قراراً حكيماً من الناحية السياسية .

---

(١) عن تاريخ أرمينيا في هذه الفترة ، انظر :
Grousset : Histoire de L'Armenie , pp. 531 ff .
وانظر ما جاء عن المراجع في الحواشي عن أرمينيا في الفصل الرابع .

اذ كره الأرمن حكم البيزنطيين. وعلى الرغم من أن الحاميات البيزنطية يصح أن تقوم بحماية الحدود، فان في داخل الحدود عدداً ضخماً من السكان الساخطين، الذين تعتبر خيانتهم بالغة الخطورة، والذين شرعوا - بعد أن قطعوا كل ولاء لأمير محلي - في الطواف بأنحاء البلاد يثيرون الفتنة في داخل الامبراطورية. على أن رجال السياسة العقلاء، الذين يقلون عن الأباطرة العسكريين البيزنطيين تمسكاً بوجهة النظر العسكرية، قد ترددوا في أن يخلقوا مشكلة ارمنية تؤدي الى تدمير وحدة الامبراطورية، وتضيف الى رعاياها اقلية تثير الخلاف والنزاع.

الخليفة الحاكم:

انتقل شمال الشام الى حكم المسيحيين، غير أن المسيحيين في جنوب الشام وفلسطين لم يجدوا في سلطة الفاطميين ما يضايقهم، فلم يتعرضوا للاضطهاد إلا لفترة قصيرة. حينما خرج الحاكم فجأة على ما خضع له من مؤثرات مبكرة، اذ كانت أمه مسيحية، وتلقى الجانب الأكبر من تعليمه على أيدي مسيحيين. ففي مدة عشر سنوات، منذ ١٠٠٤ حتى ١٠١٤، وبرغم احتجاجات الأمبراطور، أصدر الحاكم القرارات ضد المسيحيين، فاستهلها بمصادرة أملاك الكنيسة، ثم أمر بإحراق الصلبان، وبتشييد مساجد صغيرة فوق سقوف الكنائس، وقرر آخر الأمر إشعال الحرائق بالكنائس ذاتها. ففي سنة ١٠٠٩ أمر بتدمير كنيسة القيامة ذاتها، اذ زعم أن ما يحدث كل سنة من معجزة النور المقدس، التي يحتفل بها الناس مساء عيد الميلاد، لا بد أنها من قبيل البهتان ولا تتفق مع الدين. وفي سنة ١٠١٤ بلغ عدد ما تعرض للحريق والنهب من الكنائس نحو ثلاثين ألف كنيسة، وتظاهر عدد كبير من المسيحيين باعتناق الإسلام، للنجاة بأرواحهم. وهذه التدابير جرى اتخاذها ايضاً ضد اليهود. على أنه ينبغي أن يكون ملحوظاً ايضاً أن المسلمين انفسهم تعرضوا لهذا الاضطهاد

على يد زعيم عقيدتهم (خليفتهم) ، الذي لم ينقطع مطلقاً عن اتخاذ وزراء مسيحيين . ففي سنة ١٠١٣ كان من الامتيازات التي منحها للامبراطور البيزنطي ، أنه أجاز للمسيحيين أن يهاجروا الى الأراضي البيزنطية . على أن الاضطهاد لم يتوقف إلا حينما اعتقد الحاكم أنه إله . وأعلن ألوهيته على الملأ سنة ١٠١٦ ، صديقه الدرزي . وإذ بلغ ارتياع المسلمين لتصرف زعيمهم الديني ، من الشدة ما لم يبلغه موقف الذميين ، اخذ الحاكم بأمر الله يسترضي المسيحيين واليهود ، بينما هاجم المسلمين ، بأن منع صوم رمضان ، وتأدية فريضة الحج في مكة . وفي سنة ١٠١٧ صار للمسيحيين واليهود مطلق الحرية في العقيدة . فبادر نحو ستة آلاف رجل من الذين تحولوا للإسلام حديثاً ، الى العودة الى حظيرة المسيحية . وفي سنة ١٠٢٠ استعادت الكنائس ما جرت مصادرته من أملاكها ، بما في ذلك المواد المنتزعة من خرائبها وأطلالها . وتقرر في نفس الوقت إلغاء القانون الذي يقضي بارتداء ثياب مميزة . غير أنه حدث وقتذاك أن ثارت ثائرة المسلمين ضد الخليفة ، الذي استبدل باسمه ، اسم الله ، فيما يؤدى من الصلوات بالمساجد . وهرب الدرزي الى لبنان ، كيما يؤسس المذهب المعروف بمذهب الدروز ، المستمد من اسمه . أما الحاكم فإنه اختفى سنة ١٠٢١ . والراجح أن اخته ست الملك المعروفة بطموحها أسهمت في قتله ، ولا يزال مصيره سراً خفياً . ويعتقد الدروز أن الحاكم سوف يظهر في الوقت المحدد[١] .

كسب المسيحيين :

واستولى صالح بن مرداس امير حلب ، على فلسطين لفترة وجيزة ،

---

(١) انظر : Graefe « Hakim » in En . Is .
Browne : op. cit . pp. 60 - 62 .

عقب وفاة الحاكم . غير أن حكم الفاطميين عاد من جديد سنة ١٠٢٩ في كل البلاد . ذلك أنه حدث سنة ١٠٢٧ أن انعقدت معاهدة ، اجازت للامبراطور قسطنطين الثامن ان يتولى عمارة كنيسة القيـامة ، وسمحت لبقية المرتدين بالعودة الى المسيحية دون أن يتعرضوا للعقاب . وتجددت المعاهدة سنة ١٠٣٦ ، غير أن ما جرى فعلاً من اعادة بنـاء الكنيسة إنما قام به الامبراطور قسطنطين التاسع بعد عشرة سنوات . وللإشراف على سير العمل ، صار للموظفين البيزنطيين حرية السفر الى بيت المقدس ، حيث اضحى للمسيحيين فيما يبدو من السيطرة التامة ، مـا اثار امتعاض المسلمين من سكان المدينة والرحّالة [١] ، اذ بلغ من كان يشهدهم الناس في شوارع بيت المقدس من البيزنطيين من الكثرة ، أن ذاع بين المسلمين شائعة أن الامبراطور البيزنطي قام بالرحلة اليها [٢] . واستقرت في بيت المقدس جالية من تجار أمالفي اشتهرت بالرخاء ، وحظيت بحماية الخليفة ، غير أنها جعلت ايضاً تبعية مدينتها في ايطاليا ، للامبراطور ، كما تفيد من الامتيازات التي يغدقها على رعاياه[٣] . فالخوف من قوة بيزنطية كفل السلام

---

(١) William of Tyre : op. cit . vol . I . p. p. 391 - 3 .
Schlumberger : L'Epopée Byzantin vol III p. 157 .
Mukaddasi : Description of Syria , Trans . by Le Strange p. 37 .
يشير المقدسي الى أن الكتاب والأطباء بالشام وفلسطين كانوا من المسيحيين، بينما كان الدباغون والصباغون والصيارفة من اليهود (p. 77) .
Riant , Donation de Hugues , Marquis de Toscane p. 157 .

(٢) Nasir - i - Khusrau : Diary of a Journey Through Syria and Palestine . Trans . by Le Strange p. 59 .

(٣) William of Tyre . vol . 1 , 2 . pp. 822 - 6 .
Aimé : Chronicon p. 322 .

للمسيحيين . فالرحالة الفارسي ، ناصري خسرو ، الذي زار طرابلس في سنة ١٠٤٧ ، يصف ما شاهده في الميناء (طرابلس) من سفن كثيرة للتجار اليونانيين ، وما كان يخشاه السكان من هجوم البحرية البيزنطية [١] .

(١) Nasir - i - Khusrau . op. cit . pp. 6 - 7 . Mukaddisi : op . cit . pp. 3 - 4 .

ويشير المقدسي الذي ألف كتابه حوالي سنة ٩٨٥ ، الى أن السكان في الشام عاشوا في فزع وخوف دائم من البيزنطيين ، لما تعرضت له أطرافهم من النهب والخراب المستمر ، ولما أصاب حصونهم من التدمير ، المرة بعد الاخرى .

الفصل الثالث

الحـــج

من الأمور المتأصلة في الطبيعة البشرية ، الرغبـــة في الحج . فالوقوف بالأراضي ، التي وقف عليها في وقت من الأوقـــات ، اولئك الذين نجلهم ونبجلهم ، ومشاهدة الأماكن والمواضع التي ولدوا بها ، وكدّوا بها ، وقضوا نحبهم فيها ، يجعلنا نشعر بما يربطنا بهم من صلة روحية ، ويعتبر إعراباً عملياً على ما نكنه من ولاء . فإذا كان للرجال المشهورين بالعـــالم من المزارات والمشاهد ، ما يجعل مريديهم يهرعون اليها من أقصى البلاد ، فإن الناس ازداد تقاطرهم في لهف وشوق ، الى تلك المواضع التي يعتقدون أن الله بارك بها الارض وقدسها .

الحجاج الأوائل :

وفي الايام الأولى للمسيحية كان الحج أمراً نادراً . فالتفكير المسيحي في الزمن المبكر ، كان ينزع الى تأليه المسيح ، وإلى عالميته ، لا الى بشريته . ولم تشجع السلطات الرومانية الإرتحال الى فلسطين . بل إن مدينة بيت المقدس ذاتها ، التي دمرها تيتوس ، ظلت خرائب وأطلالاً حتى أعاد بناءها

هادريان فأضحت المدينة المعروفة باسم ايلياء . غير أن المسيحيين تذكروا الموضع الذي شهد مأساة حياة المسيح . فأولوا الموضع الذي استقرت بـه رفاة المسيح من الاحترام ما حمل الامبراطور هادريان على الحرص على أن يشيّد بهذا الموضع معبداً للإلهة Venus Capitolina . ولم يحل القرن الثالث حتى صار الكهف الذي ولد به المسيح في بيت لحم مكاناً معروفاً للمسيحيين . وصار في وسع المسيحيين أن يرتحلوا الى هـذا الموضع وإلى جبـل الزيتون ، والى بستان جتسيماني Gethsemane ، والى الموضع الذي صعد منه المسيح الى السماء . فأضحى من الشعائر المسيحية ، زيارة هـذه الاماكن المقدسة ، من أجل العبادة ، واكتساب الفضائل الروحية (١) .

وبانتصار الصليب نمت وتطورت شعيرة الحج .. فمن دواعي سرور الامبراطور قسطنطين ، أن يهب القوة للديانة التي اختـارها . أمـا أمه ، الأمبراطورة هيلين ، التي تعتبر أعظم الأثريين في العالم وأكثرهم نجاحاً ، فإنها ارتحلت الى فلسطين ، لكشف رفاة السيد المسيح ، ولتلتمس كل مـا تبغي عن آلام السيد المسيح من مقدسات دينية ، وعزز الامبراطور هذا الكشف ، بما شيده في هذا الموضع من كنيسة ، ظلت برغم تقلبات الدهر

---

(٢) انظر : Jerome : Epistolae XLVI, 9 M. P. L. Vol. XXII, col 489
حيث يشير الى الحجيج الأوائل الى فلسطين . وأول من نعرف اسمه من الحجاج . كان اسقف قيصرية بآسيا الصغرى في اوائل القرن الثـالث الميلادي ، واسمه فرميليان Fermilian ،
انظر : Jerome , De Viris Illustribus M.P.L. Vol XXIII . col 665 - 666 .
ومن الحجاج المعروفين في اواخر القرن الثالث ، اسكندر ، اسقف قبادوقيا الذي زار فلسطين.
انظر : Eusebius : Historia Ecclesiastica pp. 185 - 186
ويتحدث اوريجين عن حرص المسيحيين على ان يقتفوا خطوات المسيح) .
انظر : Origen L. Joannem . VI. 29 . M.P.G. Vol. XIV. Col . 269)

وضرباته ، المشهد الرئيسي في العالم المسيحي ، وهي كنيسة القيامة [١] .

ولم يلبث الحجاج أن أخذوا يهرعون الى الموضع الذي شهد أعمال هيلين ، وليس في وسعنا تقدير عدد هؤلاء الحجاج ، لأن معظمهم لم يتركوا سجلاً لرحلتهم . غير أنه حدث سنة ٣٣٣ ، وقبل أن تتم حفريات هيلين ، أن مسافراً دوّن خبر رحلته على امتداد الطريق من بوردو الى فلسطين [٢] . ولم يمض إلا وقت قصير ، حتى وقعنا على وصف لرحلة قامت بها سيدة ، بالغة النشاط ، لا يصيبها تعب ولا كلل ، اشتهرت أحياناً باسم ايثيريا Aetheria ، وأحياناً باسم القديسة سيلفيا Silvia الأكيتانية [٣] . وحوالي نهاية القرن (الرابع) استقر بفلسطين احد كبار آباء العالم المسيحي اللاتيني ، وهو القديس جيروم ، وتبعه حلقة من النساء الجميلات الثريات اللائي كن يجلسن عند قدميه في ايطاليا . وفي خلوته في بيت لحم كان يستقبل مواكب المسافرين ، الذين قدموا للإعراب عن احترامهم له ، بعد أن شهدوا الأماكن المقدسة [٤] . أما القديس أغسطين من أشد آباء

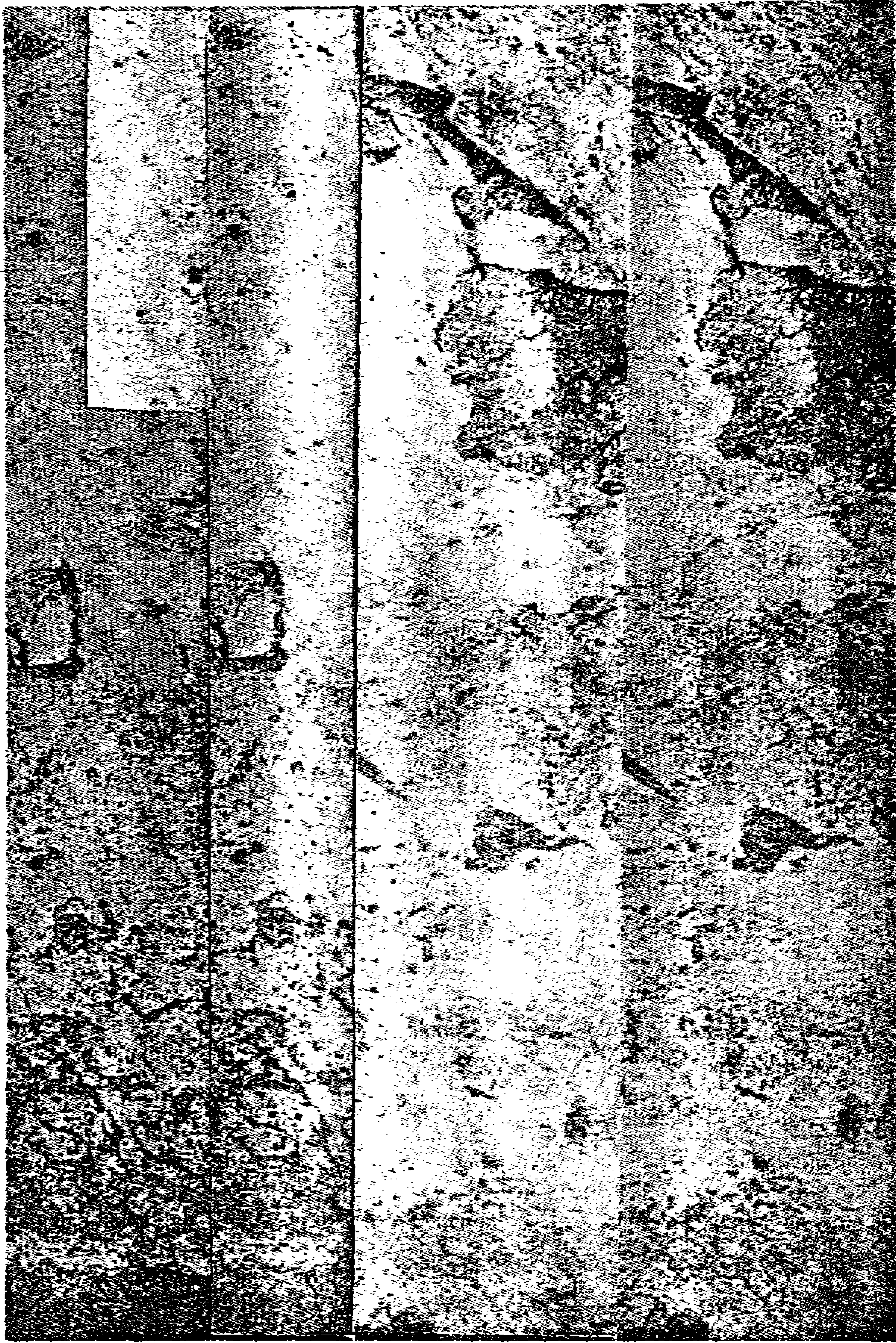
---

(١) انظر Eusebius , Vita Constantini chs XXV - XL
وجرى نشره في مجموعة Palestine Pilgrims' Text Society vol . I
وترجمه الى الانجليزية في هذه المجموعة A. Stewart .

(٢) انظر The Itinerary of the Bordeau Pilgrim في مجموعة P.P.T.S. ج ١ ترجمة A . Stewart .

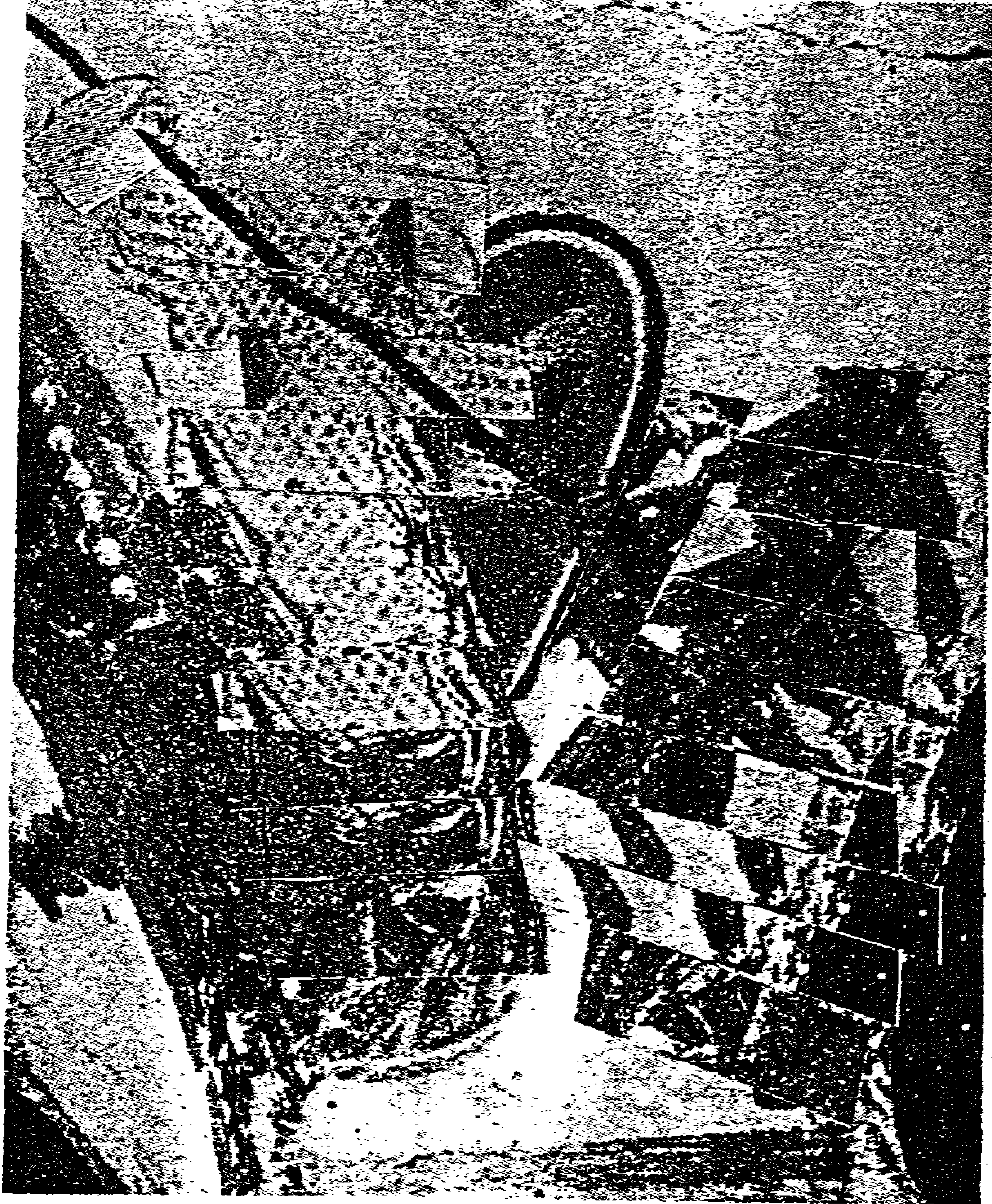
(٣) صدر خبر حجيج ايثيريا في ترجمة انجليزية قام بها J . H. Bernard في المجلد الاول من مجموعة P.P.T.S. بعنوان : The Pilgrimage of Saint Silvia of Aquitaine
واعتبرهما الناشر خطأ شخصية واحدة .

(٤) الرسالة الموجهة من Paula and Eustochion الى ماركيلا Marcella والتي تصف حياة الحلقة الملتفة حول القديس جيروم في فلسطين ، جرى نشرها في رسائل جيروم برقم XLVI (col . 483 ff. in M.P.L. vol. XXII) .
على ان جيروم نفسه ، اوصى صديقه ديزيدروس بزيارة الاماكن المقدسة وذلك في الرسالة التي



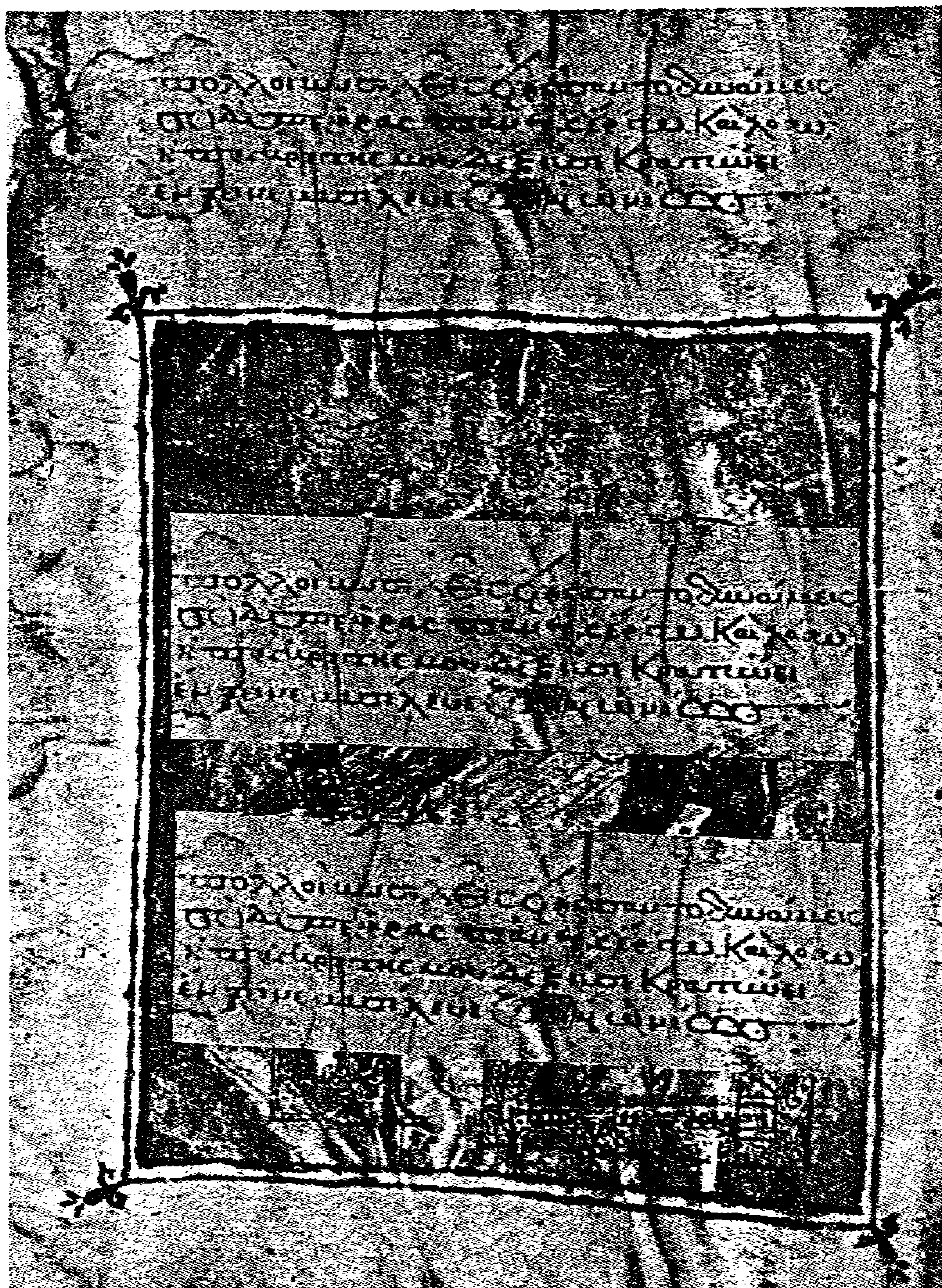
A PILGRIM OF THE LATE ELEVENTH CENTURY

حاج مسيحي في اواخر القرن الحادي عشر



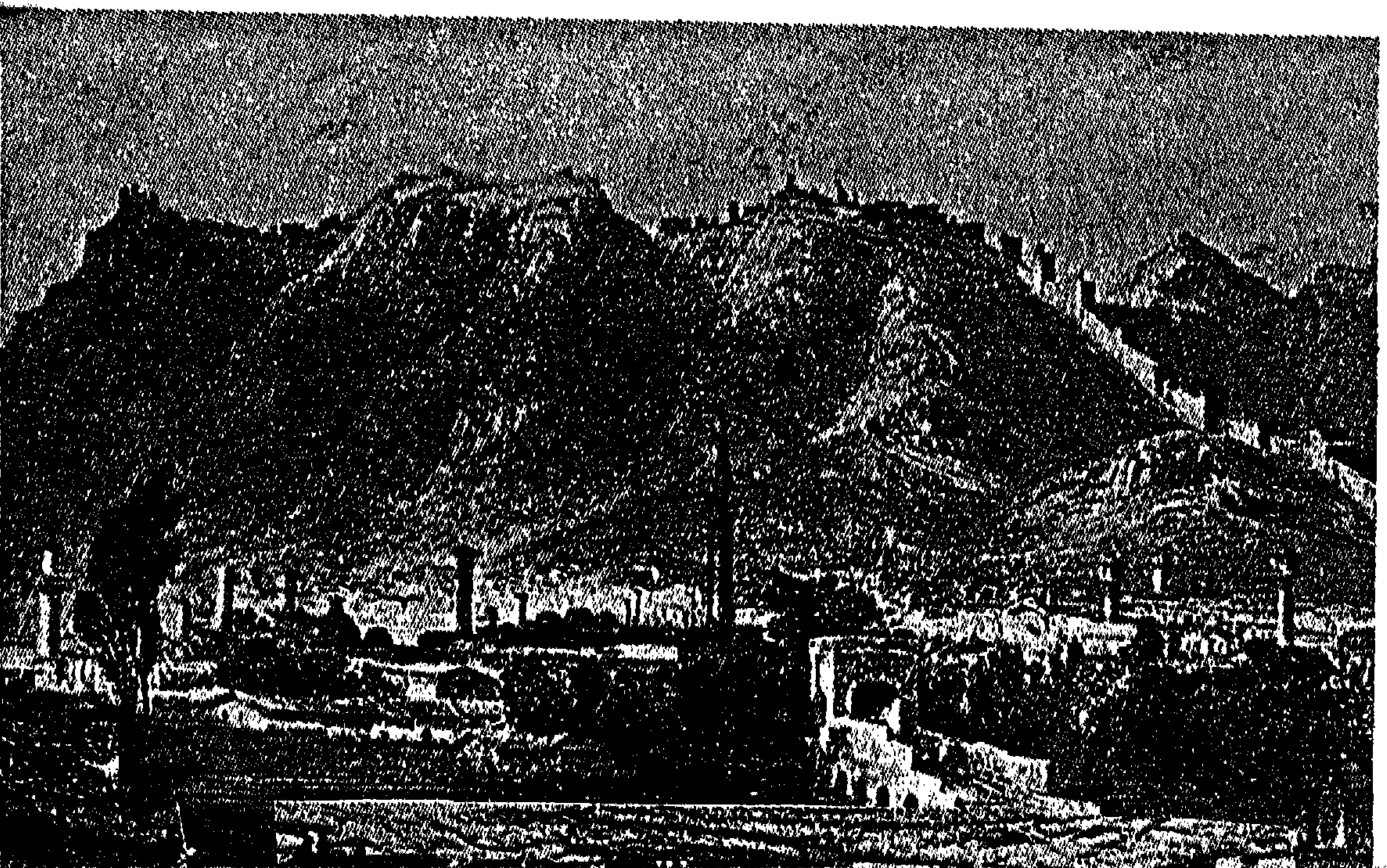
A KNIGHT OF THE LATE ELEVENTH CENTURY

فارس في اواخر القرن الحادي عشر



THE EMPEROR ALEXIUS I BEFORE CHRIST

الامبراطور الكسيوس والسيد المسيح



ANTIOCH FROM ACROSS THE RIVER ORONTES

The fortified bridge is in the foreground. The section of the wall where the Crusaders entered the city is on the right, on the slope behind the city buildings.

انطاكية ونهر الأورنت



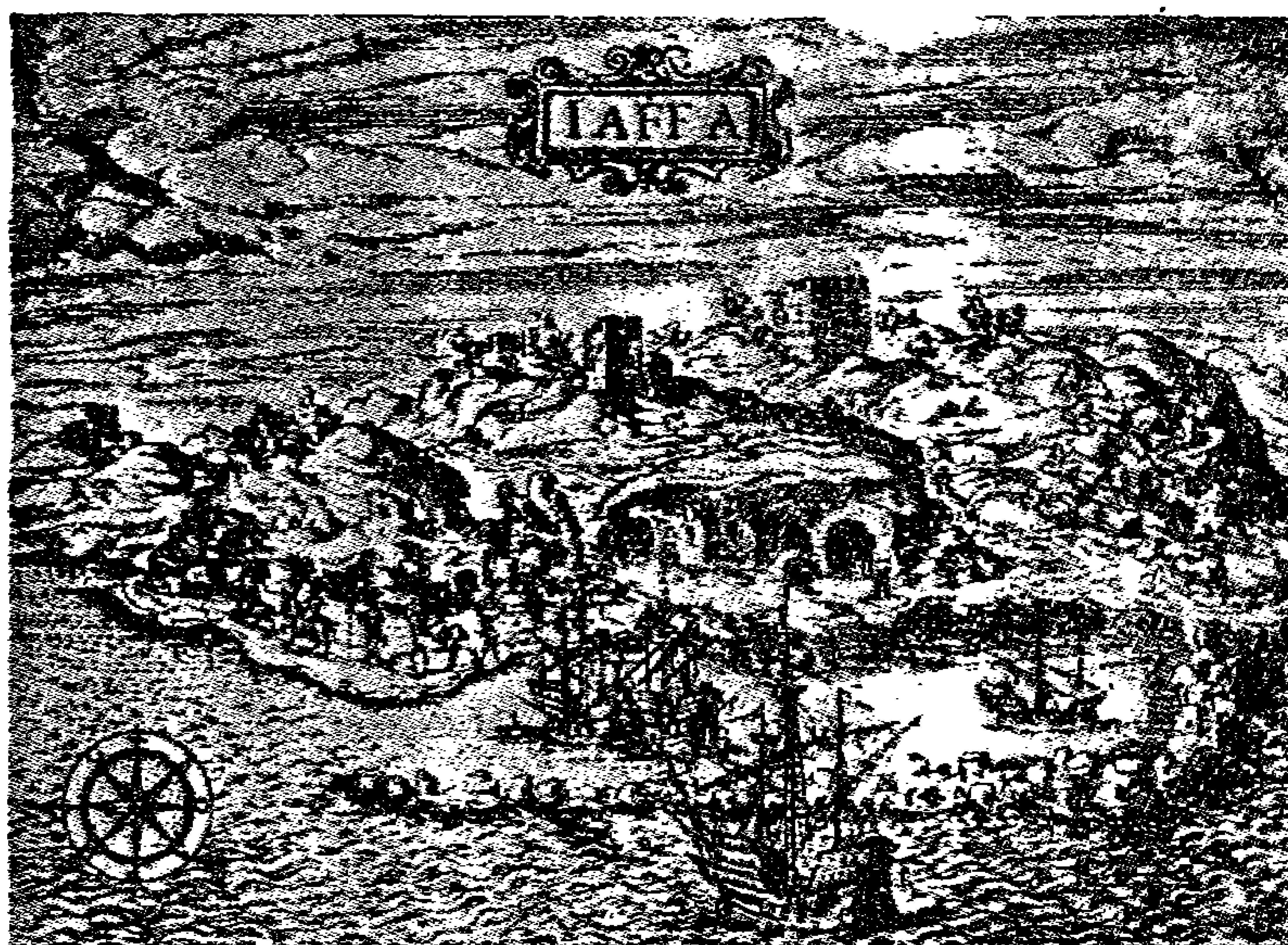
THE MOUTH OF THE DOG RIVER

مصب نهر الكلب



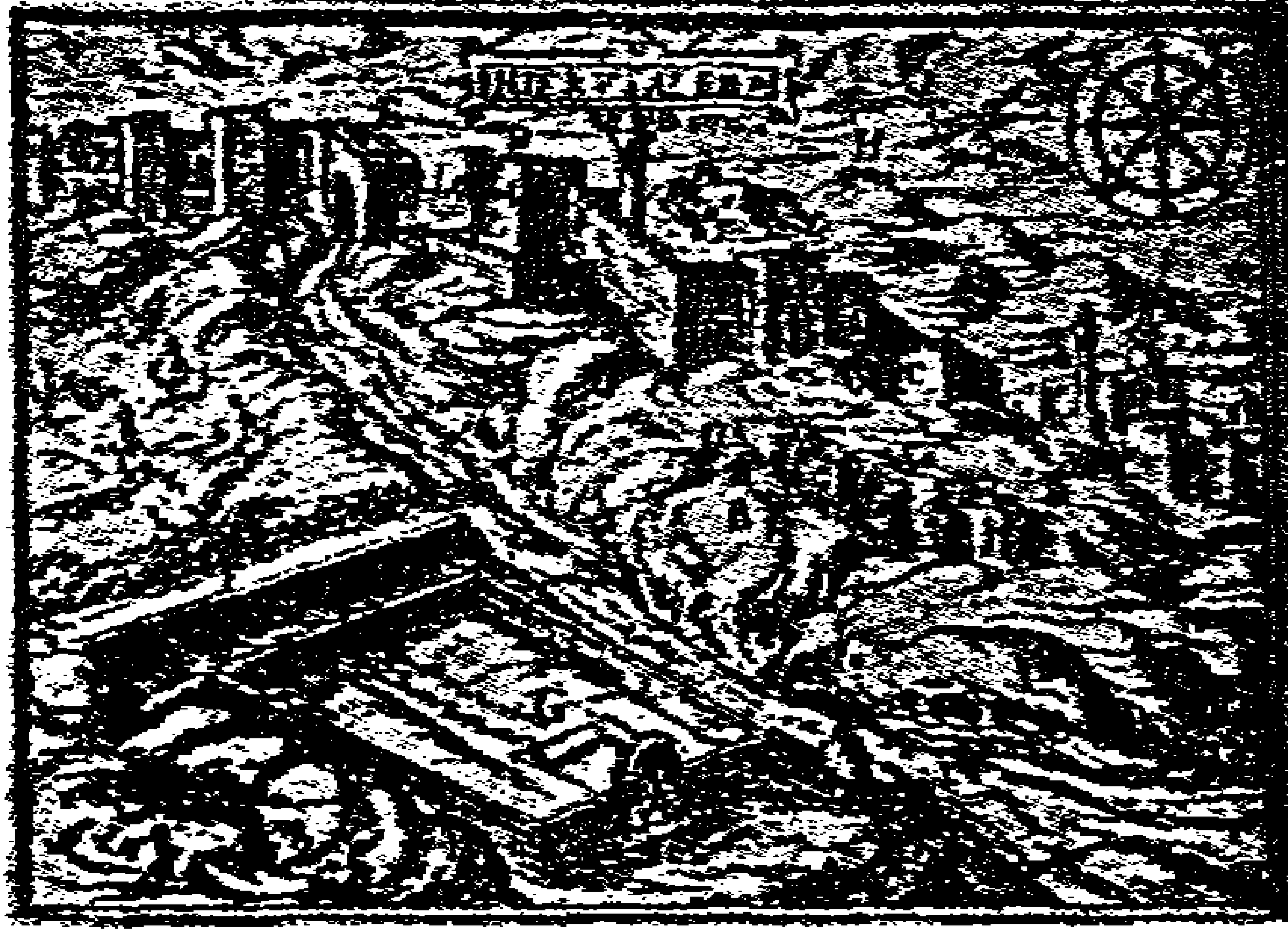
RAMLEH

الرملة



THE PORT OF JAFFA

ميناء يافا



A.	Il S.Cenacolo.	E.	Porta di Giaffa.
B.	Ruine della torre di Dauid.	F.	Acquedotto.
C.	Caſa di Caifa.	G.	Fontana di Berſabee.
D.	Caſtello.	H.	Mont'Oliueto.

JERUSALEM FROM THE SOUTH

بيت المقدس — من الجنوب

الكنيسة روحانية في الغرب ، فانه اعتبر الحج ، لا علاقة له بالدين ، بل يعتبر مصدر خطر عليه ، وتزع آباء الكنيسة اليونان الى الاتفاق معه [١] . وعلى الرغم من أن القديس جيروم لم يقر بأن للإقامة في بيت المقدس قيمة روحية ، فإنـه اعتبر أن من الدين ، التعبد في الموضع الذي وطأته قدما المسيح [٢] . ولقي رأيه من الذيوع والقبول مـا لم يلقه رأي أغسطين . وتضاعف عدد الحجاج بفضل تشجيع السلطات . ولم يستهل القرن التالي (الخامس) ، حتى صار في بيت المقدس وحولها نحو مائتي دير ونزل ، جرى تشييدها ، على حد ما تقول الرواية ، لاستقبال الحجاج ؛ وتكاد تكون جميعاً تحت رعاية الأمبراطور [٣] .

وشهد منتصف القرن الخامس ذروة هذا الميل المبكر لزيارة بيت المقدس . فالامبراطورة إيدوسيا ، وهي ابنة فيلسوف وثني بأثينا ، استقر بها المقام في بيت المقدس ، بعد أن افتقرت حياتها في البلاط الى السعادة ، وجـاء

= وجهها اليه، وهي رقم 2 : XLVII (Ibid. col . 493). ويشرح جيروم بأنه بفضل زيارته ازداد فهمه للأناجيل .

Liber Paralipumenon, preface in M.P.L. Vol. XXVIII cols. 1325-1326.

غير انـه في نوبة غضب كما يظهر في رسالته LVIII , 2 الموجهة الى Paulinus of Nola (Ibid . vol . XXII . col . 580) اشار الى انه ما من ثمة خسارة من الخسائر ، اذا لم تجر زيارة بيت المقدس .

(١) انظر : Saint Augustine, letter LXXVIII, 3, in MPL Vol. XXXIII p. 268 - 269. Contra Faustum XX. 21. ibid, vol XLII cols. 384 - 385.

انكر القديس جريجوري نازيانزين Nazianzene الحج .

Letter no II in, M. P. G. Vol. XLVI col. 1009.

غير انـه في موضع آخر اعرب عن رغبته في ان تتيح له واجباته الفرصة ليؤدي الحج .

(In Ephesianos VIII, 2. ibid, vol, LXII. col. 57).

(٢) انظر ما سبق ص ٦٣ حاشية ١ .

(٣) انظر : Couret : La Palestine sous les Empereurs grecs. p. 212

في صحبتها عـــدد كبير من الارستقراطية البيزنطية . وفي الفترات التي كانت تنصرف فيها عن كتابة التراتيم الدينية ، شجعت ما جرى وقتذاك من ازدياد الشغف بجمع المقدسات الدينية ، ووضعت أساس ما صار بالقسطنطينية من مجموعة كبيرة منها ، بأن بعثت الى القسطنطينية بصورة السيدة العذراء التي رسمها القديس لوقا[1] .

أهمية المقدسات الدينية :

وسار على نهج ايدوسيا الحجاج القادمون من الغرب ، ومن القسطنطينية . فمنذ الأزمنة الغابرة ، كان يرد من الشرق كل ما يحتاجه العـالم من مواد الترف . فأضحت الكماليات الدينية تأخذ طريقها ايضاً الى الغرب . فالمعروف أن المسيحية كانت أصلاً ديانة شرقية ، ومعظم القديسين والشهداء المسيحيين الأوائل ، كانوا من الشرق . وذاع الميل الى تمجيد القديسين . ومن المؤلفين الثقاة أمثال برودنتيوس واينـُودويوس ، من كان يدعو الى أن نجدة الله وعونه يصح التماسها عند مقابر هؤلاء القديسين ، وإلى ما يصدر عن أجسادهم من المعجزات والكرامات[2] . وأضحى الرجال والنساء يرتحلون الى الجهـات

---

(١) انظر : Bury : Later Roman Empire (A - D. 395 - 565) vol. I pp. 225 - 231 .
Nicephorus Callistus : Historia Ecclesiastica in M. P. G. vol CXLVI col . 1061 .
(اورد خبر اهتمام ايدوسيا بجمع المخلفات الدينية) .

(٢) انظر : Prudentius ; Peristephanon VI pp. 132 , 135 . Ennodius ; Libellum pro . Synodo p. 315 .
وكان القديس امبروز يعتقد في تأثير المقدسات الدينية .
(Letter XXII in M. P. L. vol XVI cols 1619 ff) .
واعتقد في ذلك ايضاً القديس فكتريكيوس . انظر :

البعيدة ، لمشاهدة المخلفات الدينية ، وأكثر من ذلك ، حاولوا أن يحصلوا على شيء من هذه المخلفات ، يحملونه الى بلادهم ، ويجعلونه في مزاراتهم المحلية. وأهم ما بقي من المخلفات في الشرق ، تلك التي ارتبطت بالمسيح وبقيت في بيت المقدس ، حتى انتقلت الى القسطنطينية ، ومخلفات القديسين التي بقي معظمها في مواطنها الأصلية . غير أن المخلفات الصغرى ، أخـــذت تتسرب الى الغرب ، نقلها اليه بعض الحجاج سعداء الحظ ، او بعض التجار المغامرين ، او جرى إرسالها هدية الى أحد الأمراء . ولم يلبث أن نفذت الى الغرب أجزاء صغيرة من المخلفـات الكبرى ، ثم بعض المخلفـــات الكبرى مكتملة . كل هذا ساعد على أن يهتم الغرب بالشرق ، فـكان لانجر Langres الذين اعتزوا بحيازتهم لأصبـع من أصابع القديس ماماس Mamas ، لا بد أنهم أرادوا القيـام بزيارة قيصرية في كبادوكيا ، التي عاش بها هذا القديس [1] . أما راهبات شامليير Chamaliéres ، وقد كان بكنيستهن رفاة تكلا Thecla ، فكان اهتمامهن الشخصي موجهاً لزيارة موطن تكلا في سلوقية الايزورية [2] . وحينما جلبت سيدة من مورين Maurienne ، من رحلاتها ، إبهـام القديس يوحنا المعمدان ، اشتد شغف صديقاتها بالرحيل ، لمشاهدة جثمانه في السامرة ، ورأسه في دمشق [3] . وتقرر إنفاذ سفارات

= (Saint Victricius: Liber de Laude Sanctorum. M. P. L. vol XX cols. 463 - 4).

وانظر ايضاً عن حرص القديس باسيل على التوصل الى معرفة أصالتها وحقيقتها :

Saint Basil , Letter no X CVII M. P. G vol XXX II cols 109 - 113 .

(١) انظر : Historia Translationum Sancti Mamantis veol Mammetis in Acta Sanctorum 17 August , vol III pp. 441 - 3 .

(٢) انظر : Mabillon : Annales Ordinis Sancti Benedicti . vol I p . 481 :

(٣) انظر : Gregory of Tours : De Gloria Martyrum in M. P. L. vol . LXXI cols . 719 - 720 .

Delehaye : Les Origines du Culte des Martyres . p . 99 .

بأكملها ، على أمل الحصول على هذا الكنز ، فقد يكون الكنز قارورة تحوي الدم المقدس ، او قطعة من الصليب المقدس ذاته . وما جرى تشييده من كنائس في الغرب ، اتخذت أسماء قديسين بالشرق ، او كنيسة القيامة ، وجرت العادة بأن شطراً من موارد هذه الكنائس ، يصير الاحتفاظ به ، لإرساله الى المواضع المقدسة ، التي استمدت منها أسماءها .

وزاد من هذا الاتصال بين الغرب والشرق ، النشاط التجاري الذي لا زال جارياً بشواطىء البحر المتوسط . على أنه أخذ يتداعى ، بسبب ازدياد ما حل بالغرب من الفقر ، وتوقف في بعض الفترات ، مثلما حدث في منتصف القرن الخامس ، حينما لم تعد البحار مأمونة للتجار المسالمين الذين لا يحملون سلاحاً ، وذلك بسبب القراصنة الوندال ، وما حدث في الشرق من السخط والهرطقة ، أضاف صعوبات جديدة . غير أن رحلات كثيرة ، دوّن خطوط سيرها في القرن السادس ، حجاج ارتحلوا شرقاً في سفن تجار يونانيين او سوريين . على أن التجار أنفسهم حملوا معهم من الأخبار الدينية والأسمار ، مثلما نقلوا البضائع والمسافرين . وبفضل هؤلاء المسافرين والتجار ، وقف المؤرخ جريجوري التوري على كثير من أمور الشرق . فأورد ما دار من الحديث بين القديس سمعان العمودي St. Symeon Stylités وبين التاجر السوري ، الذي شهده فوق عموده قرب حلب ، وفي هذا الحديث سأل القديس سمعان عن أخبار القديسة جنيفيف Genevieve بباريس ، وبعث اليها معه برسالة شخصية [1] . وعلى الرغم من المنازعات الدينية والسياسية التي نشبت بين السلطات المسيحية العليا ، فلا زالت العلاقات بين المسيحيين في الشرق والمسيحيين في الغرب ، تتسم بالود والصلة الوثيقة .

---

(١) Vita Genovefae Virginis Parisiensis p . 226 .

الحجاج في القرنين الثامن والتاسع :

وانتهت هذه المرحلة ، بما حدث من الفتوح العربية . فلم يعد التجـار السوريون يرتادون سواحل فرنسا وايطاليا ، يحملون الاواني والانبـاء . وظهر القرصان من جديد في البحر المتوسط . وارتاب الامراء المسلمون الذين يحكمون فلسطين فيمن قدم من الخـارج من المسافرين المسيحيين . أضحى السفر بالغ التكاليف ، شديد المشقة . ولم يعد بالعالم المسيحي الغربي إلا قدر ضئيل من الثراء . غير ان الاتصال لم ينقطع نهائياً . فلا زال المسيحيون الغربيون يفكرون في الاماكن المقدسة بالشرق ، وقد استبد بهم الشغف والشوق والأمل . فحينما حدث سنة ٦٨٢ اتهام البـابا مارتن الاول بصلاته الودية مع المسلمين ، فسّر ذلك ، بأنه استهدف من وراء ذلك الحصول على اذن بإرسال الصدقات الى بيت المقدس [١] . وفي سنة ٦٧٠ ارتحل الاسقف الفرنجي اركولف Arculf ، الى الشرق ، وعزم على أن يطوف بمصر وسوريا وفلسطين ، وأن يعود عن طريق القسطنطينية ، غير أن الرحلة استغرقت سنوات عديدة ، وصادفته عقبات كثيرة [٢] .

ومن أسماء الحجاج الآخرين الذين نعرفهم في هـذا الزمن ، فولفي Vulphy of Rue في بيكاردي ، و Bercaire of Montier - en Der ، في برجنديا ، وصديقه فايمار Waimer [٣] . على أن قصصهم تدل على أنـه لم يأمل بالفوز بالوصول الى بيت المقدس إلا المغامرون الغلاظ من الرجال . ولم تغامر امرأة فيما يبدو بالذهاب الى الحج .

---

(١) Martin I . Letter to Theodore in M. P. L. Vol . LXXXVII col . 199 - 200 .

(٢) انظر رحلة اركولف (Arculf) التي كتبها Adamnan وقـام على ترجمتها J . R . Macpherson .
ونشرها في مجموعة حجاج بيت المقدس P. P. T. S. .

(٣) انظر : De Sancto Walphlagio in Aa. Ss. 7 June,vol. II. pp. 30-31.

ازداد عدد الحجاج في القرن الثامن ، بل جـاء بعضهم فعلاً من انجلترا ، ومن اشهرهم ويليبالد Willibald الذي مات سنة ٧٨٠ وهـو أسقف ايخستات Eichstadt في بافاريا . و لمعروف أن ويليبالد ارتحل في صباه الى فلسطين ، بعد أن غادر روما سنة ٧٢٢ ، على أنه لم يرجع اليها إلا سنة ٧٢٩ بعد مغامرات كثيرة خطيرة سيئة [١] .

وحوالي نهاية القرن الثامن ، جرت فيما يبدو محاولة لتنظيم امور الحج تحت رعاية شارل الكبير . إذ أن شارل اعاد الى الغرب الامن وشيئاً من الرخاء ، وأقام علاقات طيبة مع الخليفة هرون الرشيد . وما تشيد من الفنادق في الارض المقدسة بفضل مساعدته ، يدل على أنه لا بد أن وصل الى بيت المقدس في زمنه ، عدد كبير من الحجاج ، ومن بينهم عدد من النساء . وجرى ارسال راهبات من اسبانيا المسيحية للخدمة في كنيسة القيامة [٢] . غير أن هذا النشاط لم يستمر طويلاً ، اذ تداعت الامبراطورية الكارولنجية ، وظهر من جديد ، القرصان المسلمون في شرق البحر المتوسط ، وقدم من الغرب القرصان الشماليون . ولمـا جاء برنارد الفيلسوف من بريتاني لزيارة فلسطين سنة ٨٧٠ ، ادرك أن ما أقامه بها شارلمان من مؤسسات لا زالت مستعدة للعمل ، غير أنها كانت خاوية ، وآخذة في الانهيار . ولم يستطع برنارد أن يقوم برحلته ، إلا بعد أن حصل على جواز بالسفر من السلطات الاسلاميـة التي كانت وقتذاك تحكم في باري بجنوب ايطاليا ، ومع ذلك فان هذا الجواز لم يمكنه من أن يهبط الى الاسكندرية [٣] .

---

(١) انظر : Willibald : Hodoeporicon . trans , by Brownlow in P.P.T.S. vol III .

(٢) انظر : Tobler & Molinier: Itinera Hierosolymitana vol I. P. 303.

(٣) انظر : The Itinerary of Bernard the Wise trans , by J. H. Bernard . P. P. T. S. vol III .

عصر الحجج الكبير :

على أن عهد الحجج الكبير يبدأ بالقرن العاشر الميلادي ، إذ فقد العرب آخر ما كان لهم من اوكار للقرصنة في ايطاليا وجنوب فرنسا ، اثناء هذا القرن ، وجرى ايضاً انتزاع كريت منهم سنة ٩٦١ . وكان للبحرية البيزنطية وقتذاك ، ولفترة من الزمن ، من السيادة على البحار ، ما يكفل إحياء التجارة البحرية في البحر المتوسط . فصارت السفن التجارية اليونانية والايطالية ، تتردد في حرية بين موانيء ايطاليا والامبراطورية البيزنطية ، وشرعت ، بفضل توافر النية الطيبة عند السلطات الاسلامية ، في التجارة مع الشام ومصر . وصار ميسوراً للحاج أن يحصل على ترخيص بالرحيل مباشرة من البندقية ، ومن بارى ، الى طرابلس والاسكندرية ، على الرغم من أن معظم المسافرين كانوا يؤثرون القدوم الى القسطنطينية ، ليشاهدوا ما اشتهرت به من مجموعة كبيرة للمخلفات الدينية ، ثم يواصلون سيرهم بالطريق البري او الطريق البحري ، الذي كفل له الاطمئنان ، ما أحرزته بيزنطة اخيراً من انتصارات حربية . وفي فلسطين ذاتها قلما أثارت العقبات بها ، السلطات الاسلامية ، سواء كانت عباسية او إخشيدية او فاطمية بل إنها رحبت بالمسافرين ، لما يجلبونه للإقليم من أموال .

وما حدث من تحسين احوال الحج ؛ كان له تأثير على الفكر الديني في الغرب . على أنه ليس معروفاً على وجه التحقيق ، العصر الذي بدأ الحج فيه يعتبر من أركان التكفير والتوبة عند الكنيسة . فما صدر في اوائل العصور الوسطى من رسائل عن التوبة Poenitentiala توصي بالحج ، غير أنها لم تورد أن له هدفاً خاصاً . غير أن الاعتقاد اخذ يزداد ، بأن لبعض المواضع المقدسة ، اهمية روحية خاصة ، تؤثر في اولئك الذين يقومون بزيارتها ، بل إنها قد تهب التحلل والتوبة من الذنب . وبذا أدرك الحاج أنه لم يستطع فحسب أن يحل ما يتعلق بالله والقديسين من مخلفات

على سطح الارض ، فيتوسل بها للاتصال الروحي مع الله والقديسين ، بل صار في وسعه ايضاً أن ينال عفو الله عما ارتكبه من خطيئة وذنب . وصار معروفاً منذ القرن العاشر أن لأربعة مشاهد هذه القوة الروحية ، وهذه المشاهد هي : مشهد سنت يعقوب في كومبوستيلا باسبانيا ، ومشهد القديس ميخائيل بأعلى جبل جارجيانو في ايطاليا ، ومواضع عديدة مقدسة في روما ، وأكبر هـذه المشاهد وأعظمها ، الأماكن المقدسة في فلسطين . وأضحى الوصول الى هذه المواضع ،بالغ اليسروالسهولة،بسبب ارتداد سلطان المسلمين ، او نيتهم السليمة . على أن السفر والارتحال لا زال يستغرق من طول الزمن ويثير من الحماس الديني ، ما يكفي لإرضاء ما اشتهر بـه الرجـل في العصور الوسطى من الإدراك السليم او الشعور الديني . فمن الحكمة ان يبتعد المذنب عن مسرح الجريمة لمدة سنة او اكثر قليلاً . وما تتكلفه رحلته من نفقات ومشاق ، يعتبر عقاباً وتأديباً له ، بينما ما يتحقق له من عمل ، وما يغلب على غرضه من جو عاطفي ، سوف يهبه الشعور بالقوة والطهارة الروحية ، فيعود رجلاً صالحاً [١] .

وما ورد من إشارات عابرة في كتب التواريخ ، يشير الى استمرار حركة الحج ، على الرغم من أن ما لدينا من أسماء الحجاج ، لم يكن في الواقع سوى اسماء كبار الشخصيات . ومن بين كبـار السادة والسيدات

---

(١) انظر : Rozière : Recueil général des Formules usitées dans L'Empire des Francs . vol . II . pp . 939 - 941 .

وأول من عرف من اسماء التائبين ، نبيل من الفرنجة اسمه فرومون Fromond قام بزيارة فلسطين مع اخوته ، كيا يكفر عن خطيئة ارتكبها في منتصف القرن التاسع .

انظر ايضاً عن فرومون :

The Peregrinatio Frotmundi , in Aa . Ss . 24 Oct . vol . X . pp . 847 ff .
Villey : La Croisade , Essai sur le Formation d'une Theorie Juridique pp . 141 ff .

الذين جاءوا من الغرب ، هيلدا كونتيسة سوابيا ، التي ماتت أثناء رحلتها سنة ٩٦٩ ، ويوديث دوقـة بافاريا ومن اصهار الأمبراطور أوتو الاول ، التي ارتحلت سنة ٩٧٠ . ومن الحجاج ايضاً ، كونتات ارْدش ، وفينا ، وفردان ، وأركى ، وانهالت ، وجورزيا . وأكثر من واظب على القيـام بالحج ، كبار رجال الكنيسة . فالقديس كنراد ، اسقف كنستانس قام بزيارة بيت المقدس في ثلاث رحلات مستقلة ، اما القديس يوحنا اسقف بارما ، فلم تقل رحلاته الى بيت المقدس عن ستة . وجاء الى بيت المقدس سنة ٩٢٠ اسقف أوليفولا . ومن رؤساء الأديرة الذين قاموا بالحج ، رئيس دير Saint - Gybar ، ورئيس دير Flavigny ، ورئيس دير اوريّاك Aurillac ، ورئيس دير Saint - Aubin d'Angres ، ورئيس دير مونتييه Montier - en - Der . وصحب هؤلاء معهم جماعات من فقراء الرجـال والنسـاء ، لم يحفل كتاب العصر بإيراد أسمائهم (١) .

ولم يكن هذا النشاط اساساً سوى نتيجة لمغامرة شخصية . غير أنه اخذ يظهر في السياسة الاوروبية قوة جديدة ، كان من بين أعمالها تنظيم طريق الحجاج . ففي سنة ٩١٠ أنشأ وليم الاول كونت اكيتانيـا دير كلوني . وبانتهاء القرن العاشر ، اضحى دير كلوني ، الذي تولى امره طائفة من الرؤساء المشهورين ، مركزاً لنواه كنسية ضخمة ، بالغة التنظيم ، شديدة التعلق ووثيقة الاتصال بالبابوية . اعتبر الكلونيون انفسهم ، حفظة للضمير في العـالم المسيحي الغربي . وأقر مذهبهم الحج . وأرادوا أن يبذلوا له مساعدة عملية . ففي بداية القرن التالي ، خضع لإشرافهم معظم الحجـاج

---

(١) انظر : Bréhier : L'Eglise et l'Orient au moyen age pp . 32 - 3 .
Ebersolt : Orient et Occident vol . I . pp . 72 - 73 .
أورد مراجع عن هذه الرحلات .

الذين توجهوا لزيارة المشاهد الكبيرة بأسبانيا . وأخذوا في الوقت ذاتـه ينظمون الرحلات الى بيت المقدس ، كما يقبل عليها سائر الناس . وبفضل تشجيعهم ، ارتحل الى الأرض المقدسة رئيس دير ستافيلوت Stavelot سنة ٩٩٩ ، كما سار اليها سنة ٩٩٧ كونت فردان . ومن الدليل على تأثيرهم ، ما حدث في القرن الحادي عشر من ازدياد عـــدد الحجاج القادمين من فرنسا واللورين ، ومن الجهات القريبة من كلوني ، ومن الأديرة التابعة لها . وعلى الرغم من استمرار زيادة الألمـان بين حجاج القرن الحادي عشر ، أمثال رئيس اساقفة ترييه وماينز ، وأسقف بامبرج ، فضلاً عن كثرة الحجاج من انجلترا ، فـلا شك أن حجاج فرنسا واللورين كانوا يفوقونهم عدداً . ومن اقرب اصدقاء كلوني ، البيتان الكبيران اللذان يحكمان بشمال فرنسا وهما كونتات انجو ودوقات نرمنديا ، برغم ما كان بينهما من نزاع وتنافس متبادل ، وكلا البيتين شجع الرحيل الى الشرق . والمعروف أن فولك نيـّرا المرعب كونت انجو ارتحل الى بيت المقدس سنة ١٠٠٢ ، ثم رجع اليهـا مرتين بعـــد ذلك . وأرسل رتشرد الثالث دوق نرمنديا الصدقات الى الاراضي المقدسة ، وقاد الدوق روبرت النرمندي اليها سنة ١٠٣٥ ، جماعة كبيرة . كل هـــذه الرحلات للحج دونها في أمانة الراهب جلابر المؤرخ الـكلوني [١] .

حجاج اسكنديناوة :

وسار النرمان على نهج دوقاتهم ، واشتهروا بما يؤدونه بصفة خاصة من

---

(١) انظر : Radulph Glaber in Bouquet, R. H. F. vol. X. pp. 20, 32, 52, 74, 106, 108.
Bréhier : op. cit. pp. 42 - 45.
Ebersolt : op. cit. pp. 75 - 81.

تبجيل واحترام للقديس ميخائيل ، ولذا هرع كثير منهم الى جبل جارجانو ، ومن ثم يستطيع المغامر منهم المضي الى فلسطين . وفي منتصف هـذا القرن (الحادي عشر) بلغوا من زيادة العـدد وشدة الحماس ، ما حمل حكومة القسطنطينية ، التي اشتهرت بسخطها على النرمان لما شنوه من الغارات على املاك بيزنطة في ايطاليا ، على أن ترتاب في حركة الحج [١] . ولم يكن بنو عمومة النرمان من السكنديناويين بأقل حماسة دينية منهم . ذلك أن السكنديناويين درجوا منذ زمن طويل على زيارة القسطنطينية ، واشتد تأثرهم بما اشتهرت به من ثروة وعجائب . فتحدثوا من بلادهم بالشمال عن ميكلجارد وهو الاسم الذي اطلقوه على القسطنطينية ، والتي اعتبروها اسجارد موطن الآلهة . وقد كان بالجيش الامبراطوري فعلاً ، حوالي سنة ٩٣٠ ، جماعة من الشماليين . وفي اوائل القرن الحادي عشر بلغوا من كثرة العدد ، أن تألفت كتيبة خاصة من الشماليين ، وهي التي اشتهرت بحرس الورنك . ولم يلبث الورنك أن درجوا على أن يقضوا الإجازة في رحلة الى بيت المقدس ، وأول من وصلتنا اخبـاره مدونة ، من هؤلاء الورنك ، كان كولسكجر Kolskegger ، الذي كان بفلسطين سنة ٩٩٢ . أمـا هارالد هاردرادا Harald Hardrada ، الذي يعتبر أشهر هؤلاء الورنك ، فقد كان

---

(١) Bréhier : op. cit . p. 42 .
يشير بريهيه الى أن ما أحدثه ميخائيل كرولاريوس من شقاق ديني سنة ١٠٥٤ : حمـل البيزنطيين على الارتياب في الحجاج ، أمّا ريان Riant فانه مضى الى أبعد من ذلـك حين أشار الى أن البيزنطيين أغلقوا طريق الحجاج . واستند في هـذا القول الى ما تعرض له Lietbert of Cambrai من تجربة أثناء تأدية الحج ، على الرغم من أن هذه التجربة قد تأثرت بأحوال سوريا وقتذاك .
انظر : Riant , Expeditions et Pelerinages des Scandinaves p. 125 .
غير أن البابا فيكتور (انظر ما يلي ص ٧٩ حاشية ٢) يرى أن موظفي الأمبراطور البيزنطي لم يكونوا دائماً مهذبين في معاملة الحجاج . والواقع أن ما يكنه البيزنطيون للنرمان من كراهية ، لا الشقاق الديني ، كان السبب في برود البيزنطيين .

بها سنة ١٠٣٤ . وفي أثنــاء القرن الحادي عشر ، ازداد عــدد النرويجيين والايسلنديين والدانمرقيين ، الذين أمضوا في خدمـــة الأمبراطور خمس سنوات او اكثر ، ثم أدوا فريضة الحج قبل العودة الى بلادهم في الشمال ، بما ادخروه من الثروة . وإذ تأثر اصدقاؤهم بمـا رووه من حكايات ، لم يرتحلوا صوب الجنوب إلا لتأدية الحج . إذ جاء الى بيت المقدس حوالي سنة ٩٩٠ ، رسول ايسلندا ، ثورفالد كودرانسون فيدتفورلي . وزعم عدد من الحجاج الشماليين ، بأنهم شهدوا اولاف تريجفاسون Tryggvason ، اول ملك مسيحي في النرويج ، بعـــد اختفائه الغريب سنة ١٠٠٠ . وعزم اولاف الثـــاني على أن يسير على نهجه ، غير أن رحلته لم تجر إلا في الاساطير . واشتهر هؤلاء الامراء الشماليون بالعنف والقسوة ، وبأنهم في احوال كثيرة ارتكبوا جرائم القتل ، وفي احوال أخرى ، كانوا في حاجة الى التوبة والمغفرة . إذ أن سوين جودونسون Godwinson ، الذي تجري به دمـــاء دانمرقية ، سار وبصحبته جماعة من الانجليز في سنة ١٠٥١ للتكفير عن جريمة قتل ارتكبها ، غير أنه مات في الخريف التالي بجبال الاناضول . وقد سار حافي القدمين ، بسبب ما ارتكبه من ذنوب . أما لانجمان جودرودسن Gudrôdsson ، ملك جزيرة مان من الشماليين ، الذي اغتال اخاه ، فقد التمس العفو والغفران من الله على هـــذا النحو ايضاً . وأحب معظم الحجاج السكنديناويين ، أن يتخذوا طريقاً دائرياً ، بأن يقدموا بطريق البحر مجتازين مضيق جبل طـــارق ، وأن يعودوا بطريق البر ، عبر روسيا [١] .

---

(١) Riant : op. cit. pp. 97 - 129 .
يعتبر أوفى مرجع عن الحجاج الشماليين .

الرحلة عبر الحدود (البيزنطية):

على أن الحجاج القادمين من الغرب، في القرن العاشر، اضطروا الى السير بحراً، مجتازين البحر المتوسط، الى القسطنطينية او الى الشام. غير أن الاجور كانت باهظة، ولم يكن من اليسير الحصول على مكان بالسفينة. وفي سنة ٩٧٥، تحول ملوك المجر الى المسيحية، فانفتح بذلك الطريق البري الذي يسير ازاء نهر الدانوب، ويجتاز البلقان حتى يبلغ القسطنطينية. على أن هذا الطريق ظل محفوفاً بالخطر، حتى سنة ١٠١٩، حين اضحى لبيزنطة السيطرة التامة على شبه جزيرة البلقان، فصار بوسع الحاج منذئذ أن يجتاز المجر، دون أن يتعرض لخطر جسيم، حتى يعبر الحد البيزنطي عند بلغراد، ثم يمضي في السير مخترقاً صوفيا وأدرنه، حتى يبلغ العاصمة. على أنه يستطيع أن يتخذ طريقاً آخر، بأن يمضي الى ايطاليا البيزنطية، ويجتاز البحر الأدرياتي في رحلة قصيرة من باري الى دورازو، ثم يسلك الطريق الروماني القديم المعروف باسم Via Egnatia، مجتازاً سالونيك، الى البوسفور. على أن ثلاث طرق رئيسية صالحة، يستطيع أن يتخذها الحاج من البوسفور عبر آسيا الصغرى الى انطاكية. ومنها يمضي الى الساحل، الى اللاذقية، وينفذ بالقرب من انطرسوس الى الاراضي الفاطمية. وهذا هو الحد الوحيد الذي كان لزاماً عليه أن يجتازه منذ وصوله الى بلغراد، او الى تيرمولي Termoli في ايطاليا، ثم يستطيع أن يمضي في سيره، دون أن تصادفه عقبات أخرى. على أن السفر براً، برغم بطء السير، كان أقل تكاليفاً، وأكثر راحة من السفر بحراً، وهو اكثر ملاءمة للجماعات الكبيرة من الحجاج.

وكلما سار الحجاج في هدوء ونظام، استطاعوا أن يرتكنوا الى ما يبذله الفلاحون بالأمبراطورية لهم من الضيافة والمعاملة الطيبة. ففي المرحلة الاولى من رحلتهم، اخذ الكلونيون يشيدون المنازل على امتداد الطريق؛

فقامت بايطاليا منازل عديدة ، اقتصر استخدام بعضها على الشماليين . وجرى تشييد دار كبيرة في ملك Melk باستريا [١] . وتقرر حجز دار سامسون بالقسطنطينية ، ليستخدمها حجاج الغرب ، وأقام الكلونيون داراً في رودوستو Rodosto بضواحي القسطنطينية [٢] . وفي بيت المقدس كان بوسع الحجاج أن ينزلوا في مستشفى القديس يوحنا ، الذي أنشأه تجار أمالفي [٣] . لم يكن ثمة ما يمنع كبار السادة القادمين من الغرب ، من أن يصحبوا معهم حرساً مسلحاً ، طالما يجري ضبطهم ، وحاول معظم الحجاج أن يلحقوا بهذه الجماعة . على انه لم يكن من الامور النادرة ، او من الامور المعرضة للخطر ، أن يسير الناس الى الاراضي المقدسة ، أحاداً وأزواجاً او ثلاثاً . وفي بعض الاحوال يصح أن تستجدّ عقبات ومتاعب . ففي إثناء الاضطهاد الذي أنشبه الحاكم ، لم يكن من اليسير أن يقيم الحاج زمناً طويلاً في فلسطين ، على الرغم من أن سيل الحجاج لم ينقطع مطلقاً ، وفي سنة ١٠٥٥ يعتبر العبور الى الاراضي الاسلامية امراً بالغ الخطورة . فلم يمنح والي اللاذقية تصريحاً بالخروج لأسقف كمبراي ، ليتبرت ، فاضطر الى المسير الى قبرص [٤] . وفي سنة ١٠٥٦ منع المسلمون ، بايعاز من الامبراطور فيما يبدو ، المسيحيين القادمين من

---

(١) Orderic Vitalis Historia Ecclesiastica III . 4 . vol II . p. 64 .

(٢) Riant : op . cit . p. 60 .

(٣) William of Tyre XVIII 4 - 5 , 1 . pp. 822 - 6 .

Aimé : Chronicon , p. 320 .

(٤) انظر : « Vita Lietberti » in d'Achéry , Spicilegium vol IX . pp. 706 - 712 .

أما الحجيج الألماني الكبير الذي جرى ١٠٦٤ — ١٠٦٥ ، والذي يبلغ عدده نحو ٧ آلاف حاج ، فانه أدرك سوء الأحوال السائدة في الجهات الواقعة جنوب الحد البيزنطي .

أورد خبر هذه الحجيج : Annales Altahenses Majores . p. 815 .

Joranson : « The Great German Pilqrimge of 1064 - 1065 » .

الغرب ، من دخول كنيسة القيـــامة ، وطردوا من بيت المقدس نحو ثلثمائة منهم [١] . ومن الجرائم التي ارتكبها الامبراطور باسيل الثـــاني وابنة اخته الامبراطورة تيودورا ، أنهما أمرا موظفي الجمارك بأن يتقاضوا ضريبة على كل الحجاج وخيولهم . وكتب البـــابا فيكتور الثـــاني الى الامبراطورة تيودورا في ديسمبر سنة ١٠٥٦ ، يلتمس منها الغـاء هذا الامر . ويتبين من رسالة البابا ايضاً أن كان للأمبراطورة موظفون ايضاً في بيت المقدس ذاتها [٢] .

على أن هذه المضايقات كانت نادرة ، فطوال القرن الحادي عشر حتى العشرين سنة الأخيرة منه ، لم ينقطع سيل المسافرين عـن التدفق صوب الشرق ، ففي بعض الأحيان كانوا يرتحلون جماعات يبلغ عددها الألوف من الرجال والنساء ، من جميـع الأعمار وجميع الطبقات ، استعدوا في ذلـك العصر الحافل بالفراغ ، لأن يمضوا في رحلتهم سنة او اكثر من سنة ، فيصح أن يتوقفوا في القسطنطينية لمشاهدة المدينة الكبيرة التي تزيد في ضخامتها عشر مرات على كل مدينة عرفوها في الغرب ، وكيما يبـــذلوا التمجيد والتقدير لما تحويه من المخلفات الدينية . فيرون بهـــا تاج الشوك ، ورداء المسيح ، وكل المخلفات الكبيرة المتعلقة بآلام المسيح . وبالقسطنطينية ايضاً المنديل الوارد من الرها والذي انطبع عليه وجه المسيح ، وصورة العذراء

---

(١) « Miracula Sancti Wolframini Senonensis » in Acta Sanctorum Ordinis Sancti Benedicti . Saeculum . III . pt . I . pp. 381 - 382 .
وانظر ايضاً عن المسافرين الذين التقى بهم ليتبرت بعد طردهم من فلسطين :
Vita Lietberti : loc . cit .

(٢) انظر : Letter of Victor II in M. P. L. vol . CXLIX cols 961 - 2 .
وهو المنسوب خطأ الى البابا فكتور الثالث .
Riant : Inventaire critique des Lettres historiques des Croisades pp. 50 - 53 .

التي رسمها القديس لوقا ، وشعر يوحنا المعمدان ، وعباءة الياس Elijah ، وعدد لا حصر له من أجساد القديسين والأنبياء والشهداء ، وذخيرة لا حد لها من أقدس الأشياء في العالم المسيحي [1] . ومن القسطنطينية يمضون الى فلسطين ، الى الناصرة وجبل الطور ، والى نهر الاردن وبيت لحم ، والى جميع المشاهد في بيت المقدس . فيتطلعون اليها كلها ، ويتضرعون اليها جميعاً ، ثم يتخذون طريق العودة الطويل الى بلادهم ، وقد استقامت امورهم ، وتطهروا تماماً ، فيستقبلهم قومهم بالتحيات والترحاب على أنهم حجاج المسيح ، الذين قاموا بأقدس الرحلات .

على أن نجاح الحجيج توقف على شرطين ، الاول : لا بد أن يتوافر للحياة في فلسطين من الأمن ، ما يكفي المسافر الاعزل لأن يتحرك وأن يعبد الله ، في أمن . أما الشرط الثاني : فهو أنه ينبغي أن يظل الطريق مفتوحاً وزهيد النفقات .

وتطلب الشرط الاول السلام والحكومة الصالحة في العالم الاسلامي ، بينا تطلب الشرط الثاني الرخاء وبذل الخير في بيزنطة .

---

(١) Ebersalt : Les Sanctuaires de Byzance pp. 105 ff .

الفصل الرابع

في الطريق الى الكارثة

ساد العالم الذي يقع شرق البحر المتوسط ، من الهدوء والسلام ، في منتصف القرن الحادي عشر ، ما تراءى أنه سوف يستمر سنوات عديدة ، إذ تمّ الوفاق والوئام بين أكبر دولتين به ، وهما الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية . فلم تعتد إحداهما على الأخرى ، بل أرادت كلتاهما أن تعملا على كبح الإمارات الإسلامية الواقعة الى الشرق منها ، حيث أثار المغامرون الترك الاضطرابات والقلاقل ، ومع ذلك لم تسبب هذه الاضطرابات انزعاجاً خطيراً لحكومتي القسطنطينية والقاهرة . واشتهر الفاطميون بعلاقاتهم الودية مع المسيحيين ، فلم يحدث اضطهاد لهم منذ وفاة الحاكم ، وأخذ الفاطميون يفتحون موانيهم ، للتجار القادمين من بيزنطة وإيطاليا ، وأفاد من هذه النوايا الطيبة التجار والحجاج على السواء .

هذه النية السليمة كفلتها قوة بيزنطة . فبفضل طائفة من الأباطرة العسكريين ، امتدت الأمبراطورية البيزنطية وقتذاك من جبال لبنان الى نهر الدانوب ، ومن نابولي الى بحر قزوين . وفاقت بيزنطة غيرها من الدول المعاصرة في الإدارة الحسنة ، برغم ما تعرضت له من الفساد أحياناً ، وما

ساد بها من الفتن أحياناً اخرى . ولم تبلغ القسطنطينية من الثروة مثلما بلغته في عهودهم . إذ كانت تعتبر بلا منازع ، حاضرة العالم من الناحيتين المالية والتجارية ، فهرع اليها التجار من أقصى البلاد ، من ايطاليا وألمانيا وروسيا ، ومن مصر والشرق ، فصاروا يتزاحمون على ابتيــاع ما تنتجه مصانعها من أدوات الترف والزينة ، ويعرضون للتبادل سلعهم بالغــة الخشونة . فالحياة الصاخبة بتلك المدينة (القسطنطينية) التي تزيد على القاهرة وبغداد في اتساعها وكثرة عدد سكانها ، لا بد أنها أدهشت الزائر ، بمينائها الزاخر بالسفن ، وبوفرة أسواقها ، وامتداد أرباضها ، وضخامة كنائسها ، وروعة قصورها . أما البلاط الأمبراطوري ، برغم أنه كانت تشغله وقتذاك اميرتان متقدمتان في العمر ، مريعتا الإثارة ، فتراءى للزائر كأنه مركز العالم .

وإذا كان الفن يعتبر مرآة المدنية ، فقد بلغت المدنية البيزنطية شأناً كبيراً . فأظهر فنانو القرن الحادي عشر كل ما اتصف به أسلافهم القدامى من الاتزان والتحفظ ، غير أنهم اضافوا صفتين استمدوهما من التراث الشرقي : الصفة الاولى هي ما اشتهر به الايرانيون من الزخارف الخصبة ، والثانية هي ما اشتهر به الشرق القديم من النزعة التصوفية الجادة . وما تخلف عن هذا العصر من الأعمال سواء كانت تتمثل في تحف صغيرة من العاج ، او مسطحات كبيرة من الفسيفساء ، او من الكنائس الإقليمية مثل كنيستي « Holy Luke , Daphne » في بلاد اليونان ، فكلها تدل على مــا حدث من ترابط المؤثرات واندماجها سوياً في صورة مكتملة . أما آداب ذلك العصر ، فانهــا تدل على تنوع ، يبلغ في مجموعه مستوى فائقاً ، على الرغم من شدة مــا اعترضه من عقبات نبعت من ازدياد إحساس الناس وتقديرهم لأعمال القدماء . لقد وصل الينا ما ألفه يوحنا دياكونس Diaconus من تاريخ متزن ، وما أنشأه كريستوفر ميتلين Christopher of Mitylene من اشعار غنائية رقيقة ، فضلاً عن ملحمة ديجنيس اكريتاس البــالغة الشهرة ، ومــا اشتهر به الجندي كايكومينوس Caecumenus من صفات

خشنة ، وما صدر عن ميخائيل بسيللوس من مذكرات عن البلاط ، تتسم بالتحقير والسخرية . والواقع أن الجو يغلب عليه ما اشتهر به القرن الثامن عشر من الرضى ، بما حفل بأمور العالم الآخر وبالتشاؤم ، الذي لم تتحرر منها ابداً بيزنطة ، وما تتسم به شخصية الرجل اليوناني من المكر والعناد ، لم يرض سائر الطلاب في القرن الخامس قبل الميلاد أن يرسموها . وعقّد البيزنطي هذه الصفة ، بما دخل فيه من دماء شرقية . وترتب على ذلك ما اشتهر به البيزنطي من المغالطات والمتناقضات . فكان بالغ الميل الى أن يكون عملياً ، شديد النزوع لممارسة التجارة ، فضلاً عن حبه للتشاريف الدنيوية ، ومع ذلك كان دائماً مستعداً لأن يتخلى عن الدنيا ، ولأن يلتزم حياة التنسك والتأمل التصوفي . كان شديد الإيمان برسالة الأمبراطورية المقدسة ، وبما للأمبراطوار من سلطة إلهية ، ومع ذلك كان محباً للانفرادية والذاتية ، سريع المبادرة للتمرد على كل حكومة تثير سخطه . وعلى الرغم من ارتياعه من الزندقة ، فإن ديانته التي تعتبر من أشد صور المسيحية تصوفاً ، هيأت له ، سواء كان من العلمانيين او من رجال الدين ، أن ينال حظاً كبيراً من الفلسفة . ازدرى جيرانه واعتبرهم متبربرين ، ومع ذلك لم يلبث أن نقل عنهم عاداتهم وأفكارهم . وعلى الرغم من ادعائه وكبريائه ، لم يكن متزن الأعصاب ، وما اصاب بيزنطة من الكوارث بلغ عادة من الشدة والعنف ، أن فقد البيزنطي ثقته في كل شيء . فاذا وقعت أزمة مفاجئة ، ارتعد خوفاً ، وارتكب من الأعمال الوحشية ما يأنف أن يقوم بها في اوقات السلم والهدوء . فقد يكون حاضره حافلاً بالهدوء والجمال ، غير أن النبوءات العديدة لم تلبث أن تنذره ، بأن مدينته سوف يحل بها الدمار في يوم من الأيام ، فيعتقد في صدقها . فما من سعادة او هدوء يصح التماسه في هذا العالم المظلم الفاني ، بل في مملكة الله .

تدهور الاقتصاد البيزنطي :

على أن مخاوفه كان لها ما يبررها ، فلم تكن قواعد الدولة البيزنطية بالغة السلامة ، اذ أن الأمبراطورية الضخمة جرى تنظيمها على اساس توفير اسباب الدفاع عنها. فتولى حكم الأقاليم قادة عسكريون، يخضعون للإدارة المدنية بالقسطنطينية . وهذا النظام خلق من القوة العسكرية المحلية بالغة القدرة والكفاية ، ما يكفي للدفاع عن منطقتها في اوقات الغارة ، وفي وسعها أن تنحاز الى الجيش الأمبراطوري الاسامي ، في حملاته الكبيرة . غير أنه متى زال الخطر ، وهب حاكم الاقليم قوة بالغة الشدة ، ولا سيما اذا بلغ هذا الحاكم من الثروة والغنى ما يحمله على التخلي عن سيده ومولاه في العاصمة . يضاف الى ذلك أن الرخاء اخذ يدمر نظام الفلاحة في آسيا الصغرى . فالعمود الفقري لبيزنطة إنما تمثل في مجتمعات الفلاحين الأحرار ، الذين حازوا اراضيهم من الحكومة مباشرة ، مقابل ما يؤدونه عادة من الخدمات الحربية . غير ان الارض في بيزنطة ، وفي كل مكان في العصور الوسطى ، تعتبر الاستثمار الوحيد السليم للثروة . فكل رجل ثري كان يسعى للحصول على الارض . وحضت الكنيسة الاتقياء من المسيحيين على ان يهبوها اراضي . وتعتبر الارض الجائزة المألوفة التي يجري بذلها للقادة النابهين او وزراء الدولة الجديرين بها. وكلما أخذت الامبراطورية تسترد الارض من العدو ، او تعمر بالسكان المناطق التي هجرها اهلها ، بسبب ما تعرضت له من الغارات والتخريب ، اضحى كل شيء يسير على احسن وجه ، غير أن ما احرزته في ذلك من نجاح باهر ، ولّد النهم لامتلاك الارض. ولم يكن في وسع الأعيان او الأديرة ان تزيد في اراضيها إلا بشرائها من الفلاحين الذين كانوا في حاجة الى المال ، او بالحصول على قرى بأكملها ، إما منحة من الدولة وإما بالتعهد بدفع ما على السكان من ضرائب . وحرص الاباطرة العقلاء على منعهم . نظراً لأن المالك الجديد للأرض ، لم يستطع عادة أن يقاوم الميل الى تحويل ارضه الى مراع للأغنام .

وأكثر من ذلك ، أن انتقال إقطاعات العساكر الفلاحين ، هيأ للمالك من السلطة والنفوذ ، مــا يحمله على تأليف جيش خاص ، فضلاً عن إضعاف جيش الدولة . غير أن تشريعهم لم يؤد الى نتيجة . إذ حدث في اثنــاء القرن العــاشر ، أن ظهرت في بيزنطة طبقة ارستقراطية من ملاّك الاراضي ، بلغت من الثراء والنفوذ ، ما جعلها تتحدى الحكومة المركزية . ولم يستطع باسيل الثاني ، اعظم اباطرة الاسرة المقدونية أن يقمع ، إلا بعد جهد شاق ، ثورة قام بهــا في مستهل حكمه جماعة من هــذه الطبقة الارستقراطية .

انتصر باسيل ، وطال أمد مجده وهيبته ، حتى زالت الاسرة المقدونية سنة ١٠٥٦ ، بوفاة تيودورا ابنة اخته . فلو أن البيت المقدوني أنجب ورثــة للحكم من الذكور ، لتوطد مبدأ الوراثة في ولاية العرش الامبراطوري ، ولاستطاعت بيزنطة أن تحوز من القوة مــا يكفل الحد من قوة طبقة النبلاء الوراثية . غير أنــه على الرغم من أن الولاء للأسرة ، هيــأ للامبراطورة زوي ، وأزواجها المتتالين ، أن يحكموا في استهتار ودون مبالاة ما يقرب من ثلاثين سنة ، وكفل للأمبراطورة تيودورا أن تنفرد بالحكم ، فإن عوامل مدمرة اخذت تنمو طوال هذه الفترة . ولما ماتت تيودورا ، اشتدت المعارضة بين الحزبين البيزنطيين المتنافسين ، وهما حاشية البلاط التي تسيطر على الادارة المركزية ، والأسرات النبيلة التي يخضع لها الجيش . أما الكنيسة فإنها بفضل ما لها من صلة بالمعسكرين ، حاولت أن تقيم التوازن بينها [١] .

---

(١) عن المدنية البيزنطية وقتذاك ، انظر :
Jorga : Histoire de la Vie Byzantine . vol . II pp . 230 - 249 .
Vasiliev : Histoire de l'Empire Byzantin vol I . pp . 476 - 492 .
عن مشكلة الفلاحة في بيزنطة انظر : =

كومنين ودوكاس :

ولم تكد غيبوبة الموت تنزل بالامبراطورة ، التي جاوزت السبعين من عمرها ، والتي ظلت حتى آخر ايامها ، تؤمن بنبوءة تشير الى أنها سوف تحكم سنوات عديدة ، حتى بادر حزب البلاط ، الى أن يرشح للعرش ، موظفاً طاعناً في السن ، من موظفي الادارة المدنية ، اسمه ميخائيل استراتيوتيكوس Michael Stratioticus ، غير أن الجيش لم يقبل الامبراطور الجديد ، فزحف على القسطنطينية ، وأصر على أن يتولى العرش قائد الجيش ، فانسحب ميخائيل دون أن ينشب القتال ، وصار القائد اسحاق كومنينوس امبراطوراً ، وبذلك فازت الارستقراطية العسكرية في الجولة الاولى .

لم يختلف اسحاق كومنين عن سائر رفاقه النبلاء البيزنطيين ، إذ كان من الارستقراطية البيزنطية ، غير أنه ينتمي الى الجيل الثاني منها . كان ابوه جندياً من تراقيا ، والراجح انه من الافلاخ ، استرعى اهتمام الامبراطور باسيل الثاني ، فمنحه اراضي في بافلاجونيا ، حيث شيّد قلعة اشتهرت باسم قلعة كومنين Castra Comnenon ، ولا زالت حتى اليوم معروفة باسم قسطمونيه Kastamuni . وورث اسحاق وأخوه يوحنا ، عن ابيهما الاراضي والبسالة الحربية ، وتزوج كلاهما من الارستقراطية البيزنطية ، اذ كانت زوجة اسحاق ، اميرة تنتمي الى اسرة ملكية سابقة في بلغاريا ، أما زوجة يوحنا فكانت من سلالة اسرة دلاّسيني الكبيرة . إنما على الرغم من ثروة

Ostrogorowsky, AgrarianConditions in the Byzantine Empire, inThe = Gambridge Economic History of Europe vol . I . p. 204 ff .

عن التاريخ السياسي انظر :

Bury : Roman Emperors from Basil II to Isaac Komnenos in Selected Essays pp . 126 - 214 .

Ostrogorowsky : Gesehichte des Byzantinischen Staates. pp. 224 - 248 .

اسحاق ، وقيادته العليا ، ومساندة الجيش له ، فإنه ادرك أن حكومته تتعرض باستمرار لكراهية الادارة المدنية ، فلم يلبث بعد نضال استمر سنتين ، أن استسلم ، ولجأ الى الدير . ولما لم يكن له وريث ، اختار قسطنطين دوكاس خليفة له ، فلم تغفر له ذلك أنّا دلاّسينا ؛ اخت زوجته .

ويعتبر قسطنطين دوكاس رأس اعرق البيوت الارستقراطية وأكثرها ثروة على الترجيح ، غير أنه شق طريقه في البلاط . ولذا كان اسحاق يأمل في أن يكون مقبولاً عند الفريقين ، غير أنه لم يلبث أن دلّ على أن ميوله بعيدة عن ميول طبقته ، إذ كانت خزانته خاوية ، وكان الجيش من القوة ما يعتبر مصدر خطر على الامبراطور ، فلم يجد لذلك حلاً سوى أن يعمل على إنقاص عدد القوات المسلحة ، ويصح أن يدافع عن هذا الاجراء ، باعتباره من دواعي السياسة الداخلية . على أنه لم يحدث طوال التاريخ البيزنطي ، أن كان إضعاف قوة الدفاع الامبراطورية يعتبر من الامور السليمة ، فهذا الاجراء يعتبر في تلك اللحظة بالغ الضرر ، اذ اخذت سحب العواصف تهب من الشرق ، بينما انبثقت عاصفة في الغرب (١) .

فمنذ عشرات السنوات ، اضطربت احوال جنوب ايطاليا وسادت فيه الفوضى ، فالمعروف رسمياً أن حد الامبراطورية البيزنطية كان يمتد من تيرّاشينا على ساحل البحر التيراني ، الى تيرمولي ، على ساحل البحر الادرياتي . غير أنه لم يخضع للحكم البيزنطي المباشر في داخل هذا الخط ، سوى ابوليا وكالابريا . وكان السكان بهذه الجهات ، يتألفون اساساً من

---

(١) Ostrogorowski : op eit : pp . 238 - 242 .
Diehl : Le Monde Oriental de 398 à 1081 pp . 523 - 631 .

اليونانيين . وعلى الساحل الغربي قامت المدن التجارية المستقلة : جائيتا ، ونابولي ، وأمالفي . وهـذه المدن الثلاثة كانت من الناحية الاسمية تنتمي الى الامبراطور (البيزنطي) . فالأمالفيون الذين كان لهم وقتذاك تجارة رائجة مع الشرق الاسلامي ، ادركوا ما لرضى الامبراطور ونيته السليمة من فائدة في مفاوضاتهم مع السلطات الفاطمية ، فجعلوا لهم قنصلاً دائماً في القسطنطينية . وعلى الرغم من أن اهل نابولي وجائيتا لم يقلّوا عن الامالفيين حرصاً على التجارة مع المسلمين ، فإنهم كانوا اقل اكتراثاً منهم ، بالامبراطور . أمـــا داخل البلاد فحازه الاميران اللومبارديان ، اللذان يملكان بنيفنتو ، وسالرنو ، واعترفا ، على التبادل ، بالامبراطورين الشرقي (البيزنطي) والغربي (الالماني) ، غير أنهما لم يولياهما شيئاً من الاحترام . ولا زالت صقلية في ايدي المسلمين ، على الرغم من المحاولات العديدة التي قامت بها بيزنطة لإعادة فتح الجزيرة . وما حدث من الغارات على امتداد السواحل الايطالية ، من صقلية او من افريقيـــة ، زاد في الاضطراب والفوضى بايطاليا .

ابناء تانكرد هوتفيل :

وقدم الى هذه المناطق أعداد كبيرة من المغامرين النرمان ، على أنهم حجاج في طريقهم الى بيت المقدس ، او لزيارة المشهد الأثير عنـدهم ، وهو مشهد القديس ميخائيل على جبل جارجانو ، ومن هؤلاء عدد كبير من الجند المغامرين ، الذين استقروا بالبلاد ودخلوا في خدمـة الامراء اللومبارديين . واشتدت رغبة سكان نرمنديا في امتلاك الاراضي ، إذ أن الضياع بها بلغت من كثافة السكان ، أنه لم يكن ثمة مجال يشبع طموح الأبناء الصغار القلقين ، او الفرسان الذين ليس لهم إقطاع . وهذا الباعث للتوسع ، الذي لم يلبث أن حملهم على القيـــام بفتح انجلترا ، هو الذي جعلهم يفتحون عيونهم ويتطلعون نحو الشرق ومـــا فيه من ثروات ،

فشهدوا في جنوب ايطاليا مفتاحاً لإقامة امبراطورية بالبحر المتوسط . ومـــا ساد بجنوب ايطاليـــا من الفوضى ، اتاح لهم الفرصة لتحقيق غرضهم .

ففي سنة ١٠٤٠ ، استولى ستة اخوة ، ابنـاء فارس نرماني مغمور ، اسمه تانكرد هوتفيل ، على مدينـة ميلفي Melvi ، بتلال أبوليا ، وأقاموا بهـــا إمارة . لم تحفل بهم السلطات البيزنطية المحلية اول الامر . غير أنه ساند النرمان كل من امبراطور الغرب ، هنري الثالث ، الذي حرص على أن يسيطر على إقليم طالما تنازعته الأمبراطوريتان ، والبابا الجرماني الذي رشحه هنري للبابوية ، والذي كره أن يكون لبطريرك القسطنطينية الولاية الروحية على اية كنيسة بإيطاليا . ففي فترة اثنتي عشرة سنة ، استطاع النرمان أن يوطدوا سيادتهم على الإمارات اللومباردية ، اذ طردوا البيزنطيين الى اقصى طرف كالابريا ، والى ساحل أبوليا . وأخـــذوا يهددون المدن الواقعة على الساحل الغربي ، وصاروا يوجهون غاراتهم صوب الشمال ، خلال كامبانيا ، حتى بلغت الجهات المجاورة لروما . ارتاعت الحكومة البيزنطية ، لما حدث . فتقرر استدعاء حاكم ابوليا ، وهو ماريانوس ارجيروس ، للقدوم الى القسطنطينية ، لينبىء بما جرى ، ثم عاد مزوداً بكل السلطات اللازمة لإصلاح الموقف . لم يحرز ماريانوس كسباً حربياً ، إذ أن النرمان استطاعوا في سهولة ويسر ، أن ينزلوا الهزيمـة بجيشه الصغير . غير أنه احرز نصراً دبلوماسياً كبيراً ، ذلك ان البابا ليو التاسع ، وهو من اللورين ، اشتدت ايضاً ثائرته ، فما حازه النرمان من انتصارات ، تجاوز ما كان يتوقعه ، هو وهنري الثالث . كان هنري وقتذاك منصرفاً الى قتال المجريين ، ومع ذلك بذل المساعدة للبابا . ففي صيف سنة ١٠٥٣ ، سار البابا ليو نحو الجنوب ، بجيش مؤلف من الألمان والايطاليين ، وقـد اعلن ان هذه الحرب تعتبر حرباً مقدسة . كان من المقرر أن ينحـــاز اليه جيش بيزنطي غير أن النرمان هاجموه حينما كان ينتظر قدوم هذا الجيش خارج مدينة كيفيتاتي

في ابوليا . فتعرض جيشه لهزيمة ساحقة ، ووقع البابا اسيراً في أيـــدي النرمان ، ولم يتم إطلاق سراحه ، إلا بعد ان اعلن تخليه عن كل سياسته .

كانت هـذه هي آخر محاولة جدية لمناهضة ابناء تانكرد . اذ مات هنري الثالث سنة ١٠٥٣ ، ولم يكن خليفتـه هنري الرابع وقتذاك إلا طفلاً صغيراً ، وبلغ عن شدة انصراف الوصية عليـه ، اجنس بواتو ، الى شئون ألمانيا أنها لم تحفل بما يجري في الجنوب . وقررت البابوية أن تكون واقعية . ففي سنة ١٠٥٩ ، وفي مجمع ملفي اعترف البابا نقولا الثاني بروبرت جويسكارد (العُرْس) Robert the Weasel وهو اكبر مَنْ عاش من ابناء تانكرد سناً « دوقاً لأبوليا وكالابريا ، بفضل الله والقديس بطرس ، ودوقاً على صقلية بفضل مساعدتها » . هـــذا الاعتراف الذي اعتبرته روما ، لاروبرت ، أنـه يتضمن التبعية لوريث القديس بطرس ، هيأ للنرمان أن ينتهوا في يسر من فتوحهم . فـلم تلبث الجمهوريات البحرية أن خضعت لهم . ولم تحـــل سنة ١٠٦٠ ، حتى لم يبق لبيزنطة في ايطاليا سوى حاضرتهم باري ، وهي الحصن المنيع الذي يقع على الساحل . وفي تلـك الأثنـاء ، شرع روجر اصغر اخوة روبرت في انتزاع صقلية من يـــد العرب [1] .

طالما بقيت باري في ايدي البيزنطيين ، اوقفوا كل توسع جديد للنرمان نحو الشرق . غير أن ما ساد ايطاليا من اضطرابات سياسية كان لا بـد أن يؤدي الى فتن دينية . اذ أن قدوم الغزاة اللاتين الى جنوب ايطاليا ،

---

(١) أفضل المراجع التي أوردت أخبار قدوم النرمان الى جنوب ايطاليا وفتحها هي :
Chalandon: Histoire de la Domination normande en Italie et en Sicilie vol . I Chs II - VII .
Gay : l'Italie meridionale et l'Empire Byzantin Ch V .

أثار مشكلة الكنيسة اليونانية في الاقليم ، وبعث من جديد ، النزاع القديم بين القسطنطينية وروما ، على فرض الولاية الكنسية على هـذه الجهات . وأدت الاصلاحات بروما الى اصرار البابوية على ألا تقبل اتفاقاً على أية دعوى من دعاويهـا ، على حين أن المقر البطريركي بالقسطنطينية ، شغله وقتذاك ميخائيل كريولاريوس ، الذي يعتبر من أشد ساسة الكنيسة اليونانية نزوعاً الى الاعتداء وأكثرهم طموحاً . على ان القصة السيئة لزيارة مندوبي البابا ليو التاسع الى القسطنطينية سنة ١٠٥٤ ، لا بد من ايرادها عنـــد التعرض لتطور العلاقات بين الكنيستين الشرقية والغربية . انتهت الزيارة بتبادل صدور قرار الحرمان من كل من الكنيستين . وأضحى مستحيلاً ، ان يقوم التعاون بين روما والقسطنطينية ، في كل ما يتعلق بحاجـــات ايطاليا المباشرة . غير ان هذه الزيارة لم تؤد الى ما نسبه المؤرخون اليها فيما بعد من الانشقاق النهائي . فعلى الرغم من ان العلاقات السياسية بين البلاطين قد توترت ، فانها لم تنقطع . ولم يلبث كريولاريوس ان فقد نفوذه وسلطانه . واذ تعرض للاهانة والزجر من الامبراطورة تيودورا ، التي حاول ان يحرمها من إرثها وعرشها ، لم يلبث ان مات في منفاه مقهوراً لا حول له ولا قوة ، بعد ان عزله من منصبه الأمبراطور اسحق . غير أنه انتصر آخر الأمر ، اذ نظرت اليه الأجيال التالية في بيزنطة على أنه بطل استقلالهم ، بل انه حينما تبادل الامبراطور والبابا الرسائل لتجديد اواصر الود ، استطاعت الامبراطورة ايدوسيا ماكريمبوليتسا ، ابنة اخته ، وزوجة قسطنطين دوكاس ، إثبات تعداسته [1] .

ويستخلص من اقوال المؤرخين البيزنطيين المعاصرين ، أن الشجار قلما التفت اليه حكام الامبراطورية . فما حـــدث في الغرب من اضطراب ، طغى عليه وأخفاه عن ابصارهم ما ظهر في الشرق من مشاكل .

---

(١) انظر الكتاب الثاني ، الفصل الثاني .

الترك يزحفون نحو الغرب :

تبين أن بيزنطة لم تفد من تداعي الخلافة العباسية ، اذ ان ما جرى من تزايد فقر العراق ، اخذ يغير الطرق التجارية في العالم . فلم يعد تاجر الشرق الاقصى ، يجلب سلعه التجـارية الى اسواق بغداد ، حيث يُحمل جانب كبير منها الى الامبراطورية (البيزنطية) ، فيشحن الى الغرب من موانيء آسيا الصغرى او من القسطنطينية ذاتها . اصبح هذا التاجر يؤثر اتخـاذ طريق البحر الاحمر الى مصر ، ومنها تحمل السفينة التجارية الايطالية ، سلعه الى اوربا . ولم تعد بيزنطة تقع على الطريق التجاري . يضاف الى ذلك ان اضطراب الامن في الأقاليم النائية للخلافة العباسية ، أدى الى انسداد طريق القوافل القديم ، الممتد من الصين ، والذي يجتـاز تركستان وشمال فارس ، الى أرمينية ، وينتهي عند اطرابزون على البحر الاسود . أما الطريق البديل له ، والذي يسير الى شمال بحر قزوين ، فلم يكن بنجوة من الاخطار زمناً طويلاً . وللدولة العباسية فضل على عالم البحر المتوسط من الناحيتين السياسية والتجارية ، باعتبارها مركز الدفاع الخارجي ، ضد المغيرين القادمين من وسط آسيا .

على أن اسباب الدفاع تحطمت وقتذاك . واستطاعت آسيا الوسطى من جديد ، أن تنبثق وتطغي على البلاد التي سادت بها الحضارة القديمة . اذ ان الترك قاموا بدور كبير في التاريخ منذ زمن طويل . فالامبراطورية التركية التي قامت في القرن السادس الميـلادي ، كانت تعتبر برغم قصر عمرها ، من عوامل المدنية والاستقرار في آسيا . والشعوب التركية النازلة بالجهات القاصية ، امثـال الخزر اليهود ، على الفلجا ، والأوغوز المسيحيين النساطرة ، الذين استقروا فيما بعد على حدود الصين ، استطاعوا ان يتلاءموا ويتقبلوا التقدم الحضاري . غير أنه لم يحدث في تركستان ذاتها شيء من الرقي منذ القرن السابع الميلادي . فعلى الرغم من قيام بعض المدن على

امتداد طرق القوافل ، فقد ظل السكان التركان تغلب عليهم حياة الرعي والبداوة ، وأدى ازدياد عددهم الى الرغبة في الهجرة الى ما وراء حدودهم . وفي القرن العاشر الميلادي ، خضعت تركستان لحكم اسرة السامانيين الفارسية ، وأهم ما قامت به هذه الأسرة في التاريخ ، انها حملت الترك بوسط آسيا على اعتناق الاسلام . ومنذئذ توجهت انظار الترك نحو الجنوب الغربي من آسيا وشرق البحر المتوسط .

وطرد السامانيين ، واحتل مكانهم ، اول امير تركي مسلم ، محمود الغزنوي ، الذي اقام اثناء الشطر الاول من القرن الحادي عشر ، امبراطورية ضخمة ، امتدت من اصبهان الى بخاري ولاهور . وفي تلك الاثناء اخذ عساكر من الترك المغامرين ، يجوبون العالم الاسلامي ، مثلما فعل النرمان في اوربا المسيحية . فأنشأ الخليفة العباسي ببغداد وأمراء مسلمون عديدون فرقاً من الترك ، وتولوا الانفاق عليها . ومن بين رعايا الغزنويين ، عشيرة من الترك الغزّ ، من براري الآرال ، اتخذت اسم السلاجقة ، من اسم جد شبه اسطوري .

ألف الأمراء السلاجقة جماعة من المغامرين ساد بينهم الحسد والحقد ، غير أنهم اتحدوا من اجل رفعة اسرتهم ، مثلما حدث بين ابناء تانكرد هوتفيل . على أن هؤلاء السلاجقة كانوا اسعد حظاً من النرمان ، الذين لم يتوافر لهم من مواطنيهم إلا عدد قليل ، إذ كان بوسعهم أن يلتمسوا مساندة جموع التركان وفيرة العدد ، شديدة النزوع للارتحال . وعند وفاة محمود الغزنوي سنة ١٠٣٠ ، خرجوا على طاعة الغزنويين ، وفي سنة ١٠٤٠ طردوهم الى حيث اتخذوا لهم مستقراً في املاكهم بالهند . وفي سنة ١٠٥٠ ، دخل اصبهان طغرل بك زعيم السلاجقة ، واتخذها عاصمة لدولة ، شملت فارس وخراسان ، بينما استقر اخوته وأبناء عمومته في الجهات التي تتاخم املاكه في الشمال ، وألفوا حلفاً مفككاً ، وبمقتضاه

اعترفوا له بالسيادة ، وأضحى لهم الحرية في الاغارة على البلاد المجاورة . وفي سنة ١٠٥٥ ، وبناء على دعوة الخليفة العباسي ، الذي ازعجه ما دبره ضده من مؤامرات ، وزيره التركي البساسيري بالاشتراك مع الفاطميين ، دخل طغرل الى بغداد ، على أنه حامي المذهب السني ، واتخذ لقب ملك المشرق والمغرب ، وصارت له السلطة الزمنية على كل الاراضي التي تخضع من الناحية الروحية للخليفة العباسي [1] .

نهاية ارمينيا :

ترجع الغارات التركية على ارمينيا الى زمن باسيل الثاني ، حينما كان السلاجقة لا يزالون خاضعين لحكم الغزنويين . ولحماية امبراطوريته من الترك ، استهل باسيل السياسة التي ترمي الى أن يضم الى دولته ارمينيا ، جزء بعد جزء . على أن غارات السلاجقة ازدادت نشاطاً ، بعد فتح السلاجقة لفارس ، ولم يشترك طغرل ذاته في هذه الغارات إلا مرة واحدة ، حينما قام سنة ١٠٥٤ بتخريب الجهات الواقعة حول بحيرة فان ، غير أنه فشل في الاستيلاء على حصن مانزيكرت . وتولى عادة قيادة جيوش الغزو ، ابنا عمه ، اصان وابراهيم اينال . غير أن البيزنطيين انزلوا بهما الهزيمة سنة ١٠٤٧ عند ارضروم ، وفي اثناء السنوات التالية ، ركزا هجومهما على حلفاء الامبراطورية من الكرج . ففي سنة ١٠٥٢ نهبا

---

(١) انظر ما ورد في دائرة المعارف الاسلامية عن :

Turks - by Barthold .

وما ورد في دائرة المعارف البريطانية عن :

Seljuks . Houtsma .

انظر ايضاً :

Barthold : Turkestan down the Mongal Invasion pp . 18 ff .

قارس ، ثم ظهرا من جديد في ارمينيا سنتي ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ فتعرضت ملطيــة سنة ١٠٥٧ للنهب والسلب . وفي سنة ١٠٥٩ زحفت القوات التركية لأول مرة الى جوف املاك الامبراطورية ، حتى بلغت مدينــة سيواس (١) .

مات طغرل بك سنة ١٠٦٣ . والواقع أن طغرل ذاتــه لم يكن شديد الاهتمام بالطرف الشمالي الغربي ، غير أن ابن اخيه وخليفته في الحكم ، ألب ارسلان ، اثاره احتمال قيام تحالف بين البيزنطيين والفاطميين ، فحرص على أن يحمي نفسه من البيزنطيين بالاستيلاء على ارمينيا ، قبل أن يمضي الى تحقيق غرضه الاصلي ، وهو مهاجمة الفاطميين . فاشتدت حدة الغارات على املاك الامبراطورية . ففي سنة ١٠٦٤ تعرض للدمار أني حاضرة ارمينيا ، قديماً ، وتقدم عن طيب خاطر امير قارس ، الذي يعتبر آخر امراء الارمن المستقلين ، فسلّم الى الامبراطور البيزنطي كل اراضيه مقابل الحصول على بعض الضياع بجبــال طوروس . فصحبه الى موطنه الجديد أعداد كبيرة من الارمن . وترتب على ذلك أنه منذ سنة ١٠٦٥ تعرض للهجوم سنوياً حصن الرها الواقع على الحدود . غير أن الترك لم يكن لهم خبرة بحرب الحصار ، ففي سنة ١٠٦٦ احتلوا دروب جبــال امانوس ، وفي الربيع التالي نهبوا قيصرية حاضرة قبادوقيا . وفي الشتاء التالي ، حلت الهزيمة بالجيوش البيزنطية في ملطية وسيواس . وترتب على هــذه الانتصارات أن صار للترك السيطرة التــامة على ارمينيا . وفي

(١) انظر : Laurent : Byzance et les Turcs Seldjoucides pp . 14 - 26 .
Cahen : La première pénétration Turque en Asie Mineur pp . 5 - 21 in Byzantion vol . XVIII .
Mukrimin Halil : Turkiye Tarihi vol . I .
Anadolun Fethi , Passim .

السنوات التـالية اوغلوا باغاراتهم الى جوف الامبراطورية ، الى نقصار وعمورية سنة ١٠٦٨ ، والى قونية سنة ١٠٦٩ ، والى خونية ، سنة ١٠٧٠ ، القريبة من ساحل بحر إيجه [١] .

وقعة مازيكرت :

واضطرت الحكومة الامبراطورية أن تتخذ اجراء حاسماً . ذلك أنه حدث سنة ١٠٦٧ ، أن مات الامبراطور قسطنطين العاشر الذي كانت سياسته ترمي الى تخفيض عدد القوات المسلحة ، والذي يعتبر الى حد كبير مسئولاً عن الوضع الخطير الذي تعرضت له الامبراطورية ، فخلفه على الحكم ابنه الصغير ميخائيل السابع بوصاية أمه الامبراطورة ايدوسيا . وفي السنة التالية تزوجت ايدوسيا من رومانوس ديوجين ، القائد الاعلى للجيش ، فرفعته إلى العرش .

كان رومانوس جندياً فائقاً ، ووطنياً صادقاً ، غير أن العمل الذي كان يواجهه تطلب رجلاً فـذاً عبقرياً . ادرك أن سلامة الامبراطورية تطلبت استرداد ارمينيا . غير أن الجيش البيزنطي لم يكن له من الكفاية ما اتصف به منذ خمسين سنة . ولم تكن قوات الاقاليم كافية للدفاع عن اراضيها ضـد المغيرين ، ولم يكن في وسعها أن تستغنى عن عساكر لتنضم الى جيش الامبراطور . وساور الشك الأسرات النبيلة التي كان في مقدورها أن تقدم عن ضياعها جنداً ، فنأت جانباً . أمـا فصائل الفرسان المؤلفـة من ستين الف من الفرسان الاشداء ، والتي ظلت ترتاد

---

(١) انظر : Laurent : op . cit . pp. 4 - 6 .
Cahen : op . cit . pp. 21 - 30 .

الطرف الشامي حتى منتصف القرن الحادي عشر ، فإنه تقرر وقتذاك حلها وتسريحها . وتقاصر عن قوتهم السابقة ، رجـــال الحرس الأمبراطوري ، الذين كانوا يجندون من خيرة ابنــاء آسيا الصغري ، ويتلقون تدريباً بالغ الشدة . غير أن الجيش تألف معظمه وقتذاك من المرتزقة الأجانب ، منهم الشماليون الذين يؤلفون حرس الورنك ، والنرمان والفرنج من غرب أوربا والصقالبة من الشمال ، والترك من براري جنوب روسيا ، فضلاً عن البجناك والكومان والغز . ومن هذه العناصر ألف رومانوس جيشاً تبلغ عدته نحو ١٠٠ الف رجل منهم نحو النصف ، ينتمون الى عنصر بيزنطي ، غير أنه لم يكن من هؤلاء إلا فئة قليلة من العساكر المحترفين ، إنما يفتقرون جميعاً الى العتاد الحربي . على أن الكومان الترك كانوا اكثر الفئـــات المأجورة عدداً ، وتولى قيادتهم يوسف تارخانيوتس Tarchaniotes التركي المولد . أما الفئة المختــارة فتتمثل في الفرسان الدارعين من الفرنج والنرمان ، بقيادة روسل بايليل النرماني Roussel Bailleul . والمعروف أن القائدين اللذين سبقاه في القيادة ، وهما هرفيه Hervé ، وكريسبين Crispin ، كانا من الفرنج ، وتقرر عزلهما بسبب خيانتهما الصريحـة ، غير أن العسكر لا يخدمون إلا تحت قيـادة احد مواطنيهم ، فكان اندرونيكوس دوكاس اكبر من يلي الأمبراطور في القيادة البيزنطية ، وهو ابن اخ الامبراطور الراحل ، ولا يختلف عن سائر افراد اسرته ، فيما يكنه من العـداء المرير لرومانوس ، الذي لم يجرؤ على ان يتركه وراءه بالقسطنطينية . وبهذا الجيش الضخم ، الذي لا يصح الوثوق فيه ، خرج رومانوس في ربيـع سنة ١٠٧١ ، ليسترد ارمينية . وحينما غادر القسطنطينية ، جاءتـه الأنباء من ايطاليـــا ، باستيلاء النرمان على باري ، آخر ما تبقى لبيزنطـــة من املاك في شبه الجزيرة .

ويورد المؤرخون في تفاصيل مؤسفة خبر مسير الأمبراطور نحو الشرق ، وقد سلك الطريق البيزنطي القديم الذي اجتازه الأباطرة في حروبهم . وجعل نصب عينيه ان يستولي على حصون ارمينية ، وأن يشحنها بالعساكر ، قبل ان يقدم الترك من جهة الجنوب . كان ألب أرسلان في الشام ، في موضع قريب من حلب ، وحينما سمع بزحف البيزنطيين ادرك انه لا بد ان يتصدى للقتال ، فبادر بالمسير صوب الشمال ليلتقي بالأمبراطور . نفذ رومانوس الى ارمينيا ، على امتداد الفرع الجنوبي للفرات الأعلى . وبالقرب من مانزيكرت ، قام بتقسيم قواته . فمضى بنفسه الى مانزيكرت ، بينما ارسل الفرنج والكومان ، للاستيلاء على حصن أخلاط ، الواقع على شاطىء بحيرة فان . على أن (رومانوس) تلقى اثناء مقامه بمانزيكرت انباء عن اقتراب ألب أرسلان ، فانحرف الأمبراطور الى جهة الجنوب الغربي ، ليلحق من جديد بالجيش ، قبل ان ينقض عليه الترك . غير أن تناسيه لمبادىء الخطط الحربية البيزنطية ، حمله على إغفال إرسال كشافته . وفي يوم الجمعة ١٩ اوغسطس سنة ١٠٧١ ، وبينما كان ينزل بالوادي على الطريق الى اخلاط ، مترقباً قدوم أتباعه المأجورين ، انقض عليه ألب ارسلان ، ولم ينهض لنجدته عساكره المأجورون . وفي الليلة السابقة على المعركة ، انحاز الى السلاجقة ، الكومان المأجورون ، نظراً لأنهم أتراك ، ولأنهم لم يتقاضوا اجورهم المتأخرة . وقرر روسل ومن معه من الفرنج ، ألا يخوضوا المعركة ، فأضحى مصير المعركة معروفاً . فاستبسل رومانوس في القتال ، غير ان اندرونيكوس دوكاس ، حينما رأى ان قضيته خاسرة ، وظن ان المنظر التالي للمأساة لا بد ان يجري بالقسطنطينية ، انسحب من ساحة القتال بمن كان تحت قيادته من العساكر الاحتياطية ، وسار بهم صوب

الغرب ، بعد ان ترك الامبراطور ليواجه مصيره . وفي المساء حل بالجيش البيزنطي الدمار ، وأصاب رومانوس الجراح ووقع أسيراً [١] .

---

(١) أورد كاهن اوفى قائمة بالمراجع العربية عن هذه المعركة في مقاله :
« La Campagne de Manzikert d'aprés les Sources Musulmanes » in Byzantion vol . IX . pp . 613 - 642 .
انظر ايضاً : Laurent : op . cit . p. 43 .
Oman : History of The Art of War pp. 217 - 219 .
Delbrûck : Geschichte der Kriegskunst vol . III . p . 206 .
Lot : l'Art Militaire et les Armées du Moyeu Age vol . I pp. 71 - 72 .

الفصل الخامس

الفوضى والاضطراب في الشرق

تعتبر معركة مانزيكرت أشد ما وقع في التاريخ البيزنطي من كوارث حاسمة . ولم يخف البيزنطيون انفسهم إحساسهم وشعورهم عنها . إذ أشار مؤرخوهم مرة بعد مرة ، الى ذلك اليوم العصيب ، وتراءى للصليبيين فيما بعد ان البيزنطيين فقدوا على ارض المعركة ما اتخذوه من لقب حماة العالم المسيحي . وبررت مانزيكرت ما جرى من تدخل الغرب [١] .

على أن الترك لم يفيدوا كثيراً من انتصارهم . حقق ألب أرسلان غرضه إذ كفل الحماية لجناح جيشه ، وأزال خطر التحالف بين بيزنطة

---

(١) أدرك وليم الصوري (William of Tyre 1, 2 vol . 1 . p. 29) أن كارثة مانزيكرت بررت الحركة الصليبية ، لأن بيزنطة لم يعد بوسعها حماية العالم المسيحي في الشرق . أما دلبروك Delbrück فيرى أنه جرت المبالغة في تقدير أهمية المعركة . غير أنه يتبين من الأدلة والشواهد أن من نتائج هذه الكارثة ، أن الأمبراطورية (البيزنطية) صارت عاجزة عن أن تلقي بجيش في المعركة لسنوات عديدة مقبلة .

انظر : Laurent : op . cit .

والفاطميين وكل ما طلبه من الامبراطور الأسير ، هو الجلاء النـاجز عن أرمينيا ، ودفع فدية ثقيلة عن شخصه . ثم انصرف لمواصلة القتال في إقليم ما وراء النهر ، حيث قضى نحبه سنة ١٠٧٢ . ولم ينفــذ ابداً الى آسيا الصغرى ، ابنه وخليفته ملك شاه ، الذي امتدت امبراطوريته من البحر المتوسط الى حدود الصين . غير ان رعاياه من التركان كانوا دائماً متأهبين للسير . لم يشأ ان ينزلهم بالأراضي التي كانت تابعة للخلافة ، غير انه رأى ان خير ما يلائمهم هو سهول وسط آسيا الصغرى ، التي عمل الأعيان البيزنطيون على إخلائها من سكانها ، وتحويلها الى مراعي تنتجعها الأغنام ، فعهد الى ابن عمه ، سليمان بن قتلمش بأن يستولي على هـذا الاقليم لصالح الأقوام التركية (١) .

ويسّر البيزنطيون انفسهم امر فتح هذه البلاد ، فالعشرون سنة التالية من تاريخهم ، طفحت بالتمرد والتآمر . فحينما وصل الى القسطنطينية خبر كارثة مانزيكرت ، وأسر الامبراطور ، اعلن ميخائيل دوكاس ، ابن زوجة (رومانوس) أنه بلغ سن الرشد ، وتولى مقاليد الحكم ، وتوطد مركزه بقدوم ابن عمـه اندرونيكوس ، بفلول من تبقى من الجيش . اشتهر ميخائيل السابع بأنه شاب ذكي مثقف ، يصلح لأن يكون حاكماً قديراً

---

(١) انظر مقال Zettersteen في دائرة المعارف الاسلامية عن « سليمان بن قتلمش » .

وانظر ايضاً : Laurent : op. cit . pp. 9 - 11 .

Cahen : « La première Pénétration Turque » in Byzantion vol . XVIII pp. 31 - 32 .

Wittck : « Deux Chapitres de l'Hisioire des Turcs de Roum » in Byzantion vol . XI pp. 285 - 319 .

عن أمر التركان انظر : Ramsay : « Intermixture of Races in Asia Minor in Proc . Brit . Acad . vol . VII . pp. 23 - 30 .

Yakubovsky : « Seldjuk Invasion and the Turcomans in the Eleventh Century » (in Russian) in Proc . Acad . Sci X. U. S.S. R. 1936 .

في الأزمنة الوادعة . غير ان ما واجهـــه من مشكلات تطلبت شخصاً آخر يفوقــه خبرة وتجربة . عاد رومانوس ديوجين من اسره ، كيا يجـد نفسه معزولاً عن العرش . وحاول ان يقاتل من أجل مركزه ، فلم يلبث ان تعرض للهزيمة ، وجرى حمله اسيراً الى القسطنطينية ، حيث بلغ العنف والقسوة في اقتلاع عينيه ، أنه لم يلبث ان مات بعد ايام قليلة . لم يرض ميخائيل بأن يبقى رومانوس حيـاً ، غير ان اقارب رومانوس الاقوياء ، وأصدقاءه الذين جذبهم اليه ما اشتهر به من المروءة والفروسية ، ارتاعوا واشتد سخطهم لما تعرضت له خاتمته من الوحشية والهمجية ، فعبروا عن غضبهم وسخطهم بما لجأوا اليه من الخيانة [1] .

الترك ينفذون الى آسيا الصغرى :

لم يبـــدأ الترك غزوهم الجدي لآسيا الصغرى إلا سنة ١٠٧٣ . لم يكونوا قبل ذلك متحدين او متجانسين . اراد سليمان أن يقيم لنفسه سلطنة طيّعة ، يتولى حكمها مع الاعتراف بسيادة ملك شاه . غير أن من صغار امراء الاتراك ، امثال دانشمند ، وجكا ، ومنجوجك ، من كان يرمي الى أن يستولي على حصن اوبلد ، ومنه يبسطون حكمهم باعتبارهم زعماء عصابات ، على سكان هذه الجهات . ويساندهم ، ويبذل لهم كل مـا لديهم من قوة ، التركان المرتحلون الذين يطوفون البلاد بخيولهم وأسلحتهم

---

(١) أهم مصدر أصلي يعالج هذه الفترة من التاريخ البيزنطي بالتفصيل هو :
Nicephorus Bryennius .
وفي المراجع الآتية خلاصة سليمة للأحداث التي وقعت وقتذاك :
Diehl & Marçais : op . cit . pp. 554 ff .
Ostrogorowsky : op . cit . pp. 243 - 247 .

الخفيفة ، وبخيامهم وأسراتهم ، يلتمسون البراري لينتجعوهـــا . وفر المسيحيون امامهم ، تاركين وراءهم قراهم ، فأحرقوها ، ومـا خلفوه من قطعان الماشية والأغنام ، استولى عليه الغزاة . وحرص التركمان على ألا يمسوا المدن بسوء ، غير أن حلولهم بهذه الجهات ، وما احدثوه من تدمير ، اوقف طرق المواصلات في انحـاء البلاد ، فأرغموا حكام الاقاليم على أن يبقوا معزولين ، وهيأوا للزعماء الترك أن يحققوا رغباتهم . وأصبح التركمان يؤلفون عنصراً ، افسد كل محاولة قام بهـا البيزنطيون لاستعادة بلادهم (١) .

حاول الامبراطور ميخائيل السابع ، أن يقاوم الزحف التركي . وما ارتكبه روسل بايليل من خيانة ، هيأ لكتيبة من الفرنج والنرمان ، أن تعيش بعد كارثة مانزيكرت . وعلى الرغم من أن روسل لم يكن موضع ثقة ، او يصح الاطمئنان اليه ، فإن ميخائيل كان مضطراً للإفادة منه ؛ فأمده بقوة صغيرة من الجيش الوطني ، بقيادة اسحاق كومنين ، ابن اخت الامبراطور السابق . والواقع أن اختيـــار اسحاق كان موفقاً . إذ أن اسحاق وأخاه الكسيوس ، الذي كان بصحبته ، ينتميان الى اسرة تكن كراهية بالغة الشدة ، لأسرة دوكاس . غير أنـــه على الرغم من تعرضهما للضغط من قبل أمهما ، ظلا على ولائهما لميخائيل طوال حكمه . وأثبت كلاهما أنهما جديران بأن يكونا قائدين . غير أن اخلاص اسحاق دمّره ما ارتكبه روسل من الخيانة ؛ إذ أن روسل وعساكره ، خرجوا على طاعتهما ، وطرحوا جانباً ما التزموا به من الولاء ، قبل أن يلتقي الجيش البيزنطي بالترك . وإذ تعرّض اسحاق للهجوم من قبل الترك والفرنج ، وازداد تكاثر الجند عليه ، وقع اسيراً في ايدي السلاجقة .

---

(١) انظر ما سبق ص ١٠١ حاشية ١ (المراجع).

روسل بايليل :

افصح روسل عندئذ عن نواياه . وإذ أثار حماسه ما اقامه مواطنوه (النرمان) من إمارة في جنوب ايطاليا ، جعل لنفسه خطة، بأن يقيم في الاناضول دولة نرمانية ، لم يكن معه سوى ثلاثة آلاف رجل ، غير أنهم تعلقوا بـه وأخلصوا له ، واشتهروا بجودة عتادهم وحسن تدريبهم ، فيستطيع الواحد منهم ، أن يحزز النصر ، اذا التقى بأحد العساكر من الترك والبيزنطيين . على أن روسل صـار عند الامبراطور اشد خطورة من الترك . فمن حشده الامبراطور من العساكر ، انفذهم بقيادة ابن عمه القيصر يوحنا دوكاس ، لقتـال روسل . فالتقى بهم بالقرب من عمورية ، فأنزل بهم هزيمة ساحقة وأسر القيصر يوحنا دوكاس . وإذ التمس روسل سبباً شرعياً ، نادى بأسيره امبراطوراً ، وزحف على القسطنطينية ، فبلغ الشاطىء الآسيوي للبوسفور دون أن يلقى مقـاومة ، فأشعل الحرائق في ضاحية خريصبولي (Chrysopolis) (اسكدري) ، وعسكر بين اطلالها . وإذ استبد اليأس بميخائيل ، لم يسعه إلا أن يلجـأ الى القوة الوحيدة التي تستطيـع أن تبذل له المساعدة ، فأرسل سفارة الى السلطان السلجوقي سليمان . وبموافقة سيده السلطان ملك شاه ، وعـد سليمان بأن يساعد الامبراطور ميخائيل في مقابل أن يتنـازل له عن الاقـاليم التي احتلها في شرق الاناضول ؛ وتراجع روسل ، استعداداً للقائه ، غير أن الترك لم يلبثوا أن طوقوا عساكره على جبل صوفون في قبادوقيـا . وحاول روسل نفسه أن يهرب ، وأن يلجأ الى اماسية في اقصى الشمال الشرقي . وعندئذ ارسل الامبراطور ميخائيل اليـه الكسيوس كومنين ، للتفاوض معه ، وحاول الكسيوس أن يعرض عليه من المساعدة ما يزيد على عرض اكبر زعيم تركي (سليمان) في الجهـات المجاورة ، وحثـه على الاستسلام . غير أن حكومة روسل بلغت من القوة والكفاية ، ومحبـة الناس لها ، ما جعل سكان اماسيه ، لا يكفون عن مساعدته إلا بعد أن

جاءتهم الانباء بسمل عينيــه . والواقع أن الكسيوس لم يشأ أن تؤدي الامور الى التمثيل به ، إذ بلغ من افتتان الناس به ان الامبراطور ذاته فرح عند سماعه أنه لم يتعرض لهذه المهانة [١] .

اختفى روسل من التاريخ ، غير ان قصته تركت اثراً في البيزنطيين ، اذ علمتهم انه لا يصح الوثوق في النرمان ، وأن مطامع النرمان لا يحدها شواطىء جنوب إيطاليا ، بــل إنهم ارادوا ان يقيموا لهم إمارات في الشرق . وبلغ اثرها من الامتداد أنهـا فسرت ما اتخذته بيزنطة من سياسة في العشرين سنة التالية . وفي نفس الوقت لم يجر تشجيع النرمان على الدخول في خدمة الامبراطور ، بل إن ابناء عمومتهم من السكنديناويين ، صاروا موطن شك وريبة . وأضحى حرس الورنك منذئذ يتخذ من اناس تعرضوا لتعذيب النرمان وقسوتهم ، وهم الانجليز السكسون ببريطانيا [٢] .

على ان الخوف من النرمان ، وشدة الحاجة للمأجورين من الأجانب ، حمل ميخائيل على ان يبادر باتخاذ سياسة التهدئة ومسالمة الغرب . فلم يعد ثمة امل في استرداد جنوب ايطاليا ، بعــد ضياعه ، ولم يكن في وسع الأمبراطور البيزنطي أن يواصل الحرب بهذه الجهات . على أن كثيراً من البيزنطيين اعتبروا السفير ، يوحنـا ايتالوس Italus ، الفيلسوف ، الايطالي

---

(١) عن روسل وحياته انظر :

Bryennius dp . 73 - 96 .
Attaliates p - 183 ff .
Schlumberger: Deux Chefs Normands in Revue Historique vol . XVI .

(٢) عن دخول الانجليز في حرس الورنك انظر :

Vasilievsky . Works (in Russian) , vol . I . pp. 355 - 377 .
Vasilievsky : Opening Stages of the Anglo - Saxon Immigration to Byzantium in Seminarium Kondakovianum vol : IX . pp. 39 - 70 .

المولد ، الذي بعث به ميخائيل لعقد الصلح مع النرمان ، قد خان مصالح الامبراطورية . غير أن ميخائيل كان راضياً ، ولما يعلمه من رغبة البيت النرماني الناشىء وحرصه على إقامة محالفات مبنية على الزواج ، اقترح إرسال هيلين ابنة جويسكارد الى القسطنطينية ، لتكون عروساً لابنه الطفل قسطنطين . وفي الوقت ذاته ، نجح في مسعاه في كسب الصداقة الودية للبابا الكبير ، جريجوري السابع ، فكفلت سياسته السلام على الجبهة الغربية [1] .

غير أن الفوضى ازدادت سوءاً في الأناضول ، اذ فقدت الحكومة الامبراطورية ما لها من سيطرة بهذه الجهات . وعلى الرغم من أنه لم يحافظ على سلطة الامبراطور إلا فئة قليلة من القادة المخلصين ، امثال اسحاق كومنين الذي كان وقتذاك يتولى حكومة ثغر أنطاكية ، فان طرق المواصلات تعطلت واضطربت ، ولم يكن ثمة سياسة مدروسة . ثم حدث آخر الامر ، سنة ١٠٧٨ ، أن اعلن الثورة نقفور بوتنياتس حاكم ثغر الناطليق الشاسع الذي يقع في وسط آسيا الصغرى وغربيها ، ودفعه لهذه الثورة ، الطموح الشخصي من جهة ، وشدة تأثرته على ضعف حكم ميخائيل . غير أن نقفور لم يكن إلا قائداً ، لا جيش له . ففي سبيل الحصول على القوة التي يحتاجها ، حشد تحت لوائه أعداداً كبيرة من الترك ، واستخدمهم لحراسة ما استولى عليه من المدن ، أثناء زحفه على القسطنطينية ، أمثال سزيكوس ، ونيقية ، ونيقوميديا ، وخلقيدونيا ، وخريصوبولي (سكودار) . ولأول مرة ، ألفت الجموع التركية نفسها في داخل المدن الكبيرة بغرب الاناضول . يصح أن يؤلف هؤلاء الترك عساكر مأجورة للأمبراطور الجديد ،

---

(١) انظر: Chalandon : op. cit . vol . I pp. 264 - 265
Gay : Les Papes des XIe Siècle pp. 311 - 312.

غير أنه لن يكون من السهل عليه ان يطردهم من مواقعهم . لم يبذل ميخائيل شيئاً من المقاومة ، فلما دخل نقفور العاصمة ، لم يسع ميخائيل إلا الالتجاء الى الدير ، حيث تحقق ميله الصحيح . كان ميخائيل أسعد حظاً من معظم الاباطرة المعزولين ، فلم تمض إلا سنوات قليلة ، حتى ارتقى كرمي اسقفية كبرى ، بفضل كفايته ومؤهلاته . أما زوجته التي تخلت عنه ، وهي مارية القوقازية الآلانيــة ، والتي كانت تعتبر اجمل اميرات عصرها ، فانها رأت أنه من الحكمة ان تتزوج المُغتصب .

الكسيوس كومنين وولاية العرش :

على أن نقفور ادرك ان حياة المتمرد ايسر وأسهل من حياة الامبراطور وسار على نهجه قادة آخرون . ففي غرب شبه جزيرة البلقان ، اعلن حاكم دورازو ، نقفور برينيوس ، نفسه امبراطوراً ، واجتذب الى لوائه جند الاقاليم الاوربية . فتوجه لقتاله الكسيوس كومنين ، في جماعة صغيرة من العساكر اليونانيين ، الذين يعوزهم التدريب ، فضلاً عن عدد قليل من الفرنج الذين تخلوا عنه ، جرياً على عادتهم . ولم يستطع الكسيوس كومنين ان يهزم برينيوس إلا حينما وصل اليه في الوقت المناسب جماعة من المأجورين الترك . ولم يكد الكسيوس ينتهي من حملته ، حتى كان لزاماً عليه ان يمضي الى تساليا ليسحق مغتصباً آخر ، وهو باسيلاكيوس Basilacius ، وفي تلك الاثناء تمردت الحامية التركية المرابطة في نيقية . ولما وصل الى علم البابا جريجوري ، خبر سقوط حليفه الامبراطور ميخائيل ، أصدر قراراً بحرمان الامبراطور الجديد من الكنيسة . أما روبرت جويسكاد ، فانه بفضل تشجيع الكنيسة وتحريضها ، ولسخطه وغضبه لما حدث من فسخ خطوبة ابنته ، قرر أن يجتاز بحر الأدرياتيك لمهاجمة املاك الدولة البيزنطية . وفي مايو ، نزل بكامل قوته في أفلونا ، وزحف على دورازو . وفي اوائل ذلك الربيع نفسه ، اعلن الثورة اشهر قادة آسيا ، نقفور مليسينوس ،

وتحالف مع السلطان التركي سليمان ، وبفضل ذلـك التحالف تهيأ لسليمان ان يسير مطمئناً دون ان يلقى مقاومة ، الى بثينيا ، حيث رحبت بـه الحامية التركية ، التي اقامها بوتنياتس . ولما فشل مليسينوس في الاستيلاء على القسطنطينية ، رفض سليمان ان يعيد ما استولى عليه من المدن ، بل إنه استقر في نيقية ، وبذلك اضحت نيقية ، التي تعتبر من اجـل المدن بالعالم المسيحي ، احتراماً وتبجيلاً ، والتي لا تبعد عن القسطنطينية اكثر من مائة ميل ، عاصمة للسلطنة التركية .

وفي القسطنطينية ، اضاع الامبراطور نقفور الفرصة الوحيدة للبقاء على العرش ، بما لجأ اليه من الشجار مع اسرة كومنين . واخلص في خدمته كل من اسحـاق والكسيوس كومنين ، وكانا يأملان في ان يحافظا على وده وحسن نيته ، بما كان لهما من صداقة وثيقة مع الامبراطورة ، التي تزوجها ابن عمهـا ، اسحاق ، والتي ظن الناس ان الكسيوس كان عشيقاً لها . غير ان الامبراطورة لم تستطع ضبط ما دار في البلاط من مؤامرات ادت الى أن ينقلب عليها نقفور . ولذا صار لزاماً على الاخوين ، اسحاق والكسيوس ، أن يعلنا الثورة من اجل المحافظة على حياتهما . ونظراً لـما هو معروف في اسرة كومنين من ان الكسيوس ، هو اكفأ الاخوين ، فانه اعلن نفسه امبراطوراً ، فهوى نقفور بنفس السهولة التي اطاح بهـا الامبراطور السابق (ميخائيل) عن العرش . وبناء على نصيحة البطريرك وبعد ان حل به الارهاق والمسكنة ، انسحب نقفور ليقضي ايامه الاخيرة راهباً [١] .

---

(١) عن حكم بوتنياتس ، انظر :
Chalandon : Essai sur le Règne d'Alexis Comnene pp . 35 - 50 .

الامبراطور الكسيوس :

حكم الكسيوس ٣٧ سنة ودل على انه اعظم ساسة عصره . غير انه حدث سنة ١٠٨١ ان بدا كأنه من المحقق ألا تعيش الامبراطورية او يبقى الكسيوس امبراطوراً . كان الكسيوس شاباً لم يتجاوز وقتذاك الثلاثين من عمره ، غير انه باعتباره قائداً ادخر تجارب سنوات عديدة ونظراً لأنه لم يخضع عادة لقيادته إلا قوات ضئيلة ، توقف ما احرزه الكسيوس من الانتصارات على ما اشتهر به من سرعة الخاطر والدبلوماسية . كان جذاباً في مظهره وطباعه ، لم يكن طويل القامة بل كان قوي البنية يتسم بالرزانة . اشتهر الكسيوس بالطباع السهلة اللطيفة وبقدرته على ضبط النفس . غير انه جمع بين الرقة الاصيلة والاستعداد الماكر في استخدام الحيلة والارهاب اذا تطلبت ذلك مصالح البلاد . غير انه لم يكن له من الصفات الاخرى ما يفوق خلاله الشخصية ومحبة العسكر له . ولا شك ان اسرته ساعدته على الوصول الى الحكم ، وذلك بما لها من اتصالات امتدت الى سائر الارستقراطية البيزنطية ، ووطّد سلطانه ومركزه ، ما حدث من اتخاذه زوجة من اسرة دوكاس . غير أن ما اشتهر به اقاربه من المكائد والأحقاد ، ولا سيما ما اشتهرت به امه المعروفة بالميل للسيطرة ، من كراهية لزوجته وعشيرتها ، كل ذلك زاد في مشاكله . وحفل البلاط بأفراد ينتمون الى البيوت الامبراطورية السابقة ، او بيوت من يصح ان يكونوا مستقبلاً مغتصبين ، والذين حرص الكسيوس على أن يرتبط بهم بالتحالف على أساس المصاهرة . فأقام بالقصر الامبراطوري ، مارية الامبراطورة التي اشتد حقدها على الامبراطورة الجديدة ، وكذا قسطنطين دوكاس بن مارية ، الذي جعله الكسيوس قسيماً له في الملك ، ولم يلبث ان زوّجه من ابنته الكبرى انّه ؛ وبالبلاط ايضاً نزل ابناء رومانوس ديوجين ، فزوج الكسيوس احدهم من اخته تيودورا . وتزوج ابن نقفور برينيوس أنّه بعد وفاة زوجها قسطنطين دوكاس . أما

نقفور مليسينوس فتزوج من اخت الامبراطور ايدوسيا ، وتنازل لصهره عن دعاويه في الامبراطورية ، مقابل الحصول على لقب قيصر . وكان لزاماً على الكسيوس أن يرقب هؤلاء جميعاً ، فيعمل على تلطيف منازعاتهم وتهدئتها ، وتجنب خيانتهم . فأمر بوضع نظام دقيق للألقاب ، كما يرضي به دعاويهم وأطماعهم . فالمعروف أن الطبقة الارستقراطية والإدارة المدنية العليا ، لم تكونا موطن ثقـــة . واكتشف الكسيوس باستمرار ما جرى من مؤامرات ضد حكومته ، وتعرض دائمـــاً لخطر الاغتيال . ومـــا اشتهر به من الاعتدال في إنزال العقوبة ، يرجع إما لأن ذلـك كان من سياسته ، وإما لطبـع اتصف به . وهذه الرأفة ، وما اتسمت به أعماله من بعد النظر الهادىء يعتبر من اشهر صفاته ، نظراً لأنه في حياته كلها ، لم يلق الاطمئنان الشخصي (١) .

على أن حالة الامبراطورية في سنة ١٠٨١ ، تطلبت ان يتولى مقاليد الحكومة ، اما شخص بالغ الشجاعة ، واما شخص شديد البلادة والغباء . فلم يكن بالخزانة شيء من المال . ودأب الاباطرة المغتصبون على ان يطلقوا ايديهم فيما جرى ادخاره من المال . ومـا حدث من ضياع الاناضول ، ومن التمرد في اوربا زاد في قلة الدخل . وتحطم النظام القديم الموضوع لجباية الضرائب .

لم يكن الكسيوس من البارعين في تدبير الاموال ، ومـا اتبعه من

(١) وصفت أنه كومنين شخصية والدها ، في عبارات كلها إطراء ، وذلـك في كتابها المعروف باسم : Alexiad III . II . 5 . vol . 1 . pp . 106 - 107 .
انظر ايضاً : Chalandon . op . cit . pp. 51 - 52 .
ووصفه صاحب كتاب Synopsis Chronicon بأنه عظيم « في ارادته وفي عمله » (انظر p. 185) .

الوسائل قد يثير دهشة رجل الاقتصاد الحديث . ومع ذلك فانه بما لجأ اليه الكسيوس من إثقال كاهل رعاياه بالضرائب ، وبما ابتزه قسراً من الاعيان والكنيسة من القروض الاجبارية ، ومصادرة الامـلاك ، وفرض العقوبة بالغرامـــة لا بالحبس ، وبيع الامتيازات ، وتفضيل الصناعات الامبراطورية (الاحتكارية) ، استطاع ان يسد نفقـات النظام الاداري الضخم ، وأن يعيد انشاء الجيش والبحرية ، وأن يبقي في الوقت ذاتـه على أبهة البلاط ، وأن يبذل العطايا والمنح للمخلصين من رعـاياه ، ولمن يقدم عليه من القصاد والامراء . لأنه ادرك أن المكانة والمجد في الشرق انما يتوقف اساساً على الابهة والعظمة . فالشح والبخل هو الذنب الوحيد الذي لا يغتفر . غير ان الكسيوس ارتكب خطأين كبيرين . ففي مقابل ما حصل عليه من مساعدة عاجلة ، منح امتيازات تجارية للتجار الاجانب على حساب رعاياه . وفي احدى اللحظات الحرجة ، خفض الكسيوس قيمة العملة البيزنطية ، بعد ان ظلت سبعة قرون اثبت عملة في العـالم الذي تسوده الفوضى .

أما في الامور الخارجية ، اذا كانت لفظة « خارجية » لا زالت صفة مستعملة ، فقد ازداد الموقف سوءاً . إذ أن الاعداء المحيطين بالامبراطورية اوغلوا في داخلها . ففي اوربا ظل الامبراطور يسيطر على شبه جزيرة البلقان ، غير ان الصقالبة في الصرب ود الماشيا اعلنوا الثورة . ودأب البجناك ، وهم القبيلة التركية التي كانت تجوب البلاد فيما وراء نهر الدانوب ، على ان يجتازوا هذا النهر من اجل الإغارة . وفي الغرب استولى روبرت جويسكارد والنرمان على أفلونا ، وأخذوا يضيقون الحصار على دورازو . أما في آسيا ، فلم يبق لبيزنطة سوى سواحل البحر الاسود وبعض المدن المعزولة الواقعة على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، ومدينـة انطاكية المعروفة بمناعة استحكاماتها . غير ان الاتصال بهذه المدن البعيدة لم يكن مكفولاً ، ويعتبر من الامور النادرة . وعلى الرغم من أن مدناً عديدة

بالداخل لا زالت بأيدي المسيحيين ، فان حكامها انقطعت صلتهم نهائيـاً بالحكومة المركزية . وصار معظم الاقليم في يد السلطان سليمان السلجوقي الذي حكم من نيقية ، ممتلكات امتدت من البوسفور حتى حدود الشام ، غير انه لم يكن لدولته ادارة منظمة او حدود ثابتة . وانتقلت مـدن اخرى الى حوزة امراء اتراك صغار ، اعترف بعضهم بسيادة سليمان ، بينما اعترف معظمهم بسيادة ملك شاه ، ومن اهم هـؤلاء الامراء بيت دانشمند الذي حاز وقتذاك قيصرية وسيواس وأماسية ، ومنهم منجوشك امير ارزنجان وكولونيـا ، على ان اخطر هؤلاء الامراء جميعاً ، هو جكا المغامر ، الذي استولى على ازمير وساحل بحر ايجه [١] .

الارمن بجبال طوروس :

اتخذت هجرة الارمن شيئاً من التنظيم والاهتمام البالغ ، اذ ان الامراء الارمن الذين جردهم البيزنطيون من املاكهم ، حازوا مقابل ذلك ضياعاً في قبادوقيا ، ولا سيما في الجنوب ، صوب جبال طوروس . وصحبهم الى

---

(١) عن البجناك انظر : Vasilievsky : Works (in Russian) vol. I pp. 38 ff.
انظر ما ورد من المقالات عن « سليمان » و « ازنيق » في دائرة المعارف الاسلامية . وعن دانشمند ، انظر ما ورد عنه في دائرة المعارف الاسلامية ، ودائرة المعارف التركية :
Makrimin Halil : Islam Ansiklopedisi .
Cahen « La Première Pénétration Turque » op. cit . 46 - 47 . 58 - 60 .
عن منجوشك انظر ما ورد عنه في دائرة المعارف الاسلامية تحت مادة « Menjuchek »
أماجكا فانظر ما ورد عنه في : Anna Comnena , Alexiad VII . VIII . 1 - 8
vol . II . pp. 110 - 116 .
وفي دائرة المعارف التركية (Izmir) وعن السكان الأصليين ، انظر :
Bogiatzides : IOTOPIKAI MELETAI vol I . pt . 1 Passim .
Koprulu , Les Origines de l'Empire Ottoman pp. 48 ff .

تلك الجهات عدد كبير من حواشيهم . ولمـــا اشتدت غارات السلاجقة وغزواتهم ، غادر مواطنهم حشد متصل من الارمن ، فلحقوا بتلك المنازل الجديدة ، حتى اضحى ما يقرب من نصف سكان ارمينيـة ، في حركة مستمرة نحو الجنوب الغربي . ودفعهم تغلغل الترك في قبادوقيا مرة اخرى الى جبال طوروس ، والى جبال طوروس الامامية (اللكام) ، وانتشروا في وادي نهر الفرات الاوسط ، الذي لم يصل اليه الترك بعد . على ان المناطق التي غادرها الارمن ، لم يغمرها الترك وحدهم فحسب ، بل الكرد المسلمون القادمون من تلال آشور ، وشمال غربي ايران . على ان آخر امراء اسرة بغراط الارمنية ، التي تفاخر بأنها تنحدر من داود وبتشابع ، لقى مصرعه سنة ١٠٧٩ ، بنــــاء على اوامر بيزنطة ، بعد ان ارتكب جريمة خطيرة ، باغتيال رئيس اساقفة قيصرية . وعندئذ ، خرج على طاعة الامبراطورية (البيزنطية) ، احد اقاربه واسمه روبين ، واستقر في التلال الواقعة الى الشمال الغربي من قليقية . وحوالي ذلك الوقت اقـام زعيم ارمني آخر ، اسمه اوشين بن هيثوم ، امارة اخرى تقع الى غرب الامارة السابقة ، وعلى مسافـة غير بعيدة منهـــا . ولعب كل من آل روبين وآل هيثوم ، دوراً خاصاً في التاريخ فيما بعد . غير انه طمس اسم روبين وأوشين ، زعيم ارمني آخر اسمه بهرام ، الذي اطلق عليـــه الروم اسم فيلاريتوس .

كان فيلاريتوس بخدمة الحكومة البيزنطية ، إذ عيّنــــه الامبراطور رومانوس ديوجين حاكماً على مرعش . ولما هوى رومانوس ، رفض الاعتراف بالأمبراطور ميخائيل دوكاس ، وأعلن استقلاله . وفي أثناء الفوضى التي سادت حكم ميخائيل ، استولى فيلاريت على اهم مدن قليقية ، امثال طرسوس والمصيصة وعين زربة . وفي سنة ١٠٧٧ ، انتزع احد اتباعه ، مدينة الرها من يد البيزنطيين ، بعد أن حاصرها لمدة ستة شهور . وفي سنة ١٠٧٨ ، التمس سكان انطاكية ، بعد أن لقي حاكمها ، الذي تولاها بعد اسحاق كومنين

مصرعه ، من فيلاريت أن يتولى أمر المدينة ، لإنقاذها من الترك . فامتدت بذلـــك ممتلكات فيلاريت وقتذاك من طرسوس الى ما يلي الفرات من الأراضي . وأضحى كل من روبين وأوشين من اتباعه . غير أنــه لم يشعر بالاطمئنان . فنظراً لأنه يختلف عن معظم معاصريه ، في أنه كان أرثوذكسياً ، لم يشأ أن ينفصل نهائياً عن الأمبراطورية . فلـــا تم عزل ميخائيل عن العرش ، أعلن فيلاريت ولاءه وخضوعه للأمبراطور نقفور بوتنياتس، الذي أبقاه حاكماً على ما فتحه من البلاد . ومن الواضح ايضاً أنه اعترف بالامبراطور الكسيوس ، غير أنــه اتخذ من الحذر والحيطة ، ما حمله على أن يبذل الولاء لأمراء حلب من العرب [1] .

لم يكد الكسيوس يعتلي العرش ، حتى صار لزامـاً عليه ان يقرر ، أي الاعداء ، يبدأ بقتاله . وإذ قدّر أن الترك لا يجري ردهم إلا بعد جهد طويل شاق ، لم يتهيأ له وقتذاك ، وأدرك مـا قد يقع بينهم في الوقت ذاتـــه من الشجار والنزاع ، رأى ان الضرورة تقضي اولاً برد هجوم النرمان . على ان ذلك استغرق من الوقت ما يزيد على ما قدر له . ففي صيف سنة ١٠٨١ ، حاصر دورازو ، روبرت جويسكارد ، وبصحبته زوجته سيجلجايتا Sigelgaita ، وابنه الاكبر بوهمند . وفي اكتوبر توجه الكسيوس على رأس جيش يؤلف اهم فرقة به حرس الورنك من الانجليز السكسون لانقاذ الحصن (دورازو) واستخلاصه ، غير ان الانجليز لم يكونوا انداداً للنرمان ، مثلمـــا حدث في هاستنجر قبل ١٥ سنة ، فحلت بالكسيوس هزيمة ساحقة . وصمدت دورازو طوال الشتاء ، غير انها لم تلبث ان

---

(١) انظر : Laurent : op. cit . pp. 81 . ff .
Idem : « Des Grecs aux Croisés » pp. 368 - 403 .
Grousset : Histoire des Croisades XL - XLIV .
Matthew of Edessa II . CVI ff . pp. 173 ff .
المعروف ان متى الرهاوي كان يكره المسيحيين الارثوذكس .

سقطت بيد النرمان في فبراير سنة ١٠٨٢ ، فتهيأ بذلك لروبرت ان يزحف في الربيع نحو القسطنطينية مجتازاً الطريق الرئيسي الكبير المعروف باسم Via Eguatia . على أن الاحوال بايطاليا ارغمته على أن يعود الى بلاده . فجعل جيشه تحت قيادة بوهمند للاستيلاء على مقدونيا وبلاد اليونان . أنزل بوهمند الهزيمة مرتين ، بالكسيوس ، الذي اضطر الى ان يستعين بالرجال من الترك ، والسفن من البنادقة .

وبينما اعترض البنادقة مواصلات النرمان ، ساعد الترك الامبراطور الكسيوس على أن يسترد تساليا . وانسحب بوهمند في سنة ١٠٨٣ الى ايطاليا ، غير انه اعاد الكرة في السنة التالية ، بصحبة ابيه ، فدمر الاسطول البندقي تجاه كورفو . ولم تتوقف الحرب الا بعد وفاة روبرت جويسكارد في كيفالونيا سنة ١٠٨٥ ، ووقع الشجار بين ابنائه على إرثه وملكه [١] .

استيلاء السلاجقة على الشام :

وتوطدت آخر الامر سلطة الامبراطور على الاقاليم الاوربية ، غير أنه حدث في اثناء تلك السنوات الاربع ، أن ضاعت الاقاليم الشرقية . اذ انغمس فيلاريت في المؤامرات التركية . ففي سنة ١٠٨٥ ادت خيانة ابنه ، الى استيلاء السلطان سليمان السلجوقي على انطاكية ومدن قليقية ، وسقطت الرها سنة ١٠٨٧ في يد زعيم تركي ، هو بازان ، غير ان تورروس الارمني استردها سنة ١٠٩٤ ، فحازها على انها إقطاع من ملك شاه . واستقرت بقلعتها حامية تركية قامت بحفظ الامن . وفي اثناء ذلك

---

(١) عن الحرب النرمانية انظر : Chalandon : op. cit . pp . 58 - 94 .

استولى على ملطية ارمني آخر ، واسمه جبريل ، كان صهراً للأمير السابق وينتمي ايضاً ، مثل توروس الى المذهب الارثوذكسي . وزاد في اضطراب الامن بشمال الشام مـــا حدث من المنازعات بين الكنائس الارثوذكسية واليعقوبية والارمنية . ولقى تداعى سلطة بيزنطة ، الارتيـــاح عنـــد الكنائس الارمنية ، وكان الارمن يؤثرون حكم الترك [1] .

اضحت سيطرة السلاجقة تامة في جنوب الشام . فمنذ ان دخل طغرل بك الى بغداد سنة ١٠٥٥ ، ظلت امـــلاك الفاطميين في الشام معرضة للتهديد والخطر . ومـــا حدث بتلك الجهات من تزايد الخطر ، ادى الى الفوضى والثورات الصغيرة . فما حدث سنة ١٠٥٩ من أن بعض الموظفين باللاذقية الواقعة على الحدود البيزنطية ، الذين رفضوا السماح للحاج أسقف كمبراي ، بأن يمضي في طريقه الى الجنوب ، لم يكونوا يهدفون ، كما ظن كتّاب الغرب ، الى ان يسيئوا الى احد اللاتين (مع أنه صدر قرار بمنع الحجاج النرمان) ، فالواقع انه جرى اخطارهم ان سوريا لم تكن آمنة للمسافرين المسيحيين . وما تعرض له من التجربة ، بعد ثماني سنوات ، الحجاج الالمان ، الذين اصروا على اجتياز الحدود برغم نصائح المواطنين ، انما يدل على ان الموظفين البيزنطيين كان لديهم ما يبرر نصائحهم [2] .

ففي سنة ١٠٧١ ، اي السنة التي دارت فيهـــا معركة مانزيكرت وسقطت فيها باري ، استولى على بيت المقدس بدون قتال مغـامر تركي اسمـه اتسيز بن أبق ينتمي من الناحية الاسمية الى ألب أرسلان . ولم يلبث ان احتل كل فلسطين حتى حصن عسقلان الواقع بأطرافهـا . وفي

---

(١) Laurent : « Des Grecs aux Croisés » . pp . 403 - 410 .
انظر ايضاً ما ورد في دائرة المعارف الاسلامية عن « ملطية » .

(٢) انظر ما سبق ص ٧٨ حاشية ٤ ، ص ٧٩ حاشية ١ .

سنة ١٠٧٥ استولى اتسيز على دمشق . وفي سنة ١٠٧٦ استرد الفاطميون بيت المقدس . غير أن اتسيز طردهم منهـــا بعد حصار استمر شهوراً عديدة ، وبعد مذبحة تعرض لها السكان المسلمون ولم ينج منها إلا المسيحيون ، بفضل اعتصامهم في داخل اسوار حيهم . ومع ذلك لم يلبث الفاطميون أن هاجموا اتسيز بدمشق فـــلم يسعه إلا أن يستنجد بالأمير السلجوقي تتش ، شقيق ملك شاه ، الذي حاول بموافقة اخيه ، ان يقيم لنفسه سلطنة بالشام . ففي سنة ١٠٧٩ جرى اغتيال اتسيز بتدبير تتش الذي اصبح منفرداً بحكم دولة تمتد من حلب التي لا زالت حتى وقتذاك خاضعة لأمرة عربية ، حتى حدود مصر . وأقام تتش ونائبه ارتق ، والي بيت المقدس حكومة مستقرة استتب بهـــا الامن والسلام . ولم يتعرض المسيحيون لكراهية خاصة ، على الرغم من ان بطريرك بيت المقدس الارثوذكسي ، كان فيما يبدو يقضي جانباً كبيراً من الوقت في القسطنطينية ، التي اتخذها مقراً له زميله بطريرك انطاكية [1] .

---

(١) انظر ما ورد في دائرة المعارف الاسلامية عن تتش ، والاراتقة . ويعقد كتاب تاريخ بطاركة الاسكندرية مقارنة ، انتهى فيها الى ان حكم الترك في فلسطين كان افضل واصلح من حكم الفرنج الذي تلاه . اما السهم الذي قذفه ارتق الى سقف كنيسة القيامة فلم يقصد منـــه الاهانة ، بل يعتبره رمزاً للسيادة . انظر :

History of the Patriarchs of Alexandria pp . 181 - 207 .
Cahen : Le Tughra Seldjucide . Journal Asiatique Vol . CXXXIV .

كان يوتيموس Euthymius بطريرك بيت المقدس ، بالقسطنطينية في نهاية سنة ١٠٨٢ ، حينما توجه في سفارة الى بوهمند ، اما سمعان الذي خلفه في البطريركية ، فشهد المجمع الذي انعقد بالقسطنطينية سنة ١٠٨٦ ، وادان ليو اسقف خلقدونية . انظر عن مجمع القسطنطينية :

Dolger : Regesten no . 1087 , vol . II . p . 30 .
Montfaucon : Bibliotheca Coisliniana pp . 102 ff .

على أن البطريرك سمعان عاد الى بيت المقدس سنة ١٠٨٩ . وشهد بطريرك انطاكية المجمع انظر ما يلي : الكتاب الثاني ، الفصل الثاني .

وفي سنة ١٠٨٣ ، وبعد آن فرغ الامبراطور الكسيوس من الخطر النرماني ، وجه اهتمامه الى مشكلة الترك بالشرق . إذ لم يستطع أن يكبح جماحهم حتى ذلك الحين إلا بما دبره من مؤامرات لا تنقطع ، وبتحريض امير تركي ضد امير آخر . وبفضل ما حدث بعدئذ من التجـــائه الى المزج بين الدبلوماسية وإظهار القوة العسكرية ، استطاع ان يبرم معاهدة اعادت للامبراطورية نيقوميديا وشواطىء بحر مرمرة الاسيوية . وفي السنة التالية زاد جزاؤه نتيجة صبره الطويل . إذ أن سليمان قتلمش بعد ان استولى على انطاكية ، زحف على حلب ، فلم يسع اميرهـــا العربي إلا الاستنجاد بتتش . وترتب على المعركة التي نشبت خارج حلب ان انتصر تتش ، ولقى سليمان مصرعه .

الدانشمند وجكا :

وبوفاة سليمان ، سادت الفوضى ارجـاء الأناضول ، ودأب الكسيوس ، وفقاً لسجيته ، على الاشتراك مع بعض الزعماء في التآمر ، الواحـد ضد الآخر ، وأخـــذ يستغل ما بينهم من أحقاد ، وصار يعرض على بعضهم الرشاوى ، ويعد الواحد بعد الآخر بالتحالف المبني على المصاهرة . وظلت نيقية ست سنوات في حوزة احد المتمردين الترك ، وهو ابو القاسم ، غير أن ملك شاه استطاع سنة ١٠٩٢ أن يعزله ، ويولي مكانه قلج أرسلان الأول بن سليمان . وفي تلك الأثناء استطاع الكسيوس أن يوطد مركزه ، ولم يكن ذلـــك أمراً سهلاً . فلم يستطع أن يسترد من الأملاك سوى سيزيكوس ، ولم يكن بوسعه ان يمنع الدانشمنديين من مد املاكهم وبسط سلطانهم نحو الغرب ، وأن يسترد موطن اسرته ، قسطموني ، في بافلاجونيا ، إذ منعه من ذلك ما وقع في البلاط من مؤامرات . وكان لزاماً عليه في سنة ١٠٨٧ ان يواجه غارة خطيرة قادمة من وراء الدانوب ، قام بهـــا البجناك بمساندة المجريين . ولم يتخلص نهائياً من خطر غارة المتبربرين من

جهة الشمال إلا سنة ١٠٩١ ، بفضل دبلوماسيته التي دعمها ما احرزه من انتصار باهر .

على أن جكا امير ازمير التركي لا زال بالغ الخطورة ، لأنـــه يفوق سائر مواطنيه طموحاً ، وكان يتطلع الى ان يلي عرش الامبراطورية . لجأ الى استخدام اليونانيين لا الترك ، لأنه ادرك اهمية الحاجة الى قوة بحرية ، غير انه في الوقت ذاته حاول ان ينظم الامراء الترك في تحالف ، فزوج ابنته من قلج أرسلان الصغير . وأضحى جكا في الفترة الواقعة بين ١٠٨٠ ، ١٠٩٠ سيداً على ساحل بحر ايجه ، وجزائر لسبوس وخيوس وساموس ورودس . والمعروف ان اول ما أولاه الكسيوس اهميـــة من الامور ، حرصه على ان يعيد إنشاء الاسطول البيزنطي ، واستطاع آخر الامر ان ينزل الهزيـــة بجكا عند مدخل بحر مرمرة . غير ان الخطر ظلّ باقياً ، حتى لقي جكا مصرعه سنة ١٠٩٢ على يد صهره قلج ارسلان في وليمة اعدها له بنيقية . ولم يتم الاغتيال إلا نتيجة لمـــا بذله الامبراطور من نصيحة للسلطان الذي خشي ظهور امير تركي آخر ، يطغي على شخصيته [١] .

وبوفاة سليمان ومصرع جكا ، صار بوسع الكسيوس ان يفكر في اتخاذ سياسه اكثر جنوحاً للاعتداء إذا اضحت القسطنطينية بنجوة من الخطر ، وساد الهدوء الاقاليم الاوربية ، وصار اسطوله بالـــغ القوة والكفاية ،

---

(١) وصفت انه كومنين وفاة جكا ، غير أنه ظهر في تاريخها ايضاً جكا آخر . والراجح أنه ابن جكا السابق ، واشتهر باسم ابن جكا او جكا . واشتهر ايضاً السلطان قلج ارسلان باسم سليمان، عند المؤلفين الغربيين ، الذين عرفوه دائماً بابن سليمان .

انظر : Anna Comnena IX , III , 3 , vol . II pp. 165 - 166 . IX , V. 3
vol III . pp. 24 - 25 .
Chalandon : op. cit . pp. 126 ff .

وزخرت خزائنه بالمال مؤقتاً ؛ غير ان جيشه لا يزال صغيراً ، فلم يستطع ان يجند من العناصر الوطنية إلا عـدداً قليلاً من العساكر ، لأن بلاد الاناضول لم تعـد بحوزته ، فاشتدت حاجته الى عساكر اجنبية مأجورة مدربة .

ومن المحقق ان دولة السلاجقة اخـذت آخر الأمر تتداعى ، وذلك حوالي سنة ١٠٩٥ . ففي سنة ١٠٩٢ مات ملك شاه ، الذي كان يسيطر ويضبط الامبراطورية التركية ، وتلى وفاته نشوب الحرب الداخلية بين ابنائه . ووجه الترك كل اهتمامهم لهذا النضال ، طوال السنوات العشر التالية لوفاته ، حتى استطاعوا آخر الامر الاتفاق على اقتسام ملكه . وفي تلك الأثناء اعلن الثورة في العراق زعماء الترك والعرب . اما في سوريا ، حيث مات تتش سنة ١٠٩٥ ، فلم يستطع ولداه ، رضوان صاحب حلب ، ودقاق صاحب دمشق ، أن يعيدا الامن الى نصابه . وانتقلت بيت المقدس الى ابناء ارتق ، ولم تكن حكومتهم قوية ، بل اتسمت بالظلم والطغيان ، ولجأ الى قبرص سمعان البطريرك الأرثوذكسي وكبار رجال الدين . وأقام بنو عمار ، من الشيعة ، إمارة في طرابلس . وشرع الفاطميون في إعـادة فتح جنوب فلسطين . وفي الشمال كان القائد التركي كربوقا ، أتابك الموصل ، الذي ينتمي للخلافة العباسية ، ينتقص من امارة حلب . وتراءى للمسافر وقتذاك ان لكل مدينة سيداً مستقلاً [١] .

---

(١) انظر ما ورد في دائرة المعارف الاسلامية عن « سكان بن ارتق » .
وانظر ايضاً : William of Tyre 1 . . vol I pp. 25 - 26 . حيث وصف شعور الحجاج وقتذاك . لجأ سمعان الى قبرص قبيل بدء الحرب الصليبية ، غير أن تاريخ انتقاله الى قبرص ليس معروفاً .

متاعب الحجاج :

ومن الملحوظ أن الرحالة المسلمين والحجاج المسيحيين من الغرب ظلوا يفدون الى تلك الجهات . فلم ينقطع مسير الحجاج نهائياً ، غير أن الرحلة اصبحت بالغة المشقة . على أن حياة المسيحيين في بيت المقدس لم يكد يطرأ عليها أي تغيير حتى وفـاة أرتق . وساد الهدوء ارجاء فلسطين ، ولم يعكر صفوه إلا حين انتقل اليها القتـال بين الترك والمصريين . غير أن المسافر لم يكن بوسعه ان يجتاز آسيا الصغرى إلا في قافلة مسلحة ، ومع ذلك ظل الطريق مشحوناً بالخطر ، وفي معظم الاحوال ؛ عطله ما نشب من الحروب او ما وقع من العداوات بين السلطات المختلفة . أما الاحوال في سوريا فكانت احسن قليلاً ، اذ حاول كل امير محلي ان يتقاضى رسوماً على المسافرين الذين يجتـازون مدينته مهما كانت صغيرة . على أن الحجاج الذين نجحوا في التغلب على كل هذه المتاعب ، عادوا الى الغرب ، وقـــد اشتد بهم التعب وازداد عوزهم وفقرهم ، وادخروا قصة مروعة ليرووها في بلادهم .

الكتاب الثاني

الدعوة الى الحرب الصليبية

الفصل الاول

السلام المقدس والحرب المقدسة

لا بد للمسيحي أن يواجه مشكلة جوهرية . وهي هل يجوز له القتال من اجل بلاده ؟ فالديانة المسيحية ليست إلا ديانة سلام ، والحرب لا يقصد بها إلا القتل والتحطيم . ولم يكن عنـد الآباء المسيحيين الأوائل شك في ذلك . فالحرب عندهم ليست إلا الاغتيال جملة . غير أنه بعـد أن انتصر الصليب ، وبعد ان اضحت الامبراطورية هي العـالم المسيحي ، ألا ينبغي على سكانها أن يكونوا مستعدين لحمل السلاح والقتال من اجل سعادتها .

رأت الكنيسة الشرقية أن ذلـك لا يجوز ، فالفقيه الكنسي الكبير القديس باسيل ، على الرغم من أنه يقرر انه يتحتم على الجندي ان يطيـع الاوامر ، يصر على أن كل من يرتكب جريمة القتل في الحرب ، لا بد من منعه لمدة ثلاث سنوات من ممارسة التناول ، تكفيراً عن خطيئته [١] . على أن هذه النصيحة كانت بالغة الصرامة . فالواقع أنـــه لم تجر معاملة

---

(١) انظر :
Saint Basil , letter no 188 in M. P. G. vol . XXXII col. 681 .

الجندي البيزنطي على أنه قاتل ، ومع ذلــك لم تجلب له مهنته الشهرة والصيت . فالموت في المعركة لم يعتبر من الاعمال الجيدة ، بل إن الموت في ساحة القتال ضد الكفار ، لم يعتبر من قبيل الاستشهاد ، فالشهيد لم يتسلح إلا بالايمان ، فقتال الكفار يعتبر امراً بغيضاً كريهاً ، غير أنه في كثير من الاحوال كان امراً لا مفر منه . اما قتـــال المسيحي لرفاقه المسيحيين فهو اشد بغضاً وسوءاً . والملحوظ ان التاريخ البيزنطي خلا من الحروب العدوانية ، فما قام به جيش جستنيان من غزوات ، لم يقصد بها إلا تحرير الرومان من الحكام المتبربرين الهراطقة ، وما وجهه باسيل الثاني من حملات لقتال البلغار ، لم يقصد بها إلا استرداد الاقاليم الامبراطورية ، وإبعاد الخطر الذي يهدد القسطنطينية . على أن الوسائل السلمية كانت اكثر قبولاً ، حتى لو انطوت على دبلوماسية ملتوية ، او دفع اموال . واذ درج مؤرخو الغرب على الإشادة بالبسالة العسكرية ، فــانهم اعتبروا الساسة البيزنطيين جبناء او ماكرين . غير ان الدافع ليس إلا الرغبة الخالصة في تجنب سفك الدمــاء . فالاميرة أنه كومنين ، التي تعتبر انموذجاً خالصاً للمؤرخين البيزنطيين ، شرحت في تاريخها ، أنها على الرغم من شدة اهتمامها بالمسائل الحربية ، وإمعانها في تقدير ما احرزه ابوها من انتصار في المعركة ، اعتبرت الحرب امراً مشيناً ، وأنهــا ليست إلا الملاذ الاخير ، لا يصح الالتجاء اليها ، إلا عند فشل كل ما سواها من الوسائل ، بل إنهــا في ذاتها تعتبر اعترافاً بالفشل [1] .

أمــا وجهة النظر الغربية فأقل وضوحاً وجلاء ، إذ أن القديس اغسطين ذاته ، أقر بأن الحرب يصح أن تنشب بأمر الله [2] ؛ والمجتمع

---

(١) انظر : Buckler : Anna Comnena pp. 97 - 99 .
(٢) Saint Augustine , De Civitate Dei in M. P. L. vol. XLI col. 35.

العسكري الذي نبع في الغرب من ثنايا غارات المتبربرين لا بد أن يسعى لتبرير ما درج على القيام به في الماضي . فقانون الفروسية الذي نما وترعرع ، تسانده الملاحم الشعبية ، جعل للبطل المحارب كرامة وهيبة. على حين أن الذي يدعو للسلام لم ينل الا السمعة السيئة التي لم يبرأ منها ابداً . ولم تحفل الكنيسة كثيراً بهذه العاطفة . على أنها حرصت على أن توجه غريزة المقاتلة الى مسالك تخدم قضيتها . فالحرب المقدسة مثلاً ، التي هي حرب لصالح الكنيسة ، اضحت جائزة ، بل مرغوباً فيها . فقد اعلن البابا ليو الرابع ، في منتصف القرن التاسع ، أن كل من يموت في سبيل الدفاع عن الكنيسة ، سوف يلقى من الله الجزاء الاوفى (١) ، كما أن البابا يوحنا الثامن ، بعد سنوات قليلة ، جعل ضحايا الحرب المقدسة من الشهداء ، فاذا لقوا مصرعهم ، متقلدين سلاحهم ، انمحت ذنوبهم . غير ان الجندي ينبغي أن يكون خالص القلب نقي السريرة (٢) . وقرر البابا نقولا الاول أن كل من وقع تحت طائلة حكم الكنيسة لما ارتكبه من الذنوب ، ينبغي ألا يحمل السلاح إلا من اجل قتال الكفار (٣) .

حركات الدعوة للسلام :

وعلى الرغم من أن كبار المسئولين عن الكنيسة لم ينكروا القتال ، فان من المفكرين من ارتاع للحرب . ومن هؤلاء برونوكوير فورت

---

(١) Mansi , Concilia vol. XIV p. 888 .

(٢) انظر: John VIII letters in M. P. L. vol CXXVI . cols 696 , 717 , 816 .
Mansi : Concilia vol . XVII p . 104 .

(٣) Letter of Nicholas I in Monumenta Germaniae Historica , Epistolae vol . VI p . 658 .
وهذه الرسالة واردة في مجموعات القانون الكنسي التي نشرها Gratian,Burchard .

الالماني ، الذي استشهد سنة ١٠٠٩ بأيدي البروسيين الوثنيين ، فإنه أثار سخطه وحنقه مـــا أنشبه الاباطرة من الحروب في زمنه ضد الرفاق المسيحيين ، كالحرب التي اشعلها اوتو الثاني ضد ملك فرنسا ، والحرب التي شنها هنري الثـــاني على البولنديين [١] . على أنه ظهرت في فرنسا فعلاً حركة داعية للسلام . ذلك ان مجمع شارو ، الذي انعقـد سنة ٩٨٩ ، حيث اجتمع فيه اساقفة اكيتانيا لحماية ما لرجال الدين من امتيازات ، اقترح انـــه ينبغي على الكنيسة ان تكفل للفقراء ان يعيشوا في سلام وأمن [٢] . وفي المجتمع الذي انعقد في السنة التالية (٩٩٠) في لي بويه Le Puy ، ازداد تأييد الاقتراح السابق ، اذ اعلن جاي انجو Guy of Anjou اسقف لي بويه ، أنه ما لم يتحقق السلام ، لن يرى احد وجه المسيح ، ولذا حث جميع الرجال على أن يصيروا من دعاة السلام [٣] . ولم تنقض إلا سنوات قليلة حتى تبنى الفكرة وليم الكبير دوق جيين . ففي مجلس بواتيه ، الذي دعا الى عقده سنة ١٠٠٠ م ، تقرر أنه لا ينبغي منذئذ الالتجاء الى السلاح عند فض المنازعات ، بل ينبغي الرجوع الى القضاء ، وكل من لا يوافق على هـــذه القاعدة ، ينبغي حرمانه من الكنيسة . وأقر ذلك دوق جيين ، وطبقة النبلاء ، والتزم روبرت التقي ملك فرنسا أن يسير على قاعدة مماثلة في املاكه [٤] . وظلت الكنيسة تولي هـــذه

---

(١) انظر : Erdmann : DieEntstehung des Kreuzzungsgedankens p. 97 no. 35.

وبه اشارات الى امثلة كثيرة .

(٢) Mansi : Concilia vol. XIX. pp. 89 - 90.

(٣) Cartulaire de Saint - Chaffre p. 152

(٤) Mansi Concilia vol. XIX p. 267 - 268.

Fulbert of Chartres, letter in Bouquet, Historiens de la France, vol X. p. 463.

الحركة اكبر اهتمام ، كما تحافظ على املاكها من المغيرين ومثيري الحروب ، وانعقدت مجالس عديدة لهذه الغاية ، ففي فردان Verdun - sur le Doubs حدث سنة ١٠١٦ ، أن صدرت صيغة يمين ، بمقتضاهـــا اقسم النبلاء ألا يرغموا رجال الدين على أن ينخرطوا في جيوشهم ، او يُغيروا على محصولاتهم ، او يصادروا دوابهم . هذا القسم التزم به الناس في فرنسا عن طيب خاطر ، بينما صار القسس والحاضرون بالكنيسة يهتفون « السلام ، السلام ، السلام [1] » .

هذا النجاح حفز بعض الأساقفة المتحمسين على أن يسيروا قدماً . ففي سنة ١٠٣٨ أمر أيمون ، رئيس أساقفة بورج ، بأن كل مسيحي يزيد عمره على خمس عشرة سنة ، ينبغي أن يعتبر نفسه عدواً لكل من ينتهك حرمة السلام ، ويُبدي استعداده ، اذا اقتضت الأحوال ، لأن يشهر سلاحه ضدهم . فتألفت بذلــك عصبات للسلام ، وكانت اول الأمر قوية الأثر ؛ غير أن الشطر الثــاني من امر رئيس الاساقفــة ، كان اكثر قبولاً وأشد أثراً من الشطر الاول . فالقلاع التابعة للنبلاء المخالفين المعارضين ، دمرها جيوش من الفلاحين المسلحين ، تولى قيادتهم رجال الدين . على أن هــذه الجيوش التي يعوزها النظــام ، لم تلبث أن اضحت من الخطورة والنزوع الى التدمير ، ما اعجز السلطات عن قمعها . وبعـــد أن تعرضت قرية بنيسي Bénecy للحريق على يد عصبة قوية للسلام ، أنزل اودوكونت ديولز Deols بهـذه

(١) انظر : Hefel Leclerq:Histoire des Conciles vol . IV pt . 2 p. 1409.
Radulph Glaber in Bouquet , R. H. F. vol . X pp. 27 - 28 .
Pfister : Etudes sur le Régne de Robert le Pieux , p. IX .
Huberti : Studien zur Rechtsgeschichte der Gottesfrieden und Landfrieden p. 165

العصبة المهزمة على نهر شير Cher ، وهلك في المعركة ما لا يقـل ، فيما يروى ، عن سبعمائة من رجال الدين [1] .

الهدنة في الأيام المقدسة :

وفي تلك الأثناء ، جرت محاولة عملية للحد من القتال والحروب . ففي سنة ١٠٢٧ عقـــد أوليبا Oliba ، اسقف فيش Vich ، مجمعاً في تولوج Toulouque في روسيللون Roussillon ، قضى بتحريم كل الأعمال الحربية أثناء صلوات السبت [2] . على أن فكرة جعل الهدنة تشمل الايام المقدسة ، لم تلبث أن امتدت واتسعت ، حينما أرسل أساقفة بروفانس ، تحت تأثير اوديلو Odilo ، رئيس دير كلوني ، سنة ١٠٤١ ، كتاباً الى كنيسة ايطاليا ، يتحدثون فيه باسم كنيسة غاله كلها ، ويطلبون فيه أنه لا بد من امتداد هدنة الله ، حتى تشمل يوم الجمعة اليتيمة ، ويوم سبت النور ، ويوم الصعود [3] ، وجرت كنيسة اكيتانيا على نهج كنيسة بروفانس . غير أن دوقية برجنديا مضت الى ابعد من ذلك ، فجعلت الهدنة تشمل من ايام الاسبوع ، مـا يقع بين مساء الاربعاء وصباح الاثنين ، فضلاً عن الفترة الممتدة من عيد البشارة الى الاحد الاول بعـــد عيد الغطاس ، وخميس العدس ، واسبوع الآلام حتى اليوم الثامن من عيد القيامة [4] . وفي سنة ١٠٤٢ أضاف ايضاً وليم الفاتح في تشريعه لنرمنديا ، الفترة الواقعة بين ايام الابتهال ، واليوم

---

(١) Miracles de Saint - Benoît ed . by de Certain p . 192 .

(٢) Mansi : Concilia vol . XIX . pp. 483 - 488 .

(٣) Mansi : op. cit . p . 593 - 596 .

(٤) M.G.H. Constitutiones et Acta Publica Imperatorum et Regum . vol. I. p. 599 .
Huberti : op . cit . pp. 296, 303 .

الثـــامن من عيد العنصرة[١] . وفي سنة ١٠٥٠ أوصى المجمع المنعقد في تولوج ، بأن يضاف الى الهدنة ايضاً ، الأعياد الثلاثة للعذراء ، وأعياد كبار القديسين[٢] . وفي منتصف القرن الحادي عشر ، أضحت فكرة هدنة الله فيما يبدو مستقرة . وسعى مجمع ناربون الكبير المنعقد في سنة ١٠٥٤ ، الى تنسيقها مع فكرة سلام الله ، بأن قرر حماية امتعة الكنيسة والفقراء من آثار الحرب . فينبغي احترامها ، وكل من يتعرض لهـا ، يعاقب بالحرمان من الكنيسة ، وتقرر بعد ذاك ، أنه لا ينبغي لمسيحي أن يقتل مسيحياً ، لأن كل من يقتل مسيحياً ، فكأنه أهدر دم المسيح[٣] .

على أنه قل أن يكون لحركات السلام من التأثير من الناحية العملية ، ما لها من الناحية النظرية . وما حدث من هذه الحركات في القرن الحادي عشر ، لم يخرج عن هذه القاعدة . فالأمراء ، الذين أمعنوا في الدفاع عن هدنة الله ، لم يلتزموا بشروطها . إذ أن وليم الفاتح انشب يوم السبت القتال ضد اخيــه في المسيحية ، هارولد ، في معركة هيستنجز . وجزعت أنـّا كومنين ، حينما لحظت أنه بينما حاولت الكنيسة في صدق واخلاص ، أن تتجنب الحرب في الاعياد المقدسة ، تعرضت القسطنطينية للهجوم في اسبوع الآلام على ايـدي فرسان الغرب ، عندمـــا زخرت جيوشهم بقسس مصلحين مقاتلين[٤] . ولم تكن املاك الكنيسة كما عرف البابوات انفسهم بالتجربة ، بنجوة من هجمات العلمانيين . فـــما طغى على الغرب من نزعة القتال ، والميل لاحراز المجد الحربي ، لم يكن من اليسير

---

(١) Mansi : Concilia vol . XIX. pp . 597 - 600 .

(٢) Ibid . p . 1042 .

(٣) Mansi : Concilia XIX. pp. 827 - 832 .

(٤) Anna Comnena : Alexiad X. VIII. 8. vol II. pp. 218 - 219 X, IX. 5 - 6. vol . II . p . 222 .

اخمادها . فكان من الخير الرجوع الى السياسة القديمة ، والافادة من هذا النشاط بتحويله الى قتال الوثنيين .

على أن تهديد المسلمين حتى وقوع الغزوات التركية ، بلغ من الخطورة على اقاليم الغرب ما لم يبلغه على الدولة البيزنطية ، وروع الترك البيزنطيين على انهم متبربرون لا على انهم مسلمون . ومنـذ أن فشل حصار العرب للقسطنطينية في اوائل القرن الثـامن ، كادت الحرب على الطرف الشرقي للعالم المسيحي تنشب بانتظام ، غير أنه لم يكن لها من الخطورة ، مـا يهدد وحدة الامبراطورية ، كما انهـا لم تمنع نهائياً التبادل التجاري والفكري . فالعربي لم يختلف عن البيزنطي ، في أنه يعتبر وريث المدنية اليونانية الرومانية . ولم يكن اسلوب الحياة عندهما شديد الاختلاف . فالبيزنطي يأنس للإقامة في القاهرة وبغداد اكثر مما يأنس لها في باريس او جوزلار او روما ذاتها . فباستثناء الازمنة النادرة التي تقع بهـا الازمات والحروب الانتقامية ، اتفقت كل من السلطات الامبراطورية وسلطات الخلافة ، على ألا ترغم النـاس في الجانبين على التحول الى عقيدتها ، وعلى اجازة حرية العقيدة لمن يقيم بأملاكها من رعـايا الدولة الاخرى . ويصح أن يتحدث الخلفـاء الذين يميلون الى التفاخر ، عن الاباطرة المسيحيين في شيء من الزراية ، ويصح أن يلزموهم بدفع الجزية ، غير أن البيزنطي في اواخر القرن العاشر دل على أنـه عدو ماكر بالغ التدبير .

على أن المسيحي في الغرب لم يشارك البيزنطي فيما اشتهر بـه من التسامح والاحساس بالطمأنينة والأمن . إذ كان يفخر بأنه مسيحي ، وأنه فيما يزعم وريث روما . ومع ذلك فانه كان يدرك على مضض ، أن الحضارة الاسلامية تفوق حضارته في وجوه كثيرة ، إذ سيطر المسلمون على غرب البحر المتوسط من قطالونيـة الى تونس ، وأنقض القرصان

المسلمون على ما يجتازه من السفن التجارية ، ونهب المسلمون روما . وشيد المسلمون لهم قلاعاً في ايطاليا وبروفانس من اجل النهب والسلب . ومن معاقلهم في اسبانيا ، تراءى كأنهم سوف يظهرون من جديد ويجتازون الحدود ، ويتدفقون عبر البرانس الى فرنسا . ولم يكن في العالم المسيحي في الغرب من التنظيم ما يدرأ به مثل هذا الهجوم . ومنذ ايام شارل مارتل ، استطاع بعض الابطال ، امثال شارل مارتل ، أن يردوا هذه الغارات . وظلت الامبراطورية الكارولنجية فترة من الزمن ، تعتبر حاجزاً هاماً لمنع هذه الغارات . ففي سنة ٩١٥ ، تم التعاون بين البابا يوحنا العاشر وبلاط القسطنطينية ، لتأليف عصبة من الأمراء المسيحيين ، لطرد المسلمين من قلعتهم الواقعة على جبل جارجانو [١] . وفي سنة ٩٤١ انحاز البيزنطيون الى هيو امير بروفانس، في شن هجوم على قلعة فريوس Frejus . لم ينجح هذا الهجوم ، نظراً لما حدث في اللحظة الاخيرة من تغيّر موقف هيو . غير أنه حدث سنة ٩٧٢ ، أن أتم العمل (طرد المسلمين من قلعة فريوس) ، عصبة من الامراء البروفنساليين والايطاليين . على أن هذه العصبات لم تكن إلا عصبات محلية وطارئة غير دائمة ؛ فاشتدت الحاجة الى مزيد من التنسيق ، والى ازدياد بذل الجهد . ولم يك ثمة ما هو اكثر من روما ادراكاً للحاجة الى الجهد والتنسيق ، وقد ظل ماثلاً في ذاكرتها ما حدث سنة ٨٤٦ من نهب كنيسة القديس بطرس .

---

(١) انظر : Liutprand: Antapodosis pp. 61 - 62 Leo of Ostia pp. 50 ff.
Gay : L'Italie Meridionale et l'Empire Byzantin p. 161 .
حدد التاريخ في سنة ٩١٥ .
Runciman : The Emperor Romanus Lecapenus pp. 1 4 - 185 .

المنصور :

كان المسلمون في اسبانيا يشكلون في القرن العاشر خطراً شديداً على العالم المسيحي . فما حـــازه المسيحيون من قبل من بلاد ، لم يلبث أن اضاعوها وفقدوها . ففي منتصف هذا القرن ، كان عبد الرحمن الثالث سيد شبه الجزيرة بلا منازع ، وأحدثت وفاته سنة ٩٦١ شيئاً من الراحـــة والهدوء ، نظراً لمـــا اشتهر به خليفته الحكم الثـــاني من الميل الى الهدوء والمسالمة ، ولانصرافه الى قتال الفاطميين والأدارسة في مراكش . على أنه سيطر على الموقف بعد وفاة الحكم سنة ٩٧٢ ، الوزير محمد بن أبي عامر ، المعروف بالمنصور (وعند الاسبان Almanzor) الذي كان يميل الى القتال والجهاد . وكانت مملكة ليون أهم مملكة مسيحية في أسبانيا ، وقد تعرضت لهجمات المنصور . ففي سنة ٩٨١ استولى المنصور على زامورا ، بجنوب مملكة ليون ، وفي سنة ٩٩٦ نهب ليون ذاتها ، وفي السنة التالية أشعل الحرائق في شنت يعقوب في كومبوستيلا Compostella التي تعتبر ، ثالث المواضع التي يقصدها الحجاج ، بعد بيت المقدس وروما . ومع ذلك حرص هذا الامير على أن يحترم المزار ذاته . وفي سنة ٩٨٦ استولى المنصور على برشلونة ، وتراءى أنه لا يلبث أن يعبر البرانس ، حين وافته منيته سنة ١٠٠٢ [١] . اخذت قوة المسلمين في التداعي بعد وفاة المنصور . ومع ذلك استطاع القرصان المسلمون أن ينهبوا Antibes سنة ١٠٠٣ ، وبيزا في ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ وناربون في ١٠٢٠ . غير أن الهجوم المنظم من قبـــل المسلمين توقف فترة من الزمن ، وبذا حان الوقت للمسيحيين لأن يقوموا بهجوم مضاد [٢] .

---

(١) عن المنصور ، انظر :

Dozy : Histoire des Musulmanes en Espagne : rev . ed . vol . II . pp. 235 ff .

(٢) Ballestéros : Historia de Espana vol . II pp. 389 ff .

دبر هـذا الهجوم المضاد ملك نافار ، سانكو الثالث ، المعروف باسم سانكو الكبير . ففي سنة ١٠١٤ حـاول سانكو أن يؤلف عصبة من الامراء المسيحيين لقتال المسلمين ، وأراد زميلاه ، ملكا ليون وقشتاله ، أن يساعداه ، ووجد في سانكو ـ وليم دوق غسقونية ، حليفاً متحمساً . أما روبرت ملك فرنسا ، فلم يستجب لدعوته . غير أنه لم يتحقق شيء ملموس ، وفي تلك الأثناء ، حظي سانكو باهتمام حليف بالغ الأهمية . ذلك أن دير كلوني الضخم ، الذي امتدت رئاسة اثنين له نحو ١١٥ سنة ، وهما اوديلو ، الذي تولاه سنة ٩٩٤ ، ومات سنة ١٠٤٨ ، ثم خلفـه على الرئاسة هيو الذي عاش حتى سنة ١١٠٩ ، اخذ يوجه اهتماماً خاصاً لأمور أسبانيا . وحرص دير كلوني دائماً على الاهتمام براحة الحجاج وسلامتهم ، وأعرب عن سروره في أن يكون له وزن وتقدير في أمر طريق الحجاج المؤدي الى كومبوستيلا ، وأن ينهض للمساعدة في المحافظة على أسبانيا المسيحية . والراجح أنه كان للأثر الكلوني اهمية في استقدام روجر توسني Roger of Tosni من نرمنديا ، على الرغم من أن ما اتصف به النرمان من روح المغامرة ، كان يصح أن يحمل النرمان على مساعدة ارسلند Ereslinde ، كونتيسة برشلونة ، سنة ١٠١٨ ، حين تعرضت لتهديـد المسلمين . واشتدت سيطرة الكلونيين على الكنيسة الاسبانية زمن سانكو وأخلافه ، بأن جعلوها في مقدمة ما تأثر بالحركة الاصلاحية . ولم يسع البابوية إلا أن تقر كل محـاولة لمد أطراف العالم المسيحي في اسبانيا . وحلت البركات الكلونية والبابوية بأمير غسقونية ، سانكو - وليم ، حين انحاز الى سانكو ملك نافار ، لشن الهجوم على أمير سرقسطة ، وهذا التأييد الكلوني البابوي شجع ريموند - برنجار الاول امير برشلونة ، على المضي في دفع المسلمين صوب الجنوب [١] .

(١) Boissonnade: De Nouveau sur la Chanson de Roland pp. 6-22.
على أن كلا من بواسوناد وحاتم (Hatèm : Les Poémes Epiques des Croisades pp. 43 - 63) .
=

الحروب المقدسة في أسبانيا :

فما نشب من القتال ضد المسلمين في اسبانيا ، اتخذ صفة الحرب المقدسة ووضعها ، فلم يلبث البابوات أن صار لهم يـد في توجيهها . ففي سنة ١٠٦٣ ، لقي راميرو الاول ملك أرجون ، مصرعه في جرادوس Grados ، على يد احد المسلمين عندما قام بهجوم على المسلمين . فأثار موته خيـال اوربا ، فبادر البابا الاسكندر الثاني الى أن يعد ببذل الغفران لكل من قاتل من اجل الصليب في اسبانيا ، وشرع البابا في تأليف جيش لمواصلة عمل راميرو . وقام وليم مونتراي William of Montreuil ، وهو جنـدي نرماني بخدمة البابا ، بتجنيد العساكر في شمال ايطاليا ، وتولى جمع العساكر بشمال فرنسا ، إبلس كونت رومي Ebles of Roucy شقيق فليشيا ملكة أراجون Flicia . على أن أضخم جيش ، كان ذلك الذي جمعه جفري كونت اكيتانيا ، الذي تولى قيادة الحملة ، ومع ذلك لم يتحقق شيء يذكر . فعلى الرغم من الاستيلاء على بلدة باربسترو ، والحصول على غنيمة وفيرة ، فان هذه البلدة ، لم تلبث ان ضاعت من جديد [1] . غير أن الفرسان الفرنسيين أخذوا منذئذ يهرعون لاجتياز جبال البرانس ، لمواصلة هـذا العمـل . ففي سنة ١٠٧٣ أعد إبلس كونت رومي حملة جديدة . ودعا البابا جريجوري السابع كل امراء المسيحية للانضمام اليهـا ، فأعلن عند

= قد بالغ في تقدير ما قام به دير كلوني في تنظيم الحروب المقدسة في اسبانيا ، انظر :
Fliche : L'Europe Occidentale de 888 a 1125 pp. 551 - 553 .
وأشار هالفن في محاضراته التي ألقاها بمعهد الدراسات العليا في باريس والتي لم يجر نشرها بعد، الى أن لدير كلوني أهمية كبيرة، غير أنه في الواقع ان لم ينظم أمر توجيه حملة حربية الى أسبانيا.
انظر : Rousset : Les Orignes et les Caractères de la première Croisade pp. 31 - 35 .

(١) انظر : Boissonnade : op . cit . pp. 22 - 28 .
Fliche : op . cit . pp. 551 - 552 .

تذكيره العالم أن مملكة اسبانيا تنتمي الى المقر المقدس ، وأن المسيحيين سوف ينعمون بما يفتحونه من أيدي الكفار من الاراضي [١] . وفي سنة ١٠٧٨ ، تولى هيو الاول دوق برجنديا ، قيادة جيش لمساعدة صهره الفونسو السادس ملك قشتالة [٢] . وفي سنة ١٠٨٠ أعلن البابا جريجوري السابع تأييده الشخصي للحملة ، التي قادها جاي جفري . وجرت الأمور على خير وجه في السنوات التالية . اذ استولى القشتاليون على طليطلة سنة ١٠٨٥ [٣] ، ثم تلى ذلك حركة إفاقة اسلامية بعثها المرابطون . ومنذ سنة ١٠٨٧ اشتدت دعوة الفرسان المسيحيين للقدوم الى اسبانيا لمقاومة المرابطين . وبذل البابا اربان الثاني المساعدة عن طيب خاطر ، بل انه أخطر الحجاج المتوجهين الى فلسطين ، إنه لخير لهم أن ينفقوا أموالهم في عمارة المدن الاسبانية ، التي نجت من تخريب المسلمين [٤] . على أن الحملات الموجهة الى اسبانيا ، ظلت حتى نهاية القرن الحادي عشر ، تجتذب من الشمال الفرسان المسيحيين المغامرين ، ولم تنته هذه الحملات المستمرة إلا بعد الاستيلاء على وشقة سنة ١٠٩٦ ، وباربسترو في سنة ١١٠١ .

ولم ينته القرن الحادي عشر ، حتى تحولت فكرة الحرب المقدسة ، الى اتجاه عملي . إذ أن الفرسان والعساكر المسيحيين لقوا التشجيع من السلطات الكنسية ، بأن يتخلوا عن منازعاتهم الصغيرة ، وأن يتوجهوا الى اطراف العالم المسيحي ، لقتال الكفرة . وأن ما يصيبونه من المكافأة

---

(١) انظر : Gregony VII . Registrum 1 , 7 . pp. 11 - 12 .
Villey : La Croisade : Essai sur la Formation D'une Théorie Juridique p. 71 .

(٢) Boissonnade : op . cit . pp. 29 - 31 .

(٣) Ibid pp. 31 - 2 .

(٤) Riant : Inventaire Critique pp. 68 - 69

هو على ما يؤدونه من خدمة ، وأن لهم أن يحوزوا ما يجري استرداده من الاراضي ، وأن ينالوا مزايا روحية . أما هذه المزايا الروحية الخالصة فلم يكن مقطوعاً بها . فالبابا اسكندر الثاني وعد ، فيما يبدو ، بالغفران لمن اشتركوا في حملة ١٠٦٤ [١] ، بينما لم يبذل البابا جريجوري السابع إلا التحلل لكل من لقي مصرعه في المعركة من اجل الصليب [٢] . وبذل هذا التحلل ايضاً لكل عساكر رودلف السوابي عند قتالهم هنري الرابع امبراطور المانيا ، الذي تقرر قطعه من الكنيسة [٣] . فتولت البابوية توجيه الحروب المقدسة . فهي التي شنتها ، وهي التي طالما رشحت قادتها . وما يفتح من البلاد لا بد أن يخضع اخيراً للسيادة البابوية [٤] .

وعلى الرغم من أن كبار الامراء ، نزعوا الى أن يبقوا بعيداً عن الحرب المقدسة ، فان الفرسان الغربيين ابدوا استعدادهم للاستجابة الى الحرب المقدسة . فكانت دوافعهم من بعض الوجوه دينية خالصة ، إذ أنهم خجلوا أن يستمر القتال بينهم ، وأرادوا أن يحاربوا من اجل الصليب . على أن الحرص على امتلاك الاراضي ، كان ايضاً من الدوافع التي جعلت الامراء ، ولا سيما في شمال فرنسا ، يقبلون على الاشتراك في الحروب المقدسة ، نظراً لما رسخ بها من نظام قصر الوراثة على الابن الاكبر . فكلما ازداد السيد عزوفاً عن توزيع املاكه وما يتبعها من وظائف ، بعد أن اخذت تتركز وتتذاك حول قلعة مشيدة من الحجارة ، كان لزاماً على الابناء الصغار أن يلتمسوا الرزق في كل مكان . فساد

---

(١) Jaffe - Wattenbach : Regesta no . 4530 vol . I . p. 573 .
(٢) Gregory VII . loc . cit .
(٣) Ibid VII . [14 b . pp. 480 ff .
(٤) Ibid . Regesta n . 4530 . vol 1 p. 573

القلق والميل للمغامرة بين طبقة الفرسان في فرنسا ، وازداد ذلك وضوحاً عند النرمان ، الذين لم يتحولوا من حياة البدو وقطع الطريق إلا منـذ اجيال قليلة . فاذا تهيأت الفرصة لربط الواجب المسيحي ، بامتلاك الاراضي في اجواء الجنوب ، كان ذلـك من الامور المثيرة للاغراء . اما الكنيسة فانه توافر من الدواعي ، ما يجعلها تطرب لما حدث من تقدم الحركة واضطرادها ، ألا يصح استخدام هذه الحركة وتطبيقها في الطرف الشرقي للعالم المسيحي .

الفصل الثاني

صخرة القديس بطرس

كلما انحسر المد الاسلامي في اسبانيا ، لم يجد البابا صعوبة في توطيد سلطته على ما قام من الكنائس بالبلاد التي جرى فتحها من جديـــد . فمنحة قسطنطين التي قبلتها المسيحية في الغرب على أنها صحيحة ، كفلت له السيادة الزمنية على كثير من البــلاد ، ومنها شبه جزيرة ايبيريا . ولم يكن باسبانيا من السلطات الكنسية ما يستطيع ان يناهضه ويتحداه . غير أن المسيحية الشرقية اتخذت نظاماً مختلفاً . فبطريركيتا الاسكندرية ، التي أنشأها القديس مرقص ، وانطاكية التي أقامهـــا القديس بطرس ، تضارعان في قدم العهد المقر الرسولي في روما . وعلى الرغم من أن كلا من بطريركية بيت المقدس وكنيسة القديس يعقوب ، احدث عهـداً من الكنائس السابقة ، فانها أحرزت من المجد والمكانة ، ما هو خليق بأقدس مدينة في العالم . وتعتبر بطريركية القسطنطينية أخطر منافس لكل هذه الكنائس ، وعلى الرغم من زعمها أنها تنتمي الى القديس اندرياس ، فليس في وسعها أن تزعم لنفسها الأصالة والعراقة في السلطة . على أن القسطنطينية ليست إلا روما الجديدة ، حلت مكان العاصمة السابقة ، وكانت مقر سلسلة

متصلة غير مقطوعة من الأباطرة المسيحيين ، وتعتبر بلا منازع أعظم مدن العالم المسيحي ، وأضحى لبطريركها من الدواعي والأسباب ما يجعله يحق ينعت نفسه « المسكوني » Oecumenical ، أي اكبر رجـال الكنيسة في العالم المتمدن . وعلى الرغم من أن المعارضة الدينية في بيزنطة سعت في بعض الأحوال الى أن تفيد من سلطة روما القديمة ، لمقاومة ازدياد سلطة الأمبراطور البيزنطي ، فلم يكن بالشرق من يعتقد أن اسقف المدينـــة الغربية المنقطعة (روما) ، الذي كان دائماً في قبضة نبلائها المثيرين للقلق ، او في قبضة زعماء متبربرين من الشمال ، لا بد أن تكون له الولاية على الكنائس الشرقية ، بما لها من تقاليد راسخة طويلة الأمد . ومع ذلك فلا تزال روما تفرض احترامها الخاص . فعلى الرغم من إغفـال دعواها في السيادة ، فانه تقرر الاعتراف بما لها من صدارة على الكراسي الرسولية الكبرى في العالم المسيحي ، بل اعترف بذلك ايضاً البطريرك المسكوني . كما أنه ليس لأحد ان ينكر الاعتقاد بأن العالم المسيحي كان عالماً واحداً ، وينبغي أن يبقى كذلك .

روما والقسطنطينية :

على أن البطريركيات الواقعة في الجنوب الشرقي (من أملاك الامبراطورية) فقدت جانباً كبيراً من سلطتها بعد الفتح العربي ، فظهرت القسطنطينية على أنها زعيمة الكنائس الشرقية . وعلى الرغم من ان مجادلات وخصومات كثيرة ، وقعت بين روما والقسطنطينية ، على أمور كنسية ، فانها لم تبلغ من الجدية والاستمرار ما اعتقده علماء المناظرة المتأخرون [1] . فلا زالت

---

(١) عن العلاقات بين روما والقسطنطينية ، انظر :
Every : The Byzantine Patriarchate.

وحدة العالم المسيحي امراً مسلماً به . غير أن نظام الكنيسة الرومانية اصابه تغيير شامل في القرن الحادي عشر . فما قام من اصلاحات ، اوحى بها الى حد كبير المؤثرات الديرية النابعة من كلوني ومن اللورين ، وشجعها اول الامر السلطات الزمنية التي سيطرت وقتذاك على روما . فاشتهر الامبراطور هنري الثالث بالنشاط الوافر ، وما وهبه لهذه الاصلاحات من القوة والانطلاق ، بلغ من القوة أن اصبح في وسع الكنيسة ، بعد وفاته أن تمضي مستقلة في تنميتها ، وبالتالي في مقاومة الحاكم العلماني . ومن ثنايا هذه الحركة ، ظهرت نظريات أصرت على ما لروما من سيادة روحية على العالم ، وسموها النهائي على الامراء العلمانيين . وأثار هؤلاء الامراء العلمانيون بدورهم مناقشات ومنازعات جديدة مع الشرق .

والمشكلة الاساسية انما تنحصر في اعادة اقرار دعوى روما في السيادة . غير أن المنازعات لم تلبث أن دارت على تفاصيل العقيدة والعرف . إذ أن البابوية ، في سبيل رغبتها في توحيد سلطتها ، حرصت على توحيد تقاليد الكنيسة . فلم تكن الاسباب السياسية الروحية وحدها هي التي حملت الكنيسة على أن تعمل على الغاء زواج رجال الدين النظاميين ، بل انها حاولت تنظيم الصلوات والطقوس . هذا الاصلاح يصح اجراؤه في الغرب ، غير أن تقاليد الكنائس الشرقية كانت بالغة الاختلاف . فالمعروف انه دخل في دائرة النفوذ الروماني ، كنائس يونانية ، مثلما قام في دائرة النفوذ اليوناني بالقسطنطينية ، كنائس لاتينية . على أن الحد الفاصل بين دائرتي النفوذ في جنوب ايطاليا كان موضع نقاش ونزاع . يضاف الى ذلك أن النفوذ الجرماني في روما ، أدى الى أن يدخل في العقيدة بروما عبارة « ومن الابن » Filioque عند الاشارة الى صدور الشبح المقدس . لم يشأ البابوات المصلحون أن يسلكوا ما انتهجه اسلافهم في اتخاذ صيغة للتوفيق بين هذه الأمور او في التغاضي عنها . فكان لا بد من وقوع مصادمات . فرسالة الايمان التي وجهها

الى زميله سرجيوس الرابع ، عند توليه كرسي البابوية ، تضمنت عبارة « ومن الابن » . غير أن سرجيوس الثاني ، بطريرك القسطنطينية ، بادر الى رفض تخليد اسم البابا في سجل الكنائس البطريركية بالقسطنطينية . ودل هذا عند البيزنطيين على أن البابا ، لا يعتبر صادقاً في امور العقيدة ، غير أن ذلك لا يضير ارثوذكسية كل الكنيسة الغربية . على أن الاهانة كانت فيما يبدو ، عند البابا وسائر كنائس الغرب التي درجت على اعتباره مصدر العقيدة السليمة ، باللغة الشمول ، بعيدة المدى . غير أن البطريرك ادرك أنــه يصح اعادة الاسم في السجلات مقابل مــا يبذل من عروض [1] .

ففي سنة ١٠٢٤ وصل الى البـــابا يوحنـا التاسع عشر اقتراح من القسطنطينية ، يشير الى أن مـا بين الكنيستين من نقط النزاع يصح حلهــا ، بأن يجري قبول صيغة ، ازداد التفنن في صوغ عباراتها ، وبمقتضاها تنال رومـا الصدارة على سائر الكراسي الرسولية ، على أن يكون للقسطنطينية مطلق الاستقلال من النـاحية العملية . إذ اعربت عن أنــه « بموافقة بابا روما ، يكون لكنيسة القسطنطينية من شمول الاختصاص والعالمية في دائرة نفوذها ما لكنيسة روما في العـــالم » . أظهر البابا يوحنا استعداده للموافقة على هــذه العبارة ، غير ان الرئيس الكلوني لدير القديس بنيجنوس في ديجون ، بادر بالكتابة الى البـــابا ،

---

(١) انظر :

Michel : Humbert und Kerularios vol. I. pp. 20 - 40.

من الثابت أن لفظة « ومن الابن » دخلت في مذهب روما عند تتويج هنري الثاني سنة ١٠١٤ . انظر :

Berno : *Libellus de Officio Missae* in M. P. L. vol. CXLII cols. 1061 - 1062 .

يذكّره في حزم ، بأن سلطة العقد والحل في السماء والأرض ، انما يختص بها مقر القديس بطرس وخلفاؤه وحدهم ، وحثّه على أن يظهر مزيداً من الحزم والقوة في ادارة الكنيسة العالمية . فكان لزاماً على بيزنطة أن تعلم أن البابوية المصلحة لن تتهاون في قبول هذا الاتفاق [1] .

الانشقاق بين الكنيستين سنة ١٠٥٤ :

وما حـدث في منتصف القرن الحادي عشر من غارات النرمان على جنوب ايطاليا ، جعل قيام تحالف سياسي بين البابا والامبراطور الشرقي (البيزنطي) امراً مرغوباً فيـه . غير أن البابوية بعد اصلاحها ، وطنت نفسها وقتذاك على ان تلتزم سياسة التقنين والتنظيم ، وأرادت ان تلغي ما ساد من التقاليد بالكنائس اليونانية بجنوب ايطاليا ، والتي انتقلت الى كثير من الكنائس الايطالية ، حتى بلغت ميلان شمالاً . وفي سنة ١٠٤٣ تولى بطريركية القسطنطينية ميخائيل كريولاريوس ، الذي اشتهر بالكبرياء والطموح ، وكان حريصاً ايضاً على تنظيم التقاليـد الكنسية ، في دائرة نفوذه . وجعـل هدفه الاصلي ان يتخذ أيسر الوسائل لابتلاع كنائس الاقاليم الارمنية ، التي جرى اضافتها حديثاً الى الامبراطورة البيزنطية ، والتي ساد بها استخدام تقاليد وعادات متباينة ، مثل استعمال الخبز غير المخمور . على ان سياسته تأثرت بهـا ايضاً الكنائس اللاتينية في ايطاليا البيزنطية ، وتلك التي قامت بالقسطنطينية لصالح التجار والحجاج وعساكر

---

(١) انظر :
Radulph Glaber , in Bouquet , R. H. F. vol X pp. 44 - 45 .
لم يرد في المصادر اليونانية اشارة الى هذه المفارضات ، غير أنه ليس ثمة ما يدعو الى الارتياب في حدوثها .

حرس الورنك . فلما رفضت الكنائس اللاتينية الامتثال ، امر البطريرك باغلاقها ، واخذ مجلس البطريرك يصدر قرارات ببطلان تقاليد اللاتين وعاداتهم .

على ان البطريرك كريولاريوس لم يكن فيا يبدو شديد الاهتمام بالمشكلة الدينية ، اذ أبدى الاستعداد لأن يعيد اسم البابا الى الدبتيخن (السجل الكنسي) ، مقابل قيام روما باجراء مماثل . ونشب النزاع على التقاليد الكنسية ، ولذا أثار هذا النزاع مشكلة حدود الولاية الكنسية في ايطاليا ، وازدادت هذه المشكلة حدة بغزو النرمان ، الذين يعتبرون موالين للكنيسة اللاتينية . وتولى المفاوضات ، حاكم ايطاليا البيزنطية ، وهو ارجيروس اللومباردي ، ومن الرعايا البيزنطيين الذين يسيرون وفقاً للشعائر اللاتينية . وجعل الامبراطور البيزنطي كل الثقة فيه ، غير أنه كان لا بد للبطريرك كريولاريوس أن يرتاب فيه ، وتهيأت الأحوال والظروف لصالحه . ذلك أن النرمان أسروا سنة ١٠٥٣ ، البابا ليو التاسع ، قبل أن يجري تعيين المندوبين البابويين الذين تقرر إنفاذهم من روما الى القسطنطينية . فلما وصل الى القسطنطينية في يناير سنة ١٠٥٤ ، المندوبون البابويون برئاسة الكاردينال همبرت اسقف سيلفا كانديد Humbert of Silva Candide ، تلقاهم الامبراطور باستقبال حافل ، غير أن البطريرك كريولاريوس تساءل ، ما اذا كان البابا هو الذي عينهم ، وما اذا كان البابا ، وهو في أسره ، يستطيع أن ينفذ ما يبذلونه من وعود . على أنه حدث في ابريل سنة ١٠٥٤ أن مات البابا ليو فجأة ، قبل ان تقطع المناقشات شوطاً كبيراً ، ففقد مندوبو البابا كل ما حازوا من تأييد رسمي ، ولم يتم انتخاب البابا الجديد إلا بعد مضي سنة ، ولم يعلم احد ماذا تكون سياسته ، ولم يقبل كريولاريوس أن يمضي في المفاوضات . وعلى الرغم من رغبة الامبراطور في الوصول الى اتفاق ، فقد اشتدت ثائرة المندوبين (البابويين) ، فارتحلوا آخر الامر غاضبين ، بعد أن تركوا على مذبح كنيسة القديسة صوفيه ، قراراً يقضي بقطع

البطريرك ومستشاريه من الكنيسة ، غير أنهم أقروا فيه صراحة ارثوذكسية الكنيسة البيزنطية . وللرد على هـذا القرار ، عقد البطريرك مجمعاً ، أنكر فيه القرار على أنه من صنع ثلاثـة اشخاص غير مسئولين ، ونعى اضافة عبارة « ومن الابن » الى العقيدة الدينية ، وأنكر ايضاً اضطهاد رجـــال الدين المتزوجين ، غير أن هذا المجمع لم يشر صراحة الى كنيسة روما في مجموعها باعتبارها هيئة ، ولا الى التقاليد التي هي موضع الجدل والنقاش . والواقع أنـــه لم يحدث مطلقاً من تغيير في الموقف سوى ما تولّد من شدة الكراهية .

لم تشترك كنيستا الاسكندرية وبيت المقدس في هذه المشكلة . اعتقد بطرس الثالث ، بطريرك أنطاكية ، أن كريولاريوس ، اتخذ موقف التشدد الذي لا مبرر له . واستمرت كنيسته على ادراج اسم البابا في سجلاتها ، ولم يجد البطريرك من الدواعي ما يمنعه من المضي في ذلــك . ولعله خشي أن كريولاريوس الذي يرتاب في نواياه ، دبر خططاً لتدمير استقلال كنيسة انطاكية . والراجح أنـه كان يعطف على سياسة الامبراطور البيزنطي . يضاف الى ذلــك أنه لا يؤيد تقنين الشعائر والتقاليد ، اذ ان ابروشيته تضم كنائس يجري بها استخدام الشعائر السريانية ، كما أن كثيراً من هذه الكنائس يقع في خارج الحدود السياسية للامبراطورية البيزنطية ، فليس في وسعه أن يفرض عليها طقوساً واحدة ، حتى اذا أراد ذلك . فالتزم بأن يكون بعيداً عن النزاع (١) .

---

(١) عن الشقاق الديني انظر :

Michel : op. cit. passim I. pp 43 - 65.
Jugie : Le Schisme Byzantin pp. 187 ff.
Leib : Rome, Kiev et Byzance pp. 27 ff-
Every : op. cit. pp. 153 - 172. (p. 188).

واستخلص Jugie رغبة البطريرك في إعادة اسم البابا الى السجل ، من خطاب البابا ليو التاسع =

جريجور السابع وخطته للحرب الصليبية :

لم تتحسن العلاقات إلا قليلاً في السنوات العشر التالية ، إذ جرى عزل كربولاريوس سنة ١٠٥٩ ، وتلى ذلك اعادة فتح الكنائس اللاتينية في القسطنطينية ، أما في جنوب ايطاليا ، فان ازدياد نجاح النرمان ، الذين يُعتبَرون منذ سنة ١٠٥٩ حلفاء اوفياء للبابوية ، جعل ضغط بيزنطة لفرض دعاويها لا اهمية له من الناحية العملية . يضاف الى ذلك ، أنه كان لزاماً على بيزنطة ان تواجه ما حدث من فقد سيطرتها على جمهور المصلين المسيحيين . وفي سنة ١٠٧٣ ، قرر الامبراطور ميخائيل السابع أنه لا بد من الوصول الى عقد اتفاق ودي مع روما ، فان ما حدث سنة ١٠٧١ من استيلاء النرمان على باري ، جعله يتوجس منهم المضي في اعتداء آخر ، يصح أن يدرأه نفوذ البابا . وأخذ التركمان في الاغارة على آسيا الصغرى . واشتدت حاجة الامبراطور ميخائيل الى الجند . فاذا توافر الود والاخلاص عند البابوية ، تيسر تجنيد العساكر من الغرب . وفي سنة ١٠٧٣ تم انتخاب الكاردينال هيلدبراند ، المعروف بصلابته ، ليكون بابا ، فاتخذ اسم جريجوري السابع . ولاقتناع البابا جريجوري ، بما للمقر المقدس من سيادة وسيطرة ، امتنع عن أن يبعث من مقره كتاباً لأية بطريركية في الشرق . غير أن الامبراطور ميخائيل رأى أنه من الخير المبادرة الى إظهار المحبة والود . فأرسل الى البابا الجديد ، كتاباً يهنئه فيه بانتخابه ، وألمع الى الرغبة في ازدياد الصلة بينهما . فابتهج البابا بذلك ، وأرسل من

= الى البطريرك كربولاريوس (انظر M. P. L. vol. CXLIII cols 773 - 774.) ، ومن خطاب كربولاريوس الى بطرس بطريرك انطاكية الوارد في . M. P. G. vol. CXX, col 784
على ان ما كان عند بطرس من باعث ، ينبغي ان يبقى موضع الظن والتخمين . غير ان اتجاهه يتضح من مراسلاته مع كربولاريوس . انظر الرسائل المتبادلة بينهما والواردة في :
M. P. G. vol. CXX, cols 756 - 820.

قبله ، بطريرك البندقية ، دومنيكوس ، مندوباً عنـه الى القسطنطينية ، لينهي الى الامبراطور ، بما يجري من الامور [١] .

واقتنع جريجوري بأن ميخائيل صادق فيما عرضه ، بعـد أن انهى اليـه دومنيكوس بأحوال القسطنطينية . ووقف جريجوري ايضاً على الوضع في آسيا الصغرى ، لما له من بالغ الاهمية في حركة الحجاج . لم تكن فلسطين وقتذاك مغلقة في وجه الحجاج ، غير أن الرحلة اليها عبر آسيا الصغرى ، لم تلبث أن اضحت مستحيلة ، إذا لم يجر منع الغارات التركمانية . أعد جريجوري سياسة جديدة ، في ضوء مـا تراءى له من فكرة سياسية بارعة تكاد تكون خيالية . فالحرب المقدسة التي احرزت نجاحـاً كبيراً عند اندلاعها في اسبانيا ، لا بد من امتدادها الى آسيا الصغرى . والمعروف أن اصدقاءه في بيزنطة في اشد الحاجة الى مساعدة حربيـة . فيبعث اليهم جيشاً من الفرسان المسيحيين ، يخضعون لأوامر الكنيسة ، وفي هذه الحالة يتولى البابا بنفسه قيادتهم ، نظراً لأن ثمة من المشاكل الكنسية التي تتطلب منـه الحل . فتقوم عساكره بطرد المسلمين من آسيا الصغرى ، ثم يعقد بعدئذ مجمعـاً بالقسطنطينية ، حيث يحسم مسيحيو الشرق ، في ذلة ومسكنة ، ما كان بينهم من منازعات ويعترفون بسيادة روما [٢] .

---

(١) وردت رسائل جريجوري في :
Registra I, 46,49, II. 37. vol. I. pp. 70, 75, 173.
اما زيارة دومنيكوس فورد خبرها في :
Ibid I, 18. pp. 31 - 32.
والراجح ان البابا جريجوري لم يرسل ، عند توليه البابوية ، رسالة الى بطريركيات الشرق .
انظر : Dvornik : The Photian Schism, pp. 327 - 328.
(٢) Jaffé , Monumenta Gregoriana 1, 46, 49, II, 3, 137.
Bibliotheca Rerum Germanicorum vol. II. pp. 64 - 65, 69 - 70, 111-112, 150 - 151.

على أننا لا نعلم ما اذا كان الامبراطور ميخائيل أدرك نية البـابا ، وما اذا كان قد قبلها ورحب بها ، إذ أن جريجوري لم يستطع مطلقاً أن ينفذ خطته . فما اشتهرت به سياسته من الصلابة والشدة ، أدت الى أن يقع دائمـاً في مشاكل مع الغرب . فكان لزاماً عليه أن يتخلى عن اطماعه في الشرق ، غير أنه لم ينساها مطلقاً ، ولم يفتر اهتمامه بالشرق .

وفي سنة ١٠٧٨ جرى خلع الامبراطور ميخائيل السابع من العرش . ولما سمع البابا جريجوري بهذا النبأ ، بادر بقطع المغتصب نقفور بوتنياتس من الكنيسة . وبعـد فترة قصيرة ، ظهر بايطاليا مغامر اعلن أنـه الامبراطور المخلوع . وظل النرمان فترة من الزمن يؤمنون به ، ووهبه البابا جريجوري التأييد . ولما حل الكسيوس كومنين سنة ١٠٨١ ، مكان نقفور في عرش الامبراطورية ، امتد قرار الحرمان الى الامبراطور الجديد . وفي يونيه ١٠٨١ كتب الكسيوس رسالة الى البابا يلتمس فيها استرداد ثقة البابا فيه ، ويطلب منه المساعدة في وقف اعتداء روبرت جويسكارد ، غير أنه لم يجد عنده الاستجابة . على أن الامبراطور (البيزنطي) لقي في هنري الرابع ملك المانيا حليفاً اكثر استجابة وميلاً للقبول . وفي نفس الوقت اغلق الكنائس اللاتينية بالقسطنطينية ، وبات واضحاً عند البيزنطيين أن البابا تحالف مع النرمان المعروفين بالخيانة والذين لا ايمان لهم . وأخذ كل منهما يروي للآخر القصص الخيـالية عن كبريائه وتجرده من الاحسان ، فلما مات جريجوري ، وقد وقع في شرك الكوارث ، الذي نصبته له سياسته ، تلقوا أنباء ذلك على أنه من أعلى عليين [١] .

---

(١) Anna Comnena : Alexiad III. X. 1 - 8 , vol . I pp. 132 - 136.
Malaterra : Historia Sicula in M. P. L. vol. CXLIX col. 1192.
Anna Comnena : op. cit. I. XIII 1 - 10, vol. I. pp. 47 - 51.
(ورد فيه شرح الشجار بين جريجوري السابع وهنري الرابع) ..

ارتقاء اربان الثاني الكرسي الرسولي :

على أن العلاقات بين العالم المسيحي في الشرق والغرب ، لم تبلغ من البرود مثلما بلغته سنة ١٠٨٧ ، أي السنة التي مات فيها جريجوري السابع . فالامبراطور الشرقي (البيزنطي) ، قطعه من الكنيسة البابا ، الذي اخذ صراحة يشجع المغامرين الغلاظ القساة (النرمنديين) ، على أن يهاجموا اخوانهم المسيحيين ، على حين ان العدو الاساسي للبابا ، وهو ملك المانيا ، كان يتلقى علناً المساعدات من البيزنطيين . فاشتدت حدة المرارة والكراهية بين الجانبين . غير أنه لم يحدث حتى وقتذاك انشقاق فعلي . فلا زالت البراعة السياسية تعمل على المحافظة على وحدة العالم المسيحي . وصادف الشرق في الامبراطور الكسيوس ، سياسياً توافرت فيه المرونة والحكمة ، وأخذ يظهر وقتذاك في الغرب سياسي آخر من هذا الطراز .

ففي حوالي سنة ١٠٤٢ ولد في شاتيون سيرمارن Chatillon - sur - Marne اودو دي لاجيري Odo de Lagery ، الذي ينتمي الى أسرة نبيلة . وتلقى (اودو) تعليمه في المدرسة الكاتدرائية في ريمس ، التي تولى نظارتها سانت برونو Saint Bruno ، الذي صار فيا بعد مؤسساً لطائفة الكارثوسيين . اقام اودو في ريمس حتى صار قساً ، ثم رئيداً لشمامسة الكاتدرائية ، غير انه لم يقنع بذلك . اذ قرر فجأة ان يلجأ الى دير كلوني . وفي سنة ١٠٧٠ ، اعترف بكفايته ، هيو ، رئيس الدير . ثم تقرر نقله الى روما ، بعد أن امضى مدة وجيزة في وظيفة مقدم بالدير . ولم يلبث اودو ان ترك بروما اثراً واضحاً ، فعينه البابا جريجوري السابع ، كاردينالاً وأسقفاً في اوستيا . ثم كان مندوباً للبابا ، بين سنتي ١٠٨٢ ، ١٠٨٥ في فرنسا والمانيا ، ولما عاد ، بقي ملازماً لجريجوري في السنوات التسعة الاخيرة من بابويته . ولما مات جريجوري في منفاه ، وتولى كرسي البابوية بروما ، جيبرت المغتصب ، اختار الكرادلة الأوفياء ليحل مكانه ، رئيس

دير مونتي كاسينو ، المعروف بضعفه وتردده ، فاتخذ اسم فيكتور الثالث . غير أن كاردينال اوستيا لم يقر الانتخاب ، وأعلن ذلـك صراحة . ولم يحمل فيكتور له ضغينة ، بل إنه اوصى الكرادلة ، وهو على فراش الموت في سبتمبر سنة ١٠٨٧ بأن يختاروه خليفة له . والمعروف ان جريجوري أراد ايضاً ان يليه اودو على كرمي البابوية ، غير انـه لم يجتمع مجلس الكرادلة في تيرّاشينا Terracina ، إلا في مارس سنة ١٠٨٨ ، فاختاروه بابا لهم باسم ايربان الثاني[١] .

كان ايربان خير من يلاغـه عمله . كان رجلاً جذاباً ، طويل القامة ، طلق المحيا ، تزين وجهه لحية جميلة ، شديد الدماثة في خلقه وطباعه ، قوي الحجة والاقناع . فاذا افتقر الى ما اشتهر بـــه جريجوري السابع من الحماس ووحـــدة القصد ، فانه فاقه في اتساع الافق والمهارة في معالجـة الناس . لم يشتهر بما اتصف به جريجوري من الكبرياء والعناد ، غير أنه لم يكن ضعيفاً . عانى الحبس والسجن في المانيـا على يد هنري الرابع بسبب اخلاصه للبابا ومعتقداته . وعلى الرغم من انه كان بوسعه ان يكون متجهماً شديد القسوة ، فانـه آثر ان يكون لطيفاً ، وأن يتحاشى من الجدل ما يثير المرارة والنضال .

ولى إربنا شاقا ، فلا يطمئن إلا في المقام بالأراضي النرمندية . غير ان النرمان كانوا يعتبرون حلفاء أنانيين ، لا يصح الثقة بهم والركون اليهم . كانت روما في حوزة البابا المغتصب ، جيبرت . وفي وسع ايربان ان يتوغل حتى ضواحي روما ، على انه لا يتجاوز ذلك ، إلا باراقة الدماء ، ولم يرض بأن يثير ذلـك ولقي ايربان التأييد في أقصى الشمال ، من

---

(١) عن حياة ايربان المبكرة انظر : Leib : op. cit. pp. 1 - 4.
Gay : Les Papes du XI^e siècle pp. 356 - 358.

ماتيلدا صاحبة تسكانيا ، في املاكهـا الشاسعة . وفي سنة ١٠٩٩ ، توطد مركزها ، بزواجها الساخر ، من امير الماني ، هو ولف دوق بافاريا ، وهو صبي لم يبلغ نصف عمرهـا . غير ان عساكرها تعرضت في سنة ١٠٩١ للهزيمة ، على يـد هنري الرابع ملك ألمانيا ، في معركة تريزونتاي . كان هنري في ذروة سلطانه ومجده . توجـه البابا المغتصب في سنة ١٠٨٤ ، فأضحى سيد ألمانيا ، وأحرز النصر في شمال ايطاليا . غير ان اربان لم يبلغ مركزه من الاستقرار ، ما يجعله يفرض السلطة في جهات بعيدة .

على ان اربان دأب على العمل دون انقطاع ، واتبع في ذلك الكياسة ، حتى اذا حلت سنة ١٠٩٣ ، تغير كل شيء . وبفضل ما أنفقه من مال ، ودون ان يلجأ الى استخدام السلاح ، استطاع اربان ان يمضي برومـا عيد الميلاد من تلك السنة . وفي الخريف التالي ، استقر في اللاتران . وأضعف مركز الامبراطور هنري ، ما حدث من تمرد ابنه كنراد ، الذي شجعه اربان في سخطه . ولما اشتهر به اربان من المواهب في الادارة والتنظيم ، نجح في ان يخضع لسيادته واشرافه ، كل النظام الكنسي في فرنسا ، موطنه الأصلي . أما في اسبانيا فكان لنفوذه السيادة العليا . وأخذت البلاد النائية في اوربا تعترف رويداً رويداً بسلطته الروحية ؛ امتنع اربان عن الاصرار على ما التمسه جريجوري السابع من الدعاوي من اجل السيادة السياسية . وأظهر مع الأمراء العلمانيين في كل مكان ، من الصبر والتحمل ما تجاوز كل الحدود . وفي سنة ١٠٩٥ اضحى اربان الثاني السيد الروحي للعـالم المسيحي في الغرب[1] .

---

(١) انظر : Gay : op. cit . pp. 358 - 365 .

ثيوفلاكت رئيس أساقفة بلغاريا :

وفي تلك الأثناء وجه (اربان) اهتمامه الى العالم المسيحي في الشرق . ذلك أنه لما مات روبرت جويسكار ، صار اخوه روجر امير صقلية ، أقوى النرمان سلطة ونفوذاً . لم يجنح روجر الى ان ينزل الأذى ببيزنطة . وشرع اربان بما انطوى عليه من نية سليمة ، في اجراء مفاوضات مع البلاط البيزنطي . وفي مجمع ملفي ، الذي انعقد في سبتمبر سنة ١٠٨٩ ، وبحضور ممثلي الامبراطور البيزنطي ، أعلن اربان رفع قرار الحرمان الذي صدر ضد الكسيوس . وردّ الكسيوس على هذه اللفتة ، بأن عقد في نفس الشهر مجمعاً بالقسطنطينية ، حيث تبين ان اسم البابا لم يجر حذفه من السجل الكنسي (الدبتيخن) بمقتضى قرار كنسي ، بل حدث ذلك نتيجة الاهمال ، فتقرر ضرورة اعادة قيد الاسم ، عند ورود كتاب من البابا . قرر المجمع أنه لم يكن ثمة ما يدعو الى التنازع بين الكنيستين ، وأوصى بضرورة استشارة بطريرك الاسكندرية ، وبطريرك بيت المقدس . وشهد هذا المجمع بطريرك انطاكية . وكتب نقولا الثالث بطريرك القسطنطينية الى اربان ، يطلب ان يبعث اليه في خلال ثماني عشر شهراً ، كتاباً ، بشأن اعادة اسمه الى السجل ، وأكد له ان الكنائس اللاتينية بالقسطنطينية لها مطلق الحرية في ان تسير وفقاً لتقاليدها وطقوسها . لم ترد أية إشارة الى قرار ديني . على ان ذلك لم يكن مقبولاً عند مبعوثي الامبراطور في ايطاليا ، وهما باسيل مطران تراني Trani ، وورومانوس رئيس اساقفة روسانو ، وهما من رجال الدين اليونانيين ، وقد ارتاعا لما حدث من امتداد سلطة البابا الى إقليمها ، وصدمهما ما زعمه البابا ، استناداً الى بعض المبررات التاريخية ، من أن أبروشيته ينبغي ان تضم فعلاً سالونيك . وكانا يأملان في أن يساند الكسيوس ، البابا المغتصب . غير ان الكسيوس كان قد قرر أيهما اصلح للبابوية ، وكان له من إدراك الواقع ما يكفي للتسليم بضياع ايطاليا من بيزنطة . أما جيبرت ، البابا المغتصب ، فلم يلبث

أن اساء الى اصدقائه اليونانيين ، بأن عقد في روما مجمعاً ، أنكر فيه زواج القسس[1] .

الواقع أن اربان لم يرسل كتاباً لإعادة تسجيل اسمه ، والراجح أنه لم يشأ أن يثير نزاعاً دينياً ، كما أن اسمه لم يجر اثباته في السجل ، غير أنه تقرر اعادة العلاقات الودية . ففي سنة ١٠٩٠ قامت سفارة من قبل الكسيوس ، بزيارة البابا اربان ، وقد حملت رسالة تنطوي على الصداقة الودية . وكتب تيوفيلاكت رئيس اساقفة بلغاريا ، رسالة تشرح وجهة نظر بيزنطة ، وتوسل فيها الى قرائه ألا يبالغوا في أهمية الشعائر الموحدة . اعلن اسفه لما حدث من اضافة عبارة « ومن الابن » الى العقيدة الدينية ، غير أنه شرح بأن ما تفتقر اليه اللغة اللاتينية من مصطلحات لاهوتية ، هو الذي ادى الى سوء الفهم . لم يكترث بما زعمه البابا لنفسه من السيطرة على الكنائس الشرقية[2] . والواقع أنه لم يكن ثمة ما يدعو مطلقاً لوقوع انشقاق .

على أن فريقاً آخر من علماء الدين في الشرق ، ظلوا يتناقشون فيما بين التقاليد من اختلافات ، غير أن مناقشاتهم اتسمت لهجتها بالاعتدال ،

---

(١) انظر :

Holtzmann : Unionverhandlungen Zwichen Kaiser Alexis I und Papst UrbanII im Jahr 1089, in Byzantinische Zeitschrift vol . XXVIII pp. 60 - 67 .

ويتبين من محاضر المجمع أنه لا بد أن البطريرك سرجيوس الثاني،تصرف من تلقاء نفسه دون أن يرفع الامر الى المجمع الذي عقده جيبرت ، انظر : .

Jaffé : Loewenfeld , Regesta vol I . p. 652 .

(٢) عن تقرير سفارة الكسيوس الى البابا اربان ، انظر :

Holtzmann : op. cit pp. 64 - 67 .

وردت رسالة تيوفيلاكت في : M. P. G. vol . CXXVI cols , 222 - 250 .

ومن هؤلاء العلماء سمعان الثاني [1] بطريرك بيت المقدس ، الذي أنكر ما لجأ اليه اللاتين من استخدام الخبز غير المخمور في القداس ، غير أن عباراته لم تكن حادة او عنيفة .

مجمع بياكنزا :

وفي اوائل سنة ١٠٩٥ ، توجه اربان الثاني من روما نحو الشمال ، ودعا ممثلي كل الكنيسة الغربية للاجتماع به في اول مجمع كبير لبابويته ، سوف ينعقد في مارس سنة ١٠٩٥ في بياكنزا . وفي هذا المجمع اصدر رجال الدين المجتمعون قرارات ببطلان السمعانية وزواج القسس ، وانكار وقوع الشقاق في داخل الكنيسة . وفي هـــذا المجمع ايضاً ، دارت مناقشة حول ما ارتكبه فيليب ملك فرنسا من جريمة الزنا ، غير أنه تقرر ألا يتخذ اجراء إلا بعـــد أن يزور اربان فرنسا . وقدم مبعوثون من قبل كنراد ابن الامبراطور هنري ، ليدبروا أمر اجتماع كنراد بالبابـــا اربان في كريمونا . وقدمت ايضاً زوجة هنري ، الامبراطورة براكسيدس Paraxedis الروسية ، التي تنتمي الى البيت السكنديناوي الذي يحكم في كييف ، كيما تخطر البابا بما تتعرض له من الاهانات من قبل زوجها . ويعتبر المجمع المحكمة العليا للعالم المسيحي في الغرب ، ويرأسه البابـــا باعتباره محكماً .

---

(١) وردت رسالة سمعان في :
Leib : Deux Inedits Byzantins sur les Azymites pp. 85 - 167 .
ارتاب Leib في مؤلف سمعان ، نظراً لأن الرسالة إنما هي رد على رسالة كتبها Bruno of Segni حوالي سنة ١١٠٨ ، وأشار Michel, Amalfi und Jerusalem in Griechischen Kirchenstreit ، الى أن الرسالة ليست إلا رداً على ما كتبه Laycus ، فانتحل برونو هذه الكتابة .

ومن الزائرين الذين شهدوا المجمع ، رسل مـــن قِبل الامبراطور الكسيوس . إذ أن حروبه مع الترك جرت على ما يحب ويهوى ، نظراً لأن قوة السلاجقة اخذت فعلاً في التداعي . فلا يحتاج تحطيمها النهـائي ، سوى بضع حملات ، يجري توجيهها في الوقت المناسب . غير أن امبراطوريته لا زالت تفتقر الى الجند المدربين . فبلاد الاناضول المعروفة بأنهـا مصدر لتقديم العساكر ، ساد بها الاضطراب ، وأصابتهـا الفوضى والخلل ، فضلاً عن أن جانباً كبيراً منها فقدته الدولة البيزنطية . واعتمد الكسيوس الى حـــد كبير على الجند المأجورة من الاجانب ، وعلى كتائب مؤلفة من البجناك ومن قبائل اخرى من الاستبس ، اتخذها اساساً حرساً لحمـاية الحدود ، وحرساً عسكرياً ؛ واستند ايضاً الى حرس الورنك الذي زخر بكثير من الانجليز السكسون المطرودين من انجلترا النرمنـــدية ، والى جماعات من المغامرين القـادمين من الغرب ، الذين دخلوا في خدمـة الجيش بصفة مؤقتـة . ومن أشهر هؤلاء المغامرين ، روبرت الاول امير الفلاندر ، الذي حـــارب من اجل الكسيوس سنة ١٠٩٥ . على أن الكسيوس لم يستكمل كل حاجاتــه ، على الرغم من أن في استطاعته اتخاذ عساكر من الوطنيين. فلا بد له من حراسة حد الدانوب الطويل الامتداد، من هجمات المتبربرين من جهة الشمال . ولم ينزع للهدوء والسكينة الصربيون على الطرف الشمالي الغربي ، ولم يخلد رعاياه من البلغار للهدوء زمنـــاً طويلاً ، يضاف الى ذلك مـــا يتهدد الامبراطور الكسيوس من خطر اعتداء النرمان من جهة ايطاليا . وما تبقى له من الموارد ، استخدمه في الدفاع عن حدود آسيا الصغرى ، التي لم تتعين ، وعن معاقلها ، والمحافظة على الامن والمواصلات . أما السياسة التي اتخذها نحو البابوية ، فيصح أن تثمر لو استطاع البابا بنفوذه ، أن يجلب له العساكر والجند . اظهر البابا اربان روح العطف ، إذ أن جانباً من برنامج البابا ، يتمثل في أنـــه يحض فرسان الغرب المتنافسين على أن يقاتلوا في جهات نائيـــة ، ومن

اجل مسألة بالغــة القداسة ، فتقرر دعوة الرسل البيزنطيين للتحدث الى الحاضرين .

لم نقف على شيء من احاديثهم ، غير انهم في سبيل اقناع الحاضرين بأنه لجدير بهم أن يعملوا في خدمة الامبراطور ، اشاروا بصفة خاصة ، الى المتاعب التي لا بد أن يتعرض لها المسيحيون في الشرق ، ما لم يتم طرد المسلمين . فإذا شجعت الكنيسة على التطوع للخدمة العسكرية ، فان الاغراء ببذل المرتب السخي ، ليس كافياً . على أن الاستجابة لتـأدية الواجب الديني ، اثارت جدلاً عنيفاً . لم يكن الوقت ملائمــاً للإشادة بأعمال بيزنطة ونواياها . بل ينبغي أن يعود الاساقفة الى ديارهم ، وقـد اعتقدوا أن سلامـة المسيحية لا زالت معرضة للخطر ، وأنهم حريصون على أن يبعثوا من رعاياهم الى الشرق عساكر للقتال مع الجيش المسيحي .

تأثر الأساقفة والبابا ، بما اشار به ممثلو الامبراطور ، وفي اثنــاء رحيله الى كريمونا ، لاستقبال كنراد ليتلقى منــه يمين التبعية ، وأثناء اجتيازه ممرات الألب الى فرنسا ، اخذ اربان يقدح زناد فكره ، لتدبير خطة اكثر شمولاً وأعظم مجــداً ، وتتمثل فيما هو معروف بالحرب المقدسة (١) .

(١) انظر : Bernold of Constace ad ann . 1095 . p. 161 .
Hefel - Leclerq : Histoire des Conciles . vol V. pt . I pp. 394 - 395.
Munro : American Historcal Review vol . XXVII . pp. 731 - 733 .

الفصل الثالث

الدعوة الى الحرب الصليبية

قدم البـــابا اربان الثاني الى فرنسا في اواخر صيف سنة ١٠٩٥ . فكان في فالنس في ٥ اغسطس ، وبلغ لي بويه Le Puy في ١١ اغسطس . ومن لي بويه بعث برسائل الى اساقفة فرنسا والبلاد المجاورة ، يطلب اليهم الاجتماع به في كليرمونت في نوفمبر . وفي تلك الاثناء توجه نحو الجنوب ، ليمضي شهر سبتمبر في افينيون وسانت جيل في بروفانس . وفي اوائل اكتوبر ، جــاء الى ليون ، ومنها توجه الى برجنديا . وفي ٢٥ اكتوبر ، دشن اربان في كلوني المذبح الذي شرع رئيس دير كلوني في عمارتـــه بالباسيليقا الكبيرة . ثم سارمن كلوني الى سوفيني Souvigny بالقرب من مولان ، ليؤدي من الاحترام والتبجيل ما يليق بمشهد اقدس رئيس لدير كلوني ، وهو القديس مايولس Maiolus . واجتمع به في هـــذا الموضع اسقف كليرمونت ، كما يصحبه الى مقر اسقفيته ، استعداداً للمجمع [1] .

---

(١) Gay : op . cit pp . 369 - 372 .
Chalandon Histoire de la Première Croiade pp . 19 - 22 .

على أن اربان عكف اثناء سفره على معالجة امور كنيسة فرنسا ، فأجرى ما يلزم من التنظيم والاصلاح ، ووجه المديح والنقد والتقريع ، كلما اقتضت الاحوال ذلك . وهذه الاسفار مكنته ايضاً من المضي في مشروعه ، غير أننا لا نعلم ما اذا كان اربان قد التقى اثناء رحيله بالجنوب ، بريموند سان جيل ، كونت طولوز ، وماركيز بروفانس ، الذي اشتهر وقتذاك بقيادته للحروب المقدسة في اسبانيا ، على أنه كان على اتصال به ، ولا بد أنه وقف على تجاربه . وفي كلوني تحدث (اربان) الى اناس اهتموا بمسير الحجاج ، الى كومبوستيلا وبيت المقدس ، ووقف منهم على ما تعرض له من المتاعب وقتذاك الحجاج الذين يقصدون فلسطين ، وعلى ما اصاب سلطة الترك بها من وهن وتفكك . ولم يعلم فحسب أن مسالك آسيا الصغرى موصدة امام الحجاج ، بل ان الارض المقدسة ذاتها كانت ايضاً مغلقة في وجوههم .

مجمع كليرمونت :

انعقد مجمع كليرمونت في الفترة الواقعة بين ١٨ نوفمبر ، الى ٢٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥ ، وشهده نحو ثلثمائة من رجال الدين ، الذين تشعبت اعمالهم . ومن الاجراءات العامة أن ما صدر من قرارات ضد التقليد العلماني ، والسمعانية ، وزواج القسس ، جرى ترديدها وتكرارها ، ولقيت هدنة الله التأييد . أما الاجراءات الخاصة ، فانها تضمنت قراراً بقطع فيليب ملك فرنسا من الكنيسة ، لما اتهم به من الزنا ، وتقرر ايضاً حرمان اسقف كومبراي لما عرف به من السمعانية ، واستقرت صدارة كنيسة ليون ، على كنيستي سنس Sens وريمس . غير أن البابا اراد أن يستخدم هذه الفرصة لما هو ابعد وأهم من ذلك من الأغراض . إذ شاع أنه سوف يعقد جلسة علنية في يوم الثلاثاء ٢٧ نوفمبر ليلقي بإعلان هام ، على أن جموع القسس والعلمانيين ، التي احتشدت ، بلغت من الضخامة ان الكاتدرائية التي

انعقد بها المجمع لم تتسع لهم . فتقرر إقامة الكرسي البـابوي على منصة مرتفعة تطل على الفضاء ، خارج الباب الشرقي للمدينة . فلمـا اكتمل اجتماع الجماهير ، نهض اربان ليخاطبهم .

أورد اربعة مؤرخين معاصرين خطاب اربان ، وزعم احدهم وهو روبرت الراهب بأنه شهد الاجتماع . وكتب بودري دول Baudri of Dol وفولشر شارتر ، باعتبارهما حاضرين . أمـا المؤرخ الرابع ، وهو جيبرت نوجنت ، فالراجح أنه حصل على الخطاب من مصدر ثانوي . على أنه ما من احد منهم يزعم أنه اورد الرواية اللفظية الدقيقة . وكل منهم إنمـا ألـّف تاريخه بعد مضي بضع سنوات ، وصاغ روايته في ضوء الأحداث التالية . على أننا نعلم على وجه التقريب ما قاله اربان فعلاً . اذ استهل خطابه فيما يبدو ، بإخطار سامعيه بضرورة بـذل المساعدة لإخوانهم في الشرق . فالعالم المسيحي في الشرق التمس منه المساعدة ، لأن الترك مضوا في زحفهم في جوف البلاد المسيحية ، وأخـذوا يسيئون معاملة السكان ، ويدمرون مشاهدهم وأضرحتهم . غير أنه لم يتحدث فحسب عن رومانيا (أي بيزنطة) . بل أكد ما لبيت المقدس من قداسة خاصة ، ووصف ما يعانيه الحجاج أثناء سفرهم من العذاب والمتاعب . وبعد أن وصف الصورة القاتمة ، وجـّه نداءه الشهير فلينطلق المسيحيون بالغرب لنجـدة الشرق . ينبغي أن يسير الأغنياء والفقراء سواء ، ينبغي ان يكفوا عن قتل احدهم الآخر ، وأن يباشروا عوضاً عن ذلك القتال الحق ، فيؤدون ما أمر الله به أن يعمل ، وسوف يكون مرشداً وهادياً لهم ، ومن يلق مصرعه في المعركة ، تحلـّل من ذنوبه ، وغفر الله أخطاءه . فالحياة هنا أضحت تعسة ، كثيرة الشرور ، بعد أن اضنى الناس انفسهم في تدمير اجسادهم وأرواحهم . استبد بهم هنا الفقر والبؤس ، وسوف ينعمون هناك بالسعادة والرخـاء ،

ويكونون اصدقاء اوفياء لله ، فلا ينبغي التمهل والإرجاء . فليستعدوا للمسير عند حلول الصيف ، وليكن الله هاديهم [١] .

تحدث اربان في حماس ، وبكل ما اتصف به الخطيب الشهير من براعة . وكانت الاستجابة سريعة وقوية . اذ تخلل الخطاب هتافات الحاضرين « هكذا أراد الله » Deus le Volt . ولم يكد البابا ينتهي من خطابه ، حتى نهض من مجلسه ، اسقف لى بويه Le Puy ، فركع أمام عرش البابا ، والتمس منه الإذن بأن يلحق بالحملة المقدسة ، وتزاحم مئات من الحاضرين لينتهجوا مثاله . ثم ركع الكاردينال جريجوري على ركبتيه وأخذ يتلو بصوت جهوري قداس « الاعتراف » « Confiteor » فيردده وراءه جموع الحاضرين . فلما انتهت الصلاة ، نهض اربان مرة اخرى ، وتلا التحلل ، وأمر سامعيه بالانصراف الى بلادهم [٢] .

---

(١) أورد خطاب اربان خمسة مؤرخين :

Fulcher of Chartres 1 . III . pp. 130 - 138 .
Robert The Monk 1 . I - II . pp. 727 - 729 .
Baudri : Historia Jczosolimitana I . IV pp. 12 - 15 .
Guibert of Nogent II . IV . pp. 137 - 140 .
William of Malmesbury : Gesta Regum vol . II . pp. 393 - 398 .

على أن ولم كتب بعد ثلاثين سنة من إلقاء الخطبة . أما الاربعة الآخرون فكتبوا على أنهم شهدوا الجمع . غير أن كلا من بودري وجيبرت أقر بأن روايته ليست بالغة الدقة . على أن بين هذه الروايات الخمسة اختلافات كثيرة . ويحلل مونرو : Munro: The Speech of Pope» Urban II at Clermont , in the American Histoircal Review vol . XI . pp. 231 ff » . ما بين هذه الروايات من اختلافات ، ويأمل في العثور على النص الأصلي للخطبة بعد جمع كل النقط التي اتفقت فيها النصوص . والواضح ان كل مؤلف كتب الخطبة التي ظن أن البابا لا بد أن ألقاها ، بعد ان اضاف اليها ما اشتهر به من المحسنات البلاغية .

(٢) انظر : Robert the Monk 1 . II - III . pp. 15 - 16 .
Baudri 1 . V. p. 15 .

قوانين الحرب الصليبية :

وفاق الحماس كل ما توقعه اربان . فما وضعه من خطط لتوجيه الحملة الصليبية لم تكتمل بعد . لم يشهد مجمع كليرمونت احد من كبار السادة العلمانيين . فكل الذين احتشدوا بالمجمع كانوا من الفقراء الوضعاء . وكان لا بد لاربان أن يحظى بتأييد قوي من العلمانيين . وفي الوقت ذاته اجتمع اربان مرة اخرى بأساقفته للقيام بمشاورات اخرى . والراجح أن المجمع سبق أن اصدر بناء على طلب اربان قراراً ، ببذل التحلل من العقوبات الدنيوية ، عن الذنوب التي ارتكبها من اشترك بنية خالصة في الحرب المقدسة . فأضاف الى ذلك أن كل ما امتلكه المشتركون في القتال من متاع الدنيا ، سوف يكون تحت حماية الكنيسة ، أثناء تغيبهم في الحرب . ويعتبر الاسقف المحلي ، مسئولاً عن سلامته ، وينبغي أن يرده كاملاً حينما يعود المحارب الى وطنه . وينبغي على كل مشترك في الحملة أن يحمل علامة الصليب ، رمز التضحية والوفاء . ولا بد أن يجعل على كتف سترته صليباً من نسيج احمر اللون . وكل من اتخذ الصليب ينبغي ان يوفي بالوعد بالمسير الى بيت المقدس . فاذا بادر بالرجوع عن فكره ، او لم يتوجه في الحملة ، تعرض للقطع من الكنيسة . ولا ينبغي لرجال الدين والرهبان ان يتخذوا الصليب إلا بإذن الاسقف ورئيس الدير . وينبغي ألا يشترك في الحملة المتقدمون في العمر والمرضى ، ولا ينبغي لأحد مطلقاً ان يسير إلا بعد مشورة مستشاره الروحي . لم تكن الحرب من أجل الفتح . ففي كل ما يجري الاستيلاء عليه من يد المسلمين من المدن ، لا بد لكنائس الشرق أن تسترد ما لها من حقوق وأملاك . وينبغي أن يتجهز كل فرد لمغادرة وطنه في عيد العذراء Assumption (١٥ اغسطس)

في السنة التالية ، بعد ان يتم جمع المحصول ، وينبغي أن تلتقي الجيوش في القسطنطينية [١] .

ثم تقرر أنه لا بد من تعيين قائد للحملة . اراد اربان بذلك أن يوضح أنه لا بـد أن تخضع الحملة لاشراف الكنيسة . فينبغي أن يتولى قيادتها احد رجال الكنيسة ، وليكن مندوبه . فاتخذ المجمع قراراً بالاجماع بأن يكون اسقف لى بويه قائداً للحملة .

ينتمي ادهيمر دي مونتيـل Adhemer de Monteil ، الى اسرة كونتات فالنتينوا Valentinois . كان وقتذاك في ربيع العمر ، ادى منذ تسع سنوات فريضة الحج الى بيت المقدس . ولم يفز بالقيادة إلا لأنه اول من استجاب لدعوة اربان . والراجح أن حركته الثائرة لم تكن تلقائيـة ، إذ أنه سبق ان احتفى باربان عند قدومه الى لى بويـه في أغسطس ؛ ولا بد أنهما تحدثا معاً في امور الشرق . على أن تنصيبه قائـداً للحملة كان قراراً صائباً . فالخبرة والتجربة التالية اثبتت انه مبشر بارع ، ودبلوماسي ماهر ، نافـذ البصيرة ، هـادىء الطبـع ، شديد الرفق ، وهو رجل اجمع الناس على احترامه ، يسعى للاقناع لا لفرض امره . ولم يستخدم نفوذه إلا لكبح جماح الشهوات ، ونشر النية الصادقة ، غير أنه لم يتوافر له من

---

(١) أورد قرارات مجمع كليرمونت :

Lambert of Anas in Mansi , Concilia vol . XX . pp. 815 - 820 .

وما تعلق منها بالحروب الصليبية هو القرار الاخير ، وهو الثالث والثلاثون . وعلى الرغم من أن جراتيان Gratian يشير الى انـه كان من قرارات كليرمونت ، فانه لم يكن بين قرارات مجمع روان ، التي انطوت على قرارات كليرمونت ، انظر :

Hefel - Leclerq : op. cit vol . V. p. 339 .

وقام Chalandon : op. cit . pp. 44 - 46 بتحليل تدابير البابا ، بعد استخلاصها من المصادر المضطربة .

الحزم والصلابة ، ما يكفي لضبط السادة الاعيان المشتركين في الحملة ، الذين من المفروض أن يخضعوا لأوامره (١) .

كان ريموند كونت تولوز ، اول من طلب من السادة الأمراء ، الاشتراك في الحملة . ففي اول ديسمبر ، وبينما كان اربان لا زال مقيماً في كليرمونت ، قدمت الرسل ، فأنهت اليه أن كونت تولوز وطائفة كبيرة من النبلاء ، يحرصون على أن يتخذوا الصليب . وإذ كان ريموند في تولوز ، لم يسمع بأخبار ما جرى في كليرمونت من خطبة رائعة ، على أنه لا بد أنه علم بها من قبل . ولما كان يعتبر اول من علم بالحملة ، وأول من وعد بالاشتراك في الحرب الصليبية ، ادرك أنه لا بد أن تكون له القيادة العلمانية على سائر كبار القادة والسادة . أحب أن يكون أدهيمر له ، مثلما كان هارون لموسى . على أن اربان لن يقر هذا الزعم ، ومع ذلك لم يتخل ريموند عنه مطلقاً . وفي الوقت ذاته وطن ريموند نفسه على أن يتعاون في اخلاص مع ادهيمر (٢) .

غادر اربان كليرمونت في ٢٠ ديسمبر ، وبعد ان قام بزيارة ادبرة كلونية عديدة ، امضى عيد الميلاد في ليموج ، حيث دعا في الكاتدرائية للحروب الصليبية ، ثم سار صوب الشمال الى وادي نهر اللوار بعد ان اجتاز بواتييه . وفي مارس كان في تور ، حيث عقد مجمعاً ، وفي يوم احد دعا المصلين الى الاجتماع به في احد المروج الواقعة على ضفة النهر . ثم وقف على منصة غليظة ، وصار يعظ الناس طويلاً ، فحث سامعيه على

---

(١) انظر : Robert the Monk I . IV . p. 731 .
Guibert II . V. p. 140 .

عن حياة ادهيمر السابقة انظر النصوص الواردة في :
Chevalier : Cartulaire de Saint - Chaffre pp. 13 - 14 , 139 , 161 - 163 .

(٢) انظر : Baudri I. V. p. 16 .

أن يتوبوا ويستغفروا ، وأن يمضوا الى الحرب الصليبية . ثم عاد صوب الجنوب ، مجتازاً اكيتانيا ، وساينت وبورد حتى بلغ تولوز . اتخذ تولوز مقراً لقيادته في شهري مايو ويونيه ، وتهيأت له فرص عديدة ليناقش الحرب الصليبية مع مضيفه الكونت ريموند . وفي اواخر يونيه ، تحرك اربان الى بروفانس ، وصحبه ريموند حتى نيم .

عودة اربان الى ايطاليا :

وفي اغسطس عبر اربان جبال الألب مرة اخرى ، الى لومبارديا . والواقع أن رحلته لم تكن مجرد اجازة . إذ امضى كل الوقت في الاجتماع برجال الكنيسة وكتابة الرسائل ، وساعياً الى استكمال تنظيم الكنيسة في فرنسا ، وأكثر من ذلك كله ظل يواصل خططه من اجل الحروب الصليبية . فبعث الى اساقفة الغرب ، رسائل بقرارات مجمع كليرمونت . وانعقدت في بعض الاحوال مجامع اقليمية لاستقبال الاساقفة واتخاذ قرارات محلية ، والراجح ايضاً ان السلطات العلمانية العليا علمت رسمياً برغبات البابا [1] .

ففي نهاية ١٠٩٥ ، كتب البابا اربان ، من ليموج ، الى جميع المؤمنين في الفلاندر ، يطلب اليهم الرجوع الى قرارات مجمع كليرمونت ، ويسألهم التأييد [2] . وتوافر من الدواعي ما حمله على الاطمئنان الى ما ورد عن

---

(١) انظر : Orderic Vitalis : Historia Ecclesiastica IX . 3 vol . III. p. 470 .
Riant : Inventaires pp. 109 - 113 .
Crozet : « Le Voyage d'Urban II. « Revue Historique » vol CLXXIX pp. 271 - 310 .

(٢) أورد هذه الرسالة :
Hagenmeyer : Die Kreuzzugebriefe pp. 136 - 137 .
وفي الرسالة أشار اربان الى أن موعد مسير الحملة الصليبية تحدد بتاريخ ١٥ اغسطس .

استجابة الفلاندر والبلاد المجاورة لدعوته . وفي يوليو ، سنة ١٠٩٦ ، وبينما كان اربان في نيم ، تلقى رسالة من الملك فيليب ، يعلن فيها اذعانه المطلق لما تقرر بشأن جريمة الزنا التي ارتكبها ، والراجح أنه في نفس الوقت ، أشار الى انضمام اخيه هيو فرماندوا الى الحملة الصليبية [١] . وفي أثناء هذا الشهر ايضاً برهن ريموند كونت تولوز على نواياه الطيبة ، بأن تنازل عن كثير من املاكه الى دير سان جيل [٢] . والراجح أن البابا اربان قرر ، بناء على نصيحة ريموند ، أنه لا بد من مساعدة قوة بحرية ، كيما يتحقق تموين الحملة . فتوجه مندوبان بابويان ، برسالتين الى جمهورية جنوه ، يطلبان منها التعاون . ووافقت الجمهورية على تقديم اثنتي عشرة سفينة كبيرة ، وسفينة نقل ، غير أنها احتاطت للأمر ، بأن أرجأت إرسال السفن ، حتى تعلم ما اذا كانت الحرب الصليبية حركة جادة . فلم يقلع الأسطول من جنوه إلا في يوليه سنة ١٠٩٧ ، وفي تلك الأثناء اتخذ الصليب كثير من الجنويين [٣] .

ولما عاد البابا الى ايطاليا ، كان مطمئناً الى ما يصادف خطته من نجاح . اذ أن نداءاته ، حرص الناس على الاذعان لها ، فبادر الى اتخاذ الصليب ، جميع الناس ، من اقصى الجهات ، من اسكتلنده ، ودانمرقة الى أسبانيا . فلجأ بعضهم الى رهن املاكهم واراضيهم من اجل الحصول على المال اللازم للرحلة ، بينما تنازل آخرون للكنيسة عن كل ما يملكون ، على اعتبار انهم لا يأملون في العودة الى بلادهم . واشترك في الحرب الصليبية عدد غير قليل من كبار النبلاء كيما يعطوها مساندة عسكرية قوية . فالى جانب ريموند كونت تولوز وهيو كونت فرماندوا ، تجهز للخروج مع

(١) Jaffé - Lowvenfeld : Regesta vol. I. p. 688 .

لم يف فيليب بوعوده عن التكفير عن جريمة الزنا .

(٢) انظر : Achéry , Spicilegium 2nd ed vol . I . p. 630 .

Mansi : Concilia vol . XX p. 938 .

(٣) انظر : Caffro : De Liberatime pp. 44 - 50 .

الحملة ، روبرت كونت فلاندر ، وروبرت دوق نرمنديا ، وصهره ستيفن كونت بلوا . ومن الأمور الجديرة بالملاحظة ، أن انحاز الى الحملة رجال ، اشتدت صلتهم بالامبراطور الألماني هنري الرابع . ومن أشهر هؤلاء الرجال ، جودفري ، دوق اللورين الأدنى ؛ الذي اتخذ الصليب ، مع اخويه يوستاس كونت بولونيا وبلدوين . والتف حول هؤلاء القـــادة ، كثير من صغار النبلاء ، وعدد قليل من كبار رجال الكنيسة مثل أسقف بايو Bayaux [1] .

ولقي اربان في ايطاليا من الحماس ما لا يقل شدة عما لقيه في سائر الجهات . ففي سبتمبر سنة ١٠٩٦ ، كتب اربان الى مدينة بولونيا ، يشكر سكانها على حماسهم المتأجج ، ويحذرهم بألا يرحلوا الى الشرق إلا بعد موافقة قسسهم ، ولا ينبغي لمن تزوج حديثاً أن يتوجه الى الشرق إلا بموافقة زوجته . وفي تلك الأثناء ، وصلت أنباء الحملة الى جنوب ايطاليا ، فاستقبلها النرمان في حماس شديد ، والمعروف أن النرمان كانوا دائمـاً مستعدين للقيام بمغامرة جديدة . على أن الأمراء (النرمان) ترددوا اول الأمر ، غير أن بوهمند ، ابن جويسكارد ، وأمير تارانتو ، الذي أوقف مطامعه في ايطاليا ، اخوه روجر بورصه ، وعمه روجر صاحب صقلية ، لم يلبث أن ادرك ما قد تهيؤه له الحرب الصليبية من فرص . فاتخـذ الصليب ، مع عدد كبير من أفراد أسرته واصدقائه . وترتب على اشتراكهم في الحرب الصليبية ، أن انضم الى الحركة الصليبية عدد كبير من العساكر ، من أشد الناس بأوربا خبرة وميلاً الى المغامرة . فلما عاد اربان الى روما ، ليمضي عيد الميلاد سنة ١٠٩٦ ، ازداد احساساً بالاطمئنان الى أن الحملة الصليبية اكتملت عدتها وتجهيزها [2] .

---

(١) انظر عن قوائم المشتركين في الحروب الصليبية ما جاء في الكتاب الثالث، الفصل الاول.

(٢) انظر : Urban II . Letter to the Bolognese in Hagenmeyer op. cit. pp. 137 - 138 .

عن النرمان انظر ما سبق ص ٨٩ — ٩٠ .

الواقع أن اربان أعد حركة ، فاقت كل ما كان يعلم ، إذ أن ما كان يتوقعه ألا يستجيب لهذه الحملة إلا عدد قليل من كبار النبلاء ، فعلى الرغم من أن الحماس الديني كان أقوى الدوافع عندهم جميعاً ، باستثناء بوهمند ، فان ما اعدوه من مشروعات لحيازة الأراضي ، وما كان بينهم من عداوات ومنافسات ، لم تلبث أن خلقت من المتاعب ، ما لم يكن في وسع المندوب البابوي أن يسيطر عليها . وما هو اشد صعوبة في ضبطه والسيطرة عليه ، ما أظهره الفقراء من الاثارة ، أثنـــاء اجتيازهم فرنسا وبلاد الفلاندر ، وبلاد الراين .

بطرس الناسك :

طلب البـابا الى اساقفته أن يبشروا للحرب الصليبية ، غير أن اشد التبشير تأثيراً ، كان ما قام به الرهبان ورجـــال الدين ، أمثال روبرت أربريسل Arbrissel الذي أنشأ طائفة فونتيفرول Fontevrault ، بل أشد من ذلك ما قام به الراهب الطوّاف المعروف باسم بطرس . كان بطرس طاعناً في السن ، ولد بمكان قرب اميان ، والراجح أنه حاول منذ سنوات ، أن يؤدي الحج الى بيت المقدس ، غير أنه تعرض للأذى من قبل الترك ، فأرغموه على العودة دون أن يؤدي الحج . عرفه معاصروه باسم بطرس الصغير ، شتو ، وكيوكيو ، في اللهجة البيكاردية ، غير أن ما اتخذه فيما بعد من رداء الزاهد ، جعله معروفاً عادة باسم « الزاهد » ، الذى اشتهر به في التاريخ . كان بطرس قصير القامة ، داكن اللون ، ذا وجه طويل نحيل ، أشبه ما يكون في قبحه بوجه الحمـــار الذي يمتطيه ، والذي لقي من التكريم والتبجيل مثلمـا لقي بطرس . درج بطرس على أن يسير حافي القدمين ، وقد ارتدى ملابس رثة ، لم يتناول في طعامه الخبز او اللحم ، بل جعل غذاءه السمك ، واتخذ النبيذ شراباً له . وعلى الرغم من حقارة مظهره ، فانه ادخر من القوة ما كان يثير الرجال . أحاط به جو غريب

من السلطة والنفوذ . فيروي جيبرت نوجنت ، الذي يعرفــه شخصياً ، فيقول : « ما يردده بطرس او يعقله ، يتراءى على أنه من صنع الله [١] » .

وعلى الرغم من أن بطرس لم يشهد ، فيما يبـدو ، مجمع كليرمونت ، فانه لم تكد تنتهي سنة ١٠٩٥ ، حتى اخذ يبشر بالحرب الصليبية . بدأ رحلته من بري Berry ، وفي فبراير ومارس اجتاز اورليانيه وشامبانيا الى اللورين ومنها الى مدن الميز ، وآخن الى كلن ؛ حيث أمضى عيـد القيـامة . وحشد من مريديه من انفذهم الى المناطق التي لم يكن بوسعه ان يزورها . ومن هؤلاء المريدين ، والتر المفلس Walter Sans - Avoir ، ورينـالد برايس ، وجفري بوريل ، ووالتر برتيبل ، وأورل وجوتشالك الالمانيان . وأينما توجه بطرس او نوابه غادر الرجال والنساء دورهم كيما يتبعوه . فلم يكد يبلغ كلونيا ، حتى بلغ عدد اتباعه ١٥ الف شخص ، وازداد عدد من انحاز اليه في المانيا [٢] .

وما احرزه بطرس من نجاح باهر في تبشيره انما يرجع الى اسباب عديدة . فحيـاة الفلاح في شمال غربي اوربا كانت قاسية ، ولم تكن بنجوة من الخطر ، وخلى من الزراعـة جانب كبير من الاراضي ، بسبب غزوات المتبربرين وغارات الشماليين ، وتحطمت الجسور ، وطغى البحر والأنهار

---

(١) انظر : Guibert I . VII . p. 142 .

عن تفاصيل حياة بطرس ، انظر :

Hagenmeyer : Le Vrai et les Faux sur Pierre l'Hermite Trans. by Furcy Raynaud pp. 17 - 63 .

وصفه جيبرت في : II . VIII . p. 142 .

وبلغ عدد أتباعه نحو ١٥ الف على حد رواية اوردريك .

Orderic Vitalis IX . 4 . vol . VIII . p. 477 .

(٢) انظر : Hagenmeyer : op. cit. pp. 127 . 151 .

Chalandon : op. cit. pp. 57 - 59 .

على الحقول . وطالما اعترض السادة على إزالة الغابات التي مارسوا فيها الصيد من اجل المتعة والتسلية ، وتعرضت القرية التي لا تحميها قلعة السيد ، للنهب والسلب والحريق ، على ايدي قطاع الطرق ، او العساكر ، الذين يشنون حروباً اهلية صغيرة . وحرصت الكنيسة على أن تحمي الفلاحين الفقراء ، وأن تقيم مدناً منيعة مسورة bourgs في الاراضي الخالية ، غير أن المساعدة كانت طارئة ، ولم تكن عادة ناجعة . ويصح أن يلقى نمو المدن التشجيع من كبار السادة (الاقطاعيين) ، غير أن صغار البارونات عارضوا ذلك . فتداعى نظام الضياع ، ولم يحل مكانه نظام ثابت . وعلى الرغم من اختفاء القنية ، فانه بلغ من ارتباط الناس بالارض أنهم لم يستطيعوا في يسر الافلات من ذلك . وفي تلك الأثناء ازداد عدد السكان ، على حين أن ما كان بالقرية من املاك ، لا يتجاوز تقسيمها حداً معيناً . قال اربان في كليرمونت ، على حد ما أورده روبرت الراهب : « ليس بوسعكم ان تدبروا في هذه البلاد الطعام للسكان ، وهذا هو السر في انكم تستهلكون سلعها ، وتشنون فيما بينكم حروباً لا نهاية لها » . على أن السنوات الاخيرة كانت بصفة خاصة أشد عسراً وأكثر ضيقاً . فما حدث سنة ١٠٩٤ من الفيضانات والأوبئة ، تلاها سنة ١٠٩٥ الجفاف والمجاعة . وكانت هذه هي الفرصة السانحة التي تجعل الهجرة مقبولة . ففي ابريل سنة ١٠٩٥ ، أدى تساقط الشهب الى حركة هجرة كبيرة بين الناس (١) .

---

(١) انظر : Ekkehard : Chronicon ad ann . 1094 p. 207 .
Sigebert of Gembloux : Chronicon ad . ann . 1095 p. 367 .
Robert The Monk 1 . I . p. 728 .
Orderîc Vitalis IX . 4 . vol . III . pp. 461 - 462 .
(أشار الى تساقط الشهب ، الذي فسره جيزلبرت أسقف لزيبه Gislebert of Lisieux . بأنها تؤذن بحركة شاملة نحو الأماكن المقدسة) .

الرؤى والتنبؤات وأثرها في الحماس :

يضاف الى الاغراء الاقتصادي ، تعاليم الرؤى والنبوءات . اذ أن العصر كان عصر الرؤى . وظن الناس أن بطرس كان يعلم الغيب . واعتقد رجل العصور الوسطى أن القيامة الثانية اضحت وشيكة الوقوع ، فينبغي ان يستغفر طالما لا زال ثمة فسحة من الوقت ، وينبغي ان يمضي لعمل الخير . ومن تعاليم الكنيسة أنـه يصح التكفير عن الذنب بتأدية الحج ، وتشير النبؤات الى أنه ينبغي أن تعود الارض المقدسة الى المسيحية ، قبل هبوط المسيح للمرة الثانية . يضاف الى ذلك أنه لم يكن بوسع العقول القاصرة ان تفرق تماماً بين اورشليم وبيت المقدس الجديدة . فاعتقـد كثير من السامعين فيما وعدهم به بطرس ، من أنه سوف يخرجهم من حياة البؤس والشقاء التي يعيشونها ، الى الارض التي تفيض باللبن والعسل ، التي تحدثت عنها الأناجيل . وسوف تكون الرحلة شاقة ، ولا بد من التغلب على جند المسيح الدجال . غير ان الهدف كان دائماً بيت المقدس الأثيرة عندهم [١] .

على أنه ليس معروفاً ما كان يظنه البابا اربان عن بطرس ونجـاح دعوته . فرسالة البابا الى اهل بولونيا ، تنطوي على انـــه ضاق ذرعاً ، بالحماس الذي تجـاوز الحد ، غير أنه لم يكن بوسعه ان يمنع انتشاره في أرجاء ايطاليا . فأخـذ يتدفق على الشرق ، طوال صيف سنة ١٠٩٦ من حين الى آخر سيل مستمر من الحجاج الذين لم يتول احد قيادتهم ، ولم يجمعهم نظام . ولا شك أن البابا كان يأمل في أن يصل هؤلاء الحجاج

---

(١) ما غلب على روبرت اربريسل من الاعتقاد في الرؤى الواردة بالأناجيل (وقـــد أورد وصف حياته ،المؤرخ بودري في (Aa , Ss 23 February, vol. III) ، يعتبر نموذجاً للروح السائدة في ذلك العصر . وبناء على طلب اربان ، قام روبرت ايضاً بالدعوة للحروب الصليبية (انظر Ibid p. 695) .

وأتباع بطرس سالمين الى القسطنطينية ، وأن ينتظروا بها حتى يقدم المندوب البابوي ، والقادة العسكريون فيدخلونهم في صفوف الجيش المسيحي الكبير .

وما أصر عليه اربان من اجتماع عساكر الحملة بالقسطنطينية إنما يدل على مقدار ثقته في أن الكسيوس سوف يرحب بهم . ذلك ان بيزنطة طلبت من الغرب ارسال العساكر ، وها هم قد استجابوا لدعوتها ، لا على أنهم عساكر مأجورة متفرقة قليلة العدد ، بل جاءوا في جيوش كاملة قوية . على ان ثقته كانت خالصة ، فما من حكومة تكره ان تتخذ لها حلفاء . غير انه اذا ارسل هؤلاء الحلفاء من الجيوش الضخمة ، ما لم يكن بوسع الحكومة ان تضبطها ، بل اخذت تغزو بلادها ، وتلتمس المؤن والسكن ، وتوفير اسباب الراحة ، جاز ان نتساءل ما اذا كان التحالف امراً يصح الاهتمام به . فلما بلغت القسطنطينية ، أنباء الحركة الصليبية ، أثارت الشعور بالقلق والحذر .

تدابير الامبراطور الكسيوس :

وفي سنة ١٠٩٦ نعمت الامبراطورية البيزنطية بفترة نادرة من الراحة ، لم تتجاوز بضعة شهور . اذ ان الامبراطور الكسيوس أنزل اخيراً هزيمة حاسمة بما قام به الكومان من غارة على شبه جزيرة البلقان ، لم يحاول بعدها قبائل البراري المتبربرة ان تجتاز الحدود . وأخذت تتجزأ الامبراطورية السلجوقية بأسيا الصغرى ، وذلك بفضل ما نشب من الحروب الأهلية ، التي شجعتها الدبلوماسية البيزنطية . ولم يلبث الكسيوس ان راوده الأمل في أن يتخذ خطة مهاجمتها ، غير انه أراد أن يختار الزمن المناسب . فلا زال في حاجة الى فسحة من الوقت كيما يصلح موارده المستنفذة . واذ ازعجه امر القوة الضاربة عنده ، احب ان يحصل على عساكر مأجورة من الغرب ، ولا شك في أنه كان يأمل بأن يظفر مبعوثوه بايطاليا بالنجاح في تجنيد العساكر . على أنه علم اخيراً أن جيوشاً بأكملها من الفرنج تشق

طريقها اليه ، بدلاً من الفرسان الفرادي والجماعات الصغيرة ، التي توقع اجتيازها الى قواته . لم يفرح لذلك ، لأنه علم بالتجربة أن الفرنج عنصر متقلب الأهواء ، متعطش للحصول على المال ، ولا يحفل بالوفاء بما يعقده من الاتفاقات . وعلى الرغم من شدتهم في الهجوم ، فان هذه الشدة ليست في بعض الأحوال من المزايا الطيبة . وانزعج البلاط البيزنطي لما علم ، على حد قول الاميرة أنّه كومنين : « أن الغرب بأمره ، وكل القبائل المتبربرة ، من وراء بحر الأدرياتي حتى عمودي هرقل (بوغاز جبل طارق) ، أخذوا يتحركون كتلة واحدة ، مجتازين أوربا نحو آسيا ، وجلبوا معهم أسراتهم » . ولم يكن الامبراطور وحده هو الذي انزعج لذلك ، بل شاركه افراد رعيته . وكان ذلك طيرة منذرة ، بأن ارجالاً ضخمة من الجراد تجتاح اوربا ، فلا تمس الحبوب ، وانما تلتهم الكروم . وفسر المنجمون ذلك ، بناء على اشارة من السلطات الحكومية ، حتى لا يذيع اليأس والقنوط ، بأن الفرنج لن يتعرضوا بالاذى للمسيحيين الاخيار ، الذين رمز لهم بالقمح مصدر خبز الحياة ، وسوف يحطمون المسلمين ، وهم قوم جرى تشبيه شهواتهم بالكروم . والواقع أن ما اوردته الأميرة أنّه من تفسير ، يشوبه بعض الريبة ، غير أن تشبيه الفرنج بالجراد أمر بالغ الوضوح [١] .

شرع الأمبراطور الكسيوس بعد في هدوء تدابيره واستعداده . فلا بد لجيوش الفرنج من ان تجد ما تحتاجه من المؤن اثناء اجتيازها الامبراطورية ، ولا بد من اتخاذ التدابير اللازمة لمنعهم من تخريب القرى

---

(١) انظر : Anna Comnena : Alexiad X. V. 4 - 7 vol II . pp. 206 . 208.
تشير أنه الى ان بطرس الناسك هو الذي نظم الحملة الصليبية ، ولعل ذلك راجع الى أن اول ما كان لها من اتصال بالصليبيين ، كان مع غوغاء بطرس ، الذين جعلوا له الفضل في تنظيم الحملة الصليبية .

وسلب السكان ونهبهم . فأمر الامبراطور بتوفير المؤن في كل المواقع الأساسية التي يجتازها الجيش . وتقرر ان تتولى قوة من الشرطة استقبال كل سرية وكتيبة عند دخولها الى الامبراطورية واصطحابها الى القسطنطينية . والمعروف ان طريقين رئيسيين يجتازان شبه جزيرة البلقان ، الطريق الشمالي الذي يعبر الحدود عند بلغراد ، ويتجه صوب الجنوب الشرقي الى نيش وصوفيه وفيليبوبوليس وأدرنه ؛ والطريق الآخر ، وهو المعروف باسم طريق اجناتيا Via Egnatia والذي يبدأ من دورازو ، فيجتاز اوكريد ، واديسا (فودنيا) الى سالونيك ، ثم الى موزينوبوليس ، وسيلمبريا ، الى العاصمة (القسطنطينية) . على أن الطريق الشمالي لم يرتاده احد من الحجاج ، منذ سنة ١٠٦٤ ، بعد أن اجتازه الحجيج الجرماني الكبير . فهبط المجموع الكلي لعدد الحجاج ، ومن حاول المسير للحج ، اتخذ الطريق الآخر . يضاف الى ذلك أن الكسيوس تلقى من ايطاليا الأنباء عن الحملة الصليبية ، ولذا توقع أن جيوش الفرنج سوف تعبر بحر الأدرياتي ، وتسلك طريق اجناتيا ، فبعث بالمؤن الى دورازو ، وما يقع بينها وبين القسطنطينية من المدن . وتلقى حاكم دورازو ، يوحنا كومنين ، ابن اخ الامبراطور من التعليمات ، ما يقضي بالترحيب بقادة الفرنج ، وأن يتأكد بأن الشرطة العسكرية تتولى طوال الوقت مراقبتهم وضبط جيوشهم . وتقرر أن ينفذ من القسطنطينية مندوبون ساميون ، لتحية كل قائد على حدة . وفي تلك الأثناء توجه القائد البحري نقولا مافركاتاكلون بأسطوله الى بحر الأدرياتي ، ليرقب الشواطىء ، ويبعث بالانذار كلما اقتربت الحمالات التي تنقل الفرنج .

أما الامبراطور فبقي بالقسطنطينية ينتظر ورود أنباء جديدة . ولما علم بأن البابا حدد يوم ١٥ اغسطس ، موعداً لرحيل الحملة ، لم يتعجل إنجاز استعداداته ، على أنه حدث فجأة ، في أواخر مايو سنة ١٠٩٦ ، أن قدم من الشمال رسول يذكر أن جيشاً للفرنج اجتاز بلاد المجر ونفذ الى الامبراطورية عند بلغراد .

الكتاب الثالث

الذهاب الى القتال

الفصل الاول

حملة الشعوب [1]

وصل بطرس الناسك مع أتباعه الى كلونيا ، في يوم سبت النور ، ١٢ ابريل ١٠٩٦ . وهناك اخذ بطرس يدرك ما سوف يصادفه قائــــد حملة الشعوب من عقبات . فالجموع الضخمة من أخلاط المتحمسين ، الذين احتشدوا سوياً ، تألفت من أناس من جهات عديدة ، ومن فئات مختلفة . فمنهم من

(١) الواقع أن ألبرت قسيس آخن Albert of Aix ، هو الوحيـــد من المؤرخين ، الذي أورد في كتابه رواية أصلية مفصلة عن أسفار بطرس الناسك ووالتر المفلس. والواضح أنه استمد أخباره من شاهد عيان ، حرص على تدوين ملاحظاته . على أن بعض ما أورده من أرقـــام وأعداد الجموع، لا يصح الأخذ به ، ولم تتفق طباع بطرس مع المثل والمبادىء في بعض الأحوال. والراجح أن المؤلف أراد أن يجعله دائماً مرحاً ، خفيف الظل ، دون أن يتفق ذلك مع المثل . وأورد تاريخ تسمرن Chronicle of Zimmern بيانات اضافية ، غير أنه فيا يبدو خلط بين الحملتين الصليبيتين سنة ١٠٩٦ ، ١١٠١ . ولم يرد في تاريخ باري عن هـذه الحملة (١٠٩٦) سوى اشارة عابرة .

The Chronicle of Bari p. 147 .

ولم يقبل الاستاذ رنسيان ما وصل اليه من نتائج إلا بعد دراسة تفصيلية قام بها الاستاذ هيجنمير Hagenmeyer : op. cit . pp. 151 - 241 .

صحب زوجاتهم ، بل إن بعضهم أحضروا اطفالهم . على أن معظمهم كانوا من الفلاحين ، ومع ذلك كان بينهم جماعة من سكان المدن ، وأناس من صغار النبلاء ، ومنهم من كانوا قطاع طرق ومجرمين . ولم تكن الرابطة التي تجمع بين هؤلاء سوى الحماس الديني . اذ تخلوا جميعاً عن كل شيء ، واتبعوا بطرس ، وحرصوا على أن يواصلوا سيرهم . يضاف الى ذلك ، أنه كان لا بد من أن يمضوا في سيرهم ، حتى يحصلوا على المؤن ، فلم يكن بأوربا العصور الوسطى إلا مناطق قليلة ، يتوفر بها من فائض المؤن مـا يكفي لسد حاجة جماعة كبيرة من الجند مدة طويلة . على أن مدينة كلونيا تقع في ارض خصيبة ، يسهل فيها التنقل عن طريق النهر . وأراد بطرس أن يفيد مما تهيؤه مدينة كلونيا من المساعدات ، كما يبقى برهة ، ليدعو الألمان للاشتراك في الحملة الصليبية . والراجح أنه كان حريصاً على أن يجذب للحملة الصليبية جماعة من نبلاء المنطقة . ففي فرنسا والفلاندر ، كان الفرسان يؤثرون الانحياز الى اتباع سيد كبير ، على حين أنه لم يتوجه للحرب المقدسة سيد ألماني كبير . وصادفت دعوة بطرس النجاح . فمن الألمان الذين لبوا دعوته ، عدد كبير من صغار النبلاء يتزعمهم هيو كونت توبنجن ، وهنري كونت شفارتزنبرج ، ووالتر كونت تيك ، وأبناء كونت تسمّرن الثلاثة [١] .

والتر المفلس :

واستبد القلق بالفرنسيين ، اذ قرر والتر المفلس أنه لن يتخلف في مدينة

---

(١) انظر : Hagenmeyer : op. cit. pp. 158 - 160 , 165 - 166 , 160 not I
p. 166 , not I .
Ekkehard : Hirosolymita pp. 18 - 19 .
ويشير ايكارد الى أنه لم يجر رسمياً الدعوة الى الحرب الصليبية في ألمانيا، لما وقع من الانشقاق الديني .

كلونيا ، بل لم يكد عيد القيامة ينتهي ، حتى غادر والتر المدينة في الف من مواطنيه . والراجح أن وقع ذلك ، في يوم ثلاثاء القيامة ، بينا اتخذ طريقه الى بلاد المجر . وبعد أن التزم في سيره نهر الراين ونهر نيكر ، وهبط الى الدانوب ، وصل الى الحدود المجرية في ٨ مايو ، ومنها أرسل الى كولومان ملك المجر ، يستأذنه في اجتياز المملكة ، ويطلب منه المساعدة ، بأن يتيسر لرجاله الحصول على المؤن . وبرهن كولومان على مودته وصداقته . فاجتاز جيش والتر بلاد المجر ، دون أن يقع حادث يستوجب الاسف . وحوالي نهاية ذلك الشهر وصل الجيش الصليبي الى سِملِن Semlin ، على الجانب الآخر من الحدود ، فعبر نهر السّاف عند بلغراد ، الى الاراضي البيزنطية .

على أن القائد العسكري في بلغراد أخذته المفاجأة ، اذ لم يتلق من التعليمات ما يقضي بالتصرف نحو هذا الغزو . فبادر بأن بعث الى حاكم اقليم بلغاريا ، في نيش ، يخطره بوصول والتر المفلس . وهذا الحاكم واسمه نكيتاس والذي اشتهر بالأمانة في عمله ، برغم أنه لم يكن من الموظفين النابهين ، لم يتلق ايضاً تعليمات بهذا الشأن ، فأنفذ رسولاً الى القسطنطينية ، نقل اليها في سرعة فائقة ما ذاع من الأنباء . وفي تلك الأثناء ، طلب والتر المفلس ، وهو بمدينة بلغراد ، المؤن لأتباعه . ولما لم يتم جمع المحصولات حتى وقتذاك ، ولم يكن لدى الحامية من المؤن ما تستطيع الاستغناء عنه ، اخذ والتر وجنوده ينهبون القرى . اذ أثاره ما وقع من حادث سيء في سِملِن ، حيث حاول ستة عشر من الجنود الذين لم يجتازوا النهر مع رفاقهم ، أن ينهبوا احدى الاسواق فألقى المجريون القبض عليهم ، وجردوهم من أسلحتهم وملابسهم ، وعلّقوها على جدران سِملِن تحذيراً لهم . ثم أرسلوهم الى بلغراد عراة . ولما وقع النهب حول بلغراد ، لجأ القائد العسكري المجري الى استخدام السلاح ، فلقي عدد كبير من رجال والتر المفلس مصرعهم ، واحترق آخرون أحياء في الكنيسة .

واستطاع والتر آخر الأمر ان يمضي في سيره حتى نيش ، فأحسن حاكمها نكيتاس استقباله ، وأمده بالمؤن ، واحتجزه في نيش ، حتى يصل اليه الرد من القسطنطينية . أما الامبراطور البيزنطي الذي اعتقد ان الحملة سوف لا تغادر الغرب إلا بعد عيد العذراء ، فانه اضطر الى التعجيل بانجاز استعداداته . وتلقى نكيتاس طلباً من الامبراطور بأن يرسل والتر المفلس برفقة الحرس . وفي صحبة هذا الحرس ، واصل والتر وجنوده مسيرهم في سلام وهدوء . وفي أوائل يوليه بلغوا فيليبوبوليس ، حيث مات والتر بوامي Walter of Poissy عم والتر المفلس ، وفي منتصف الشهر أضحوا بالقسطنطينية(١) .

ولا بد أن نكيتاس ، حاكم بلغراد ، علم من والتر أن بطرس الناسك يتبع أثره في جموع ضخمة ، ولذا تحرك الى بلغراد للقائه ، وللاتصال بحاكم سملن المجري .

اجتياز بطرس أطراف الامبراطورية :

غادر بطرس مدينة كلونيا في ٢٠ أبريل ١٠٩٦ ، وذلك بعد أن سخر الألمان اول الامر من دعوته . غير أن ألوفاً عديدة لم تلبث أن انضمت اليه . والراجح أن عدد أتباعه من الرجال والنساء قارب عشرين الفاً . وبلغ من شدة تأثر الألمان الآخرين بحماسه الديني ، أن أعدوا انفسهم للحاق به فيما بعد ، بقيادة جوتشالك واميخ كونت لايزنجن . واتخذ بطرس الطريق المألوف ، من مدينة كلونيا ، وهو الطريق الذي يحاذي نهر الراين ، [illegible] ، [illegible] الى نهر الدانوب . فلما وصل بطرس الى نهر

(١) وصف المؤرخ البرت آخن رحلة والتر : Albert of Aix I . 6 . pp. 274 - 276 .
ولهذه الرحلة وصف موجز في: Orderic Vitalis IX . 4 . vol . III . pp. 478-479.

الدانوب ، عزم جماعة من جنوده على اتخــاذ السفن في الدانوب . غير أن بطرس ومعظم الجيش سلكوا الطريق البري ، الذي يسير جنوب بحيرة فيرتو Ferto ، فدخلوا الى المجر عند اودينبرج . وامتطى بطرس حماره ، وركب الفرسان الألمان خيولهم ، بينما حملت العربات ما جمعه للرحلة من المؤن والأموال ، على أن الغالبيـــة العظمى سارت مترجلة . فحيثما كانت الطرق صالحة ، سار الجيش ٢٥ ميلاً في اليوم .

واستقبل كولومان ، ملك المجر ، بطرس بما سبق أن استقبل به والتر المفلس من الإكرام والعطف ، غير أنه حــذر بطرس وجنوده ، بأن كل محاولة منهم للنهب سوف يلقى مرتكبها جزاء رادعاً . وتحرك الجمــع في هدوء ، مجتازاً المجر ، بين اواخر مايو وأوائل يونيه . وعند موضع ، الراجح أنه قريب من كربوفتسي Karbovci انحاز الى الجيش ، الجماعة التي سارت بالدانوب ، وفي ٢٠ يونيه بلغ الجمع سملن .

وأخذت المتاعب في الظهور ، عند سملن . غير أن ما وقع فعلاً يكتنفه الغموض . ويبدو أن حاكم سملن ، الذي ينتمي الى الغز من الترك ، ارتاع لضخامة حجم هذا الجمع ، فحاول أن يشدد الحراسة على الجمع ، بموافقــة زميله على الجانب الآخر من الحدود . ارتابت جموع بطرس في ذلك ، اذ ترامى اليهم ما ذاع من الشائعات عمّا حــل برجال والتر من العذاب ، وخشوا أن الحاكمين يتآمران ضدهم ، وارتاعوا لمنظر أسلحة أتباع والتر ، التي لا زالت معلقـــة على أسوار سملن . وكادت الأمور تسير على أحسن وجه ، لولا أن وقع شجار بسبب شراء حذاء ، فأدى الى شغب ، لم يلبث أن تحول الى معركة . والراجح ان رجــال بطرس بقيادة جفري بوريل Burel ، هاجموا على غير إرادته ، مدينة سملن ، واستولوا على قلعتها ، ولقي اربعة آلاف مجري مصرعهم ، ووقع في ايدي رجال بطرس مقدار كبير

من المؤن ، ثم بادر الجنود الى اجتياز نهر الساف خوفاً من أن يتعرضوا لانتقام المجريين [١] .

وانتزع جنود بطرس كل ما استطاعوا جمعه من الأخشاب ، كيا يصنعوا منه قوارب . وشدد نكيتاس مراقبتهم في بلغراد ، فحاول أن يشرف على عبورهم للنهر ، وأن يجبرهم على أن يستخدموا في عبورهم ، مخاضة واحدة . وتألف معظم جيش نكيتاس من البجناك المأجورين الذين يبذلون له الطاعة العمياء ، فتقرر ارسالهم على سفن ، لمنع عبور جند بطرس إلا في الموضع المتفق عليه . ونظراً لأنه لم يكن لدى نكيتاس من الجنـــد ما يكفي لمواجهة هــذه الحشود الضخمة ، تراجع الى نيش ، حيث يقع مقر القيادة الحربية للاقليم . وعند ارتحاله ، هجر سكان بلغراد هذه المدينة ولجأوا الى الجبال [٢] .

وفي ٢٦ يونيه ، شق جيش بطرس طريقه عبر نهر الساف . ولما حاول البجناك إلزامهم بالعبور في موضع واحـــد ، تعرضوا للهجوم ، فغرق في النهر عدد من السفن ، ووقع في الأسر كل من كان في تلك السفن من الجند ، فتقرر قتلهم . ودخل الجند بلغراد ، وأشعلوا بها النيران ، بعد أن

---

(١) انظر Albert of Aix 1, 7 . p. 276 .
Hagenmeyer , op . cit . p. 169 not I .
حيث أشار الى أن مالافيلا ليست إلا سملن .
وأورد جيبرت (Guibert . II . VIII . p. 142 - 143) أن بطرس لقي عنـــاء في اجتياز الجر ، غير أنه فيما يبدو خلط بين بطرس وإميخ .

(٢) انظر : Albert of Aix II , 7 , 8 pp. 276 - 278 .
وصف البرت بطرس في هذا الموضع على أنه متعطش للانتقام ، على حين أنه أشار في مواضع اخرى الى ميله الى السلام . والراجح أن الراوي ظن أن القسوة ، تعتبر من المزايا التي يتصف بها بطرس .

نهبوها . ثم واصل الجند سيرهم ، مجتازين الغابات لمدة سبعة ايام ، فوصلوا في الثالث من يوليه الى نيش ، وهناك بادر بطرس بأن بعث الى نكيتاس يطلب منه المؤن لجنده [1] .

وأخطر نكيتاس القسطنطينية بقدوم بطرس ، وأخذ ينتظر وصول الموظفين والحرس العسكري ، اللازمين لحراسة جنود الغرب الى القسطنطينية . فتوفر له في نيش حامية كبيرة ، وعززها هو بما جنده محلياً من البجناك والمجريين المأجورين [2] . غير أن نكيتاس لم يكن في غنى عن احد من جنوده لمرافقة بطرس وحراسته ، إلا بعد أن يلتقي بالجنود القادمين من القسطنطينية . على أنه من ناحية اخرى ، يعتبر من الأمور الخطيرة ، والتي

---

(١) انظر : Albert of Aix I . 9 . p. 278 .
Hagenmeyer ; Chronologie pp. 30, - 31 .

(٢) التقت قوة الحراسة التي جاءت من القسطنطينية ببطرس في صوفية، في ٩ — ١٠ يوليه، بعد أن اجتازت في سفرها ٤٠٠ ميل . ومع ذلك فالراجح أنها كانت من الخيالة ، ولا بد أنها أسرعت في سيرها ، ولا بد أنها غادرت العاصمة قبل أن يصل الى البلاط البيزنطي، الرسول الذي أنفذه نكيتاس من نيش ، عقب وصول بطرس اليها في ٣ يوليه ووفقاً لما أورده :
Jirecek : Die Heerstrasse von Belgradenach Constantinople p. 9 .
كان التتار الذين يتولون نقل البريد النمساوي في اوائل القرن التاسع عشر ، يجتازون الطريق في خمسة ايام ، اذا ساروا بأقصى سرعة ، واستخدموا محطات البريد ، وتزيد المسافة على ٦٥٠ ميلاً . على ان الطرق البيزنطية كانت اصلح من الطرق العثمانية . غير أن المحطات لم تنل حظا كبيراً من التنظيم . وفي وسع الرسول الخاص وقتذاك ان يجتاز المسافة بين نيش والقسطنطينية في او ٦ ايام . ولذا لا بد ان نكيتاس اخطر القسطنطينية بقدوم بطرس قبل أن يجتاز الحدود فعلاً . أما نكيتاس الذي ورد في المصادر الغربية باسم Nichita ، فقد عرفنا اسمه من ختم له ، اورده شلمبرجر في كتابه عن أختام الامبراطورية البيزنطية .
Schlumberger : Sigillographie de l'Empire Byzantin p. 239 .
ولا ينبغي الخلط بينه وبين Leo Nicerites ، دوق بارستريوم Paristrium ، مثلما فعل شالاندون الذي جعلهما شخصاً واحداً . انظر :
Chalandon : Essai sur le Regne d'Alexis Comnene p. 167 note 4 .

لم تكن عمليـــة ، أن يتهيأ لجيش بالغ الضخامة ، البقاء في نيش زمناً طويلاً . ولذا تقرر مطالبة بطرس بأن يقدم الرهائن ، حتى يتم جمع مـا يلزم لرجاله من المؤن ، ثم يبادر بالمضي في سيره .

وسارت الأمور اولاً على وجه مُرضٍ ، فتقرر تسليم جفري بورل ووليم بريتيل على أنهما من الرهائن . ولم يكتف السكان في نيش بأن يسمحوا للصليبيين بأن يصيبوا ما احتـاجوا اليه من المؤن ، بل بذلوا الاحسان والصدقات للحجاج الفقراء ، بـل إن بعضهم طلبوا الانضمام الى الحجاج .

وفي صبيحة اليوم التالي ، استأنف الصليبيون سيرهم الى مدينة صوفية ، وبينما هم يغادرون المدينة ، عمـدت طائفة من الألمان الى اشعال الحرائق ببعض الطواحين المقامة على النهر ، وكانوا في الليلة السابقة أثاروا شجاراً عنيفاً مع احد سكان المدينة . ولما سمع نكيتاس بهذا الخبر ، أرسل الجنود فهـاجموا مؤخرة الجيش الصليبي ، فوقع في أيديهم بعض الأسرى ، الذين اتخذهم نكيتاس رهائن . أما بطرس الذي كان يمتطي حمـاره ، فقد سبق الجيش الصليبي وقتذاك بنحو ميل ، ولم يعلم شيئاً عما حدث ، إلا بعد أن أسرع اليه من المؤخرة ، رجل اسمه لاميرت ، فأخبره بما وقع . فأسرع بطرس الى المؤخرة ، حيث اجتمع بنكيتاس ، ليتفق معه على افتــداء الأسرى . وبينما كانا مجتمعين ، ترددت بين الجيش الشائعات عن وقوع القتال والخيانة . وعندئذ انطلقت جماعة من المتهورين ، فهاجمت أسوار المدينة ، فردتهم حاميتها على أعقـابهم ، وقامت بهجوم مضاد . وبينما كان بطرس يحاول الاتصال بنكيتاس لكبح جمـاح الجند ، أصرت طائفة اخرى على القيام بهجوم جديد . فأطلق نكيتاس لجنوده العنان لمهاجمة الجند الصليبي ، فأنزلوا بهم هزيمة ساحقة ، وتفرقوا في سائر الجهات ، ولقي عدد كبير منهم مصرعهم ، ووقع في الأسر كثيرون من الرجال والنساء والاطفال ؛ فأمضوا ما تبقى من حياتهم في الأسر في الجهات المجاورة . ومن الأشياء

التي ضاعت أثناء القتال ، ما كان لبطرس من خزانة المال . وفرّ الى الجبال كل من بطرس ، ورينالد برايس ووالتر بريتيل ، مع نحو خمسمائة رجـل ، بعد أن اعتقدوا أنه لم ينج من القتل احد سواهم . غير أنه لحق بهم في اليوم التالي سبعة آلاف آخرون من الرجال ، فمضوا في طريقهم . وعنـد مدينة بيلا بلانكا ، التي هجرها سكانها ، توقف بطرس ورجاله ، كيا يجمعوا محاصيل هذه الجهة ، نظراً لنفاذ مؤنهم . وانحاز اليهم عدد كبير من قطاع الطرق . ولمـا واصلوا السير ، تبين أنهم فقدوا ربـع [١] جماعتهم . ثم بلغ الصليبيون صوفية في ١٢ يوليـه ، وعندها التقوا بالرسل والحرس ، الذين قدموا من القسطنطينية ، يحملون من الأوامر ما يقضي بتوفير المؤن لهم ، مع مراعاة عدم اقامتهم في موضع واحد اكثر من ثلاثة ايام . ومنذئذ ، مضت الرحلة في هدوء وسلام ، اذ اظهر السكان المحليون لهم الود والصداقة . وفي فيليبوبوليس ، بلغ التأثر من البيزنطيين ، عند سماع اخبار ما تعرضوا له من العذاب ، انهم بـذلوا لهم الأموال والخيول والبغــال عن طيب خاطر . وبعد يومين قدمت رسل اخرى من قبل الأمبراطور البيزنطي ، لتؤدي التحية لبطرس ، خارج مدينة أدرنة ، وكان لا بد من العفو عن كل ما ارتكبته الحملة من جرائم ، بعد أن نزل بها العقاب الكافي . وبكى بطرس فرحاً لما اظهره الحاكم الكبير (الامبراطور) نحوهم من العطف ، ولمـــا أسداه لهم من المعروف [٢] .

وصول بطرس الى القسطنطينية :

على أن اهتمام الامبراطور بالصليبيين بعد وصولهم الى القسطنطينية في

---

(١) انظر : Albert of Aix I . 9 - 12 pp. 278 - 282 .
يشير المؤرخ البرت الى انه لم يبق من الجيش إلا ثلاثون الفاً ، بعد ان كان عدده ٤٠ الف .
(٢) انظر : Ibid I. 13 - 15 pp. 282 - 283.
Anna Comnena : Alexiad X . V - VI . vol . II p. 210 .

اول اوغسطس ، لم يقف عند ذلك ، اذ كان الامبراطور حريصاً على أن يلتقي بقائد الحملة . فتقررت دعوة بطرس للمثول امام الامبراطور بالبلاط ، حيث ظفر بالمـال ، وحظي بالنصائح الطيبة . وأدرك الامبراطور الكسيوس ، بما له من تجربة وخبرة ، أن هذا الجمع الصليبي ليس ممـــا يثير الخوف في القلوب ، وخشي أنه اذا عبر هذا الجمع الى آسيا الصغرى ، فسوف يدمره الأتراك المسلمون تدميراً سريعاً . غير أن ما ساد ذلك الجمع من قلة النظام والاضطراب ، دعا الامبراطور الى المبـادرة باجلائهم عن الجهات المجاورة للقسطنطينية ، نظراً لمـــا ارتكبه جنود الغرب من سرقات لا حد لها . إذ اقتحموا القصور والدور الواقعة في ضواحي العاصمة ، بل إنهم سرقوا الرصاص من سقوف الكنائس . ومع أن دخولهم الى مدينة القسطنطينية ، كان مقيداً كل التقييد بحيث لم يكن مسموحاً بدخولها إلا لجماعات صغيرة ، فإنه كان من المستحيل ، حراسة الضواحي المجاورة من تسلل كثير من الصليبيين .

قدم الى القسطنطينية والتر المفلس ، وفي الوقت ذاتـــه جاءت ايضاً جماعات أخرى من الحجاج الايطاليين ، فانحازوا جميعاً الى حملة بطرس . وفي ٦ اغسطس ، تم نقل كل قوات بطرس عبر البوسفور . ومن الشاطىء الأسيوي (للبوسفور) اتخذوا طريقهم ، دون أن يلتزموا النظام ، فصاروا ينهبون الدور والقصور الواقعة على امتداد شاطىء بحر مرمرة ، حتى نيقوميديا ، التي هجرها سكانها ، بعد أن نهبها الترك منذ ١٥ سنة . ووقع في هذا الموضع شجار بين الألمان والايطاليين من جهة ، وبين الفرنسيين من جهة اخرى ، فخرج الأولون على قيادة بطرس ، واختاروا رينالد الايطالي قائداً لهم . وعند نيقوميديا ، اتجه جزء من الجيش نحو الغرب ، على امتداد الشاطىء الجنوبي لخليج نيقوميديا ، الى معسكر حصين ، اسمه كيبوتس ، عند البيزنطيين ، او كيفيتوت عنـد الصليبيين ، بعد أن أعده الكسيوس ليستخدمه جنده المرتزقة من الانجليز ، وذلك في ضواحي Helenopolis .

والواقع أن هذا الموقع كان ملائماً لقيام معسكر به ، نظراً لخصوبة المنطقة ولسهولة ما يجلب اليه من المؤن بحراً من القسطنطينية (١) .

غارات الصليبيين :

اقترح الامبراطور الكسيوس ، على بطرس أن ينتظر قدوم الجيش الصليبي الرئيسي ، قبل أن يحاول شن الهجوم على المسلمين ، وتأثر بطرس بنصيحته غير أن سلطته أخذت في الأفول اذ أن جموع الألمان والايطاليين بقيادة رينالد ، وكذلك الفرنسيين ، صارت تتسابق وتتنافس على الإغارة على الأراضي الزراعية ، وذلك بدلاً من الإخلاد الى السكينة لاستعادة قوتهم وصحتهم ، وكان جفري بورل هو صاحب النفوذ الاكبر على الفرنسيين . فبادروا اول الامر الى الإغارة على القرى ، ثم أخذ الصليبيون يزحفون في حذر على الأراضي التي بأيدي الترك المسلمين ، فقاموا بالغارة عليها ، وسلب سكان القرى ، وكلهم من البيزنطيين المسيحيين . وفي منتصف سبتمبر ، أوغل بضعة ألوف من الفرنسيين في المغامرة حتى بلغوا أبواب مدينة نيقية ، عاصمة السلطان السلجوقي قلج أرسلان بن سليمان ، فنهبوا القرى بالضواحي واستاقوا ما صادفوه من الماشية والأغنام ، وقتلوا السكان المسيحيين في

---

(١) انظر : Albert of Aix I . 15 pp. 283 - 284 .
Gesta Francorum 1, 2 p. 6 .
انظر : Anna Comnena loc . cit
لوصف السلوك الخشن للعساكر :
Orderic Vitalis IX . 5 vol . 5 . vol I, pp. 490 491.
ويشير فيتاليس الى ما أعده الكسيوس من معسكر في كيفيتوت ، ليكون مقراً لحرمه من الانجليز.
انظر : Vasilievsky (Works in Russian) . vol . I pp. 393 - 394 .
عن التواريخ انظر Hagenmeyer في كتابه : Chronologia p. 12 .

وحشية بشعة . وجرى القول أنهم قاموا بشفاء الأطفال على السفافيد . وخرجت من المدينة ، سرية من الجيش التركي لقتالهم ، غير أنها ارتدت على أعقابها بعد قتال عنيف . ثم عـاد الصليبيون الى كيفيتوت ، حيث باعوا ما غنموه الى رفاقهم ، والى البحارة البيزنطيين الذين كانوا بالقرب من المعسكر .

وما احرزه الفرنسيون في غاراتهم من غنيمـة مثمرة ، أثارت حسد الألمان . ففي اواخر سبتمبر خرج رينالد في جماعة من الألمان يبلغ عددهم ستة آلاف رجل ، بينهم عدد من القسس والأساقفة ، وتجاوزوا في سيرهم مدينة نيقية ، فأخـذوا ينهبون أينما ساروا ، غير أنهم كانوا أرفق من الفرنسيين ، فلم يقدموا مثلما أقدم الفرنسيون على قتل المسيحيين ، ومضوا في سيرهم حتى بلغوا قلعة اكسيريجوردون ، فعالجوا أمر فتحها ، ولما تبين لهم أنها زاخرة بالمؤن من جميع الأنواع ، قرروا اتخاذها مركزاً ، يغيرون منه على الأراضي الزراعية المجاورة . ولما علم السلطان السلجوقي بأعمـال الصليبيين ، ارسل احد كبار القادة العسكريين على رأس جيش كثيف لاسترداد القلعة . وتقع قلعة اكسيريجوردون على تل ، وتستمد ماءها من بئر خارج الأسوار ، ومن نبع بالوادي الذي يجري تحتها . واستطاع الجيش التركي ، الذي وصل الى القلعـة في عيد القديس ميخائيل ، ٢٩ سبتمبر ، أن ينزل الهزيمة بكمين أعدّه رينالد . واشتد تطويق الألمان بداخل القلعة ، باستيلاء الترك على النبع والبئر ، ولم يلبث المحاصرون الألمـان أن استبد بهم اليأس ، بعـد أن كادوا يهلكون عطشاً . فحاولوا أن يطفئوا ظمأهم بامتصاص الرطوبة من الارض ، وبمـا لجأوا اليه من شق عروق خيولهم وحميرهم ، ليشربوا دماءها ، بـل إن كلا منهم كان يشرب بول الآخر . وحاول القسس عبثاً أن يبثوا فيهم الطمأنينة والشجاعة . وقرر رينالد أن يستسلم بعد أن استبد به الكرب ثمانية ايام . ففتح الأبواب للعدو ، بعـد أن حصل على وعد منهم بالابقاء على حياته ، اذا تخلى عن المسيحية . وكل

من بقي وفياً لدينه ، لقي مصرعه . وتقرر إرسال رينالد وأصحابه الأسرى الذين اعتنقوا الاسلام ، الى انطاكية وحلب ، وإلى خراسان ايضاً .

كارثة كيفيتوت :

وبلغت أنباء استيلاء الألمان على اكسيريجوردرن ، المعسكر المقام في كيفيتوت ، وذلـــك في اوائل اكتوبر . وتلى ذلك ما أذاعه جاسوسان تركيان من شائعة ، بأنهم استولوا على نيقية ذاتها ، وأنهم اخذوا يقتسمون الغنيمة فيما بينهم وأدى ذلـــك ، كما توقع الترك المسلمون ، الى اشتداد الاضطراب في المعسكر . إذ طالب العساكر بالسماح لهم بالاسراع الى نيقيــة ، وذلـــك على امتداد طرق ملأها السلطان بكمائنه . ولم يكن بوسع القادة كبح جماحهم ، الى أن جرى فجأة اكتشاف صدق ما حاق بحملة رينالد من مصير . فتحولت الإثارة الى ذعر ، واجتمع قـادة الجيش للتشاور فيما يفعلونه بعد ذلك . كان بطرس قـد ذهب الى القسطنطينية ولم يعد له سلطان على الجيش . كان يأمل في أن يسترد هـذه السلطة ، بعد أن يحصل على معونة مادية هامة من قبل الامبراطور . واشتدت ثائرة الجيش وحماسه للمضي للانتقام لما وقع في اكسيريجوردون . غير أن والتر المفلس ، حثّ زملاءه على أن ينتظروا قدوم بطرس ، الذي سوف يعود خلال ثمانية ايام . غير أن بطرس لم يعد . وفي تلك الأثناء شاع أن الترك أخذوا يقتربون بجيوشهم من كيفيتوت ، فاجتمع مجلس الحرب مرة اخرى . وأصرّ كبار قادة الجيش من الفرنسيين ، أمثال والتر المفلس ورينالد برايس ووالتر بريتيل ، وفولك أورليان ، ومن الألمان أمثال هيو توبنجن ووالتر تيك ، على ألا يجري شيء إلا بعد وصول بطرس . على أن جفري بوريل ، يسانده الرأي العام في الجيش ، أصر على أنه من الجبن والحماقة ألا يزحف الجيش للقاء العدو ، فاتخذ قراره . اذ حدث عند بزوغ الفجر من يوم ٢١ اكتوبر ، أن تحرك من كيفيتوت الجيش الصليبي بأكمله ، وعدته تزيد على

٢٠ الف رجل ، ولم يتركوا خلفهم سوى الشيوخ والنساء والاطفال والمرضى .

وعلى مسافة ثلاثة اميال من المعسكر ، حيث اتجه الطريق المؤدي الى نيقية ، الى وادي ضيق زاخر بالغابات ، وعند قرية اسمها دراكون ، نصب الترك كميناً . سار الصليبيون دون أن يلتزموا النظام ، واشتدت جلبتهم وضوضاؤهم ، وسار الفرسان في المقدمة ، فانهال عليهم سيل من السهام فجأة من الغابة ، فأصابت خيولهم او قتلتها . ولما سادت بينهم الفوضى والاضطراب ، وسقط الفرسان عن ظهور الخيل ، هاجمهم الترك . على أن الخيّالة الذين طاردهم الترك ، استداروا للانقضاض على الرجالة ، واستبسل في القتال عدد كبير من الفرسان ، غير أنهم لم يستطيعوا وقف ما استبدّ بالجيش من الذعر . ولم تمض لحظات ، حتى اخذ كل الجيش في الهرب دون نظام ، الى كيفيتوت . واذ بدأت الأعمال اليومية تجري بالمعسكر ، ولا زال بعض الشيوخ نائمين في فراشهم ، وأخذ القسس هنا وهناك يؤدون صلاة الصباح ، انطلق الى وسط المعسكر ، جمع من الفارّين المذعورين ، يقتفي أثرهم المسلمون . لم تحدث مقاومة كبيرة ، ولقي كثير من العساكر ، والنساء والقسس مصرعهم ، قبل أن يتهيأ لهم الوقت للتحرك والسير . والتجأ فريق منهم الى الغابات المجاورة ، وهرع آخرون الى البحر ، ولم يفلت منهم إلا عدد قليل . وحاول فريق الدفاع عن أنفسهم فترة ، بما أشعلوه من النيران التي لفحتها الرياح الى وجوه الترك المسلمين . ولم ينج من القتل إلا الصبيان والفتيات ، الذين استهوى الترك منظرهم ، فضلاً عن بعض الاسرى الذين وقعوا في أيدي الترك ، بعد أن انتهت الشدة الاولى للقتال ، فجرى عليهم الرق . على أن ما يقرب من ثلاثة آلاف رجل كانوا احسن حظاً من الآخرين ، اذ نجحوا في الوصول الى قلعة عتيقة ، تقع على شاطىء البحر ، ولم يجر استخدامها زمناً طويلاً ، وتجردت من ابوابها ونوافذها . غير أن اللاجئين الذين استمدوا من اليأس قوة ، بادروا باقامة استحكامات من



القسطنطينية وضواحيها ونيقيه زمن
الحملة الصليبية الأولى

أشجار الغابات الواقعة حولهم ، وعززوها بالعظام ، فاستطاعوا بذلك أن يردوا هجمات المسلمين .

وصمدت القلعة ، غير أن كل شيء في سائر الجهات الاخرى كان قد انتهى في منتصف النهار . فملأت جثث القتلى الارض الواقعة بين ممر دراكون والبحر . وهلك من القادة والتر المفلس ، وريتالد برايس ، وفولك اورليان ، وهيو توبينجن ، ووالتر تيك ، وكنراد ، والبرت تسمرن ، ولم ينج من القادة إلا جفري بوريل ، الذي أدى تهوره الى وقوع هذه الكارثة ، ووالتر بريتيل ، ووليم بوامي ، وهنري شفارتزينبرج ، وفردريك تسمرن ، ورودلف برانديز ، وقد تعرضوا جميعاً لاصابات خطيرة .

وفي الغسق ، استطاع احد البيزنطيين ، وكان بصحبة الجيش ، أن يعثر على قارب فأقلع بـه الى القسطنطينية ، ليروي خبر المعركة الى كل من بطرس الناسك والامبراطور البيزنطي . لم يصلنا شيء يصف مشاعر بطرس عند سماعه هذا الخبر ، غير أن الكسيوس ، الامبراطوار البيزنطي ، بادر باصدار الامر بأن يقلع الى كيفيتوت عدد من السفن الحربية ، تقل قوات ضخمة . ولما قدمت الكتيبة البيزنطية ، رفع الترك الحصار عن القلعة ، وانسحبوا الى الداخل . ومن تبقى حياً من الرجال حملتهم السفن وعادت بهم الى القسطنطينية ، حيث جرى انزالهم بالضواحي ، بعد نزع الأسلحة منهم [1] .

---

(١) انظر : Albert of Aix I. 16 - 22 pp. 284 - 289.
Gesta Francorum 1, 2, pp. 6 - 12.

كلا المصدرين اورد بالتفصيل وصف ما قام به جيش بطرس من غارات ، والهزيمة التي حلت به . ويشير المؤرخ المجهول ، الذي لا بد انه استمد روايته من رجل بقي على قيد الحياة التقى به في القسطنطينية ، الى ان الكسيوس ظل على عدائه لبطرس ، على الرغم من اعترافه مرة اخرى .

هذه كانت خاتمة حملة الشعوب الصليبية ، لقد تكلفت ازهاق أرواح ألوف عديدة من الناس ، وقد استنفذت ما عند الامبراطور ورعاياه من الصبر ، وعلّمت الناس أن الايمان وحده لن يفتح الطريق الى بيت المقدس ، اذا تجرد من الحكمة والنظام .

= بأن سلوكهم كان سيئاً، وانهم أشعلوا النيران في الكنائس. اما رواية البرت فتنطوي على الاشادة بالامبراطور لما اشتهر به من السخاء ، ولما بذله من النصيحة ، ولمبادرته الى انقاذ الأحياء . ولم تورد أنه كومنين الا رواية مختصرة ، وجهت فيها اللوم الى الفرنج لسلوكهم السيء ، وقالت ان بطرس الناسك ، الذي ظنت خطأ انه كان مع الجيش ، ارجع الكارثة الى سوء سلوك الاشخاص الذين لم يبذلوا له الطاعة. وجاء بتاريخ تسمرن Chronologie of Zimmern قائمة بأسماء من هلك من الالمان في كيفيتوت . (انظر ص ٤٩ من هذا الكتاب) .

الفصل الثاني

الحملة الصليبية الألمانية

كراهية اليهود :

لم يتوقف الحماس الصليبي بألمانيا برحيل بطرس الناسك الى الشرق . إذ أنه خلف وراءه تلميذه جوتشالك ليحشد جيشاً آخر ، كما أن عدداً كبيراً من الدعاة والقادة أبدوا الاستعداد لأن يحتذوا حذوه . وعلى الرغم من أن آلافاً من الألمان استجابوا للدعوة ، فانهم لم يبلغوا ما بلغه الفرنسيون من الحرص على المبادرة الى المسير الى الارض المقدسة ، إذ كان لا بد لهم قبل الرحيل أن يؤدوا عملاً آخر في بلادهم .

والمعروف أن جاليات يهودية استقرت منذ قرون عديدة ، على امتداد الطرق التجارية في غرب اوربا ، وانتمى أفرادها الى اليهود السيفرديين Sephardic الذين انتشر أسلافهم من حوض البحر المتوسط أثناء العصور الوسطى . على أنهم ظلوا على اتصال مستمر باخوانهم في الدين ، في بيزنطة والبلاد العربية ، وبذا استطاعوا أن يقوموا بدور كبير في التجارة الدولية ، ولا سيما التجارة بين البلاد الاسلامية والبلاد المسيحية . وترتب على تحريم

الربا في البلاد المسيحية بالغرب ، وعلى اشتداد بيزنطة في الرقابة على الربا ، أن تهيأ لليهود مجال فسيح ، لإنشاء بيوت 'لية في أرجاء العالم المسيحي . وبفضل ما اشتهر بـه اليهود من المهارة الفنية ، وما كان لهم من تقاليد عريقة ، كفلت لهم التفوق ايضاً في ممارسة الطب ، ولم يتعرضوا في الغرب الاوربي ، لاضطهاد شديد ، إلا في اسبانيا منذ زمن طويل في ظل حكم القوط الغربيين . لم يكن لليهود حقوق مدنية ، غير أن السلطتين السياسية والدينية ، قامتا بحمايتهم ، نظراً ا ائدتهم للمجتمع . فالتمس صداقتهم دائماً ملكا انجلترا وفرنسا ، وخصَّهم بالعطف رؤساء أساقفة المدن الكبيرة ببلاد الراين . غير أن الفلاحين ، وفقراء المدن ، وهم الذين كثرت حاجتهم الى المـال ، كلما اخـذ الاقتصاد المبني على النقود يحل محل الاقتصاد المبني على الخدمات صاروا تدريجياً مدينين لليهود ، فاشتدت كراهيتهم لهم ، على حين أن اليهود برغم افتقارهم الى ما يكفله لهم القانون من الامن والطمأنينة ، تقاضوا اسعاراً مرتفعـة للأرباح ، وحققوا أرباحاً طائلة ، كلما استندوا الى عطف الحكم المحلي ورضاه .

ازدادت الكراهية لليهود أثناء القرن الحادي عشر ، كلما كثرت الفئات التي اخذت تقترض منهم الأموال ، وزادت تلك الكراهية حـدة ، بوادر الحركة الصليبية . والواضح أن الفارس الصليبي يتكلف نفقات باهظة لتجهيز نفسه للاشتراك في الحملة الصليبية ، فاذا لم يتوافر له من الارض والأملاك ما يرهنه ، فلا بد له أن يقترض المال من اليهود . غير أنه هل كان من الصواب ، أنه من اجل المضي للقتال في سبيل العالم المسيحي ، ينبغي للفرد أن يقع في قبضة فئة من النـاس ينتمون للعنصر الذي صلب المسيح ؟ اذ المعروف أن الصليبي الفقير كان فعلاً مديناً لليهود . غير أنـه هل من الصواب أن ما التزم به من دين لفرد ينتمي لعنصر أثيم ، يمنعه من تأدية واجبه الديني . حرصت الدعوة التبشيرية للحرب الصليبية على أن تؤكد أهمية بيت المقدس ، وهو البلد الذي شهد صلب المسيح ، على قول المسيحيين ،

وبذا توجهت هذه الدعوة ضد اولئك القوم ، الذين كان على ايديهم صلب المسيح . والمعروف أن المسلمين كانوا هم العدو القائم بالبلاد ، لأنهم كانوا يضطهدون أتباع المسيح بالبلاد ، غير أن اليهود كانوا أشد عداء ونكراً ، لأنهم هم الذين اضطهدوا المسيح نفسه [١] .

ففي الحروب الاسبانية ضد المسلمين ، ظهر عند الجيوش المسيحية ، نزوع الى أن يسيئوا معاملة اليهود . وكتب البابا اسكندر الثاني ، عند انفاذ الحملة الى بارباسترو Barbastro ، الى الاساقفة في اسبانيا يذكرهم بما بين المسلمين واليهود من اختلاف تام ، اذ اعتبر المسلمين ألد أعداء المسيحيين ، ولكن اليهود يعملون في خدمة المسلمين . على أن اليهود في اسبانيا لقوا من العطف من المسلمين ، ما حمل الغزاة المسيحيين على ألا يثقوا فيهم [٢] .

وفي ديسمبر سنة ١٠٩٥ ، كتبت الجاليات اليهودية بشمال فرنسا الى اخوانهم بالمانيا ، ينذرونهم أنه من الراجح أن تسبب الحركة الصليبية بعض الضرر لهم [٣] . وأشارت بعض الروايات الى وقوع مذبحة في اليهود في مدينة روان ، وليس من الراجح أن هذه المذبحة حدثت فعلاً ، على أن اليهود كانوا من الرعب بحيث استطاع بطرس الناسك أن يعقد معهم صفقة ناجحة ، اذ اشار انه بدون هذه الصفقة ليس بوسعه أن يكبح جماح أتباعه . ولذا حصل من اليهود الفرنسيين على رسائل تقدمه الى

---

(١) عن اليهود في هذه الفترة انظر :
Graetz : Gesehichte der Juden vol . VI . pp. 89 - ff.

(٢) انظر : Letters in M. P. L. vol . CLXVI col . 1387.

(٣) Hagenmeyer : Chronologie p. 11 .
Anonymous of Mainz - Darmstadt , in Neubauer and Stern , Quellen zur Geschichte der Juden vol . II . p. 169 .

الجاليات اليهودية في انحاء اوربا ، للترحيب به وامداده هو وجيشه ، بكل ما يحتاج اليه من المؤن والزاد [١] .

وحوالي ذلك الوقت اخذ جودفري بويون ، دوق اللورين الأدنى يتجهز للمضي مع الحملة الصليبية . وترددت إشاعة بذلك الاقليم ، بأن جودفري نذر قبل رحيله ، أنه سوف ينتقم لموت المسيح ، باهدار دم اليهود . وإذ استبد الرعب باليهود في بلاد الراين ، حرضوا كالونيموس Kalonymos ، كبير ربابنة اليهود في ماينز ، على ان يكتب للامبراطور هنري الرابع ، باعتباره السيد الأعلى لجودفري بويون ، وهو الذي أظهر دائماً صداقته لليهود ، يحثه على ان يمنع ما قد يجريه جودفري من اضطهاد . وفي نفس الوقت ، ورغبة من اليهود في التزام الجانب السلم ، عرضت كل من جاليتي ماينز وكلونيا ، على أن تدفع كل منهما للدوق خمسمائة قطعة من الفضة . فكتب الامبراطور هنري الرابع الى كبار اتباعه ، من العلمانيين والكنسيين ، يأمرهم بأن يكفلوا الامن والسلام لكل اليهود في بلادهم . واذ نجح جودفري فيما أثاره من التشهير باليهود ، رد على هنري الرابع بأن الاضطهاد أبعد ما يطرأ على تفكيره ، وبذل عن طيب خاطر ما هو مطلوب من الضمان [٢] .

على أنه اذا كان اليهود يأملون في الإفلات من خطر الحماس المسيحي ،

---

(١) Salomon bar Simeon, Relation, in Neubauer and Stern op. cit. pp. 25 , 131 .
The Notitiae Duae Lemovicenses de Praedicatione Crucis in Aquitania p. 351 .
(في المرجع الأخير اشارات الى وقوع مذابح في مدن فرنسية عديدة) .

(٢) انظر : Salomon bar Simeon p. 87 .
Ekkehard : Chronicon, ad . ann . 1098 , p. 208 .

بما بذلوه من ثمن ، لم يلبث الخداع ان انكشف لهم . ففي نهـــاية أبريل ١٠٩٦ ، خرج من بلاد الراين ، فولكمار ، الذي لم نعرف شيئاً عن اصله ، يقود ما يزيد على عشرة آلاف رجل ، للحاق ببطرس الناسك في الشرق . سلك فولكمار الطريق الذي يجتـــاز بوهيميا ، ويؤدي الى المجر [١] . ولم تنقض ايام ، حتى ارتحل جوتشالك ، وهو من قدامى أتباع بطرس ، على رأس جيش كبير نسبياً ، واتخــذ الطريق الرئيسي الذي سلكه بطرس ، على امتداد الراين وعبر بافاريا [٢] . وفي تلك الأثناء احتشد جيش ثالث ، بقيادة سيد اقطاعي صغير من سادة بلاد الراين ، وهو اميخ كونت لايزنجن ، الذي حـــاز شهرة في الخروج على القانون واللصوصية . وزعم إميخ أن ببدنه صليباً من صنع الكرامات والمعجزات . وبفضل ما اشتهر به ايضاً من الخبرة ، جذب إميخ الى لوائه من الجندين ما يزيد اختلافاً في أنواعهم على سائر من خضع لقيادة فولكمار وجوتشالك . اذ انحاز اليه عدد كبير من الحجاج الذين غلبت عليهم الحماسة الساذجة . فاعتقد بعضهم أنهم يقتفون إثر الأوزة التي تلقت الوحي من الرب . غير أن جيش إميخ شمل ايضاً عدداً من النبلاء الفرنسيين والألمان، امثال أميري زفايبروكن ، وهما سالم ، وفيرتنبرجر ، وهارتمن امير ديللنجن ، ودروجو أمير نسل ، وكلارامبالد صاحب فندي ، وتوماس امير لافير ، ووليم فيكونت ميلون ، الملقب بالنجار ، لمـا اشتهر به من قوة بدنية شديدة [٣] .

---

(١) Ekkehard : Hierosolymita p. 20 .
Cosmas of Prague , Chronicon III . 4 . p. 103 .

(٢) انظر : Albert of Aix I. 23 pp. 289 - 290 .
Ekkehard : op. cit . p. 20 .

(٣) انظر : Albert of Aix I, 27 , 28 pp. 292 - 294, 30 p. 295 - 31 p. 299.
Ekkehard : op. cit . pp. 20 - 21 .

المذابح الاولى :

لعل بطرس وجودفري ، هما النموذج الذي اوحى للسيد إميخ ، أنه من اليسير الافادة من الحماس الديني ، لتحقيق ارباح شخصية لنفسه ولأتباعه . اذ تجـــاهل ما اصدره الامبراطور هنري الرابع من اوامر خاصة عن معاملة اليهود ، وحرض اتباعه على ان يبدأوا الحرب الصليبية في ٣ مايو ، بشن هجوم على الجالية اليهودية في اشبير القريبة من موطنه . غير ان هذا الهجوم لم يكن شديد الأثر ، اذ ان اسقف اشبير ، لم يلبث أن بذل الحماية لليهود ، الذين ظفروا بعطفه ، بمـا قدموه له من هدية سنية . فلم يقع في قبضة الصليبيين إلا اثني عشر شخصاً ، لقوا مصرعهم ، بعـد ان رفضوا اعتناق المسيحية . وانتحرت سيدة يهودية في سبيل المحافظة على عفتها . وأنقذ الاسقف بقيتهم ، بل إنه حرص على أن يقبض على جماعـــة من السفاكين الصليبيين ، فأمر بقطع ايديهم ، جزاء لما اقترفت من الجرائم [١] .

وعلى الرغم من أن مذبحة اشبير كانت صغيرة ، فانهـا اثارت شهية الصليبيين . ففي ١٨ مايو ، وصل الى فورمز ، اميخ وجنـده ، ولم تلبث الشائعة ان ترددت وذاعت ، بأن اليهود خطفوا احد المسيحيين ، وأغرقوه في الماء ، واستخدموا الماء الذي جعلوا فيـه جثته ، لتسميم آبار المدينة . ولم يكن اليهود موضع محبة في فورمز والقرى المجاورة لها ، فترتب على هذه الشائعة ، ان انحاز الفلاحون وسكان المدينة الى جيش اميخ واشتركوا في شن الهجمات على الحي اليهودي . ولقي كل يهودي وقـع في أيديهم

---

(١) انظر : Salomon bar Simeon : Eliezer bar Nathan and Anonymous of Mainz - Darmstadt in Neubauer and Stern op. cit . vol II . p. 84 , 154 - 156 , 171 .
Bernold , Chronicon p. 465 .

مصرعه . وهنا حدث مثلما حدث في اشبير ، اذ تدخل الاسقف وفتح قصره للاجئين من اليهود ، غير ان إميخ وجموعه الغاضبة ، لم يلبثوا ان اقتحموا ابواب القصر ، ونفذوا الى الحرم المقدس . وعلى الرغم من احتجاجات الاسقف ، ذبحوا كل ضيوفه ، الذين بلغ عددهم نحو ٥٠٠ شخص (١) .

مذابح ماينز وكولونيا :

وقعت مذبحة فورمز في ٢٠ مايو . وفي ٢٥ مايو كذلك ، بلغ إميخ مدينة ماينز الكبيرة ، فألفى الابواب مغلقة في وجهه ، بأمر روثارد رئيس الاساقفة . على ان أنباء قدومه أثارت بداخل المدينة ثورات ومظاهرات صاخبة معادية لليهود ، وفي اثنائها لقي احد المسيحيين مصرعه . وفي ٢٦ مايو فتح له اصدقاؤه ابواب المدينة . وأرسل اليهود الذين اجتمعوا بمعبدهم ، مائتي قطعة من الفضة ، لرئيس الاساقفة ، والى الحاكم العلماني للمدينة ، وطلبوا اليهما ان يقبلوهم لاجئين في قصريهما . وفي نفس الوقت ، توجه رسول يهودي الى إميخ ، يحمل اليه سبع قطع من الذهب ، وحصل منه على وعد بألا يتعرض بالاذى لليهود . غير ان هذا المال ذهب هباء ، اذ هجم إميخ في اليوم التالي على قصر رئيس الاساقفة . وارتاع روثارد ، رئيس الاساقفة لسلوك المهاجين ، فبادر بالهروب مع حاشيته وموظفيه . وعند رحيل روثارد اقتحم رجال إميخ الدار ، وحاول اليهود ان يقاوموا ، غير انهم لم يلبثوا ان غلبوا على امرهم ، ولقوا مصرعهم . ولعل رئيس

---

(١) انظر :
Salomon bar Simeon p. 84 .
Eliezer bar Nathan pp. 155 - 156 .
Anonymous of Mainz - Darmstadt p. 172 .

المدينة العلماني ، الذي تولى حماية اليهود والذي لم يتخلد اسمه ، كان أشجع من رئيس الاساقفة . على ان إميخ نجح في إشعال الحرائق في داره ، وأجبر سكان القصر على مغادرته . ونجا كثير من اليهود ، بعد ان ارتدوا عن دينهم ، ومن تبقى منهم لقي مصرعه . استمرت المذبحة ما يزيد على يومين ، على حين تمّ تطويق اللاجئين . وأظهر احد المرتدين من اليهود الندم على استكانته وضعفه ، فانتحر ، وأشعل احدهم النار في المعبد حتى لا يصيبه الدنس ، قبل ان يجهز على أسرته ويقتل نفسه . أما كالونيموس ، رئيس الربانيين ، فانه هرب مع خمسين من رفاقه الى روديسهايم ، والتمسوا المأوى من رئيس الاساقفة ، الذي كان يقيم وقتذاك في داره الريفية . ولما تبين لرئيس الاساقفة ما استبد بزائريه من الخوف والرعب ، اغتنم هذه الفرصة ، وحاول ان يحملهم على التحول الى المسيحية . غير أن كالونيموس رأى في ذلك امراً يتجاوز طاقته واحتماله ، فاختطف سكيناً ووثب على مضيفه ، غير أنه نكص على عقبيه ، وكلفته ثائرته حياته ، فضلاً عن حياة رفاقه . وهلك في هذه المذبحة نحو ألفين من اليهود [1] .

وفي كولونيا ، قرر اميخ أن عمله انتهى ببلاد الراين ، اذ استأنف المسير في اوائل يونيه مع معظم جيوشه ، واتخذ طريق الراين متجهاً نحو بلاد المجر . غير ان جانباً كبيراً من جيشه وأتباعه رأوا ان لا بد ايضاً من تطهير وادي الموزيل من اليهود ، فانفصلوا عن جيشه في ماينز . ففي اول يونيه بلغوا تريبه ، التي حدث بها ايضاً ان لجأ اليهود الى رئيس

(١) انظر : Salomon bar Simeon pp. 87 - 91 .
Eliezer bar Nathan pp. 157 - 158 .
Anonymous of Nathan - Darmstadt pp. 178 - 180 .
Albert of Aix I , 27 pp. 292 , 293 .
(جعل البرت ، مذبحة ماينز بعد مذبحة كولونيا) .

الاساقفة ، واتخذوا من داره ملاذاً . وحينا اقترب الصليبيون ، بلغ الخوف والرعب من بعض اليهود ان اخذوا يقتلون بعضهم بعضاً ، بينا ألقى فريق منهم بنفسه في النهر ، ومات غرقاً . وعندئـذ تحرك المضطهدون لهم الى متز ، حيث هلك ٢٢ يهودياً . وحوالي منتصف يونيه ، عادت هذه الشرذمة الى كولونيا ، وكانوا يأملون في أن يعودوا الى صفوف جيش اميخ ، غير أنهم لما عرفوا انه ارتحـــل ، زحفوا في محاذاة الراين ، وظلوا في الفترة الواقعة بين ٢٤ – ٢٧ يونيه يقتلون اليهود في نويس وفيفلنجهوفن ، وإيللر ، وزانتن ، ثم تفرقوا ، فعـــاد بعضهم الى بلادهم ، اما بقيتهم فالراجح أنهم اندمجوا في جيش جودفري بويون [١] .

ووصلت أنباء ما قام به إميخ من اعمال ، الى الجماعات الصليبية التي غادرت ألمانيا متوجهة الى الشرق . إذ ان فولكمار وأتباعه وصلوا في آخر مايو الى براغ ، وفي ٣ يونيه اخذوا يجهزون على اليهود بهذه المدينة . ولم تستطع السلطات المدنية بها ان تكبح جماحهم ، ولم يستمع احد للاحتجاجات العنيفة من قِبل الاسقف كوزماس . ومن براغ توجه فولكمار الى بـلاد المجر ، والراجح انه حاول ان يقوم بعمل مماثل في نيترا ، وهي اول المدن الكبيرة الواقعة على الحدود . غير ان المجريين لم يسمحوا بمثل هـــذا السلوك ، فهاجموا الصليبيين وشتتوا شملهم ، بعد أن ادركوا أنهم لا ينصاعون لأوامرهم ، بل ركبوا رؤوسهم . ولذا لقي كثير من الصليبيين مصرعهم ، ووقع في الأسر عدد كبير منهم . وما حدث لمن بقي منهم ، ولفولكمار ذاته ، لا نعلم عنه شيئاً [٢] .

---

(١) انظر : Salomon bar Simeon pp. 117 - 137 .
Eliezer bar Nathan pp. 160 - 168 .

(٢) انظر : Cosmas of Pragne , loc. cit -

اما جوتشاك ورجاله ، فانهم بعـــد ان اتخذوا طريقهم عبر بافاريا ، توقفوا عند راتيزبون ، وأحدثوا مذبحة في اليهود ، وبعـد أيام قليلة نفذوا الى بلاد المجر عند فيسلبرج (موسون) ، وأصدر ملك المجر ، كولومان الأوامر ، بأن تتهيأ لهم كل الوسائل للحصول على المؤن ، طالمـا حسنت سيرتهم . غير أنهم اخـذوا منذ البداية ينهبون القرى والاراضي ، فنهبوا النبيذ والقمح والأغنام والثيران . وقاوم الفلاحون المجريون هذه الأعمال التعسفية ، فنشب القتال بين الفريقين ، ولقي كثير مصرعهم ، ومنهم صبي مات متأثراً بمـا نصبه له الصليبيون من خازوق خشبي . وهنا استدعى كولومان الجنود لضبط الصليبين ، فطوّقهم في قرية اشتوهلفيسنبرج ، التي تقع الى الشرق على مسافة غير بعيـــدة ، واضطر الصليبيون الى تسليم أسلحتهم وكل ما سلبوه من سلع . غير ان القلق والاضطراب ظل مستمراً . والراجح أنهم حاولوا ان يبدوا بعض المقاومة ، والراجح ايضاً أن كولومان سمع وقتذاك بما وقع في نيترا من الاحداث ، فلم يثق فيهم بعد تجريدهم من السلاح . واذ صـار الصليبيون تحت رحمـة الجيش المجري ، انقض عليهم كولومان وهم نيام . فكان جوتشالك اول من لاذ بالفرار ، غير أنه لم يلبث ان وقع اسيراً ، وهلك كل رجاله في المذبحة [1] .

خاتمة حملة اميخ :

وبعـد بضعة اسابيع ، اقترب جيش اميخ من الحدود المجرية ، وكان جيشه اضخم من جيش جوتشالك وأقوى مراساً . واشتد خوف الملـك كولومان بعد تجاربه الاخيرة . فلما ارسل اميخ يستأذنه في اجتياز مملكته رفض طلبه ، وبعث بجنوده لحماية الجسر القائم على فرع الدانوب ، والذي

---

(١) انظر : Ekkehard : op . cit pp. 20 - 21 .
Albert of Aix I, 23 - 24 pp. 289 - 291 .

يؤدي الى فيسلبرج . غير ان ذلك لم يثن اميخ عن عزمه ، فظل رجاله نحو ستة أسابيع يقاتلون المجريين ، في سلسلة مناوشات امام الجسر ، على حين انهم شرعوا في اقامة جسر آخر على النهر ليستخدموه في عبور النهر . واستطاع الصليبيون آخر الامر ان يشقوا طريقهم عبر الجسر الذي اقاموه لأنفسهم ، وألقوا الحصار على حصن فيسلبرج . وبفضل ضخامة الجيش الصليبي ، وما كان لأدوات الحصار من قوة ، أضحى سقوط المدينة في أيديهم قريب الوقوع . غير ان ما شاع من قدوم ملك المجر ، أثار خوف الصليبيين وفزعهم ، فوقع الاضطراب في صفوفهم . واستطاعت الحامية المجرية ان تخرج من الحصن ، وان تنقض على معسكر الصليبيين . ولم يستطع اميخ ان يجمع اليه جنوه ورجاله . فحلت بهم هزيمة ساحقة بعد معركة لم تستمر طويلاً . ولقي معظم العساكر مصرعهم بساحة القتال . غير أن اميخ وفئة قليلة من الفرسان استطاعوا ان يفلتوا بفضل سرعة خيولهم . فانسحب اميخ ورفاقه الألمان الى بلادهم ، اما الفرسان الفرنسيون ، فلحقوا بالحملات المتوجهة الى فلسطين (١) .

وكان لما اصاب حملة اميخ الصليبية من الانهيار ، بعد هزيمة حملتي فولكمار وجوتشالك ، تأثير سيء في غرب اوربا . اذ رأى فيها معظم المسيحيين الاتقياء ، عقاباً صبه الله على الذين قتلوا اليهود . أما الذين اعتبروا الحركة الصليبية من الحماقات والاخطاء ، فانهم رأوا في هذه الكوارث ، دليلاً على أن الرب انكر الحركة كلها . ولم يتحقق حتى وقتذاك ما يبرر ما تردد صداه في كليرمونت « هكذا اراد الله (٢) » .

---

(١) انظر : Ekkehard : op. cit loc . cit .
Albert of Aix 1, 28 . 29 pp. 293 - 295 .

(٢) انظر : Albert of Aix 1, 29 p. 295 .
Ekkehard : Hierosolymita p. 21 .
يشير الى ان كثرة من الناس تعتبر فكرة الحروب الصليبية من الحماقات ولا جدوى منها .

الفصل الثالث

الامراء والامبراطور

الواقع ان امراء الغرب الذين اتخذوا الصليب ، كانوا اقــل قلقاً من بطرس الناسك ورفاقــه . اذ أبدوا استعدادهم لأن يلتزموا بالموعد الذي حدده البابا . فكان لا بــد ان تحتشد جنودهم ، وأن يتجهزوا بأدوات الحرب ، ولا بــد ان يجمعوا من المال ما يلزم لتحقيق غرضهم ، ويتحتم عليهم ان يرتبوا امر الحكومة التي تتولى شئون بلادهم ، أثناء غيابهم الذي قــد يستمر سنوات . ولم يكن احد منهم مستعداً للرحيل قبل نهــاية اغسطس .

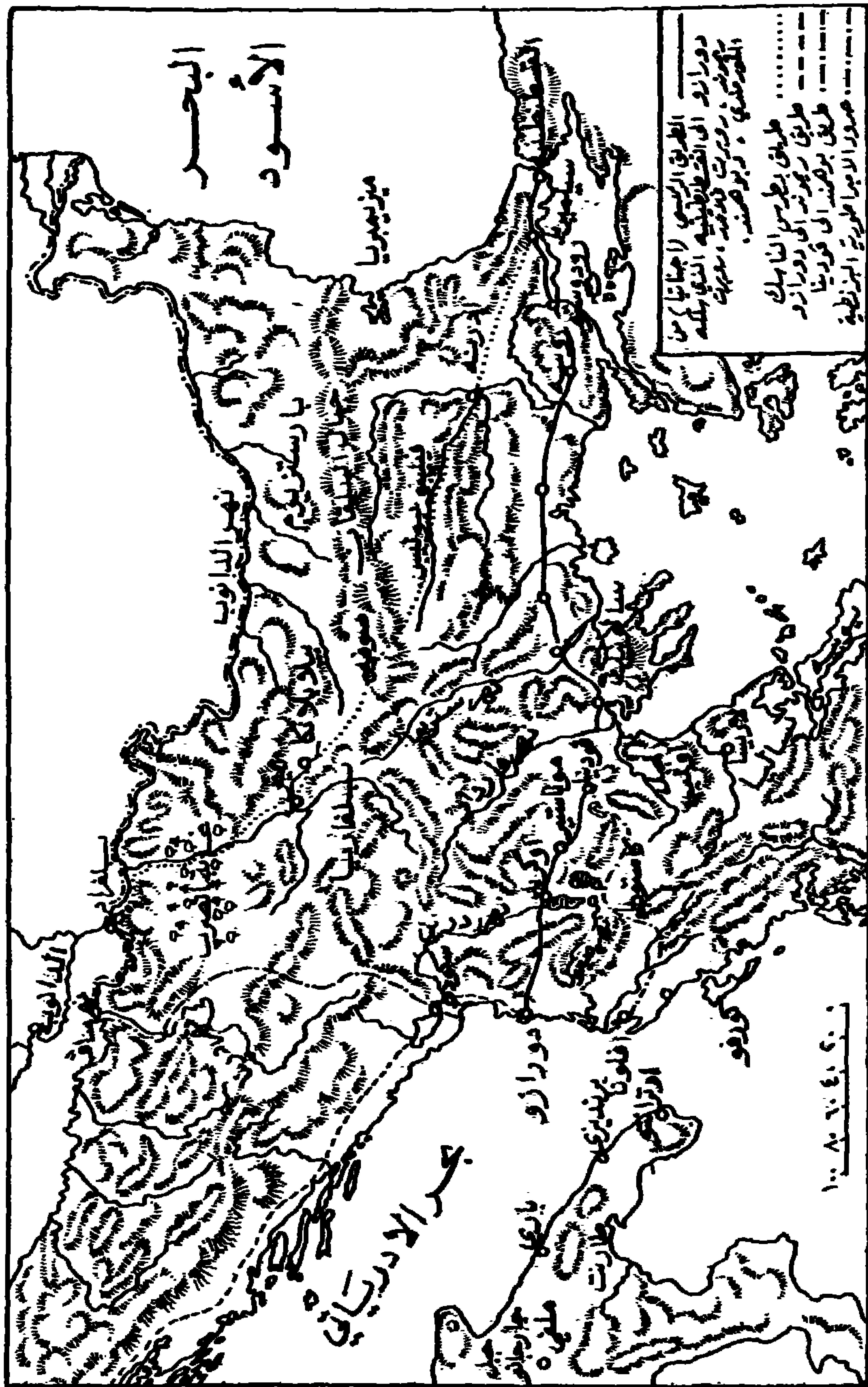
واول من ارتحل من بلاده ، هيو كونت فرماندوا المعروف بالصغير ، وهو لقب فسّره المؤرخون اللاتين خطأ ، حتى في زمنه ، على أنــه الكبير . إذ أنه كان الابن الاصغر لهنري الاول ملك فرنسا من زوجته الاسكنديناوية الاصل ، آن اميرة كييف . ولم يتجاوز هيو وقتذاك الاربعين من عمره . كان له من المكانة والقدر ما يزيد على ما لديه من ثروة ، فلم يحز إمارته الصغيرة إلا بفضل الزواج من وريثة هذه الامارة . ولم يكن له دور هام في السياسة الفرنسية . كان هيو يعتز بنسبه ، غير أنه لم يكن

شديد الأثر فيما يقوم به من اعمال . وليس في وسعنا أن نشير الى الدوافع التي حملته على الاشتراك في الحملة الصليبية . ولا شك أنه ورث ما اشتهر بـــه اسلافه الاسكنديناويون من صفات القلق وعدم الاستقرار ، ولعله أحس أن في وسعه أن يحوز في الشرق من السلطة والأموال ، ما يلائم أصالة نسبه . والراجح أن اخاه الملك فيليب هو الذي شجعه على عزمه ، كيما يلتمس رضى البابوية عن اسرته . وبعد ان ترك هيو بلاده في رعاية الاميرة (الكونتيسة) ، ارتحل الى ايطاليا في اواخر اغسطس على رأس جيش صغير من اتباعه ، وبعض الفرسان من ضياع اخيه . على أنه أنفذ قبل رحيله رسولاً خاصاً الى القسطنطينية ، يطلب من الامبراطور أن يعدّ له من الاحتفال والتشاريف مــا يليق بأمير يجري في عروقه الدم الملكي . وفي اثناء مسيره صوب الجنوب ، انحاز اليــه دروجي صاحب نسْل ، وكلارمبالد صاحب فانداي ووليم النجـــار ، وسائر الفرسان الفرنسيين الذين عادوا اخيراً من حملة اميخ بعد ان حلت بهـا الهزائم والكوارث [1] .

واجتاز هيو وأصحابه روما ، وبلغوا ثغر باري في اوائل اكتوبر . وفي جنوب ايطاليا شهدوا الامراء النرمنديين ، يتجهزون للحملة الصليبية . ولم يشأ وليم ، احد اقارب بوهمند ، ان ينتظر ، فعزم على ان يعبر البحر في صحبـــة هيو . ومن باري بعث هيو سفارة مؤلفة من ٢٤ فارساً ،

---

(١) Anna Comnene : Alexiad X. VII. I. vol. II. p. 213 .
Gesta Francorum p . 14 .
Fulcher of Chartres pp. 144 - 145 .
تشير أنه كومنين (X. VII. 3 p. 213) الى ان الكونت فرماندوا سار بحملته ، وأورد البرت (II. 7. p. 403) انه كان معه دروجو ، وكلارامبالد . وورد اسم هيو عند أنه على انه Uvos .



شبه جزيرة البلقان زمن الحملة الصليبية الأولى

برأسها وليم النجـــار ، اجتازت بحر الأدرياتي الى دورازو ، فأخطرت حاكمها بأن هيو على وشك الوصول ، وكررت طلبه بما ينبغي الاحتفال باستقباله . وبذا أضحى في وسع حاكم دورازو يوحنا كومنين ، أن يخطر الامبراطور البيزنطي بقرب قدوم هيو ، على حين استعد لاستقباله والترحيب به . غير أن قدوم هيو الفعلي لم يلق من الاحترام والتبجيل ما كان يأمله . إذ أن عاصفة حطمت الاسطول الصغير ، الذي استأجره ليجتاز به البحر . فغرقت بعض السفن بكل ما عليها من الركاب . أما هيو فدفعته الامواج الى الشاطىء عند رأس بالي على مسافة بضعة أميال ، الى الشمال من دورازو . وعثر رسل يوحنا كومنين ، على هيو وقد استبدت به الحيرة وتلطخت ملابسه بالوسخ والطين ، فصحبوه الى سيدهم حـــاكم دورازو ، فجهزه بعتاد جديد ، وقدم له المؤن وأولاه اهتماماً خاصاً ، غير أنه اشتد في مراقبته وملاحظته . وأظهر هيو الفرح والسرور ، لما لمسه من رعاية واهتمام ، غير أن بعض أتباعه رأوا أنه لم يكن برغم ذلك إلا أسيراً . اذ ظل في دورازو ، الى أن قدم من قِبل الامبراطور البيزنطي ، قائد البحر مانويل بوتومايتس ، كيما يصحبه الى القسطنطينية . ولم يصادف هيو في رحلته الى القسطنطينية متاعب او مشاق ، على الرغم من أنه التزم طريقاً ملتوياً يجتاز فيليبوبوليس ، لأن الامبراطور أراد أن يمنعه من الاتصال بالحجاج الايطاليين الذين اكتظ بهم الطريق الامبراطوري Via Egnatia . وفي القسطنطينية استقبله الكسيوس كومنين استقبالاً حـــاراً ، وغمره بالهدايا الكثيرة ، غير أنه ظل يقيد حريته [1] .

---

(١) Anna Comnena X . VII . 2 - 5 vol . II . pp. 213 - 215 .
اعترفت أنه كومنين ان يوحنا كومنين لم يطلق لهيو كامل الحرية . غير ان روايتها كاملة ومقنعة . اشارت المصادر الغربية ، الجستا وفوشر والبرت ، الى ان هيو كان اسيراً برغم ارادته . على الرغم من ان سلوكه المقبل لم ينطو على ذلك .

جودفري كونت اللورين :

على أن وصول هيو أرغم الكسيوس على أن يعلن السياسة التي ينبغي أن يتخذها مع الأمراء الغربيين. وكان ما توافر لديه من معلومات، وما جـال بخاطره من مغامرة روسيل بايليل أقنعه أنه مهما تكن الاسباب الاسمية للحروب الصليبية، فان الغرض الحقيقي للفرنج، ينطوي على حرصهم على أن يجعلوا لهم إمارات في الشرق. لم يعترض الامبراطور على هذا، فطالما استردت الامبراطورية كل ما كان في حوزتهـا من الأملاك قبل غارات المسلمين، فيصح أن يقوم داخل نطاقها إمارات مسيحية، تعتبر في نفس الوقت إمارات حاجزة. غير أن الكسيوس أراد أن يطمئن الى أنـه سوف يكون السيد الأعلى، على كل ما يقوم من الإمارات. ونظراً لما يعلمه من أن الولاء في الغرب لا يتحقق إلا باتخاذ يمين، عزم الكسيوس على أن يحصل على هذه اليمين من جميع القادة الغربيين، تسري على كل فتوحهم المقبلة. وللظفر بإذعانهم ورضاهم، أغدق الكسيوس عليهم الهدايا، وغمرهم بالإعانات والأموال، كيما لا يشعروا بأن مكانتهم تغيرت بأن اصبحوا أتباعاً له، على حين أنه كان في الوقت ذاته أحب أن يثبت ما كان له من جاه ومجد. واذ بهر هيو عظمة الامبراطور وسخائه، لم يلبث ان رضي عن طيب خاطر بطلبات الامبراطور. غير أن الأمير الصليبي الذي تلى هيو في الوصول الى القسطنطينية من الغرب، وهو جودفري بويون، لم يكن من السهل اقناعه مثلما حدث مع هيو.

ذلـك أن جودفري بويون، دوق اللورين الأدنى، يظهر في اسطورة متأخرة على أنـه الفارس المسيحي الكامل، والبطل الذي لا نظير له في كل الملاحم الصليبية. هـــذا الحكم لا بد أن يتعدل في ضوء الدراسة الفاحصة للتاريخ. ولد جودفرى حوالي سنة ١٠٦٠ ؛ وهو الابن الثـــاني ليوستاس الثاني كونت بولونيا، وايدا ابنة جودفري الثاني، دوق اللورين

الأدنى ، المنحدر من جهة الإناث من شرلمان . كان مفروضاً أن يرث جودفري كل ما لدى أسرة امه من ممتلكات . غير أن الامبراطور هنري الرابع صادر الدوقية عند وفاة والدها ، فلم يبق لجودفري سوى كونتية انتورب وإقطاع بويون في الأردن . ومع ذلك فان جودفري أظهر من الولاء والاخلاص في خدمة الامبراطور هنري الرابع في حملاته الألمانية والايطالية ، ما أدى سنة ١٠٨٢ ، الى ان يتولى الدوقية ، باعتباره موظفاً ، فلم تكن الدوقية إقطاعاً متوارثاً له . والمعروف أن كونتية اللورين كانت زاخرة بالمؤثرات الكلونية ، وعلى الرغم من ان جودفري ظل على ولائه للامبراطور ، فالراجح أن التعالم الكلونية بما اقترنت به من عواطف البابا القوية ، اخذت تشغل باله وتثير قلقه . فلم تكن ادارته للورين بالغة الأثر والقوة . وتوافر من الظنون والريب ، مـا بدا كأن هنري سوف لا يمضي في استخدام جودفري . والراجح أن جودفري استجاب للحرب الصليبية ، نظراً لأنه لم يكن كبير الامل في مستقبل له باللورين ، او لأنه كان قلقاً في ولائه للدين ، او لأنـه كان شديد الحماس . أتم جودفري تجهيزاته على احسن وجه . فبعد ان جمع ما يلزمه من الأموال عن طريق تنديده باليهود والتشهير بهم ، وباع ضيعته في روزاي ستيناي على نهر الميز ، ورهن قلعة بويون عند اسقف لييج ، استطاع ان يعد جيشاً ضخماً . فـا كان لدى جودفري من جيش وفير العدد ، وما كان يشغله من قبل من وظيفة سامية ، جعـل له مكانة ومجداً ، وزاده رفعة ما اتصف به من الخلال الطيبة ، والمظهر الجذاب . كان جودفري طويل القامة ، متين البناء ، اشقر الوجه ، ذا لحية صفراء وشعر أصهب ، وهو الصورة المثالية للمحارب الشمالي . غير أنـه لم يكن جندياً ممتـازاً ، أما شخصيته فطغت عليها شخصية أخيه الاصغر بلدوين .

أقسم أخوان لجودفري يمين الاشتراك في الحرب الصليبيـة ، فأخوه

الاكبر يوستاس الثـالث ، كونت بولونيا لم يكن محارباً صليبياً متحمساً ، بل اشتهر دائمـاً بحرصه على العودة الى بلاده الغنية ، التي تقع على جانبي بحر المانش . وكان ما قدمه يوستاس من الجند يقل كثيراً عن الذي بذله جودفري ، ولذا رضي يوستاس بأن يكون جودفري قائداً . والراجح أنه سار مستقلاً عنه ، بأن اتخذ طريق ايطاليا . أما الاخ الصغير ، وهو بلدوين ، الذي صحب جودفري ، فكان من طراز مختلف . اذ كان من المقرر أن يلتحق بالكنيسة ؛ ولذا لم ينل شيئاً من املاك الأسرة . وعلى الرغم من أن ما تلقاه من التعليم في مدرسة ريمز الكبرى ، جعله شغوفاً بالثقافة ، ولم يكن مزاجه من مزاج رجل الكنيسة . فعاد الى الحياة الدنيوية ، والواضح أنه خدم اخاه جودفري في اللورين . ويفترق الأخوان ، احدهمـــا عن الآخر ، افتراقاً بالغاً . اذ أن بلدوين كان أطول قامة من جودفري ، وغلب على شعر بلدوين السواد ، على حين أن شعر جودفري كان أصهب ، غير أن بشرته كانت ناصعة البياض . وبينما اتصف جودفري بالدماثة والظرف ، اشتهر بلدوين بالتعالي والبرود . ونزعت أهواء جودفري الى البساطة ، بينما كان بلدوين يميل الى الأبهة والترف ، برغم قدرته على تحمل المشاق . اشتهر جودفري في حياته الخاصة بالعفة والطهارة ، على حين أن بلدوين استسلم لشهواته ومجونـه . رحب بلدوين فرحاً بالحملة الصليبية . إذ أن موطنه لم يهبه المستقبل ، على حين أنه يأمل في أن يقيم له مملكة بالشرق . فلمـــا تأهب للمسير ، صحب معه زوجته النرمندية وهي جودفيري توسني بأطفالها الصغار ، وكان عازماً على ألا يعود .

انضم الى جودفري وأخويه عدد كبير من أعلام الفرسان من بـلاد الوالون ولوثرنجيا ، منهم ابن عمهم بلدوين رتيل سيد لى بور ، وبلدوين الثاني كونت هينو ، ورينالد كونت تول ، وفارنر جراى ، ودودو كونتز ساربرج

وبلدوين ستافيلوت ، وبطرس ستيناي ، والأخوان هنري وجفري سيدا ايش [1] .

جودفري في المجر :

عزم جودفري على ألا يسلك الطريق الذي اتفق الامراء الصليبيون على أن يتخذوه ، وهو الذي يجتاز ايطاليا ، ولعل ذلك راجع الى ما أحس بـه من الحرج في علاقاته مع البابوية ، نظراً لأنـه من انصار الامبراطور (الالماني) . ولذا عزم على أن يتخذ الطريق الذي يخترق بلاد المجر ، فلم يسلك الطريق المـألوف للصليبيين ، بل سلك الطريق الذي اتخذه شارلمان اثناء الحج الى بيت المقدس فيما تواتر وقتذاك بين الناس . غادر جوفري اللورين في نهاية اغسطس ، وبعد بضعة اسابيع امضاها في المسير ازاء الراين ، والهبوط الى الدانوب ، وصل في اول اكتوبر الى الحد المجري عند نهر لايتا . ومن ثم ارسل سفارة يرأسها جفري ايش ، الذي سبق له الخدمـة في البلاط المجري ، الى الملك كولومان ، يطلب الاذن باجتياز بلاده .

(١) عن حياة جودفري المبكرة انظر :

Breysig : Gottfried, von Bouillon vor dem Kreuzzuge, in Westdeutsche Zeitschrift fur Geschichte vol . XVII pp. 169 ff.

وأورد قائمة برفاق جودفري : Albert of Aix II . 1 . p. 229 .

وصف وليم الصوري كلا من جودفري وبلدوين ، انظر :

William of Tyre IX . 5 . p. 371 , X , 2 . pp. 401 - 402 .

أشار البرت (II . 21 , p. 314) الى ان يوستاس بولون سار مع جيش شمال فرنسا ، غير ان المؤرخ فولشر ، الذي صحب هذا الجيش ، وأسهب في اخباره لم يشر الى اشتراكه في هـذا الجيش . والراجح انـه كان من الفرسان الذين وصلوا الى القسطنطينية عقب قدوم جودفري ، وجاء بطريق البحر .

وكان ما تعرض له كولومان اخيراً من الكوارث على ايدي الصليبيين بلغ من الشدة انه لم يرحب بغزوة جديدة . فاحتجز السفارة عنده ثمانية ايام ، ثم اعلن انه سوف يجتمع بجودفري في اودنبرج ليتفاهم معه . ثم قدم جودفري في فئة قليلة من الفرسان ، فدعاه ملك المجر ليقيم في بلاطه بضعة ايام . وكان ما تركته زيارة جوفردي من اثر طيب عند كولومان ، مما جعله يقرر الاذن لجيش جودفري باجتياز بلاد المجر ، بشرط أن يبقى بلدوين عنده رهينة ، هو وزوجته وأطفاله ، وذلك لأنه اعتقد ان بلدوين اخطر شخص في جيش جودفري . ولما عاد جودفري الى جيشه ، رفض بلدوين اول الامر ان يذعن لرأي ملك المجر ، غير أنه رضى آخر الامر. ثم دخل جودفري وجنوده مملكة المجر ، عند اودنبرج ، ووعده كولومان بأن يمد الجيش الصليبي بالزاد والمؤن ، بأسعار متهاودة ، على حين ارسل جودفري من قبله اشخاصاً ، يطوفون بالجيش ، ويعلنون ان كل من من ارتكب العنف ، او اقترف جريمة ، فجزاؤه الموت ؛ وبعد اتخاذ هذه التدابير ، اجتاز الصليبيون بلاد المجر في هدوء وسلام ، وحرص الملك المجري وجيشه على الاشتداد في مراقبتهم طوال الطريق . وبعد ان امضى جودفري وجنوده ثلاثة ايام في مانج جيلوتز ، قرب الحدود البيزنطية ، يتزودون بالميرة والمؤن ، بلغ جودفري سملن حوالي نهاية نوفمبر ، وألزم عساكره بالنظام اثناء عبور نهر الساف الى بلغراد . ولم يكد جميع العساكر ينتهون من اجتياز النهر ، حتى عادت اليهم الرهائن .

جودفري يصل الى القسطنطينية :

واتخذت السلطات البيزنطية العدة لاستقبال جودفري ، والراجح انه حدث ذلك ، بعد أن انذرهم المجريون . كانت بلغراد مدينة مهجورة ، منذ أن تعرضت للنهب على يدي بطرس الناسك ، قبل ذلك بخمسة اشهر ، غير ان حرسا مرابطاً على الحدود ، بادر بالمسير الى نيش ،

حيث اتخذ الوالي نكيتاس مقره ، وحيث كان حرس بيزنطي في انتظار جودفري . فبادر الحرس بالسير ، والتقى بجودفري في الغابة الضربية ؛ التي تقع في منتصف الطريق بين نيش وبلغراد . وتم اتخاذ التدابير اللازمة لتزويد الجيش بالمؤن ، فسار جودفري بجيشه مخترقاً البلقان دون ان تصادفه عقبة من العقبات . وعند فيليبوبوليس ، بلغته الانباء بوصول هيو فرماندوا الى القسطنطينية ، وبما تلقاه هيو ورفاقه من الهدايا الجميلة ، وبلغ تأثير ذلك الاستقبال عند بلدوين هينو وهنري ايش ، أنهما قررا أن يسبقا الجيش الى العاصمة ، كيما يصيبا حظهما قبل غيرهما من الهدايا والمنح . غير أن الشائعة ترددت ايضاً ، ولا بد أن يكون لها اساس من الصحة ، أن هيو جرى الالقاء به في السجن ، فاستبد القلق والضيق بجودفري [1] .

وحوالي ١٢ ديسمبر ، توقف جيش جودفري عند سيلمبريا على بحر مرمرة . وهنا انهار فجأة نظام الجيش ، بعد ان ظل حتى وقتذاك سليماً رائعاً ، ولمدة ثمانية ايام ظل يعيث فساداً في القرى المجاورة ، ولسنا نعلم السر فيما حل بنظام الجيش من الخلل . غير ان جودفري علل ذلك بأنه ليس سوى الانتقام لما حدث من أمر هيو وجيشه . فبادر الامبراطور الكسيوس بإرسال اثنين من الفرنسيين ، كانا بخدمته ، وهما رادولف بيلديلاو وروجر ابن داجوبرت ، ليحتجا عند جودفري ، وليحثاه على ان يلتزم الهدوء في مسيره . ونجح هذان المبعوثان في ذلك . ففي ٢٣ ديسمبر ، بلغ جيش جودفري القسطنطينية ، وعسكر ، بناء على طلب الامبراطور ، خارج المدينة في الطرف العلوي للقرن الذهبي .

---

(١) اورد البرت وصفاً مسهباً لمسير جودفري (Albert II 1 - 9 pp . 299 - 305) بينما لم يرد عن ذلك الا رواية قصيرة في (Chronicle of Zimmern (pp . 21 - 23 . ولم يرد في مصدر بيزنطي خبر الرحلة .

وكان قدوم جودفري بجيش ضخم ، تجهز بأحسن عتاد ، مما خلق مشكلة عويصة للحكومة البيزنطية . ذلك أن الكسيوس ، وفقاً لسياسته ، اراد أن يستوثق من ولاء جودفري وإخلاصه ، ثم يبادر بعد ذلك باخراجه من المواضع المهددة بالخطر المجاورة للقسطنطينية . ومن المستبعد أن الامبراطور الكسيوس ، اعتقد ما اعتقدته ابنته أنه ، بأن جودفري أعدّ خططاً للاستيلاء على القسطنطينية . غير أن ضواحي المدينة سبق ان تعرضت فعلاً للخراب والدمار على يد بطرس وأتباعه . ومن الخطر أن تتعرض هذه الضواحي لهجمات جيش لا يقل عن الجيوش السابقة احتقاراً للقوانين ، فضلاً عن تفوقه عليها في التسليح . على أنه كان لزاماً على الكسيوس أن يحصل من جودفري على يمين الولاء . ولذا لم يكد جودفري يستقر في معسكره ، حتى ارسل الكسيوس اليه هيو فرماندوا لزيارته واقناعه بضرورة الذهاب لزيارة الامبراطور . وقبل هيو عن طيب خاطر القيام بهذه السفارة ، ولم يسخط لما اصابه من سوء المعاملة على يد الامبراطور .

رفض جودفري الدعوة التي وجهها اليه الامبراطور ، وازداد تبرماً وضيقاً . غير أن سلوك هيو زاد في حيرته . اذ أن جنوده اتصلوا ببقايا جيش بطرس ، وأعلن معظمهم ان ما حل بهم من الكوارث ، إنما يرجع الى خيانة الامبراطور . وتأثر جودفري بروايتهم ودعواهم . ورأى باعتباره دوقاً للورين حلف يمين الولاء للامبراطور هنري الرابع ، أن هذه اليمين تمنعه من ان يحلف يمينا اخرى للامبراطور البيزنطي . يضاف الى ذلك أنه لم يرغب في أن يتخذ خطوة هامة إلا بعد ان يستشير سائر القادة الصليبيين ، الذين فيما علم سوف يصلون عاجلاً . وعاد هيو الى البلاط البيزنطي دون ان يحظى باجابة صريحة من جودفري ، يقدمها لألكسيوس .

غضب الكسيوس ، وقرر في حماقة أن يخضع جودفري لإرادته ، بمنع المؤن التي سبق أن وعد بتزويد عساكر جودفري بها . وبينما تردد جودفري ،

بادر بلدوين الى الاغارة على ارباض القسطنطينية ، حتى وعد الكسيوس برفع الحصار . وفي نفس الوقت ، وافق جودفري على أن ينقل معسكره من القرن الذهبي الى بيرا ، وهو موضع يصلح لحمايته من رياح الشتاء ، وتستطيع شرطة الامبراطور ان تشدد فيه الملاحظة والمراقبة . على ان كلا من الجانبين لم يقم بعمل من الاعمال فترة من الزمن . امد الامبراطور قوات الغرب بالمؤن الوفيرة . وأدرك جودفري أن النظام استقر واستتب . وفي اواخر يناير ، وجه الكسيوس مرة اخرى الدعوة الى جودفري لزيارته ، غير ان جودفري ظل مصراً على ألا يلتزم بشيء إلا بعد أن ينضم اليه سائر القادة الصليبيين ، فأرسل الى البلاط البيزنطي ابن عمه بلدوين لى بور ، وكونون مونتايج ، وجفري إيش كيما يستمعوا الى ما يعرضه الامبراطور من مقترحات ، غير انهم لم يحظوا من الامبراطور بجواب . حرص الكسيوس على ألا يثير جودفري ، حتى لا يعود من جديد لتخريب الارباض والضواحي . وبعد ان اطمأن الكسيوس الى أنه ليس ثمة اتصال بين عساكر اللورين والعالم الخارجي ، انتظر حتى يفرغ صبر جودفري ، فيقبل التفاوض معه .

معركة اسبوع الآلام :

وفي نهاية مارس ، علم الكسيوس أن جيوشاً صليبية اخرى تصل عاجلا الى القسطنطينية . فكان لزاماً عليه ان يحسم الأمور . فأخذ في تخفيض ما كان يرسله من كميات المؤن الى معسكر الصليبيين ، بأن لجأ اولاً الى منع ارسال العليق اللازم لخيولهم ، وعندما اقترب عيد اسبوع الآلام ، السابق على عيد القيامة ، منع الامبراطور عنهم انواع السمك ثم الخبز . وردّ الصليبيون على ذلك ، بما دأبوا عليه كل يوم من الغارة على القرى المجاورة ، وأدى ذلك الى الاشتباك بعساكر البجناك التي تولت حراسة المنطقة . وانتقم بلدوين من البجناك ، بأن نصب لهم كميناً ، فوقع

في أسره ستون منهم ، ولقي عدد كبير مصرعهم . وتشجع جودفري بما احرزه من نجـــاح ، وأحسّ بأن بوسعه أن يقاتل ، فعزم على ان ينقل معسكره ، ويهاجم القسطنطينية ذاتها . وبعد ان امعن جودفري في نهب المساكن واحراقها ، في ضاحية بيرا ، التي نزل بها رجاله ، اجتـاز بجنده الجسر المقام على القرن الذهبي ، وتسحب بهم الى اسوار المدينة ، وشرع في مهاجمة الباب الذي يؤدي الى موضع قصر بلاشيرنا . ومن المستبعد أن جودفري كان يريد أن يقوم بأكثر من الضغط على الامبراطور ، غير أن البيزنطيين ساورهم الشك في أن جودفري يقصد الاستيلاء على الامبراطورية .

حدث ذلك يوم الخميس من عيد اسبوع الآلام ، الموافق ، اليوم الثاني من أبريل ، ولم تكن القسطنطينية مستعدة لهجوم من هذا القبيل ، فانتشر بالمدينة نذر الخوف والذعر ، ولم تهدأ إلا بعد حلول الامبراطور بها ، وما اشتهر به من البرود . والواقع ان الامبراطور ارتاع لوقوع قتال في يوم عيد ، فأمر عساكره بالتظاهر خارج ابواب المدينة ، دون ان يشتبكوا في القتال مع العدو ، بينما صدرت الاوامر الى الرماة على الأسوار ، بأن يقذفوا بسهامهم من فوق رؤوسهم ، ولم يستمر الصليبيون في الهجوم ، فلم يلبثوا ان انسحبوا ، ولم تتعد الضحايا سبعة من البيزنطيين . وفي اليوم التالي ، توجه هيو فرماندوا مرة اخرى الى جودفري للتحدث اليه ، غير أن جودفري وجه اليه اللوم والتقريع ، ونعته بالاستكانة والعبودية لأنه قبـل التبعيـة للامبراطور الكسيوس . ولما توجهت رسل الكسيوس في آخر النهـــار الى معسكر جودفري ، لإلزام قوات جودفري بالعبور الى آسيا ، قبل ان يحلف جودفري يمين الولاء ، بادر الصليبيون لمهاجمتهم دون ان ينتظروا ما سوف يقولونه . وعندئـذ عزم الكسيوس على ان ينهي المشكلة ، فتقدم بعـــدد كبير من الجنود لصد الهجوم . ولم يكن بوسع الصليبيين ان يقاوموا جيوش الامبراطور المشهورة بحسن إعدادها وتجهيزها ، فلم يلبثوا بعد قتال قصير ، ان انسحبوا وركنوا الى الفرار . وكان ما حل

بجودفري من هزيمة ، هو الذي حمله على ان يعترف بضعفه ، فرضى بأن يقسم يمين الولاء ، وأن يعبر البوسفور بجيوشه الى آسيا .

الاحتفال ببذل يمين الولاء :

الراجح أن الاحتفال بأخذ اليمين ، وقع بعـــد يومين ، أي في يوم الاحد من عيد القيامة ، إذ اقسم جودفري وبلدوين وكبار القـــادة ، بالاعتراف بالامبراطور سيداً اعلى على كل ما يفتحونه من بلاد ، وبأن يسلموا لموظفي الامبراطور ، كل ما استردوه من بلاد ، كانت اصلاً من املاك الامبراطور . وتلقى الصليبيون بعد ذلك هدايا كثيرة من الاموال ، واحتفى بهم الامبراطور في مأدبة فاخرة . ولم تكد الاحتفالات تنتهي ، حتى استقل جودفري ورجاله السفن الى خلقيدونية ، ومضوا جميعـاً في سيرهم حتى الموضع الذي اقاموا به معسكرهم في بليكانوم على الطريق الى نيقوميديا [١] .

---

(١) يعتبر اشمل مـــا جاء عن سلوك جودفري بالقسطنطينية ، الروايتان الواردتان عنـــد أنـــة كومنـــين (Alexiad X. IX. 1 - 11 vol. II. pp. 220 - 6) والـــبرت (II. 9 - 16. pp. 305 - 311) وأشار شلاندون Chalandon : Histoire de la Première Croisada pp . 119 - 129 الى ان رواية أنة تفوق رواية البرت في الاقناع ، ويصح اعتبارها صادقة ، على الرغم من مبالغتها في تقدير قوة جيش جودفري . ومـــا ورد في كتاب اعمال الفرنجة (Gesta Francorum 1,3 pp. 14 - 18) يعتبر رواية مقتضبة بالغة التحيز . ليس معروفـــاً على وجه التحقيق موضع بليكانوم . ويجعله Leibe الذي نشر كتاب أنة كومنين (vol . II. p. 226. N. 2) ، مطابقاً لموضع هريك عـــلى مسافة ١٦ ميـــلا غربي نيقوميديا . امـــا رامزي فيشير الى انهـــا شديدة القرب مـــن خلقيدونية (Ramsay : Historical Geography of Asia Minor p. 185). ويستخلص من رواية أنة (انظر الفصل الاول من الكتاب الرابع) انها تقع بالقرب من موضع السفينة (المدّية) التي تقصد كيفيتوت ، وموضعها يكفل لها الاتصال المستمر بالقسطنطينية . اما يوحنا كانتاكوزينوس =

لم يكن لدى الكسيوس سوى وقت قصير ، إذ أن جيشاً مختلطاً ، يرجح أنـــه كان مؤلفاً من اتباع جودفري ، الذين آثروا الرحيل عبر ايطاليا ، ويرجح ايضاً انه تولى قيادتهم كونت تول ، وصل الى الضواحي الواقعة بأطراف المدينة ، وأنهم اخذوا ينتظرون على شواطىء بحر مرمرة قرب سوسثنيوم ، وأظهروا من الشراسة ما اظهره جودفري من قبل ، وحرصوا على أن ينتظروا قدوم بوهمند والنرمان ، بعـد أن عرفوا انهم سائرون في اعقابهم . أما الامبراطور الكسيوس ، فانـه عزم على منـع اتصالهم بجودفري ، ولم يلبث الكسيوس ، بعد قتال قصير ، أن سيطر على تحركاتهم . ولم يكد جودفري ينتهي مـــن عبور البوسفور ، حتى امر الكسيوس بنقلهم بحراً الى العـــاصمة ، حيث انحازوا الى سائر الجماعات الصليبية الصغيرة التي قدمت بعد أن شقت طريقها في البلقـان . وبذل الامبراطور كل ما عنده من كياسة ، وأغدق الهدايا الوفيرة ، كما يحمل زعماءهم على ان يحلفوا له يمين الولاء . ولـما ارتضوا ذلك آخر الأمر ، زاد الامبراطور في جلال هذه المناسبة ، بأن دعـــا بلدوين وجودفري لشهود الاحتفال . فاشتد حنق زعماء الغرب ، وزادت شراستهم وحدتهم ،

= Cantacuzenus ، وهو الكاتب البيزنطي الآخر الذي اشار اليها، فجعلها في شرقي داكيبيزا Dacibyza ، وهي جبزي الحالية Gebze ، الواقعة في منتصف الطريق بين جيبزي وهريك، على مسافة ستة اميال من كليهما . ووفقاً لما اوردته أنة (XI . III . 1 vol . III. p . 16)، استقبل الكسيوس الصليبيين في بليكانوم ، بعد سقوط نيقيه . غـــير ان استيفن كونت بلوا (Hagenmeyer : Die Kreuzzugschrift 140) يذكر ان الكسيوس كان بجزيرة حينما شاهده وقتذاك . ومهما يكن من شيء لم تكن بليكانوم جزيرة . ولم تكن ايضـــاً شبه جزيرة ايجيالي ، التي اوردت أنة الاسم صحيحاً . وما اورده استيفن من دليل على هذه النقطة جدير بالثقة . والراجح ان بليكانوم كانت قريبة من ايجيالي . ولعل الكسيوس قد تحرك راجعاً الى احدى جزر الشاطىء ، اما الى الجزيرة المواجهـــة لتوزلا Tuzla (على مسافة ١٢ ميل غربي ايجيالي) ، حيث لا يزال بها حتى اليوم خرائب ترجع الى الزمن البيزنطي ، وامـــا الى جزيرة القديسين بطرس وبولس المواجهة لبنديك Pendik التي كانت ملاذاً بيزنطياً معروفاً .

إذ جلس احدهم على عرش الامبراطور ، وعندئذ انبرى بلدوين لتأنيبه ولفت نظره الى أنه اصبح من اتباع الامبراطور ، وطلب اليه ان يراعي تقاليد البلاد . غير ان هذا القائد صار يتمتم في غضب ، كيف يجوز للأمبراطور أن يجلس ، على حين أن عدداً كبيراً من القـــادة الشجعان يظلون واقفين . ولما علم الكسيوس بهذه الملاحظة ، بعد أن جرت ترجمتها له ، طلب أن يتحدث الى الفارس . ولما اخذ الفارس يتباهى ببسالته التي لم تنثلم في مبارزة فردية ، تلطف الامبراطور معه ، ونصحه بأن يلتمس خططاً اخرى عند لقائه مع الترك المسلمين (١) .

وتصوّر هـــذه الحالات تماماً العلاقات بين الامبراطور والفرنج . فلا شك أن الفرسان الأجلاف القادمين من الغرب ، اشتد تأثرهم بمـا للبلاط البيزنطي من أبهة وعظمة ، وبما اتسم به رجال البلاط من طباع لينـة هادئة مهذبة ، مع الحرص على مراعاة المراسيم ، غير أنهم نفروا من ذلك . وكان ما اصاب كبرياءهم من الجراح ، هو الذي جعلهم غلاظ الطبع ، يميلون الى المشاكسة ، شأن الاطفال الشرسين .

ولما تمّ أخذ اليمين على الفرسان ورجالهم ، تقرر نقلهم عبر البواغيز

---

(١) Anna Comnena : X. X. 1 - 7 vol. II. pp. 226 - 236 .

وتطلق أنة على هذا الفارس اسم كونت راءول . وليست شخصيته معروفة ، لأنها لم ترد في اي مصدر آخر . ويستخلص من حقيقة ان الامبراطور يعلق اهمية على شهود الاحتفال بأخذ اليمين من هذه الجماعة ، التي تألفت فيما اعتقد من رجال من اللورين لا من فرنسا . فالمعروف ان رينالد صاحب تول ، قدم مع الحملة الصليبية في رعاية جودفري ، ويشير اليه البرت على انه منذ البداية كان من فريق جودفري ، غير انه ليس من الضروري التقيد حرفياً بما اورده من دليل. لم تكن أنة موفقة في معرفة اسماء الفرنج ، ففي بعض الاحوال تقرن الكونتات بألقابهم، مثلما جرى في حالة ريموند ، الذي اطلقت عليه ايزانجيليس Isangeles . غير ان راءول كان اسماً عرفته ، نظراً لسابق تجربتها وخبرتها براءول سفير جويسكارد ، فيصح انهـــا غيرت اسم رينالد تول الى اسم كان مألوفاً لها .

حتى ينضموا الى جيش جودفري على الشاطىء الأسيوي . والواقـع ان الامبراطور أحسن التصرف في الوقت المناسب ، ففي ٩ أبريل قـدم الى القسطنطينية بوهمند أمير طارنت (اوترانتو) .

خط سير بوهمند عبر جبال بندوس :

لم يحفـل النرمان اول الأمر بدعوة اربان للحروب الصليبية ، نظراً لاستمرار الحروب الأهلية التي نشبت بينهم في جنوب ايطاليا ، عقب وفاة روبرت جويسكارد . فالمعروف ان روبرت طلـّق زوجته الأولى التي أنجب منها بوهمند ، وأوصى بدوقية ابوليـا الى ابنه روجر بورصا من زوجته سيجلجايتا . فأعلن بوهمند الثورة على اخيه روجر ، وعزم على أن يستخلص لنفسه اوترانتو (طارنت) في أقصى الطرف الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة ، وذلك قبـل ان يلجأ عمها روجر أمير صقلية الى تسوية الأمور بينهما . لم يعترف بوهمند بالهدنة على أنها تسوية نهائية ، فاستمر يعمل سراً وخلسة على مناهضة روجر بورصا . ثم حدث في صيف سنة ١٠٩٦ ، أن اتفقت الأسرة الملكية كلها على ان تنزل العقاب بمدينـة أمالفي الثائرة عليهم . وكانت المرسومات البابوية المتعلقة بالحرب الصليبية قـد صدرت فعلاً ، واجتاز البحر فعلاً جماعات صغيرة من الايطاليين من جنوب شبه الجزيرة نحو الشرق . ثم ادرك بوهمند فعلاً اهمية الحركة الصليبية حين وصل الى ايطاليا جيوش الصليبيين المتحمسة ، القادمة من فرنسا . وعندئذ ادرك أنه يصح ان يفيد منها . اذ ان عمه روجر امير صقلية لن يسمح له مطلقاً ، بأن يضيف الى املاكه دوقيـة أبوليا . فرأى انه من الخير أن يقيم له مملكة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط . وما اتصف بـه الصليبيون الفرنسيون من الحماس ، أثار حماس الجنود النرمان المرابطين امام أمالفي . ولقي النرمان التشجيع من بوهمند ، فأعلن انه سوف يشترك في الحملة الصليبية ، ودعا بوهمند جميع المسيحيين المؤمنين للحاق به . وأمام الجيش

المحتشد ، خلع بوهمند رداءه الاحمر الثمين ، ومزقه قطعاً صغيرة ، جعل منها صلباناً لقادته . وبادر اتباعه بالانضواء تحت لوائه ، وحذا حذوهم عدد كبير من اتباع اخيه ، وعمه روجر صاحب صقلية ، الذي جأر بالشكوى بأن الحركة الصليبية سلبته جيشه [١] .

وبادر وليم ، ابن اخت بوهمند ، بالمسير مع الصليبيين الفرنسين . أما بوهمند ، فكان لا بد له ان يتريث ، حتى يتم اعداد قواته . فترك اراضيه في حماية اخيه ورعايته ، وجمع من الاموال ما يكفي للانفاق على كل من صحبه من العساكر . أبحرت الحملة من باري في اكتوبر ، وسار مع بوهمند ، تانكرد الاخ الاكبر لوليم ، وابن إيّما اخت بوهمند ، والماركيز اودو وابنا عمه رتشرد [٢] ، ورانولف امير سالرنو ، ورانولف بن رتشرد ، وجفري كونت روسيجنونلو واخوته : روبرت صاحب أنسا ، وهرمان صاحب كان ، وهمفري صاحب مونتي سكابيوسو ، والبريد امير كانيانو ، وجيرار اسقف اريانو ؛ وكل هؤلاء من نرمان صقلية . اما نرمان فرنسا الذين انضموا الى بوهمند ، فنهم روبرت صورديفال ، وبويل شارتر . وكان جيش بوهمند اصغر حجماً من جيش جودفري ، غير انه يفوقه في عدته وتدريبه [٣] .

ونزلت الحملة في اقليم ابيروس ، في مواضع متناثرة على امتداد ساحل بحر الأدرياني ، بين دورازو وأفلونا . وتجمعت هذه القوات عند قرية دروبولي في وادي نهر فيوزا . ولا شك أنه لا بد أن تم ترتيب نزول

---

(١) انظر : Gesta Francorum 1 , 4 . pp. 18 - 20 .
Chalandon : Histoise de la Domination Normande en Italie vol . II . p. 302 .

(٢) وهو المعروف برتشرد الزعيم Principate .

(٣) انظر : Gesta Francorum 1, 4 . p. 20

الجند ، بعد استشارة السلطات البيزنطية في دورازو ، وهي السلطات التي لم تشأ فيا يبدو استنفاد مؤن البـــلاد الواقعة على الطريق الرئيسي Via Egnatia ، على أن الراجح أن بوهمند هو الذي اختار الطريق الذي ينبغي أن يسلكه جيشه ، لأن ما قام به منذ خمس عشرة سنة من حملات ، جعله يقف على طبيعة البلاد الواقعة جنوب الطريق الرئيسي . ومـا لجأ اليه من اتخـــاذ طريق غير مألوف ، كان يأمل من ورائه أن يتجنب إشراف البيزنطيين ورقابتهم . ولم يكن لدى يوحنـــا كومنين حاكم دورازو من القوات ما يصح الاستغناء عنها ، وبذا صار في وسع بوهمند أن يشرع في المسير دون أن تتولى قوة بيزنطية حراسته . غير انـه لم يكن ثمة فيا يبدو ما يدعو الى النية السيئة ، إذ أن كميات كبيرة من المؤن جرى تقديمها للنرمان ، بينا اشتد بوهمند في التنبيه على رجـاله ، بأنهم سوف يجتازون بـلاداً مسيحية ، وينبغي أن يمتنعوا عن نهبهـــا والعبث بها .

وإذ بادر الجيش النرماني باجتياز دروب جبال بندوس ، وصل قبيل عيد الميلاد الى كاستوريا ، في غرب مقدونيا . من المستحيل ان نتتّبـع طريق هذا الجيش . على ان هذا الطريق لم يكن سهلاً ، ولا بد أنـه ارتفع به الى ما يزيد على اربعة آلاف قدم فوق سطح البحر . وحاول بوهمنـــد أن يتزود بالمؤن في كاستوريا ، غير ان السكان لم يرغبوا في ان يتخلوا عن شيء من مؤنهم الضئيلة الى هؤلاء القادمين الطارئين ، الـذين لم ينسوا انهم اعداء قساة غلاظ . فاستحوذ الجيش على ما احتاجه من الماشية والخيل والحمير ، بعد ان نفقت دوابه في دروب جبال بندوس . امضى النرمان عيد الميلاد في كاستوريا ، ثم قاد بوهمند جيشه شرقاً الى نهر فاردار . ثم توقفوا قليلاً لمهاجمة قرية قريبة من طريقهم ، ينزل بها طائفة البيالصة ، فاحرقوا مساكنها وسكانها ، وبلغوا النهر في منتصف

فبراير ، فكأنهم استغرقوا سبعة اسابيع في اجتياز مسافة لا تزيد كثيراً على مائة ميل [١] .

والراجح أن الطريق الذي اتخذه بوهمند ، أدى به الى إديسّا (فودينا) ، حيث اتصل بالطريق الامبراطوري الرئيسي Via Egnatia . ومن ثم صحب بوهمند حرس من البجناك ، بعد أن تلقى هذا الحرس من الامبراطور من الاوامر ، ما يقضي بمنع النهب والسلب ، ومراعاة ألا يمكث الصليبيون بموضع اكثر من ثلاثة ايام . واجتاز الجانب الرئيسي من الجيش نهر الفاردار ، غير أن كونت روسيجنولو واخوته ، مع جانب صغير من الجيش بقوا على الضفة الشرقية للنهر ولم يجتازوه . وعندئذ هاجمهم البجناك ليحملوهم على العبور . وما كاد تانكرد يسمع بخبر الهجوم ، حتى اجتاز النهر من جديد ، لنجدتهم ، فرد البجناك على أعقابهم ، ووقع في يده من الاسرى ، عدد حملهم الى بوهمند . فاستجوبهم بوهمند ، ولما علم أنهم ينفذون أوامر الأمبراطور ، اطلق سراحهم . وحرص بوهمند في سياسته على أن يتخذ سلوكاً طيباً نحو الامبراطور [٢] .

ولتحقيق رغبته في التزام السلوك الطيب ، لم يكد بوهمند يهبط في اقليم ابيروس ، حتى بادر بارسال السفراء الى الامبراطور . ولما اجتاز بوهمند بجيشه سالونيك ، في طريقه الى Serres ، التقى بهؤلاء السفراء بعد عودتهم من القسطنطينية ، وبصحبتهم موظف كبير من قبل الامبراطور ، فلم تلبث الصلات الودية أن توثقت بين الامبراطور وبوهمند . وتوافرت

---

(١) Gesta Francorum 1,4 pp. 20 - 22 .
الراجح ان بوهمند اتخذ الطريق الذي ينفذ الى داخل الحد الالباني الحالي ، عند بريميتي وكوريستا ، ثم ينحني صوب الشمال قبل اجتياز الحدود ، ثم يهبط صوب الجنوب الشرقي الى كاستوريا .

(٢) Gesta Francorum pp. 22 - 24 .

المؤن للجيش ، ووعد بوهمند مقابل ذلك ، أنه لن يحاول دخول مدينة من المدن الواقعة على طريقه ، بل إنه وثق على أن يرد كل ما استولى عليه رجاله من الدواب أثناء سيرهم . وأراد رجال بوهمند أكثر من مرة أن ينهبوا الاراضي الزراعية ، غير أنه نهرهم ومنعهم من القيام بذلك .

وصول بوهمند الى القسطنطينية :

وفي اول ابريل بلغ الجيش النرماني روسه (كوشان الحالية) في تراقيا ، وعندئذ قرر بوهمند أن يسرع الى القسطنطينية ، حتى يقف على ما يجري من المفاوضات بين الامبراطور وقــادة الغرب الذين وصلوا فعلاً . تخلى بوهمند عن قيادة الجيش الى تانكرد ، الذي سار بهم الى واد خصيب ، يمتد على الطريق الرئيسي ، فأمضوا بهذا الوادي عطلة عيد القيامة . وقدم بوهمند الى القسطنطينية في ٩ أبريل ، فأنزلوه خارج أسوار المدينة في دير القديسين كوزماس ودامیان ، وفي اليوم التالي سمحوا له بالمثول امام الامبراطور [١] .

كان بوهمند في نظر الكسيوس أشد الصليبيين خطورة . لأن ما تعرض له البيزنطيون من تجارب سابقــة ، جعلتهم يدركون ان النرمان أعداء ألدّاء ، اشتهروا بشدة طموحهم وعنادهم وخيانتهم . ودلّ بوهمند على أنه خير قائد لهم . واشتهر جيشه بالنظام وجودة السلاح والتدريب ، واكتسب بوهمند ثقة العساكر جميعاً . وعلى الرغم من أنه بالغ في الاعتداد بنفسه ، من حيث الدراية بالحروب ، وأن ما يصدر عنه لم يكن دائماً يتسم بالحكمة ،

---

(١) Gesta Francorum II, 5. pp. 24 - 28.

حدد تاريخ وصول بوهمند الى القسطنطينية ، المؤرخ :

Hagenmeyer : Chronologie de la Première Croisade p. 64 .

فإنه كان دبلوماسياً حصيفاً ، شديد الاقناع ، وسياسياً بعيد النظر . واشتهر بوهمند بشخصيته الجذابة . ولم يسع أنّه كومنين ، وقد عرفته واشتدت كراهيتها له ، إلا ان تعترف بجاذبيته فكتبت تصفه أنه كان فارع الطول ، وعلى الرغم من تجاوزه الاربعين من عمره ، كان له سمة الشاب وسحنته ؛ كان عريض الكتفين ، ضيق الخصر ، صافي البشرة متورد الخدين . أما شعره الاصفر فلم يبلغ من الطول ما كان مألوفاً بين فرسان الغرب ، وكان حليق اللحية . وكان منذ طفولته ، ينحني قليلاً في مشيته ، على أن ذلك لم يضعف من صحته وقوته . ووصفته أنه كومنين ، بأن مظهره ينم عن صلابة ، ولم تكن ابتسامته عذبة نقية ، بل يشوبها شيء من الشر ، ومع ذلك فان أنه كومنين ، برغم أنها لم تختلف عن سائر اليونانيين في تحفظهم وارتيابهم في جمال البشر ، لم تستطع ان تخفي اعجابها به [١] .

ودبر الكسيوس بأن يكون اول لقاء له مع بوهمند على انفراد ، كيما يكشف عن اتجاهه . غير أنه لما تبين له أنه صديق ، وأدرك انه صادق في وده ومساعدته ، دعا جودفري وبلدوين اللذين كانا لا يزالان مقيمين بالقصر الملكي ، ليشتركا فيما يجري من المناقشات . وكان لما اظهره بوهمند من خلق مستقيم وزنه وتقديره . كان بوهمند اكثر الصليبيين ادراكاً بأن بيزنطة لا زالت دولة بالغة القوة ، وأنه ما لم يجر الارتكان الى مساندتها ، لن تتحقق أغراضهم . وان كل شجار معها سوف يؤدي الى كارثة . على ان الافادة الرشيدة من التحالف معها يصح ان يكون في مصلحته . وأراد بوهمند ان يتولى قيادة الحملة الصليبية كلها ، غير أنه لم يكن لديه اذن من البابا بذلك ، وقد يؤدي ذلك الى اصطدامه بسائر القادة

---

(١) Anna Comnena : Alexiad XIII. X. 4 - 5. vol. III. pp. 122 - 124.
(وصف بوهمند) .

الصليبيين . فاذا حصل بوهمند من الامبراطور البيزنطي على تكليف رسمي ، صار له من المكانة ما يجعله يباشر أعماله الحربية ؛ فسوف تكون له السيطرة على كل تصرفات الصليبيين نحو الامبراطور ، وسوف يكون الوسيط الذي يسلم اليـه الصليبيون ما يستردونه من اراض باسم الامبراطورية ، وسوف يكون هو المحور الذي تدور حوله كل المحالفـات المسيحية . ولذا لم يتردد بوهمند في ان يحلف يمين الولاء للامبراطور ، ثم اقترح بوهمند على الامبراطور أن يعينه في وظيفة دمستق الشرق ، أي القائـد الأعلى للقوات الامبراطورية في آسيا .

غير أن هذا الطلب أثار حيرة الكسيوس ، إذ أنه كان يخشى بوهمند ولا يثق فيه ، ولكنه حرص على المحافظة على ولائـه ، فخصه بالسخاء والتشاريف وظل يغمره بالأموال ؛ غير أنه اختلق الاسباب لعدم الاستجابة لطلبه . إذ قال ان الوقت لم يحن بعـد لتعيين دمستق ، وأنه سوف يلي هـذه الوظيفة بفضل نشاطه واخلاصه . كان لزاماً على بوهمند أن يقنع بهذا الوعد الغامض ، الذي شجعه على أن يمضي فيما اتخـذه من سياسة التعاون ؛ وفي أثناء ذلك وعد الكسيوس بأنه سوف يبعث الى بوهمند من العساكر من يصحب الجيوش الصليبية ، وأن يـدفع لهم من الأجور ما يكفي لنفقاتهم ، ويكفل لهم المؤن ، ويوفر لهم المواصلات [1] .

---

(١) Anna Comnena X. XI. 1 - 7. vol. II. pp. 230 - 234 .
Gesta Francorum II. 6. pp. 28 - 32 .
أورد المؤلف المجهول ، حسبما هو مألوف ، رواية معادية للامبراطور ، وما ورد من عبارة عن المحالفة السرية بين بوهمند والامبراطور بشأن انطاكية ، إنما جرى اقحامها على النص فيما بعد ، بناء على أوامر بوهمند ، انظر :
Krey : « A Neglected Passage in the Gesta ». pp. 57 - 58 .
يشير ألبرت الى ان بوهمند لم يقسم يمين الولاء الا كرهاً ، وهذا غير صحيح .
Albert of Aix . II. 18, p. 312.

وعندئذ تقرر استدعاء جيش بوهمند الى القسطنطينية . وفي ٢٦ أبريل ، عبر بوهمند البوسفور ، ليلحق بجيش جودفري في بليكانوم . أما تانكرد الذي كره سياسة خاله بوهمند ، ولم يعقلها ، فانه اجتـاز المدينة ليلاً ، وبصحبته ابن عمه ريتشارد امير سالرنو ، كيا يتجنب بذل يمين الولاء (١) . وفي نفس اليوم قـــدم الى القسطنطينية ، ريموند كونت تولوز فاستقبله الامبراطور .

ريموند كونت تولوز :

أما ريموند الرابع كونت تولوز ، والذي اشتهر عادة باسم كونت سان جيل ، التي تعتبر احب المتلكات اليه ، فقـد بلغ وقتذاك سن النضوج ، اذ اقترب من الستين . وتعتبر كونتيته التي ورثها عن اسلافه أغنى دوقية في فرنسا ، وورث اخيراً ماركيزية بروفانس ، الـتي تضارع دوقيته في الثروة والغنى . وبفضل زواجه من الاميرة إلفيرا ، صاحبة أراجون ، ارتبط بالبيت الملكي ، باسبانيا ، واشترك في كثير من الحروب المقدسة ضد المسلمين باسبانيا . ويعتبر ريموند اول نبيل استشاره البابا اربان الثاني في مشروع الحملة الصليبية ، وأول من أعلن اقراره لهـا . ولهذا السبب ، وغيره من الدواعي ، اعتبر أن له الحق في القيادة العلمانية للحملة . غير أن ما حرص عليه البابا من اخضاع الحركة (الصليبية) ، للسيطرة الروحيـــة ، جعله يرفض هذه الدعوى . والراجح ان ريموند كان يأمل في أن الحاجـة الى قائد علماني سوف تشتد ، وفي نفس الوقت دبر أمر رحيله الى الشرق في صحبة القائد الروحي ، ادهيمر اسقف لى بويه .

---

(١) Gesta Francorum II. 7. pp. 32 - 34 .
Albert of Aix . II. 19. p. 313 .

اتخذ ريموند الصليب ، أثنـــاء انعقاد مجمع كليرمونت في نوفمبر سنة ١٠٩٥ ، غير أنه لم يستعد لمغادرة بلاده إلا في اكتوبر من السنة التالية . ونذر ريموند ان يقضي ما تبقى من حياته في الأراضي المقدسة . والراجح أن هذا النذر والقسم ، جرى مع شيء من الشروط والتحفظات ؛ إذ أنه عند مغادرة بلاده في فرنسا ، عهد بادارتها الى ابنه غير الشرعي برتراند ، ولم يتخل مطلقاً عن حقوقـه . وصحبه في رحلته زوجته ، ووريثه الشرعي الفونسو . وباع او رهن جانباً من ممتلكاته ، كما يتوافر له من الأموال ، ما يكفي للانفاق على حملته ، غير أنه فيما يبدو التزم الاقتصاد في تجهيزها . أما شخصيته فانها بلغت من التعقيد أنه ليس من السهل تقديرها . وما قام به ريموند من اعمال تدل على أنه عنيد ، مغامر ، يسعى للحصول على الربح والكسب ، شديد الغرور . غير أن ما اتصف به من طباع دمثة ، لقيت قبولاً عند البيزنطيين ، الذين رأوا أنه يفوق سائر رفاقه من الصليبيين تمدناً وأدباً . وأثارهم ايضاً بأنه يفوق زملاءه في الصدق والثقة . أشارت أنـّه كومنين، التي دوّنت الاحداث التي وقعت فيما بعد الى أن تحيزها الى جانبه ، يرجع الى تفوق سلوكه وطبيعته ، ونقاء حياته . واعتبر ادهيمر ، اسقف لى بويه ، المعروف بأنه رجل من الطراز الاول ، ريموند من خيرة الأصدقاء .

انحاز الى حملة ريموند الصليبية عدد كبير من نبلاء جنوب فرنسا ، ومنهم رامبالد كونت اورانج ، وجاستون كونت بيرن ، وجيرار كونت روسيلون ، ووليم كونت مونبلييه ، وريموند كونت لى فوريه ، وإيزوار كونت جاب . واصطحب ادهيمر اخويه فرانسيز - لامبرت مونتيل سيد بيريتز ، ووليم هيو مونتيل ، فضلاً عن كل رجـــاله . وتلى ادهيمر في الانحياز الى ريموند ، وليم اسقف اورانج [١] .

---

(١) عن حياة ريموند المبكرة ، انظر : =

عبرت الحملة جبال الالب ، عند كول دي جنيفر ، واخترقت شمال ايطاليا حتى رأس بحر الأدرياتي . ولعل ما اشتهر به ريموند من الميل الى الاقتصاد ، حمله على ألا يتخذ طريق البحر الأدرياتي ، بل التزم السير ازاء ساحله ، مجتازاً استريا ودالماشيا . ولم يكن ذلك قراراً حكيماً ، نظراً لسوء حالة الطرق بدالماشيا ، ولما اشتهر به سكان هذه الجهات من خشونة الطبع والعداوة . على أنه لم يقع حادث من الأحداث عند اجتياز استريا . غير أن الجيش ظل نحو ٤٠ يوماً من ايام الشتاء القارس ، يشق طريقه في دروب دالماشيا الصخرية الوعرة ، وتعرضت مؤخرة الجيش دائماً لاعتداء القبائل الصقلبية المتوحشة . واتخذ ريموند مكانه في مؤخرة الجيش لحمايته . فأنقذ رجاله ذات مرة ، بما اقامه في عرض الطريق من حاجز مؤلف من الاسرى الصقالبة الذين وقعوا بيده ، ونكل بهم ، ومثل بهم اشنع تمثيل . وحينما خرج ريموند بجيشه ، وفّر من المؤن ما يكفي جنده طول الرحلة ، فلم يهلك احد من رجاله ، جوعاً او في قتال . فلما وصل آخر الأمر الى اسكودرا ، اخذت المؤن في النفاد . فاجتمع ريموند مع الامير الصربي بودين ، الذي وافق ، بعد ان حصل على هدايا قيمة ، على ان يسمح للصليبيين بأن يشتروا ما شاءوا من اسواق المدينة . غير انه لم يتيسر لهم الحصول على المؤن ، وكان لزاماً على الجيش أن يمضي في طريقه وقد اشتد به الجوع والبؤس ، حتى وصل الى الحد البيزنطي ، شمال دورازو ، في اوائل فبراير . وكان كل من ريموند وأدهيمر ، يأمل في أن تنتهي عندئذ المتاعب .

= Vaissète : Histoire de Languedoc, vol. III, pp. 466 - 477.
Manteyer : La Provence du 1er au XIIe siècle, pp. 303 ff.
على أن أسماء زعماء جنوب فرنسا الذين اشتركوا في الحملة الصليبية ، وردت مضطربة عند :
Albert of Aix, II. 22 - 3, pp. 315 - 316.
عن أدهيمر وأسرته ، انظر ما ورد من المراجع في ص ١٦٣ — ١٦٤ .

رحب يوحنا كومنين بالصليبيين في دورازو ، حيث كان ينتظرهم رسل من قِبل الامبراطور ، وحرس من البجناك ، ليصحبوهم الى القسطنطينية على امتداد الطريق الرئيسي Via Epnatia . ارسل ريموند من قِبله ، سفارة الى القسطنطينية لتعلن خبر قدومه . وبعد ان استراح الجيش اياماً في دورازو ، استأنف المسير . على أنه تخلف عن المسير مع الجيش ، شقيق ادهمير ، سيد بيرينز ، حتى يتم شفاؤه من مرض ألم به نتيجة متاعب ومخاطرات السفر . على ان رجال ريموند لم يسهل ضبطهم ، ولم يخضعوا للنظام . كرهوا وجود الحراس البجناك الذين ظلوا يرقبونهم من كل ناحية . وما اتصفوا به من الميل الى الغارة ، ادى الى استمرار مشاحناتهم مع حراسهم . وفي احدى المناوشات لقي اثنان من البروفنساليين مصرعهما ، بعد ان مضى يومان على مسير الحملة . ولم يلبث أدهيمر نفسه ان ضل الطريق ، فاعتدى عليه البجناك ، وجرحوه ثم اسروه ، دون ان يفطنوا الى شخصيته . ولم يلبث ان عاد الى الجيش ، ولم يحزن لما جرى . غير أن عساكره ساءهم ما حدث ، وازداد حنقهم ، واشتدت ثائرتهم حينما تعرض ريموند نفسه للهجوم في أحوال مماثلة ، قرب إديسا .

وعند سالونيك ، تخلف ادهيمر عن الجيش ، كيما يعالج جراحه . وظل بسالونيك حتى لحق به اخوه ، قادماً من دورازو . ولو لم يكن لأدهيمر من سلطان قوي في ضبط العساكر ، لازداد حال الجيش سوء ، غير انه لم يحدث ما يكدر الصفو ، حتى وصل الجيش الى روسه في تراقيا . على أن عساكر بوهمند ازدادوا سروراً وسعادة ، لما لقوه قبل اسبوعين من قدوم جيش ريموند ، من اهل المدينة (روسه) من استقبال حافل . ولعل ما قام به رجال ريموند من الاعتداء ، يرجع الى أن اهل المدينة لم يتوافر لديهم من المؤن ما يبيعونه للعساكر الصليبية . وبعد أن هتف العساكر : « تولوز ، تولوز » ، هاجموا اسوار المدينة ، واقتحموا بابها ، ونهبوا كل دورها . وحدث في رودوستو بعد ايام قليلة ، أن التقى العساكر بسفراء

ريموند ، عند عودتهم من القسطنطينية ، يصحبهم رسول من قِبل الامبراطور ، يحمل رسائل ودية ، تلح على ريموند بالمبادرة الى المسير الى القسطنطينية ، وتنطوي ايضاً على الاشارة الى حرص كل من بوهمند وجودفري ، على قدومه وحضوره . والراجح أن الشطر الاخير من الرسالة ، والخوف من اتخاذ قرارات هامة اثناء تغيب ريموند ، هو الذي جعل ريموند يقبل الدعوة بالتعجيل بالسير الى العاصمة ، فترك جيشه ، وبادر بالتوجه الى القسطنطينية فبلغها في ٢١ ابريل .

ولما ارتحل ريموند ، لم يعد بالجيش من القادة من يستطيع أن يحفظ نظامه . فبادر العساكر الى الاغارة على الريف . على أن فصائل كثيرة من الجيش البيزنطي كانت ترابط في الجهات القريبة ، فتحركت لمهاجمة المغيرين ، وأسفر القتال عن هزيمة عساكر ريموند وهروبهم ، بعد أن تركوا اسلحتهم وأمتعتهم في ايدي البيزنطيين . وبلغت انباء الكارثة ريموند عند تأهبه للسير للقاء الامبراطور (١) .

ريموند والامبراطور :

لقي ريموند استقبالاً حافلاً في القسطنطينية . اذ نزل بقصر خارج أسوار المدينة ، غير أنه لم يلبث ان جرت دعوته للقدوم الى القصر (الامبراطوري) ، حيث عرض عليه ان يحلف يمين الولاء . على ان ما عاناه في طريقه من المتاعب وما سمعه من أنباء سيئة ، اثار غضبه . وحيَّره وساءه ، الموقف الذي وجده بالقصر . اذ ان الهدف الذي لم يحد عنه

---

(١) أورد تفاصيل رحلة ريموند الى القسطنطينية، في شيء من المرارة الشديدة ضد البيزنطيين المؤرخ : Raymond of Aguilers I - 11, pp. 235 - 238 .

ابداً ، هو أن يجري الاعتراف بـه قائداً عسكرياً لكل الحملة الصليبية .
غير أن سلطته الراهنه انما استمدها من البـابا ومن صلته بممثل البابا ، أدهيمر اسقف لى بويه . على أن الاسقف أدهيمر كان غائباً ، ولذا افتقر ريموند الى ما قد يناله من تأييد ونصيحة لو كان الاسقف حاضراً . ولم يشأ ريموند أن يلتزم بشيء في أثناء غياب الاسقف ، وأكثر من ذلك ، أنه اذا أقسم يمين الولاء للامبراطور البيزنطي ، مثلما فعل سائر القـادة الصليبيين ، فليس لذلك من معنى ، سوى التخلي عن الصلة الشخصية التي تربطه بالبـابوية . وسوف يؤدي ذلك الى ان تهبط مكانته الى مستوى القادة الآخرين . يضاف الى ذلك أنه ثمت خطر آخر . إذ ادرك ريموند بفطانته ان بوهمند يعتبر نداً خطيراً ومنافساً قوياً له . أما بوهمند فانه ، فيما يبدو ، حاز رضى الامبراطور ، وترددت الشائعة أنه سوف يعين من قبل الامبراطور قائداً عاماً للحملة . فاذا اقسم ريموند يمين الولاء ، فلم يكن لذلك من معنى سوى أنه لن يفقد اسبقيته فحسب ، بل سوف يجد نفسه ايضاً خاضعاً لسلطة بوهمند ، باعتبـاره ممثلاً للأمبراطور . فأعلن ريموند أنه لم يأت الى الشرق ، إلا لكي يعمل في سبيل الله ، والله تعالى وحده هو وليه وسيّده ، ودل بذلك على أنه يعتبر الممثل العلماني للبابا .
غير أنه اضاف الى ذلك ، أنه اذا تولى الامبراطور نفسه قيادة القوات المسيحية المتحدة ، فلن يمتنع عن الخدمة تحت رياسته . فيدل اذعانه على أن ريموند يكره بوهمند لا الامبراطور . على أن في وسع الامبراطور بأن يرد على ذلك ، بأن احوال الامبراطورية لا تسمح له بأن يغـادر بلاده . ولم تجد نفعـاً توسلات قادة الغرب عند ريموند لتغيير فكره ورأيه ، وذلك لاعتقادهم بأن نجـاح الحملة بات في خطر ، وصار موضع شك . ولما كان يأمله بوهمند في أن يتولى القيادة العليا للحملة ، ولحرصه على ارضاء الامبراطور ، صرح بأنـه سوف يمضي في تأييد الامبراطور ونصرته ، إذا لجأ ريموند الى منازعة الامبراطور ومهاجمته ، بل ان

جودفري ذاته ، لم يسعه إلا أن يشير الى ما تتعرض له مسلحة المسيحية من خطر وضرر بسبب موقف ريموند . اما الكسيوس ، فانه تنحى جانباً عن المناقشات ، على الرغم من انه لم يبذل لريموند من الهدايا ما منحه لسائر الامراء . وحدث آخر الامر ، في ٢٦ ابريل ، أن وافق ريموند على أن يعدّل في صيغة القسم ، بأن وعد باحترام وتبجيل حياة الامبراطور وشرفه ، وأنه يحرص على ألا يصيب الامبراطور ضرر من جانبه ، ومن جانب رجاله . على أن هذا الضرب من الايمان لم يكن غير مألوف عند الاتباع في جنوب فرنسا ، ولذا اكتفى به الكسيوس وأقره .

فلما انتهت هذه المفاوضات ، عبر الى آسيا الصغرى بوهمند ورجاله ، وفي تلك الاثناء ، كان جيش ريموند قد احتشد في رودوستو ، وقد ضعفت روحه المعنوية ، في انتظار قدوم أدهيمر اسقف لى بويه ، ليتولى قيادته الى القسطنطينية . على أننا لا نعلم كثيراً عن نواحي نشاط ادهيمر ، ولعله اجتمع برجال الكنيسة اليونانية . ومن المحقق أنه اجتمع بالامبراطور الكسيوس ، وكانت هذه الاجتماعات ودية . والراجح انه اسهم في تسوية الامور بين الامبراطور وريموند ، فلم تلبث العلاقات أن تحسنت بينهما . والراجح أن رحيل بوهمند كان بالغ الاهمية في تسوية الامور بين الامبراطور وريموند ، إذ صار الامبراطور يجتمع بريموند على انفراد ، وشرح له أنه لا يضمر الحب للنرمان ، وأن بوهمند لم يفز في الواقع بالقيادة العليا . وبعد مضي يومين على اتخاذ ريموند يمين الولاء للأمبراطور البيزنطي ، اجتاز بجيوشه البوسفور ، غير أنه لم يلبث أن عاد الى القسطنطينية ، حيث مكث اسبوعين في البلاط البيزنطي . ولما غادر البلاط ، كانت العلاقات الودية قد توطدت بينه وبين الكسيوس .

وأدرك الكسيوس أنه صار حليفاً لشخص قوي يستطيع أن يتخذه لمناوئة بوهمند . وتغير موقف ريموند من الامبراطورية [1] .

روبرت النرمندي وستيفن بلوا :

أما الجيش الصليبي الرابع ، الذي جاء من الغرب ، فانه بدأ سيره من شمال فرنسا في اكتوبر ١٠٩٦ ، أي بعد فترة وجيزة من خروج ريموند من موطنه . وتولى قيادة هذا الجيش روبرت دوق نرمنديا ، وصهره ستيفن كونت بلوا ، وابن عمه روبرت الثاني كونت فلاندر . كان روبرت الابن الأكبر لوليم الفاتح وكان في الاربعين من عمره ، لين الجانب ، دمث الأخلاق ، تنقصه الكفاية والاقدام ، على الرغم من أنه لا يفتقر الى

(١) وردت تفاصيل مفاوضات ريموند مع الامبراطور في كتابي :
Raymond of Aguilers II. p. 238.
Gesta Francorum II. 6. p. 52.
وتتفق الروايتان على أن ريموند كان حريصاً على ان ينتقم لنفسه ، لما أصاب جيشه من هزيمة في رودوستو ، وان الأمراء لقوا عناء شديداً في اقناعه بأن يقسم يميناً من الأيمان . واتفق المصدران ايضاً في عبارات اليمين التي أخذها . على أن ريموند أجيل انفرد بأن الكونت كان مستعداً لأن يخدم الكسيوس نفسه . وإني لأعتقد أن ما يكنه من الحقد لبوهمند يفسر ما عنده من بواعث . ولم تشر أنه كومنين مطلقاً الى هذه المفاوضات ، وكل ما روته أن أباها كان يحب ويحترم الصنجيل لما اشتهر به من الدماثة والأمانة . وتضيف الى ذلك بقولها : ان الكسيوس أجرى محادثات طويلة مع الكونت ريموند ، واستأنست بحديث الكونت عن تحذير الامبراطور من بوهمند ، ووعده بمساندة البيزنطيين (Alexiad X. XI. 9, vol. II. pp. 234 - 235).
وليس ثمة ما يدعو الى الافتراض بأنها خلطت هذه الزيارة بما قام به ريموند من زيارة لألكسيوس سنة ١١٠٠ . أما ألبرت الذي استقى معلوماته من احد عساكر جودفري ، فيوافق على أن ريموند غادر القسطنطينية وهو على خير علاقة مع الكسيوس ، بعد ان مكث بها نحو اسبوعين (Albert of Aix II. 20. p. 314) . وعن الأيمان التي يجري اتخاذها في لانجدوك ، انظر :
Vaissète : Histoire de Languedoc, vol. V. pp. 372, 381. vol. VII. p. 134 ff.

الشجاعة والجاذبية . وظل روبرت منذ وفاة ابيه في نضال مرير مع اخيه ، وليم روفوس ملك انجلترا ، الذي غزا دوقية (نرمنديا) مراراً . واشتد تأثره لدعوة اربان الى الحرب الصليبية ، فلم يلبث أن اعلن الاشتراك فيها . ومقابل ذلك ، اغتنم البابا اربان فرصة وجوده في شمال فرنسا ، فدبر أمر التوفيق بينه وبين اخيه . على ان روبرت أمضى شهوراً عديدة في تجهيز الحملة الصليبية ، ولم يستطع ان يجمع المال اللازم لها إلا بعـــد أن رهن دوقيته لدى وليم ، مقابل عشرة آلاف مارك (قطعة فضية) . وتم التوقيع على وثيقة الرهن في سبتمبر سنة ١٠٩٦ . ولم تنقض إلا أيام قليلة ، حتى سار روبرت بجيشه الى بونتارلييه حيث انحاز اليه ستيفن بلوا وروبرت فلاندر . وصحبه في الحمـلة اودو اسقف بايو ، ووالتر كونت سان فاليري وورثا الدوقين مونتجومري ومورتاين ، وجيرار جورناي ، وهيو سان بول ، وأبناء هيو جرانت ميسنل ، وعدد من الفرسان والرجالة ، لا من نرمنديا فحسب ، بل ايضاً من انجلترا واسكتلنده وبريتاني ؛ على أن النبيل الانجليزي الوحيد الذي صحب الحملة الصليبية ، وهو رالف جوادر ايرل نوفلك ، كان وقتذاك في المنفى ، يعيش في ضياع امه في بريتاني[1] .

لم يكن ستيفن بلوا يميل الى الاشتراك في الحملة الصليبية . غير أنـه تزوج اديلا ابنة وليم الفاتح ، وكان لأديلا الكلمة النافذة في دار ستيفن ، وهي التي تتخذ القرارات . فحملته على أن يخرج للحرب الصليبية ، فلبى دعوتها ، وخرج محارباً . وصحبه في الحملة كبار أتباعه ، امثال ايفيرار لى بويل ، وجيرين جيرونا ، وكارو آسيني ، وجفري جيرين ، وقسيسه اسكندر ؛ ومن بين جماعته فولشر قسيس شارتر ، المؤرخ المعروف . وإذ كان ستيفن

---

(١) عن روبرت النرمندي ، انظر : David : Robert Curthose.
وفي الملحق الثاني (بآخر الكتاب) قائمة كاملة برفاق روبرت .

يعتبر من أغنى رجال فرنسا ، لم يجد صعوبة في جمع المال اللازم لحملته ، وعهد بادارة أملاكه الى زوجته الحازمة [١] .

أما كونت فلاندر فكان اصغر سناً ، غير أن شخصيته كانت بالغة القوة . خرج والده ، روبرت الاول ، سنة ١٠٨٦ ، حاجاً الى بيت المقدس ، وفي أثناء عودته من الحج ، دخل في خدمة الامبراطور الكسيوس فترة من الزمن ، غير أن الصلة بينهما ظلت مستمرة حتى وفاة كونت فلاندر ، سنة ١٠٩٣ . ولذا كان من الطبيعي أن يشترك ابنه روبرت الثاني في الحرب الصليبية وقتال المسلمين . وعلى الرغم من أن جيشه كان اقل عدداً من جيس ريموند او جيش جودفري ، فانه اشتهر بفائق عدته وتجهيزه . صحبه عساكر من برابانت بقيادة بلدوين ألوست كونت غنت . وعهد بادارة اراضيه أثناء غيابه ، الى زوجته الكونتيسة كلمنتيا البرجندية [٢] .

ومن بونتارليه خرج الجيش المتحد ، متوجهاً صوب الجنوب ، فاجتاز جبال الألب الى ايطاليا . وعند اجتيازه لوكا في نوفمبر ، التقى بالبابا اربان ، الذي مكث بها بضعة أيام ، أثناء عودته من كريمونا الى روما . استقبل اربان زعماء الحملة فشملهم ببركته . وتوجه الجيش الى روما ، لزيارة قبر القديس بطرس ، غير أنه رفض التدخل فيما نشب من نضال بين أتباع اربان ، وأتباع جيبرت البابا المغتصب ، المعين من قبل الامبراطور هنري الرابع ، وقد أثار هذا النضال الاضطراب في مدينة روما .

---

(١) عن ستيفن بلوا ، انظر :
Hagenmeyer : Die Kreuzzugsbriefe, pp. 48 - 56 .

(٢) عن روبرت فلاندر وكلمنتيا ، انظر المصدر السابق : (Hagenmeyer)
ص ٢٤٧ — ٢٤٩ .
أورد ألبرت قائمة بأسماء الفرسان الذين اشتركوا في الحملة الصليبية من شمال فرنسا :
(Albert of Aix II, 22 - 23, pp. 315 - 316) .

وخرجوا من روما ، وتوجهوا عن طريق مونتي كاسينو الى الدوقية النرمانية بالجنوب . فلقي الجيش استقبالاً حافلاً من قبـــل روجر بورصا ، دوق ابوليا ، الذي يرتبط بصلة المصاهرة مع كونت فلاندر ، عن طريق زوجته اديلا أرملة ملك دانمرقة وأخت كونت فلاندر . واعترف روجر بورصا بدوق نورمنديا زعيماً للعنصر النرمندي . فبذل روجر بورصا لصهره هدايا وفيرة قيمة ؛ غير أن صهره لم يقبل من هذه الهدايا إلا المقدسات الدينية ، مثل شعرة من شعرات العذراء ، وقطعاً من عظام القديسين متى ونيقولا ، فأرسلها الى زوجته ، لتخلدها في دير واتن [1] .

بلدوين ألوست :

قرر روبرت النرمندي وستيفن بلوا ، أن يمضيا فصل الشتاء في راحة وهدوء في كالابريا . غير أن روبرت بادر بالمسير برجاله الى باري ، وعبر بحر الأدرياتي الى ابيروس ، في اوائل شهر ديسمبر ، فوصل الى القسطنطينية دون أن يعترضه حـــادث من الاحداث ، وبلغ بيزنطة في نفس الوقت الذي قدم فيه بوهمند . غير أن كونت الوست ، الذي حـــاول أن يهبط بالقرب من شيمارا ، التي تقع في اقصى الجنوب ، بعيداً عن الموانىء التي وقع الاختيار عليها للنزول بها ، لم يلبث أن اكتشف أن فصيلة من الجنود البيزنطية اغلقت الميناء ، فدارت معركة بحرية صغيرة ، اسهبت أنـّه كومنين في وصفها ، نظراً لما يربطها من صداقة مع بطل المعركة ماريانوس مافروكاتاكلون ابن قائد الاسطول . وعلى الرغم من بسالة القسيس اللاتيني ، الذي راع البيزنطيين ، بعدم اكترائه بالزي الديني ، فان السفينة

---

(١) عن كلمنتيا كونتيسة فلاندر ، انظر : Fulcher of Chartres I, VII. pd. 163 - 8 . Hagenmeyer : op. cit. pp. 142 - 143 .

برابانسون تعرضت للهجوم البيزنطي ، ثم وقعت في يد البيزنطيين . وأرغم الكونت ورجاله على النزول في دورازو [1] . والواضح ان الفلمنكيين لم يُبدوا اية معارضة في بذلهم يمين الولاء للأمبراطور الكسيوس . وكان الكونت روبرت من الأمراء الذين ألحوا على ريمونـــد في أن يـذعن للأمبراطور البيزنطي [2] .

وبقي في جنوب ايطاليا حتى الربيـع ، كل من روبرت النرمندي وستيفن بلوا . ومـا افتقرا اليه من الحماس كان له تأثير على اتباعهما ، فأخذ كثير منهم في الطواف والتجوال راجعين الى بلادهم . ثم حـدث آخر الامر ، في مارس ، أن تحرك الجيش الى برنديزي ، وفي ٥ ابريل ، تجهز للإقلاع منها . على انه حدث ، لسوء الحظ ، ان انقلبت في البحر اول سفينة استقلوها اثناء تأهبها للسير ، فغرقت ، فهلك نحو اربعمائة راكب بدوابهم من الخيول والبغال ، فضلاً عن خزائن المال . ومـا حدث من

---

(١) Fulcher of Chartres, loc. cit. p. 168 .

Anna Comnena, Alexiad X. V111 2 - 10. vol. II, pp.215 - 220.

Maricq : « Un Comte de Brabant et des Brabançons dans deux textes byzantins » in the Bulletin de la Classe des Lettres of the Royal Academy of Belgium. vol. XXXIV, pp. 463 ff.

حقق ما أوردته أنه كومنين عن «ho Komës Prebentzas» بأنه هو بلدوين الثاني كونت الوست، وبذلك جرى نقض ما سبق ان أورده جريجوار في تحقيقه على أنه ريتشارد الزعيم Richard of the Principate .

Grégoire : « Notes sur Anne Comnène » in Byzantion , vol. 111. pp. 312 - 313 .

أما نظرية Ducange عن Komës Prebentzas بأنه ريموند كونت تولوز والذي كان ايضاً ماركيز البروفانس، والتي أخذت بها أنه Buckler : Anna Comnena , p. 465 . فتعتبر مستحيلة ، نظراً لأن أنه كومنين كانت تطلق على ريمونـــد ، الصنجيل ، وكل حركاته معروفة لنا .

(٢) Raymond of Aguilers 11. p. 238 .

اكتشاف الجثث التي قذفت بها الأمواج الى الساحل ، والتي تحمل على الأكتاف الصلبان ، لم ترد المؤمنين إلا قوة وثباتاً ، غير أنها في نفس الوقت لم تفلح في منع المترددين خائري القوة ، من التخلي عن الحملة . ولم يجد معظم الجيش صعوبة في ركوب البحر ، فوصل دورازو سالماً بعد رحلة شاقة استغرقت اربعة ايام . احتفلت السلطات البيزنطية في دورازو بقدومهم وأمدتهم بحرس يصحبهم في الطريق الرئيسي Via Egnatia المؤدي الى القسطنطينية . على أن الرحلة تمت في هدوء وسلام ، ولم يعكر صفوها الحادث البسيط الذي وقع اثناء اجتياز الجيش جدول ماء ، في سلسلة جبال بندوس ، حينما اجتاح الفيضان المفاجيء جماعة من الحجاج ، فغرقوا . ثم وصل الجيش الى القسطنطينية في مايو ، بعد ان مكث في سالونيك اربعة ايام . وجرى إعداد معسكر لهم خارج اسوار المدينة ، وتقرر السماح لكل جماعة مؤلفة من اربعة او خمسة رجال ، أن تدخل الى المدينة لمشاهدة مناظرها ، وللتعبد في مشاهدها وكنائسها . والمعروف ان الجيوش الصليبية السابقة اجتازت فعلاً البوسفور ، ولم يلمس الصليبيون المتأخرون عند البيزنطيين شيئاً من الكراهية والحقد . وأدهشهم ما لمسوه من جمال المدينة وروعتها ، فنعموا بما بذلته لهم من اسباب الراحة والدعة . فشكروا للأمبراطور ما منحهم من الاموال ، وما قدمه لهم من الثياب الحريرية والمؤن والخيول . فبادر زعماؤهم بحلف يمين الولاء له ، وحمد لهم الامبراطور هذا السلوك فغمرهم بالهدايا . وحينما كتب ستيفن بلوا ، في الشهر التالي الى زوجته ، التي كان دائماً يراسلها ، كان في غمرة الغبطة والسرور ، لما لقيه من الامبراطور من الحفاوة . أقام ستيفن بالقصر الامبراطوري عشرة ايام ، عامله الامبراطور أثناءها على أنه احد ابنائه ، فصار يسدي اليه النصح ، ويغمره بالهدايا النفيسة ، وعرض عليه ان يؤدب اصغر ابنائه . وما كان له تأثير خاص عند ستيفن ، ما بذله الامبراطور من السخاء والكرم لجميع رجال الجيش الصليبي ، وما

اعده من نظام متين لتموين العساكر المقاتلة . وكتب ستيفن الى زوجته : « إن والدك ، يا عزيزتي ، مشيراً بذلك الى وليم الفاتح ، بذل منحاً كثيرة ، غير أنه لا يضارع في ذلك هذا الرجل » .

نجاح خطة الامبراطور :

أمضى الجيش بالقسطنطينية اسبوعين ، قبل أن يجتاز البوسفور الى آسيا . بل إن عبور البوسفور كان من دواعي سرور ستيفن ، لأنه سبق أن سمع ان اجتياز القنال محفوف بالخطر ، غير أنه تبين له انه لم يزد في ذلك على اجتياز نهر المارن او نهر السين . ساروا ازاء خليج نيقوميديا ، مخترقين المدينة ذاتها ، ليلحقوا بالجيش الرئيسي الذي اخذ وقتذاك يحاصر نيقيه [1] .

وأضحى في وسع الكسيوس أن يتنفس من جديد ، بعد رحيل الصليبيين . فكل ما كان يرغب في الحصول عليه من الغرب ، أن يرسل اليه عساكر مأجورة ، غير انه جاء بدلاً من ذلك جيوش ضخمة ، يتولى كل منها قادة منهم ، فما من حكومة لا تحفل حقاً بأن تجد أعداداً من القوات الحربية المتحالفة المستقلة تغزو بلادها ، ولا سيا اذا كانت هذه القوات في الدرك الاسفل من الحضارة . إذ لا بد من امدادها بالمؤن ومنعها من الاغارة والتخريب . أما الحجم الحقيقي للجيش الصليبي فلا

---

(١) Fulcher of Chartres 11. V111. pp. 168 - 176.
عن رسالة ستيفن بلوا الى زوجته ، انظر :
Hagenmeyer : op. cit. pp. 138 - 140.
هذه الرسالة صدرت من نيقية . اما الرسالة السابقة التي صدرت من القسطنطينية وورد بها وصف الرحلة ، والتي يشير اليها ستيفن في هذا الموضع فقد ضاعت .

يمكن تقديره إلا تخميناً . وما حدث في العصور الوسطى من تقديرات، اتسمت دائماً بالمبالغة الشديدة . غير أن جموع بطرس الناسك ، التي ضمت بين صفوفها عدداً كبيراً من غير المحاربين ، بلغت فيما يبدو نحو عشرين الف ، أما الجيوش الصليبية الرئيسية ، وهي جيوش ريموند وجودفري وشمال فرنسا ، فيربو كل منها على عشرة آلاف ، يدخل في ذلك العـدد غير المحاربين . ويقل عن هذا العدد جيش بوهمند ، يضاف الى ذلك جموع اخرى اقل عدداً . غير انه لا بد ان نفذ الى الامبراطورية من الغرب ، بين صيف ١٠٩٦ ، وربيع ١٠٩٧ ، من الجيوش ما يتراوح عددها جميعاً بين ستين ومائة الف شخص [١] . وفي الجملة ، حاز الامبراطور نجاحاً كبيراً فيما أعده من تدابير لمعالجتهم . فلم يُعان احد من الصليبيين قلة المؤن ، عند اجتياز جبال البلقان . والغارات الوحيدة التي وقعت من اجل الحصول على الطعام ، هي تلك التي قام بها والتر سانزافوار (المفلس) في بلغراد ، وبطرس في بيلابلانكا ، وذلك في ظروف استثنائية ، وتلك التي قام بها بوهمند في كاستوريا ، اثناء مسيره في طريق وعر في قمة الشتاء . ولما لم يكن لدى الكسيوس من قوات وفيرة ، لم يتيسر منع ما حدث من الغارات الصغيرة او الهجمات المتفرقة الطائشة على المدن . على ان كتائب الكسيوس من البجناك ، الذين اشتهروا بالطاعة العمياء لأوامر الامبراطور ، دلت على انها قوة أمن بالغة الكفاية ، على الرغم من أنها لا بـــد ان ضايقت الصليبيين ، على حين ان مبعوثيه التزموا عادة الكياسة في معاملة امراء الغرب . ومن الدليل على اضطراد نجاح طرق الامبراطور ووسائله ، السهولة التي تم بها اجتياز الجيوس الاخيرة المؤلفة من رجال شمال فرنسا ، الذين لم ينالوا حظاً من التدريب والنظام ، وتولى امرهم قادة ضعاف .

---

(١) انظر : الملحق الثاني   Appendix 11. pp. 336 - 341 .

مصالح الامبراطور :

وحصل الكسيوس بالقسطنطينية على يمين الولاء من كل الأمراء ما عدا ريموند ، الذي تفاهم معه سراً . ولم يخالجه الشك والوهم في القيمة العملية لليمين ، وفي صدق الرجال الذين حلفوا له اليمين ؛ على أن هـــذه اليمين هيأت له من الميزات القانونية ، ما سوف تثبت اهميتها . اذ لم يكن من اليسير تحقيق النتيجة الناجمة عنها ؛ فعلى الرغم من ان كبـار العقلاء من القادة امثال بوهمند ، وأذكياء المراقبين امثال فولشر شارتر ، أدركوا ضرورة التعاون مع بيزنطة ، فان صغار الفرسان وسائر العساكر ، اعتبروا اليمين ضرباً من الاذلال ، بل عدوها دليلاً على انعدام الثقة [1] . وما أثار تعصبهم وتحديهم للبيزنطيين ، ما تلقوه من ترحيب بارد من اهل الريف ، الذين ظنوا انهم جاءوا لانقاذهم . وما اشتهرت به القسطنطينية من الاتساع والفخامة والثروة ، ونشاط سكانها من التجار والصناع ، وما يتدثر بـــه نبلاؤها من ثياب متمدنة جميلة ، وما يرتديه كبـــار العقائل من ثياب فاخرة ، وقـــد تحلين بالزينة ، وسار من ورائهن حاشية من الطواشية والجواري ، كل ذلك أثار عندهم الازدراء والاحتقار ، الذي امتزج بإحساس بالنقص بالغ الاضطراب . لم يفهموا لغة البلاد وعاداتهـا ، بل إن صلوات الكنيسة وطقوسها كانت غريبة عليهم .

وبادلهم البيزنطيون هذه الكراهية . اذ ان سكان العاصمة (القسطنطينية) اعتبروا هؤلاء اللصوص الأجلاف الغـــلاظ الذين لا ضابط لهم ، والذين عسكروا زمناً طويلاً في ارباض مدينتهم ، مصدر نكد واضطراب شديد ، بينما تجلى شعور اهل الريف في رسالة كتبها ، تيوفيلاكت رئيس اساقفة

---

(١) Fulcher of Chartres 1. V111 9, pp. 175 - 176, 1. 1X. 1, p. 179.

بلغاريا ، من مقره في اوكريدا الواقعة على الطريق الرئيسي Via Egnatia . وبرغم ما يؤخذ عادة على تيوفيلاكت من الميل الى الغرب ، لم يسعه إلا أن يتحدث عن المتاعب التي أثارها اجتياز الصليبيين لأسقفيته ، غير أنه يضيف أنه هو ورعيته اخـــذوا يتعلمون كيف يتحملون في صبر وأناة هذا العبء[1] . لم يبشر استهلال الحرب الصليبية بتحسن العلاقـات بين الشرق والغرب .

ومع ذلك فالراجح ان الكسيوس لم يكن ساخطاً ، اذ انجاب الخطر عن القسطنطينية ، وتوجه الجيش الصليبي الكبير لقتـــال الترك . وعزم الكسيوس مخلصاً على ان يتعاون مع الصليبيين ، انما بشرط واحـد ، ألا يضحي بمصالح الامبراطورية في سبيل مصالح فرسان الغرب ، اذ جعـل واجبه اولاً نحو قومه . يضاف الى ذلك أنه لم يختلف عن كل البيزنطيين في الاعتقاد بأن سعادة العـالم المسيحي ، تتوقف على سعادة الامبراطورية المسيحية المعروفة في التاريخ . وكان اعتقاده سليماً وصائباً .

---

(١) انظر رسالة تيوفيلاكت رئيس أساقفة بلغاريا في :
MPG. vol. CXXVI, cols 324 - 325 .

الكتاب الرابع

الحرب مع الترك

الفصل الاول

الحملة الصليبية في آسيا الصغرى

مهما اشتد النزاع بـين الامبراطور والأمراء الصليبيين على حقوقهم الاساسية ، وعلى توزيع الفتوح المقبلة ، فلم يكن ثمة خلاف في المراحل الاولى للحملة ضد المسلمين . فإذا كانت الحملة الصليبية حريصة على الوصول الى بيت المقدس ، فلا بد من استخلاص طرق آسيا الصغرى ، إذ كان اكبر هـدف للسياسة البيزنطية ، هو طرد الترك من آسيا الصغرى . والواضح أن الاتفاق كان تاماً حول الخطة الحربية ، ونظراً لأن جيشاً بيزنطياً كان يساند الصليبيين حتى وقتذاك ، احب الصليبيون ان ينصاعوا لأوامر القادة البيزنطيين المتمرسين في كل ما يتعلق بالشئون الحربية .

كان اول هدف ، هو الاستيلاء على نيقيـه عاصمة السلاجقة . وتقع نيقيه على شواطيء بحيرة أسكان ، التي لا تبعد كثيراً عن بحر مرمرة . ويجتازها الطريق الحربي البيزنطي القديم ، على الرغم من أن طريقاً آخر ، يعتبر بديلاً عن الاول ، يسير على مسافة قصيرة الى الشرق منـه . فاذا بقي هذا الحصن الكبير في يد العدو كان ذلك مصدر خطر يهدد سائر الطرق التي تخترق الاقليم . كان الكسيوس حريصاً على أن يبـادر

الصليبيون الى التحرك ، نظراً لقرب حلول فصل الصيف ، كما أن الصليبيين انفسهم كانوا قلقين . ففي الايام الاخيرة من ابريل ١٠٩٧ ، وقبل ان يصل الى القسطنطينية الجيش القادم من شمال فرنسا ، صدرت الاوامر بإقامة المعسكر في بليكانوم ، وبالزحف على نيقيه [1] .

احتشاد الصليبيين امام نيقية :

جرى اختيار الوقت المناسب ، إذ أن السلطان السلجوقي ، قلج ارسلان الاول ، كان غائباً وقتذاك عن عاصمته ، إذ توجه الى الحدود الشرقية كيما ينازع امراء دانشمند السيادة على ملطية ، التي انصرف اميرها الارمني جبرائيل ، الى اثارة النزاع بين الامراء المجاورين ، وايقاع الفتنة والبغضاء بينهم . والواقع ان قلج ارسلان لم يدرك ما يتهدده من خطر من جهة الغرب . فما احرزه في سهولة ويسر من انتصار على جموع بطرس الناسك ، حمله على احتقار الصليبيين . ولعل حرص جواسيسه وعيونه في القسطنطينية على إرضاء سيدهم ، جعلهم يبالغون في اخبار النزاع بين الامبراطور والامراء الغربيين . ولاعتقاده ان الحملة سوف لا تتوغل مطلقاً حتى نيقيه ، خلّف داخل الاسوار ، زوجته وأطفاله وأمواله . لم يبادر قلج ارسلان الى ارسال جانب من جيشه نحو الغرب ، ولم يقرر المضي في اثره بعد الفراغ من تدبير اموره في الشرق ، إلا حينما جاءته اخبار احتشاد عساكر العدو في

---

(١) من العسير تتبع حركات الأمراء نظراً لتعقدها . كان جيش جودفري في بليكانوم منذ أوائل ابريل ، وانضم اليه بها جيش بوهمند . والراجح ان الجيشين تحركا معاً ، على أن جيش جودفري سار قبل ثلاثة ايام من مسير جيش بوهمند ، وقبل ان يصل اليها جيش ريموند ، في ٢٩ او ٣٠ ابريل حتى لا يزدحم المعسكر . اما جيش ريموند فانتظره في بليكانوم بعد ان عاد الى القسطنطينية لزيارة الامبراطور .

بيلكانوم . على أن عساكره لم تصل إلا متأخرة لمنع زحف الصليبيين على نيقية [1] .

غادر جيش جودفري ، امير اللورين ، بليكانوم ، حوالي ٢٦ ابريل ١٠٩٧ ، قاصداً نيقوميديا ، حيث انتظر بها ثلاثة ايام ، فانحاز اليه جيش بوهمند بقيادة تانكرد ، وانضم اليه بطرس الناسك ، ومن تبقى معه من جموعه . اما بوهمند فانه مكث بضعة ايام في القسطنطينية ، كيما يدبر مع الامبراطور امر إمداد الجيش بالمؤن . وصحب العساكر ثلة من المهندسين البيزنطيين بأدوات الحصار ، بقيادة مانويل بوتوميتس . ثم قاد جوفري الجيش من نيقوميديا الى كيفيتوت ، ثم انحرف جنوباً ، مخترقاً الدرب الذي هلك فيه رجال بطرس ، ولا زالت عظامهم تغطي مدخل الدرب ، وتمنع المرور فيه . وإذ خشي جودفري أن يلقي نفس المصير ، ولما تلقاه من الامبراطور من نصيحة ، التزم الحذر في سيره ، فكان يرسل امامه الكشافة والمهندسين ، لتطهير الدرب وتوسيعه ، وتقرر وقتذاك تمييزه بنصب سلسلة من الصلبان الخشبية ، لتكون دليلاً للحجاج الذين يقدمون مستقبلا . وفي ٦ مايو وصل جودفري الى نيقيه . واشتهرت المدينة منذ القرن الرابع بمناعة استحكاماتها ، اما اسوارها التي امتد طولها اربعة اميال ، والتي ارتفع عليها ٢٤٠ برجاً ، فان البيزنطيين دأبوا على صيانتها وإصلاحها . تقع نيقيه على الطرف الشرقي لبحيرة أسكان ، وارتفعت اسوارها الغربية من خلال المياه الضحلة ، فكوّنت شكلاً خماسياً غير منتظم . عسكر جودفري خارج السور الشمالي ،

---

(١) Matthew of Edessa II. CXLIX - CL. pp. 211 - 212, 215.
أورد وصف هجوم قلج ارسلان على ملطية ، وأشار الى أنه كان منصرفاً الى امورها ، حينما هاجم الفرنج نيقيه .

بينما عسكر تانكرد خارج السور الشرقي ، اما السور الجنوبي فاختص به جيش ريموند .

وعلى الرغم من ضخامة الحامية التركية المرابطة في نيقيه ، فانها احتاجت الى امداد . فتقرر إنفاذ الرسل ، الذين وقع احدهم في ايدي الصليبيين ، الى السلطان ، ليحثوه على أن يدفع بالعساكر الى المدينة من الابواب الجنوبية ، قبل ان يكتمل تطويقها . غير ان الجيش التركي لا زال بعيداً عن المدينة ؛ وقبل أن تقترب منها مقدمة الجيش التركي ، كان ريموند قد وصل في ١٦ مايو ١٠٩٧ ، ووزع عساكره امام السور الجنوبي . ولم يمض يومان او ثلاثة حتى انحاز الى جيشه بوهمند بعساكره . على ان تناقص المؤن اضعف الصليبيين قبل قدوم بوهمند . وبفضل مفاوضاته مع الكسيوس ، تدفقت منذ قدومه المؤن على المحاصرين الذين قدموا براً وبحراً . واحتشد كل الجيش الصليبي بعد قدوم روبرت النرمندي وستيفن بلوا بجيوشها . فصار يعمل على أنه كتلة واحدة ، على الرغم من أنه لم يكن للجيش وقتذاك قائد عام ، فكانت القرارات يصدرها الامراء بعد اجتماعهم في هيئة مجلس . ولم يقع بينهم حتى وقتذاك اختلاف خطير . وفي تلك الاثناء تحرك الامبراطور الكسيوس نحو بليكانوم ، حتى يتيسر له الاتصال بالعاصمة ونيقيه [1] .

---

(١) انظر : Gesta Francorum II. 71 . p. 34 .
يصف سير جودفري الى نيقيه .
وتشير أنه كومنين (XI. I. vol. III.p.7) الى أن جانباً من الجيش سار بطريق البحر رأساً من بليكانوم الى كيفيتوت. ويذكر ألبرت ان جودفري وصل الى روفينل في نفس الليلة التي غادر فيها المعسكر في بليكانوم ، وتوقف بها حتى يتسلم رسالة من ريموند بالقسطنطينية ، وانحاز اليه فيها بطرس الناسك (انظر : Albert of Aix II. 20 pp. 313 - 314) . ولا بد ان ألبرت انما يقصد نيقوميديا عند الاشارة الى روفينل، التي تقع على مسافة مرحلة واحدة من بليكانوم. =

لم تصل اول قوة تركية لنجدة (نيقيه) إلا عقب قدوم ريموند ، فألفت المدينة قد اكتمل حصارها من جهة البحر ، ولم تلبث هذه القوة ان انسحبت بعد مناوشة فاشلة مع عساكر ريموند ، وأخذت تترقب الجيش التركي الرئيسي بقيادة السلطان ، الذي اخذ يقترب من المدينـــة . اصدر الكسيوس التعليمات الى بوتوميتس ، بالاتصال بالحامية المحاصرة داخل المدينة . ولما تبين للحامية ما حـدث من التراجع عن انقاذها ، طلب قادتهـا الى بوتوميتس ان ينفذ الى داخل المدينة ، بعد ان بذلوا له الأمان ، ليتناقشوا في امر التسليم . فقبل الطلب ، غير ان الأنبـاء لم تلبث ان ترددت بأن السلطان اضحى قريباً منهم ، فتوقفت المفاوضات .

المعركة خارج نيقية :

وحوالي ٢١ مايو ١٠٩٧ ، قدم السلطان بجيشه من جهـــة الجنوب ، فبادر بمهاجمة الصليبيين ، محاولاً بذلك ان يشق له طريقاً ، ينفذ منه الى المدينة . وتحمل الصدمة ريموند وأدهيمر اسقف لى بويه ، الذي كان على مجنبته اليمنى ، لأنه لم يكن بوسع كل من جودفري او بوهمند ان يخاطر بتخليه عن القطاع الذي تولى حصاره من اسوار المدينه . غير أنه نهض لمساعدة ريموند ، روبرت فلاندر وعساكره . ودارت رحى القتال ، واستمرت المعركة يوماً بأكمله ، ومع ذلـك لم يستطع الترك أن يشقوا لهم طريقاً . فلما ارخى الليل ستوره ، قرر السلطان الانسحاب ، اذ كان الجيش الصليبي

= أورد المؤرخ المجهول خبر وصول ريموند وجعله في ١٦ مايو ، وأشار ايضاً الى وصول جيش شمال فرنسا ، وأيد ذلك فولشر الذي حدد التاريخ .

انظر : Gesta Francorum II. 8. pp. 36 , 38 .

Fulcher of Chartres 1. X. 3. p. 182 .

اقوى مما كان يظن ، حتى اذا التقى جندي بآخر ، لم يكن الأتراك أنداداً اقوياء لفرسان الغرب المزودين بأحسن الاسلحة ، اذا وقعت الحرب امام اسوار المدينة . وأدرك السلطان أنه من السياسة الحربية السليمة أن يرتد الى الجبال ، وأن يترك المدينة لتواجه مصيرها[1] .

تعرض الصليبيون لخسائر فادحة في الارواح ، اذ قتل عدد كبير منهم ، من بينهم بلدوين كونت غنت ، ومعظم من عاش من المشتركين في القتال اصابته الجراح . غير أن الانتصار زاد في اعتدادهم بأنفسهم . ومن دواعي سرورهم أنهم عثروا بين القتلى من الترك ، على الحبال التي احتفظ بهـا الترك لقيد الأسرى الذين كان السلطان يأمل في الحصول عليهم . وكيما يُضعف الصليبيون الروح المعنوية عند الحامية المحاصرة في داخل المدينة ، لجأوا الى اجتزاز رؤوس عدد كبير من القتلى ، وقذفوا بهـا من فوق الاسوار ، او رفعوها على الحراب ، لاستعراضها امام ابواب المدينة[2] . ونظراً لأنهم لم يخشوا خطراً من خارج المدينة ، شددوا الحصار عليها . غير ان الاستحكامات كانت بالغة المناعة . ولم تنجح محاولات ريموند وأدهيمر في نقب احد الأبراج الواقعة الى الجنوب ، بما لجأ اليه من ارسال نقابين

---

(١) انظر : Anna Comnena XI. 1. 3 - 4. vol . III. pp. 8 - 9 .
تشير الى ان الترك ارسلوا قوتين الواحدة بعد الاخرى لنجدة نيقيه . اما البرت - II. 25)
(26 . pp. 318 - 319 فيورد خبر اسر الجواسيس الترك قبيل وقوع الهجوم التركي الرئيسي .
ورد وصف المعركة في : Gesta Francorum II. 8. pp. 36 - 38 .
Raymond of Agnilers III. p. 239 .
Albert of Aix II, 27 . pp. 319 - 320 .

(٢) انظر : Gesta Francorum loc. cit .
Albert of Aix II. 28 pp. 320 - 321 .
اشار ستيفن بلوا الى وفاة بلدوين كونت غنت ، انظر :
Hagenmeyer : op. cit . p. 139 .

كيا يحفروا في قاعدة هذا البرج ، ويشعلوا بها النيران . غير أن ما احدثوه من ضرر بسيط ، اصلحه ليلا المحاصرون (الحامية بداخل المدينة) . يضاف الى ذلك ، أنه تبين ان الحصار لم يكن تاماً ، اذ ان المؤن لا زالت ترد الى المدينة عبر البحيرة[١] . وتحتم على الصليبيين ان يطلبوا الى الامبراطور أن ينهض الى مساعدتهم ، وأن يقـدم من السفن ما يوقف المساعدة التي تصل للحامية عن الطريق المائي . والراجح أن الامبراطور ادرك الموقف تماماً . غير أنه اراد أن يحمل امراء الغرب ، على أن يدركوا ما لتعاونه معهم من اهمية حتمية . وبنـاء على طلب الصليبيين امدهم بأسطول صغير ، جعله بالبحيرة تحت قيادة بوتوميتس[٢] .

الاستيلاء على نيقية :

ولما انسحب السلطان اخطر الحامية ان تقوم بأحسن مـا تظنه من التصرف ، إذ ليس في وسعه ان يمد لها يد المساعدة . فلما شاهدت الحامية السفن البيزنطية في البحيرة ، وأدركت ان الامبراطور يسانـد الصليبيين بكل ما لديه من قوة ، وطدت العزم على التسليم . وهذا مـا كان الكسيوس يأمله . فلم يشأ الكسيوس أن يضيف الى املاكه مدينة تخرب

---

(١) Gesta Francorum : loc . cit .
Albert of Aix II. 31, pp. 322 - 323 .
Anna Comnena XI. I. 6 - 7. III pp. 9 - 10 .

(٢) Gesta Francorum , ibid , p, 40 .
Albert of Aix II. 32. pp. 323 - 324 .
Anna Comnena XI . II. 3 - 4 vol . III. pp. 11 - 12 .
تشير أنه الى البواعث التي دعت والدها (الكسيوس) الى ان يرسل آخر الامر السفن الى البحيرة ، والى انه انفذ في نفس الوقت عساكر بقيادة تاتيكوس وتسيتاز ، لبذل المساعدة للصليبيين من جهة البر .

معظمها ، ولم يقبل أن يتعرض رعـــاياه في المستقبل لأخطار النهب ، ولا سيا أن معظم السكان كانوا من المسيحيين ، ولم يكن بالمدينـــة من الترك سوى العساكر وفئـة صغيرة من نبلاء البلاط . تم الاتصال مرة اخرى بالقائد بوتومينتس ، ودارت المناقشة حول شروط التسليم . غير ان الترك لا زالوا مترددين ، إذ كانوا يأملون فـيا يبدو في أن السلطان سوف يعود ، فلم يستسلموا إلا بعد أن جاءهم النبأ بأن الصليبيين يدبرون القيام بهجوم شامل عليهم .

وتحدد يوم ١٩ يونيه للقيام بهذا الهجوم ، غير انه لما طلع النهـار ، شهد الصليبيون راية الامبراطور ترفرف على الابراج . ذلك ان الترك استسلموا اثنـــاء الليل . ودخلت القوات الامبراطورية ، ومعظمها من البجناك ، الى المدينـة ، من الابواب التي تطل على شاطىء البحيرة . والراجح ان قادة الصليبيين لم يجهلوا امر المفاوضات ، ولم ينكروها ، لأنهم رأوا انه لا داعي مطلقاً لأن يضيعوا الوقت ، وأن يفقدوا الرجال ، من اجل اقتحـام مدينة ، لن يسمح لهم بامتلاكها . على أنهم بقوا في جهل تام بالمراحل الختامية للمفاوضات ؛ على حين ان سائر العساكر ادركوا انهم خدعوا ، وجرت تلهيتهم عن فريستهم . إذ كانوا يأملون في نهب كنوز نيقيه . وبدلاً من ذلـك لم يسمح بدخول المدينة إلا لجماعات قليلة العدد منهم ، خضعت لمراقبة شديدة ، من قبل شرطة الامبراطور ، كانوا يأملون في الحصول على فدية من النبلاء الترك ، غير أنهم رأوا هؤلاء الترك يُنقلون مع امتعتهم تحت حراسة شديدة الى القسطنطينية ، او الى حيث كان الامبراطور يترل في بليكانوم ، فاشتدت كراهية الصليبيين للامبراطور[١] .

---

(١) اوردت أنه كومنين رواية تفصيلية عن استلام المدينة (نيقيه)، وأعلنت صراحة ان البيزنطيين خدعوا الصليبيين . ولم تشر المصادر الغربية إلا ان نيقيه استسلمت للامبراطور .
انظر : Anna Comnena : XI . II , 4 - 6 . vol III . pp. 12 - 13 .

آسيا الصغرى زمن الحملة الصليبية الأولى

على أن هذه الكراهية ، خفف من حدتها الى حد ما ، ما اشتهر به الامبراطور من السخاء . إذ بادر الكسيوس بإصدار الاوامر بأن يصرف فوراً لكل محارب صليبي منحة من المؤونة ، بينا دعا القادة الصليبيين الى القدوم الى بليكانوم ، فبذل لهم مقادير كبيرة من الذهب والجواهر ، مما غنمه من اموال السلطان السلجوقي . واستبدت الدهشة بستيفن بلوا الذي ارتحل مع ريموند كونت تولوز الى مقر الامبراطور ، لأكداس الذهب التي كانت من نصيبه . ولم يشارك ستيفن رفاقه في رأيهم ، الذي يقضي بضرورة قدوم الامبراطور الى نيقيه ، لأنه ادرك أن ما سوف تقوم به المدينة (نيقيه) بعد تحريرها ، من مظاهرة لاستقبال الامبراطور سوف تؤدي الى احراجه . وفي مقابل ما بذله الكسيوس من الهدايا ، طلب الى الفرسان الذين لم يحلفوا بعد يمين الولاء له ، أن يبادروا الى ذلك . فأذعن لطلبه عدد كبير من صغار السادة المقطعين ، الذين لم يشأ أن يزعجهم بذلك عند اجتيازهم القسطنطينية . على أنه لم يطلب من ريموند ، فيما يبدو ، أن يفعل اكثر مما فعله من قبل . أما تانكرد ، فان الامبراطور حرص على أن يولي امره اهتماماً خاصاً . كان تانكرد اول الامر شرساً غليظ الطبع ، اعلن بأنه سوف لا يحلف ، ما لم يمنحه الامبراطور سرادقه الكبير ، وقد امتلأ حتى حافته بالذهب ، وأن يجعل له من المال ما يضارع كل ما حصل عليه سائر الأمراء مجتمعين . ولما احتج صهر الامبراطور جورج باليولوجوس ، على خشونة تانكرد ، التفت اليه في فظاظة وعنف ، وشرع في مهاجمته . ونهض الامبراطور للتدخل ، غير أن بوهمند اشتد في تأنيب ابن اخته ، ولم يلبث تانكرد أن انصاع حاقداً ، فأقسم يمين التبعية (١) .

---

(١) Raymond of Aguilers III. pp. 239 - 240

يذكر ريموند ان الامبراطور سبق ان وعد الامراء بكل ما يظفر به من غنيمة في نيقيه =

على أن الصليبيين صدمهم ما كان من معاملة الأمبراطور للأسرى الترك . اذ سمح لموظفي القصر السلطاني والقادة بإفتداء أنفسهم . أما السلطانة ، ابنة الامير جكا ، فجرى استقبالها في حفاوة بالقسطنطينية ، وكان لا بد أن تبقى بها حتى تصلها رسالة من زوجها ، عن الموضع الذي تلحقه به . وتقرر انفاذها مع أبنائها الى السلطان دون دفع الفدية . والمعروف أن الكسيوس اشتهر بالرأفة والإحسان ، وكان شديد الادراك لقيمة ما يبديه من دماثة الخلق والمروءة مع العدو المغلوب على امره ، غير أن امراء الغرب اعتبروا أنه يتصرف بوجهين مختلفين ، وأنه ليس مخلصاً [1] .

= وتعاهد بأن يشيد بها ديراً لاتينياً ونزلاً . واذ لم يف بهذا الوعد ، تولدت الكراهية الشديدة عند الامراء . على ان فولشر (I. X. 10 pp. 188 - 189) وانسلم ريبرمونت ، وهيجنار (op. cit . 145) وستيفن بلوا ، وهيجنار (op. cit . 140) تحدثوا عمــا اتصف به الامبراطور من سخاء وفير ، ويشير ستيفن الى ان الامبراطور في الواقع وزع خير جانب من الغنيمة على الامراء ، وعلى العساكر الفقراء الطعام ، بل ان صاحب كتاب اعمال الفرنجة (Gesta Francorum III. q. p. 42) يشير الى انه اغدق على فقراء الفرنجة مقادير كبيرة من الصدقات وتذكر أنه كومنين (XI. III. 1 - 2 vol. III. pp. 16 - 17) ما جرى من اتخاذ يمين الولاء للمرة الثانية. اما جروسيه Grousset : Histoire des Croisades vol. I. p. 31 فيزعم، دون الاشارة الى سبب ظاهر، ان تانكرد ظل مصراً على الرفض والامتناع عن تأدية يمين الولاء . غير ان شالاندون Chalandon:Essai sur le Règne de Alexis Comnène p. 123 note 4، يعتقد ان تانكرد لم يفعل ذلك. وتعتبر رواية أنة واضحة ومقنعة. اما رواية رادولف كاين Radulph of Caen عن الحادث (XVIII - XIX. pp. 619 - 620) فيغلب عليهــا الخيــال ، اذ زعمت صحة مــا تخيله تانكرد . انظر : (Nicholsor : Tancred p. 32 note. 5) ويعترف انسلم (Anselem : loc . cit) بان بعض الامراء كانوا ساخطين على الامبراطور. ويشير البرت (Albert of Aix II. 28, p.321) الى ما وزعه الكسيوس من الهدايا على الامراء اثناء الحصار . انظر ما سبق ص ٢٢٢ حاشية ١ عن مقر الاحتفال .

(١) يعلن مؤلف (Gesta Francorum II. 8. pp. 40 - 42) أن ما بذله الامبراطور من السخاء في معاملة الأسرى ، إنما يقصد به ، ان يقوموا فيما بعــد بمحاكمة الصليبيين . عن تحركات السلطان التالية انظر ما يلي في ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

وعلى الرغم مما اصاب الصليبيين من خيبة الأمل في أنهم أنفسهم لم يستولوا على المدينة (نيقيه) ، ولم يسهموا في الحصول على ثرواتها ، فان تحرير نيقيه ملأهم غبطة وسروراً ، وأملاً في المستقبل . اذ جرى إنفاذ الرسائل الى الغرب ، تعلن أن هذا الموضع المبجل عاد مسيحياً مرة اخرى ، وتلقى الناس الأنباء بحماس شديد . وأثبتت الحملة الصليبية أنها أحرزت نجاحاً باهراً ، فكثر قدوم العساكر ، أما المدن الايطالية التي ظلت حتى ذلك الحين شديدة الحذر ، وبالغة الميل الى التمهل في بذل ما وعدت به من مساعدة ، فأخذت تزداد اهتماماً بالحركة الصليبية . وفي المعسكر الصليبي اشتد حرص الفرسان على مواصلة الرحيل . وازداد التفاؤل عند ستيفن بلوا ، فكتب الى زوجته : « لن تمضي خمسة أسابيع ، حتى نكون في بيت المقدس ، ما لم نضطر للتوقف عند أنطاكية [1] » . فكأنه تنبأ بذلك دون أن يعلم .

الطرق عبر آسيا الصغرى :

ومن نيقيه اتخذ الصليبيون الطريق البيزنطي الرئيسي المعروف قديماً ، والذي يجتاز آسيا الصغرى . فالطريق الممتد من خلقيدونيه ونيقوميديا ، يلتقي بالطريق القادم من Helenopolis ونيقيه عند شاطىء نهر صنغاري . ولم يلبث هذا الطريق ، ان يبتعد عن النهر ، ويسير مصعداً في واد فرعي يقع الى الجنوب ، ماراً بمدينة Biledjik الحالية ، حتى يبلغ ، بعد أن يجتاز احد الدروب ، دوريليوم بالقرب من اسكى شهر الحالية . ومن هذا

---

(١) انظر : Stephen of Blois : loc . cit .

تقرر الاذن للصليبيين بزيارة نيقيه ، على ألا تتجاوز الجماعة من الزائرين عشرة أشخاص .
(Anna Comnena XI. II. 10. vol. III. p. 16) .

الموضع ، يتفرع الى ثلاثـة طرق ، فالطريق الحربي الكبير المعروف عند البيزنطيين ، يتجه شرقاً ، والراجح أنه يمر بأنقره من جهـة الجنوب ، ثم يتفرع ثانية الى طريقين ، بعد اجتياز نهر هاليس ، فيستمر احـد الفرعين في المضي قدماً الى ارمينيا بعد اجتياز سيواس . أما الطريق الآخر فيتجه نحو Caesarea Mazacha . ومن هذا الموضع الاخير يخترق جبال طوروس الأمامية (اللكام) ، طرق عديـدة تؤدي الى وادي الفرات ، بينا يتجه طريق آخر الى الجنوب الغربي ، فيجتاز طوانه ، ويمضي الى دروب قليقية . أما الطريق الثاني الممتد من دوريليوم ، فيسير مباشرة عبر الصحراء المالحة الكبرى الواقعة في وسط آسيا الصغرى ، جنوب بحيرة تاتا ، من عمورية الى دروب قليقية . على أن هـــذا الطريق لا يصلح إلا لجماعات سريعة التحرك ، لأنه يجتاز اقليماً موحشاً ليس بـه ماء . ويسير الطريق الثالث محاذياً الحافة الجنوبية للصحراء الملحية ، ويمتد من فيلومليوم ، وهي اقشهير الحالية ، الى قونيه وهرقله ودروب قليقية . على أن طريقاً فرعياً يمتد من قرب فيلومليوم ، وينتهي عنـد البحر المتوسط في انطاليا ، ويسير طريق آخر من قونية الى البحر المتوسط عند سلوقية [١] .

معركة دوريليوم :

وأياً كان الطريق الذي لا بد للقوات الصليبية ان تتخذه ، كان لزاماً عليهم أن يصلوا اول الأمر الى دوريليوم . ففي ٢٦ يونيه ، أي بعـد مضي اسبوع على سقوط نيقيه ، اخذت مقدمة الجيش الصليبي في التحرك ، وأعقبهـــا في اليومين التاليين سائر اقسام الجيش ، واجتمعت من جديد

---

(١) عن الطرق التي تجتاز آسيا الصغرى ، انظر :
Ramsay : Historical Geography of Asia Minor pp. 74 - 82 .

عند الجسر الذي يقع على النهر الازرق ، عند الموضع الذي يأخذ فيه الطريق في الافتراق عن نهر صنغاري ويسير مصعداً في الهضبة . وصحب الصليبيين سرية من القوات البيزنطية بقيادة تاتيكيوس المعروف بخبرته وتجربته . على أنه تخلف عن المسير مع الجيش ، عدد من الصليبيين ، والراجح أن معظمهم كانوا من الذين اصابتهم الجراح في نيقيه ، فدخلوا في خدمة الامبراطور . وتقرر أن يخضعوا لقيادة بوتوميتس ، الذي عهد اليهم بعمارة نيقيه والمرابطة بها (١) .

عقد الأمراء الصليبيون مجلساً للمشورة ، عند الجسر في قرية لويكي ، وتقرر تقسيم الجيش قسمين ، وذلك لحل مشكلة المؤونة ، فيسبق احد القسمين القسم الآخر ، ويفصل بينهما يوم واحد . وتألف الجيش الأول من نرمان جنوب ايطاليا وشمال فرنسا ، وعساكر كونت فلاندر ، وستيفن بلوا ، فضلاً عن البيزنطيين الذين امدوهم بالأدلاء . واشتمل الجيش الثاني على عساكر جنوب فرنسا واللورين وعساكر كونت فرماندوا . ويعتبر بوهمند قائد المجموعة الأولى ، بينما تولى ريموند تولوز قيادة المجموعة الثانية . ولم يكد أمر التقسيم ينتهي ، حتى اتخذ جيش بوهمند الطريق الى دوريليوم (٢) .

---

(١) ارتحل جيش بوهمند في ٢٦ يونيه (Gesta Francorum III . 9. p. 44) ،
وسار جيش ريموند في ٢٨ يونيه Raymond of Agnilers III. p. 240
Anselm of Ribermont loc. cit.
اما جيش شمال فرنسا فمضى في طريقه في ٢٩ يونيه ، انظر :
Fulcher of Chartres I. XI. 1. p. 190 .
تشير أنه كومنين (XI. III. 3 vol. III. pp. 16 - 17) الى انه بقي مع بوتوميتس جماعة من الفرنج .

(٢) Anna Comnena XI. III. 4. vol. III. p. 18 .
Gesta Francorum III. 9. p. 44 .
Albert of Aix II. 38. pp. 328 - 329 .

ولما فشل السلطان السلجوقي قلج ارسلان في انقاذ نيقيه ، انسحب صوب الشرق ليحشد من جديد جيوشه ، ويعقد صلحاً ومحالفة مع الأمير الدانشمندي ، لمواجهة هذا الخطر الجديد . إذ أن سقوط نيقيه زاد في خوفه وقلقه ، كما أن ضياع أمواله وكنوزه بها كان أمراً بالغ السوء . على أنه لا زال الترك على بداوتهم الغريزية . فلا زال فسطاط السلطان هو عاصمته الحقيقية . ففي الأيام الأخيرة من شهر يونيه ، توجه السلطان نحو الغرب بكل ما لديه من القوات ، وبصحبته تابعه حسن امير الترك النازلين في قيادوقيا ، وجيش دانشمندي بقيادة اميرهم . وفي ٢٠ يونيه ، اتخذ موضعه في واد قرب دوريليوم ، مستعداً لمهاجمة الصليبيين ، عند قدومهم لاجتياز الوادي .

وفي مساء ذلك اليوم ، عسكر الجيش الصليبي الأول في سهل ليس بعيداً عن دوريليوم . وعند شروق الشمس اندفع الترك من جانب التل يهتفون بصيحة الحرب . كان بوهمند على أهبة الاستعداد . بادر الحجاج ، غير المحاربين ، الى الاحتشاد في وسط المعسكر الصليبي ، حيث توافرت ينابيع المياه ، وتولى النساء نقل المياه الى الخط الأمامي . وتقرر نصب الخيام فوراً ، وصدرت الأوامر للفرسان بالترجل عن خيولهم . وفي تلك الاثناء ركض رسول الى الجيش الصليبي الثاني ، يحثه على التعجيل بالسير ، على حين أن بوهمند تحدث الى قادته ، يطلب اليهم الاستعداد لخوض قتال شديد شاق ، وأن يلتزموا اول الامر خطة الدفاع . ولم يخالف اوامره إلا فارس واحد ، وهو الذي سبق أن جلس على عرش الامبراطور بالقسطنطينية . وفي اربعين فارساً ، التحم بوهمند في قتال مع الترك ، غير أنه لم يلبث أن ارتد مهزوماً ، وقد اثخنته الجراح . ولم يلبث الترك أن طوقوا معسكر الصليبيين ، الذين تراءى لهم أن عدد الترك لا حصر له واستخدم الترك ما شغفوا به من الخطط الحربية ، بأن يبادر الرماة

بالانطلاق الى الخط الامامي فيقذفون بسهامهم ، ثم يبادرون الى المضي كيا يفسحوا المجال لغيرهم .

ولما ارتفع النهار ، واشتدت الحرارة (في يوليه) ، أخذ الصليبيون يرتابون فيما اذا كان بوسعهم أن يصمدوا لما انهمر عليهم من قذائف الترك التي لم تنقطع . على أن ما حدث من تطويقهم جعل امر هروبهم مستحيلاً ، ولن يترتب على استسلامهم سوى الأسر والاسترقاق ؛ فعزموا جميعاً على الاستشهاد اذا اقتضت الأحوال ذلـــك . ثم حدث آخر الأمر ، حوالي منتصف النهار ، أن شاهدوا قدوم رفاقهم في الجيس الصليبي الثـــاني ، يتقدمهم جودفري وهيو برجالها ، يليهما ريموند بجنده . لم يدرك الترك أنهم طوقوا كل الجيش الصليبي . فحينما شاهدوا القادمين الجدد ، تعثروا وارتبكوا ، ولم يستطيعوا ان يحولوا دون اجتماع الجيشين . تشجع الصليبيون وقويت روحهم المعنوية . واذ أقاموا جبهة طويلة ، اتخذ مكانه في الميسرة منها ، بوهمند ، وروبرت النورمندي ، وستيفن بلوا ، بينما كان بوسط الجبهة ريموند ، وروبرت فلاندر ، واتخـــذ جودفري وهيو ، مكانهما في الميمنة . فشرع الأمراء في القيام بهجوم شامل ، وأخذ كل منهم يذكر الآخر بمـا سوف يحصلون عليه في حالة الانتصار من غنائم وأموال ضخمة . لم يكن الترك مستعدين لمواجهة هذا الهجوم ، والراجح أن مؤنهم أخذت في النفاذ . ولم يلبث ترددهم أن تحول الى ذعر ، عنـد ظهور ادهيمر أسقف لى بويه ، في ثلة من فرسان جنوب فرنسا ، على التلال الواقعة خلفهم . وقد دبر أدهيمر هذه الخطة ، التي دعته الى أن ينفصل عن الجيش الصليبي الرئيسي ، واتخـــذ أدلاء يرشدونه في الممرات الجبلية . وما حدث من تدخل أدهيمر ، كفل النصر للصليبيين ، فتحطمت خطوط الترك ، الذين لاذوا بالفرار الى الشرق . وألهتهم العجلة والسرعة عن تقويض معسكرهم ، فتركوه قائماً . فوقع في

أيدي المسيحيين سرادقات السلطان والامراء ، بما زخرت بـه من الثروة والغنيمة (١) .

---

(١) أشارت أنه كومنين الى الفارس الفرنسي (Anna Comnena loc . cit . IV . pp. 240 - 241) .

ووصف دور أدهيمر كل من :

Raymond of Aguilers , Gesta Francorum III. 9 pp. 44 - 45 .
Albert of Aix II. 34 - 42 . pp. 329 - 332 .

ويستخلص من رسالة الامراء الى اربان الثاني الواردة في Hagenmeyer : Die Kreuzzugbriefe p. 161 أن دوريليوم التي أعطت اسمها للمعركة ، تقع على مسافة ميلين من الشمال الشرقي لمدينة اسكي شهر الحالية . أما الموضع الدقيق للمعركة فلا زال موضع نزاع . وأشارت اليه أنه على أنه « سهل دوريليوم » . وورد في رسالة الأمراء الى اربان باسم وادي دورتيلا ، ولا بـد أن المقصود بهـا دوريليوم . وفي ريموند آجيل (Campus Floridus) . وعند البرت وادي Degorganhi وهو المعروف الآن باسم Ozellis . وأشار هجنماير : Hagenmeyer : Chronologie de la Première Croisade pp. 86 - 87 ، الى ان الصليبيين لم يستطيعوا ان يبلغوا دوريليوم ذاتها في ليلة ٣٠ يونيه ، لأنها تبعد عن لويكى مسافة يستغرق اجتيازها ٢٢ ساعة . ويحمل الموضع الذي دارت فيه المعركة عند Bosuzuk الحاليـة ، وهو يقصد (Bozosoyuk) او Inönu . غير ان الطريق البيزنطي المباشر يبتعد عن هذين الموضعين، اذ انه يجتاز Sögut ، وينفذ الى السهل، على مسافة ثمانية أميال من الشمال الغربي لدوريليوم . قام الترك بهجوم مباغت . فلا بد أنهم كانوا مختفين وراء التـلال . على حين ان أدهيمر لا بد انــه استخدم ايضاً بعض التلال للانقضاض على مؤخرة الترك . على ان انحدار الجبل كان رأسياً ، قبل ان يدخل الطريق الى السهل ، فمن العسير القيام بأعمال حربية . على ان سهل Sari - Su ، وهو باتيس باليونانية ، الذي تنفـذ اليه الطريق ، يفصله عن سهل Porsuk ، وهو تمبريس باليونانية، سلسلة من التلال المنخفضة ، من اليسير اجتيازها، وتمتد الى حيث تتصل الغدران بأعلى دوريليوم، فاذا عسكر الصليبيون في وادي ساري سو، ففي وسع الترك ان يقوموا من وادي بورسك بهجوم مفـاجىء ، وبفضل موضع الكشافة على مرتفـع Karadjashehir ، جنوب بورسك استطاع الترك ان يرصدوا حركات الصليبيين . والراجح ان أدهيمر اجتاز ايضاً وادي بورسك للانقضاض على مؤخرة الترك . واذ تفقدت (رنسيمان) هذا الموضع استطيع ان اقرر ان المعركة دارت في سهل ساري سو ، في الموضع الذي دخـل اليه الطريق الرئيسي القادم من لويكى . وللوصول الى هذه النقطة كان لا بد لمقدمة الجيش ان تسير ثمانية اميال في اربعة ايام ، حيث انها غادرت نيقية صباح يوم ٢٦ يونيه، ولعلها توقفت طوال يوم كامل في لويكى. وغادرت مؤخرة =

الفرنج والترك :

كان انتصاراً باهراً . لقي كثير من المسيحيين مصرعهم ، أمثال وليم اخ تانكرد ، وهمفري صاحب Monte Scabioso ، وروبرت كونت باريس . وتلقى الفرنج دروساً بأن يولوا عساكر الترك ما يليق بهم من الاحترام . ولعل حرصهم على أن يشيدوا بأعمالهم ، حملهم على أن يكنوا للترك ، عن طيب خاطر من الاعجاب ما أنكروه على البيزنطيين ، واعتبروا أن ما لدى البيزنطيين من وسائل علمية في فنون الحرب ، ليست إلا طرقاً متداعية . ولم يعترفوا بما كان للبيزنطيين من نصيب في القتال . فالمؤرخ النرماني المجهول ، مؤلف كتاب اعمال الفرنج (الجستا) اعتبر الترك من اروع العناصر وأكثرها شجاعة ، لو كانوا مسيحيين ، وردد الاسطورة التي تجعل من الفرنج والترك اقارب ، باعتبارهما منحدرين من سلالة الطرواديين — وهي اسطورة قامت على اشتراكهما معاً في مناهضة اليونانيين ، ولا تستند الى اساس عنصري (١) . على أنه مهما يكن من أمر براعة العساكر الترك ، فان هزيمتهم كفلت للصليبيين سلامة المرور عبر آسيا الصغرى . أما السلطان الذي سلبه الصليبيون عاصمته أول الامر ، ثم نهبوا خيمته الملكية ، وحازوا الشطر الاكبر من ثروته ، فانه قرر أنه لا جدوى من المحاولة لوقف زحف الصليبيين . ولما التقى السلطان ، اثناء فراره بجماعة من الترك القادمين من سوريا ، الذين قدموا بعد فوات الاوان للاشتراك في المعركة ، شرح لهم أن ما لدى الفرنج من

= الجيش نيقيه بعد يومين (٢٨ يونيه)، والواضح انها لم تلبث في لويكى . وبعد سير حثيث استطاعت ان تتصل بالمقدمة بعد ظهر اليوم الذي دارت فيه المعركة . أما قادة المؤخرة ، الذين لا زالوا ممتطين خيولهم فالراجح انهم وصلوا الى لويكى للتشاور مع زملائهم قبل وصول الرجالة .

(١) Gesta Francorum 111. q. pp. 50 - 52 .

الجند والقوة يزيد كثيراً على ما كان يتوقعه ، ولذا ليس في وسعه أن يقاومهم . ولجأ السلطان وقومه الى التلال ، بعد أن نهبوا المدن التي كانوا ينزلون بهـا ثم هجروها ، وخربوا القرى ، حتى يستحيل على الصليبيين أن يلتمسوا بها ما يقتاتون به عند تقدمهم وزحفهم (١) .

استراح الجيش الصليبي مدة يومين في دوريليوم ، حتى يسترد نشاطه بعد المعركة التي خاضها ، ويرتب المراحل التالية لخط السير . لم يتعذر على الصليبيين امر اختيار الطريق الذي سوف يسلكونه . فالطريق الحربي المؤدي الى الشرق ، انمـا يخترق الاقليم الذي يسيطر عليه الدانشمنديون والأمراء الذين لم تتحطم قوتهم . على أن الجيش الصليبي بلغ من ضخامة الحجم والبطء في المسير ، ما يجعل من العسير عليه أن يجتـاز الصحراء المالحة . فكان لزاماً عليه أن يتخـذ الطريق الاكثر طولاً ، وهو الذي يحاذي حافة الجبال الواقعة الى الجنوب من هذه الصحراء ويلائم سيرهم البطيء. ولا شك أن هذه النصيحة لم يبذلها إلا تاتيكيوس والأدلاء . ومع ذلك فالطريق لا يصح الاطمئنان اليه ، إذ ترتب على غارات التركمان ، والحروب التي استمرت نحو عشرين سنة ، أن تدمرت القرى ، وخربت الحقول وخلت من الزراعة ، وفسدت مياه الآبار ، بل أنها اخذت تجف ، وهوت الجسور او تحطمت . وليس من العسير الحصول على الاخبـــار والمعلومات من اقوام متفرقين او سكان استبد بهم الخوف . ومع ذلك فاذا وقعت اخطاء لم يسع الفرنج إلا الارتياب في خيـــانة الأدلاء اليونانيين ، بينا ازدادت كراهية اليونانيين للفرنج ، لمـــا غلب عندهم من سوء النظام ، وإنكار

---

(١) Gesta Francorum IV. 10, pp. 52 - 54 .

المعروف . وأدرك تاتيكيوس أن مهمتـــه أضحت بالغـــة الصعوبة والمشقة [1] .

الجيش يجتاز صحراء الأناضول :

واذ سار الجيش الصليبي في ٣ يوليه ١٠٩٧ في جموع متصلة كيما يتجنب ما سبق ان تعرض له من الخطر في دوريليوم ، اخذ يشق طريقه صوب الجنوب الشرقي عبر هضبة الاناضول ؛ فلم يحرص على التزام الطريق الرئيسي القديم . وبعد ان اجتاز الصليبيون مضيق Polybotus ، انحرفوا الى انطاكية بسيديا التي أفلتت فيما يبدو من تخريب الترك ، ولذا يتيسر لهم فيها الحصول على المؤن . ومن ثم اجتـــاز الصليبيون دروب جبل السلطان ، حتى اذا بلغوا فيلوميليوم ، اتخذوا من جديد الطريق الرئيسي . ومن فيلوميليوم ، اخذ طريقهم يجتاز الاقليم الموحش الذي يقع بين الجبال والصحراء ، على أن الفرسان المثقلين بأدوات الحرب ، وخيولهم الدارعـة والرجالة ، اشتدت معاناتهم لقيظ الصيف وشدة حرارته . فلم يصادفوا الماء إلا في المستنقعات المالحة بالصحراء ، ولم يجدوا من النبـــات إلا أشجار الشوك ، التي حاولوا عبثاً أن يعلكوها ، املا في الحصول على الرطوبة . شهدوا على جانب الطريق ، ما سبق ان اقامه البيزنطيون من صهاريج ، غير انها كلها تعرضت للتخريب والتدمير على ايدي الترك ، وكانت الخيول اول ما تعرضت للهلاك ، واضطر عدد كبير من الفرسان ان يسيروا مترجلين ، وركب جماعة منهم الثيران ، وجرى جمع الكلاب والمـاعز ، كيما تجر قطر الأمتعة . غير ان الروح المعنوية للجيش ظلت مرتفعـة .

---

(١) لم تجر شكاوي ضد تاتيكيوس والبيزنطيين ، الا بعـــد ان وصل الجيش الى انطاكية ، غير انه منذئذ يعتبر مكروهاً . (Gesta Francorum VI. 16 p. 78) انظر ما يلي الفصل الثالث من الكتاب الرابع (انطاكية) . فتزايـد الحقد والكراهية له ، وما بذله بوهمند من دعاية تكللت بالنجاح .

ويشير فولشر شارتر ، أن ما كان من روح الزمالة بين العساكر الذين قدموا من جهات متفرقة وتحدثوا بلغات مختلفة ، يعتبر فيما يبدو من وحي الله وإلهامه [1] .

وفي منتصف اغسطس ١٠٩٧ بلغ الصليبيون قونيه Iconium ، وهي المعروفة حتى اليوم بهذا الاسم ، والتي كانت بيد الترك منذ ثلاث عشرة سنة ، ولم يلبث قلج ارسلان ان اتخذها عاصمة جديدة له . غير أنها صارت وقتئذ مهجورة ، إذ هرب الترك الى الجبال بكل ما لديهم من منقولات وأمتعة . غير أنهم لم يستطيعوا تدمير ما يقع من الغدران والبساتين بوادي نهر ميرام العذب ، الذي يجري خلف المدينة . فاجتذبت خصوبة هذا الوادي اليه المسيحيين المنهوكي القوة . فاستراحوا به اياماً حتى يستردوا نشاطهم وقوتهم . كانوا جميعاً في اشد الحاجة الى الراحة ، بل ان قادتهم اشتد بهم التعب . ومنذ ايام اصاب جودفري بعض الجراح ، إذ تعرض لهجوم دب بري اثناء صيده . واشتد المرض بريموند كونت تولوز حتى كاد يموت ، وقد مسحه اسقف اورنج بالزيت المقدس ، ايذاناً بقرب وفاته ، غير أنه لم يلبث أن ابل من مرضه بعد اقامته في قونيه ، فاستطاع ان يسير مع الجيش حين تحرك من قونيه . وبفضل نصيحة بعض الأرمن المقيمين بالقرب من قونيه ، حمل العساكر معهم من الماء ما يكفيهم حتى يصلوا الى وادي هرقلة الخصيب [2] .

---

(١) انظر : Gesta Francorum IV. 10. p. 55 .
Fulcher of Chartres I. XIII. 1 - 5. pp. 199 - 203 .
Albert of Aix III. 1 - 3 pp. 339 - 341 .

(٢) انظر : Gesta Francorum, ibid. p. 56.
Fulcher of Chartres ibid. p. 200.
Raymond of Aguilers IV. p. 241. يشير الى مرض ريموند ، الذي حدد زمنه
Albert of Aix 111. 4. pp. 341 - 342 . يشير الى حادث جودفري

صادفوا في هرقلة جيشاً من الترك ، بقيـــادة الامير حسن والامير الدانشمندي ، ونظراً لحرص الاميرين على املاكهما في قبادوقيا ، فالراجح أنهما كانا يأملان من حضورهما الى هرقلة ، ان يحملا الصليبين على ان يحاولوا اجتياز جبال طوروس الى الساحل . غير أنه لم يكد الصليبيون يشهدون الترك ، حتى بادروا بمهاجمتهم ، وكان يقود الصليبيين بوهمند الذي سعى للالتقـاء بالامير الدانشمندي . ولم يشأ الترك ان تنشب معركة حاسمة ، فأسرعوا الى الانسحاب صوب الشمال ، وتركوا المدن للمسيحيين . وومض في السماء مذنب ، مؤذناً بانتصار الصليبيين [1] .

وكان لا بد وقتذاك من المناقشة مرة اخرى عن الطريق الذي ينبغي اتخاذه . فعلى مسافة قصيرة الى الشرق من هرقلة ، كان الطريق الرئيسي يخترق جبـــال طوروس خلال الدرب الكبير المعروف بأبواب قليقية ، الى قليقية . كان هذا هو الطريق المباشر الذي يؤدي الى انطاكية ، غير أنه لم يسلم من العيوب . فليس من اليسير اجتياز ابواب قليقية ، فتارة يبلغ الطريق من شدة الانحدار والضيق ، مـــا يهيء لقوة معادية صغيرة العدد ، اتخذت لها مكاناً بأعلى الجبال ، لأن تثير الاضطراب والفوضى في جيش يسير ببطء شديد . كانت قليقيـة بأيدي الترك ، ويقرر الأدلاء البيزنطيون أن مناخهـا في سبتمبر بالغ السوء ؛ يضاف الى ذلك أن الجيش المتوجه من قليقية الى انطاكية لا بد له أن يجتاز سلسلة جبال امانوس ، خــلال الدرب المعروف باسم الابواب السورية . ومن جهـة

---

(١) انظر : Gesta Francorum, loc. cit.

Anna Comnena XI. III. 5. vol. III. pp. 18 - 19 .

تشير الى بسالة بوهمند في هذه المعركة . ولا بد أنها استقت معلوماتها من تاتيكيوس .

Fulcher of Chartres I. XIV. pp. 203 - 204 .

أورد خبر المذنب .

اخرى ، ترتب على الهزيمة الاخيرة للترك ، أن صار الطريق مفتوحاً الى قيصرية مازكا . ومن ذلك الموضع يتصل بالطريق البيزنطي العسكري ، طريق يؤدي الى مرعش بعد اجتياز جبل اللكام ، او جبال طوروس الامامية ، ثم يهبط الى الدرب الواسع المنخفض من دروب الأمانوس ، الى سهل انطاكية . هـذا هو الطريق الذي سلكته اصلاً قبل غزوات الترك ، التجـارة بين انطاكية والقسطنطينية . ومن مزاياه وقتئـذ أنه يجتـاز بلاداً يحكمها مسيحيون ، من امراء الارمن ، ومعظمهم من الموالين للأمبراطور ، والراجح أنهم ظـلوا على ولائهم له ، والراجح ايضاً أن تاتيكيوس والبيزنطيين اوصوا باتخـاذ هذا الطريق . غير ان الاقتراح لقي معارضة من اولئك الامراء المعـادين للأمبراطور ، والذين تزعمهم تانكرد . وقررت الغالبية أن تتخذ الطريق الذي يجتاز قيصرية . غير أن تانكرد ، ومعه جماعة من ترمان جنوب ايطاليا ، وبلدوين شقيق جودفري بمن صحبـه من الفلمنكيين وعساكر اللورين ، عزموا على ان يفترقوا عن الجيش الرئيسي ، وأن يعبروا الى قليقية .

على اطراف الاناضول :

وحوالي ١٠ سبتمبر ١٠٩٧ ، اتخذ كل من تانكرد وبلدوين طريقـاً مختلفاً للوصول الى ممرات طوروس[١] ، بينما تحرك الجيش الرئيسي صوب الشمال الشرقي نحو قيصرية . وعند قرية اوجستابوليس ، التقى به عساكر الامير حسن ، فأنزل الجيش الصليبي بهم هزيمة اخرى . ولحرص الجيش الصليبي على ألا يتوقف او يتمهل في المسير ، لم يحاول أن يستولي على قلعة الامير ، التي لا تبعد كثيراً عن الطريق ، على الرغم من أن قرى

---

(١) انظر ما يلي ٢٨٠ — ٢٨١ .

صغيرة عديدة تم احتلالها ، وتقرر تسليمها الى امير ارمني ، اسمه سمعان ، بناء على طلبه ، على أن يحكمها باسم الامبراطور . وبلغ الصليبيون في نهاية سبتمبر قيصرية ، وقد هجرها الترك . غير انهم لم يتوقفوا بها ، بل تحركوا الى كوماناً (Placentia) ، وهي مدينة وافرة الغنى والرخاء ، سكانها من الارمن ، وقد انصرف الى حصارها الترك الدانشمنديون ، غير أنه لما اقترب منها الصليبيون اختفى الترك . وعلى الرغم من أن بوهمند نهض لمطاردتهم غير انه لم يقف لهم على أثر . واستقبل السكان فرحين ، اولئك الذين قدموا لإنقاذهم ، فطلبوا الى تاتيكيوس أن يرشح حاكماً يتولى أمر المدينة باسم الامبراطور . ورشح تاتيكيوس للوظيفة بطرس اولب ، وهو فارس بروفنسالي ، قدم لأول مرة الى الشرق بصحبة جويسكارد ، ثم دخل في خدمة الامبراطور . وكان ذلك الاختيار دليلاً على براعة دبلوماسية ، ودل الحادث على أنه لا زال في وسع الفرنج والبيزنطيين أن يتعاونوا ، وأن ينفذوا معاً المعاهدة التي انعقدت بين الأمراء والأمبراطور [١] .

تقدم الجيش من كوماناً صوب الجنوب الشرقي الى كوكسن وهي جكسن الحالية ، وهي مدينة وافرة الثروة والرخاء ، زاخرة بالأرمن ، وتقع في واد خصيب ، اسفل سلسلة جبال اللكام ، فأقام الجيش بها ثلاثة ايام ، واستقبلهم السكان بالمودة البالغة ، فاستطاع الصليبيون ان يحصلوا على كميات وافرة من المؤن ، ليفيدوا منها في المرحلة التالية من سيرهم ، عبر الجبال . وتردد وتتناقل شائعة بين الجيش ، أن الترك تخلوا

(١) انظر :
Gesta Francorum IV. II. pp. 60 - 62 .
Stephen of Blois in Hagenmeyer . op. cit . p. 150.
Baudri VII. pp. 38 - 39 .
Anna Comnena XI. III. 6. vol. III. p. 19 .

عن انطاكية . وكان بوهمند لا يزال غائباً ، يطارد الدانشمنديين ، ولذا بادر ريموند كونت تولوز ، دون أن يستشير احداً سوى قادته المقربين ، فأرسل خمسمائة فارس بقيادة بطرس كاستيون للإسراع باحتلال المدينة (انطاكية). وانطلق الفرسان في اقصى سرعة ، غير أنهم حينما بلغوا قلعة للبيالصة ، لا تبعد كثيراً عن نهر الأورنت علموا ان الاشاعة كاذبة ، وأن ما حدث كان عكس ما ذاع ، إذ تدفق الى المدينة امـداد الترك . والواضح أن بطرس كاستيون ركب عائداً ليلحق بالجيش ، غير أن احـد فرسانه ، واسمه بطرس رويكس ، تسلل مع جماعة من رفاقه ، واستطاع بعـد مناوشة مع الترك بالمنطقة ، أن يستولي على بعض القلاع والقرى بوادي روسيه ، في اتجاه حلب ، وذلك بفضل المساعدة القيمة التي لقيها من الارمن المحليين . ولعل مناورة ريموند لم يكن المقصود منها أن يكون ريموند سيداً على انطاكية ، بل كان يرمي الى أن يكون له قصب السبق في المجد والغنيمة . غير أنه لما عاد بوهمند الى الجيش ساورته الشكوك حول هذه المناورة ، التي دلت على ازدياد الشقاق بين الاميرين [١] .

على أن الرحلة من جكسن ، تعتبر اشق ما تحتم على الصليبيين أن يصادفوه ، اذ أنهم كانوا وقتذاك في اوائل اكتوبر ، وأخذت امطار الربيع تنهمر ، وكان الطريق الذي يجتاز جبل اللكام بالغ الوعورة ، ولا بد من المسير اميالاً في درب امتلأ بالطين ، يؤدي الى منحنيات شديدة الانحدار ، ووهاد بعيد الغور ، فأخذت الجياد ، الواحد بعـد الآخر ، تنزلق وتهوي على حافة المنحدر ، فهبط الى الهاوية طوابير بأسرها من دواب الحمـل ، التي جرى ربطها معاً بالحبال . ولم يجرؤ احد من الصليبيين أن يمتطي دابة . واذ اشتد جهد الفرسان أثناء السير على اقدامهم ، وقد اثقل اجسامهم

(١) انظر : Gesta Francorum IV. II. p. 62 .

عدتهم الحربية ، حرصوا على أن يبيعوا ما لديهم من الأسلحة ، لغيرهم الذين لم يكن في حوزتهم إلا اسلحة خفيفة ، او دفعهم اليأس الى ان يتخلصوا منها بإلقائها في الطريق . وصارت الجبال كأنها نقمة ، اذ أنها ازهقت من ارواحهم ما يزيد على ما أزهقه الترك . وازداد فرح العساكر وسرورهم ، حين ظهروا آخر الامر في الوادي الذي يحيط بمرعش .

ومكث الصليبيون في مرعش بضعة ايام ، بين سكان من الارمن ، اطمأنوا اليهم ، ولقوا منهم المودة . وكان يحكم هذه المدينة امير ارمني اسمه ثاتول ، كان من قبل موظفاً بيزنطياً ، فتقرر ابقاؤه في وظيفتـه . ولحق بوهمند بالصليبيين في مرعش ، بعـــد أن فشل في مطاردة الترك . وقدم بلدوين مسرعاً من قليقية ، ليدرك زوجته جودفير ، وهي في النزع الاخير ، تعاني سكرة الموت . ولم يلبث بلدوين بعد وفاتها ان ارتحل من جديد ، متوجهاً هذه المرة صوب الشرق [1] . وغادر الجيش الرئيسي مرعش ، حوالي ١٥ اكتوبر سنة ١٠٩٧ ، بعد أن تجدد نشاطه واستعاد قوته ، وتقدم في سيره حتى هبط الى سهل انطاكية . وفي ٢٠ اكتوبر وصل الى الجسر الحديدي على مسير مرحلة (ثلاث ساعات) من المدينة [2] .

---

(١) انظر ما يلي ص ٢٨٣–٢٨٦ . أورد ألبرت (Albert of Aix. III. 27. p. 358 خبر وفاة زوجة بلدوين ، جودفير (جودهيلد) .

(٢) وصف كل من المؤرخ المجهول والبرت ، طريق السير من كوكسن الى انطـــاكية ، وأكد كل منهما ما اكتنف طريق الجبال من مظاهر الرعب والخوف .

Gesta Francorum IV. II. p. 64.

Albert of Aix III. 27 - 29. pp. 358 - 359.

أما تنصيب ثاتول حاكماً على مرعش ، فورد خبره عند متى الرهاوي .

Matthew of Edessa, II. CLXVI pp. 229 - 230.

الصليبيون وأدلاؤهم من البيزنطيين :

مضى الآن اربعة شهور ، منذ أن سارت الحملة الصليبية من نيقيـه . والواقع أن ما قام به هذا الجيش الضخم من اعمال ، أثناء هذه الفترة ، يعتبر من الأعمال الجليلة ، نظراً لضخامة الجيش ، ومن انحاز اليه من عدد كبير من غير المحاربين ، ولأن الجيش شق طريقه في اقاليم تكاد تكون جدباء ، تحت حرارة الصيف اللافحة ، وقد تعرض دائماً لمهاجمة عدو اشتهر بالعنف وسرعة التنقل والحركة . وساعد الصليبيين إيمانهم القوي ، ورغبتهم الحارة في بلوغ الارض المقدسة . على أنه يضاف الى هذه الرغبة ، حافز جديد ، وهو الامل في احراز الغنيمة والنهب فضلاً عن إنشاء إمارة . على أنه ينبغي الاعتراف بفضل البيزنطيين الذين صحبوا الحملة ، فما كان لهم من خبرة في قتال الترك ، جعلهم يبذلون النصيحة الصادقة ، ولو لم يقوموا بإرشاد الصليبيين لما استطاع هؤلاء أن يشقوا طريقهم عبر آسيا الصغرى . وعلى الرغم من أن الأدلاء ارتكبوا بعض الأخطاء ، مثلما حدث عند اجتيازهم الطريق المؤدي من كوكسن الى مرعش ، فمن المستحيل أن نتبين ما كانت عليه حالة طريق ، بعد عشرين سنة ، تعرض فيها للاهمال ، وللخراب في بعض الأحوال . كان لزاماً على تاتيكيوس ان يقوم بدور شاق عسير ، غير أن علاقاته بأمراء الغرب ظلت ودية الى ان بلغ الجيش الصليبي انطاكية . وعلى الرغم من أن أدنى الجنود الصليبيين مكانة ، كان لا يثق في البيزنطيين ، فان كل شيء ما زال يسير على ما يرام فيما يتعلق بتوجيه حركة الجيش .

وفي تلك الأثناء ، كان الامبراطور الكسيوس ، الذي يُعتبر مسئولاً عن صيانة المواصلات والمحافظة عليها في آسيا الصغرى ، يوطد مركز المسيحيين في مؤخرة الحملة الصليبية . اذ ترتب على نجاح الفرنج ، أن تم الوفاق بين السلاجقة والدانشمنديين. ولم يكد يزول أثر الصدمة الناجمة من اول هزيمة لحقت

بهم ، حتى اصبحو يؤلفون قوة حربية شديدة البأس في وسط آسيا الصغرى وشرقيها . ولذا كانت سياسة الامبراطور ، ترمي الى استرداد الشطر الغربي من آسيا الصغرى ، حيث يستطيع بفضل قوته البحرية النامية أن يمهد الطريق الى الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، وبذا يصح ان يجعله تحت سيطرته الدائمة . فلما فرغ الامبراطور من عمارة استحكامات نيقيه ، واستخلص الحصون التي تتحكم في الطريق المؤدي الى دوريليوم ، انفذ صهره القيصر يوحنا دوكاس ، يسانده اسطول بقيادة الأميرال كاسباكس للاستيلاء على ساحل ايونيا وفريجيا . وكان هدفه ازمير ، التي لا زال ابن جكا يحكمها ؛ بالاضافة الى جزائر لسبوس وخيوس وساموس ، بينما تولى امراء ينتمون اليه حكم افيسوس وسائر المدن الواقعة قرب الساحل . كانت فريجيا يحكمها سادة من السلاجقة ، فانقطع الآن كل اتصال بينها وبين السلطان . وكيما يثير عاطفة الترك ، صحب يوحنا دوكاس ، السلطانة ابنة جكا ، التي لم يجر حتى وقتذاك اتخاذ التدبير لإلحاقها بزوجها السلطان السلجوقي . وما حدث من الهجوم براً وبحراً على ازمير ، بلغ من شدة الوقع على الامير ، أنه بادر الى الاذعان وتسليم اماراته ، في مقابل السماح له بالانسحاب صوب الشرق . ولعله صحب اخته الى بلاط السلطان ، حيث اختفى نهائياً من صفحات التاريخ . ثم سقطت افيسوس دون قتال تقريباً ، وبينما كان كاسباكس يحتل بأسطوله الساحل والجزر ، اوغل يوحنا دوكاس في المسير الى داخل آسيا الصغرى ، فصار يستولي على اهم مدن ليديا ، الواحدة بعد الأخرى ، امثال سرديس وفيلادلفيا ، ولادوقيا . ولم ينقض خريف سنة ١٠٩٧ ، حتى صار كل الاقليم في قبضة يده . وتجهز للزحف على فريجيا ، متى انقضى الشتاء ، حتى يبلغ الطريق الرئيسي الذي سلكه الصليبيون . والراجح أنه كان يهدف الى اعادة توطيد سلطة البيزنطيين ، على الطريق المؤدي من بوليبوتس

وقيلوميليوم الى الجنوب، الى اضاليا (انطاليا)، ومنها يسير على امتداد الساحل صوب الشرق ، حيث تبذل القوة البحرية له الحماية ، ويتم الاتصال بأمراء الأرمن ، الذين استقروا وقتذاك في جبال طوروس . وبهذا يجري تأمين الطريق الذي يصح ان تسلكه المؤن والأمداد الى المسيحيين الذين يقاتلون في سوريا ، ويستمر ما للعالم المسيحي من جهد متحد[1] .

---

(١) انظر : Anna Comnena XI. V. 1 - 6. vol. 111 pp. 23 - 27.

الفصل الثاني

الارمن بين الصليبيين والمسلمين

ان هجرة الارمن الى الجنوب الغربي ، التي بدأت حينما لم تعد الحياة آمنة في وادي نهر الرس وعلى بحيرة وان ، بسبب غزوات السلاجقة ، ظلت مستمرة طوال السنوات الاخيرة من القرن الحادي عشر . ولما وصل الصليبيون الى آسيا الصغرى ، كانت سلسلة من امارات ارمنيـــة صغيرة ، تمتد من وراء نهر الفرات الاوسط ، الى جوف جبال طوروس . على أن الامارة الطارئة التي اقامهـــا فيلاريت الارمني تفتتت قبيل وفاته سنة ١٠٩٠ ، غير أن ثوروس لا زال يملك الرها ، بعد أن حاول اخيراً أن يطرد الحامية التركية من قلعتها ، ولا زال صهره جبريل يحكم ملطية [١] . واعترفت السلطات البيزنطية ، بعد أن استعاد لهم الصليبيون مرعش ،

---

(١) عن ثوروس انظر :
Laurent : « Des Grecs aux Croisés » pp. 405 - 416 .
عن جبريل انظر المصدر السابق ص ٤١٠ ، وما أورده عنه هيجنماير بدائرة المعـــارف الاسلامية — مادة « ملطية » . انظر ايضاً ما سبق ص ٢٤٨ — ٢٥١ .

بزعيم مسيحي ، اسمه ثاتول حاكماً عليها(١) . وأقام كواسيل الارمني ، او واسيل اللص ، امارة صغيرة في رعبان كيسوم ، بين مرعش ونهر الفرات(٢) . والمعروف ان ثوروس وجبريل ، بل وثاتول ايضاً ، كانوا نواباً عن فيلاريت ، وجروا على نهجه ، بأن استهلوا حياتهم العامة في الوظائف الادارية في الدولة البيزنطية . ولم يكونوا فحسب منتمين الى الكنيسة الارثوذكسية ، لا الكنيسة الارمنية الانفصالية ، بل ظلوا ايضاً يتخذون من الالقاب ما سبق ان حازوه منذ زمن طويل من الامبراطور الكسيوس . وكلما تهيأت الأحوال ، اعادوا توطيد علاقاتهم ببلاط القسطنطينية لتوكيد ولائهم وخضوعهم . والواقع ان ثوروس تلقى من الامبراطور الكسيوس اللقب السامي ، وهو القربلاط . على أن الصلة بالامبراطور جعلت لحكومتهم قدراً من الصفة الشرعية . غير ان ما يعتبر اساساً ابلغ صلابة من هذا ، ما هيأه استعدادهم لقبول سيادة زعماء الترك المجاورين . وأبدى ثوروس براعة فائقة في الايقاع بين هذين السيدين القويين . بينما ارسل جبريل زوجته في سفارة الى بغداد لتظفر باعتراف اعلى سلطة اسلامية . ومع ذلك فان كل هؤلاء الأمراء كانوا في وضع محفوف بالخطر . فباستثناء كواسيل ، فرق الدين بينهم وبين سائر مواطنيهم ، وتعرضوا لكراهية السوريين المسحيين ، الذين لا زالوا كثرة في املاكهم . وكل هؤلاء كانوا موطن ارتياب الترك ، فلم يبقوا في هذه الجهات إلا بسبب ما وقع بين الترك من الشقاق والفرقة .

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

(٢) عن كواسيل ، انظر : Chalandon : Les Comnenes pp. 99 ff.

واذ كان الزعيم الارمني ينتمي الى الكنيسة الأرمنية ، أجار الجاثليق الارمني ، جريجوري بهرام (Matthew of Edəssa 11. CLXXXV111 p. 258) .

وأقام وقتذاك في آني ، جاثليق آخر مناوىء لهذا ، واسمه باسيل ، انظر :
Matthew of Edessa 11. CXXX1V pp. 201 - 202 .

أما الأرمن في جبال طوروس ، فكانوا اقل من غيرهم تعرضاً للخطر ، لأن الاراضي التي نزلوا بها ، لم يكن من السهل الوصول اليها ، بينما كان من اليسير الدفاع عنها . وكان اوشين بن هيثوم يسيطر وقتذاك على الجبال الواقعة الى الغرب من ابواب قليقية ، واتخذ مقره بقلعة لامبرون المنيعة ، الواقعة على نشز يطل على جبال طوروس وسهل قليقية . واستمر اوشين على اتصاله بالقسطنطينية ، فحصل من الامبراطور على لقب نائب قليقية (Stratopedarch) . وعلى الرغم من أنه فيما يبدو لم يكن من المنتمين للكنيسة الارثوذكسية ، فالمعروف انه في الماضي خدم الامبراطور الكسيوس ، والراجح ايضاً انـــه حصل بموافقة الامبراطور على قلعـة لامبرون ، من ايدي الحامية البيزنطية دون قتال ، ودأب على التردد على سهل قليقية ، ففي سنة ١٠٩٧ ، اغتنم فرصـة اهتمام الترك بزحف الصليبيين ، فاستولى على جانب من مدينة أذنه [١] . وما يقع في شرق ابواب قليقية من جبال كانت بحوزة قسطنطين بن روبين ، الذي اتخـذ قاعدة ملكه في قلعة بارتزربرت الواقعـة الى الشمال الغربي من سيس . إذ أن قسطنطين امد سلطانه ، منذ وفـــاة والده ، صوب الشرق نحو جبال طوروس الامامية (اللكام) واستولى على قلعة Vakha الواقعة على نهر جكسو ، بعد أن انتزعها من الحامية البيزنطية المنعزلة . وكان قسطنطين من اشد انصار كنيسة ارمينيا الانفصالية ، وباعتباره ، مثل والده ، وريثاً لأسرة بقراط ، لا زال ينتهج سنّة اسرته فيما يكنه من

---

(١) أورد قصة اوشين : Matthew of Edessa II. CLI p. 216.

انظر : Laurent : « Les Armeniens de Cilicie » in Mélanges Schlumberger vol. I- pp. 159 - 168.

وحسبما أورده متى الرهاوي، لا زال باتزوني شقيق اوشين عائشاً في زمنه. وكان اوشين معروفاً باسم Ursimus ، وفقاً لما جاء في Radulph of Caen XI. pp. 634 - 635 .

العداوة لبيزنطه . وكان يأمل ايضاً في الافــادة من ارتباك الترك في الاستقرار في سهل قليقية الخصيب حيث تألفت غــالبية السكان من الارمن [١] .

بلدوين وتانكرد وغزو قليقية :

المعروف أن بلدوين البولوني سبق أن اهتم فترة من الزمن بأمر أرمينيا ، ففي نيقيه وّطد أواصر الصداقة مع أرمني كان بخدمة الامبراطور البيزنطي ، اسمه بقراط ، شقيق كواسيل . والتحق بقراط بخدمة بلدوين ، فكان من قادته . والراجح أن بقراط كان حريصاً على أن يلتمس من بلدوين ان يبذل المساعدة للإمارات الأرمنية ، الواقعة قرب نهر الفرات ، والتي تربطه بها صلات أسرية [٢] . غير أنه حينما صرح تانكرد ، في هرقلة ، بعزمه على أن يفــارق الجيش الرئيسي ليلتمس حظه في قليقية ، قرر بلدوين ، أنه من الحماقة أن يسمح لأمير غربي سواه ، بأن يكون اول من يتوجه بحملة الى بلاد ارمنية ، اذا كان لا بــد من أن يجني ثمرة كونه اكبر صديق للأرمن . وليس من الراجح أنه تم التفاهم بين بلدوين وتانكرد حول هذا الموضوع . فكلاهما ينتميان الى فرعين صغيرين من اسرة حاكمة ، وليس لهما امل او مستقبل في وطنيهما ، وكل منهما يحرص صراحــة على أن يقيم له امارة في الشرق . وعلى الرغم من أن بلدوين قرر فعــلاً إقامة امارة ارمنية ، فان تانكرد وطن نفسه على أن يستقر في اصلح مكان يتيسر له

---

(٢) انظر : Matthew of Edessa loc.cit. Sembat: Chronicle p.610 .

(١) عن العلاقة بين بقراط وبلدوين وكواسيل ، انظر :
Albert of Aix III. 17. pp. 350 - 351 .
William of Tyre VII. 5. vol. I. pp. 383 - 384 .

الاقامة فيه . أبدى تانكرد معارضة في اتخاذ الطريق الدائري المؤدي الى قيصرية ، لأن هـــذا الاقتراح عرضه البيزنطيون كيما يفيدوا منه ؛ وهيأ لتانكرد الفرصة ، وجود سكان مسيحيين اصدقاء بالقرب منه .

وحوالي ١٥ سبتمبر ١٠٩٧ غادر تانكرد المعسكر الصليبي عند هرقلة ، على رأس جماعة مؤلفة من ١٠٠ فارس ، ٢٠٠ من الرجالة ، واتخذ طريقه الى ابواب قليقية . ولم يلبث ، أن سار في اثره بلدوين ، وبصحبته ابن عمه بلدوين لى بور ، ورينالد تول ، وبطرس ستيناي وخمسمائة فارس وألفان من الرجالة . ولم يعرقل حركات كلتا الحملتين ، فئـة غير المحاربين . وبقي مع الجيش الرئيسي زوجة بلدوين ، جُودِفر بأطفالها . واتخذ تانكرد فيما يبدو الطريق المباشر المؤدي الى درب قليقية ، وهو الطريق الذي تجتازه اليوم السكة الحديدية ، فاجتاز أثناء سيره ، اولوكيشا ، أما بلدوين بجيشه الضخم ، فانه آثر أن يتخذ الطريق الرئيسي القديم الذي يؤدي من طواته الى البدتدون ، الواقعة الى الشرق على رأس درب قليقية . ولذا تأخر ثلاثة ايام عن تانكرد ، في عبور الدرب .

ولما هبط تانكرد الى السهل ، توجـه الى طرسوس ، التي لا زالت أهم مدينة بقليقية . وفي تلك الأثناء ارسل تانكرد في طلب الامداد من الجيش الرئيسي . كان يرابط بطرسوس حامية تركية ، التي بادرت بالقيـام بهجوم لطرد الغزاة ، غير أنهـا تعرضت لهزيمة شديدة ، فارتدت على اعقابها . وعندئذ اتصل بتانكرد سكان المدينة ، من الأرمن واليونانيين ، وتوسلوا اليه أن يستولي على المدينة . غير أن الترك ظلوا صامدين في مواضعهم ، حتى تراءى لهم بعد ثلاثة ايام قدوم بلدوين وجيشه . ولمـا تبين لهم أن العدو يفوقهم عدداً ، انتظروا حتى اسدل الليل ستوره ، وركنوا الى الفرار في جنح الظلام . وفي صبيحة اليوم التالي ، فتح المسيحيون لتانكرد ابواب المدينـة ، فحينما وصل بلدوين شهد راية تانكرد ترفرف على ابراج

المدينة . لم يكن بصحبة تانكرد احـــد من الموظفين البيزنطيين . ومن المحقق أنه حرص على ألا يتنازل للأمبراطور عما قد يفتحه من البلاد . غير أنه اكتشف في بلدوين منافساً يبلغ من الخطورة والشدة ، أنـــه لا يحفل ايضاً بالمعاهدة الـــتي انعقدت بالقسطنطينية . طلب بلدوين من تانكرد أنـــه لا بد أن تنتقل طرسوس الى سلطته ، واستشاط تانكرد غيظاً ، غير أنه لم يسعه إلا الموافقة ، نظراً لأنه لم يتوافر له من القوة ما يكفي لمواجهة قوة خصمه ، فانسحب بعساكره ، وتوجه شرقـــاً نحو أذنه .

ولم يكد بلدوين يستولي على طرسوس ، حتى وصل الى المدينة ثلثمائة من النرمان ، قدموا من الجيش الرئيسي لمساندة تانكرد . وعلى الرغم من توسلاتهم لبلدوين ، رفض أن يسمح لهم بالدخول الى المدينة . وبينما كانوا يعسكرون خارج اسوار المدينة ، هاجمهم اثناء الليل الحامية التركية التي كانت مرابطة في طرسوس ، والتي اخذت تطوف وقتذاك بأنحاء القرى ، فلقي النرمان مصرعهم عن آخرهم . ارتاع الصليبيون لهـــذا الحادث . وتعرض بلدوين ، حتى من جيشه ، للوم على ما لقيه النرمان من مصير ، وكاد مركزه يزداد سوء ، لولا أن جاء من الانباء ما يشير الى ما حدث فجأة من ظهور اسطول مسيحي ، في خليج مرسين ، عنـــد مصب نهر كيدنوس (البردان) ، من اسفل المدينة مباشرة ، ويقود هـــذا الاسطول جاينمر البولوني .

جاينمر البولوني :

اشتهر جاينمر بأنه من القرصان المحترفين ، وبفضل حنكته وتجربتـــه أدرك حاجة الصليبيين الى مساعدة بحرية . فبعد أن حشد طائفة من زملائه القرصان من الدانيين والفريزيان والفلمنكيين ، أبحر من الاراضي المنخفضة

في اواخر الربيع ، ولما بلغ مياه شرق البحر المتوسط ، اخـــذ يسعى للاتصال بالصليبيين ، فلا زال يحفظ لوطنه الولاء والاخلاص ، ولذا ابتهج وفرح ، حين ادرك أنه صار قريباً من جيش ، كان قائده (بلدوين) ، شقيقاً للكونت الذي ينتمي اليـه . فسار باسطوله مصعداً في النهر حتى طرسوس ، وبذل الولاء لبلدوين . ومقابل ذلك حصل بلدوين على ثلثمائة من رجاله ، ليؤلف منهم حامية للمدينة ، والراجح أنه عين جاينمر نائباً عنه في حكم المدينة ، بينما تجهز للمسير الى الشرق .

وفي تلك الأثناء ألفى تانكرد أدنه في حالة فوضى واضطراب ، اذ أن اوشين امير لامبرون قام حديثاً بالاغارة على المدينة ، وترك بهـا قوة نازعت الترك السلطة ، بينما شق الطريق الى القلعة واستولى عليها ، فارس برجندي ، اسمه ولف ، والراجح أنه سار مع جيش بلدوين ، ثم انفصل عنه ، التماساً للكسب والغنيمة . وعند قدوم تانكرد ، انسحب الترك ورحب ولف في قلعته بعساكر تانكرد ، الذي أقر امتلاكه لهـــا . أما اوشين فالراجح أنه لم يهتم إلا بانقاذ رجاله من هـذه المغامرة الخطيرة . فحمد لتانكرد قدومه وتدخله ، غير أنـــه ألح عليه بأن يمضي الى مامسترا (المصيصة) حيث تلهف جميع سكانهـــا من الارمن على الخلاص من قبضة الترك . وكان حريصاً على أن يرى الفرنج ينفذون الى دائرة نفوذ خصمه النهم قسطنطين الروبيني .

وصل تانكرد الى مامسترا (المصيصة) في اوائل اكتوبر ، وعنـــد ظهوره ولى الترك الأدبار مثلما حـدث في أدنه ، فأجازوا له عن طيب خاطر الدخول الى المدينة . فلمـا صار بها ، قدم اليها بلدوين بجيشه . على أن بلدوين قرر فيما يبدو أن إمارته المقبلة لن تكون في قليقية . ولعـل ما اشتهر به مناخها من الرطوبة والوخامة ، جعله يعدل عن اتخاذهـــا امارة . ولعله ايضاً أحسّ بأن سوف يكون شديد القرب من الامبراطور

وسلطته المتزايدة . وحثه مستشاره بقراط على أن يسير شرقاً ، حيث كان الارمن يلتمسون مساعدته . وكيفما كان الامر ، فانه أفسد ما تهيأ لتانكرد من الفرص لإقامة امارة قوية في قليقية . غير أنــه توافر لتانكرد من الدواعي ما يحمله على الارتياب ، فلن يسمح لبلدوين أن يدخل الى مامسترا (المصيصة) بـل أرغمه على أن يعسكر على الشاطىء الآخر من نهر جيحان . ومع ذلك ، كان تانكرد مستعداً فعلا بأن يأذن لعسكر بلدوين بأن يتزود بما ترسله اليه المدينة من المؤن . غير أن كثيراً من النرمان ، بزعامة ريتشارد الزعيم صهر تانكرد ، لم يحتملوا أن يمضي بلدوين ، دون أن ينال عقاباً ، جزاء له على ما اقترفه من جريمة في طرسوس . فحرضوا تانكرد على أن يشترك معهم في القيام بهجوم مباغت على معسكر بلدوين . لم تكن هذه حركة موفقة ، إذ أن ما لدى بلدوين من العساكر ، بلغوا من وفرة العدد ، وازدياد القوة ، ما لم يكن بوسع تانكرد أن يقاومهم ، فلم يلبث بلدوين أن ردهم على أعقابهم الى ما وراء النهر وقد اختل نظامهم . على أنه ترتب على هذا النضال المضطرب نتيجة عكسية ، اذ تهيأت الفرصة للوفاق بين بلدوين وتانكرد . غير أن الضرر وقع فعلا . وصار من الواضح أن الأمراء الصليبيين ، ليسوا مستعدين لأن يتعـاونوا من أجل صالح العالم المسيحي ، متى سنحت الفرصة لحيـازة ممتلكات خاصة . ولم يلبث المسيحيون الوطنيون أن أدركوا أن الفرنج القادمين لتخليصهم إنما تحركهم اغراض اخرى ، وان كانوا في الظاهر يزعمون أنهم يعطفون عليهم ، وأيقنوا ايضاً ان مصلحتهم العليـا ، تقضي بأن يعملوا على الايقـاع بين الفرنج ، بعضهم ضد البعض [1] .

---

(١) أورد تفاصيل حملة قليقية كل من :

Albert of Aix III. 5 - 17 pp. 342 - 350 .
Radulph of Caen XXXIII - XLVII pp. 629 - 641 .

بلدوين وتانكرد ومغادرة قليقية :

لم يكد الوفاق يتم في مامسترا (المصيصة) بين بلدوين وتانكرد ، حتى عجل بلدوين بالمسير ليلحق بالجيش الرئيسي عند مرعش . اذ بلغته الأنبـاء أن زوجيه جودفير تحتضر ، وان ابناءه ايضاً ، فيا يبدو ، اشتد بهم المرض ، ولن يعيشوا طويلاً . على أن بلدوين لم يبق إلا اياماً قليلة مع اخويه وسائر قادة الجيش ، فحينا توجه الجيش الرئيسي جنوبـاً الى انطاكية ، انفصل عنه بلدوين ، عند مرعش ، وسار جهة الشرق ، ليجرب حظه في وادي نهر الفرات ، وما يقع وراءه من البلاد . على أن القوة التي صحبته الى تلك الجهـات تقل كثيراً عن القوات التي سارت معه في حملته على قليقية . ولعل السبب في أنه لم يتوافر له العساكر ، يرجع الى ان شهرته كقائد ، تأثرت بما وقع في طرسوس من احداث ، او الى أن اخوتـه حرصوا على أن يستولوا على انطاكية ، فلم يكن لديه سوى مائة فارس . غير أن مستشاره الارمني بقراط ، لا زال يلازمه ، وأضاف بلدوين الى هيئة قيادته قسيس جديد ، وهو المؤرخ فولشر شارتر[1] .

لم يبق تانكرد طويلاً في مامسترا (المصيصة) بعد رحيل بلدوين ،فبعد أن ترك

= وما أورده المؤرخ المجهول (Gesta Francorum IV. 10 pp. 55 - 60) من رواية مختصرة تنم عن العطف على تانكرد . ويشير Radulph , p. 634 الى أن اوشين كان بجوزتة وقتذاك أدنه ، اما البرت (p. 346) فيذكر بأنها كانت في يد ولف . روى Albert (pp. 348 - 349) خبر وصول جاينمر .

(١) وفقاً لـما أورده متى الرهاوي (Matthew of Edessa II. CLIV p. 219) لم يكن مع بلدوين إلا مائة فارس حينما استولى على تل باشر ، وكان معه ستون فارساً حينما سار الى الرها. ويشير فولشر (Fulcher I. XIV. 2, p. 206. 15, p. 215) الى أنه خرج في عدد قليل من العساكر (milites paucos) ، وأنه عبر الفرات في ثمانين (I. XIV . 4. p. 208. 7. p. 210) .

بها حامية صغيرة ، توجه جنوباً ، فطاف حول رأس خليج اسوس حتى بلغ الاسكندرونة . وفي اثناء سيره ، انفـذ الرسل الى جاينمر الذي لا زال فيما يبدو يتخذ طرسوس مقراً لقيادته ، يطلب منه التعاون معـــه . فاستجاب له جاينمر عن طيب خاطر ، وقدم بأسطوله ، ليلحق بتانكرد ، أمام اسكندرونة . وأذعنت المدينة بعـــد أن تعرضت لهجوم مشترك ، فجعل تانكرد بها حامية عسكرية . ثم عبر تانكرد سلسلة جبال أمانوس . مخترقاً ابواب الشام ، لينضم الى الجيش المسيحي امام انطاكية [١] .

والواقع أن مغامرة قليقية لم يفد منها بلدوين وتانكرد سواء . إذ أن كلا منهما أدرك أنه لا جدوى في اقامة امارة بها . فالحاميات الصغيرة التي تركها الفرنج بمدن قليقية الثلاثة ، حـــامية جاينمر في طرسوس ، وحامية ولف في أدنه ، وحامية تانكرد في مامسترا (المصيصة) ، ليس بوسعها أن تقاوم كل هجوم خطير . ومع ذلك ، فان تفرق الحاميات التركية وبعثرتها ، كان له بعض الاهمية للحملة الصليبية بصفة عامـة ، إذ منعتها من استخدام قليقية قاعدة ، يشن منها الترك هجوماً على جناح الفرنج ، أثناء مهاجمة انطاكية ، على حين ان الاستيلاء على الاسكندرونة ، أمـد الفرنج بمينـــاء عظيم النفع ، فمنه ترد المؤن . غير أن اهم مـا حصل عليه الصليبيون من مساعدة وعون ، انمـــا جاء من قِبل امراء الأرمن بالتلال . وما حدث من تداعي سلطة الترك في السهل ، هيـأ للصليبيين الفرصة ، لأن يتوغلوا في بطء في مدنـــه وقراه ، ولأن يقيموا اساس مملكة ارمينية الصغرى ، بقليقية .

وحينما انفصل بلدوين عن الجيش الرئيسي عند مرعش ، كان هـــذا

---

(١) William of Tyre III. 25, 1. p. 149

يشير الى ان البحارة بقوا مع تانكرد .

الجيش يتأهب للسير صوب الجنوب الى انطاكية . واتخذ بلدوين اول الأمر طريقاً موازياً للطريق الذي سلكه الجيش الرئيسي ، ولا يبعد عنه إلا بضعة اميال الى شرقيه ، وذلك كيا يحمي الجناح الايسر له . ولعله لم يحصل على الاذن بالانفصال عن الجيش ، إلا بعد أن تعاهد بالقيام بهذا العمل . والواقع أن بوسعه أن يبرر كل حملته ، بما تبذله من حماية للحملة الصليبية ، لأن أيسر طريق يصح أن تسلكه الأمداد القادمة من خراسان ، لمساندة الترك في انطاكية ، انما يقع في البلاد التي عزم بلدوين على غزوها . يضاف الى ذلك ان توافر بهذه البلاد من الخصوبة مـــا يؤدي الى امداد الحملة الصليبية بكل ما تحتاجه من المؤن .

بلدوين يمضي الى نهر الفرات :

وعند عينتاب اتجه بلدوين رأساً الى الشرق . وما يعتبر موضع شك، ما اذا كان بلدوين أعد للعمل ، ما يتجاوز عزمه وإصراره بصفة عامة ، بأن يقيم له على نهر الفرات امارة ، يرتجى منها النفع والربح له وللحركة الصليبية بأسرها . كانت الأحوال مواتية لبلدوين ، فلم يكن لزامــاً عليه أن ينتزع من المسلمين اقليماً ، لأن هذا الاقليم كان فعلاً في ايدي ارمنية موالية . وكان على صلة بأمراء الأرمن ، ولا بد أنــه ، بفضل بقراط ، اتصل بكواسيل شقيق بقراط ، والذي تقع إمارته الى الشرق مباشرة من مرعش . والراجح ان جبريل الارمني ، امير ملطية ، التمس المساعدة من الفرنج نظراً لما تهدده دائماً من خطر من قِبل الترك الدانشمنديين . أمــــا ثوروس صاحب الرها ، فمن المحقق أنه كان على اتصال مستمر بالصليبيين . والواقع أن قرار بلدوين بمغادرة قليقية ، انما يرجع فيما يقال الى رسالة تلقاها هو او بقراط ، من ثوروس تلح في دعوته الى القدوم الى الرهـــا . وكان الارمن يأملون منذ زمن طويل في أن يحصلوا على مساعدة من الغرب . فالمعروف ان البابا جريجوري السابع ، كان يفكر

منذ ٢٠ سنة ، في توجيه حملة لإنقاذ العالم المسيحي في الشرق . إذ ارتحل الى روما اسقف ارمني ، ليظفر باهتمام البابا[1] . ذلك أن الارمن ، بل الأمراء الذين يحملون ألقاباً بيزنطية ، ازداد ميلهم الى الخلفاء الغربيين على كل ما من شأنه أن يزيد في اعتمادهم عن هذه الامبراطورية الكريهة . فظهور جيش للفرنج على أطراف بلادهم يقاتل في سبيل العالم المسيحي ، هيأ لهم الفرصة ، التي طالما التمسوها ، للاستقلال نهائياً عن السيطرة البيزنطية والتركية ولذا حرصوا على الترحيب ببلدوين ورجاله ، باعتبارهم محررين لهم .

واذا كنا اليوم لا نثق في لفظة « تحرير » ، فان الأرمن سبقونا في معرفة هذا الدرس . فحينما تحرك بلدوين نحو نهر الفرات ، نهض السكان الارمن لتحيته . وما تبقى من الحاميات التركية في الاقليم ، إما لاذوا بالفرار ، او لقوا مصرعهم على ايدي المسيحيين ، والأمير التركي الوحيد الذي يصح أن يكون له اهمية في الجهات المجاورة ، هو الأمير بلق ، صاحب سموساط ، والذي يتحكم في الطريق المؤدي من الرها الى ملطية ، حاول أن ينظم المقاومة ، غير أنه لم يتخذ تدابير هجومية . وانحاز الى بلدوين نبيلان من الأرمن المحليين ، نعتهما اللاتين باسم فير ، ونيكوسوس ، بقواتهما الصغيرة . وفي اثناء اوائل شتاء سنة ١٠٩٧ أتم بلدوين فتح البلاد حتى نهر الفرات ، بأن استولى على اهم حصنين ، هما راندوان وتل باشر ، المعروفان عند اللاتين باسمي Ravendel, Turbessel . فجعل مستشاره بقراط الارمني ، يتولى حكومة حصن راوندان الذي يتحكم في الطرق المؤدية

---

(١) انظر رسالة جريجوري في :
Jaffé , Monumenta Gregoriana VIII . Bibliotheca . Rerum Germanicorum vol . II . pp . 423 - 424 .

الى أنطاكية . اما تل باشر التي ترجع اهميتهـا الى قربهـا من المخاضة المشهورة ، قرقيش عبر نهر الفرات ، فجعـل حكومتها للأمير الارمني فير [1] .

وبينما كان بلدوين لا زال في تل باشر ، قدمت اليه سفارة من الرها ، حوالي مستهل السنة الجديـدة . اذ استبد القلق بثوروس حول وصول الفرنج ، بعد أن شهد تمهلهم على الضفة الغربية لنهر الفرات . كان مركزه دائماً بالغ الحرج ، اذ ارتاع لما بلغه من الأنبـاء بأن كربوقا التركي امير الموصل المعروف بخطورته وشدته ، اخـذ يحشد جيشاً ضخماً ، استعداداً لنجدة انطاكية ، غير أن بوسعه أن يمحو ، في سهولة ويسر ، الرها وسائر الامارات الارمنية الواقعة في طريقه . غير أن بلدوين لن يذهب الى الرها إلا بالشروط التي تلائمـه . الواضح أن ثوروس كان يأمل في أن يستخدم بلدوين على أنه من المرتزقة ، بما يبذله له الأموال ، وما يغمره به من المنح والهدايا الثمينة ، غير أنه بات جلياً أن بلدوين اراد اكثر من ذلـك ، وتلقت سفارة الرها في تل باشر ، تفويضاً بأن تزيد في العرض ، بأن ثوروس سوف يتخذ من بلدوين ابناً ووريثاً له ، وسوف يبادر الى اختياره قسيماً له في حكم بلاده . وتراءى لثوروس الذي لم ينجب ابناً ، والذي تقدم به العمر ، أن هـذا هو الحل الوحيد . والواقع أنه ما كان له ان يختار ذلك ، لو لم يحمله على الاختيار ، أنه لم يكن مقبولاً في وطنه ، وأنه تعرض للتهديد من قبل جيرانه [2] . على أن القلق والاضطراب استبد بمن

---

(١) Albert of Aix III. 17 - 18. pp. 350 - 351 .

(٢) Albert of Aix III. 19 p. 352 .
Fulcher of Chartres 1. XIV. 5 - 6 pp. 209 - 210 .
Matthew of Edessa II. CLIV. pp. 218 - 221.
Laurent : op. cit. pp. 418 - 423 .

كان اقصر نظراً ، من ثوروس ، من ساسة الأرمن . اذ لم يكن من اجل هذا الغرض ، ما قام به بقراط من اطلاع بلدوين على امور الارمن . اذ كان بقراط اول من اظهر الامتعاض والسخط . فبينما كان الفرنج لا زالوا في تل باشر ، اشار فير الذي لا شك في أنه اراد ان يخلف بقراط فيما كان له من مكانة عند بلدوين ، الى أن بقراط يشترك مع الترك في التآمر عليه . والراجح ان مؤمراته لم تكن إلا مع اخيه كواسيل ، الذي كان يستشيره فيما تعرضت له حرية الأرمن من خطر جديد . ولعله كان يأمل ايضاً في ان يجعل من نفسه اميراً على راوندان . على أن بلدوين وطن نفسه على المخاطر ، فانطلقت العساكر الى راونـدان ، وألقت القبض على بقراط ، وحملته الى بلدوين ، وبتأثير التعذيب أقر واعترف بما فعله . غير أنه لم يدل إلا باعترافات قليلة ولم يلبث أن فر هارباً ، الى الجبال التي اتخذ منها مأوى له ، في حماية اخيه كواسيل ، الذي لم يلبث أن جرى طرده ، فلحق بأخيه في الفلاة [١] .

الحملة ومهاجمة سميساط :

وفي مستهل فبراير ١٠٩٨ ، غادر بلدوين تل باشر ، قاصداً الرها . لم يكن معه سوى ثمانين فارساً . نصب له ترك سميساط كميناً في الموضع الذي توقعوا أنه يعبر الفرات عنده ، والراجح أنه حدث ذلـك عند البيرة . غير أنه تجنبهم ، واجتاز النهر خلسة من مخاضة تقع الى الشمال من البيرة . فوصل الى الرها في ٦ فبراير ١٠٩٨ . وجرى استقباله بأشد ما يكون من الحماس ، من قبل ثوروس وجميع السكان المسيحيين . وتلى

---

(١) Albert of Aix III. 18, p. 351 .

ذلك مباشرة أن اتخـــذه ثوروس رسمياً ابناً له . ووفقاً لشعائر الارمن وقتذاك ، تقرر أن يجري من طقوس احتفال التبني ما يلائم طفلاً صغيراً ، لا شخصاً مكتمل الرجولة ، اذ تجرد بلدوين من الملابس حتى وسطه ، بينما ارتدى ثوروس قميصاً بلغ من الاتساع ، ان دخـل فيـه بلدوين ، وأخذ كل من الوالد الجديد والابن الجديد ، يحك صدره في صدر الآخر . وكرر بلدوين هذا الاحتفال مع الاميرة زوجة ثوروس[1] .

ولم يكد بلدوين يستقر في الرها ، على أنـه وريث ملكها وقسيم في حكمها ، حتى ادرك ان من اول واجباته ، ان يدمر الامارة التركية في سميساط ، التي تستطيـع في سهولة بالغة ، ان تعترض مواصلاته مع الغرب . وأعلن سكان الرها غبطتهم وارتياحهم لمساندة خطته للقيام بحملة ، نظراً لأن الامير بالدك (بلق) اقرب الاعداء منهم وأشدهم مراساً ، لما دأب عليه من الاغارة على قطعانهم وحقولهم ، ولما لجأ اليه احياناً من انتزاع الجزية من المدينة ذاتها . وسار جيش الرها الاقليمي بصحبة بلدوين وفرسانه ، لمهاجمة سميساط ، وصحب الجميع ، احد صغار امراء الارمن ، وهو قسطنطين امير كركر ، الذي يعتبر من اتباع ثوروس . على أن الحملة التي استمرت من ١٤ الى ٢٠ فبراير ، لم تحرز شيئاً من النجـــاح . اذ كان عساكر الرها ضعافاً ، فاجأهم الترك ، فلقي مصرعه منهم الف عسكري ، وعندئذ انسحب الجيش . على أن بلدوين استولى على قرية اسمها St. John ، وقام بتحصينها ، وهي قريبة من عاصمة الامير (بلق) ، وجعل بهذه القرية الشطر الاكبر

---

(١) Albert of Aix III. 19 - 21 , pp. 352 - 354 .
Fulcher of Chartres 1. XIV. 7 - 12. pp. 210 - 213 .
Guibert XIV. p. 165 .

من فرسانه للإشراف على تحركات الترك ، ونجم عن ذلك أن قلّ عدد هجمات الترك ، واعترف الارمن بفضل بلدوين [1] .

وتلى عودة بلدوين الى الرها ، أن ظهر بالمدينة مؤامرة ضد ثوروس ، يساندها قسطنطين امير كركر . وليس معروفاً الى أي حد اشترك فيها بلدوين . وعلى الرغم من ان اصدقاءه أنكروا ذلك ، فانه وفقاً لما اورده المؤرخ الارمني ، متى الرهاوي ، اخطره المتآمرون أنهم ينوون عزل ثوروس عن العرش ، وإحلاله مكانه . اذ ان سكان الرها لم يحبوا ثوروس ، ولم يعترفوا له بالمهارة ، التي استطاع بها أن يحفظ لمدينتهم استقلالها . كانوا يكرهونه ، لأنه ينتمي الى الكنيسة الارثوذكسية ، ولأنه يعتبر اسمياً من موظفي الامبراطورية . ولم يكن بوسعه أن يحمي محصولاتهم ومتاجرهم من المغيرين ، ولأنــــه انتزع منهم ضرائب باهظة . غير أنهم لم يستطيعوا الاستغناء عنه إلا بعد قدوم بلدوين ، اذ صار لهم وقتذاك مدافع قوى . ولذا لم يكن تدبير المؤامرة في حاجـة الى حافز من قِبل الفرنج ، غير أنه من العسير أن نصدق بأن المتآمرين يعنون في المخاطرة ، دون الحصول على موافقة الفرنج . ففي يوم الاحد ٧ مارس ١٠٩٨ وجـــه المتآمرون ضربتهم . فأثاروا السكان وحرضوهم على مهاجمة الدور التي يسكنها موظفو ثوروس ، ثم زحفوا على قصر الامير بالقلعة . وتخلى العساكر عن ثوروس ، ولم يقدم لانقاذه ، ابنه الذي تبناه (بلدوين) ؛ بل اكتفى بأن نصحه بالاذعان والاستسلام . فوافق ثوروس ، ولم يطلب سوى أن تتهيأ له ولزوجته الحرية في الانسحاب الى حميه ، والد زوجته ، بملطية . وعلى الرغم من أن بلدوين

---

(١) Albert of Aix III. 21, pp. 353 - 354 .
Matthew of Edessa II. CLIV. pp. 218 - 221 .
اعتبر الحملة كارثة .

كفل له صراحة السلامة ، فانه لم يسمح له بالمسير ، ولما تبين لثوروس أنه اسير قصره ، حاول ، يوم الثلاثاء ، ان يهرب من النافذة ، غير أن الرعاع ، ألقوا القبض عليه ومزقوه إرباً . أما مصير الاميرة ، والدة بلدوين المتبنى ، فظل مجهولاً . وفي يوم الاربعاء ، ١٠ مارس ، تلقى بلدوين من سكان المدينة الدعوة ليتقلد حكومتها .

بلدوين وثوروس :

أرضى بلدوين بذلك طموحه في انشاء امارة . على أن الرها في الواقع لم تكن بالاراضي المقدسة ، غير ان قيام مملكة للفرنج في الحوض الاوسط لنهر الفرات يعتبر امراً بالغ القيمة في الدفاع عن كل امارة يصح أن تقوم بفلسطين . وفي وسع بلدوين ان يبرر عمله ، بأنه يطابق الخطوط العريضة للسياسة الصليبية . غير أنه لا يستطيع ان يبرر عمله من الناحية القانونية ، امام العالم المسيحي . فالرها ، باعتبارها مدينة كانت تابعة للامبراطور البيزنطي قبل غزوات الترك ، ينطبق عليها اليمين التي أقسمها بلدوين في القسطنطينية امام الامبراطور . يضاف الى ذلك أنه لم يحز هذه المدينة إلا بما لجأ اليه من نزع اميرها والتواطؤ على قتله ، على الرغم من أنه يعتبر من الناحية الرسمية على الاقل من خدام الامبراطورية . غير أن بلدوين أظهر فعلاً في قليقية ، أن يمين الولاء التي أقسمها لا اهمية لها عنده ، على حين انه حدث في الرها أن كان ثوروس مستعداً لأن يساوم في حقوقه دون أن يرجع الى سيده الذي يقيم بعيداً (الامبراطور البيزنطي) . غير أن الحادث لم يكن خافياً على الكسيوس ، الذي احتفظ بحقوقه ، الى ان يصبح في وضع يمكنه من تحقيقها .

على أن المؤرخين الارمن المتأخرين ، الذين كتبوا حينما تبين أثر سيطرة الفرنج فيما اصاب ارمن الفرات من تدمير شامل ، اشتدوا في إنكار ما

قام به بلدوين . غير انهم لم يكونوا منصفين . فلم يكن عند بلدوين من الأعذار الاخلاقية ، التي يبرر بها معاملة ثوروس ، كالتي ظهرت جلية فيما لدى المؤرخين اللاتين من اتجاه مضطرب . واتخذ ثوروس هذا السلوك مع الب حلاج التركي Alphilag الذي سبق ، منذ ثلاث سنوات او اربعة ، أن استنجد به ليخلصه من الدانشمنديين ، فتسبب في قتله . غير أن ما فعله وقتذاك ، انما كان من اجل انقاذ مدينته وأهلها من استبداد الترك ، كما أن الب حلاج لم يتخذه ولداً . وعلى الرغم من أنـه لم يكن للتبني في عرف الارمن من الاهمية ما كان له في قانون الغرب ، فـان ذلك لم يقلل من الجريمة الاخلاقية التي ارتكبها بلدوين . على أنه لا ينبغي للأرمن أن يوجهوا اللوم الى بلدوين ، إذ أن ثوروس لم يلق مصرعه إلا بأيدي الارمن انفسهم ، ولم تجر دعوة بلدوين كيما يحل مكانه في حكومة الرها ، إلا بعد موافقة تكاد تكون اجماعية من الارمن . أما أمراء الارمن ، الذين كان لزاماً على الصليبيين أن يطردوهم ، والذين هم وحدهم لم يثقوا في قيمة ما بذلوه لهم من المساعدة ، ليسوا إلا الرجال الذين خدموا في الايام الخالية الأمبراطورية البيزنطية . وتعرضوا لكراهية مواطنيهم ، لمـــا بذلوه من الولاء للأمبراطور ، وازدادت الكراهية لهم ، حين اضحوا من اتبـــاع الكنيسة الارثوذكسية . وهؤلاء الموظفون الذين كانوا من قبـل موظفين بيزنطيين ، امثال ثوروس وجبرائيل ، توافر لهم من الخبرة والتجربـة في الحكم ، ما يكفي للمحافظة على استقلال الارمن على الفرات . غير أن رعاياهم الناكرين للمعروف ، الكارهين لبيزنطه ، والمستعدين لأن يغفروا للاتيني من الأخطاء الإلحادية ، ما أنكروه دائمـاً على اليوناني ، لا ينبغي أن يلوموا إلا أنفسهم ، اذا جرهم اصدقاؤهم من الفرنج الى الكارثة (١)

---

(١) يؤكد خيانة بلدوين = Matthew of Edessa , loc . cit

وكل شيء تراءى في الوقت الراهن على احسن وأبهج صورة . إذ اتخذ بلدوين لقب كونت الرها ، وبات واضحاً أنه اراد أن ينفرد بالحكم . غير أنه لم يكن لديه من عساكر الفرنج إلا عدد قليل ، فكان لزاماً عليه أن يستند الى الارمن ، ليؤدوا له اعماله ، وعثر على عدد كبير منهم ، يصح أن يطمئن اليهم ويثق فيهم . وزاد من سهولة عمله ، ما جرى اكتشافه بالقلعة من اموال وفيرة ، يرجع تاريخ معظمها الى زمن البيزنطيين ، وتكاثرت بما لجأ اليه ثورس من الامعان في ابتزاز الأموال وفرض الضرائب الباهظة . وما حصل عليه بلدوين اخيراً من الأموال الوفيرة ، لم يساعده فحسب على الحصول على التأييد والمساندة ، بل في اتخاذها ايضاً أداة حاسمة في الدبلوماسية . ارتاع بالدك (بلق) امير سميساط ، حينا نمي اليه خبر اعتلاء بلدوين عرش الرها . ولما شهد الاستعدادات قائمة ، لتوجيه هجوم جديد على عاصمة ملكه ، ارسل فوراً الى الرها يعرض بيع إمارته مقابل عشرة آلاف بيزنته (دينار) ، وقبل بلدوين هذا العرض ، ودخل سميساط منتصراً . فعثر في قلعة سميساط على عدد من الرهائن ، الذين اخذهم بالدك (بلق) من الرها ، فبادر بلدوين الى اعادتهم الى أسراتهم . وهذا الاجزاء ، بالاضافة الى استئصال شأفة الترك من سميساط ، زاد في محبة الناس له ، وأرسل بلدوين يدعو بالدك (بلق) للقدوم الى الرها ، واتخاذها مقراً له ولحرسه ، على أن يكونوا من المرتزقة عند الكونت (١) .

= Fulcher of Chartres I. XIV. 13 - 14 . pp. 213 - 215.

روايته قصيرة مضطربة .

Albert of Aix III. 22 - 23. pp. 454 - 455 .

Laurent : op. cit. pp. 428 - 438. يقرر ان متى الرهاوي كان بالرها وقتذاك .

(١) Albert of Aix : III. 24, pp. 355 - 356 .

زواج بلدوين :

ولما ذاع خبر انتصارات بلدوين ، عمد كثير من فرسان الغرب ، وهم في طريقهم لمساندة الجيش الصليبي في انطاكية ، الى تغيير خطتهم ، وتحولوا الى الرها ليشاركوا بلدوين حظه ونصيبه ، بينما تخلى آخرون عن حصار انطاكية العنيف ، ولحقوا ببلدوين ؛ ومن هؤلاء دروجو نسله ، ورينالدتول ، ثم جاستون بيرن ، احد اتباع ريموند فكافأهم بلدوين من خزانته بهدايا ومنح رائعة ، ولإغرائهم بالإقامة في الرها ، شجعهم على الزواج من اميرات ارمنيات ، وجعل من نفسه نموذجاً لهم ، نظراً لأنه كان ارملاً ولم ينجب ولداً فكانت كونتيسته الجديدة ابنة احد الزعماء ، وقد اشتهر في التواريخ اللاتينية باسم تفنوز او تفروق . كان من الأمراء الموسرين يملك اقليماً قريباً من الرها ، ويمت بصلة القرابة الى قسطنطين صاحب كركر ، وكان وثيق الصلة بالقسطنطينية التي لجأ اليها آخر الأمر . والراجح أنه لم يكن سوى ثاتول نفسه ، امير مرعش ، الذي صار تحالفه مع بلدوين عظيم الإهمية . إذ منح ابنته بائنة قدرها ستون الف دينار بيزنطي ، فضلاً عن أنه وعدها بأن ترث املاكه من بعده . غير انها لم تكن سعيدة في زواجها ، ولم تنجب اطفالاً [١] .

---

(١) لم تتضح معرفة شخصية صهر بلدوين . فيشير Albert of Aix 111. 31. p. 361 الى ان اسمه تفنوز ، وأنه شقيق قسطنطين . وجعله وليم الصوري (X.1.1. p.402) تفروق . اما دولاريه Dularier (p. 431, no. 2) الذي نشر كتاب متى الرهاوي ، فيشير الى انه لا بد انه كان ثوروس ، شقيق قسطنطين الروبيني ، غير انه اقر بأنه لم يكن لقسطنطين اخ معروف بهذا الاسم . امـا هيجنماير فانه قبل المطابقة ، وذلك فيما اورده من حواشي في كتاب فولشر الذي نشره (p . 431 note 7) . على انه من الواضح ان قسطنطين الذي اشار اليه البرت لم يكن سوى قسطنطين صاحب كركر . وفي المقال الذي كتبه هونيجمان في دائرة المعارف =

وبذا وضع بلدوين أسس السياسة التي سوف يتخذها فيما بعد في مملكة بيت المقدس . فصار للأمير الفرنجي وأتباعه من الفرنج ، السيطرة على الحكومة ، غير أنه تقرر دعوة العناصر الشرقية من المسلمين والمسيحيين ، للاشتراك في ادارة الحكومة ، على أن تندمج العناصر سوياً آخر الأمر ، وتعمل كلها وحدة متعاونة . وليست هذه إلا سياسة رجل سياسي بصير ، غير أن الفرسان القادمين حديثاً من الغرب ، والذين وطنوا انفسهم على أن يبذلوا حياتهم للصليب ، وأن يستأصلوا شأفة الترك ، لم يروا فيها إلا خيانة لما بذله الصليبيون من وعود . إذ أن اربان لم يدع المؤمنين بكليرمونت لتنصيب بلدوين وأمثاله على ممالك شبه شرقية .

ولم يكن من السهل على بلدوين اول الأمر أن يتبع هذه السياسة . إذ أن المسلمين اعتبروا بلدوين مغامراً طارئاً يصح الافادة منه في الوقت الراهن . فالمعروف أن مدينة مروج الاسلامية تقع بين نهر الفرات والرها ، الى الجنوب الغربي منها . وكانت من توابع الأمير الأرتقي بلك بن بهرام ، غير انها خرجت على طاعته اخيراً . وعندئذ كتب بلك الى بلدوين ، يطلب منه أن يفيد من خدماته لإخضاع المدينة . وإذ طرب بلدوين للفرصة التي سنحت له ، لم يسعه إلا أن يوافق على

= الاسلامية عن مرعش، يذكر ان تفنوز ليس الا ثاتول. ولتعزيز هذا الرأي،نعلم ان ثاتول لجأ الى القسطنطينية سنة ١١٠٤، (انظر: Matthew of Edessa III. CLXXXV. p. 257) وأن زوجة بلدوين استأذنت منه بأن تلحق بوالديها بالقسطنطينية بعد ان انفصلت عنه سنة ١١٠٤ (William of Tyre XI.I. 1. pp. 451 - 452) وليس ثمة ما يدعو لأن نفترض بأنها اشتهرت باسم اردا الذي عرفت به في بعض الاحوال . انظر فولشر ، نشر هونيجمان ، في الموضع السابق ذكره ، وأورد البرت (V. 15 pp. 441 - 442) اسماء الفرسان الذين لحقوا ببلدوين .

أن يقوم بهذا العمل . ولم يلبث سكان سروج أن بعثوا سراً الى بالدك (بلق) ، يطلبون اليه القدوم لإنقاذهم . فتسلل بالدك (بلق) وعساكره من الرها ، ونفذوا الى سروج . غير أن بلدوين سار في اعقابه ، وقد جلب معه عدداً من ادوات الحصار . فارتاع بالدك (بلق) ورجال سروج ، واشتد خوفهم . وبادر سكان المدينة الى أن يعرضوا على بلدوين التنازل له عن مدينتهم ، وأن يؤدوا له الجزية ، بينما خف بالدك (بلق) للقائه ، وأعلن أنه لم يبادر بالقدوم ، إلا للاستيلاء على المدينة باسمه . غير ان بلدوين لم ينخدع ، فقبل عذر بالدك (بلق) ، وأعاده الى ما كان له عنده من الحظوة والمكانة . ولم تمض إلا ايام قليلة ، حتى طلب من الأمير (بالدك) ، أن يسلمه زوجته وأبناءه ليكونوا رهائن عنده . فلما تردّد بالدك (بلق) ، القى القبض عليه ، وقطع رأسه . وفي تلك الأثناء ، تقرر وضع حامية عسكرية في سروج ، بقيادة فولك شارتر ، الذي لا يصح الخلط بينه وبين المؤرخ فولشر شارتر . وتعلم بلدوين من هذا الحادث انه لا يصح الاطمئنان الى الترك والثقة بهم . ومنذ ذلك الحين حرص على أن من يسكن منهم في بلاده ، ينبغي ألا يكون لهم قائد او زعيم ، غير أنه منحهم حرية العبادة . والواقع أنه ليس في وسعه أن يفعل سوى ذلك ، إذ كان لا بد له من الاحتفاظ في يده ببلد مثل سروج ، حيث يكاد كل سكانها يكونون من العرب والمسلمين . غير أن تسامحه صدم رأي الغربيين [١] .

وما حدث من الاستيلاء على سروج ، وما تلى ذلك بعد بضعة شهور من الاستيلاء على البيرة ، بمخاضتها على نهر الفرات ، ومن تطهير الطرق بين الرها وبين حصنيه تل باشر وراوندان ، وطّد كونتية

---

(١) Albert of Aix 111. 25. pp. 356 - 357 .

بلدوين ، وكفل له الاتصال بالحملة الصليبية الرئيسية . وفي الوقت ذاته ، أدرك المسلمون أن كونت الرها ، يعتبر قوة لا بد من الاهتمام بمعالجتها ، وأجمعوا على تدميره . ويتضح عزم المسلمين ، وأهمية الرها للصليبيين ، فيما حدث في مايو سنة ١٠٩٨ من توقف كربوقا ، عند الرها ، اثنـــاء مسيره لنجــدة انطاكية ، وذلك للتخلص من بلدوين . ولم يتخل عن الهجوم إلا بعد ان ظل ثلاثة اسابيع يهاجم اسوار الرها دون جدوى . وأدى فشله الى ارتفاع مكانة بلدوين وهيبته . وما أضاعه كربوقا من وقت انقذ الحملة الصليبية (١) .

مؤامرة على بلدوين :

لم يحفل الارمن ايضاً ببلدوين اول الأمر ، ثم كرهوا تدفق الفرسان الفرنج الى ممتلكاتهم ، وأنكروا ما بذله لهم بلدوين من خدمات . ولم يصانع الفرسان الفرنج الارمن ، فعاملوهم بالازدراء والاحتقـــار ، بل استخدموا العنف معهم في كثير من الأحوال . واكتشف اعيان الرهــا أنه جرى استبعادهم من مجلس الكونت ، حيث اقتصر التمثيل فيه على الفرنج ، على أن ما يؤدونه لبلدوين من الضرائب ، لم تقل عما كانت عليه ايام ثوروس . يضاف الى ذلك أن ضياع الأرمن في الريف تقرر منحها للفرنج القادمين حديثاً ، فارتبط بهم الفلاحون بمـا كان معروفاً في الغرب من عرف اقطاعي بالغ المتانة والشدة . ثم حدث في اواخر سنة ١٠٩٨ ان كشف احد الارمن لبلدوين عن مؤامرة ترمي لاغتياله .

---

(١) Albert of Aix IV. 10 - 12. pp. 396 - 397.
Fulcher of Chartres 1. XIX. pp. 242 - 243.
Matthew of Edessa 11. CLV p. 221.

وجرت الرواية أن اثني عشر أرمنياً من أعيان المدينـة اتصلوا بالأمراء الترك في اقليم دباريكو . وكان بالرها وقتذاك تفنوز صهر بلدوين ، اذ أن زفاف ابنته تم منذ فترة وجيزة قبل هذا التاريخ . وشاع أن المتآمرين أرادوا ان يجعلوه مكان بلدوين ، او على الاقل ، أحبوا أن يرغموا بلدوين على أن يشتركوا معه في الحكومة . ولم يكد بلدوين يسمع بالخبر ، حتى بادر بالعمل . فأمر بالقاء القبض على اثنين من زعماء المتآمرين ، وبسمل عيونهما ، وأمر بجدع انوف المشتركين في المؤامرة وقطع ارجلهم . وألقى بالسجن عدداً كبيراً من الأرمن الذين جرى الاشتباه في اشتراكهم في المؤامرة ، وتقررت مصادرة اموالهم . غير أنه وفقاً لما اتصف به عقلاء الشرقيين من طباع ، بلغ من امعانهم في اخفاء اموالهم ، ما جعلها تفلت من ايدي رجال بلدوين ، وعندئذ أظهر بلدوين الرفق بهم ، فأجاز لهم لهم أن يشتروا حريتهم ، مقابل ما يؤدونه من أثمان تتراوح بين عشرين الف وستين الف دينـار عن الشخص الواحد . أما تفنوز الذي لم يثبت ارتباطه بالمؤامرة ، فانه رأى أنه من الخير ، أن يبادر بالعودة الى جباله ، ويبتعد عن صهره الرهيب . وحمل معه معظم بائنة الكونتيسة ، التي لم يسلم منها سوى سبعمائة دينار بيزنطي [١] .

وما لجأ اليه بلدوين من استخدام العنف في قمع المؤامرة ، قضى على كل ما يتوقعه من الارمن من خطر . على أنه ظل يستخدم فئـة قليلة منهم في الوظائف العالية ، ومنهم ابو الغريب ، الذي جعله حاكماً على البيره . غير أنـــه كلما ازداد لحاق الفرنج به ، بعد أن جذبتهم شهرته وصيته ، لم يسعه إلا أن يفضـــل الشرقيين . على أن شهرته أضحت ،

---

(١) Albert of Aix V. 16 - 18 . pp. 442 - 443 .

ولم يمض عليه إلا اقل من سنة في الرها ، بالغــــة الذيوع والانتشار .
وبينا كان الجيش الصليبي يكد في شق الطريق الى بيت المقدس ، اقــام بلدوين في داخل آسيا إمارة قوية وافرة الثروة ، وصار العـــالم الشرقي يهابه ويخشاه . كان بلدوين عند بداية مسيره مع الحملة الصليبية من صغار الامراء ، فقيراً لا يملك شروى نقير ، يعتمد في حياته على ما يجود به عليه اخوتـــه . حجبه كبار النبلاء امثال ريموند كونت تولوز ، وهيو فرماندوا ، وكبار المغامرين امثال بوهمند . فأضحى الآن سيداً يعتبر أقوى من كل هؤلاء . وعرفته الحملة الصليبية على أنه من أكفأ رجال السياسة وأشدهم مراساً .

الفصل الثالث

امام اسوار انطاكية

تقع مدينة انطاكية على نهر الأورنت (العاصي) ، على مسافة ١٢ ميلاً من البحر . أنشأها سنة ٣٠٠ ق . م ، سيلوقوس الاول ملك سوريا ، وأطلق عليها اسم ابيه انطيوخس ، ولم تلبث ان صارت اهم مدينة في آسيا ، وفي زمن الرومان تعتبر ثالثة مدن العالم . واشتهرت عند المسيحيين بما لها من قداسة خاصة ؛ لأنهم اتخذوا بها لأول مرة اسم المسيحيين ، وبها أقام القديس بطرس اول اسقفية له . وما حل بها في القرن السادس الميلادي من الزلازل ، وما تعرضت له من النهب على ايدي الفرس ، قلل من بهائها وجمالها ، وأصابها التدهور والتداعي بعد فتح العرب ، فأفاد من ذلك مدينة حلب التي تقع في الداخل والتي تعتبر منافساً لها . ولما استرد البيزنطيون انطاكية في القرن العاشر ، عاد اليها بعض عظمتها ومجدها . اضحت أنطاكية ملتقى تجارة المسلمين واليونانيين (البيزنطيين) ، وصارت أمنع حصن على الطرف السوري . وفي سنة ١٠٨٥ استولى عليها سليمان بن قتلمش . فلما مات ، انتقلت الى حوزة السلطان ملك شاه ، فعين ياغي سيان التركماني حاكماً عليها . وظل ياغي سيان

يحكمها لمـــدة عشرة سنوات . ومنذ أن مات ملك شاه ، صار سيده الأسمى رضوان امير حلب ، غير أن ياغي سيان لم يكن تابعـــاً وفياً لواجبه وسيده ، بل حرص على الاستقلال الفعلي ، بما لجأ اليه من سياسة الايقاع ، بين رضوان ومنافسيه ، دقـــاق امير دمشق ، وكربوقا امير الموصل . ففي سنة ١٠٩٦ غدر ياغي سيان برضوان اثنــاء القتــال مع دقـــاق ، الذي اعتبره وقتذاك سيده الاعلى ، على أن مـــا بذله من المساعدة لم يتمكن بهـــا دقاق من الاستيلاء على حلب ، ولم يغفر له اميرها (رضوان) ، هذا الذنب .

ياغي سيان يلتمس الحلفاء :

وانزعج ياغي سيان حينما ترامى الى سمعه انبـاء زحف المسيحيين . فالمعروف أن الصليبين اعترفوا جميعاً بأن تكون انطاكية هدفـاً لهم . والواقع أنهم لم يأملوا في أن يكون بوسعهم المسير جنوباً نحو فلسطين ما لم يقع بأيديهم الحصن الكبير (انطاكية) . وكان معظم رعايا ياغي سيان من المسيحيين ، من اليونانيين والأرمن والسريان . ولمـــا يكنه السوريون المسيحيون من الكراهيــة لليونانيين والأرمن سواء ، يصح أن يظلوا على ولائهم له ، غير أنــه لا يستطيع أن يثق في غيرهم . على أنه ظل فيما يبدو حتى وقتذاك يظهر التسامح نحو المسيحيين ، إذ اجاز للبطريرك John the Oxite أن يقيم بالمدينــة ، التي لم تتحول كنائسها الكبيرة الى مساجد . غير أنه حينما اقتربت الحملة الصليبية من المدينة ، شرع ياغي سيان في اتخاذ تدابير شديدة . فألقى في السجن البطريرك ، الذي يعتبر رأس أهم جالية في انطاكية . وتقرر طرد عدد كبير من الزعماء المسيحيين من المدينة ، ولاذ آخرون بالفرار ، وتعرضت كاتدرائية القديس بطرس للعبث والتخريب ، وتحولت الى اسطبل لخيول الامير .

مقبرة

برج المسجد

الجسر المحصن

الطريق الى السويدية

جسر من القوارب

نهر الاورنت

باب الدوق

باب الكلب

القصر

كاتدرائية القديس بطرس

باب القديس جورج

شمال

برج الشقيقتين

جبل سيلبيوس

الباب الحديدي

القلعة

ميل

انطاكية

ووقع في القرى خارج اسوار المدينة من الاضطهاد ، ما أدى عند اقتراب الصليبيين الى مبادرة اهل القرى الى الفتك بحامية المدينة وذبحهم (١) .

ثم أخذ ياغي سيان يلتمس الحلفاء ، ولم يقدم رضوان امير حلب على أن يبذل له المساعدة ، انتقاماً لما بدر منه من خيانة في السنة الماضية ، برغم ما في ذلك من قصر النظر السياسي . أما دقاق امير دمشق ، الذي توجه اليه شمس الدولة بن ياغي سيان ، يلتمس النجدة ، فأعد حملة لإنقاذه . ونهض للمساعدة طغتكين التركاني اتابك دمشق ، وجناح الدولة امير حمص . وأنفذ ياغي سيان ايضاً رسولاً الى كربوقا اتابك الموصل ، والمعروف أن كربوقا يعتبر وقتذاك أهم الأمراء في اعالي الجزيرة . أدرك ببصيرته وحكمته ، ما يهدد العالم الاسلامي كله من الخطر الصليبي ، وقد تطلع منذ زمن طويل الى الاستيلاء على حلب . فاذا استولى كربوقا على انطاكية ، تم له تطويق رضوان ، وصار في متناول يده . ولذا أعد جيشاً لنجدة انطاكية ، وكان يسانده سلطانا بغداد وفارس اللذان وعدا بالمساعدة . وفي تلك الاثناء ، حشد ياغي سيان في داخل الحصن كل ما لديه من قوات ، وشرع في أن يوفر من المؤن ما يكفيه لحصار طويل (٢) .

ونفذ الصليبيون الى اراضي ياغي سيان ، بعد أن دخلوا مدينة المعرة الصغيرة ، فولت الحامية التركية الأدبار عند اقترابهم . وتوجهت من المعرة سرية بقيادة روبرت فلاندر صوب الجنوب الغربي ، لانتزاع مدينة

---

(١) انظر : Abul Feda : Annales p. 3 .
Ibn al - Athir : Kamil at - Tawarikh. p. 192 .
Kemal ad - Din : Chronicle of Aleppo, pp. 578 - 579.

(٢) Kemal ad - Din : loc. cit.

ارتاح ، وقد اجهز السكان المسيحيون بها على الحامية التركية . وفي تلك الاثناء ، وفي ٢٠ اكتوبر ، بلغ الجيش الصليبي الرئيسي نهر الأورنت ، عند الجسر الحديدي ، حيث التقى الطريقان القادمـان من مرعش وحلب ، ليجتازا النهر في هذا الموضع بعد اتحادهما . واشتهر الجسر بشدة مناعته وقوة استحكاماته ، إذ ارتفع على جانبي مدخله برجان متينان . غير أن الصليبيين بادروا الى مهاجمته ، وتولى اسقف لى بويــه ادارة العمليات الحربية ، ولم يلبثوا ، بعد قتــال مرير ، أن شقوا طريقهم عبر النهر . وبفضل هذا الانتصار ، استولوا على قافلة ضخمة من الماشية والأغنـام والقمح ، كانت في طريقها الى تموين جيش ياغي سيان . أضحى الطريق مفتوحاً امامهم الى انطاكية ، التي تراءت لهم من بعد قلعتها . وفي اليوم التالي ، وصل الى اسوار المدينة بوهمند على رأس مقدمة الجيش ، وجـاء في أثره كل الجيش (١) .

معسكر الصليبيين امام انطاكية :

اشتد خوف الصليبيين حين شاهدوا المدينــة الضخمة ، إذ أن دور انطاكية وأسواقها احتلت سهلاً ، يبلغ طوله نحو ثلاثة اميال ، وامتد نحو ميل الى الداخل ، بين نهر الأورنت وجبل سيلبيوس (حبيب النجار) ، وترصع جانب التل بدور وقصور ثراة المدينة وأغنيائها . وأحاط بكل المدينة الاستحكامات الضخمة التي شيدها جستنيان ، وقام بعمارتها منذ قرن واحد البيزنطيون ، وفقاً لأحداث مـا صدر عن مهارتهم الفنية من خطط وتصميات . وفي شمال المدينة ، ارتفعت الأسوار من ارض البطائح المنخفضة الواقعة على امتداد النهر ، امـا في شرق المدينة وغربها ، فان الاسوار ارتفعت على

(١) انظر : Albert of Aix III. 28 - 35. pp. 358 - 364.
Gesta Francorum V. pp. 66 - 67.

منحدرات الجبل ، وفي الجنوب سارت الاسوار على امتداد قمة الحافة ، ومضت قدماً حتى نفذت من تجويف يخترقه خور اسمه Onopnicles (عفرين) الى السهل ، ثم تمضي الاسوار فوق الباب الخلفي للمدينة ، المعروف باسم الباب الحديدي حتى تبلغ آخر الأمر القلعة المنيعة ، التي ترتفع عن المدينة نحو الف قدم . ويقع بأعلى الاسوار اربعمائة برج ، ضاق بينها من المسافات ، ما جعل كل باردة في متناول سهامها . وفي الشمال الشرقي من المدينة يقع باب القديس بولس ، الذي يؤدي اليه الطريق القادم من الجسر الحديدي وحلب . وفي الطرف الشمالي الغربي ، يقع باب القديس جورج ، الذي ينتهي اليه الطريق القادم من اللاذقية وساحل لبنان . أما الطرق المؤدية للاسكندرونة وميناء سان سيميون ، وهي السويدية الحالية ، فانها تبدأ من المدينة من الباب الكبير ، الواقع على شاطىء النهر ، وتجتاز الجسر المنيع الاستحكامات . على أن الأبواب الصغرى ، امثال باب الدوق ، وباب الكلب تؤدي الى النهر من اقصى الشرق . وتوافر الماء في داخل أسوار المدينة ، وبداخل نطاقها ايضاً متنزهات تتخذ اسواقاً ، ومراعي للأغنام . ويصح أن تأوي المدينة جيشاً بأكمله ، وتبذل له من المؤن ، ما يكفي لحصار طويل . يضاف الى ذلك أنه لم يكن من اليسير اكتمال تطويق المدينة . فليس في وسع العساكر أن ترابط بالأرض الواقعة الى الجنوب من المدينة لشدة انحدارها [١] .

---

(١) أورد فولشر (I. XV. 2 . 4 pp. 217 - 218) وريموند أجيل (V. pp. 241-242) وصفاً موجزاً لأنطاكية . على حين أن وليم الصوري (IV. 9 - 10, 1 pp. 165 - 169) أسهب في هذا الوصف . وأطلق المؤرخون الغربيون على نهر الاورنت ، أسماء :
(Fulcher I. XV. 1. p. 216) Orontes or Ferrius .
او (William of Tyre p. 164) The Far .
او (Gesta Francorum p. 180) Farfar .
او (Albert of Aix. loc. cit) Pharpar .

ولم يستول الترك على انطاكية سنة ١٠٨٥ إلا عن طريق الخيانة وتعتبر الخيانة الخطر الوحيد الذي كان لا بد لياغي سيان أن يواجهه . غير أن ياغي سيان اشتهر ايضاً بسرعة الاستثارة . فاذا لم يكن بوسع الصليبيين أن يطوقوا المدينة ، فانه من جانبه لم يتوافر له من العساكر ما يكفي لحماية أسوارها . ولم يخاطر ياغي سيان بالتضحية بأحد من رجاله إلا بعد أن قدمت الأمداد ، فلم يحاول مهاجمة الصليبيين حينما تحركوا لاتخاذ مواضع لهم ، وظل اسبوعين لا يحاول ان يتعرض لهم بأذى .

نصب المعسكرات امام انطاكية :

ولما وصل الصليبيون الى انطاكية ، اتخذوا مواضعهم خارج الأسوار ، عند الطرف الشمالي الغربي منها . فاحتل بوهمند القطاع المواجه لباب القديس بولص ، واتخذ ريموند موضعه في القطاع المواجه لباب الكلب ، ونزل جودفري الى يمين ريموند ، تجاه باب الدوق . أما الجيوش المتبقاة ، فاتخذت مواضعها خلف بوهمند ، وقد استعدت لأن تتحرك الى حيث الحاجة ماسة اليها . على أن باب الجسر ، وباب القديس جورج ، ظلا في الوقت الراهن مكشوفين ، لا يواجهها قوات . غير أن العمل لم يلبث أن بدأ في إقامة جسر من السفن ، لاجتياز النهر ، من معسكر جودفري الى قرية تالنكي ، حيث تقع مقبرة المسلمين . وبفضل هذا الجسر ، استطاع الجيش أن يبلغ الطرق المؤدية الى الاسكندرونة والسويدية ، وجرت المبادرة الى إقامة معسكر بشمال النهر [١] .

---

(١) انظر : Albert of Aix III. 38 - 39. pp. 365 - 366.
يصف ما يؤديه العساكر من أعمال .
يصف ركود الحامية . Gesta Francorum V. 12. pp. 66 - 68.
Raymond of Aguilers (V. pp. 242 - 243) .
أشار الى انشاء الجسر ، وإقامة معسكر ريموند .

وتوقع ياغي سيان من الصليبيين هجوماً مباشراً على المدينة . غير أنه مـــا من احد من القادة الصليبيين سوى ريموند ، نصح بأنه لا بـــد لهم من محاولة اقتحام الأسوار . إذ قال إن الله الذي تولى حمايتهم حتى الآن سوف يهبهم النصر . ولم يشاركه في هـــذا الايمان سائر القادة . أزعجتهم تحصينات المدينة واستحكاماتها واستبد التعب بالعساكر ، وليس بوسعهم وقتذاك أن يتحملوا خسائر فادحة . يضاف الى ذلـك ، أنهم اذا تمهلوا ، فسوف تلحق بهم الأمداد . اذ حـان موعد وصول تانكرد من الاسكندرونة ، ولعل الامبراطور يبادر بالقدوم ، بأدوات الحصار الضخمة ، كما أن اسطول جاينمر ، يصح أن يبقى على حيـــاة كثير من الرجال ، وترددت الشائعات بأن اسطولاً جنوياً على مقربة من المرفأ . وتوافر لدى بوهمند ، الذي يعتد دائماً برأيه ، من الدواعي ما جعله يعارض اقتراحات ريموند . فقد تركزت أطماع بوهمند في امتلاك انطاكية والانفراد بها . اذ أنه لم يؤثر فحسب ألا تتعرض انطاكية لنهب الجيش ، الذي يجد متعة في نهب مدينة غنية مثل انطاكية ، بل أشد ما كان يخشاه ، أنـــه اذا سقطت المدينة ، بفضل الجهد المشترك للجيوش الصليبية ، فلن يكون بوسعه مطلقاً أن ينفرد بالمطالبة بامتلاكها . لقد وعى بوهمند الدرس الذي ألقاه عليه الكسيوس في نيقية ، فاذا استطاع أن يدبر أمر استسلامها له ، كان من العسير أن ينازعه احد في امتلاكها . لم يستغرق منه هـذا التدبير سوى وقت قصير ، نظراً لدرايته بما اشتهر في الشرق من طرق الخيانة والغدر . وبفضل نفوذه وسلطانه ، تقرر إغفال نصيحة ريموند ، فازدادت كراهية ريموند له ، وبذا ضاعت الفرصة الوحيدة للتعجيل بالاستيلاء على انطاكية ، لأنه لو أن الهجوم الاول صادف نجاحاً ، فما استطاع ياغي سيان الذي اشتهر بسرعة ثائرته ، أن يقاوم طويلاً ، غير أن الارجاء والتمهل أعـاد الثقة الى نفسه .

لم يجد بوهمند وأصدقاؤه صعوبة في التماس الوسطاء الذين يتصلون عن

طريقهم بالعدو . فاللاجئون والمبعدون المسيحيون عن المدينـة ، لا زالوا على اتصال وثيق بأقاربهم بداخل أسوار المدينة ، بفضل ما تخلل صفوف المحاصرين والمدافعين من ثغرات . وقف الصليبيون على كل ما يقع داخل انطاكية ، غير أن الطريقة تعتبر ذات اتجاهين متعارضين، اذ أن عدداً كبيراً من المسيحيين المحليين، لا سيما السريان، ساورهم الشك فيما اذا كان الحكم البيزنطي او الفرنجي ، يَفضل الحكم التركي ، اذ أبدوا الاستعداد لأن يؤدوا خدمة لياغي سيان ، بأن ينقلوا اليه خبر كل ما يجري في معسكر الصليبيين ؛ ومنهم علم ياغي سيان ، إحجام الصليبيين عن مهاجمة المدينـة ، فشرع في إعداد هجمات عليهم ، بأن يُخرج رجاله زاحفين من الباب الغربي ، ليفصلوا عن الجيش الصليبي ، كل ما يصادفونه من جماعــات صغيرة من الفرنج خرجت لالتماس العلف . واتصل بحاميته المرابطة خارج المدينة عند حارم ، عبر الجسر الحديدي على الطريق المؤدي الى حلب ، وشجعها على أن تنزل الاضطراب والارتباك في صفوف الفرنج بمؤخرة الجيش . وفي تلك الأثناء سمع ياغي سيان أن سفارة ابنه الى دمشق ظفرت بالنجاح ، وأن جيشاً نهض فعلاً لنجدته (١) .

وإذ جرى التحول من الخريف الى الشتاء ، اخذ الصليبيون ، الذين شجعهم اول الأمر تراخي ياغي سيان ، يستبد بهم الخوف ، برغم مـــا حازوه من بعض الانتصارات ، وفي منتصف نوفمبر ، نجحت حملة بقيادة بوهمند في أن تغري حامية حارم بالخروج من الحصن ، فأبادتهـــا عن آخرها (٢) . وفي نفس اليوم ، ظهر في ميناء السويدية ، اسطول جنوي

---

(١) انظر : Gesta Francorum V. 12. p. 68.
Kemal ad - Din: op. cit. p. 577.

(٢) انظر : Gesta Francorum, ibid pp. 68 - 70.

مؤلف من ١٣ سفينة ، فاستطاع الصليبيون عندئذ أن يستولوا عليها . وجلب هذا الاسطول الأمداد من الرجال والمؤن ، بعد أن تأخرت جنوة في الاستجابة للدعوة التي وجهها اليها البابا اربان منذ نحو سنتين. وما حدث من وصول الاسطول ، جعلهم يدركون أنه اضحى بوسعهم أن يتصلوا عن طريق البحر ببلادهم . غير أن هذه الانتصارات ، اضعف اهميتها وقيمتها ، مشكلة إمداد الجيش بالمؤن . فالمعروف ان الصليبيين ، حينما دخلوا الى سهل انطاكية ، وجدوه زاخراً بالمؤن ، إذ توافرت به الاغنام والماشية ، ولا زالت شون القرى تحوي معظم محصول السنة . فأشبعوا أنفسهم ، وأهملوا ادخار ما يلزم لشهور الشتاء من المؤن . وتحتم على العساكر وقتذاك أن تخرج لتلتمس العلف والمؤن ، فصارت تقوم بدوريات بعيدة المدى ، وتعرضت لأن يفصلها عن الجيش الرئيسي ، الترك الهابطون من الجبال . ولم يلبث أن جرى اكتشاف أن المغيرين من انطاكية ينفذون من الخانق الذي يجتازه نهر (اونوبنيكل) ، وينتظرون على التل الذي يطل على معسكر بوهمند ، كيا يهاجموا الضالين من العساكر ، الذين تأخروا في العودة الى معسكراتهم . ولمواجهة هذا ، قرر القادة الصليبيون أن يشيدوا برجاً منيعاً بأعلى التل ، وتعاهد كل منهم بأن يشحنه بدوره بالعساكر . ولم يلبث البرج أن اكتمل بناؤه ، واتخذ امم (ماليجارد) [١] .

المؤن تأخذ في النفاد :

وعند حلول عيد الميلاد سنة ١٠٩٧ ، اوشكت مؤن الجيش على النفاد ،

---

(١) انظر :
Gesta Francorum V. 13. p. 70.
Raymond of Aguilers V. p. 242.
Caffaro, De Liberatione p. 50.

ولم يعد في القرى المجاورة من المؤن مـــا يصح الحصول عليها . فعقد الأمراء مجلساً ، تقرر فيه ، ارسال شطر من الجيش بقيـــادة بوهمند وروبرت فلاندر ، يتخذ طريق وادي الأورنت الى حماه ، للإغارة على ما بها من القرى ، وأن يحملوا كل ما تقع عليه ايديهم من المؤن . أمـــا ادارة الحصار فينبغي تركها في الوقت الراهن في ايدي ريموند وأسقف لي بويه . واشتد المرض وقتذاك بجودفري . فارتحل بوهمنـد وروبرت في ٢٨ ديسمبر ، وفي صحبتهما نحو عشرين الف رجل . على أن رحيلهم لم يلبث أن صار معروفاً لياغي سيان . فانتظر حتى اوغلوا في السير ، ثم قام في ليلة ٢٩ ديسمبر بهجوم قوي عبر الجسر ، وانقض على الصليبيين الذين عسكروا شمال النهر . والراجح أن هؤلاء كانوا من عساكر ريموند ، الذين انتقلوا من موضعهم الاول ، بعد أن جعلت الامطار ، الارض المنخفضة الواقعة بين النهر والأسوار ، لا تصلح للإقامة بها . كان الهجوم مفاجئاً ، ولم يكن متوقعاً ، غير أن يقظة ريموند أنقذت الموقف . إذ بادر بحشد جماعة من الفرسان ، وهاجم بهم الترك أثناء الليل ، فارتد الترك ، وولوا الأدبار ، مجتازين الجسر ؛ وبلغت مطاردة ريموند لهم من الشدة والعنف ، أن رجاله استطاعوا أن يتخذوا ، لفترة قصيرة ، موضعاً لهم عبر الجسر ، قبل أن تغلق الابواب . وتراءى لريموند أن يبرر اعتقاده ، بأنه يصح مهاجمة المدينـة ، حينما اندفع راجعاً وقتذاك حصان قذف براكبه ، فأثار الفوضى والاضطراب في الفرسان المتزاحمين على الجسر . على أن الظلام كان من الشدة ، أنه لم يتيسر رؤية ما حـــدث ، وساد الذعر بين الصليبيين ، ولجأوا بدورهم الى الفرار فتعقبهم الترك ، حتى اجتمعوا بمعسكرهم الواقع عند جسر السفن المقام على نهر الاورنت ، فرجع الترك الى المدينة . هلك كثير من الرجال من الجانبين ، غير أن خسارة فرسان الفرنج كانت بالغة

الفداحة ، ولم يكن في وسع الصليبيين أن يتجنبوا ذلك ، ومن الذين هلكوا في هذه المعركة حامل لواء أدهيمر [1].

كان بوهمند وروبرت فلاندر ، يسيران وقتذاك راكبين جهة الجنوب ، ولم يعلم بوهمند مطلقاً كيف أن انطاكية كادت تسقط في يـــد منافسه ريموند ، ولم يعلم ايضاً أن قوة إسلامية ضخمة اخذت تتحرك نحوه لنجدة أنطاكية . ذلك أنه في حوالي منتصف هذا الشهر ، غادر دقاق امير دمشق عاصمته، يصحبه الأتابك طغتكين ، وشمس الدولة بن باغي سيان، وجيش ضخم. وعند حماه انحاز اليهم اميرها بقواته ؛ وفي ٣٠ ديسمبر ، أضحوا في شيزر حيث علموا أن جيشاً صليبياً بالقرب منهم . فبادروا بالمسير ، وفي صبيحة اليوم التالي ، انقضوا على العـدو عند قرية الباره ؛ فأخـذ الصليبيون على غرة ، وتم تطويق جيش روبرت ، الذي كان يسبق في المسير جيش بوهمند . ولما شهد بوهمند ما حدث ، ادخر معظم عساكره ، كيما يهجم على المسلمين في اللحظة التي ظنوا أنهم سوف يحرزون فيها النصر . وأدى تدخله الى إنقاذ روبرت ، والى انزال خسارة فادحة بجيش دمشق ، الذي ارتد راجعاً الى حمـــاه . غير أن الصليبيين ، برغم ما زعموه لأنفسهم من الانتصار ، وأنهم منعوا فعلاً النجدة عن انطاكية ، بلغ بهم الضعف ، أن امتنعوا عن الخروج من اجل العلف والمؤن ، اذ عادوا ، بعد أن نهبوا قرية او قريتين ، وبعد أن أشعلوا النيران في احد المساجد ، وقـد كادت أيديهم تخلو من الغنيمة ، فعسكروا امام انطاكية [2].

---

(١) انظر : Raymond of Aguilers V. pp. 243 - 244.
Gesta Francornm VI. 14. pp. 74 - 76.

(٢) انظر : Gesta Francorum V. 13. pp. 70 - 72.
Albert of Aix III. 50 - 51. pp. 373 - 374.
Kemal ad - Din: op. cit. p. 580.

المجـــاعة :

أدركوا ما غلب على رفاقهم من الحزن العميق ، اذ تلى المعركة العنيفة التي دارت ليلة ٢٩ ديسمبر ، وقوع زلزال في اليوم التالي ، بلغ من الشدة أن احس به سكان الرها . وفي مساء ذلك اليوم أضاء السماء الشفق الشمالي ، وفي أثناء الأسابيع التالية ، انهمرت الامطار دون انقطاع ، واشتدت البرودة ولم يستطع ستيفن بلوا أن يدرك لمـاذا يشكو الناس من شدة ضوء الشمس في سوريا . وصار واضحاً أن الله ليس راضياً عن محاربيه ، لما اتصفوا به من الكبرياء والبذخ واللصوصية . أمر ادهيمر اسقف لى بويه بالصيام ثلاثـة ايام ، غير أن الصيام لم يكن له اهمية ، نظراً لأن المجاعة اضحت وشيكة الوقوع ، يضاف الى ذلك أن عدداً كبيراً من الناس سوف يهلكون جوعاً ، بعد أن فشلت الحملة في الحصول على المؤن والعلف . فهلك جوعاً واحـد من كل سبعة رجال . وتقرر إنفاذ الرسل لالتماس الطعام ، فبلغت في مسيرها جبال طوروس حيث قبل امراء بيت روبين ، أن يمدوا الصليبيين بكل ما في وسعهم أن يفعلوه . وجـاءت بعض المؤن من لدن الرهبان الأرمن المقيمين بأعلى جبـــال أمانوس ، بينما عمد المسيحيون المحليون ، من الأرمن والسريان ، الى أن يجمعوا كل ما يعثرون عليه من الطعـام ، وجلبوه الى المعسكر . غير أن الحافز لهم لم يكن حب الخير ، إنما الحرص على الربح . اذ تقاضوا عن حمولة الحمار من المؤن ثمانية بيزنتاً (دنانير) . وهذه الأسعار لا يستطيع أن يؤديها إلا أغنى العساكر . على أن الخسائر في الخيل بلغ من زيادتها على خسائر الرجال ، أنه لم يبق منها مع الجيش سوى سبعمائـة حصان [1] .

---

(١) انظر : Anselm of Ribemont, p. 157.

وردت رسالته في : = Hagenmeyer : Die Kreuzzugsbriefe .

على أن جزيرة قبرص كانت سنداً بالغ الجود والكرم للصليبيين ، إذ حرص ادهيمر ، اسقف لى بويه ، بناء على تعليمات البابا اربان ، على أن يوطد الصلات الطيبة مع رجال الكنيسة الارثوذكس في الشرق ، فبذل لهم من الاحترام ، ما يدحض نظرية أن البابا اتخذ الحرب الصليبية أداة لإخضاع رجال الكنيسة الشرقية لسلطانه . هذه الصداقة لم تكن كبيرة القيمة لبطريرك انطاكية ، السجين فعلاً بداخل المدينة ، لأن الترك احبوا من حين الى آخر ، أن يجعلوا البطريرك في قفص ، يعلقونه على اسوار المدينة . أما سمعان بطريرك بيت المقدس ، فلجأ الى جزيرة قبرص ، بعد أن سادت الفوضى المدينة عقب وفاة ارتق . ولم تكد المواصلات تعود سيرتها الاولى ، حتى اتصل به ادهيمر . ولم يكن البطريرك سمعان راضياً عن التقاليد اللاتينية . إذ اصدر رسالة حازمة ، معتدلة اللهجة في مهاجمة هذه التقاليد ، غير أنه كان فرحاً بالتعاون مع الكنيسة الغربية ، من أجل صالح العالم المسيحي وخيره . إذ اجتمع فعلاً في اكتوبر ١٠٩٧ ، بأدهيمر ، واشتركا سوياً في ارسال تقرير عن الحملة الصليبية ، الى المسيحيين

= (أشارت بصفة خاصة الى الخيول) .

Stephen of Blois, ibid p. 150.

(يشير الى سوء الأحوال الجوية) .

Fulcher of Chartres I. XV. 2 - XVI. 6 pp. 221 - 228.

(روايته امتازت بالبلاغة ، وفيها تأنيب للصليبيين لما ارتكبوه من الذنوب) .

Raymond of Aguilers VI. p. 245.

(يذكر الشفق والصيام) .

Getsa Francorum VI. 14. p. 76.

(يذكر الأسعار التي تقاضاها السكان) .

Matthew of Edssa II. CLI. p. 217.

(يشير الى سخاء أمراء الارمن ورهبانهم) .

في الغرب . ولما علم سمعان بنكبة الجيش ، بادر بإرسال كل مـا تستغني عنه جزيرة قبرص من الزاد والنبيذ الى الجيش (١) .

بطرس الناسك يحاول ترك الجيش :

على أن ما ارسله البطريرك من مؤن ، لم تفد برغم وفرتها في تخفيف وطأة العوز الساحق . فلمـا استبد الجوع بالرجال ، اخذوا يهجرون المعسكر ، ويلتمسون مـلاذاً لهم في مناطق اوفر خصوبة وثراء ، او يحاولون أن يتخذوا طريقـاً الى بلادهم مهما كان طويلاً . كان المتسللون من الجيش اول الامر مجرد عساكر مغمورين ، غير أنه حدث في احـد ايام شهر يناير ١٠٩٨ ، أن هرب بطرس الناسك نفسه ، وبصحبته وليم النجار . لم يكن وليم إلا مغامراً ، لم يرض بأن يضيع وقتـه سدى في حملة صليبية عديمة الجدوى . والمعروف أنـه سبق أن تخلى عن حملة في اسبانيا ، غير اننـا لا نفهم السر الذي جعل بطرس الناسك يخرج عن طوره ويولي الأدبار . على أن تانكرد تعقب الفـارين ، وأرجعهم الى المعسكر بعد أن افتضح امرهم . وتقرر العفو سراً عن بطرس الناسك ، لأنه كان من الخير المحافظة على شهرته وسمعته . أمـا وليم (النجار) ، فوقف على رجليه طوال الليل في خيمة بوهمند ، وفي الصباح تلقى منه درساً قاسياً عنيفاً . فأقسم أنـه سوف لا يتخلى مطلقاً عن الجيش مرة

---

(١) انظر : Albert of Aix VI. 39. p. 489.

بعث سمعان بهدايا الى الصليبيين ، منها رمان ، وتفاح من لبنـان ، ولحم خنزير ، ونبيذ . والرسالة مؤرخة في اكتوبر ، وجرى إرسالهـا من انطاكية الى الكنيسة الغربية عن سير الحملة الصليبية ، باسم البطريرك سمعان وأدهيمر . ولا سيما ادهيمر الذي تولى قيادة الجيش المسيحي من قبل البابا اربان .

Hagenmeyer : op. cit. pp. 141 - 142.

عن سمعان انظر ما سبق ص ١٢٠ ، ١٥٤ .

لخرى ، حتى يصل الى بيت المقدس ، غير أنه نقض يمينه فيا بعـــد . ولا شك أن سمعة بطرس الناسك تعرضت للتجريح ، غير أنه لم يلبث أن تهيأت له فرصة اخرى لاستعادتها [1] .

وإذ أخذ الجيش يتناقص ويتضاءل عدده، يوماً بعد يوم ، بسبب المجاعة والفرار ، رأى ادهيمر ، أنـه لا بد من الاستنجاد بالغرب ، كيما يرسل أمداداً . ولحرصه على أن يجعل للنداء اكبر نفوذ وسلطان ، صاغه باسم بطريرك بيت المقدس ، بعد أن حصل على اذن منه . ولغة هذا النداء لها اهمية ودلالة خاصة ، لما تلقيه من ضوء على سياسة ادهيمر الكنسية ، إذ أن البطريرك خاطب كل المؤمنين في الغرب على أنـــه وقتذاك زعيم الاساقفة في الشرق ، سواء كانوا من اللاتين او اليونانيين ؛ فاتخذ لنفسه لقب « الرسولي » ، ووطن نفسه على أن يحرم من الكنيسة كل مسيحي ، لا يوفي بالعهد الذي بذله للاشتراك في الحملة الصليبية . والواقع أن هذه ليست إلا لغة بابا مستقل . فما كان لأدهيمر أن يجري هذه اللغة ، على لسان شخص يحرص على أن يجعله من رعايا اسقف روما ، وكيفما كانت خطط اربان النهائية لإدارة الكنائس الشرقية ، فان مندوبه لم يبشر بالسيادة البابوية . على اننـــا لا نعرف مدى استجابـة الغرب لخطاب البطريرك [2] .

وبرغم ما أظهره الصليبيون من الاحترام الصادق لرجـــال الكنيسة الارثوذكسية في الشرق ، فان علاقاتهم بسادتها العلمانيين ، اصابها التدهور والانحطاط . ففي اوائل فبراير ١٠٩٨ ، تخلى فجـــأة عن الجيش ،

---

(١) انظر : Gesta Francorum VI. 15. pp. 76 - 78.

(٢) انظر : Hagenmeyer : op. cit- pp. 146 - 149

تاتيكيوس ممثل الامبراطور البيزنطي . والمعروف أن تاتيكيوس صحب الحملة الصليبية من نيقية ، وبرفقته عدد قليل من مساعديه ، وجماعة تألفت اساساً من الأدلاء والمهندسين ، وكان، فيما يبدو على علاقات ودية مع زعماء الحملة الصليبية . وقام هؤلاء القادة فعلاً بتسليمه فتوحهم ، في كوماتا وكوكسن . وشاد تاتيكيوس بصفات الصليبيين الحربية . ترددت تفسيرات كثيرة عن رحيله ، غير أنه لا داعي لرفض الرواية التي قصها عند عودته الى القسطنطينية . فوفقاً لروايته ، ارسل اليه بوهمند ذات يوم ، حينما ذاع أن الترك ، ينوون مرة اخرى أن ينفذوا جيشاً لنجدة انطاكية ، فأخبره في سرية تامة أن القادة الآخرين يعتقدون أن الامبراطور يعتبر مسئولاً ، عن تشجيع الترك ، وأنهم يدبرون أمر الانتقام لأنفسهم باغتياله . تظاهر تاتيكيوس بالاقتناع . والواقع أن حالة الجيش الصليبي بلغت وقتذاك من السوء ، ما حمل بوهمند على التماس كبش فداء . يضاف الى ذلك أن تاتيكيوس اعتقد أنه ليس في وسع الصليبيين ، بسبب ما أنزله بهم الجوع من الضعف ، وتداعي الروح المعنوية ، أن يأملوا في الاستيلاء على حصن انطاكية الكبير ، إذ جرى اغفال ما بذله من نصيحة تقضي بإرغام انطاكية على التسليم إذا تعرض سكانها للهلاك جوعاً ، بعد احتلال القلاع التي تسيطر على الطرق البعيدة المؤدية اليها . وعندئذ أعلن أنه لا بد أن يعود الى الاراضي البيزنطية ، كيما يدبر طريقة اكثر سلامة وفائدة لتموين الصليبيين، فاستقل تاتيكيوس سفينة من ميناء سان سيميون (السويدية) ، وأقلع الى جزيرة قبرص . وللتدليل على أنه سوف يعود ، ترك وراءه معظم مساعديه مع الجيش البيزنطي ، غير أنه لم يكد يغادر البلاد ، حتى اخذ دعاة بوهمند يذيعون أنه قد فر جبناً وخوفاً من مواجهة الهجوم التركي المقبل ، او لخيانة كان قد دبرها . ومن المحقق أن الحملة الصليبية ، تخلصت من القيد الذي التزمت به قبل الامبراطور ، نظراً للموقف المشين ، الذي اتخذه ممثل الامبراطور

البيزنطي (تاتيكيوس) . والخلاصة أنه ينبغي ألا يرد الصليبيون انطاكية الى بيزنطة [١] .

بوهمند يهدد بالتخلي عن الحملة الصليبية :

وتلى ذلك أن لوّح بوهمند بأنه يفكر جدياً في الانفصال عن الجيش . فليس بوسعه أن يستمر في اغفال التزاماته بوطنه . فالمعروف أن بوهمند ظل حتى وقتذاك يقوم بالدور الرئيسي في كل ما قامت به الحملة الصليبية من عمليات حربية . على أن احتمال اضاعة ما يبذل من المساعدة في هذه اللحظة الحرجة ازعج الجيش الصليبي . ولذا حرص بوهمند على أن يخطر الجيش، أنه متى صارت له امارة انطاكية ، فان ذلك سوف يعوضه عن كل ما يلحق به من خسائر في وطنه ، اثناء تغيبه عن ايطاليا . لم يتأثر بهذه المناورات رفقاؤه وزملاؤه ، غير أنه حاز عطف سائر العساكر [٢] .

وفي تلك الاثناء اخذ الترك يحتشدون من جديد لانقاذ انطاكية .

---

(١) انظر : Raymond of Aguiler SV. pp. 25 - 26.
يشير الى أن تاتيكيوس اقترح تضييق الحصار . ولم يجر الاخــذ برأيه . ولم يلبث أن لاذ بالفرار ، بعد أن جعل لبوهمند ، من البلاد المصيصة ، وطرسوس ، وأطنه . وهذه المنحة ليست إلا من نسيج بالغ الخيال ، اخترعها بوهمند وأشاعها بين العساكر . ويذكر Gesta Francorum VI. 16 - p.78 - 80 أنه لم يفر إلا نتيجة للجبن الشديد ، والتمس العذر لذلك بأنه كان يسعى للحصول على المؤن للجيش . اما ألبرت فيقول أنه اقام خيمته على حافة المعسكر ، كأنه نوى الهروب فعلاً . فلما هرب ، وعد كاذباً أنه سوف يعود (III. 3 - 8. p. 366, IV. 38. p.416) . اما رواية أنه كومنين التي لا بد أنها استندت الى تقرير تاتيكيوس ، فانها اكثر الروايات إقناعاً ، وهي التي رجعت اليها في هذا الموضع :
Anna Comnena : (XI. IV. 3 vol. II. p. 20) .

(٢) Raymond of Aguilers . loc. cit.

فحينما فشل دقاق في أن يبذل لأمير انطاكية (ياغي سيان) ما وعده من المساعدة ، لم يسع ياغي سيان إلا أن يلجأ الى سيده السابق، رضوان امير حلب . وأعلن رضوان وقتذاك اسفه وحزنه لتراخيه وامتناعه عن مساعدة ياغي سيان ، الذي ادى الى توغل الفرنج الى انطاكية . فلما أقر ياغي سيان سيادته من جديد، ابدى رضوان استعداداً للنهوض لمساندته ، ومساعدة ابن عمته سكمان بن ارتق امير ديار بكر ، وصهره امير حماه .

ففي اوائل فبراير سنة ١٠٩٨ ، استرد الحلفاء حارم ، واحتشدوا بها كيما يهاجموا منها المعسكر الصليبي . ولما سمع الأمراء الصليبيون بالنبأ ، عقدوا مجلساً بخيمة ادهيمر ، فاقترح بوهمند ، أنه ينبغي على الرجّالة أن يبقوا بالمعسكر ، لإحباط كل محاولة من داخل المدينة للهجوم على المعسكر . أما الفرسان ، الذين لم يبق صالحاً منهم للخدمة إلا سبعمائة فينبغي أن يقوموا بهجوم مفاجيء على الجيش التركي المغير . أخذ الجيش بنصيحة بوهمند . ففي ٨ فبراير ، وعند حلول الليل ، تسلل فرسان الفرنج ، واجتازوا الجسر المؤلف من السفن ، على نهر الأورنت ، واتخذوا لهم مواقع بين النهر ، وبحيرة انطاكية ، يستطيعون منها أن ينقضوا على الترك ، عند تقدمهم لعبور الجسر الحديدي . وعند بزوغ الفجر ، اضحى الجيش التركي على مرآهم ، فبادر بالهجوم الصف الاول من الصليبيين ، وذلك قبل أن يصطف رماة الترك ، غير ان الهجوم لم يوقع الاضطراب في حشود الترك ، فانسحب الفرسان ، بعد أن جذبوا العدو الى موضع اختاروه لنشوب المعركة ، تقع البحيرة الى شماله ، والنهر الى يمينه ، فيمنع بذلك الترك من الاحداق بجناحيهم . وعلى هذه الرقعة الضيقة من الارض ، شن الفرسان هجوماً افرغوا فيه كل قوتهم . وأمام هذا الضغط الشديد ، انهار فرسان الترك المتخففون ، وولوا الادبار ، فأثاروا الاضطراب والفوضى في الصفوف المتزاحمة التي ارتصت وراءهم . ولم يلبث كل جيش رضوان أن تراجع الى حلب . وقد اضطربت

صفوفه ، وسادته الفوضى . وعند اجتيازهم حارم ، لحقت الحامية بالفارين ، بعد أن تركوا المدينة للسكان المسيحيين ، الذين سلموهـا بدورهم الى الصليبيين .

وبينما كان الخيالة يحرزون هذا النصر الباهر ، كان الرجـالة يخوضون معركة بالغة العنف ، إذ أن ياغي سيان هاجم بكل مـا لديه من قوة معسكر الصليبيين وأوشك المدافعون عنـه أن يخسروا المعركة ، حتى تراءى لهم اقتراب الفرسان بعـد الظهر ، بعد أن انتصروا على الترك . وعندما اقترب هؤلاء الفرسان ، أدرك ياغي سيان أن الجيش التركي القادم لنجدته ، حلت بـه الهزيمة ، فأمر رجـاله بالعودة الى داخل اسوار المدينة [١] .

وقوع معركة على الطريق الى سان سيميون (السويدية) :

ترتب على هزيمة الجيش التركي الثاني ، القادم لانقاذ انطاكية ، أن ارتفعت الروح المعنوية عند الصليبيين ، غير أنها لم تؤد مباشرة لى تحسين وضعهم . فلا زال الطعام شحيحاً ، على الرغم من أن كميات من المؤن ، اخذت تصل الى ميناء سان سيميون (السويدية) ، جـاء معظمها من قبرص ، حيث جمع كل من البطريرك ، وتاتيكيوس ايضاً ، الذي لم يحر تقدير مساعدته ، ما استطاع من المؤن ، غير أن الطريق المؤدي الى البحر ، تعرض دائماً لغارات الجماعات المتسللة من المدينة (انطاكية) التي كانت تكمن للقوافل الصغيرة ، على حين أن المدينة ذاتها تلقت المؤن عن طريق باب القـديس جورج ، الذي خلى من الحراسة ، وعـبر الجسر الوثيق

---

(١) Gesta Francorum VI. 17 pp. 80 - 86 .
Raymond of Aguilers VII. qp. 264 . 268 .

الاستحكامات . وللتحكم في الجسر والسيطرة عليه ، وما يترتب عليه من تأمين الطريق المؤدي الى ميناء سان سيميون (السويدية) . اقترح ريموند تشييد برج ، على الضفة الشمالية القريبة منهم . غير أن المشروع توقف ، نظراً لقلة مواد البناء والبنائين . وفي ٤ مارس ١٠٩٨ ، كان اسطول يسيّره جماعة من الانجليز ، ويتولى قيادته ، ادجار اثلنج ، المطالب بعرش انجلترا ، والذي كان بالمنفى ، في طريقه الى سان سيميون (السويدية) . وكان هذا الاسطول يحمل حجاجاً من ايطاليا ، غير أنه توقف اثناء الطريق بالقسطنطينية ، حيث لحق بــه ادجار ، الذي كان بخدمة الامبراطور البيزنطي . وشحن الاسطول من القسطنطينية مقادير كبيرة من ادوات الحصار ، والصناع ، فوصل الى سان سيميون (السويدية) في الوقت المناسب . على أن الصليبيين أمعنوا في تجاهل حقيقة أن الامبراطور هو الذي أمدهم بهذه المساعدة .

ولما علم ريموند وبوهمند بخبر قدوم الاسطول ورسوه في سان سيميون (السويدية) ، انطلقا سوياً ، لأن كلا منهما لم يثق في الآخر ، ليحشدا من ركاب الاسطول من المقاتلة مـا استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وليقوما برفقـة الصناع وأدوات الحصار ، حتى المعسكر الصليبي . وفي ٦ مارس ١٠٩٨ ، وأثناء عودتهما بالشحنة من سان سيميون (السويدية) ، تعرضا لكمين ، نصبته لهما سرية من حامية المدينة (انطاكية) . وإذ بغتت عساكر ريموند وبوهمند ، هربوا مذعورين ، بعد أن تركوا مـا بأيديهم ، من الاحمال والأمتعة في ايدي العدو . فاندفع الى المعسكر جماعة من الضالين ، ونشروا شائعة بأن كلا من ريموند وبوهمند لقى مصرعه . ولمـا سمع جودفري بهذا النبأ ، تجهز للنهوض لانقاذ الجيش المهزوم ، بينما قام الترك من داخل المدينة بهجوم مفاجىء على المعسكر ، كيما يحموا اولئك الذين اشتركوا في الكمين وامتلأت ايديهم بالغنـائم الثقيلة ، حتى يبلغوا ابواب

المدينة . على أن عساكر جودفري ، الذين تجهزوا فعـلا ، وشرعوا في السير متخـذين الطريق الى البحر ، استطاعوا أن يوقفوا الهجوم ، حتى وصل فجأة ريموند وبوهمند بمن تبقى من العساكر . وعلى الرغم من ضعف هـذه القوات ، فان وصولها يسر لجودفري أن يطرد الترك ويردهم الى داخل المدينة . ثم اجتمع الأمراء سوياً ، كيما يعترضوا طريق المغيرين عند عودتهم . وصادفت خططهم الحربية نجاحاً باهراً . ذلك أن المغيرين ، الذين عطلتهم احمـال الغنيمة ، لم يلبثوا أن غلبوا على أمرهم ، ولقوا مصرعهم قتـلا ، اثنـاء نضالهم للوصول الى الجسر ، وبذلك استرد الصليبيون ادوات البناء القيمة . وروى أن نحو ١٥٠٠ تركياً ، جرى ذبحهم ، ومات كثير منهم غرقى اثنـاء محاولتهم اجتياز النهر . ومن الذين لقوا حتفهم تسعة امراء . وفي ذلك المساء ، خرج كثير من رجال الحامية لمواراة الموتى في مقبرة المسلمين الواقعة على الضفة الشمالية للنهر . وشهدهم الصليبيون ، غير أنهم لم يتعرضوا لهم بأذى ؛ على أنه حدث في صبيحة اليوم التالي ، أن نبشوا المقابر ، وأخرجوا الجثث ، كيما ينتزعوا ما عليها من الذهب والفضة (١) .

---

(١) Gesta Francorum VII. 18. pp. 88 - 96 .
Raymond of Aguilers VII - VIII. pp. 248 - 249 .
Albert of Aix 111. 5. pp. 383 - 386 .
خطاب ستيفن بلوا ورد في كتاب : Hagenmeyer : op. cit. pp. 158 - 159
خطاب رجال الدين في لوكا ورد ايضاً في Hagenmeyer : op. cit. pp. 165 - 167
وجـاء فيه ان احد سكان لوكا واسمه برونو وصل الى سان سيميون وقتذاك مع الاسطول الانجليزي . على ان (David : Robert Curthose (pp. 236 - 237 يرتاب فيا اذا كان ادجار اثلنج كان مع الاسطول ، نظراً لأنه كان في اسكتلنده في خريف ١٠٩٧ ، ولا بد انه غادر انجلترا قبل هذا التاريخ . على ان الاسطول تألف معظمه فعلاً من الورنك الانجليز الذين غادروا انجلترا منذ زمن طويل ، وكانوا يجوبون البحر المتوسط بناء على اوامر الامبراطور ، =

وترتب على انتصار الصليبيين ، أن اكتمل حصار انطاكية . وبفضل ما توافر من العمال ومواد البناء ، تقرر تشييد الحصن الذي سبق تصميمه ، كيما يسيطر على مشارف الجسر المنيع . وتم بناؤه بالقرب من المسجد الذي يقع بقرافة المسلمين ، واتخذ رسمياً اسم قلعة المنبر La Mahomerie ، المشتقة من لفظة فرنسية قديمة بمعنى مسجد Mosque . غير أنه حينما تناقش القادة ، فيمن يعهد اليه بأمر القلعة ، طالب ريموند ، أن تكون له السيطرة عليها ، نظراً لأنه هو صاحب الفكرة في تشييدها ، فصارت تعرف عادة باسم قلعة ريموند . واكتمل البناء في ١٩ مارس . ولم تلبث أن برهنت القلعة على قيمتها ، بأن منعت الوصول الى باب الجسر . على أن باب القديس جورج لا زال مفتوحاً ، وللسيطرة عليه والتحكم فيه ، تقرر ايضاً اقامة قلعة في موضع دير قديم يقع بأعلى التل المواجه لهذا الباب . وتم البناء في ابريل سنة ١٠٩٨ ، وأضحت القلعة موكولة الى تانكرد ، الذي تقرر لنفقاته ثلثمائة قطعة من الفضة . ومنذ ذاك لم يعد بوسع قوافل المؤن الوصول الى المدينة ، ولم يعد باستطاعة سكان المدينة أن يرسلوا قطعانهم الى المروج والمراعي الواقعة خارج الاسوار ، على نحو ما درجوا عليه . على أنه لا زال بوسع احاد المغيرين أن يتسلقوا الاسوار الواقعة على جبل سيلبيوس ، او يجتازوها من خلال الباب الحديدي الضيق ، غير انه لم يعد في وسعهم أن يحاولوا القيام بهجوم منظم . وبينما كانت الحاميات تعاني الجوع ، كانت مشكلة الصليبيين فيما

= الذي عملوا لحسابه فيما بعد (انظر ما يلي عند الحديث عن اللاذقية في الفصل التالي) . ولعل ادجار بادر بالمسير الى القسطنطينية ، ليعمل مؤقتاً في خدمته مقابل الحصول على اجور ، والتحق بالأسطول بها . ويشير Orderic Vitalis (X. II. vol. IV. pp. 70 - 72) الى ان ادجار كان مع الاسطول ، واستولى على اللاذقية اثناء وقوع الحصار ، على حين ان وليم مالمسبري Malmesbury (II. p.310) يجعل الاستيلاء على اللاذقية بعد زمن قصير من هذا التاريخ . انظر ما ورد عن ذلك في المرجع السابق .

يتعلق بالمؤن أضحت هينة ، وكلما تحسن المناخ بحلول الربيع ، وتيسر الخروج الحصول على العلف دون التعرض للهجمات المفــاجئة من قبل الترك ، وبفضل مــا أبداه من الاستعداد التجار ، الذين سبق أن باعوا الحــامية السلع بأسعار مرتفعة ، لأن يتجروا مع المعسكر الصليبي ، كل ذلك سهل الصليبيين أمر الحصول على كميات من المؤن بالغــة الوفرة ، ورفع الروح المعنوية عند الفرنج . ولم تكد قلعة تانكرد يتم تشييدها ، حتى استولى تانكرد على كمية ضخمة من الطعام ، كان مقدراً أن تصير الى باغي سيان ، وتولى نقلها تجــار مسيحيون من السريان والأرمن . وهــذه الانتصارات جعلت الصليبيين يأملون في أن تستسلم انطاكية ، بعد أن تتعرض للهلاك جوعاً . غير أنه لا بد أن يتم ذلك سريعــاً ، لأن كربوقا امير الموصل ، اخذ يحشد قواته (١) .

المفاوضات مع الفاطميين :

وبينــما لا زال الصليبيون بالقسطنطينية ، نصحهم الامــبراطور الكسيوس ، بأن يسعوا للوصول الى نوع من الاتفــاق مع الفاطميين في مصر . إذ أن الفاطميين كانوا من اشد الناس خصومة للترك ، ولا يقبلون مطلقاً مصالحتهم ، بينما اشتهروا بالتسامح مع رعــاياهم من المسيحيين ، وكانوا دائماً مستعدين للتفاهم مع الدول المسيحية . والراجح أن الصليبيين لم يتبعوا هذه النصيحة . غير أنه حدث في اوائل الربيع ، أن قــدم

---

(١) Gesta Francorum VII. 18. VIII. 19. pp. 96 - 98 .
Raymond of Aguilers VIII. pp. 249 - 250 .
وردت رسالة انسلم في Hagenmeyer : op. cit. pp. 158 - 159.
وورد خطاب رجال الدين في لوكا في Ibid p. 166 .

الى معسكر الصليبيين المنصوب امام انطاكية ، سفارة مصرية ، ارسلها الأفضل كبير وزراء الخليفة الطفل المستعلي . ومـا عرضه الأفضل من اقتراح يتمثل فيما يبدو في أنه لا بد من اقتسام الامبراطورية السلجوقية ، فيحوز الفرنج شمـال الشام ، بينما تأخذ مصر فلسطين . ولا شك ان الأفضل اعتبر الصليبيين عساكر مأجورة للأمبراطور ، فافترض أن هذا التقسيم الذي قام على اساس ما كان معروفاً من وضع الامور قبل الغزوات التركية ، سوف يلقي قبولاً تاماً . استقبل أمراء الغرب ، سفراء الأفضل بالمودة والحفاوة ، على الرغم من أنهم لم يلتزموا بتدبير خاص . ومكث المصريون في المعسكر الصليبي بضعة اسابيع ، عادوا بعدها الى بلادهم ، تصحبهم سفارة صغيرة من الفرنج ، وقد حملوا هدايا وفيرة ، معظمها جاء من الغنيمة التي استولوا عليها في معركة ٦ مارس ١٠٩٨ . واستخلص الصليبيون من المفاوضات مـا يعود من المزايا عليهم ، نتيجـة تدبير المؤامرات مع الدول الاسلامية . وإذ طرحوا جانبـاً تعصبهم الديني ، لم يسعهم عند سماع انباء استعدادات كربوقا ، إلا أن يبعثوا الى دقاق امير دمشق ، يطلبون منه أن يلتزم الحيـاد ، وأعلنوا أنهم لم يرسموا خططاً لمهاجمة بلاده . على أن دقاقاً لم يستجب الى رغباتهم ، نظراً لأنه اعتبر أخاه رضوان امير حلب اكبر عدو له ، وأنـه رأى أن رضوان رجع الى سابق حياده [1] .

---

(١) وفقاً لمـا ورد في Tudebodus : Historia Belli Sacri ، سبق للصليبيين ، ان ارسلوا من نيقية سفارة الى مصر ، بناء على نصيحة الكسيوس . على ان قائمة اسماء السفراء تعتبر موضع شك . والراجح انهم هم الذين الفوا السفارة التي جرى ارسالها من انطاكية . والراجح ايضاً ان نصيحة الامبراطور لم تلق الاغفال . اشار الى السفارة المصرية التي قدمت الى انطاكية كل من Raymond of Aguilers VII. p. 247 .

= Stephen of Blois in Hagenmeyer op. cit. p. 151 .

تدبير خطة للاستيلاء على انطاكية :

وفي اوائل مـــايو ١٠٩٨ ، كان معروفاً أن كربوقا يواصل سيره وزحفه . وقد انحاز الى قواته ، رجال بعث بهم سلطان كل من بغـداد وفارس ، ومن قبل أمراء الأراتقة بشمال الجزيرة ، وتطلع دقاق للحاق به . ولا زال ياغي سيان صامداً في انطاكية ، برغم مـا تعرض له من ضغط شديد . وازداد التوتر بين الصليبيين ، إذ ادركوا انهم مـــا لم يستولوا اولاً ، وقبل كل شيء ، على المدينـة ، فسوف يجري تحطيمهم ، لوقوعهم بين حامية المدينـــة والجيش الضخم القادم لإنقاذها . أمـــا الامبراطور الكسيوس فانه كان وقتذاك يغير على آسيا الصغرى ، فبعث اليه الصليبيون نداء حاراً ، يلتمسون فيـــه النهوض لنجدتهم . واستبد القلق والضيق ببوهمند بصفة خاصـة ، لحرصه وعزمه على أن يستخلص لنفسه انطاكية . فاذا وصل الامبراطور قبـل سقوط انطاكية ، او اذا لم يتيسر هزيمة كربوقـــا إلا بمساعدة الامبراطور ، صار من المستحيل الامتناع عن رد انطاكية الى الامبراطورية . أعلن معظم الامراء استعدادهم لأن يسلموا المدينة الى بوهمند ، غير أن ريموند كونت تولوز لم يوافقهم على ذلك ، والراجح أنه لقي التأييد من اسقف لى بويه . والمعروف أن بواعث ريموند تعرضت دائماً للمناقشة ، إذ أنه وحده ، من دون سائر الامراء لم يلتزم بيمين صريحة قبل الامبراطور ، غير أنه لم يغـادر القسطنطينية ، إلا على علاقات طيبة مع الامبراطور . كره بوهمند وارتاب فيه ، باعتباره اكبر منافس له على القيـــادة الحربية للحملة الصليبية . ولعل كلا من

= Anselm of Ribermont in Hagenmeyer op. cit. p. 160 .

Gesta Francorum VI. 17. p.86. VII. 19. p. 96 .

اشار ابن الاثير الى ما دار من المفاوضات بين الصليبيين ودقاق (op. cit. p. 193) .

ريموند والمندوب البابوي (ادهيمر) فكر في أنــه لو كانت اليمين غير سليمة ، فان الكنيسة التي يمثلها ادهيمر اسقف لى بويه ، هي وحدهـا التي تستطيـع أن توزع الممتلكات . وجرى الوصول الى اتفاق ، بعد شيء من النقاش والجدل والتآمر . اذا كان عساكر بوهمند ، هم اول من يدخل الى المدينة (انطاكية) ، واذا لم يقدم الامبراطور ، فلا بـد لبوهمند أن ينفرد بها . ومع ذلك فان ريموند اعترض على هذا القرار ، غير أن بوهمند توافر له من الدواعي ما جعله يطمئن [١] .

على أن مـا ارتكبه كربوقا من اخطاء في التقدير ، هيـأ للحملة الصليبية الفرصة للتنفس والراحة ، إذ لم يشأ كربوقا أن يزحف على انطاكية ، ومن خلفه جيش للفرنج بالرها اتخـذ وضعاً يهدد منه جناحـه الايمن . لم يدرك كربوقا أن بلدوين بلغ من شدة الضعف أنه ليس بوسعه القيام بالهجوم ، بل اعتقد أنــه بلغ من القوة في حصنه المنيـع ، ما لا يسهل طرده منه . ولم يقرر كربوقا أن مـا بذله من جهد وأنفقه من وقت انما ضاع سدى ، إلا بعد ان امضى الاسابيـع الثلاثة الاخيرة امام الرها ، يحاول عبثاً مهاجمة اسوارها [٢] .

وفي اثنـــاء تلك الاسابيـع الثلاثة القيمة أمعن بوهمند في العمل . فاستطاع في وقت من الاوقات أن يوطد صلته بأحد القادة بداخل مدينة انطاكية ، واسمه فيروز . والواضح أن فيروز ليس إلا ارمنيـاً اعتنق

---

(١) Gesta Erancorum VIII. 19. pp. 100 - 102 .
Anna Comnena XI. IV. 4. vol. III. p. 21 .
William of Tyne V. 17. 1. pp. 220 - 221 .
يشير الى موقف ريموند واصراره على الرفض.

(٢) انظر ما سبق ص ٢٩٩ ، وما ورد عن المرجع في نفس الموضع حاشية ١ .

الاسلام ، وارتقى الى وظيفة عالية في حكومة ياغي سيان . وعلى الرغم من تظاهره بالولاء لسيده ، فانه كان شديد الحقد والبغضاء له ، لأنـــه فرض عليه اخيراً غرامة لاختزانه القمح ، فاتصل فيروز بإخوانه السابقين في الدين (الارمن) ، وعن طريقهم وصـــل الى تفـــاهم مع بوهمند ، وبمقتضاه وافق على أن يبيع المدينـــة له . على أن سر الصفقة ظل محفوظاً . فلم يبح به بوهمند لأحد ، بل انـــه بدلاً من ذلك ، صار يؤكد علناً ، ما سوف يواجه الصليبيين من اخطار ، كما يزيد من قيمة انتصاره المقبل [١] .

احرزت دعوة بوهمند نجاحاً ساحقاً . ففي نهاية مايو سنة ١٠٩٨ ، تخلى كربوقا عن حصاره الفاشل الذي فرضه على الرها ، وواصل زحفه . وكلما اقترب كربوقا ، ساد الذعر في معسكر الصليبيين . فصار يتسلل منه ، عساكر بلغت من كثرة العدد ، أنه من العبث محـاولة منعهم .

---

(١) Gesta Francorum VIII. 20. p. 100.

ورد الاسم على انه (بيروس Pirrus) ، ويشير المؤلف الى انه من الترك، واعتبرته أنة كومنين (XI. IV. 2. vol. II. p. 19) من الارمن. اما Radulph of Caen LXII.pp.651-652 فاشار اليه على انه ارمني ثري . وجعله متى الرهاوي (II. CIV. p. 222) من زعماء رجال المدينة ، ولم يشر الى جنسه . وورد عند (Raymond of Aguilers VIII. p. 251) على انه quidam de Turcatis ، والراجح انه يقصد بهذه العبارة انه مسيحي مرتد. ولم يرد شيء عن جنسه في المصادر العربيـــة امثـــال كال الدين (op. cit. pp.581 - 582) وابن الاثير (op . cit. p. 192) ، واكتفى ابن الاثير بأن اطلق عليـــه فيروز ، على حين ان كال الدين اشار الى انه كان زرّادا ، قرر عليه ياغي سيان العقوبة ، لاختزان القمح . اما وليم الصوري الذي استمد معلوماته من المصادر العربية ، فانه يشير الى انه ينتمي الى طائفة بني زرد Beni Zarra , quod in lingna latina interpretatur . fili loricatoris كان ينتمي الى اسرة كريمة

وفي الترجمة الفرنسية لوليم الصوري ورد على انه « Hermin » اي ارمني .

ثم حدث آخر الامر ، في ٢ يونيه ١٠٩٨ ، أن جماعة كبيرة من عساكر شمال فرنسا ، بقيادة ستيفن بلوا ، اتخذت الطريق الى الاسكندرونة . وقد حدث منذ شهرين فقط أن كتب من المعسكر ، ستيفن بلوا في فرح وسرور ، الى زوجته ، يخبرها بما اقترن بالحصار من الصعوبات والمشاق ، ويصف لهـــا ايضاً المعركة المظفرة التي وقعت في ٦ مارس ١٠٩٨ ، ويؤكد لها اهميته في الجيش . غير أن ما حدث وقتئذ ، من أن المدينة لا تزال صامدة ، ولم تقع في ايدي الصليبيين ، وأن جيش كربوقا اضحى قريباً من الصليبيين ، حمله على أن يعتبر أنه من الحماقة ، فيما يبدو ، أن ينتظر حتى يلقي مصرعه في المذبحة القادمة . وعلى الرغم من أن ستيفن لم يكن مطلقاً من كبار المحاربين ، فانه سوف يعيش ليقاتل يوماً من الايام . على انه يفترق عن سائر الامراء الصليبيين ، في أنـــه من اشد الناس حماساً في اعجابه بالامبراطور . ولا بد أن بوهمند ابتسم ، حينما شهد ستيفن يتسلل من المعسكر . غير أنه لم يسعه أن يتنبأ ، بمـــا سوف يعود على مصلحته من الفائدة نتيجة هذا الفرار [١] .

---

(١) Fulcher of Chartres. I. XVI. 7. p. 228 .
يشير الى ان ستيفن غادر انطاكية قبل يوم واحد من سقوطها ، اي في ٢ يونيه ١٠٩٨ . ويذكر ذلك في اسى وأسف ، غير انـــه لا يرجع افتراقه الى الجبن . امـــا المؤرخ المجهول (Gesta Francorum IX. 27. p. 140) فاتهمه صراحة بالفرار، بحجة المرض. ويرجع ريموند اجيل (XI. p. 258) هروبه الى ما اتصف به من الجبن، والملحوظ ان هذه القصة تركت اثراً عاماً عند معظم المؤرخين. ورأى « Guibert of Nogent « XXV. p . 199 - 200 انه لا بد من التماس العذر له . وأشار كل من المؤرخ المجهول (في الموضع الذي سبق الاستئناس به)، وريموند (في نفس الموضع) وستيفن (في رسالته الواردة في كتاب هيجنماير ص١٤٩) . الى ان ستيفن كان دكتاتوراً بالجيش (Ductor) او Dictatur او Dominus atque omnium actuum provisor atque gnbernator) . على انه لم يكن المقصود من ذلك بأن ستيفن كان قائداً عاماً للجيش ، او من الزعماء السياسيين في الحملة الصليبية ، اذ لم يتول مطلقاً القيادة في عملية حربية . على حين ان ادهيمر كان له سلطة سياسية على سائر الامراء باعتراف الجميع . والراجح ان ستيفن تولى وظيفة ادارية في الجيش ، وكان مسئولاً عن نظام تموين الجيش .

في عشية الهجوم :

لو أن ستيفن أجّل رحيله بضع ساعات لتغير رأيه . ففي نفس اليوم ، ٢ يونيه ارسل فيروز ابنه الى بوهمند ، يخطره بأنه على استعداد للقيام بالخيانة . شاع بعدئذ أنه ظل متردداً الى مساء اليوم السابق ، حتى اكتشف أن زوجته وصلت الى اتفاق مع احد زملائه من الترك . كان فيروز وقتذاك يتولى قيادة القوات المرابطة في برج الاختين الشقيقتين ، ويشرف على ما يليه من قطاع من سور المدينة المطل على خارجها والذي يواجه قلعة تانكرد . ولذا حث بوهمند على حشد الجيش الصليبي ، بعد ظهر ذلك اليوم ، وعلى أن يقوده صوب الشرق ، وأن يتظاهر بأنه سائر لمنع تقدم كربوقا . ثم ينبغي على العساكر بعد حلول الظلام ، ان تزحف الى السور الغربي ، وأن يحملوا معهم السلالم التي يرتقون بها الى البرج ، الذي يرقبهم منه ، فاذا وافق بوهمند على ذلك ، فسوف يبعث اليه مرة اخرى ، في ذلك المساء ابنه ، كيما يتخذه رهينة ، وشارة على أنه مستعد .

وأخذ بوهمند بنصيحته ، فحينما اقترب طلوع النهار ، ارسل احد رجالته ، واسمه مالِ كورون ليطوف بالمعسكر ، ويدعو الجيش للتأهب للسير عند مغيب الشمس ، للاغارة على اراضي العدو . ثم دعا كبار الامراء ليلتقي بهم ، ومنهم أدهيمر ، وريموند ، وجودفري ، وروبرت فلاندر ، ولأول مرة اخبرهم بخطته فقال : « إن شاء الله ، سوف تقع أنطاكية بأيدينا هذه الليلة » . ومهما يكنّ ريموند لبوهمند من الحقد والكراهية ، فانه لم يجرؤ على الكلام ، فبادر هو وزملاؤه ببذل التأييد الصادق للخطة .

وعند غروب الشمس ، توجه الجيش الصليبي صوب الشرق ، فأخذ الفرسان يجتازون الوادي امام المدينة ، على حين أن الرجالة صاروا يشقون طريقهم في دروب التل الواقع خلفها . أما الترك بداخل المدينة فانهم حين شهدوهم يرتحلون ، أخلدوا للراحة ، يبتغون ليلة هادئة . غير أنه حدث في

منتصف الليل ، أن صدرت الأوامر لجميع الجيش ، بأن يعود الى جهـــة الأسوار الغربية والشمالية الغربية . فوصلت عساكر بوهمند امام برج الاختين قبيل الفجر . فنصبوا سُلـّماً على البرج ، ارتقاه نحو ستين فارساً ، الواحد بعد الآخر ، يتقدمهم فولك شارتر ، ودخلوا من نافـذة بأعلى السور ، الى حجرة كان ينتظرهم بها فيرور قلقاً مضطرباً . وعند دخولهم ، ظن فيروز أن عددهم ليس كافياً . فصاح باليونانية : « ليس لدينا إلا عدد قليـل من الفرنج ، أين بوهمند ؟ » . غير أنه لم يكن ثمة ما يدعو لاضطرابه وقلقه . فمن برج الشقيقتين ، استولى فرسان الفرنج على البرجين الآخرين ، الخاضعين لاشرافه وسيطرته ، فتمكن بذلك رفاقهم من أن يقيموا السلالم ، على سائر اجزاء السور ، الواقعة بين الأبراج ، بينما توجه احد الرجالة من الايطاليين الى بوهمند ، فأنهى اليه أن الوقت قد حان ، ليصعد الى المدينة . غير أن السلـّم تحطم خلفه ، على أنه بينما كان جماعة من العساكر يسرعون الخطى على السور ، يبغتون العساكر التركية في ابراجهم ، هبطت فئة اخرى منهم الى داخل المدينـة ، فأثارت السكان المسيحيين ، وبفضل مساعدتهم ، انفتح باب القديس جورج ، والبـاب الكبير للجسر ، الذي ينتظر قبالته معظم الجيش الصليبي ، فأخذ الصليبيون يتدفقون من الأبواب ، ولم يصادفوا إلا مقاومة ضئيلة ، وانحـاز اليهم السكان من اليونانيين والأرمن ، في قتل كل من وقع نظرهم عليه من الترك ، من الرجال والنساء ، ولم يسلم من ذلك ابن فيروز ، وهلك في أثناء هذه الفوضى عدد كبير من المسيحيين ايضاً . واذ استيقظ ياغي سيان على هذه الجلبة وذاك الضجيج ، لم يلبث أن ادرك أن كل شيء قد ضاع . واذ ركب بصحبة حرسه ، فر من الخانق المؤدي الى الباب الحديدي ، ومنه الى التلال المجاورة . غير أن ابنه شمس الدولة

ظل بالمدينة (أنطاكية)، فحشد من العساكر مـا استطاع الى ذلك سبيلا، وشق طريقه الى القلعة، قبل ان يقع في قبضة الفرنج. تقـدم بوهمند، غير أنه لم يستطع أن يشق له طريقاً الى المدخل، وعندئـذ نصب لواءه الارجواني في أعلى قمة استطاع ان يصل اليها. على ان رؤية العلم يرفرف تحت ضوء الشمس الساطع اطرب الصليبيين بأسفل المدينة، عند دخولهم اليها.

ولما حشد بوهمند عدداً كافياً من الرجال، حـاول أن يقوم بهجوم عنيف على القلعة، غير أنه ارتد على عقبيه، وأصابته الجراح. وآثر رجاله الرجوع الى القيام بما هو اسهل من ذلك عملا، فلجأوا الى نهب شوارع المدينة واستباحتها. غير أنـه لم يلبث ان لقي العزاء والسلوى، حين تلقى من احـد الفلاحين الارمن رأس ياغي سيان. ذلك أن ياغي سيان هوى من فوق حصانه في درب بالجبال اثناء فراره، فتخلى عنه حرسه، وبينما كان يضجع منهوك القوى، وقد استبد به الذهول، عثر بـه بعض الارمن فعرفوه؛ فبادروا الى قتله، وبينما ظفر احدهم بجـائزة سنية من بوهمند، بعد أن القى اليه برأس ياغي سيان، كان الآخرون يبيعون منطقته وغمد سيفه، مقابل ستين بيزنتاً لكل منها.

الاستيلاء على المدينة:

ولم تحل ليلة ٣ يونيه ١٠٩٨، حتى لم يبق بأنطاكية من الترك احد من الاحيـاء. بل ان الترك هربوا من القرى المجاورة لأنطاكية، والتي لم يبلغها الفرنج، كيما يلتمسوا لهم ملاذاً عنـد كربوقا. وتعرض للنهب بيوت سكان انطاكية، من المسيحيين والمسلمين سواء. وعبث الفرنـج

وحطموا ما صادفوه من النفائس والاسلحة . فما من احد من الناس يستطيع أن يرتاد الشوارع ، دون أن تعثر قدماه بالجثث ، التي لم تلبث أن تعفنت بتأثير حرارة الصيف . غير أن انطاكية عادت مسيحية مرة اخرى [1] .

---

(١) ولعل اوضح رواية عن الاستيلاء على انطاكية ، تلك التي وردت في :
Gesta Francorum VIII. 20. pp. 100 - 110 .
على الرغم من انه لم يشر الى ما اصاب بوهمند من الفشل في الاستيلاء على القلعة . هذا الخبر اورده في روايته ريموند اجيل ، وأشار الى ان اول من دخل من الصليبيين الى المدينة ، كان فولك شارتر . انظر : Raymond of Aguilers : IX. pp. 251 - 253 .
وورد اسم هذا الشخص على انه Gouel of Chartres عند Radulph of Caen LXVI p. 654 . اما فولشر شارتر ، فلم يورد الا رواية موجزة . انظر :
Fulcher of Chartres I. 1 - VIII. pp. 230 - 231 .
وعلى الرغم من ان رواية وليم الصوري مسهبة ، غير انها زخرت بتفاصيل، لا يصح الوثوق فيها، أشار الى قصة زوجة فيروز William of Tyre V. 18-23, vol. I. pt. I. pp.222-223
ويشير ابن الاثير الى فرار ياغي سيان ومقتله (op. cit . p. 193) .

الفصل الرابع

مصير انطاكية

كان الاستيلاء على انطاكية من الاعمال التي اثلجت قلوب المسيحيين ، غير انه لما خمدت جذوة انتصارهم ، ووطد الصليبيون مركزهم ، لم يشعروا إلا بتحسن ضئيل عما كانوا عليه من قبل ، على أنهم احرزوا مزايا كبيرة ، فاستحكامات المدينة التي لم يصبهـا في المعركة ضرر ، سوف تحميهم من جيوش كربوقا . أما اتباعهم المدنيون ، الذين لا زال عددهم وفيراً برغم ما تفشى فيهم من الامراض ، ومن تخلى منهم عن الجيش ، فانهم التمسوا لهم بالمدينة مأوى ، ولن يتعرضوا لما تعرضوا له من الاخطار بالمعسكر ؛ أما الجيش التركي بالمدينة ، فجرت ابادة معظم رجاله ، ومن تبقى من عساكره ، لم يكونوا مصدر خطر . غير أن الدفـاع عن الخط الطويل من اسوار المدينة ، احتاج من العساكر ، مـا ليس في وسع الفرنج أن يبذلوه . ولا زالت القلعة ممتنعة لم تقهر ، ولا بد من الاستيلاء عليها . وعلى الرغم من أن حاميتها بلغت من الضعف ، أنهـا لم تستطع ان تشن هجوماً ، فان كل ما يجري في المدينة من حركة ، يصح مراقبتها وملاحظتها من أعلا القلعة . ومن المستحيل منع حامية القلعة من اجراء

اتصال مع كربوقا . ولم يعثر الصليبيون على شيء من مستودعات المؤونة التي كانوا يأملون الحصول عليها . وفي أثنـاء نشوتهم وحماسهم دمروا معظم ثروة المدينة . وعلى الرغم من أن المسلمين من سكان المدينة ، لقوا مصرعهم ، فان الصليبيين لم يثقوا بالسكان المسيحيين . فالمعروف أن السريان بصفة خاصة اشتهروا بالخيانـة ، ولم يولوا اللاتين شيئاً من العطف . وما اشتهروا به من الغدر والخيانة ، يجعل خطرهم على العساكر الذين يدافعون عن المدينة يفوق خطرهم على الجند المرابطين بخارجها . يضاف الى ذلك ، أنه نجم عن انتصاد الصليبيين أن نشأت مشكلة ، اظهرت بوادر الشقاق في الحملة الصليبية ، وهذه المشكلة تتمثل فيمن تكون له أنطاكية .

اقتراب كربوقا بجيوشه :

لم يكن لدى الصليبيين ، اول الامر ، وقت لمناقشة مستقبل المدينة . اذ أن كربوقا كان يزحف بجيوشه ، ولا بد من الدفاع عن المدينة ازاء الهجوم الحادث . ومهما وضع بوهمند من خطط ، فالواقع أنه لم يتوافر له من العساكر ما يكفي لحراسة الأسوار إلا بمساعدة رفاقه . ولا بد أن يسهم الجميع في الدفاع عنها ، فالتزم كل واحـد من الأمراء بالدفاع عن قطاع من الاستحكامات . وكان اول ما باشره الجيش من الأعمال ، تطهير المدينة ، والتعجيل بمواراة الموتى ، حتى لا تؤدي الجثث العفنة الى اندلاع الوباء . وبينما انصرف العساكر للقيام بهذا الامر ، اخـذ اسقف لى بويه ، يدبر أمر نظافة كاثدرائية القديس بطرس وسائر الكنائس التي استباحها الترك ، واعادتهـا الى المسيحيين لمباشرة شعائرهم وعبادتهم . وتم إطلاق سراح البطريرك يوحنـا من سجنه ، وإعادته الى كرسي البطريركية . كان يوحنا من اليونانيين ، ويكره الشعائر اللاتينية ، غير أنـه يعتبر البطريرك الشرعي لكرمي لا زال يسير وفقاً لشعائر روما . ومن المحقق أن أدهيمر لم يشأ ان يسيء الى ما كان له من صفة شرعية والى العاطفة المحلية ،

بالالتجاء الى تجاهل حقوقه . وما من احد من الصليبيين ، الذين ادركوا ما تعرض له يوحنا من العذاب والشقاء من اجل العقيدة ، يكره أن يعود يوحنا الى كرسي البطريركية ، باستثناء بوهمند، الذي لعله توقع ما تسببه له عودة يوحنا الى البطريركية من التعب والقلق [1] .

والواضح أن الصليبيين استطاعوا أن يستقروا في المدينة قبيل قدوم كربوقا . ففي ٥ يونيه ١٠٩٨ ، وصل كربوقا الى نهر الاورنت ، عند الباب الحديدي ، وبعد يومين عسكر امام اسوار المدينة ، في نفس المواضع التي سبق أن احتلها الفرنج . فبادر شمس الدولة (ابن ياغي سيان) ، بأن يبعث من القلعة الى كربوقا ، يطلب منه المساعدة . غير ان كربوقا اصر على أنه لا بد لعساكره أن يحوزوا القلعة . والتمس منه شمس الدولة أن تبقى له القيادة ، حتى يتم استرداد المدينة ، غير ان توسلاته ضاعت سدى . فلم يسعه إلا ان يسلم الحصن وكل مخازنه الى نائب كربوقا الامين ، احمد ابن مروان [2] .

والخطة الاولى التي وضعها كربوقا ، هي ان ينفذ الى المدينة عن طريق القلعة ، وإذ توقع بوهمند وريموند الخطر المقبل ، أقاما سوراً لمنع اتصال القلعة باستحكامات المدينة . ولما كان هذا القطاع هو اشد مواضع الدفاع تعرضاً للخطر والهجوم ، فان الامراء ، فيما يبدو ، تناوبوا على حراسته . فبعد أن قام احمد بن مروان باختبارات اولية

---

(١) Albert of Aix IV. 3 p. 433 .

ونعت يوحنا بأنه من اشد الناس مسيحية .

« virum Christianissimum » .

(٢) Kemal ad - Din : op. cit. pp. 582 - 583 .

Gesta Francorum IX. 21. p. 112 .

لهذا القطاع ، بادر بتوجيه الهجوم عليه ، والراجح ان ذلك حدث في ٩ يونيه . وتولى الدفاع عن هذا القطاع هيو فرماندوا وكونت فلاندر ، ودوق نرمنديا . وكاد ابن مروان يتغلب عليهم ، غير انهم استطاعوا آخر الأمر ان يردوه على اعقـــابه ، وأن يكبدوه خسائر فادحة . على ان كربوقا قرر بعدذاك ان من دواعي الاقتصاد في النفقــات ، أن يضيق الخناق على الفرنج ، ويشتد في حصارهم ، ثم يقوم بمهاجمتهم حين يضعفهم الجوع . وفي ١٠ يونيه ١٠٩٨ ، تحرك كربوقا حتى يكمل تطويق المدينة ، وحـــاول الصليبيون أن يمنعوه من ذلك ، فقاموا بهجوم عنيف ضده ، غير أنهم لم يلبثوا أن ارتدوا ، واحتموا بالأسوار (١) .

استبد بالصليبيين القنوط واليأس ، بعـد ان فشلت جهودهم . فالروح المعنوية التي ارتفعت منـذ اسبوع بالاستيلاء على المدينة ، لم تلبث أن هوت الى احط درك . اخذ الطعام ينفـد من جديد . فالرغيف الصغير جرى بيعه بدينار ، وصار ثمن البيضة الواحدة دينارين ، وثمن الفروج ١٥ ديناراً . واقتــات كثير من الرجال على اوراق الشجر ، او جلود الدواب الجافة . وحاول ادهيمر اسقف لى بويه عبثاً ان يدبر المساعدة للحجاج المعوزين . وظن عدد كبير من الفرسان ان ستيفن بلوا لم يتخذ إلا احسن السبل وأسلمها . وفي اثناء ليلة ١٠ يونيه ، ازمع جماعة بقيادة ولـــيم واوبري كونتي جرانت مسنيل ولامبرت كونت كليرمونت ان يجتازوا صفوف العدو ، وأسرعوا في سيرهم الى البحر عند سان سيميون

---

(١) Kemal ad - Din : loc. cit.
Gesta Francornm XI. 21. p. 114 .
وردت رسالة وجهها الامراء الى البابا اربان الثاني في:
Hagenmeyer : op. cit. p. 162 .
William of Tyne VI. 4. 1. p. 240 .

(السويدية) . كان بالميناء سفن للفرنج ، والراجح ان بعضها سفن جنوية ، وبعضها ينتمي لأسطول جاينمر . فلما وصل هؤلاء الفارون ، وأعلنوا ان الجيش الصليبي تعرض لمصير محتوم ، بادرت السفن بالاقلاع ، وتوجهت الى ميناء اكثر أمناً وسلامة . وأبحر معهـــا الفارون الى طرسوس ، حيث انحـــازوا الى قوات ستيفن بلوا ، الذي قرر أن يعود الى انطاكية حينما سمع بخبر الاستيلاء عليها ، غير أنه منعه من ذلك ما تراءى له من قدوم جيش كربوقـــا . تزوج ولم كونت جرانت مسنيل من مابيلا ، اخت بوهمند ، ولا شك أن الجيش ازداد تأثراً بما اتصف به من عيوب ، اقرب الناس الى الزعيم النرماني[1] .

الكسيوس في طريقه الى انطاكية :

تراءى وقتذاك للرجـــال في داخل انطاكية ، ان الفرصة الوحيدة لخلاصهم لن تتهيأ إلا بقدوم الامبراطور الكسيوس وقواته . والمعروف ان الكسيوس ارتحل فعلاً بجيوشه من القسطنطينية . ففي اثناء الربيـع ، مضى يوحنـــا دوكاس في زحفه من ليديا على فريجيا حتى بلغ الطريق

---

(١) Raymond of Aguilers XI. pp. 256 - 258 .
Gesta Francorum IX. 23. pp. 126 - 128 .
وردت رســالة رجـــال الدين في لوكا ، في : Hagenneyer. op. cit. p. 166 .
وفيهـــا جرى وصف ولـــم جرانت مستل : « Cognatus Baenaundi » .
ووردت اشارات عـــن زواج مابيلا ، فيما ساقه مـــن ملاحظات عن أنه كومنين :
Ducange in Recueil des Historiens des Crosades . Historiens Grecs vol. 11. p. 27 .
على ان دوكانج جعل تاريخ الزواج متأخراً . وروى :
Orderic Vitalis V111. 28. vol. 11. p. 455 .
انهما تزوجا في أبوليا قبل نشوب الحرب الصليبية .

الرئيسي الذي اجتـــازه من قبل الصليبيون ، وأعـادوا في وقت من الاوقات ، افتتاح الطريق الذي يؤدي الى اضاليا (انطالية) . ولذا رأى الكسيوس أنه من الاسلم أن يقود جيشه الى جوف آسيا الصغرى ، كما يبذل المساعدة للحملة الصليبية ، على الرغم من أن كثيراً من مستشاريه ، كرهوا أن يقوم بحملة تبعده عن عاصمته ، وتوغل به في اقليم لم يخل بعـد من الاعداء . وفي منتصف يونيه ١٠٩٨ ، صار في فيلوميليوم ، وبينما كان يستعد لمواصلة السير ، ظهر في معسكره ستيفن ووليم . إذ ابحرا سويـاً من طرسوس ، وفي اثناء رحلتها ، والراجح ان ذلك حدث عند اضاليا ، سمعا بخبر المواضع التي حل بها الامبراطور . وبعد ان تركا جنودهما تسير بحراً ، بادرا بالتوجه صوب الشمال الى فيلوميليوم ، فأخبرا الكسيوس انه بات محققاً ان اضحى الترك وقتـذاك في انطاكية ، وأن الجيش الصليبي تحطم . وحوالي ذلك الوقت ، اجتمع بالامبراطور ايضاً بطرس اولب ، الذي تخلى عن موقعه في كوماناً ، الى الشرق من قيصرية ، فأنهى اليـه بأن جيشاً تركياً يمضي في زحفه لقتال الكسيوس قبل أن يبلغ انطاكية . ولم يكن لدى الكسيوس من الدواعي ما يحمله على الارتياب في رواياتهم . فالمعروف ان ستيفن بلوا كان منذ زمن مضى ، من اصدقاء الامبراطور الاوفياء ، يطمئن اليه ويثق فيه . وليس بعيداً ان تقع هـذه الكارثة . فما بلغه من الانباء حمله على أن يعيد النظر في خططه . فـــاذا استولى الترك على انطاكية ، وهلك الفرنج ، فمن المحقق ان الترك سوف يمضون في الهجوم . ولا شك أن السلاجقة سوف يحاولون استرداد مـا فقدوه من الاراضي ، وسوف يساندهم كل العالم التركي المظفر من ورائهم . كل هذه الاحوال تجعل من الحماقة والجنون ، أن يمضي الكسيوس بحملتـه . ففي الوضع الحالي ، انكشف جناحه الايسر لخطر هجمات الترك ، على أنه لسبب لا زال غير معروف ، لم يفكر الكسيوس في أن تمتد مواصلاته الى ابعد من هذا الموضع (فيلوميليوم) . بل انه لو كان مغامراً ، مثلما كان امراء

الحملة الصليبية ، لمـــا احتاجت المخاطرة الى هذا الاهتمام . غير أنه يعتبر مسئولاً عن سعادة امبراطورية ضخمة مكشوفة من جميع الجهات . وأول ما ينبغي أن يقوم بـــه ، أن يعمل لصالح رعاياه . فأمر بدعوة مجلسه للانعقاد ، فأخبرهم أنه لا بد من الارتداد ، وكان من بين هيئة قيادتـه امير نرمندي ، جاي ، وهو اخ غير شقيق لبوهمند ، ظل سنوات عديدة في خدمة الامبراطور البيزنطي . اشتد جاي تأثراً بما صارت اليه احوال الصليبيين من السوء ، فالتمس من الامبراطور أن يأذن له بالمسير ، فلعل الفرصة لا تزال مواتية لانقاذهم . على أنه مـــا من احد ساند دعواه . وتراجع الجيش البيزنطي الضخم صوب الشمال ، بعد أن خلف نطاقاً من الارض الجدباء ، تحمي مـا جرى الاستيلاء عليه اخيراً من الاراضي من الترك (١) .

كان من الخير للأمبراطورية ، ومن صالح سلام العالم المسيحي بالشرق ، لو أن الكسيوس استمع لدعوى جـــاي ؛ على الرغم من أنه لم يكن ليصل الى انطاكية قبل وقوع المعركة الحاسمة . ذلك أنه حينما نمي الى الصليبيين الشائعة القائلة بأن الجيش البيزنطي عـــاد ادراجه ، اشتدت كراهيتهم ، اذ اعتبروا انفسهم جند المسيح لقتال الكفار . فالامتناع عن النهوض لمساعدتهم ، برغم ما يتراءى لهم من انعدام الامل ، يعتبر خيانة ضد الدين . وليس في وسعهم أن يقدروا مـــا يتحمله الامبراطور من

---

(١) Gesta Francorum IX. 27. pp. 140 - 146 .
يشير الى جاي اخ بوهمند . وتذكر أنه كومنين (XI. VI. 1-2 vol. III. pp. 27- 28) ان بطرس اولب قدم من انطاكية مع جمـــاعة من الفارين . واذ صار واليـــاً على بلاكنتيا ، فلا بد انه قدم منها يحمل الانباء عن الجيش التركي القادم من الشرق لقطع الطريق على الكسيوس اذا تقدم . وأشارت أنه كومنين الى ان هذا النبـــأ هو الذي حمل الكسيوس على الارتداد . فلو ان الفرنج تعرضوا فعلاً للهزيمة في انطاكية ، فمن الحماقة ان يواصل الكسيوس الزحف .

واجبات اخرى . وبدلاً من ذلك ، ما حدث من اهمال الامبراطور برر فيما يبدو ، كل مـا احس به الصليبيون فعـلاً من الريبة والكراهية نحو اليونانيين . فلم يغتفروا ابداً مـا ارتكبته بيزنطة من خطـأ ، واكتشف بوهمند كل ذلك لتحقيق طموحه [1] .

ادرك الصليبيون ايضاً انه لا بد من توجيه اللوم الى ستيفن بلوا . تحدث مؤرخوهم في غضب عن جبن ستيفن ، ولم تلبث القصة ان وصلت الى اوربا . إذ عاد ستيفن، بعد ان اجتاز اسهل السبل الى وطنه، الى زوجته التي بلغ من شدة خجلها وامتعاضها ، انه لم يطمئن لها بال حتى بعثت به مرة اخرى الى الشرق ليكفر عن سيئاته [2] .

وفي تلك الاثناء واصل كربوقا الضغط على انطاكية . ففي ١٢ يونيه قام بهجوم مفاجىء ، كاد يجعله يمتلك احد الحصنين القـائمين على السور الواقع جهة الجنوب الغربي من المدينة . ولم يحفظ هذا الحصن إلا بسالة ثلاثة فرسان من مالين . وكيما يتجنب بوهمند تجدد هذه الاخطار ، أمر بإشعال الحريق في كل ما يقع بالقرب من السور ، من شوارع المدينة ،

---

(١) لم ترد الى انطاكية انباء انسحاب الامبراطور ، الا بعد ان حلت الهزيمة بكربوقا . (انظر ما يلي ص ٣٥٥ ، ٣٦٤) .

(٢) Orderic Vitalis X. 19. vol. 1V. p. 118 .

يشير الى خجل اديلا (زوجة ستيفن) ، حتى انهـا حثت ستيفن على ان يشترك مرة اخرى في حملة صليبية .

حتى يتهيأ العساكر بذلك أن تقوم بتحركاتها ومناوراتها في يسر وسهولة بالغة (١) .

تدخل القوى الخارقة للطبيعة :

وفي هذه اللحظة ، ازدادت الروح المعنوية ارتفاعاً عند المسيحيين ، بما وقع من سلسلة الاحداث ، التي تراءى لهم انهـا دليل على أن الله يخصهم برعايته وفضله . استبد بالجند اللهفة والشوق الى بيت المقدس . فالايمان الذي ظل حتى تلك اللحظة يساندهم ولم يفارقهم ، اخذ يتزعزع ، غير انه لم يتحطم . ساد الجو الذي تترعرع فيـه الاحلام والرؤيات . فالخوارق عند رجـال العصور الوسطى لا تعتبر مستحيلة ، او نادرة الوقوع . فالأفكار الحديثة عن قوة الشعور الباطني لم تكن معروفة . فالأحلام والرؤيات انمـا صدرت عن الله ، او عن الشيطان في بعض الحالات . واقتصر التشكك على الانكار الصريح لكل مـا يصدر عن الذي يحلم من (لفظ). هـذا الاتجـاه ينبغي تذكره عند النظر في الحادث التالي .

رؤيات بطرس بارثولوميو :

ففي يوم ١٠ يونيه ١٠٩٨ قدم الى خيمة الكونت ريموند ، فـلاح يرتدي ثوباً مهلهلاً ، وطلب ان يقابله ، هو وأسقف لي بويه . هذا الفلاح

---

(١) Gesta Francorum IX. 26. p. 136 .
Radulph of Caen. LXXVI. pp. 660 - 661 .
يشير الى ان روبرت فلاندر امر باحراق الحي .
Albert of Aix IV. 35. p. 413 .
اشار الى خبر فرسان مالين .

كان اسمه بطرس بارثولوميو ، قدم مع الحملة الصليبية ، خادمـــاً لأحد الحجاج البروفنساليين ، واسمه ولم بطرس . لم يكن هـذا الخادم بالغ الأمية برغم وضاعة اصله ، انما اشتهر عند زملائه ورفاقه بأنـه شخص سيء السمعة ، لا يحفل إلا بالاستمتاع بمباهج الحياة . وتشير قصته الى انه حدث في الشهور الاخيرة ، أن روعته رؤيات ، كشف له فيهـا القديس اندرياس ، عن موضع يضم اثراً من اشد المخلفات الدينية قداسة في العالم المسيحي . وهذا الأثر هو الحربة التي اخترقت جنب المسيح . ووقعت الرؤية الاولى في الزمن الذي حدث فيـه زلزال ٣٠ ديسمبر . فبينما كان يؤدي الصلاة في خشوع واضطراب ، ظهر له فجأة شيخ عجوز ، شعره في لون الفضة ، وبصحبته شاب طويل القامة ، شديد الوسامة . وبعد ان قال الرجل الشيخ أنه القديس اندرياس ، أمره بأن يبادر بالذهاب ليجتمع بأسقف لى بويه والكونت ريموند . ولا بد من لوم الاسقف لأنه اغفل واجباته على انه مبشر، على حين أنه ينبغي أن ينكشف للكونت ريموند الموضع الذي تختفي فيه الحربة ، التي عرض القديس أن يظهرها لبطرس بارثولوميو . وعندئذ وجـد بطرس نفسه محمولاً ، ولم يستر جسمه إلا قميص ، الى داخل المدينة ، الى كاتدرائية القديس بطرس ، التي جعلهـا الترك مسجداً . اخذ القديس اندرياس يرشده ، فاجتاز به الباب الجنوبي الى الكنيسة الجنوبية ، وفيهـا اختفى القديس في باطن الارض ، ثم ظهر من جديد حاملاً الحربة . وحرص بطرس على ان يبادر الى اخذهـــا ، غير انه جرى إخطاره بأن يعود مع اثني عشر رجلاً من رفاقه ، بعـد سقوط المدينة الى نفس الموضع للتنقيب عن الحربة . ثم عاد طائراً الى المعسكر دون أن يراه احد .

على أن بطرس لم يحفل بنصائح القديس ، لأنـه خشي ألا يستمع احد لرجل فقير مثله . وبدلاً من ذلك خرج الى الرهـا في حملة تطلب

العلف والمؤن . وفي صبيحة ١٠ فبراير ، وبينما كان يقيم بقلعة بالقرب من الرها ، ظهر له مرة اخرى ، القديس اندرياس وصاحبه ، فصار يلومه لأنه خرج على طاعته ، ومن اجل ذلك حلت بـه العقوبة ، بأن اصاب عينيه مرض طارىء ، وأخبره القديس اندرياس ايضاً بما خص الله بـه الصليبين من حماية ، وأضاف الى ذلك ان جميع القديسين تطلعوا الى اللحاق بجماعاتهم ، والقتال الى جانبهم . واعترف بطرس بارثولوميو بجريمته ، وعاد الى انطاكية ، غير ان الشجاعة لم تلبث ان فارقته مرة اخرى . فلم يجرؤ على ان يتحدث الى كبار الأمراء ، ولذا شعر بالارتياح ، حينما حدث ان تقدم سيده وليم بطرس ، فصحبه معه في رحلة لشراء مؤونة من قبرص . وفي ليلة أحد السعف Palm Sunday ، ٢٠ مارس ، وبينما كان ينام مع وليم بطرس في خيمة واحدة ، في ميناء سان سيميون (السويدية) ، جرت الرؤية مرة اخرى . وردد بطرس اعذاره . وبعد ان طيب القديس اندرياس خاطره ، وهدأ روعه ، اصدر له تعليمات تقضي بأنه ينبغي على الكونت ريموند ان يتبعها ، حينما يقدم الى نهر الاردن . وسمع وليم بطرس الحديث ، غير أنه لم ير شيئاً . ثم عاد بطرس بارثولوميو الى المعسكر الصليبي في انطاكية ، ولكنه لم يستطع ان يحظى بمقابلة الكونت . وعندئذ توجه الى مامسترا (المصيصة) كيما يواصل رحيله الى جزيرة قبرص . والتقى به فيها القديس اندرياس فأمره غاضباً بالرجوع . وأراد بطرس ان يطيع اوامره ، غير ان سيده حمله على ركوب السفينة لاجتياز البحر . وارتدت السفينة راجعة ثلاث مرات ، ثم رست آخر الأمر على جزيرة بالقرب من ميناء سان سيميون (السويدية) ، حيث تقرر العدول عن الرحلة . لازم المرض بطرس فترة من الزمن ، فلما تماثل للشفاء ، كانت انطاكية قد سقطت في ايدي الصليبيين ، فدخل الى المدينة . واشترك في المعركة التي دارت في ١٠ يونيه ١٠٩٨ ، ولم يفلت من الموت المحقق إلا بصعوبة بعد ان كاد

يصرعه حصانان . حدث وقتذاك ان ظهر له مرة اخرى القديس اندرياس ، واشتد في حديثه معه ، حتى انه لم يسعه إلا الامتثال والطاعة . فروى اول الأمر القصة لأصدقائه . وعلى الرغم مما صادفته القصة من التشكك ، فانه اخذ يرددها الكونت ريموند وأسقف لي بوبه [1] .

لم يتأثر بها أدهيمر ، إذ اعتبر بطرس بارثولوميو شخصاً سيء السمعة ، لا يصح الاطمئنان اليه والوثوق به . ولعله كره ما وجهه بطرس من انتقاد لحماسه الديني باعتباره مبشراً ، او لعله تذكر انه رأى بالقسطنطينية حربة مقدسة ، ظل امر اصالتها وحقيقتها موضع جـدل ونقاش زمناً طويلاً . وبفضل خبرته ، باعتباره من رجـال الكنيسة ، لم يثق فيما يصدر عن الجهلاء من الرؤيات . غير ان ريموند كان مستعداً لأن يصدق هذه القصة ، نظراً لأن تقواه يغلب عليها البساطة والحماس . تجهز لحضور ما يجري في هدوء وسرّية من البحث عن الحربة ، خلال خمسة ايام . وفي نفس الوقت جعل بطرس بارثولوميو في رعاية قسيسه [2] .

---

(١) اورد بالتفصيل قصة بطرس بارثولوميو (Raymond of Aguilers. X. pp.253-255) الذي لم يشك فيه مطلقاً . ومـا جاء في Getsa Francorum IX. 35. pp. 132 - 134 من رواية موجزة ، الراجح انه كتبت وقتذاك ، تدل على الاعتقاد فيها . ويدل على التصديق بها رسالة الامراء الى البـابا اربان الثاني ، التي حررها بوهمند بالنيابة عنهم ، والتي وردت في :
Hagenmeyer : op. cit. p. 163 .

(٢) Raymond of Aguilers ibid. p. 255 .

عن الحربة المحفوظة بالقسطنطينية انظر :
Ebersolt : Les Sanctuaires de Byzance. pp. 9, 24. 116.
Runciman : « The Holy Lance found at Antioch » in Analecta Bollandiana vol. LXVIII .

عن سوء سيرة بطرس بارثولوميو ، حسبما اشار بوهمند ، انظر :
Radulph of Caen. C11. p. 678 .

على ان الرؤيات لم تلبث ان تكاثرت . ففي مساء ذلك اليوم ، اجتمع كل الامراء بأعلى المدينة ، عند السور الذي يحرس القلعة ، حينما طلب قسيس من فالنس ، اسمه ستيفن ، أن يراهم ويجتمع بهم . اخبرهم انه حدث في مساء اليوم السابق ، بعد ان اعتقد ان الترك استولوا على المدينة ، ان توجه بصحبة جماعة من رجال الدين الى كنيسة السيدة العذراء ، للقيام بقداس الشفاعة . وفي ختام القداس ، غلب النعاس على الآخرين . واذ ظل يقظاً ، شهد امامه شخصاً رائع الحسن والجمال ، فسأله عمن يكون هؤلاء الرجال . ولاحت عليه امارات السرور حينما علم أن هؤلاء من المسيحيين الأتقياء ، وليسوا ملحدين . ثم سأل الزائر ستيفن ما اذا كان يعرفه ، ولما اخذ ستيفن يقول « لا » ، شهد هالة الصليب تطوق رأسه ، كالتي نرى في صورة المسيح . وأقر الزائر بأنه هو المسيح . ثم سأل عمن يتولى قيادة الجيش ، اجاب ستيفن ، أنه ليس ثمة شخص معين يتولى القيادة ، بل إن السلطة الرئيسة موكولة الى اسقف معين . وعندئذ طلب المسيح الى ستيفن ، ان يخطر الاسقف ان هؤلاء الناس ، اقترفوا الإثم والشر ، بما غلب عليهم من الشهوات ، وبما ارتكبوه من الفاحشة ، فاذا عادوا الى الحياة المسيحية ، فسوف يبذل لهم في خلال خمسة ايام الحماية . ثم ظهرت سيدة جميلة الخلقة ، فقالت للمسيح ، هؤلاء هم القوم الذين طالما شفعت لهم ، وانحاز اليها ايضاً القديس بطرس . وحاول ستيفن ان يوقظ احد اصدقائه ، كيما يشهد الرؤيا ، غير ان الاشخاص اختفوا قبل ان يستيقظ احد .

أبدى ادهيمر استعداده لأن يصدق هذه الرؤية ويعتبرها صحيحة . فالمعروف ان ستيفن كان من رجال الدين المشهورين بالسمعة الطيبة ، يضاف الى ذلك انه اقسم على الانجيل انه يقول الصدق . ولما رأى ادهيمر ان الامراء اشتد تأثرهم بالقصة ، بادر بحثهم على ان يحلفوا بالسر المقدس ، ألا يغادر احد منهم انطاكية منذ الآن إلا بموافقة الآخرين.

كان بوهمند اول من حلف ، ثم تــلاه ريمond ، وروبرت النرمندي ، وجودفري ، وروبرت فلاندر ، ثم سائر الامراء الصغار . وارتفعت الروح المعنوية في الجيش ، حينما ذاعت انبــاء اليمين . يضاف الى ذلك ان ما اشار اليـه ستيفن من ان علامات رضى الله سوف تظهر بعـد خمسة ايام ، أيـد دعوى بطرس بارثولوميو ، وساد في المعسكر الامـل في النجدة (١) .

اكتشاف الحربة المقدسة :

وفي ١٤ يونيه ١٠٩٨ ، لمع في السماء شهاب ، بـــدا كأنه يسقط على المعسكر التركي . وفي صبيحة اليوم التـــالي قاد بطرس بارثولوميو ، الى كاتدرائية القديس بطرس جماعة مؤلفة من اثني عشر شخصاً ، من بينهم الكونت ريموند ، واسقف اورانج ، والمؤرخ ريموند اجيــل . وظل العمال يوماً كاملاً يحفرون في ارض الكنيسة فلم يعثروا على شيء . فانصرف الكونت ريموند يائساً . ثم حدث آخر الامر ، ان وثب الى الخندق بطرس نفسه ، لا يستره إلا القميص . وبعـد ان امر جميع الحاضرين ان يبتهلوا ويجهروا بالدعاء ، ظفر بإخراج قطعة الحديد . وصرح ريموند اجيل انـه احتضن هذه القطعة ، بينما لا زالت مطمورة في الارض ، ولم يلبث خبر العثور عليها ، ان ذاع بين رجال الجيش ، وتلقى الناس هذا الخبر بالفرح والسرور (٢) .

---

(١) Raymond of Aguilers XI. pp. 255 - 256 .
Gesta Francorum V. 24. pp. 128 - 123 .

(٢) Raymond of Aguilers XI. p. 257 .
اشارت كل المصادر الى العثور على الحربة ، واعتبرتها أنه كومنين مسماراً لا حربة ، وأن الذي كشفها هو بطرس الناسك . انظر : =

لا جدوى في ان نحاول الآن الحكم على ما حدث فعلاً . فالكاتدرائية عند إعادة تطويبها او تكريسها ، جرى تطهيرها وتنقيتها من كل اثر . ولعل بطرس بارثولوميو ابتكر هذه المسألة بعد عودته الى انطاكية ، التي لم يكشف عن تاريخها ، وبهذا يصح ان تهيأت له الفرصة لمواراة قطعة من الحديد تحت ارض الكنيسة . او لعله توافرت له موهبة المتنبىء ، فيستطيع بذلك ان يخبر بوجود قطعة من الحديد . الواقع ان بطرس كان مدعياً كذوباً ، ووفقاً لما يدل عليه تسلسل الاحداث ، يشاركه في هذا الادعاء والكذب كثيرون آخرون . غير ان ذلك لم ينتشر ويذيع . اذ ان العثور على قطعة من المخلفات الدينية ، بلغ من شدة رفعه للروح المعنوية عند المسيحيين ، حتى اليونانيين والارمن منهم ، ان لم يشأ احد ان يفسد تأثيره . ومع ذلك فان بطرس بارثولوميو نفسه ، سبب بعض الاثارة لأنصاره بعد يومين ، بأن اعلنهم بأن القديس اندرياس زاره مرة اخرى . ولعل حقده على ما جرى من حديث مباشر بين ستيفن والمسيح ، حمله على ان يغتبط لأن يسمع من القديس بأن الرفيق الصامت الذي ظهر في الرؤية لم يكن سوى المسيح . وعندئذ بذل له القديس اندرياس من الارشادات الهامة لما ينبغي ان يؤدي من الصلوات احتفالاً باكتشاف الحربة وفي اعيادها السنوية . واذ ارتاب اسقف اورنج في الصلوات المستفيضة ، سأل بطرس ما اذا كان بوسعه ان يتلوها . وعند الاجابة رأى بطرس انه من الحكمة ان يعلن بأنه امي لا يقرأ ولا يكتب . وتبين ان هذا لم يكن إلا كذباً . غير ان اصدقاءه لم يلبثوا ان صدقوا ، لأنه لم يعد

= Anna Comnena XI. VI. 7. vol. III. p. 30 .

Matthew of Edssa II. CIV. p. 223 .

اورد ابن الاثير الرواية صريحة بأن بطرس هو الذي اخفى الحربة في باطن الارض (op. cit. p. 195) .

Runciman : op. cit .

بوسعه منذئذ ان يقرأ . ولم يلبث القديس اندرياس ان ظهر من جديد ، ليعلن ان المعركة التالية مع الترك لن يتأ ـ ر نشوبها طويلا ، لأن الصليبيين تعرضوا للهلاك جوعاً . فأوصى القديس بانصيام خمسة ايام ، تكفيراً عن ذنوب الناس ، ثم ينبغي على الجيش بعدئذ .ن يقوم بمهاجمة الترك ، وسوف يحوز النصر . ولا ينبغي التوقف لنهب خيام العدو واستباحتها[1] .

ولما صارت القيادة العليا الى بوهمند ، نظراً لمرض الكونت ريموند ، قرر فعلا ان الخطة لوحيدة هي انه لا بد من القيام بهجوم شامل على معسكر كربوقا ، ولعل القديس اندرياس استوحى في نصيحته الاخيرة المصادر الدنيوية . وبينما ارتفعت الروح المعنوية عند الصليبيين ؛ اخذ كربوقا يلقي مشقة في الابقاء على حلفه . فلا زال رضوان صاحب حلب كارهاً الاشتراك في الحملة ، غير ان كربوقا احس وقتذاك بالحاجة الى مساعدته ، ولذا شرع في التفاوض معه ، فأساء بذلك الى دقاق امير دمشق . واشتدت ثائرة دقاق لما حدث من اعتداء المصريين على فلسطين ، وكان حريصاً على ان يعود الى الجنوب . ولما كان من عداء أسري بين امير حمص وامير منبج ، فلن يجري بينهما شيء من التعاون . ووقع الاحتكاك بين الترك والعرب من عساكر كربوقا . وحاول كربوقا ان يحفظ النظام باستخدام السلطة الاستبدادية التي نفر منها كل الامراء ، الذين يعلمون ان كربوقا ليس إلا اتابكا . وكلما انسلخت ايام الشهر (يونيه ١٠٩٨) ، تزايد عدد من يغادرون المعسكر ويتخلون عنه . فعاد عدد كبير من الترك والعرب معاً الى مواطنهم[2] .

---

(١) Raymond of Aguilers ibid. pp. 257 - 259.

(٢) Kemal ad - Din : op. cit. p. 583.
Abul. Feda : Moslem Annales p. 4.
Ibn al - Athir : op. cit. p. 194.

سفارة بطرس الناسك :

ولا شك ان متاعب كربوقا لم تكن مجهولة عند قادة الصليبيين ، الذين حاولوا ان يحملوه على ان يتخلى عن الحصار . ففي ٢٧ يونيه ، اتقدوا الى معسكره سفارة مؤلفة من بطرس الناسك ، وفرنجي اسمه هيرلوين ، يجيد الحديث باللغتين العربية والفارسية . وما حدث من اختيار بطرس في السفارة ، يدل على انه استرد سمعته ، التي فقدها منذ خمسة شهور عند محاولته الفرار . ولم يشترك في السفارة احد من قادة الجيش الصليبي ، ولعل ذلك يرجع الى انهم كانوا يخشون ان تتعرض حصانة السفراء للامتهان . ووقع الاختيار على بطرس الناسك لأنه اشهر من رافق الجيش من غير المحاربين . والواقع ان قبول بطرس للقيام بهذا العمل دل على شجاعة ، وأسهم كثيراً في استرداد مكانته . لا نعلم الشروط التي جرى تفويض بطرس بعرضها ، إذ ان ما اجراه المؤرخون المتأخرون على لسان بطرس وكربوقا من الاحاديث ، يعتبر من نسيج الخيال . ولعل من الاقتراحات ، ما اورده بعض المؤرخين المتأخرين ، من انه قد يحسم الموقف ، القيام بسلسلة من المبارزات الفردية . على ان كربوقا لا زال يصر على ان يستسلم الصليبيون دون قيد ولا شرط ، على الرغم من تزايد ضعف جيشه ، فعادت السفارة خاوية الوفاض . غير انه في اثناء قيام السفارة بمهمتها ، وقف هيرلوين ، فيما يبدو ، على معلومات باللغة الاهمية عن مجرى الامور في المعسكر التركي .

وإذ فشلت السفارة ، لا مفر من القتال . ففي الصباح الباكر من يوم الاثنين ٢٨ يونيه ، عبأ بوهمند العساكر للقتال ، فانقسموا الى ستة جيوش . تألف الجيش الاول من الفرنسيين والفلمنكيين ، يقودهم هيو فرماندوا وروبرت فلاندر . وتألف الجيش الثاني من اللوثرنجيين بقيادة جودفري ، اما الجيش الثالث فكان من نرمان نورمنديا بقيادة روبرت ،

وتألف الجيش الرابع من عساكر تولوز وبروفانس بقيادة اسقف لي بويه ، نظراً لأن ريموند كان يعاني مرضاً شديداً . وتشكل الجيشان الخامس والسادس ، من نرمان ايطاليا بقيادة بوهمند ولانكرد . وللمحافظة على القلعة ومراقبتها ، تقرر ابقاء ۲۰۰ عسكري بالمدينة ، يتولى قيادتهم ريموند من فراش مرضه . وبينما قام جماعة من القسس وأئمة الجيش بقداس الشفاعة على اسوار المدينة ، توجه فريق آخر منهم مع العساكر . وكان للمؤرخ ريموند آجيل الشرف بأن يحمل الحربة المقدسة الى ساحة القتال . واشتهر كل امير بعلمه ، غير ان عدة الفرسان فقدت شيئاً من لمعانها . وإذ فقد عدد كبير منهم خيولهم ، كان لزاماً عليهم ان يسيروا مترجلين ، او امتطوا دواب الحمل . ونظراً لارتفاع الروح المعنوية عند العساكر ، بفضل ما ظهر اخيراً من دلائل رضى الله وعطفه ، ازدادوا شجاعة عند اجتيازهم الحصن المنيع ، الواحد بعد الآخر [١] .

الانتصار على كربوقا :

ولم يكد الصليبيون يخرجون من الباب ، حتى حث وثاب بن محمود القائد العربي ، كربوقا بأن يبادر الى مهاجمتهم ، غير ان كربوقا خشي انه اذا اسرع بقتال الصليبيين ، فانه لن يحطم سوى مقدمتهم ، اما اذا انتظر ، فانه سوف يتخلص ، بضربة واحدة ، من كل القوات الصليبية . وتبين له ، من سلوك عساكره ، انه سوف لا يتحمل استمرار الحصار المرهق زمناً طويلاً . على انه حينما شاهد الفرنج في كامل عدتهم ،

---

(١) Gesta Francorum IX. 28. pp. 146 - 150 .
Fulcher of Chartres 1. XXI. 1 - 2. pp. 247 - 249 .
Raymond of Aguilers XI. p. 259 .
Albert of Aix IV. 44 - 46. pp. 420 - 421 .

اخذ يتردد ، وبعث اليهم من قِبله رسولاً ، بعد فوات الأوان ، يعرض على أنه على استعداد لأن يناقش معهم شروط الهدنة . غير أن القرنج تجاهلوا رسوله ، ومضوا في سيرهم ، فلجأ كربوقا الى اتخاذ ما درج عليه الترك من خطط حربية ، بالتظاهر بالانسحاب ، واستدراج العدو الى ارض بالغة الوعورة ، حيث قذف رماته صفوف العدو بوابل من السهام . وفي تلك الأثناء بعث بفصيلة من جيشه كيما تحيط بجيوشهم من ناحية اليسار ، حيث لم يكن النهر يحميهم . غير أن بوهمند استعدّ لذلك ، فألف جيشاً سابعاً ، بقيادة رينالد تول ، لوقف هذا الهجوم . اشتد القتال على الجبهة الرئيسية ، ولقي مصرعه حامل لواء أدهيمر . على أن الرماة الترك لم يستطيعوا وقف زحف الصليبيين ، وأخذت صفوف الترك تضطرب . وأمعن المسيحيون في الضغط عليهم ومضوا في زحفهم ، وشجعهم ما تراءى لهم على جانب التل من ظهور جماعة من الفرسان يمتطون خيولاً بيضاء ، ويرفعون اعلاماً بيضاء ، وعرفوا من قادتهم القديس جورج والقديس ميركوري والقديس ديمتريوس . وزاد في مساعدتهم العملية ، ما قرره كثير من أمراء كربوقا من التخلي عنه . إذ أنهم خافوا أنه اذا احرز النصر ، فسوف يصير له من القوة ، ما سوف يجعلهم اول من يدفع الثمن باهظاً . فأخذ الأمراء بزعامة دقاق امير دمشق ، يغادرون ساحة المعركة ، وترتب على تخليهم عن نصرة كربوقا ، أن ساد الذعر بين الجند . فأشعل كربوقا النيران في الحشائش الجافة امام صفوف عساكره ، كيما يعوق سيرَ الفرنج ، دون جدوى ، بينما كان يعمل على استتباب الأمن . ولم يبق موالياً له ، إلا سكمان ابن ارتق وامير حمص ، حتى اذا فرا ، أدرك ان المعركة خاسرة ، وانصرف عن القتال . وتداعى كل الجيش التركي ، ووقع فريسة للفوضى والخوف . واذ اتبع الصليبيون النصيحة التي بذلها القديس اندرياس بألا يتوقفوا كيما ينهبوا معسكر العدو ، اخذوا يطاردون الفارين حتى بلغوا الجسر الحديدي ، فقتلوا عدداً كبيراً منهم . أما اولئك الذين التمسوا ملاذاً في قلعة

تانكرد ، فجرى تطويقهم ، ولم يلبثوا ان هلكوا . ولقي كثير من الباقين مصرعهم أثنـاء فرارهم ، على أيدي السريان والارمن في الريف . ووصل كربوقا الى الموصل في فلول جيشه ، غير أنه ضاع الى الأبد ما كان له من سلطة ومكانة .

وشهد احمد بن مروان قائد القلعة ، من قمة الجبل ما دار من القتال . فلما رأى أن المعركة خاسرة ، بعث من قبله رسولاً الى المدينـة ، يعلن استسلامه . وجرى اصطحاب الرسول الى خيمة ريموند . فأرسل ريموند علماً من أعلامه الخاصة ، ليرتفع بأعلى برج القلعة ، غير أن احمد بن مروان لما علم بأن العلم ليس علم بوهمند ، رفض أن يرفعه ، لأنه فيما يبدو سبق أن عقـد اتفاقاً سرياً مع بوهمند ، يتعاهد بتنفيذه عند انتصار المسيحيين . فلم يفتح أبوابه إلا بعد ان ظهر بوهمند نفسه ، فسمح للحامية بأن تخرج دون ان تتعرض للأذى . وتحول جمـــاعة منهم ، ومنهم احمد نفسه الى المسيحية ، وانحازوا الى جيش بوهمند [1] .

وعلى الرغم من ان انتصار الصليبيين لم يكن متوقعاً ، فانه كان تاماً . اذ قرر بصفة حاسمة أنه لا بد أن تبقى انطاكية في حوزة المسيحيين . غير أنه لم يقرر أياً من المسيحيين تنتقل الى حوزته ، المدينة (انطاكية) .

---

(١) Gesta Francorum IX. 29. pp. 150 - 158 .
شمل اوضح رواية .

Raymond of Aguilers XII. pp. 259 - 261 .
Fulcher of Chartres *XX*II. - *XX*III. pp. 251 - 258.
Albert of Aix IV. 47 - 56 pp. 421 - 258 .
Anselm of Ribemont in Hagenmeyer op. cit. p. 160 .
Kemal ad - Din loc. cit.
Ibn al - Athir op. cit. pp. 195 - 196 .

فاليمين التي أقسمها للأمبراطور كل الامراء ، باستثناء ريموند ، تطلبت صراحة أنه لا بد من تسليم المدينة للامبراطور . غير ان بوهمند كشف فعلا عن نيته ، بأن يحتفظ بها لنفسه ، وأبدى زملاؤه فيما عدا ريموند ايضاً ، استعدادهم للموافقة على ذلك ، اذ ان بوهمند هو الذي دبر أمر الاستيلاء على المدينة ، وهو الذي أذعنت له القلعة . على أنه لم يكن للامراء ان يحفلوا بالسخرية بما بذلوه من ايمان . فالامبراطور يقيم بعيداً عنهم ، ولم ينهض لمساعدتهم ، بل إن مندوبه ونائبه تخلى عنهم ، وقد استولوا على على المدينة (انطاكية) ، وهزموا كربوقا ، دون ان يحصلوا منه على مساعدة . وتراءى لهم أنه لا يتحقق عملياً أن تبقى الحامية في الانتظار ، حتى يتنازل الكسيوس فيحضر بنفسه او يبعث بمندوب عنه ، ورأوا انه ليس من حسن السياسة أن يضيعوا الوقت سدى ، وأن يتعرضوا لعدواة ، بل لتخلي أمهر وألمع جندي صليبي (بوهمند) ، بالحرص على الدفاع عن حقوق الامبراطور الغائب . ورأى جودفري امير اللورين أنه من الحماقة اعتراض طريق مطامع بوهمند . ومع ذلك فان ريموند كان دائماً شديد الحقد والكراهية لبوهمند . وليس من الانصاف ان يعتبر حقده ، الباعث الوحيد الذي تستند اليه دعاوى الكسيوس . اذ ان ريموند عقد صداقة مع الكسيوس قبل ان يغادر القسطنطينية . وبلغ من حصافته وبراعته ، أنه ادرك ان امتناع الصليبيين عن اعادة انطاكية الى الامبراطورية البيزنطية ، سوف يفقدهم صداقة الامبراطور وحسن نيته ؛ التي تعتبر لأزمة لهم ، لصيانة مواصلاتهم والمحافظة عليها ، وفي وقف الهجوم المضاد الذي لا بد ان يقوم به المسلمون . فلم تعد الحملة الصليبية جهداً يقوم به العالم المسيحي المتحد . وشارك ادهيمر وجهة نظر ريموند . اذ عزم على ان يتعاون مع

المسيحيين الشرقيين ، ولا شك ان سيده البابا اربان كان يرمي الى ذلك ، وأدرك ريموند خطورة العداوة مع بيزنطة [١] .

الراجح انه بفضل نفوذ ادهيمر ، تقرر إرسال هيو فرماندوا ليشرح الموقف للامبراطور الكسيوس . ولما اطمأن هيو الى ان انطاكية اصبحت خالصة للصليبيين ، اراد ان يعود الى وطنه ، وان يتخذ في عودته طريق القسطنطينية . ولا زال الصليبيون يعتقدون ان الكسيوس في طريقه اليهم يجتاز آسيا الصغرى ، اذ لم يبلغهم نبأ ارتداده ورجوعه ، بعد التقائه مع ستيفن بلوا . على ان ادهيمر وريموند كانا يأملان في ان تؤدي سفارة هيو فرماندوا الى ان يبادر الكسيوس بالقدوم اليهم ، وفي نفس الوقت تقرر ان تنتظر الحملة الصليبية في انطاكية حتى اول نوفمبر سنة ١٠٩٨ ، فلا تحاول قبل هذا التاريخ ان تمضي في سيرها الى بيت المقدس . وهذا القرار كان امراً طبيعياً ، نظراً لما استبد بالجيش من التعب . فمن الحماقة ان يمضي الجيش في سيره في سوريا وقد اشتدت الحرارة صيفاً ، وأن يسلك طرقاً لا يدري عنها إلا قليلاً ، وتقل بها المياه . يضاف الى ذلك أنه لا بد من تسوية مشكلة انطاكية ، ولا شك ان ادهيمر كان يأمل وقتذاك في قدوم الامبراطور . فالمعروف ان هيو فرماندوا ارتحل في اوائل شهر يوليه ، بصحبة بلدوين هينولت ؛ وفي اثناء اجتياز آسيا الصغرى ، تعرض رفاقه لهجوم الترك ، الذين اشتدوا في ضربهم وإنزال الأذى بهم . فاختفى كونت هينولت ، ولم يعرف مصيره . اما هيو فرماندوا فلم يصل إلا بعد الخريف الى القسطنطينية فاجتمع بالامبراطور وروى له القصة الكاملة للاستيلاء على انطاكية . على ان الوقت لم يكن حينئذ ملائماً لأن تجتاز حملة جبال

---

(١) Albert of Aix V. 2. pp. 433 - 434 .
عالج ما قام به ادهيمر من اعمال .

آسيا الصغرى ، ولم يكن من اليسير ان يصل الكسيوس الى انطاكية إلا بعد الربيع المقبل [1] .

التنازع بين الامراء على امتلاك انطاكية :

وفي تلك الاثناء اشتد الجزع والخوف بالصليبيين في انطاكية . إذ ان القلعة احتلها منذ اول الامر بوهمند وريموند وجودفري وروبرت فلاندر، غير ان بوهمند احتفظ في قبضة يده بالأبراج الرئيسية . ولم يلبث ان نجح في طرد عساكر زملائه الامراء . والراجح انـــه تم ذلك بموافقة جودفري وروبرت ، وبذلك جرى التغلب على اعتراضات ريموند . اشتدت ثائرة ريموند ، ورد على هـــذا الاجراء ، بأن انفرد بالسيطرة على الحصن المنيع وقصر ياغي سيان . غير ان ريموند اقعـــده المرض عن الحركة والنشاط ، ولم يلبث ادهيمر ان خرّ مريضاً ، وتعرض الفرنسيون الجنوبيون، بعـــد انسحاب قائديهم ، لمعاملة سيئة من قِبل سائر الجند ، ولا سيما النرمنديين ، وتاق كثير منهم الى ان يتم الوفـــاق بين ريموند وبوهمند . وتصرف بوهمند كما لو كان سيد المدينة (انطاكية) فعلاً .

وأسرع كثير من الجنويين بالقدوم الى انطاكية حينما ذاع خبر هزيمة كربوقا ، وحرصوا على ان يكونوا اول من يظفرون بتجارتها . ففي ١٤ يوليه ، منحهم بوهمند عهـــداً ، يقضي بأن يكون لهم سوق وكنيسة وثلاثون بيتـاً . ومنذئذ صـار الجنويون يدافعون عن دعاوي بوهمند ، فأصبح في وسعه ان يرتكن الى تأييدهم ونصرتهم له في انطاكية ازاء كل

---

(١) Gesta Francorum X. 30. pp. 161 - 162.
Albert of Aix V. 3. pp. 434 - 435 .

القادمين ، باستثناء كونت تولوز ؛ إذ سوف يبقون على الحياد في النزاع بينهما [1] .

وبينما كان كل من ريموند وبوهمند ، يرقب احدهما الآخر في حذر ويقظة ، ارتحل صغار النبلاء للحاق ببلدوين في الرها ، او للقيام بحملات للإغارة من اجل النهب ، او انشاء اقطاعات في القرى المجاورة . ومن اشد هذه الغارات طموحاً وسعياً وراء الغنيمة ، تلك التي قادها ريموند بيليه من ليموزين ، ومن فرسان جيش ريموند ، اذ انه ارتحل في ١٧ يوليه ، فاجتاز نهر الاورنت الى الشرق ، ولم تمض ثلاثة ايام على مسيره ، حتى احتل بلد تلمنس ، فاستقبله سكانها من السريان فرحين مسرورين . وبعد ان استولى على قلعة تركية في الجهات المجاورة ، تحرك لمهاجمة مدينة معرة النعمان ، وكان يقود جيشاً تألف اساساً من المسيحيين الوطنيين . ونظراً لأنهم لم يألفوا استخدام الاسلحة ، ولوا الادبار حينما التقوا بعساكر رضوان صاحب حلب ، الذين نهضوا لنجدة معرة النعمان [2] .

وفاة ادهيمر اسقف لى بويه :

وفي اثناء شهر يوليه ، تفشى في انطاكية وباء خطير ، لا نستطيع ان نصف بالدقة طبيعته ، والراجح انه كان مرض التيفوئيد ، وظهر نتيجة لما حدث في الشهر الماضي من توالي الحصارات والمعارك ، ولجهل الصليبيين بالتدابير الصحية الضرورية في الشرق . وكان ادهيمر ، اسقف

---

(١) Raymond of Aguilers XIII. pp. 261 - 262 .

الوثيقة التي بذلها بوهمند للجنويين وردت في :
Hagenmeyer : op. cit. pp. 155 - 156 .

(٢) Gesta Francorum X. 30 pp. 162 - 164 .
Kemal ad - Din : cit. p. 584 .

لى بويه ، الذي ساءت صحته منـــذ فترة ، اول ضحايا هذا الوباء من كبار الزعماء ، اذ مات في اول اغسطس ١٠٩٨ .

تعتبر وفاة ادهيمر من اكبر الفواجع التي لحقت بالحمـــلة الصليبية . فعلى الرغم من ان صفحات المؤرخين لم تعرضه إلا على انـــه شخص غامض ، فانهـــا اظهرته ايضاً على ان نفوذه الشخصي يفوق نفوذ سائر الصليبيين . كان موضع التبجيل والاحترام باعتباره ممثلاً للبـابا . وبفضل اخلاقه الطيبة ، حاز محبة الجيش . اشتهر بالاحسان ورعـــاية الفقراء والمرضى . كان متواضعاً لا يميل الى العنف ، غير انه كان دائمـاً مستعداً لبذل النصيحة الصادقة ، حتى في الامور الحربية . والخلاصة انه كان شجاعاً حصيفاً ذكياً . فمـا حازه الصليبيون من انتصار في دوريليوم ، يرجع معظمه الى ما وضعه ادهيمر من خطة حربية ، وتولى اثناء حصار انطاكية ، رئاسة كثير من مجالس الحرب . اما من الناحية السياسية ، فانه اهتم بتحقيق التفـــاهم السليم مع المسيحيين في الشرق ، سواء مع بيزنطة ، او مع الكنائس الارثوذكسية في الشام . كان موضع ثقة البابا اربان الثاني ، ووقف على كل آرائه وأفكاره . وفي اثنـــاء حياته كبح جماح ما كان بين الفرنج من تعصب عنصري وديني ، ومنع اطماع الامراء ومنازعاتهم من ان تلحق الضرر بالحملة الصليبية . وعلى الرغم من انـــه حرص على ألا يحاول السيطرة على الحركة (الصليبية) ، فانه كان يعتبر ، على حد ما روى القسيس ستيفن في رؤياه للمسيح ، قائد الحملة الصليبية . فلم يكن ثمة ، بعد وفاته ، من الاشخاص من يضارعه في السلطة البالغة القوة . ورث آراءه وأفكاره ، كونت تولوز ، الذي طالما تناقش مع البابا اربان الثاني في سياسة الحملة الصليبية ، غير ان ريموند لم يكن كفؤاً ، وليس في وسعه ان ينازع بوهمند إلا على أنه من اسوانه ، لا على انه المتحدث باسم الكنيسة ؛ ولم يكن لأحد من الامراء بعد اختفاء ادهيمر ،

من بعد النظر ما يجعله يعمل على المحافظة على وحدة العالم المسيحي . فما اشتهر به ادهيمر من صفات الاحسان والحكمة واكتمال الشخصية ، لم تكن موضع خلاف عند رفاقه ، بل ايضاً عند الذين قاوم اطماعهم . فحزن عليه اتباع بوهمند مثلما حزن عليه رجاله من فرنسا . وأقسم بوهمند على ان يحمل جثمانه الى بيت المقدس . حزن كل الجيش لوفاته ، واشتد قلقه وارتياعه لفقده .

ومع ذلك ، فان شخصاً واحداً لم يشعر بالأسى والحزن لوفاته . ولم يكن هذا الشخص سوى بطرس بارثولوميو ، إذ لم يغفر مطلقاً لمندوب البابا (ادهيمر) ما اظهره من عدم الاعتقاد في رؤياه . ولم يلبث أن انتقم لنفسه بعد يومين . اعلن ان القديس اندرياس زاره مرة اخرى ، وظهر له في هذه المرة ، وبصحبته ادهيمر . وصرح ادهيمر انه نال العقاب ، بسبب عدم تصديقه ، بأن امضى في جهنم الساعات الواقعة بين وفاته وبين ظهوره في الرؤيا ، ولم ينقذه من العقاب إلا دعوات رفاقه ، ولا سيا بوهمند ، وما بذله من منحة ، عبارة عن بعض النقود ، من اجل المحافظة على الحربة ، فجرى غفر ذنبه ، وطلب ان يبقى جثمانه في كاتدرائية القديس بطرس في انطاكية . ثم تحلل القديس اندرياس من النصيحة التي بذلها للكونت ريموند ، وقال لا بد من أن تعطى انطاكية لبوهمند الذي يطالب بها الآن ، اذ أثبت إنه رجل مستقيم صالح . ولا بد من اختيار بطريرك يقيم الشعائر اللاتينية ، كيا يقرر مقدار استقامته . وينبغي ان يستغفر الصليبيون لما ارتكبوه من خطايا ، وأن يمضوا قدماً الى بيت المقدس ، التي لا تبعد إلا مسيرة عشرة ايام ، غير أن الرحلة سوف تستغرق عشرة اعوام ، اذا لم يرجعوا الى الطباع النقية الصالحة . والمقصود بكل ذلك ، ان بطرس بارثولوميو ورفاقه من البروفنساليين ، قرروا انه لا بد من السماح لبوهمند بامتلاك انطاكية طالما

تعاهد بمساعدة الصليبيين بعدئذ ويلبغي ان يبادر الجيش بالمسير الى بيت المقدس ، وينبغي وقف التعامل والاتصال مع البيزنطيين ، ومع الكنائس الارثوذكسية المحلية .

هذه الرؤيات كانت مصدر اضطراب وحيرة لريموند . والواقع أنـــه اعتقد مخلصاً في الحربة المقدسة . وما حدث من حيازة عساكره لهـذه الحربة ، جعل له مكانة وهيبة . فعلى الرغم من ان كثيراً من النـــاس يقولون إن ما جرى من الانتصار في المعركة على كربوقا ، انما جاء بتدبير بوهمند لخطة حربية ، فان فريقاً آخر من الناس ، يجعل الفضل في إحراز النصر راجعاً الى الحربة المقدسة ، أي الى ريموند بطريق غير مباشر . على ان مصدراً اساسياً لسلطة ريموند ، نبت من صلته الوثيقة بأدهيمر . فلو أن الرسول المتنبىء الذي سبق أن كشف عن موضع الحربة ، اخذ ينازع حكم ادهيمر ، وينكر السياسة التي ورثها ريموند عن ادهيمر ، والتي تتفق مع آراء ريموند ، فسوف تنهـار دعامة او دعامتان من دعائم ريموند . غير أنه تمهل وتباطأ . فعلى الرغم من ان ريموند ظل على ايمانه واعتقاده في الحربة ، فانه أشار الى أنه يرتاب فيما اذا كانت رؤيات بطرس بارثولوميو لا زالت حقيقية . على ان ريموند وسائر من يتبعه من الناس ، يصرون على ضرورة اعادة انطاكيـة الى الامبراطورية ، على الرغم من اقوال القديس اندرياس ، وترتب على ذلك أن صار ريموند معارضاً لمعظم عساكره .

وما حدث من شن الهجوم على ادهيمر بعـد وفاته ، تخلف عنه أثر سيء بين الجيش الصليبي . اذا ترتب على إذاعة عـــدم اعتقاد ادهيمر (المندوب البابوي) في الحربة المقدسة ، أن تجدد الشك الذي سبق أن أحس به عدد كبير من الناس . اذ ان النرمان ، وفرنسيي الشمال بوجـــه خاص ، الذين يكنون دائماً الكراهية للبروفنساليين ، اخذوا ينددون بالحربة المقدسة ، ويشهرون بما حدث من تزوير ، كيما يبخسوا فضل ريموند وخططه .

وفي سبيل الدفاع عن سمعة ادهيمر وشهرته ، صار في وسعهم ان يناهضوا السياسة التي سبق ان دافع عنهـــا . والراجح ان بوهمند أفاد من الموقف (١) .

لما انتشر الوباء في انحاء انطاكية ، التمس الزعماء الصليبيون لهم ملاذاً في الريف . اجتاز بوهمند جبال آمانوس الى قليقية ، حيث عزز الحامية التي تركها تانكرد بهـــا في الخريف الماضي ، وتلقى منهم الولاء . عزم بوهمند على ان تضم إمارته اقليم قليقية ايضاً . أما جودفري فتوجه صوب الشمال الى مدينتي تـل باشر وراوندان فسلمها له اخوه بلدوين . كان جودفري يحسد اخاه بلدوين على ما اصابه من نجاح . اذ اراد ان يكون له نصيب من الاراضي كالذي سعى الامراء لحيازتـــه قرب انطاكية . والراجح أنه كان ينوي ان يعيد الى اخيه المدينتين اللتين حازهما ، متى سار الجيش الى فلسطين . أما تحركات ريموند فلم تكن واضحة ، بينما توجه روبرت النرمندي الى اللاذقية (٢) .

مشكلة اللاذقية :

كانت اللاذقية ، قبل الغارات التركية ، تعتبر أقصى ما يقع من الموانىء في الطرف الجنوبي للامبراطورية البيزنطية . استولى عليها الترك حوالي سنة ١٠٨٤ غير أنها لم تلبث بعدئذ ان انتقلت الى سيادة امير شيزر العربي . وفي خريف سنة ١٠٩٧ هبط الى الميناء جاينمر البولوني ، فاستولى عليها .

---

(١) Raymond of Aguilers XIII. pp. 262 - 264 .

شرع بوهمند منذ هذه اللحظة في اثارة الشكوك حول صحة الحربة وصدقها .

انظر : Radulph of Caen : loc . cit .

(٢) Raymond of Aguilers XIII. p. 262 .

Albert of Aix V. 4. p. 435, 13, pp. 440 - 441 .

غير انه حـــدث في مارس أن ابحر الى اللاذقية الاسطول الذي يقوده إدجار اثلنج ، بعد ان افرغ حمولته من المؤن للصليبيين في ميناء سان سيميون (السويدية) ، وقام بطرد رجال جاينمر ، وتم الاستيلاء على البلد باسم الامبراطور (البيزنطي) . غير ان ادجار لم يترك بالمدينة إلا قوة صغيرة لحراستها ، ولذا تقرر الاستنجاد بالجيش الصليبي لتقرير الدفاع عن المدينة . ولم يكد يتم الانتصار على كربوقا ، حتى قدم روبرت النرمندي ، مستجيباً لهذا النداء ؛ فتقرر تسليم المدينة اليه ، بالنيابة عن الامبراطور . غير ان كل ما كان لدى روبرت من فكرة عن الحكومة ، هي ان ينتزع من المحكومين اكثر ما يستطيع ابتزازه من الأموال . وبلغ حكمه من شدة السوء أنه لم تمض إلا اسابيع قليلة ، حتى جرى ارغامه على الانسحاب من المدينة ، التي بعث اليها حاكم قبرص البيزنطي ، استاتيوس فيلوكالس[1] حامية ترابط فيها .

---

(١) عن مسألة اللاذقية انظر :
Chalandon : Essai sur le Règne d'Alexis Comnene pp. 205 - 212.
David : Robert Curthose pp. 230. ff.
Albert of Aix VI. 45. pp. 500 - 501 ويشير البرت الى ان جينيمر انتزع اللاذقية من الترك في خريف سنة ١٠٩٧ ، وحكمها باسم ريموند كونت تولوز . اما المؤرخ Orderic Vitalis فيذكر ان ادجار اثلنج والانجليز هم الذين انتزعوهـــا من الامبراطور، في اوائل ١٠٩٨ ، وجعلوهـــا لروبرت النرمنـــدي (loc. cit. p. 228 n. 1) اما David (loc. cit.) فانه لا يصدق قصة البرت ، ويقول ان الانجليز لا بد انهم استولوا عليها مباشرة من الترك، وان روبرت كان بها في شتاء ١٠٩٧ — ١٠٩٨ . ويروي ريموند اجيل ان روبرت لم يكن بانطاكية زمن الحملة في ديسمبر ١٠٩٧ . على ان ما يعتبر موضع شك ما اذا كان الانجليز وصلوا تجـــاه الساحل الشامي قبل مارس . ويذكر رادولف كاين ان روبرت ذهب الى اللاذقيـــة التي كانت خاضعة وقتذاك لحـــكم الامبراطور البيزنطي ، زمن فرار ستيفن بـــلوا (LVIII. p. 649) . غير انه اشترك في المعركة ضد كربوقا بعـــد ايام ، وأقرت بذلك كل المصادر . ويذكر جيبرت نوجنت (Guibert of Nogent (XXX VII p. 254 ، ان روبرت حكم اللاذقية ، غير انه جرى طرده بسبب استبداده المالي. على انني (دنسيان) اوردت ما اعتقد أنه اصدق رواية .

وفي سبتمبر انحسر الوباء ، وعاد الامراء الى انطاكية . ففي ١١ سبتمبر ، اجتمع الامراء كيما يكتبوا الى البابا اربان الثاني رسالة تتضمن تفاصيل الاستيلاء على انطاكية ، وإخطاره بوفاة ادهيمر . واذ أحسوا بحاجتهم الى سلطة عليا تستطيع ان تسيطر على الأحزاب المتنازعة ، ألحوا عليه في ان يقدم بشخصه الى الشرق . اذ أشاوروا في كتابهم الى ان انطاكية ، كرمي رسولي ، أنشأه القديس بطرس ، وأنه باعتباره وريث القديس بطرس ، لا بد أن يتبوأ هذا الكرمي ، ولا بد أن يزور المدينة المقدسة ذاتها . وأبدوا استعدادهم للبقاء في انطاكية حتى يقدم ، قبل المضي في المسير الى فلسطين [١] . واحتل اسم بوهمند رأس قائمة الامراء . والراجح ان هذه الرسالة حررها ديوان رسائله . وتبين اثر غياب ادهيمر في الاصرار على إنكار حقوق البطريرك يوحنا ، وما ظهر من العداوة والكراهية ، للمذاهب المسيحية الوطنية ، واستنكارها واعتبارها هرطقات . وعلى الرغم من ان الصليبيين لم يكن لديهم إلا امل ضئيل في ان يقدم البابا الى الشرق ، فان ما وجهوه اليه من نداء ، جعلهم يؤجلون مرة اخرى الحرص على اتخاذ قرار في مصير انطاكية . اذ ان البابا سوف يرسل حتماً مندوباً عنه ، يعهد اليه بمسؤولية الفصل في هذا الامر . وصار من الجلي وقتذاك ان الامبراطور سوف لا يمعن في هذا الفصل من السنة في سيره الى سوريا . والراجح انه شاع فعلاً خبر انسحابه من فيلوميليوم .

---

(١) ورد خطاب الامراء الى البابا اربان الثاني :

Hagenmeyer : op. cit. pp. 161 - 165 .

غارات الصليبيين :

ازدادت الاحوال سوءاً بين العساكر والحجاج ، اذ ترتب على الحرب والقتال أنه لم يتم جمع المحصولات في سهل انطاكية ، ولا زالت المؤن شحيحة . واذ اشتد حرص ريموند على أن يحصل على المؤن ، شرع في إعداد غارة على الاراضي الاسلامية . على أنه لم يلبث ، قبل ان يقرر الهدف الذي يسعى اليه ، ان تلقى دعوة من جودفري ، للقدوم عليه ، ليشتركا سوياً في مهاجمة مدينة عزاز ، الواقعة على الطريق الرئيسي المؤدي من الرها وتل باشر الى انطاكية . اذ أن ابن عمر امير عزاز شق عصا الطاعة على سيده رضوان امير حلب ، الذي ازمع المسير لتأديبه . ووقع في أسر احد قادة ابن عمر ، احدى عقائل الصليبيين ، فهام بها وكانت ارملة فارس من اللورين ، وهي التي اقترحت على ابن عمر ان يستنجد بجودفري فلبى جودفري الدعوة فرحاً ، اذ يسوءه ان تكون عزاز بيد رضوان . وقبل ريموند دعوة جودفري ، على الرغم من أنه أصر على أن يسلم اليه ابن عمر رهينة . وبعث بلدوين بعساكر من الرها . ولما اقترب الجيش المسيحي ، انسحب رضوان من عزاز ، وأقر جودفري ابن عمر في أملاكه ، فبذل له الولاء . واستطاع ريموند ان يجمع المؤن من الجهات المجاورة ، غير أنه حلت به خسائر فادحة ، أنزلها به الكمائن التي نصبها له الترك أثناء عودته . وهذا الحادث دل على انه ليس الامراء المسلمون وحدهم هم الذين أبدوا استعداداً للإفادة من مساعدة الفرنج في منازعاتهم وخصوماتهم ، بل ان الفرنج ايضاً بعد ان تعدلت عقيدتهم الحربية ، كانوا مستعدين ايضاً لأن ينتمي اليهم أتباع مسلمون [1] .

---

(١) Raymond of Aguilers XIII. pp. 264 - 265.
Albert of Aix. V. 5 - 12. pp. 435 - 440.
Kemal ad Din op. cit. p. 586.

وعلى الرغم من تقرير بطرس بارثولوميو بأن القديس اندرياس طلب من جديد المبادرة بالرحيل الى بيت المقدس ، فان ريموند خرج في اكتوبر سنة ١٠٩٨ للغارة من اجل الحصول على المؤن . سبق له ان احتل الروج على نهر الاورنت ، التي تبعد نحو ٣٠ ميلاً عن انطاكية . ومن الروج هاجم مدينة البارة ، الواقعة الى الجنوب الشرقي من انطاكية ، فاستسلم سكانها وكلهم من المسلمين ، غير أنهم تعرضوا إما للموت قتلاً ، وإما جرى بيعهم رقيقاً في انطاكية ، وغصت البلد بالمسيحيين ، وتحول المسجد الى كنيسة ، وابتهج جيش ريموند ، حينما رسم وقتذاك احـــد قسيسيه ، وهو بطرس ناربون ، أسقفاً على الكنيسة . ولم يتقرر التعيين إلا لأنه لم يكن بالبلد فعلاً أسقفية ارثوذكسية . وما من احد يدرك حق وقتذاك ما يصح أن يقع من الانشقاق بين الكنيستين اليونانية واللاتينية ، نتيجة للازدواج الاسقفي وعلى الرغم من أن الاسقف الجديد من اللاتين ، فان البطريرك اليوناني ، يوحنا بطريرك انطاكية هو الذي رسمه . على أن تنصيب بطرس النربوني يعتبر بداية قيام كنيسة لاتينية في الشرق ، بأن شجع اولئك الصليبيين الذين صاروا وقتذاك حريصين ، شأن في ذلك شأن بطرس بارثولوميو ، على أن يروا رجال الكنيسة اليونانيين ، يتخلون عن اماكنهم للاتين[1] .

وفي المناقشات التي تلت هزيمـــة كربوقا ، أقسم الامراء أنهم سوف يسيرون في نوفمبر الى بيت المقدس . وفي أول نوفمبر أخذوا يجتمعون في انطاكية للتشاور في خططهم . فقدم ريموند من البارة التي ترك بهـــا معظم عساكره ، وجاء جودفري من تل باشر ، وقد حمل معه رؤوس كل

---

(١) انظر : Raymond of Aguilers XIV. p. 266.
Gesta Francorum X. 31 - pp. 36 - 38.
يشير الى أنه جرى استقدام الاسقف الى انطاكية لرسامته .

الاسرى الترك الذين وقعوا في يده بعد سلسلة الغارات الصغيرة التي قام بها في منطقته. أما كونت فلاندر ودوق نرمنديا فكانا فعلاً في انطاكية. وجاء بوهمند متأخراً يومين، من قليقية وقد ألم به المرض فيها. وفي ٥ نوفمبر اجتمع سوياً الامراء ومستشاروهم بكاتدرائيـــة القديس بطرس بأنطاكية. وتبين لأول وهلة أنه لم يكن ثمة اتفاق بين الامراء. فاستهل اصدقاء بوهمند الحديث، بالمطالبة بأن تكون انطاكية له. أما الامبراطور فلم يكن حاضراً. وكان بوهمند رجلاً كفؤاً، وأشد من يخشاه العدو من الامراء الصليبيين. على ان ريموند ردّ على ذلك بأن لفت نظر المجلس الى اليمين التي أقسموها جميعاً للأمبراطور، والى أنه لم يبذلها. والمعروف أن جودفري وروبرت النرمندي اتخذا جانب بوهمند ونزعا الى تأييد دعواه، غير أنهما خشيا ان يجهرا بذلك حتى لا يجري اتهامهما بالحنث في اليمين. استمر الجدال عدة ايام. وفي تلك الأثناء اشتد القلق والتبرم عند الحجاج الذين وقفوا خارج الكنيسة، ينتظرون ما ينتهي اليه الأمراء من قرار. اذ أن رغبتهم الوحيدة هي ان يوفوا بنذورهم، وأن يصلوا الى بيت المقدس. تاقت نفوسهم الى أن يغادروا انطاكية التي تأخروا في المقام بها زمناً طويلاً، وعانوا فيها كثيراً. وبتحريض بطرس بارثولوميو ورؤياته، قدموا لسادتهم انذاراً نهائياً. واذ انكروا أطماع كل من بوهمند وريموند سواء، قالوا: ولنترك من اراد ان ينعم بموارد انطاكية أن يفعل ما شاء، ولنترك اولئك الذين حرصوا على أن ينالوا من الامبراطور المنح والهـدايا، ينتظرون قدومه، أما هم فسوف يسيرون الى بيت المقدس. واذا استمر قادتهم على التشاحن على امتلاك انطاكية، فسوف يدمرون اسوارها قبل رحيلهم منها ومغادرتهم لها. وإذ واجه القادة هذا الانذار، وخشوا ان يبادر كل من بوهمند وريمونـد الى استخدام السلاح، اقترح القادة المعتدلون بأن تدور مناقشة هادئة ودّية، لا يشترك فيها إلا كبار الأمراء. وبعـــد ان وقعت مناظر حادة عنيفة، تم الوصول الى اتفاق

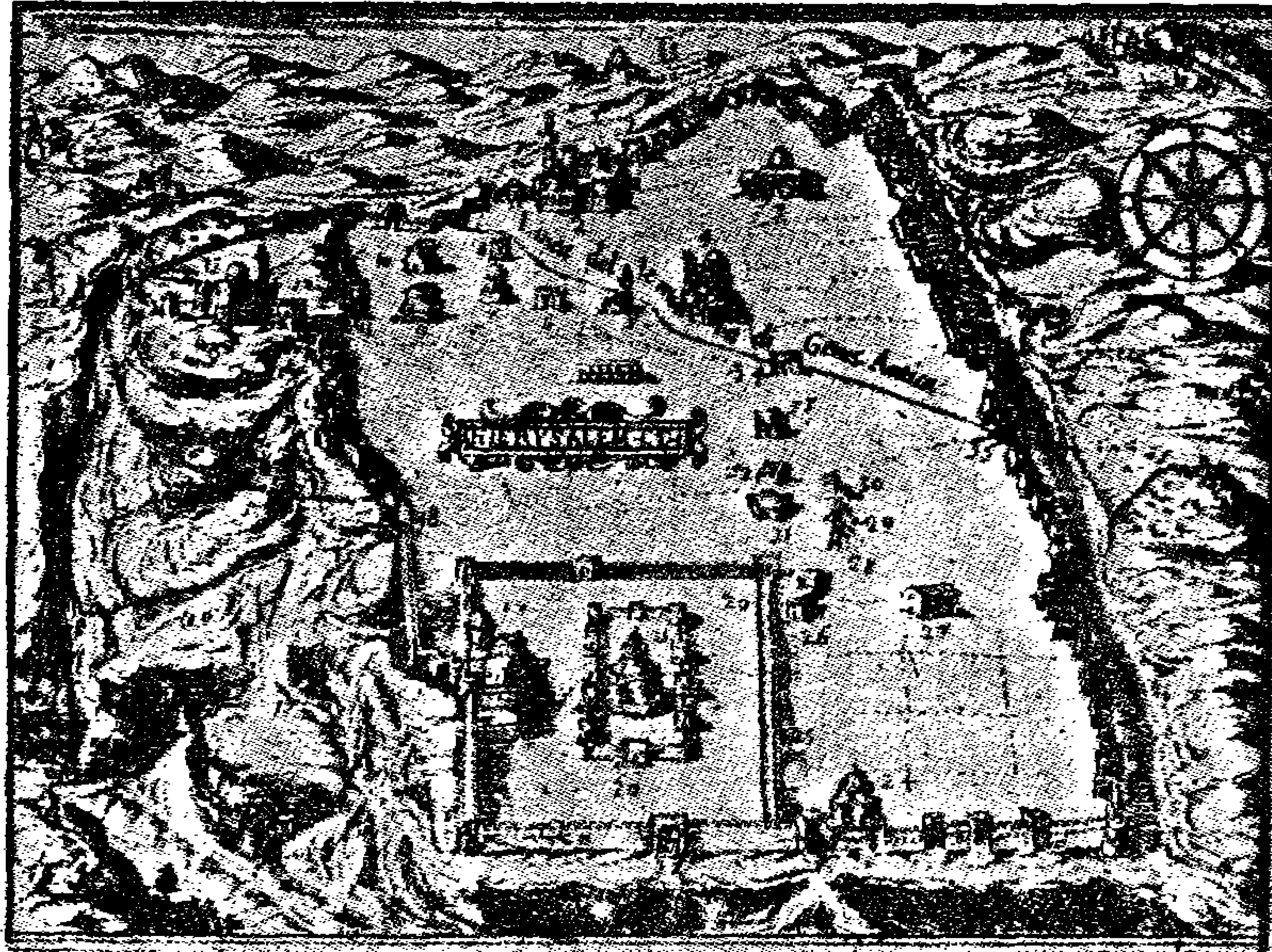
مؤقت . وافق ريموند على ما ينتهي اليه المجلس من قرار حول انطاكية ، اذا أقسم بوهمند بأن يصحب الحملة الصليبية الى بيت المقدس ، بينما أقسم بوهمند امام الاساقفة أنه لن يعوّق الحملة او ينزل بها شيئاً من الضرر في سبيل تحقيق مآرب شخصية . ومع أن مسألة انطاكيــة لم تتم تسويتها ، غير أنه تأكدت ملكية بوهمند للقلعة وثلاثة ارباع المدينة . أما ريموند فلا زال يسيطر على الجسر المنيع ، وقصر ياغي سيان ، اللذين عهد بهما الى وليم ايرمنجر ، ولا زال غير معروف حتى وقتذاك ، التاريخ الذي تحدد فيــه الرحيل الى بيت المقدس . غير أنــــه لشغل الجند والعساكر ، تقرر مهاجمة حصن معرة النعمان ، اذ تقضي الحكمة باخضاعة لتأمين الجناح الأيسر ، حين يسير الجيش صوب الجنوب ، الى فلسطين [١] .

مهاجمة معرة النعمان :

وفي ٢٣ نوفمبر ، ارتحل ريموند وكونت فلاندر الى الروج والباره . وفي ٢٧ نوفمبر وصلا الى اسوار معرة النعمان . على أن محاولتها للهجوم على المدينة في اليوم التالي باءت بالفشل . ولمـا وصل بوهمند بعساكره ، بعد ظهر ذلك اليوم ، وخـاب ايضاً الهجوم الثاني ، تقرر اجراء حصار محكم . وعلى الرغم من اكتمال حصار المدينة ، لم يحدث شيء من التقدم خلال اسبوعين ، فلا بـــد اذن من البحث في القرى عن الخشب اللازم لصناعة آلات الحصار . شحت الاقوات ، وسوف تتخلى فصائل من الجيش عن مواضعها في الحصار ، للبحث عن القمح والخضروات . ثم حدث آخر

---

(١) Raymond of Aguilers XIV. pp. 267 - 268 .
Gesta Francorum X. 3. pp. 168 - 170 .
Historia Belli Sacri p. 208 .



1	Porta di Giaffa.	13	Il S Cenacolo. (cor.della V.M	25	Probatica Piscina.
2	Castello de Pisani.	14	Doue i Giu.volsero pigliare il	26	Casa di Pilato.
3	Monast rio de'Catolici.	15	Doue S Piet o pianse.	27	Casa del Re Herode.
4	Chiesa del S Sepolcro.	16	Fonte di Siloe.	28	L'arco di Pilato.
5	Casa di Zebedeo.	17	Fonte di Maria Verg.	29	Chiesa del Spasmo.
6	Porta Ferrea.	18	Porta Sterquilina.	30	Simon Cireneo.
7	Casa di S Marco.	19	Chiesa della Prese. della V.M.	31	Casa dell'Epulone.
8	Casa di S. Thomaso.	20	Piazza del Tempio.	32	Casa del Farisco.
9	Chiesa di S.Iacomo.	21	Tempio di Salomone.	33	Casa di Veronica.
10	Casa d'Anna Pontef.	22	Porta Aurea.	34	Porta Iudicialis.
11	Porta Dauid.	23	Porta di S Stephano.	35	Porta Efraim.
12	Casa di Caipha Pontef.	24	Chiesa di S.Anna.	36	Basarre.

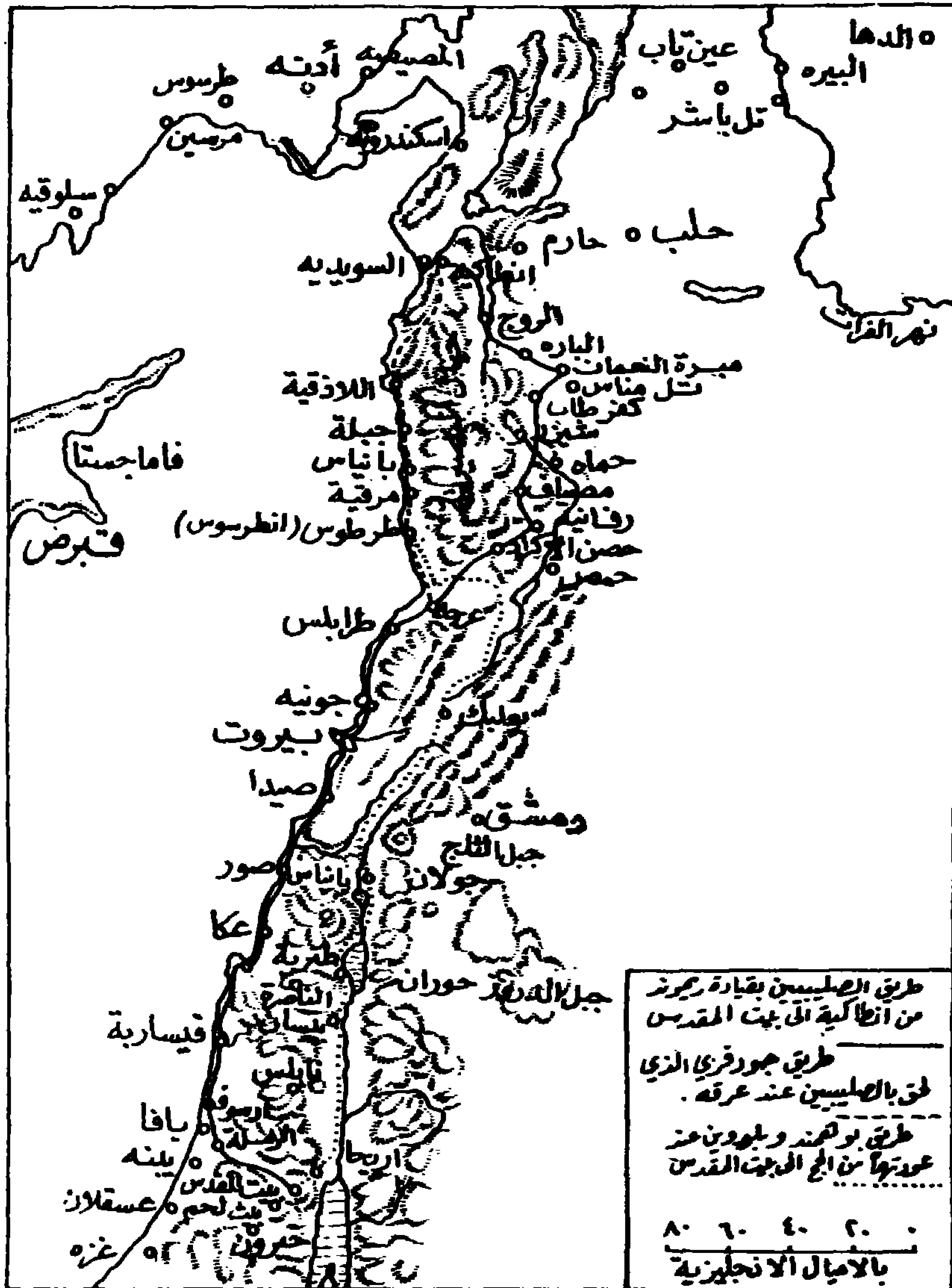
PLAN OF JERUSALEM

بيت المقدس

رسم بيت المقدس

الأرقام الفرنجيه ، الواردة بالرسم ، تشير الى المواضع الاتية :

١ - باب يافا ٢ - دار البيازنة ٣ - دير الكاثوليك (الفرنسيسكان) ٤ - كنيسة القيامة ٥ - بيت زبدى ٦ - الباب الحديدي ٧ - كنيسة القديس مرقص (حيث كانت داره) ٨ - كنيسة ، موضع دار توما الرسول ٩ - كنيسة يعقوب الرسول ١٠ - كنيسة الملائكة ، حيث كانت دار حنا رئيس الكهنة ١١ - باب داود ١٢ - كنيسة المخلص ، حيث كانت دار قيفا ١٣ - مسجد اقيم مكان العلية ١٤ - المكان الذي اخذ منه اليهود جسد العذراء ١٥ - المكان الذي بكى فيه بطرس ١٦ - عين السلوان ١٧ - ينبوع العذراء ١٨ - باب ستركويلين ١٩ - كنيسة دخول السيدة الى الهيكل (حولت الى مسجد) ٢٠ - رواق هيكل سليمان ٢١ - المسجد الاقصى ٢٢ - الباب الذهبي ٢٣ - باب القديس اسطفانوس ٢٤ - كنيسة القديسة حنة ٢٥ - بركة بيت حسدا ٢٦ - موضع قصر بيلاطس النبطي ٢٧ - مكان قصر هيرود ٢٨ - قنطرة بيلاطس ٢٩ - كنيسة العذراء المباركة ٣٠ - الموضع الذي التقى فيه المسيح بسمعان القيرواني ٣١ - بيت الفتى المتنعم ٣٢ - بيت الفريسي ٣٣ - بيت فيرونيكا التي مسحت وجه المسيح بمنديل ٣٤ - باب العدل ٣٥ - باب افرايم ٣٦ - السوق .



بلاد الشام زمن الحملة الصليبية الأولى

الامر ، في ١١ ديسمبر ، وبعد ان صرح بطرس بارتولوميو ان النصر وشيك الوقوع ، أن قلعة ضخمة تسير على عجلات ، صنعها من الخشب ولم مونبلييه ، جرى دفعها الى جانب احد ابراج المدينة . غير أن محاولة التسلق الى البرج عن طريق القلعة ، باءت بالفشل وارتدت خاسرة . ولكن الاحتماء بالقلعة يسّر نقب السور في احد جانبي البرج . وفي المساء تداعى السور ، واستطاع عدد من العساكر ان يشقوا طريقهم الى المدينة وأن يستبيحوها . وفي تلك الاثناء اثار نجاح ريموند حقد بوهمند ، فاشتد حرصه على ان يكرروا هنا الضربة في انطاكية ، بأن اعلن عن طريق مناد ، انه اذا استسلمت له المدينة ، فسوف يبقى على حياة كل المدافعين عنها ، الذين يلتمسون لهم ملاذاً في القاعة التي تقع الى الغرب من المدخل الرئيسي . وفي اثناء الليل توقف القتال نهائياً . ولما رأى كثير من السكان أن خطوط الدفاع عن المدينة انثلمت ، حصنوا دورهم وصهاريجهم ، غير انهم عرضوا ان يدفعوا ضريبة ، اذا تقرر الابقاء على حياتهم . ولجأ الآخرون الى الفرار الى القاعة التي اشار اليها بوهمند . غير أنه لما جرى استئناف القتال في صبيحة اليوم التالي ، لم يبق احد منهم على قيد الحياة . تدفق الصليبيون الى المدينة ، وأمعنوا في قتل كل من يصادفهم ، واقتحموا الدور ونهبوها وأحرقوها . أما اللاجئون الذين ارتكنوا الى حماية بوهمند ، فان الرجال منهم لقوا مصرعهم فعلاً ، بينما تقرر بيع النساء والاطفال رقيقاً .

وفي اثناء الحصار ، كاد التعاون يتعذر بين عساكر كل من ريموند وبوهمند ، على ان العداء لم يلبث ان نشب من جديد بين الفرنسيين والنرمان ، بعد ان استولى بوهمند بطريق الخيانة والغدر على الجانب الاكبر من الغنيمة ، على الرغم من ان جيش ريموند هو الذي استولى على البلد (معرة النعمان) . طالب ريموند بأن تكون له البلد ، وأراد

أن يجعلها خاضعة لأسقف الباره ، غير ان بوهمند لم يشأ ان تجلو قواته ما لم يتخل ريموند عن المنطقة التي يحتلها في انطاكية . والقيام بهجوم مضاد ، صار يعلن ارتيابه في صحة ما رواه بطرس بارثولوميو عن الرؤيات .

جيش ريموند يسير الى بيت المقدس :

وفي تلك الأثناء اشتد السخط بين الامراء ، اذ أن عساكر ريموند بصفة خاصة ، طالبوا بالمضي في المسير الى بيت المقدس . فحوالي يوم عيد الميلاد سنة ١٠٩٨ أشار العساكر على ريموند ، بأنه اذا دبر امر رحيل الجيش ،فسوف يعترفون به قائداً لكل الحملة الصليبية . أحس ريموند عندئذ بأنه لا يستطيع ان يرفض ذلك الطلب ، فلم تمض إلا ايام قليلة ، حتى غادر معرة النعمان ، قاصداً الروج ، بعد أن أعلن ان الحملة على وشك الرحيل الى فلسطين . وعندئذ عاد بوهمند الى انطاكية . أما معرة النعمان فتقرر جعلها في يد اسقف البارة [١] .

على أن ريموند أجل المسير برغم تصريحه وإعلانه . اذ أنه لم يطمئن الى أن يرتحل الى الجنوب ، ويترك انطاكية في يدي بوهمند . والراجح أن بوهمند ادرك أنه كلما ازداد تردد ريموند ، اشتدت حركة التمرد بين عساكره . واذ علم أن الامبراطور لن يقدم عبر آسيا الصغرى زمن شهور الشتاء ، اقترح إرجاء مسير الحملة الى عيد القيامة . ولكي يحسم الامور ،

---

(١) Raymond of Aguilers XIV. pp. 267 - 270 .
Gesta Francorum *X*. 33, pp. 172 - 178 .
Ibn al - Qalanisi : Damascus Chronicle pp. 46 - 47 .
Ibn al - Athir op. cit. pp. 196 - 197 .

دعا ريموند كل الامراء ليلتقوا به في الروج . وفي هـذا الموضع ، حاول ريموند أن يستميلهم بالمال لكي يقبلوا قيادته وزعامته . غير أن ما عرضه من الأموال يتفق فيما يبدو في المقدار مع ما لدى كل واحد من الأمراء من القوة . فاقترح ان يعطي جودفري عشرة آلاف سنت (صولد) ، وعرض هذا القدر ايضاً على روبرت النرمندي ، وجعـل لروبرت فلاندر ستة آلاف ، ولتانكرد خمسة آلاف . وعرض مبالغ تقل عن ذلك المقدار لصغار الامراء والزعماء . أما بوهمند فلم يعرض عليه شيئاً . اذ أن ريموند كان يأمل في أن يصير زعيم الحملة دون منازع ويتوطد مركزه ، وبذا يستطيع أن يوقف بوهمند عند حده ، غير أن عروضه لم تلق من قِبل الأمراء سوى البرود الشديد [١] .

وبينما كان الأمراء يتناقشون سوياً في الروج ، اتخـذ الجيش في معرة النعمان اجراء مباشراً ، اذ تعرض الجيش للهلاك جوعاً ، فقد نفدت كل المؤن في الجهات المجاورة ولم يعد ثمة فيما يبدو من حل سوى أكل لحوم البشر . على ان الترك اشتد تأثرهم بتماسك الجيش الصليبي في تلك الأحوال البالغة السوء ، على الرغم من « أننا لم نعرف شيئاً عن هذا إلا متأخراً ، فلم نستطع الافادة منه » على حد ما لحظه في أسى وحزن المؤرخ ريموند آجيل . اذ ان اسقف اورنج الذي اشتهر بمـا كان له من نفوذ على البروفنساليين ، لقي حتفه بسبب هذه المتاعب . ثم حدث آخر الامر ، وبرغم احتجاجات اسقف البارة ، أن عزم الرجال على أن يرغموا ريموند على المسير ، بأن دمروا

---

(١) Raymond of Aguilers XIV. p. 271 .
Gesta Francorum X. 34, p. 178 .

انظر الملحق رقم ٢ .

أسوار معرة النعمان . ولما سمع ريموند بهذا الخبر ، قفل راجعاً الى المدينة ، غير أنه ادرك أنه لم يعد ثمة تأجيل وإرجاء .

وفي ١٣ ينــاير ١٠٩٩ ، ارتحل ريموند بعساكره من معرة النعمان ، لمواصلة سير الحملة الصليبية . سار الكونت حافي القدمين ، على نحو ما يلائم مقدم الحجاج . ولإثبات أنه ليس في النية العودة الى المدينة ، لم يتركوها إلا بعد أن أشعلوا فيها النيران . وسار مع ريموند كل اتباعــه . فارتحل معه اسقف البارة ، وريموند بيليه صاحب تلنس ، بعــد أن غادرا مدينتيهما . أمــا الحامية التي خلفها ريموند بانطاكية بقيادة وليم ارمنجر ، فلم تصمد ازاء بوهمند ، ولم تلبث أن سارت في اثره . ومن رفاقه الامراء الذين صحبوه ، روبرت النرمندي ، الذي بادر باللحاق به ، وبصحبته تانكرد الذي لا شك ان بوهمند أراد منه أن يسهر على مصالح النرمان الايطاليين في الحملة الصليبية . أما جودفري امير اللورين ، وبلدوين فلاندر ، فإنهما ظلا يترددان ما يقرب من اسبوع ، حتى أرغمهما الرأي العــام على أن يقتفيا أثر ريموند . على أن بلدوين وبوهمند بقيا فيما فتحاه من البلاد [١] .

وعلى هذا النحو ، ما حدث بين الاميرين الكبيرين (ريموند وبوهمند) من نزاع لقي فيما يبدو حلاً . اذ ان ريموند اصبح لا ينازعه احــد في قيادة الحمله الصليبية ، على حين ان بوهمند صارت له ملكية انطاكية .

---

(١) Raymond of Aguilers XIV. p. 272.
Gesta Froncorum X. 34. p. 180.
كان مؤلف اعمال الفرنجة من بين الذين صحبوا جيش تانكرد.

الكتاب الخامس

ارض الميعـــاد

الفصل الاول

الطريق الى بيت المقدس

لما عبّر ستيفن بلوا ، عند كتابته الى زوجته من نيقيه ، عن خوفه من توقف الحملة الصليبية عند انطاكية ، لم يكن يدور بخلده الى أي مدى يطول التريث . انقضى خمسة عشر شهراً ، منـــذ أن بلغ الجيش أسوار انطاكية . وفي أثنـاء تلك الفترة ، حدثت تغييرات هامة في العـــالم الاسلامي . ذلـك ان الفاطميين في مصر ، شأنهم شأن البيزنطيين ، أفاقوا قبيل الحروب الصليبية من الصدمة الاولى التي نجمت عن هجوم الترك . وكانوا ، كالبيزنطيين ، يأملون في ان يفيدوا من الحملة الصليبية في إقرار انتعاشهم وافاقتهم . والواقع أن الحاكم الحقيقي لمصر كان الأفضل شاهنشاه ، الذي خلف أباه بـــدر الجمالي الأرمني الذي اعتنق الاسلام ، في الوزارة للخليفة الطفل المستعلى . لم تترتب نتيجة من النتـــائج على السفارة التي أنفذها الافضل الى المعسكر الصليبي بأنطاكية . وصحب رسله عند عودتهم الى القاهرة ، سفراء من الفرنج . غير أنه لم يلبث ان اتضح أنه لم يكن لديهم السلطة ، للتفـــاوض في عقد محـــالفة ، وأن الصليبيين لم تكن لديهم نية في مساعدة المصريين لاسترداد فلسطين ، بل عقـدوا العزم على

أن يسيروا الى بيت المقدس . ولذا عزم الافضل على ان يفيد من الحرب الناشبة في شمال الشام . فلم يكد الافضل يسمع بهزيمة كربوقا في انطاكية، ويدرك ان الترك في آسيا الصغرى لم يكونوا في وضع يمكنهم من مقاومة هجوم جديد ، حتى قام بغزو فلسطين . والمعروف ان اقليم فلسطين لا زال في ايدي ولدي ارتق ، سكمان وايلغازي ، اللذين اعترفا بسيادة دقاق امير دمشق . ولما زحف الافضل على فلسطين ، انسحب ابنا ارتق الى ما وراء اسوار بيت المقدس ، إذ علما ان دقاقاً ليس بوسعه ان يبادر بالنهوض لمساعدتهما ، غير انهما كانا يأملان في ان استحكامات بيت المقدس الضخمة ، وما اشتهر به عساكرهما من التركمان من البراعة والقدرة ، سوف يمكنهما من الصمود حتى تقدم النجدة . ومع أن جيش الافضل تجهز بأحدث آلات الحصار ، ومنها أربعون منجنيقاً ، فإن الاراتقة ظلوا يقاومون الحصار مدة اربعين يوماً ، ولم يرغمهم على الاستسلام إلا ما حدث آخر الامر من تدمير الاسوار . فسمح لهما الفاطميون بالانسحاب برجالهما الى دمشق ، ومنها توجها للحاق ببني عمومتهما في الاقليم الواقع حول دياربكر. وعندئذ احتل المصريون كل فلسطين ، ولم يحل الخريف حتى امدوا حدودهم الى ممر نهر الكلب على الساحل شمال بيروت . وفي نفس الوقت عمدوا الى اصلاح استحكامات بيت المقدس [1] .

امراء الشام :

ابتهجت ايضاً الاسرات العربية المحلية بشمال الشام ، لما حدث من تداعي قوة الترك ، وأظهرت الاستعداد لعقد اتفاقات مع الفرنج . بل إن

---

(١) Ibn al - Athir op. cit. pp. 197 - 198 .
انظر ما ورد في دائرة المعارف الاسلامية عن « القدس ، وسكان بن ارتق » .

امير حماه ، وهو صهر رضوان ، وأمير حمص ، اللذين أبليا في القتــال الى جانب كربوقا ، تخليا عن كل فكرة ترمي الى مقاومتهم . وما هو اكثر اهمية عند الصليبين ، ما كان من اتجاه اشهر امرتين عربيتين ، بني منقذ في شيزر ، وبني عمار في طرابلس . إذ تسيطر الاسرة الاولى على البـلاد الواقعة مباشرة امام الصليبيين ، والتي تمتد من نهر الاورنت الى الساحل ، بينما سيطرت الاسرة الثانية على الشريط الساحلي الممتد من وسط لبنــان الى الطرف الفاطمي . وتعتبر صداقة هــاتين الاسرتين ، او على الاقل حيادهما ، امراً جوهرياً اذا كان لا بد للصليبيين من الزحف جنوباً [1].

تقدم ريموند من معرة النعمان ، فسار الى كفرطاب التي تقع على مسافة ١٢ ميلاً الى الجنوب منها . وانتظر بهذا الموضع حتى ١٦ يناير ١٠٩٩ ، فأخذ يجمع المؤن اللازمة لعساكره ، ولحق به في هــذا الموضع تانكرد وروبرت النرمندي . والى هــذا المكان قدم ايضاً سفراء من قِبل امير شيزر ، يعرضون على الصليبيين تقديم الادلاء والمؤن بأسعار رخيصة ، اذا اجتازوا بلاده في هدوء ، ولم يتعرضوا له بأذى . وقبل ريموند هذا العرض . وفي ١٧ يناير قام أدلاء امير شيزر بإرشاد الجيش ، عبر نهر الاورنت بين شيزر وحماه . وصحبوه في وادي نهر ساروت . وحدث ان انساق الى الوادي المجاور لوادي ساروت كل مــا بالأقليم من قطعان الغنم والماشية ، حتى تكون بنجوة من اخطار الصليبيين ، غير ان احــد الأدلاء ، قاد بطريق الخطأ ، الصليبيين الى هذا الوادي . لم يكن الرعاة وسكان القرى المجاورة من القوة مــا يكفي لمنع الفرنج من اغتصاب الدواب والماشية . ورأى قائد القلعة التي تسيطر على الوادي انــه من الخير له أن يشتري من الفرنج سلامته وأمنه . كانت الغنيمة من الوفرة ،

---

(١) انظر ما ورد في دائرة المعارف الاسلامية عن « شيزر » و « ابن عمار » .

ما جعل عدداً كبيراً من الفرسان يبيعون ما فاض عن حاجتهم ، في شيزر وحماه ، مقابل الحصول على خيول ، فاشتروا نحو الف حصان ، وأجازت لهم السلطات العربية عن طيب خاطر ، ان يدخلوا الى مدنهم ، وأن يشتروا حاجاتهم [1] .

وبينا يجري جمع هذه المؤن ، اجتمع ريموند وقادته للتشاور في اي الطرق يصح ان يتخذه وقتذاك . أيد ريموند فكرة أن الجيش لا بد أن يسير غرباً ، فيجتاز جبال النصيرية كيا يصل سريعاً الى الساحل . والمعروف أن اللاذقية كانت وقتذاك بأيدي المسيحيين ، وأنه اذا التزم الساحل في مسيره ، فسوف يكون على اتصال مع انطاكية ، ويكون بوسعه أن يحصل على المؤن من السلطات البيزنطية في قبرص ، نظراً لما يربطه بها من علاقات ودية . غير ان تانكرد اشار الى ان الاطمئنان الى اتخاذ طريق الساحل ، يتطلب الاستيلاء على كل الحصون الكبيرة الواقعة على الطريق . والواضح أن القوة الضاربة للجيش الصليبي لا تتجاوز وقتذاك الف فارس ، وخمسة آلاف من الرجالة . فكيف تستطيع هذه القوة الاشتراك في حرب الحصار ؟ فكان لزاماً على الجيش ، على حد قوله ، أن يتخذ في سيره الى بيت المقدس طريقاً مستقيماً ، فيتجنب بذلك ضرورة الاستيلاء على الحصون الواقعة على الساحل . فاذا استطاعوا الاستيلاء على بيت المقدس ، فان اخبار الاستيلاء عليها سوف لا تؤدي فحسب الى ان يقدم من اوربا مزيد من العساكر ، بل ان مدناً ، امثال طرابلس ، وصور ، وعكا ، سوف لا تحاول مقاومتهم . أما الاعتراض على رأيه فقام على أن كل الاقليم الواقع بين لبنان والصحراء ،

---

(١) Raymond of Aguilers XIV. pp. 272 - 273 .
Gesta Francorum X. 34. pp. 180 - 182 .

انما يحكمه دقاق امير دمشق ، الذي يختلف عن امراء العرب ، في أنه لا شك سوف يقاوم تقدم الصليبيين . وترتب على ذلك ، أن تقرر أن يلتزم الجيش بالمسير ازاء الساحل الى الجنوب ، بعد أن يجتاز سهل البقيعة ، الواقع بين جبال النصيرية وجبال لبنان ، الذي يعتبر ايسر طريق يصل بين سوريا والساحل ، وتقرر ايضاً ألا يضيعوا إلا اقل وقت ، عند محاولتهم إخضاع حصون العدو [1] .

الصليبيون في حصن الاكراد :

وفي ٢٢ يناير سنة ١٠٩٩ ، وصل الصليبيون الى مدينة مصياف ، التي سارع اميرها الى ان يعقد معهم معاهدة . ومن مصياف انحرفوا جهة جنوب الجنوب الشرقي ، ليتجنبوا جبل حلوه . وفي اليوم التالي ، وصلوا الى مدينة رفانيه ، فاكتشفوا ان كل سكانها هجروها ، غير انها زخرت بالمؤن من كل نوع . مكثوا في رفانية ثلاثة ايام ، ثم هبطوا الى سهل البقيعة ، ويتحكم في هذا السهل حصن الأكراد المشهور بضخامته ، والذي تم تشييده على المرتفع الذي تقع به الآن خرائب حصن الاكراد . ساق السكان كل قطعانهم ، كيما تتخذ لها مأوى في داخل جدران الحصن . على ان الصليبيين قرروا الاستيلاء على الحصن ، لا لأغراض حربية ، بل من اجل تموين الجيش . ففي ٢٨ يناير هاجموا استحكاماته . غير أن المدافعين عنه ، الذين وقفوا على طباع الصليبيين وخبروا تصرفاتهم ، بادروا الى فتح احد ابواب الحصن ، وأخرجوا منه بعض الماشية والدواب . وإذ اشتد حرص الفرنج على أن يحوزوا كل هذه الغنيمة ، تفرقوا لجمع ما تشتت منها . وشن المدافعون هجوماً من القلعة ، لم يؤد فحسب الى

---

(١) Raymond of Aguilers XIV. p. 273 .

منع الفرنج من جمع شملهم بل كادوا يظفرون بأسر الكونت ريموند نفسه ، بعد ان تخلى عنه حرسه . وفي اليوم التالي أعد الفرنج هجوماً عنيفاً ، بعد ان احسوا بالخجل ، لأنهم وقعوا في مكائد العدو ، غير انهم حينما بلغوا الاسوار ، اكتشفوا أنه تم الجلاء ليلاً عن القلعة . على ان القلعة لا زالت تحتوي على غنائم وفيرة ، فأقام بها الجيش ثلاثة اسابيع ، دارت أثناءها بين الزعماء مناقشات حول الخطط الحربية ، وتقرر الاحتفال بداخل القلعة بعيد الفسل [١] .

وبينما كان ريموند في حصن الاكراد ، قدمت اليه رسل من قبل امير حماه ، فبذلت له الهدايا ، ووعدت بألا يتعرض رجاله للاعتداء من قبلهم . ثم تلاهم رسل من قبل امير طرابلس . وهذا الامير ، وهو جلال الملك ابو الحسن (علي) ، ينتمي الى امرة بني عمار ، وهي اسرة فاقت شهرتها في العلم كل ما كان لها من صفات حربية ، وقد استطاع أن يحافظ على استقلاله بما لجأ اليه من الإيقاع بين السلاجقة والفاطميين . ونظراً لتداعي قوة الترك ، أبدى امير طرابلس استعداده لأن يشجع الفرنج على الفاطميين الذين أفاقوا ونهضوا . وتقررت دعوة ريموند بأن يبعث من قبله مندوبين الى طرابلس ، للتشاور في التدابير اللازمة لمرور الحملة الصليبيه ، وليحملوا معهم اعلام تولوز ، التي سوف يرفعها الامير على المدينة (طرابلس) . وما اشتهرت به طرابلس والجهات المجاورة من الرخاء ، كان له أثر كبير عند السفراء الفرنج . فلما عادوا الى معسكرهم ، نصحوا ريموند بأنه اذا قام جيشه بمظاهرة عسكرية ازاء أحد حصون الامارة ، فمن المحقق أن امير طرابلس سوف يؤدي له مبلغاً كبيراً من المال ، ليشتري به الامان والسلام لسائر ممتلكاته . ولما كان ريموند في

---

(١) Raymond of Aguilers XIV. pp. 273 - 275.
Gesta Francorum X. 34. p. 182.

أشد الحاجة الى المال ، لم يلبث ان اخذ بنصيحتهم ، فأمر جيشه بمهاجمة مدينة عرقة ، الواقعة على مسافة ١٥ ميلاً من طرابلس ، والتي ينفرج عندهـا سهل البقيعة تجاه الساحل . وفي ١٤ فبراير وصل الجيش الى اسوار عرقة (١) .

حصار عرقة :

وفي تلك الأثناء ، ولما اشتهر به ريموند من الحرص على توطيد الصلات بالحامية في اللاذقيـــة ، والاتصال بالبحر ، حرض ريموند بيليه ، وريموند فيكونت تورين على أن يقوما بهجوم مفاجيء على انطرسوس ، المينـــاء الوحيد الصالح لرسو السفن ، بين اللاذقية وطرابلس . فأسرع صوب الغرب ، ريموند بيليه وريموند تورين بقواتهما قليلة العدد، فبلغا المدينة (انطرسوس)، عند حلول الليل في ١٦ فبراير . فأوقدا سلسلة من معسكرات النار حول الأسوار ، كيما يوهما الناس أن لديهما من القوة ما يفوق في العدد ما يخضع لهما فعـــلاً ، ونجحت الحيلة . إذ أن حاكم انطرسوس الذي يخضع لأمير طرابلس ، بلغ به الخوف أنه انسحب ليلاً مع حاميته ، واتخذوا طريق البحر . وفي صبيحة اليوم التالي ، فتحت المدينة ابوابها للفرنج . ولـما سمع حاكم مرقية الواقعة على مسافة عشرة اميال الى شمال المدينة بخبر فتحها ، بادر بالاعتراف بسيادة ريموند . وتتصل مرقيـــة في سهولة ويسر بحراً بانطاكية وقبرص واوربا (٢) .

---

(١) Raymond of Aguilers *X*IV. *X*V. p. 275 .
Gesta Fraucorum *X*. 34. p. 184 .

(٢) Raymond of Aguilers *X*V. p. 276 .
Gesta Francorum *X*. 34. pp. 184 - 186 .

أثار هذا النجاح الحقد بين الصليبيين الذين لا زالوا بأنطاكية ، وحملهم على أن يقرروا المسير جنوباً للحاق بريموند . وحوالي نهاية فبراير ، سار من انطاكية الى اللاذقية جودفري أمير اللورين ، وبوهمند وروبرت فلاندر ، ثم قفل بوهمند راجعاً الى انطاكية . اذ ادرك أنه من الخير أن يوطد مركزه في انطاكية ، وذلـك خشية أن يتوجه الامبراطور في الربيع الى سوريا . وتحرك جودفري وروبرت لحصار جبلة ، الميناء البحري الصغير. وبينما كانا يقيمان بجبلة ، قدم اليهما اسقف البارة من قبل ريموند ، يطلب منهما اللحاق به في عرقة [١] .

على أن حصار عرقة لم يجر على ما يرام . اذ أن المدينة كانت منيعة الاستحكامات ، شديدة الاستبسال في الدفاع ، ولم يكن لدى ريموند جيش يكفي لتطويقها من جميع الجهات . وما قام به تانكرد من التحذير بأنه ليس ثمة ما يدعو الجيش لأن يحاول مهاجمة الحصون ، كان له ما يبرره ؛ غير أنه متى شرع ريموند في الحصار ، فليس بوسعه أن يتخلى عنه ، حتى لا يثير عداء امير طرابلس ، بعـد ان يكتشف ضعفه . والراجح ان العساكر لم يبذلوا مجهوداً كبيراً ، فالحيـاة كانت رغدة في المعسكر . اشتهرت الاراضي المجاورة بخصوبة تربتها ، فأخذت تتدفق عليهم المؤن عن طريق انطرسوس . وطرب العساكر للإخلاد الى الراحة فترة من الزمن ، بعد أن عانوا ما عانوا من المشاق . وفي أوائل مارس ، ترددت شائعـة أن جيشاً اسلامياً اخـذ يحتشد لنجدة عرقة وتخليصها ، ويتولى قيادته خليفة بغداد نفسه . غير ان الشائعة كانت كاذبة ، ومع ذلك جزع ريموند لهـا ، فبادر باستدعاء جودفري وروبرت فلاندر . ولمـا تسلم جودفري

---

(١) Gesta Francorum *X*. 35. p. 186 .
Albert of Aix V. 33. p. 453 .

وروبرت الرسالة ، عقـــدا صلحاً مع امير جبلة الذي قبل سيادتها ، ثم أسرعا بالمسير صوب الجنوب الى عرقة . واحتفلا بوصولهما بما قاما به من هجوم على أرباض طرابلس ، وبما شناه من غارات عديدة لاستياق ما في البقيعة من الدواب من جميـع الأنواع ، بما فيها الابل[١] .

ولم يلبث ريموند ان اسف لقدوم زميليه ، اذ أنــه ظل شهرين زعيم الحملة الصليبية دون منازع ، بل ان تانكرد نفسه اعترف بسيادته مقابل الحصول على خمسة آلاف سنت . غير أنه صار لزاماً عليه الآن ان يستنجد بمنافسيه . ولما لم يأخــذ ريموند بنصيحة تانكرد ، لم يسعه إلا ان يتحول الى معسـكر جودفري ، فأعلن بأن ريموند لم ينقده مالاً كافياً . على ان الروبرتين (روبرت ترمنديا وروبرت فلاندر) لم يميلا الى قبول سيادة ريموند ، اذ أنه أثار الكراهية بمحاولته فرض حقوقه ، فأخذت المنازعات تنشب بين الجانبين . واذ تمسك كل قائــد برأيه ، ولم يتنازل عنه ، اتبعه رجال جيشه ، ولم يتحقق التعاون بين كل جيش وآخر .

ازدادت المشكلة سوء ، عند وصول رسائل من الامبراطور البيزنطي في أوائل ابريل سنة ١٠٩٩ أخطر فيهـا الكسيوس الصليبيين ، بأنه تجهز للمسير الى سوريا . فاذا انتظروه حتى نهاية يونيه ، فسوف يكون عندهم في عيد القديس يوحنا ، وسوف يتولى قيادتهم الى فلسطين . مال ريموند الى أن يقبل هذا العرض . وباعتباره حليفاً صادقاً للامبراطور ، يصير في وسعه أن يعتمد على مساندة الامبراطور له في إعادة فرض سيادته وسيطرته على جيش الفرنج . وعلى الرغم من أن من رجاله عــدداً كبيراً ، من أمثال

---

(١) Gesta Francorum loc. cit.
Raymond of Aguilers XVI. pp. 277 - 278 .

ريمونــد اجيل ، يكرهون البيزنطيين ، فانهم كانوا يشعرون بأن قدوم الامبراطور سوف يمــد الحملة الصليبية على الاقل بقــائد يجمع الأمراء الصليبيون على الاعتراف بـه . غير ان معظم الجيش استبد بـه القلق للتحرك الى فلسطين . ومــا من احد من الأمراء احب أن يجـد نفسه خاضعاً لسيادة الامبراطور . وإزاء هذا الرأي العام القوي ، لا تستطيع سياسة ريمونـد أن تسود . والراجح أن الكسيوس لم يتوقع مطلقاً أن الصليبيين لن ينتظروه . وإذ امتعض لسلوكهم في انطاكية ، قرر فعلاً أن يسلك طريق الحياد . على أن هذا لم يعتبر عند الدبلوماسي البيزنطي اتجاهاً سلبياً ، بل يرمي من ورائه الى اقامة علاقات مع الجانبين ، كيما يفيد من أي الجانبين يحوز النصر . كان الكسيوس على اتصال بالمصريين، الذين فيما يبدو كتبوا اليــه حينما تقدمت الحملة الصليبية نحو بلادهم ، يسألونه ما اذا كانت الحملة تعمل لصالحه . فرد الكسيوس ، بأنه ينكر الحركة الصليبية ، وتوافر له من الاسباب مــا جعله يفعل ذلك . إذ أن تصرفات بوهمند علـّمته أنـه لا يستطيع أن يركن الى اخلاص الفرنج وولائهم ، كما أنه ليس له مصلحة في فلسطين؛ انما يقع في خارج هذه البلاد ما كان يأمل أن يسترده للأمبراطورية . فالالتزام الوحيد الذي يقيـده بها ، ما كان يربطه بالمسيحيين الارثوذكس، الذين يعتبر نفسه حامياً لهم . ولعـله أدرك أنه لخير للمسيحيين بفلسطين أن ينعموا بالتسامح في ظل الفاطميين لا في ظل الفرنج ، الذين اظهروا فعــلاً في انطاكية عداء صريحاً نحو المسيحيين الوطنيين . وفي نفس الوقت لم يشأ الكسيوس أن يقطع صلته بالحملة الصليبية ، لما يصح أن يكون لها من نفع للأمبراطورية . على أن مراسلاته مع مصر ، وقعت فيما بعد في ايدي الصليبيين ، الذين راعهم فعلاً ما وقع بأيديهم من دليل على خيانة الامبراطور لهم، على حين أن خيانتهم له ، اعتبروها عادلة ، ولها ما يبررها ، إذ اعتبروه مسئولاً عما حدث لسفرائهم الذين بعثوا بهم من انطاكية الى القاهرة من تعويق لمدة طويلة.

وعاد السفراء بعد ايام قليلة الى الجيش في عرقة ، يحملون ما عرضه الفاطميون لاتمام التسوية . فاذا عدل الصليبيون عن محاولة شق طريق لهم في الاراضي الفاطمية ، أجاز الفاطميون لحجاجهم أن يسيروا أحراراً الى الأماكن المقدسة ، وسوف يجري بذل كل شيء لتيسير الحج . على أنه تقرر في الحال رفض الاقتراح (١) .

مسألة الحربة المقدسة :

وعلى الرغم من حرص سائر الأمراء على مواصلة السير ، لم يشأ ريموند أن يترك عرقة دون أن يستولي عليها . ولإثارة الحماس ، ولحسم الأمور ، أعلن بطرس بارثولوميو ، أنه حدث في ٥ ابريل سنة ١٠٩٩ ، أن ظهر له المسيح والقديس بطرس والقديس اندرياس ، وصرحوا بأنه لا بد من القيام بهجوم على عرقة . غير أن معظم الجيش ازداد تبرماً من رؤيات بارثولوميو ، التي اعتبروها تدبيراً سياسياً من قِبل الكونت ريموند . اذ أن شطراً من فرنسيي الشمال ، بقيادة قسيس روبرت النرمندي ، واسمه ارنولف روز ، أعلنوا وقتذاك صراحة عدم اعتقادهم في حقيقة الحربة المقدسة ، بل انهم ارتابوا فيها ، وأشاروا الى أن ادهيمر اسقف لى بويه لم يقتنع بها مطلقاً . على أن ستيفن فالنس ذكّر الجيش برؤيته في انطاكية ، وروى ريموند أجيل كيف أنه لثم الحربة بينما كانت لا زالت مطمورة في التراب . وأشار قسيس آخر ، اسمه بطرس ديزيديريوس ، الى أن ادهيمر ظهر له بعد وفاته ، ووصف نار جهنم التي قادته اليها شكوكه . أما ايفيرارد ، وهو قسيس آخر ، فقال إنه بينما كان يزور طرابلس لأمر من الأمور ،

---

(١) Raymond of Aguilers XVI. p. 277 .
William of Tyre VII. 19. vol. I. pt. 1. pp. 305 - 306 .

أثناء محاصرة الترك لأنطاكية ، أخبره احـد السوريين من انطاكيه برؤيا تحدث فيها القديس مرقص عن الحربة . وذكر أسقف أبت ، الذي يعتبر من المتشككين ، أن رؤية من الرؤيات جعلته يغير رأيه ، وأعلن برتراند لى بويه ، من حاشية ادهيمر نفسه ، أن ظهر له في الرؤية ، الاسقف ادهيمر ، وحامل لوائه ، وأقرّ بأن الحربة حقيقية . ولم يسع ارنولف إلا أن يعترف باقتناعه بأمر الحربة المقدسة ، بعد أن واجهته الأدلة القوية . غير أن اصدقاءه ظلوا يثيرون الشك في كل القصة ، حتى أن بطرس بارثولوميو استبد به الغضب آخر الأمر ، فطلب أن يدافع عن نفسه بالالتجاء الى اختبار النار. ومهما يكن من امر صدق الرواية ، فانه لا زال حتى وقتذاك على اعتقاده الراسخ في أن الله يوحي اليه .

جرى اختبار النار في يوم الجمعة الحزينة ، ٨ أبريل سنة ١٠٩٩ ، إذ أن كومتين من قطع الخشب ، باركها الأساقفة ، انتصبتا في درب ضيق ، واشتعلت بها النار . وبادر بطرس بارثولوميو ، الذي لم يرتد إلا قميصاً ، فحمل الحربة بيده ، وقفز في اللهب . وخرج بعـد أن تعرض للحريق ، وكاد يقع في النار ، لولا أن تداركه ريموند بيليه فأمسك به . وظل اثني عشر يوماً يقاسي آلاماً شديدة ، ثم توفى متأثراً بجراحه . وترتب على هذا الاختبار ، أن الحربة انتقص قدرها جميع الصليبيين ما عدا البروفنساليين ، الذين أقروا أن بطرس اجتاز اللهب بسلام ، دون أن يلحقه أذى ، غير أنه دفعه الى النار مرة اخرى ، الجمهور الذي اشتد حماسه ، وزاد حرصه على أن يلمس قميصه المقدس . وظل الكونت ريموند يحفظ الحربـة في كنيسته ويوليها كل مظاهر الاحترام [1] .

---

(١) Raymond of Aguilers XVII - XVIII. pp. 279 - 288 .
يساند بطرس بارثولوميو .
Fulcher of Chartres I. XVIII. 4 - 6. pp. 238 - 241 .
= Albert of Aix V. 13 p. 452 .

ومكث الجيش نحو شهر ، خارج عرقة ، التي ظل ريموند يحاصرها ، وكلفه القتال عليها مصرع عدد كبير من النـاس ، منهم انسلم ريبمونت ، الذي انطوت رسائله الى سيده ، رئيس اساقفـة ريمس ، على وصف رائع للحملة الصليبية [١] . وفي ١٣ مايو استجاب ريموند لإلحاح زملائه ، فأمر وقد اعزورقت عينـاه بالدموع ، بازالة المعسكر الذي اقامه ، وتحرك كل الجيش الى طرابلس . وفي طرابلس دارت مناقشات جديدة حول الطريق الذي يصح اتخاذه . أخبر السريان ريموند ، أن ثمة طريق سهل يتجه رأساً الى دمشق ، غير ان المـاء به شحيح برغم توافر المؤن . أما الطريق عبر جبال لبنان فغزير المياه ، غير أنه يتعذر على دواب الحمل أن تسلكه . ويعتبر الطريق الساحلي ، الطريق الثالث الذي يصح اتخاذه ، غير أن بـه من المواضع العديدة ما يصح ان يعترض الجيش فيها ، جماعات من العدو . على أن النبوءات المحلية اعلنت ان الصليبيين سوف يسيرون ازاء الساحل . هذا هو الطريق الذي وقع عليه الاختيار ، لا لشهرته المتعلقة بالنبوءات ، بل لما يتيحه من الاتصال بالاساطيل الانجليزية والجنوية ، التي اخذت وقتذاك ترتاد مياه شرق البحر المتوسط [٢] .

= Radulph of Caen. CVIII. p. 682 .

وعلى الرغم من ارتياب كل من فولشر والبرت في امر الحربة ، فانهما لم يقطعا فيـــه برأي . وأعلن رادولف عداءه الصريح لبطرس ، ولم يورد مؤلف اعمال الحجاج هذا الحادث اطلاقاً .

(١) Raymond of Aguilers XVI. pp. 276 - 277 .
Gesta Francorum X. 35. p. 188 .
Fulcher of Chartres I. XXV. p. 270 .

اشار فولشر الى ان انسلم لقى مصرعه بعد ان جرى قذفه بحجر .

(٢) Raymond of Aguilers XVIII. pp. 288 , 290 - 291 .

الصليبيون امام طرابلس :

ولما اقترب الصليبيون ، بادر امير طرابلس بأن يلتمس منهم الأمان لعاصمته وضواحيها ، فأطلق سراح نحو ثلثمائة من الأسرى المسيحيين الذين كانوا بالمدينة ، ودفع لهم تعويضاً قدره ١٥ الف دينار ، و ١٥ من الجياد الفائقة ، وأمد الجيش كله بدواب الحمل ، ورووا عنه ايضاً أنه عرض ان يعتنق المسيحية ، لو أنزل الفرنج الهزيمة بالفاطميين (١) .

وفي يوم الاثنين ١٦ مايو ، غادر الصليبيون طرابلس ، يصحبهم الأدلاء ، الذين انفذهم الامير ، فتولوا ارشادهم في سلام على امتداد الطريق المحفوف بالخطر ، والذي يدور حول رأس شقا . وبعد ان اجتازوا آمنين بلدي الامير ، البترون وجبيل ، وصلوا في ١٩ مايو الى الحدود الفاطمية على نهر الكلب . لم يكن للفاطميين عساكر في ممتلكاتهم الشمالية ، باستثناء ما جعلوه من الحاميات بالمدن الواقعة على الساحل ، غير أنهم حازوا اسطولاً ضخماً يعتبر عاملاً إضافياً في الدفاع عن هذه المدن . وبذا لم يكن للصليبيين ان يأملوا في الاستيلاء على ما يصادفهم في طريقهم من الموانىء ، برغم أنهم لم يلقوا مقاومة على الطريق البري . ولم يعد بوسع الاسطول المسيحي أن يظل على اتصال بهم . على ان خوفهم من نفاذ المؤن ، أجبرهم منذئذ على أن يبذلوا كل ما في وسعهم من السرعة لبلوغ هدفهم الأخير .

ولما اقتربوا من بيروت ، بادر السكان المحليون الذين خافوا ان يتعرض للدمار كل ما يحيط بالمدينة من الحدائق والبساتين ، فبذلوا للصليبيين الهدايا وسمحوا لهم باجتياز بلادهم ، بشرط ألا ينزلوا الضرر بالاشجار المثمرة

---

(١) Ibid p. 291 .
Gesta Francornm X. 35 - 36. pp. 188 - 190 .

والكروم والمحصولات . وقبل أمراء الصليبيين الشروط ، فأرشدوا الجيش في الطريق الى صيدا ، فبلغوها في ٢٠ مايو . على ان رجال حامية صيدا اشتهروا بالصلابة ، فقاموا بهجوم عنيف على الصليبيين ، بينما كانوا معسكرين على شاطىء نهر عوالي . غير ان الهجوم جرى ردّه ، ولجأ الصليبيون الى نهب الحدائق في الضواحي ، ثم تحركوا بكل ما في وسعهم من سرعة الى الجهات القريبة من صور ، حيث انتظروا يومين ، ريثما يلحق بهم بلدوين لى بور ، وجماعة من الفرسان من انطاكية والرها . وما توافر بالجهات المجاورة من الغدران والنبات ، جعل منها موضعاً جميلاً يصح النزول به . بقيت حامية صور ، خلف الاسوار ولم تناجزهم العداء . غادر الصليبيون صور في ٢٣ مايو ، فاجتاز الجيش ، دون مشقة الممر المعروف باسم مرتقى صور ، ومرتفعات الناعورة ، فبلغ ظاهر عكا في ٢٤ مايو . واذ احتذى حاكم عكا ، نهج امير بيروت ، بادر بالحصول على الامان للضياع الخصيبة الواقعة حول المدينة ، بما قدمه من هدايا من المؤن الوفيرة . وسار الجيش من عكا قاصداً حيفا ، والتزم الساحل من سفح جبل الكرمل حتى قيسارية ، وأمضى في ذلك اربعة ايام ، ابتداء من ٢٦ مايو حتى ٣٠ مايو ، حتى يكتمل الاحتفال في طمأنينة بعيد احد العنصرة ، وبينما كانوا يعسكرون في قيسارية ، لقيت حمامة مصرعها من صقر انقض عليها ، فهوت بالقرب من خيمة اسقف آبت ، كانت من حمام الزاجل وتحمل رسالة من امير عكا ، يستثير فيها المسلمين بفلسطين ضد الغزاة (١) .

---

(١) Raymond of Aguilers XVIII - XIX. p. 291.
Gesta Francorum X. 36, pp. 190-192.
Fulcher of Chartres I. XXV. 10 - 12. pp. 271 - 276 .

الاستيلاء على الرملة واحتلالها :

وعنـــد استئناف السير ، ساروا إزاء الساحل حتى أرسوف ، ومنها توجه الجيش الى الداخل ، فوصل الى الرملة في ٣ يونيه ١٠٩٩ . وتختلف الرملة عن سائر مدن فلسطين ، في أنهـا مدينة إسلامية . كانت حاضرة إدارية لاقليم فلسطين قبل إغارة الترك ، غير أنهـــا تداعت وانهارت في السنوات الأخيرة . وارتاع السكان عند اقتراب الصليبيين ، اذ ان الحامية كانت قليلة العدد ، وأنها من البعد عن البحر ، ما يجعل مساعدة الاسطول المصري لهم متعذرة . فهربوا من دورهم ، ويمموا نحو الجنوب الغربي ، بعد ان دمروا في شيء من التحدي ، كنيسة القديس جورج الكبيرة ، الواقعة في اللد ، التي لا تبعد عن الرملة إلا ميلاً واحداً . ولمـا ركب في مقدمة الجيش الصليبي روبرت فلاندر وجاستون بيرن ، لاحظا أن الطرقات مهجورة ، والدور خالية من السكان .

اشتد حماس الصليبيين ، لاحتلال مدينة اسلامية تقع في جوف الارض المقدسة ، فأقسموا على ان ينهضوا لعمارة كنيسة القديس جورج ، وأن يعمّروا الرملة واللد ، وأن يجعلوا منها امارة تنتمي له (القديس جورج) ، وأن يقيموا ابروشية جديدة يتولاها اسقف اللد . وتقرر تنصيب احد القسس النرمان ، واسمه روبرت روان ، في اسقفية اللد ، على أن ذلك ليس معناه طرد الاسقف اليوناني ليحل مكانه اسقف لاتيني ، مثلما حدث في الباره ، انمـا الغرض هو انشاء اسقفية في بلاد اسلامية تم فتحها . ومـــا حدث من تعيين اسقف دل على ان الارض المفتوحة لا بد من بذلها للكنيسة . صار روبرت مسئولاً عن الرملة ، وتقوم حامية صغيرة بالدفاع عنها . وفي تلك الاثناء اخذ الامراء يتناقشون فيما يعملونه بعدئذ . إذ رأى بعضهم أنه من الحماقة مهاجمة بيت المقدس ، في ذروة قيظ الصيف ، ورأوا أنه من الخير ان يتقدموا لمهاجمة العدو الحقيقي ، وهو مصر ، غير أن النصيحـة

لقيت الرفض بعد مناقشة قصيرة ، وتقرر مواصلة السير في ٦ يونيه الى بيت المقدس (١) .

ومن الرملة ، اتخذ الجيش الطريق القديم ، الذي يدور حول تلال يهوذا حتى شمال الدرب الحالي ، وعند اجتيازه قرية عمواس ، قدم الى الامراء ، الرسل من مدينة بيت لحم ، التي التمس سكانها ، وكلهم مسيحيون ، من الصليبيين أن يخلصوهم من ظلم المسلمين . فأسرع تانكرد وبلدوين لى بور ، وركبا مع طائفة من الفرسان ، فاجتازوا التلال الى بيت لحم ، فبلغوها في منتصف الليل . وجزع السكان اول الامر ، لاعتقادهم ان هؤلاء ليسوا إلا شطراً من الجيش المصري ، قَدِموا مدداً للمدافعين عن بيت المقدس . ولما بزغ الفجر ، وتبين لهم ان هؤلاء مسيحيون ، خرج كل سكان المدينة في موكب ، يحملون المخلفات الدينية والصلبان من كنيسة المهد ، للترحيب بمنقذيهم ولثم ايديهم (٢) .

وبينما كان يجري استخلاص مسقط رأس المسيح ، وإعادته الى حكم المسيحيين . كان الجيش الصليبي الرئيسي يشق طريقه طول النهار وأثناء الليل ، في اتجاه بيت المقدس . وزاد في حماسهم ما حدث من خسوف القمر ، الذي اعتبروه خسوفاً للهلال . وفي صبيحة اليوم التالي ، لحق بالجيش الرئيسي مائة من فرسان تانكرد قادمين من بيت لحم .

---

(١) Raymond of Aguilers XIX. pp. 291 - 292.
Gesta Francorum loc. cit.
William of Tyre VII. 22. vol. I: pt. I. p. 313.
(وهو الذي اورد اسم الاسقف) .

(٢) Getsa Francorum *X*. 37. p. 194.
Raymond of Aguilers XX. p. 292.
Albert of Aix V. 45, p. 463.

وفي الضحى بلغ الصليبيون قمة الطريق ، عند مسجد النبي صمويل ، بأعلى التل الذي يسميه الحجاج المنتجع Montjoie ، وتراءت لهم على مسافة بيت المقدس بأسوارها وأبراجها عالية . وفي مساء يوم الثلاثاء ٧ يوليه ، ١٠٩٩ ، عسكر الجيش المسيحي امام المدينة المقدسة (١) .

(١) Gesta Francorum X. 37, p. 194.
Raymond of Aguilers XX. p. 292.
Albert of Aix V. 45, p. 463.

الفصل الثاني

سقوط بيت المقدس

تعتبر مدينـة بيت المقدس من اضخم المعاقل والحصون في عـالم العصور الوسطى ، فمنذ زمن اليبوسيين ، اشتهر موقعها بالمتانة والقوة ، وتناولته يد الاصلاح عبر القرون ، فالأسوار التي عسكر الصليبيون في ظلها ، جرت على نفس الرسم الذي سار عليه مـا شيده من اسوار فيما بعـد السلطان العثماني سليمان القانوني ، والتي تحيط اليوم بالمدينة القديمة . وقد انشأها هادريان حين اعاد تشييد مدينة بيت المقدس . وأدخل عليها اضافات ، وأجرى بها اصلاحات ، البيزنطيون والأمويون والفاطميون ، فإلى الشرق قام بحماية السور منحدرات وادي كيدرون (وادي ست مريم حالياً) شديدة الهبوط ، وفي الجنوب الشرقي هبطت الارض الى وادي جهنم . ويحاذي السور الغربي واد آخر يقل عمقاً عن الواديين الآخرين . على ان الارض لا تلائم الهجوم على الاستحكامات ، إلا في الجهة الجنوبية الغربية ، حيث اجتاز السور جبل صهيون ، وعلى امتداد السور الشمالي . اما القلعة ، وهي برج داود ، فتقع في منتصف السور الغربي ، وتسيطر على الطريق الذي يسير ازاء جانب التل حتى باب يافا . وعلى الرغم من أنه ليس بالمدينة آبار ،

فان ما توافر بها من الصهاريج كفل لها الماء الغزير . وما ادخله الرومان من نظـام المجاري ، الذي لا زال مستخدماً في القرن العشرين ، حفظها من الامراض .

الدفاع عن بيت المقدس :

وتولى امر الدفاع عن المدينة ، الحاكم الفاطمي ، افتخـــار الدولة . فلا زالت الاسوار في حالة جيدة . خضع للحاكم حامية قوية مؤلفة من عساكر عربية وسودانية . ولما ترامى اليه نبأ اقتراب الصليبيين ، احتاط لذلك ، فطمر ما يقع خارج المدينة من الآبار او وضع بها السم ، وساق الى المواضع الآمنة ، قطعان الغنم والماشية التي تنتجع المراعي الواقعـــة حول المدينة . ثم أمر كل المسيحيين من سكان المدينة ، من الارثوذكس وغيرهم من ارباب المذاهب الاخرى ، بالانسحاب الى خارج اسوار المدينة . أما اليهود فسمح لهم بالبقاء بالمدينـــة ، وكان ذلك اجراء سديداً . ففي القرن العاشر ، كان عدد المسيحيين بالمدينة يفوق عدد المسلمين . وعلى الرغم من ان اضطهادات الحاكم بأمر الله ، ادت الى تناقص عدد المسيحيين ، وأن عدداً كبيراً ، من بينهم معظم الاكليروس الارثوذكس ، ارتحل مع البطريرك في اثناء الاوقات العصيبة التي تلت وفاة ارتق ، فلا زال يقيم في بيت المقدس الوف من المسيحيين ، غير أنه لا يرتجى منهم فائدة في القتال ، نظراً لما تقرر من منعهم من حمل السلاح ، فلا يصح الركون اليهم والوثوق فيهم ، اذا دارت المعركة ضد اخوانهم المسيحيين . يضاف الى ذلك أن إخراجهم من المدينـــة يوفر المؤن لمن تبقى من السكان

بالمدينة المحاصرة ، وفي الوقت ذاته ارسل افتخار الدولة الى مصر ، يطلب النجدة العاجلة (١) .

ومع أن موقع البلاد يفيد الصليبيين في حصارها ، فانه لم يتوافر لديهم من القوات مــا يكفي لتطويق المدينة بأسرها . ركزوا كل قواتهم على القطاعات التي تقربهم من الاسوار . فاتخذ روبرت النرمندي موضعه على امتداد السور الشمالي ، تجاه باب الزهور (باب هيرود ، باب الساهرة) ، والى يمينــه اتخذ موقعه روبرت فلاندر تجاه باب الاعمدة (باب القديس اصطفان او باب دمشق) . اما جودفري امير اللورين ، فاتخذ موضعه في البقعة التي تواجه الركن الشمالي الغربي للمدينة حتى باب يافا . ولحق به في هذا الموضع تانكرد الذي قدم من بيت لحم ، عندما اتخذ الجيش مواضعه ، وجلب معه ما استولى عليه في الطريق من قطعان الماشية . والى الجنوب من موضعه ، استقر ريموند كونت تولوز ، الذي تحرك بعد يومين او ثلاثة أيام الى جبل صهيون ، بعــد ان اكتشف ان الوادي يجعله بعيداً عن الاسوار . أمــا القطاعان الشرقي والجنوبي الشرقي ، فكانا مكشوفين ، لم يحرسها احد (٢) .

---

(١) Fulcher of Chartres (1, XXVII, 12, p. 300)
اشار فولشر الى العساكر الاثيوبية . وورد عنــد اجيل (XX , pp. 293 - 294) والكاتب المجهول (X , 37, p. 198) أمر تسميم الآبار . وكان بالمدينة وقتذاك بهرام جاثليق الارمن ، غــير انــه استطاع ، فيما يبــدو ، ان يفر من المدينــة . (Matthew of Edessa II. CLVII. p. 225)

(٢) Raymond of Aguilers XX. p. 293 .
Gesta Francorum *X*. 37, p. 194 .
Albert of Aix V. 46, pp. 463 - 464 .

ابتدأ الحصار في ٧ يونيه ١٠٩٩ ، أي في نفس اليوم الذي وصلت فيه الحملة الصليبية الى الاسوار . غير أنه لم يلبث ان تبين أن الزمن في صالح المحاصرين . اذ توافر لدى افتخار الدولة المؤن والماء ، وفاقت اسلحته اسلحة الفرنج ، واستطاع أن يدعم ابراجه ويوثقها ، بأكياس امتلأت بالقطن والدريس ، جعلت الأبراج تصمد لما ترميه عليها منجنيقات الفرنج من قذائف . فاذا صمد افتخار الدولة حتى يقدم عليه من مصر جيش لنجدته ، فانه سوف يتخلص من الصليبيين . إنما على الرغم من ضخامة ما لديه من حامية ، فانها لم تكن كافية لحراسة جميع الأسوار . ولم يلبث الصليبيون ان واجهتهم مشاكل تدبير الماء . فما اتخذه افتخار الدولة من تدابير كانت ناجعة وقوية الاثر . أما المورد الوحيد للمياه العذبة التي يصح ان تصل الى المحاصرين ، فانما جاء من بركة السلوان ، الواقعة بأسفل الأسوار الجنوبية ، التي تتعرض للقذائف من المدينة . ولتوفير المياه اللازمة لهم ، كان لا بد للصليبيين ان يسيروا ستة اميال او اكثر . فاذا عرفت ذلك حامية المدينة ، فانها سوف تبعث جماعات صغيرة ، تكمن بالطرق المؤدية الى الينابيع . ولقي كثير من العساكر والحجاج مصرعهم ، بعد ان تعرضوا لهذه الهجمات المفاجئة . وأخذت المؤن في النفاذ ايضاً ، إذ لا يتوافر الغذاء بالقرب من المدينة . وزاد في قلق الصليبيين الحرارة والتراب والافتقار الى الظل ، نظراً لقدومهم من جهات باردة المناخ ، ولأن كثيراً منهم اتخذ اسلحة لا تلائم حرارة صيف يهودا ، وتبين لهم جميعاً ، أنهم لن يستطيعوا الصمود لحصار طويل ، بل ينبغي ان يبادروا الى بالاستيلاء على المدينة بالقيام بمهاجمتها [1] .

---

(١) Raymond of Aguilers XX. pp. 293 - 294.
Gesta Francorum *X*. 37, pp. 194 - 198.

وفي ١٢ يونيه ١٠٩٩ قـام الامراء بالحج الى جبل صهيون ، وهنالك تحدث اليهم راهب ناسك متقدم في العمر ، فأمرهم بأن يهاجموا في الغـد اسوار المدينة ، غير أنهم احتجوا بأنه ليس لديهم من الأدوات ما يكفي للقيام بهجوم ناجح ، فلم يقبل منهم ذلك العذر . اذ قال لهم : « اذا توافر لكم الايمان ، فسوف يهبكم الله النصر » ، واذ تشجع الأمراء بأقواله ، أمروا بالقيام بهجوم شامل في اليوم التالي . غير ان الراهب قد يكون مخطئاً ، او قد يكون ايمانهم ضعيفاً . على ان الصليبيين نهضوا بكل ما يدخرون من حماس لمهاجمة المدينة ، ولم يلبثوا ان تغلبوا على الأسوار الخارجية بشمال المدينة . غير أنـه لم يتوافر لديهم من السلالم ، ما يتيح لهم تسلق الاسوار في آن واحد وفي جهات عديدة . ولما تبين لهم بعد قتال مرير استمر ساعات عديدة ، ان محاولاتهم ليست مجدية ، قرروا الانسحاب (١) .

وترتب على فشل الهجوم ، ان اشتدت خيبة املهم ، غير أن هذا الهجوم كشف للأمراء عن الحاجة الى الإكثار من نصب آلات الحصار . فقرروا في المجلس الذي انعقد في ١٥ يونيه ، ان يكفوا عن القيام بهجمات اخرى ، حتى يتوافر لهم المنجنيقات والسلالم ، غير أنهم افتقروا الى المواد الـتي يصنعون منها هذه الآلات . على أنه حدث مثلما حدث في انطاكية ، ان انقذهم ما وصل اليهم في الوقت المناسب من مساعدة من جهـة البحر . ففي ١٧ يونيه ، رسا بمرفأ يافا ست سفن مسيحية اكتشفت أن المدينـة هجرها المسلمون . وتألف الاسطول من سفينتين جنويتين بقيادة الأخوين امبرياكو ، ومن اربع سفن ، الراجح أنها جاءت من الاسطول الانجليزي . كانت هذه السفن تحمل مؤناً وأسلحة من بينهـا حبال ومسامير وأقفال

---

(١) Raymond of Aguilers XX. p. 293 .
Gesta Francorum *X.* 37, p. 196 .

(مغاليق) ، لازمة لصناعة ادوات الحصار . ولم يكد الصليبيون يسمعون بخبر هذه السفن ، حتى بادروا بارسال قوة صغيرة للاتصال بها . على ان هذه القوة وقعت عند الرملة في كمين نصبه لها جماعة من المسلمين ، قدمت من عسقلان ، ولم ينقذها إلا قدوم ريموند بيليه ورجاله ، الذين جاءوا في اثرهم . وفي تلك الأثناء ظهر اسطول مصري تجاه الساحل ، وألقى الحصار على يافا . على ان سفينة انجليزية تسللت من خلال الحصار ، وعادت الى اللاذقية . وغادر البحارة السفن الاخرى ، بعد أن تم تفريغ شحنتها الى البر ، وتوجه الملاحون في حراسة رجال ريموند بيليه ، حتى بلغوا المعسكر الصليبي خارج بيت المقدس . فجرى الترحيب بهم ، وبما جلبوه من السلع . غير أنه لا زالت الحاجة ماسة الى الخشب اللازم لبناء ادوات الحصار . إذ لم يحصلوا من تلال بيت المقدس الجرداء إلا على مقادير ضئيلة من الخشب ، وتحتم على الصليبيين أن يبعثوا بحملات سارت اميالاً كيما تحصل على ما يلزم من الأخشاب . ولم يبدأ العمل في صناعة ادوات الحصار إلا بعد ان اوغل تانكرد وروبرت فلاندر بأتباعهما حتى بلغوا الغابات الواقعة في السامرة ، وعادوا بكتل وألواح من الخشب ، تحملها الابل والأسرى المسلمون . فتمت صناعة السلالم اللازمة لتسلق الأسوار ، وشرع ريموند وجودفري في تشييد برج من الخشب يسير على عجلات ، وثبتت به المقاليع . وكان جاستون بيرن مسئولاً عن انشاء برج جودفري ، بينما يعتبر وليم ريكو مسئولاً عن انشاء برج ريموند[١] .

---

(١) Raymond of Aguilers XX. pp. 294 - 297 .
Gesta Francorum X. 37, pp. 196 - 200 .

متاعب المحاصرين :

على ان العمل سار بطيئاً . وفي تلك الأثناء ، عانى الفرنج كثيراً من الحرارة الشديدة . اذ ان رياح السيروكّو Sirocco ظلت تهب اياماً عديدة ، فأثارت بذلك اعصاب الصليبيين ، الذين لم يألفوها . أما الحصول على الماء فازداد صعوبة وعسراً . ففي كل يوم هلك عطشاً اعداد كبيرة من الدواب والماشية والأغنام التي جمعها الجيش . وأوغلت قوات من الجيش في سيرها حتى بلغت نهر الاردن كيما تحصل على الماء . على أن المسيحيين الوطنيين ، اظهرو الولاء للصليبيين ، فأضحوا أدلاء يرشدونهم الى الينابيع والغابات الواقعة في الجهات المجاورة . غير أنه بات مستحيلاً تجنب غارات وكائن العساكر الاسلامية ، سواء كانت من الحامية ، او من الجماعات المتفرقة التي تطوف البلاد . ونشبت المنازعات من جديد بين الامراء الصليبيين حول امتلاك بيت لحم اول الأمر . فالمعروف ان تانكرد هو الذي استولى على المدينة ، وترك لواءه يرفرف على كنيسة المهد . غير ان رجال الدين والامراء الذين ينافسونه ، رأوا أنــه من الخطأ ان يصير هذا الموضع المقدس في حوزة احد السادة العلمانيين . وتمسك تانكرد بالدفاع عن حقوقه في بيت لحم . وعلى الرغم من ان الرأي العام كان يناهضه ، فانه تقرر إرجاء النظر في هذا الامر. اما المسألة الثانية التي ناقشها الامراء، فتتعلق بمستقبل وضع مدينة بيت المقدس . اذ اقترح بعض الفرسان انه لا بد من تنصيب ملك عليها ، غير ان رجال الدين اجمعوا على معارضة هــــذا الرأي ، وقالوا لا يصح لمسيحي أن ينادي بنفسه ملكاً في المدينة التي توج بها المسيح ، وتعرض فيها للأذى . وهنا ايضاً انحاز الرأي العام الى جانب رجــال الدين . ثم تقرر إرجاء المناقشات الاخرى . على أن ما تعرض له الصليبيون من ألوان البؤس ، الذي اقترن بخيبة الأمل الناجــة عن فشل الهجوم الذي حاولوا القيام به على بيت المقدس ، وما تجدد من المنازعات بين الأمراء ، كل ذلك حمل كثيراً من الصليبيين على أن يتخلوا عن الحملة الصليبية . فتوجهت

جماعة منهم الى نهر الاردن ، ليجري تعميدهم بمرة اخرى في النهر المقدس ؛ وبعد ان جمعوا سعف النخيل من ضفة النهر ، ساروا رأساً الى يافا ، وكانوا يأملون في ان يصادفوا سفناً تحملهم الى بلادهم باوربا [1] .

وحدث في اوائل يوليه سنة ١٠٩٩ ، أن ذاع في المعسكر الصليبي ، أن جيشاً ضخماً سار من مصر ، لإنقاذ بيت المقدس . فأدرك الأمراء أنه ليس ثمة ما يدعو بعدئذ الى التمهل والإرجاء ، غير أن الروح المعنوية لرجالهم قد هبطت . فخفف لمساعدتهم مرة اخرى ظهور رؤية جديدة . ففي صبيحة يوم ٦ يوليه ، حدث أن القسيس بطرس ديزيدريوس الذي اثبت فعلاً أنه شهد الاسقف ادهيمر بعد وفاته ، جاء الى وليم هيو امير مونتيل شقيق ادهيمر ، والى سيده ايزوار جاب ، وقال لهما إن الاسقف (ادهيمر) ظهر له . وبعد أن امر ادهيمر الصليبيين أن يتخلوا عن مشروعاتهم الشخصية ، طلب اليهم أن يصوموا ، وأن يسيروا حفاة في موكب حول اسوار بيت المقدس . فاذا فعلوا ذلك بقلوب طاهرة نقية مستغفرة ، فسوف يستولون على بيت المقدس في خلال تسعة ايام . ولما طالب بطرس ديزيدريوس من قبل بأن يرى ادهيمر ، وهو يعاني عذاب جهنم بسبب ارتيابه في الحربة المقدسة ، لم يصدقه معظم الناس ، غير أن الجيش بادر هذه المرة الى قبول الرؤية على أنها حقيقية ، ولعل ذلك راجع الى أن الاسقف المحبوب ظهر في ضوء بالغ النبل ، والى أن اسرة مونتيل ساندتها . اشتد الحرص على اطاعة اوامر ادهيمر . فتقرز الصوم ، والاهتمام بمراعاته أثناء الأيام الثلاثة التالية . وفي يوم الجمعة ٨ يوليه ١٠٩٩ ، سار الموكب ملتزماً الطريق الذي يطوف حول المدينة . تقدم الموكب اساقفة الحملة وقسيسوها ، يحملون المخلفات الدينية والصلبان ، ثم تلاهم الامراء والفرسان ،

---

(١) انظر : Raymond of Aguilers XX, pp. 295 - 296 .

ثم جاء من بعدهم الرجالة والحجاج . كل هؤلاء ساروا حفـــاة . احتشد المسلمون على الأسوار ، وأخذوا يهزأون بهم ، غير أن الصليبين وجدوا في هذه السخرية الجد والرفعة . وبعد أن أتموا طوافهم ، صعدوا جبل الزيتون وعلى هذا الجبل اخـذ يعظهم بطرس الناسك ، ثم أعقبه قسيس ريموند ، وهو ريموند اجيل ، وقسيس روبرت النرمندي ، ارنولف روز ، الذي كان يعتبر اروع مبشر في الحملة الصليبية . تأثر الجيش بفصاحة هؤلاء الدعاة ، واشتدت حماسته . بـــل إن كلا من ريموند وتانكرد نسي ما وقع من منازعات بينهما ، وأقسم كلاهما على ان يقاتلا معاً من اجل الصليب [١] .

الاستعداد للهجوم :

ظل الحماس متأججاً ، وفي أثنـــاء اليومين التاليين ، وبرغم ما يعانيه الرجال من الظمأ ، اخذوا يكدون حتى يفرغوا من إنشاء الأبراج الضخمة اللازمة للحصار . وما اشتهر بـــه الجنويون من مهارة ، تحت إشراف وليم امبرياكو ، كان عظيم الاهميـة والنفع . بل إن الشيوخ من الرجال والنساء ، أسهموا في ذلك ، بما قاموا به من حياكة جلود الثيران والابل ، وتثبيتها بالمسامير في الأجزاء المكشوفة من الأبراج ، لحمايتها من النيران الاغريقية التي يستخدمها المسلمون . وفي ١٠ يوليه ، اضحت الأبراج الخشبية جاهزة ، فجرى دفعها على عجلاتها ، الى حيث اتخذت مواضعها : الاول ، عند السور الشمالي والآخر عند جبل صهيون ؛ اما البرج الثالث وهو اقل حجماً فتم إنشاؤه كيما يتخذ مكانه عند الطرف الشمالي الغربي من الأسوار .

---

(١) Raymond of Aguilers XX. pp. 296 - 297 .
Gesta Francorum X. 38, pp. 200 - 202 .
رسالة دايمبرت الى البابا ، وردت في :
Hagenmeyer : op. cit. pp. 170 - 171 .

وتم بنـاء الأبراج في حذر شديد ، بعيداً عن انظار جنود حامية بيت المقدس ، الذين ارتاعوا حين وجدوا هذه القلاع في مواجهتهم . فبادر والى المدينة افتخار الدولة ، الى تدعيم الأجزاء الضعيفة بالأسوار . وتعرضت ابراج الحصار الى قذائف مستمرة من الحجارة ومن القوارير الملتهبة ، لمنعها من الاقتراب من اسوار المدينة [1] .

تقرر ان يبدأ الهجوم اثناء ليلة ١٣ - ١٤ يوليه ، وتقرر ايضاً ان يبدأ في وقت واحـد ، مع الهجوم الرئيسي الموجه من جبل صهيون الى القطاع الشرقي من السور الشمالي ، هجوم خادع على الزاوية الشمالية الغربية للسور . ووفقاً لريموند اجيـل ، الذي لا يرقى الشك الى ما اورده من ارقام عن الجيش ، بلغت القوة الحربيـة الضاربة وقتذاك ١٢ الف من الرجّالة ، ١٢٠٠ او ١٣٠٠ من الفرسان . يضاف الى هؤلاء عدد كبير من الحجاج ، لم يحاول تحديد عددهم ، فضلاً عن رجال أقعدهم كبر السن او المرض ، عن مباشرة القتال ، وعن النساء والاطفال . وكان اول عمـل لا بد ان يقوم به المهاجمون ، هو ان يجعلوا القلاع الخشبية ترتكز الى الاسوار ، وتطلب ذلـك طمّ الخندق الذي يجري من تحت أقدامهم ؛ وطوال ليلة ١٤ يوليه ، وأثناء نهار هذا اليوم ، أكب الصليبيون على عملهم ، وقـد تعرضوا أثناء العمل للقذائف من الحجارة والقوارير الملتهبة ، من قِبـل المدافعين . وردوا عليها بما ألقته مجانيقهم على الأسوار من قذائف ثقيلة . ولما حلّ مساء يوم ١٤ يوليه ، نجح رجـال ريموند في دفع برجهم فوق الخندق ، حتى بلغ السور . غير ان الدفاع كان عنيفاً ، والراجح ان افتخار الدولة تولى القيادة في هذا القطاع من السور . لم يستطع ريموند أن يتخذ

---

(١) Raymond of Aguilers XX. p . 298 .
Gesta Francorum X. 38, p. 200 .

لنفسه موضعاً على السور ذاتـــه . وفي صبيحة اليوم التالي ، اقترب برج جودفري من السور الشمالي ، بالقرب من باب الزهور الحالي . وتولى توجيه البرج من الطبقة العليا ، جودفري وأخوه يوستاس بويون . وحوالي منتصف النهار ، نجحا في إقامة جسر يصل بين البرج وقمة السور . وتقدم فارسان فلمنكيان وهمـا ليتولد وجيلبرت تورناي ، فقادا نخبة من اللوثرنجيين عبر الجسر ، ولم يلبث أن تـلاهم جودفري نفسه . ولم يكد يتم الاستيلاء على جزء من السور ، حتى أتاحت السلالم ، لعدد كبير من المهاجمين ان يصعدوا وينفذوا الى داخل المدينة . وبينما ظل جودفري يتخذ موضعه على السور ، يشجع القادمين حديثاً ، ويرسل من قِبله رجالاً ليفتحوا باب الاعمـدة ، كيما تنفذ منه القوات الرئيسية للجيش ، توغل في داخـل المدينة تانكرد برجاله ، بعد ان جاء في إثر عساكر اللورين . ولما تبين للمسلمين انهيـار اسباب دفاعهم ، ولوا الأدبار نحو الحرم الشريف ، ساحة المعبـد ؛ حيث قامت قبة الصخرة والمسجد الاقصى ، وقد وطدوا العزم على أن يتخذوا من المسجد الاقصى معقلهم الاخير ، غير أنه لم يكن لديهم من الوقت ما يكفي لأن يجعلوه صالحاً للدفاع . على أن تانكرد انقض عليهم ، أثنـاء احتشادهم بداخل المسجد ، وفي اعلاه . فبادروا بالتسليم والإذعان له ، ووعدوا بأن يبذلوا له فدية كبيرة ، وأخذوا علمه ورفعوه فوق المسجد ؛ على ان تانكرد اخذ يعيث فساداً في قبة الصخرة ، يدمر وينهب ما يشاء . وفي تلك الأثناء ، اضطرب السكان أثناء هروبهم الى الأحياء الجنوبية بالمدينة ، حيث لا زال افتخـار الدولة يقـاوم ريموند في عنف . غير أنـه ادرك عند العصر أن كل شيء قـد ضاع ، وأنه لا امل في المقاومة ، فانسحب الى برج داود ، الذي عرض ان يسلمه الى ريموند مع مبلغ كبير من المال ، مقابل الإبقاء على حياته ، وحياة حرسه الخاص . فقبل ريموند

الشروط ، واحتل البرج . فخرج من المدينة تحت الحراسة ، افتخار الدولة مع حرسه ، وانحازوا الى الحامية الاسلامية بعسقلان (١) .

المذبحة :

على أنه لم ينج من المسلمين بحياتهم إلا هذه الفئة القليلة . إذ أن الصليبيين ، وقد زاد في جنونهم ما احرزوه من نصر كبير بعد شقاء وعناء شديد ، انطلقوا في شوارع المدينة ، والى الدور والمساجد ، يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز . استمرت المذبحة طوال مساء ذلك اليوم ، وطوال الليل . ولم يكن علم تانكرد عاصماً للاجئين الى المسجد الاقصى من القتل . ففي الصباح الباكر من اليوم التالي ، اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين ، فأجهزت على جميع اللاجئين . وحينما توجه ريموند آجيل في الضحى ، لزيارة ساحة المعبد ، اخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه (٢) .

---

(١) Raymond of Aguilers XX. pp. 293 - 300 .
Gesta Francorum X. 38, pp. 202 - 204 .
تطابقت روايتا هذين المؤرخين اللذين يعتبران من شهود العيان. على ان فولشر وريموند اتفقا في اتخاذ الظهر موعداً لدخول القوات الصليبية الىالمدينة (Fulcher I. XXVII. 5 . 13 , pp . 295 - 301) . اما المؤرخ المجهول فأشار الى أن دخول المدينة حدث في الساعة التي توفي فيها المسيح . اما رواية البرت فعلى الرغم من طولها فلا يعتد بها (Albert of Aix VI. 19-28 pp . 477 - 483) .

(٢) Raymond of Aguilers XX. p. 306 .
Gesta Francorum X. 38, pp. 204 - 206 .
اورد رسالة دايبرت (Hagenmeyer , op. cit. p. 171) .
Abul Feda op. cit. p. 4.
Ibn al - Athir op. cit. pp. 198 - 199 .
وصف ابو الفدا وابن الاثير ما اجراه الصليبيون من مذبحة . ويشير ابن الاثير الى ان ريموند اوفى بوعده . انظر ايضاً :
Ibn al - Qalanisi : Damascus Chrmicle. p. 48 .

وفر يهود بيت المقدس جميعاً الى معبدهم الكبير ، غير أنه تقرر القاء القبض عليهم ، بحجة أنهم ساعدوا المسلمين ، فلم تأخذهم بهم الرحمة والرأفة ، فأشعلوا النار في المعبد ، ولقي اليهود بداخله مصرعهم محترقين [١] .

وتركت مذبحة بيت المقدس أثراً عميقاً في جميع العالم . ليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها ، غير أنها أدت الى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود . بل ان كثيراً من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث . أما المسلمون الذين كانوا حتى وقتذاك مستعدين لأن يقبلوا الفرنج ، على انهم عامل جديد فيما ساد ذلك العصر من سياسات معقدة ، فانهم وطدوا العزم على ضرورة طرد الفرنج ، فلم يثر التعصب الاسلامي من جديد ، إلا التعصب المسيحي ، الذي دل عليه ما لجأ اليه الصليبيون من سفك الدماء . فلما حدث فيما بعد ، أن سعى بعض عقلاء اللاتين لأن يجدوا اساساً ، يستطيع أن يقوم عليه التعاون بين المسلمين والمسيحيين ، كانت ذكرى هذه المذبحة تعترض دائماً الوصول الى الاتفاق .

ولما لم ينج من القتل احد من المسلمين ، توجه امراء الحملة الصليبية في موكب يتسم بالخشوع ، الى الحي المسيحي المهجور ، منذ أن ابعد سكانه افتخار الدولة ، ليؤدوا صلاة الشكر في كنيسة القيامة . ثم حدث في ١٧ يوليه أن اجتمعوا كيما ينصبوا حاكماً على بيت المقدس ، المدينة المقهورة [٢] .

---

(١) Ibn al - Qalanisi , loc. cit .

(٢) Raymond of Aguilers XX. p. 300 .
Gesta Francorum X. 38, p. 206 .
Fulcher of Chartres I. XXIV. 1 - 4. pp. 304 - 306 .

على ان الحاكم الذي يرحب الجميع به قد مات . اذ اعلن الجيش كله الحزن والأسف لأن ادهيمر اسقف لى بويه ، لم يعش حتى يشهد انتصار القضية التي خدمها . لم يكن لأحد أن يصدق بأن ادهيمر لن يشهد ذلك فعلاً . إذ صار الجنود ، الواحد بعد الآخر ، يؤكدون أن مقاتلاً كان يحارب في الصفوف الاولى، وعرفوا في ملامحه شخص الاسقف ادهيمر(١). ولم يعش ايضاً جماعة كانوا يبتهجون لهـذا الانتصار ، إذ أن سمعان ، بطريرك بيت المقدس ، مات منذ ايام قليلة قبل الفتح ، في منفاه بجزيرة قبرص(٢) . وفي جهة ثانية ، في ايطاليا كان يرقد مريضاً ، واضع أساس الحرب الصليبية ، (اربان) . وفي ٢٩ يوليه سنة ١٠٩٩ ، مات بروما البابا اربان الثاني ، أي بعد اسبوعين من دخول جنوده الى المدينة المقدسة ، وقبل ان يصله نبأ ذلك (٣) .

---

(١) Raymond Aguilers loc. cit.

(٢) Albert of Aix VI. 29. p. 489.

(٣) Vita Urbani II. in Liber Pontificalis II. p. 293.

الفصل الثالث

حامي القبر المقدس

تحقق الهدف ، فعادت بيت المقدس الى العالم المسيحي . انما كيف تصير المحافظة عليها ؟ وماذا ينبغي أن تكون عليه حكومتها ؟ اذ أن المسألة التي لا بد ان فكر فيها شخصياً كل صليبي لا يجوز الآن ارجاؤها . فالرأي العام ادرك ، فيما يبدو ، بعد أن تذكر أن الحملة الصليبية اعدتها الكنيسة من اجل مجد المسيح ، أنه لا بـد أن يكون للكنيسة السلطة العليا . فلو أن ادهيمر اسقف لى بويه لا زال حياً ، فلا شك أنه كان يرجى منه وضع دستور للبلاد ، وأن يختار الموظفين . اذ اجمع النـاس على حبه واحترامه ، ووقف على رغبات البابا اربان الثاني . والراجح انه تصور قيام دولة كنسية برياسة البطريرك سمعان ، على أن يقوم باعتباره مندوباً للبابا بوظيفة مستشار له ، وأن يكون ريمond تولوز حامياً علمانياً وقائداً عاماً لجيوشها . غير أنه ليس لنا ان نزعم ان بوسعنا وصف هذه النوايا ، لأنها اختفت بوفاته . والواقع ان البـابا اربان عيّن ، دون أن

يعلم ذلك الصليبيون ، دايبرت رئيس أساقفة بيزا [١] ، مندوباً بابوياً ، ليخلف ادهيمر . غير ان دايمبرت اثبت أن بلغ به الطموح ، وفي الوقت ذاته ، سهولة الاستجابة والخضوع ، ما لا يصح اعتباره معبراً عن السياسة البابوية . ولم يبق مع الحملة الصليبية من الاشخاص من يصح الاخذ بنصيحته دون مناقشة .

مؤامرات من اجل العرش :

وفي ١٧ يوليه ، اجتمع الزعماء للنظر في الامور العاجلة للادارة . فلا بد من اخلاء الشوارع والدور من الجثث المتراكمة ، ولا بد من تدبير امر التخلص منها . ولا بد من تعيين احياء خاصة بالمدينة لينزل بها الجند والحجاج . ولا بد من الاستعداد لمواجهة ما سوف يقوم به المصريون من هجوم مضاد . ودارت المناقشة ايضاً حول ما اذا كان يصح لتانكرد ان يحتفظ لنفسه بما حازه من ثروة وغنيمة ، ومن بينها ما اخذه من قبة الصخرة ، من ثمانية قناديل ضخمة من الفضة [٢] . ثم أثار بعض الافراد مسألة اختيار الملك . غير ان رجال الدين بادروا بالاحتجاج . فلا بد أن يجري اولاً مناقشة الأمور الروحية . اذ لا بد من تعيين بطريرك لبيت المقدس قبل اختيار الملك ، لأنه هو الذي سوف يرأس عملية الانتخاب . ولما كتب وليم الصوري مؤلفه ، بعد مائة سنة ، وبعد أن استقرت الملكية ، اعتبر ذلك محاولة شائنة من قبل الكنيسة ،

---

(١) المعروف ان دايبرت وصل الى اللاذقية في سبتمبر سنة ١٠٩٩ ، فلا بد اذن انه ابحر من ايطاليا قبيل الاستيلاء على بيت المقدس . انظر ما يلي ص ٤٢٢ — ٤٢٣ .

(٢) Raymond of Aguilers *XX*. pp. 300 - 301 .
Gesta Francorum *X*. 39, p. 206 .
Fulcher of Chartres I. *XX* VIII. 1 - 2. pp. 301 - 303 .

على الرغم من أنه كان رئيس اساقفة ، وذلك لأن الكنيسة تجاوزت بهذه المحاولة حقوقها . غير انهـا تعرضت للامتعاض وقتذاك ، نظراً لأن القائمين بها لم يكونوا من الكنسيين النابهين . كانت الحاجة ماسة الى تعيين بطريرك . فلو أن سمعان كان حياً ، لبقيت حقوقـه محترمة . اذ أن ادهيمر أقره ، ولا زال الصليبيون يذكرون له شاكرين ، ما بعث به اليهم في انطاكية من الهدايا والمنح . على أن احـداً سواه من الكنسيين اليونانيين او السوريين ، لن يكون مقبولاً . والواقع أنه لم يكن ثمة من يصح أن يلي هذا المنصب ، لأن كبار رجـال الدين من الارثوذكس في بيت المقدس لحقوا بالبطريرك في المنفى . وينبغي أن يرتقي كرسي البطريركية احد رجال الدين من اللاتين ، على أنه لم يكن بين رجال الدين اللاتين احد من النابهين . والمعروف أن وليم اورنج كان أكثر الاساقفة اللاتين احتراماً ومكانة بعد وفاة ادهيمر ، غير أنه مات في معرة النعمان ، فأضحى أنشط رجال الكنيسة من بعده ، أرنولف ، النرماني الايطالي ، اسقف مارتورانو . اقترح ان يكون البطريرك ، صديقه ارنولف ماليكورن اسقف روز ، وهو القس الخاص لروبرت النرمندي ، على أن تكون له رئاسة أسقفية بيت لحم . لم يكن ارنولف روز خاملاً ، اذ كان مؤدباً لابنة وليم الفاتح ، وهي الراهبة سيسليا ، وهي التي حثت أخاها روبرت النرمندي على أن يستخدمه وأن يعـده بالاسقفية . كان من المبشرين الممتازين ، ومن رجال الادب ، غير أنه اشتهر بالتعلق بالدنيا وزخرفها ، والمعروف أنه كان من خصوم بطرس بارثولوميو . يضاف الى ذلك أن العملية كلها بدت مؤامرة نورمندية . فرجال الدين الذين ينتمون الى جنوب فرنسا ، يساندهم حتماً ريموند تولوز ، لم يرغبوا في التعاون ، وتقرر اغفال الاقتراح الذي يرمي الى الاختيـار البطريرك قبل انتخاب الملك . ولم يكن للحادث من الأهمية ما اعتقده

وليم الصوري . إذ ان سير الأحداث دل على أن الرأي العام لا زال يساند الكنيسة على السلطة الدنيوية (١) .

وانقضت الأيام التالية في المؤامرات حول تنصيب الملك . لم يبق مع الحملة الصليبية من الامراء الكبار الذين ارتحلوا من القسطنطينية ، سوى أربعة : ريموند تولوز ، وجودفري لورين ، وروبرت فلاندر ، وروبرت النرمندي . ودأب يوستاس بويون على أن يقوم من وراء اخيه جودفري بدور خفي . أما تانكرد فانه على الرغم من بسالته وإقدامه ، لم يكن لديه إلا قلة من الأتباع ، ولم يكن له من الاهمية سوى أنه من اقارب بوهمند الفقراء . ويعتبر ريموند تولوز أهم هؤلاء الامراء ، وأخطر مرشح للعرش . اذ ان تقدمه في العمر ، وثروته الضخمة ، وتجربته ، وارتباطه الطويل الامد بأدهيمر ، كل هذه الصفات ، لم يحزها احد غيره من القادة . غير أنه لم يكن محبوباً من رفاقه . وأظهر ريموند عادة من التباهي والغطرسة ، ما حمله على ان يعتبر نفسه القائد العلماني للحملة الصليبية . وتعرض للكراهية ايضاً ما جرى عليه من سياسة الصداقة مع الامبراطور البيزنطي ، بل إن كثيراً من اتباعه كرهوه لذلك السبب . ولم يصب ريموند نجاحا في الشهور القليلة التي تولى فيها القيادة ، التي لم ينازعه فيها احد . وخدش هيبته ومكانته ما تعرض له من الفشل في

---

(١) Raymond of Aguilers XX - XXI. pp. 301 - 302.
William of Tyre IX. I. vol. 1. pt. 1. pp. 364 - 366.
Fulcher of Chartres (I. XXX. 2. p. 308).
يشير فولشر الى انه لا ينبغي انتخاب البطريرك الا بعد الحصول على مشورة البابا. والراجح انه يشير الى هذه المناظرة الاولى .
عن حياة ارنولف الاولى انظر : David : Robert Curthose pp. 217 - 220.
اطلق عليه داود : ارنولف شوك Choques ، ويعتبر اسم روز Rohes خاطئاً .

عرقة ، وما كان من انكار الحربة المقدسة . وعلى الرغم من أن شجاعته الشخصية وحيويته الذاتية ليست موضع شك ، فانه لم يصب نجاحاً يذكر باعتباره جندياً . فـاذا صار ملكاً ، كان شديد القسوة ، بالغ الاستبداد ، ولن يكون موضع الثقـة ، سواء في القيـادة او في الشؤون السياسية . ويعتبر روبرت فلاندر أكفأ الامراء الآخرين . غير أنه شاع أنه يحب ان يعود الى وطنه متى استقرت الامور في بيت المقدس . وحـــاز روبرت النرمندي ايضاً محبة الناس ، فاشتهر بهيبته ومكانته ، باعتباره زعيم العنصر النرمندي . على أنه لم يكن شخصية قوية ، يضاف الى ذلك أنه كان يميل الى العودة الى اوربا . لم يبق من الامراء ، بعـد هؤلاء ، إلا جودفري . فباعتباره دوقاً للورين الأدنى ، شغل في الماضي من المناصب العليا ، ما لم يشغله سائر زملائـــه . لم يكن دوقاً حازماً قويـــاً ، ودل سلوكه بالقسطنطينية على أنه حاز من العناد المقترن بالارتياب والتشكك ما لا يتصف بـه إلا الضعيف ، الغبي ، الذي يفتقر الى الذكاء . غير أن عيوبه باعتباره رجلاً سياسياً وادارياً ، لم يعلم بهـــا الصليبيون ، الذين رأوا فيه جندياً لامعاً تقياً ، وخادماً مخلصاً لقضيتهم . وذاعت الرواية ، أنه لما أراد الناخبون ان يستفسروا عن الحياة الخاصة لكل قائد ، لم تجـــد حاشية جودفري ما تذكر ما عنده من العيوب ، سوى أنه شديد التعلق بالرياضة الروحية [١] .

انتصار جودفري :

على أنه ليس معروفاً من أي الفئات تتألف هيئة الناخبين . الراجح انها تألفت من كبـار رجال الدين ، ومن الفرسان الذين يعتبرون اتباعاً

---

(١) William of Tyre IX. vol. I. pt. 1. pp. 365 - 366 .

لأمراء الحملة الصليبية . جرى اول الامر عرض التاج على ريموند ، فرفضه . ودهش المؤرخون لهذا الرفض ، نظراً لما تجلى من طموح ريموند لقيادة الحملة الصليبية . إذ أنه ادرك ان العرض لم يسانده تأييد خالص من قبل غالبية الصليبيين ، وأن زملاءه لن يخضعوا فعلاً لسلطانه . بل إن عساكره الذين حرصوا على العودة الى اوربا ، اعلنوا معارضتهم لقبوله العرش . وعندئذ اعلن أنه لا يحب ان يكون ملكاً في مدينة المسيح المقدسة . وكان يأمل من وراء ذلك ، ان يصير مستحيلاً على كل شخص آخر ان يكون ملكاً . واذ ارتاح الناخبون لهذا القرار ، التفتوا الى جودفري ، الذي ذاع أنه ظفر بتأييد كل من روبرت فلاندر وروبرت النرمندي ، وبعد ان اظهر شيئاً من الامتناع وعدم الارتياح ، قبل المسؤولية والسلطة ، غير أنه طلب إعفاءه من ان يتخذ لقب ملك ، وأراد ان يعرف باسم حامي القبر المقدس Advocatus Sancti Sepulchri (١) .

ورأى ريموند أنه صار ضحية للغش والخداع . غير أن جودفري كان مخلصاً حينما رفض ان يتخذ التاج في المدينة ، التي اتخذ فيها المسيح تاجاً

---

(١) Raymond of Aguilers XX. p. 301 .

يشير الى رفض ريموند قبول التاج .

Gesta Francorum *X*. 39. pp. 206 - 208 .

يذكر المؤرخ المجهول انه لم يجر انتخاب جودفري اميراً للمدينة « princeps civitatis » الا من اجل قتال المسلمين .

Fulcher of Chartres I. XXX. I.

استخدم لقب امير (princeps) .

Albert of Aix VI. 33. pp. 485 - 486 .

اشار ايضاً الى رفض ريموند التاج .

William of Tyre I*X*. 2. vol. I. pt. 1. pp. 366 - 367 .

عن لقب جودفري انظر :

Moeller : « Godefroid de Bouillon et l'Avouerie du Saint Sépulcre » .

من الشوك . وأهم صفة لجودفري ، ان ما اشتهر بـه من التقوى يطـابق تقوى اوساط الصليبين . لم يكن لينثني عن الاعتقاد ، ان كنيسة المسيح لا بد ان تكون الحاكم الاعلى للأرض المقدسة . فلم يتوج في بيت المقدس ملك إلا بعد وفاته ، وبعد ارتحال معظم الحجاج الى بلادهم ، بعـد ان خلفوا وراءهم جماعة تألفت اساساً من المغـامرين ومن رجـال الاعمال [١] .

اشتد استياء ريموند لما حازه جودفري من انتصار . كان بحوزته برج داود ، فرفض ان يسلمه الى الحاكم الجديد . وقال انه عزم على أن يبقى في بيت المقدس ، حتى يحتفل بعيد القيامة المقبل ، وسوف يتخـذ البرج في ذلك الوقت مقراً له . وبعد ان تحدث اليه ، كل من روبرت فلاندر وروبرت النرمندي ، وافق ريموند على أن يتركه في رعاية اسقف الباره ، حتى يسوي المسألة المجلس العام للحملة الصليبية . غير انه لم يكد ريموند يخرج من الحصن ، حـتى سلمه الاسقف الى جودفري ، دون ان ينتظر قراراً قضائياً . والتمس الاسقف لنفسه الاعذار عند ريموند ، بأنه لم يكن له حول ولا قوة ، فلم يسعه إلا الاستسلام . غير ان ريموند اجيل شهد بنفسه اكوام الاسلحة التي حملها معه رجل الكنيسة الخائن ، حينما انتقل الى دار تقع بالقرب من كنيسة القيامة . ولعله لقي التشجيع على هذا العمل ، من جنود ريموند الذين حرصوا على أن يحثوا سيدهم على العودة الى فرنسا . وفي نوبة غضب ، بادر ريموند الى التصريح بأنه سوف يعود الى بلاده . فغادر بيت المقدس ، غير أنه توجه بكل عساكره الى وادي نهر الاردن . وإظهاراً لطاعته لمـا وجهه اليه من ارشادات ، بطرس

---

(١) Chalandon : Histoire de la première Croisade pp. 290 - 292 .

بارثولوميو ، في انطاكية ، قاد ريموند رجاله ، وكل منهم يحمل سعف النخيل من أريحا الى نهر الاردن . فلما عاد ، اخذت كل الجماعة ، وهي تتلو الأدعية والمزامير ، تغتسل في النهر المقدس ثم ترتدي الثيــاب النظيفة . وأشار ريموند اجيل « لم نكن لنعرف شيئاً من ذلـك على الرغم من أن الرجل المقدس طلب الينـــا أن نفعل كل هذا » . ونظراً لأن ريموند لا يحب أن يعود الى الموضع الذي شهد مهانته في بيت المقدس ، اقــام معسكره في أريحا [1] .

على أن فشل ريموند في الاستحواذ على التاج اضعف اتباعه . فلمــا اجتمع رجـــال الدين في اول اغسطس ، ليختاروا بطريركاً ، تضاءلت مقاومة البروفنساليين لأرنولف روز . وإذ اطمأن لتأييد رجــال اللورين والنرمنديين الفرنسيين والايطــاليين ، استطاع اسقف مارتورانو أن يحث الغالبية في المجلس على تنصيب ارنولف . وحاول عبثــاً ريموند اجيل ورفاقه ، أن يشيروا الى أن الانتخاب لا يتفق مع قانون الكنيسة ، لأن ارنولف لم يصل في رتبته الكنسية وقتذاك إلا لأقل من وكيل شماس ، ولأن اخلاقه بلغت من السوء ، أن ذاعت عنها الأشعار بين رجــال الجيش . ومع ذلك فان الرأي العام رحب بتنصيبه بطريركاً [2] . اشتهر ارنولف

---

(١) Raymond of Aguilers XX. pp. 301 - 302 .
William of Tyre IX. 3. vol. I. pt. 1. pp. 367 - 368 .

(٢) Raymond of Aguilers XXI. p. 30 .
Gesta Francorum *X*. 39, p. 208 .
اطلقا على ارنولف أنـــه اعقل الرجال وأنبلهم Arnulf « Sapientissimum et Honorabilem Virum » .
William of Tyre : IX. 4. vol. 1. pt. I. p. 369 .

باعتباره من رجال السياسة بالاعتدال ، على أن رجال الدين أصابتهم الخيبة ، إذ توقعوا أن ارنولف سوف يملي إرادته على جودفري . ولعل السر في أنه قصر جهوده على الأمور الكنسية ، يرجع الى إدراكه أنه لا يضطلع بالمسؤولية على انه حاكم بيت المقدس. وبموافقة جودفري، اصدر ارنولف عشرين قانوناً كنسياً ، تتعلق بما يجري كل يوم بكنيسة القيامة من الشعائر الدينية . وأمد الكنيسة بالأجراس اللازمة لدعوة الناس الى الصلاة ، والتي لم يسمح المسلمون للمسيحيين من قبل باستعمالها . ثم ابعد القسس الذين يؤدون الشعائر الشرقية ، والذين كانوا يقيمون الصلاة في الكنيسة . اذ كانت الكنيسة وقتذاك ، ولا تزال حتى الآن ، تحوي مذابح تنتمي الى كل نحل العالم المسيحي الشرقي ، ليس فحسب لليونانيين والجورجان (الكرج) الارثوذكس ، بل ايضاً للأرمن واليعاقبة والقبط . واشتد حماس المسيحيين المحليين للعودة الى بيت المقدس غداة الفتح اللاتيني ، غير أنهم اخذوا وقتذاك يأسفون لما حدث من تغيير السادة الذين يحكمونهم . فحينما طردهم افتخار الدولة من المدينـة ، حرص بعض القسس الأرثوذكس على أن يحملوا معهم اقدس اثر لكنيسة بيت المقدس ، وهو الشطر الاكبر من الصليب الاصلي (صليب الصلبوت) ، فلم يرضوا ان يسلموه وقتئذ الى البطريرك الذي انكر عليهم حقوقهم . على ان ارنولف بما استخدمه من وسائل التعذيب ، أرغم الحراس على ان يكشفوا عن المكان الذي اخفاه فيه هؤلاء القسس . وعلى الرغم من ازدياد نفوذ المسيحيين الارثوذكس الوطنيين ، لم يسعهم إلا قبول رجال الكنيسة من اللاتين . اما كبـار رجال الدين عندهم (اكليروسهم) ، فتفرقوا ، ولم يتهيأ لهم مطلقاً ان يعينوا لأنفسهم أساقفة او بطريركاً ، مقابل ما فعله اللاتين . لم يحدث حتى وقتذاك بفلسطين ، انشقاق بين الكنيستين الارثوذكسيتين في الشرق والغرب على الرغم من ان ارنولف اتخذ من الخطوات الاولى

ما يؤدي حتماً الى هـــذا الانفصال . فالكنائس المتهرطقة ، التي نعمت بالتسامح في ظل الحكم الاسلامي ، أدركت ان الفتح اللاتيني يعتبر بالنسبة لها بدء فترة الزوال والاختفاء[١] .

جودفري ورفاقه :

وما كان من علاقــات طيبة بين جودفري ورفاقــه الذين ظلوا حتى وقتذاك يساندونه ، لم تلبث ان تدهورت بعد أن تولى الحكم . اذ أنـــه لسبب من الأسباب أساء الى روبرت النرمندي ، وفترت علاقــة روبرت فلاندر بجودفري . وفي تلك الأثناء انصرف تانكرد الى نابلس ، التي ارسل سكانهـــا الى بيت المقدس يطلبون الاستسلام الى الصليبيين . والراجح ان شقيق جودفري ، يوستاس بولونيا ، صحب تانكرد ، ليمنعـه من الاستئثار بالغنيمة ، فحظيا باستقبال حافل في نابلس ، غير أنهما فيما يبدو لم يحوزا شيئاً من الغنائم[٢] .

وحدث عقب رحيل تانكرد ويوستاس ، ان وصل الى بيت المقدس سفارة مصرية ، وجهت اللوم الى الفرنج ، لأنهم نقضوا عهـــدهم ، وطلبت اليهم الرحيل من فلسطين . وترددت الأنباء عقب هــذه السفارة ، بأن جيشاً مصرياً بقيادة الوزير الأفضل نفسه ، نفذ الى فلسطين ، وأخذ يزحف على عسقلان . وعندئذ ارسل جودفري الى تانكرد ويوستاس ، يطلب اليهما ان يهبطا الى السهل الساحلي ، وأن يخطراه بتحركات العدو . فعجلا بالمسير الى

---

(١) Raymond of Aguilers loc . cit .
Fulcher of Chartres I. XXX. 4. pp. 309 - 310 .
William of Tyre, loc . cit .

(٢) Gesta Francorum X. 39. pp. 208 - 210 .

قيسارية ، ثم استدارا صوب الجنوب الى الرملة . وفي اثناء الطريق ، ألقيا القبض على بعض الكشافـة الذين اطلقهم المصريون امامهم للاستطلاع ، فانتزعا منهم اخباراً عن عدد عساكر جيش الوزير وأحوالهم . ولما عرفا أن الافضل ينتظر قدوم الاسطول ، ليمده بمؤن اضافية ، وأنـه لم يتوقع من الفرنج ان يهاجموه ، بعثا الى جودفري ، يحثانه على ان يقوم الصليبيون بمباغتة الافضل . فبادر جودفري الى حشد جيشه ، ودعا رفاقه للانحياز اليه . فاستجاب روبرت فلاندز لدعوته ، غير أن روبرت النرمندي وريموند تولوز ، اللذين لا زالا في وادي الاردن ، اجابا أنهما سوف ينتظران حتى تتأكد الاخبار ، ولم يقبلا ان يتحركا ، إلا بعد ان أرسلا كشافتهما (طلائعهما) لتتحرى ما كان يجري[1] .

معركة عسقلان :

وفي ٩ اغسطس ١٠٩٩ ، خرج جودفري من بيت المقدس ، وبصحبته روبرت فلاندر وكل العساكر ، وصحبهم البطريرك ارنولف . فلما وصلوا الى الرملة ، والتقوا بتانكرد ويوستاس ، صدر الامر الى اسقف مارتورانو ، أن يعود مسرعاً الى بيت المقدس ، ليعلن خطورة الموقف ، ويحض كل رجل قادر على القتال على ان يلحق بالجيش . وعندئذ اقتنع روبرت النرمندي وريموند تولوز ، فغادرا بيت المقدس في ١٠ اغسطس ، ولم يبق خلفهما بالمدينة إلا حامية صغيرة . وجرى إخطار بطرس الناسك ، بأن يؤدي الصلوات ، ويؤم قداس الشفاعة ، ولا بد ان يشترك اليونانيون واللاتين سواء ، في الجهر بالدعاء لاحراز النصر للعالم المسيحي . وفي صبيحة ١١ اغسطس ، احتشد كل الجيش الصليبي في يبنه ، على مسافة بضعة اميال ،

---

(١) Ibid pp. 209 - 210 .

الى الخلف من الرملة ، وزحفوا مباشرة الى سهل اسدود ، حيث اكتشفوا عند الغروب ما جلبه المصريون من قطعان الغنم لتموين العساكر ، فساقوها . وبعد ان امضوا ليلتهم مستريحين ، نفذوا الى سهل المجدل المشهور بخصوبته وزراعته . وتقع المجدل الى شمال عسقلان التي يعسكر بها الوزير بجيشه . ولما ظهرت تباشير الفجر ، اصطف الجيش الصليبي ، فاتخذ ريموند مركزه في الميمنة عند البحر ، بينما كان بالقلب روبرت فلاندر ، وروبرت النرمندي ، أما جودفري فكان في ميسرة الجيش . ولم يكد يتم تنظيم صفوف الجيش ، حتى قاموا بهجوم على الجيش المصري . والواقع ان الافضل أخذ على غرة . اذ وقع كشافته في الخطأ ، فلم يتوقع الأفضل ان يكون الفرنج على مسافة بالغة القرب منه . فلم تبـد من رجاله إلا مقاومة ضئيلة ، ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى ولوا الادبار مذعورين . ولجأ عدد كبير من الجيش الى حرش اشجار الجميز ، فلقوا مصرعهم محترقين . وقذف ريموند الى البحر بعدد كبير من ميسرتهم . أما روبرت النرمندي وتانكرد ، فأوغلا في قلب معسكر المصريين ، واستولى حرس روبرت على لواء الوزير ، وعلى كثير من أمتعته الخاصة . واستطاع الوزير مع فئة قليلة من قادته ان يفروا الى عسقلان ، حيث أبحروا منها في سفينة الى مصر . ولم تمض إلا ساعات قليلة ، حتى كان النصر كاملاً ، وتأكد امتلاك الصليبيين لبيت المقدس (١) .

ومـــا حازه الصليبيون من غنيمة كانت بالغة الوفرة والضخامة . فاشترى روبرت النرمندي علم الوزير بمبلغ ٢٠ قطعة فضية ، من النرمندي

---

(١) Ibid pp. 210 - 216.
Raymond of Aguilers XXI. pp. 302 - 304.
Fulcher of Chartres 1, XXX. 1 - 11. pp. 311 - 318.
Albert of Aix VI. 44 - 50. pp. 493 - 497.
Ibn al - Athir op. cit. p. 202.

الذي حازه ، ثم قدمه هدية الى البطريرك ارنولف . واشترى امير صليبي آخر ، سيف الوزير مقابل ٦٠ دينار . ووقع في أيدي الصليبيين ما عثروا عليه في امتعة الجيش المصري من كميات ضخمة من سبائك الذهب والأحجار النفيسة ، ومقـــادير كبيرة من الاسلحة والدواب . وفي يوم السبت ١٣ اغسطس ، عاد الى بيت المقدس الجيش الصليبي مثقلاً بالغنائم في موكب الظافر المنتصر ، بعد ان اشتعلت النار في كل ما لم يستطيعوا حمله [١] .

وتبين تماماً اهمية هذا الانتصار . فعلى الرغم من أن هذا النصر أكد انه ليس بوسع المصريين ان يستردوا ما فقدوه من الاراضي ، إلا انه ليس معناه ايضاً ان الفرنج سوف يبادرون الى احتلال كل فلسطين . فلا زالت البحرية المصرية تسيطر على السواحل ، وتبسط حمايتها على الموانى البحرية . وكان جودفري يأمل في أن يعقب المعركة بالاستيلاء على عسقلان ، حيث ادركت حاميتها انه ليس بوسعها ان تصمد للقوات الصليبية المتحـدة . غير أن ما حدث في بيت المقدس من مذبحة ، لم ينس الناس امرهـا . فلم يشأ المسلمون في عسقلان أن يتعرضوا لنفس المصير . إذ علموا أنـه لم يبق في بيت المقدس من المسلمين ، إلا اولئك الذين استسلموا لريموند تولوز ، الذي ذاعت لهذا السبب شهرته . وعندذاك ارسلوا الى المعسكر الصليبي ، يعلنون انهم سوف لا يسلمون المدينـــة إلا لريموند . غير أن جودفري الذي اشتدت شكوكه في ريموند بعـــد حادث برج داود ، رفض أن يعترف بـــأي شرط للتسليم ، لا يؤدي الى أن يظفر لنفسه

---

(١) Gesta Francorum X. 39, pp. 216 - 218 .
Raymond of Aguilers XXI. pp. 304 - 305 .
Albert of Aix VI. 47, p. 495 .
Fulcher of Chartres 1, *XXX* I. 10, pp. 316 - 317 .
اختتم كل من ريموند والمؤرخ المجهول تاريخه بمعركة عسقلان .

بالمدينة . غضب ريموند ، وشعر بالمهانة والذلة ، فبـــادر بالتحرك صوب الشمال بكل رجاله . على ان سلوك جودفري المشين ، بلغ من شدة الأثر على روبرت النرمندي وروبرت فلاندر ، انهما انصرفا عنه . فلولا مـــا بذلاه من مساعدة لجودفري ، لمـــا استطاع أن يخاطر بمهاجمة عـسقلان ، التي ضاعت من ايدي الفرنج لفترة تزيد على نصف قرن [١] .

وتلى ذلك أن عرضت مدينة ارسوف الصغيرة أن تستسلم لريمونـد ، غير أن جودفري رفض للمرة الثانية ان يقر هذا الاتفاق ، وللمرة الثانية انصرف ريموند غاضباً . وصرح اصدقـــاء جودفري ، أن ريموند يحرض حامية ارسوف على مقـــاومة جودفري ، الذي حرص ريموند على أن يكشف لهم عن ضعفه [٢] .

وفي نهـــاية اغسطس سنة ١٠٩٩ ، قرر ريموند وروبرت النرمندي وروبرت فلاندر ، أن يغـادروا فلسطين . إذ أن كلا من دوق نورمنديا وكونت فلاندر ، كان وقتذاك حريصاً على العودة الى وطنه . لقـد أديا واجبهما الديني المسيحي ، وأصبح في وسعهما أن يقررا بأنهما اوفيـــا بنذريهما . على أن جودفري حزن لفراقهما ، برغم ما وقع من المشاجرات الاخيرة . فعند اجتماعهما به لوداعه ، توسل اليهما أنـه متى بلغا اوربا ، فليعملا بكل ما في وسعهما لحث الجند على القدوم الى الشرق للقتـــال من اجل الصليب ، وأن يذكّرا العساكر بالمركز الحرج ، الذي صـار اليه اولئك الذين اقاموا في الارض المقدسة . وفي اوائل سبتمبر ، استهلا

---

(١) Radulph of Caen CXXXVIII. p. 703.
Albert of Aix VI. 51, pp. 497 - 498.

(٢) Albert of Aix loc. cit.

سيرهما باتخاذ طريق الساحل صوب الشمال [1] ، وصحبهما ريموند . امـــا رحيل ريموند فلم يكن مؤكداً ، لأنه اقسم بأن يبقى في الشرق . وإذ أضاع بيت المقدس ، لم يعد ثمة من الاسباب مـــا يمنعه من أن يحذو حذو بوهمند وبلدوين ، ويقيم لنفسه إمارة . على أن جوف سوريا يعتبر خـير مجـــال تهيؤه له منطقة من المناطق ، نظراً لبعده عن كل من الترك والمصريين ، ولأنه يقع اساساً في قبضة بني عمار الذين لا يميلون للحرب ، يضاف الى ذلك أنه يأمل في مساندة بيزنطة له [2] .

وسار مع ريموند وروبرت النرمندي وروبرت فلاندر معظم عساكرهم. ولم يبق وراءهم للاستقرار في فلسطين سوى فئة قليلة من كل جيش من جيوشهم . ولحفظ التوازن معهم ، عادت جماعة من رجال جودفري ، ومنهم بلدوين لى بور ، صوب الشمال، تحت لواء كونت فلاندر . أما تانكرد فانه بقي في فلسطين مع اتباعه القلائل [3] .

وتمت الرحلة صوب الشمال دون أن تصادف عقبة . إذ أن الحـكام المسلمين للمدن الساحلية بادروا بتقديم المؤن للجيش اثناء اجتياز بلادهم وفي منتصف سبتمبر وصل الجيش الى انطرسوس ، التي لا زالت في قبضة حامية من رجال ريموند ، ثم ارتحل الى جبلة . وفي جبلة استمع القاده الى انباء ازعجتهم وأقلقت بالهم [4] .

---

(١) Albert of Aix VI. 53, p. 499 .
Fulcher of Chartres 1. *XXX* II. 1, pp. 318 - 320 .
Orderic Vitalis X. II. vol. IV. p. 69 .

(٢) Albert of Aix loc . cit .
لم يتحقق متى قرر ريموند انشاء امارة له في وسط الشام .

(٣) Ibid VI. 54. pp. 499 - 500 .

(٤) Ibid. loc . cit .

دايمبرت رئيس اساقفة بيزا :

عين البابا اربان الثاني قبيل وفاته مندوباً عنه في فلسطين عوضاً عن ادهيمر . فوقع اختياره على دايمبرت رئيس اساقفة بيزا . وعلى الرغم من أن اربان كان على دراية تامة بمواطنيه الفرنسيين ، فانه ارتكب بعض الاخطاء مع الايطاليين . فالمعروف أن رئيس الاساقفة دايمبرت كان بالغ النشاط ، شديد الاهتمام بالحرب المقدسة . ولذا ارسله البابا سنة ١٠٩٨ مندوباً عنه في بلاط الفونسو السادس ملك قشتالة . فأظهر دايمبرت دايمبرت كفاية تامة وحماساً كبيراً ، فيما بذله من جهود لتنظيم الكنيسة في البلاد التي استولى عليها المسيحيون من المسلمين . غير أنه ترددت الشائعات بأن ادارته لم تخل من الفساد ، ولا سيما أنه احتفظ لنفسه بشطر كبير من المال الذي بعث به الملك الفونسو الى البابا اربان . فعلى الرغم من نشاطه ، اتضح انه كان مغروراً ، طموحاً ، وليس اميناً . وما لجأ اليه اربان من تعيين دايمبرت مندوباً عنه في الشرق ، سوف يؤدي الى نقض سياسته (١) .

ارتحل دايمبرت من ايطاليا قبل أن تنتهي سنة ١٠٩٨ ، وصحبه اسطول بيزاوي جهزته وأعدته بلدية بيزا . ولا شك أنه كان يأمل ، بفضل نفوذه على البيازنه في أن يفيد منهم في توطيد مركزه ، بينما ادرك البيازنة من جانبهم الى اي حد يفيدون من مساعدته لهم في الحصول على امتيازات وحقوق . ألفوا جماعة تعتبر خارجة على القانون . وفي اثناء طريقهم صوب الشرق ، قاموا بغارات مثمرة على جزائر Heptanese وكورفو ، ولوكا ، وكيفالونيا ، وسانتي . ولم تلبث انباء استفزازاتهم

---

(١) اظهر البرت عداءه فيما أورده عن دايمبرت Albert of Aix VII. 7. pp. 51 - 52 . Annales Pisani (ed. Tronci) vol. I. pp. 178 ff.

أن بلغت القسطنطينية ، فوجه الامبراطور لقتالهم اسطولاً ، تولى قيادته تاتيكيوس الذي لم يعد من انطاكية إلا منـذ بضعة شهور ، فضلاً عن القائد البحري لاندولف الايطالي المولد . وحاول البيزنطيون أن يعترضوا سبيل البيازنة أثنـاء اجتيازهم جزيرة ساموس ، غير انهم لم يصلوا إلا متأخرين ، ولم ينجحوا ايضاً في اللحاق بهم تجـاه جزيرة كوس ، ثم حدث أن صار كل من الاسطولين ، في متناول نظر احدهما الآخر ، قبالة جزيرة رودس . وحاول البيزنطيون أن يرغموا البيازنة على القتـال ، فاستولوا على سفينة لهم تحمل احد اقارب بوهمند . غير أن عاصفة لم تلبث أن هبت فجأة ، فاستطاع البيازنة أن يتسللوا ويهربوا . ثم حاول البيازنة أن يهبطوا الى شاطىء جزيرة قبرص ، غير أنه ردهم على اعقابهم فيلوكالس الحاكم البيزنطي على الجزيرة ، وكبدهم بعض الخسائر . فلم يلبثوا أن أقلعوا الى الساحل السوري ، بينما رسا الاسطول البيزنطي في مينـاء بجزيرة قبرص [1] .

بوهمند ودايمبرت في اللاذقية :

انصرف بوهمند ، منذ رحيـل زملائه الى بيت المقدس ، الى توطيد مركزه في انطاكية . ولم يكن ثمة ما يجعله في الوقت الراهن يخشى الترك . على ان اهتمامه الرئيسي كان موجهاً الى البيزنطيين . اذ كان يعلم ان الامبراطور سوف لا يعفو عنـه مطلقاً . ولن يشعر بالاطمئنان والسلام ابداً ، طالما ان بحوزة الامبراطور اقوى اسطول في شرق البحر المتوسط ، فضلاً عن مينـاء اللاذقية التي تقع مباشرة الى الجنوب من أملاكه . وفي أواخر اغسطس ، قرر بوهمند ان يحسم الامر ، فتوجه لمهاجمة اللاذقية ، غير انه

---

(١) Anna Comnena XI. X. 1 - 6. vol. 111. pp. 41 - 44 .

ليس في وسعه ان يفعل شيئاً طالما لم يكن لديه قوة بحرية . إذ ان استحكامات اللاذقية كانت متينة ، وتستطيع الحامية بها ان تحصل من قبرص على الأمداد والمؤن . فما حدث من وصول اسطول البيازنة الذي ليس ثمة ما يدعوه لأن يهوى البيزنطيين ، تجاه الساحل ، جاء في الوقت المناسب . فبادر بوهمند الى الاتفاق مع دايمبرت والقادة البيازنة ، الذين وعدوا بأن يبذلوا له كل مساعدة [١] .

أصدر الامبراطور الى قائد الاسطول البيزنطي الأوامر بأن ينزل العقاب باللاتين لما قاموا به من اعمال القرصنة ، غير أنه اراد ان يتجنب العداء الصريح . لم يتحقق تاتيكيوس كيف يتحتم عليه ان يعالج هذا التطور الجديد . فبعد أن استشار حاكم جزيرة قبرص ، طلب الى القائد البيزنطي بوتوميتس ، الذي كان وقتذاك بجزيرة قبرص ، والراجح أنه كان يعمل سفيراً فوق العادة (متجولاً) في الشرق ، أن يتوجه الى انطاكية للتفاوض مع بوهمند . غير ان بوهمند كان عنيداً لا يلين ، فلم تظفر السفارة بشيء من النجاح ، فعاد بوتوميتس ، وأقلع بصحبة تاتيكيوس ومعظم الاسطول الى القسطنطينية ، ليطلعا الامبراطور على الموقف ، وليتلقيا تعليمات جديدة . على ان كثيراً من السفن البيزنطية تحطم اتجاه سايس ، على الساحل الغربي لقليقية ، بسبب عاصفة عاتية . غير ان سفن قائد الاسطول استطاعت ان تمضي في طريقها . وعندئذ تحركت السفن البيزاوية ، واتخذت من الوضع ما يجعلها تلقي الحصار على اللاذقية من جهة البحر [٢] .

---

(١) Albert of Aix XI. 45, pp. 566 - 561 .

(٢) Anna Comnena XI, X, 7 - 8, vol, III, p, 45 .
Albert of Aix , loc , cit .

وفي هـذه اللحظة وصل الى جبلة ريموند تولوز ، وروبرت فلاندر وروبرت النرمندي . ومن الطبيعي ان يرتاع ريموند لما يقع باللاذقية من احداث . إذ أنه يمقت كل شيء يقوم به بوهمند ، وتقوم سياسته على التحالف مع بيزنطة ، غير أن رفيقيه استاءا ايضاً لما حدث . فعلى الرغم من أنهما انكرا بعض تصرفات الامبراطور ، فانهما ادركا الحاجة الى قدر من التعاون بين المسيحيين في الشرق والمسيحيين في الغرب ، بعد أن واجهتهما مشكلة نقل جيوشهما ، عند العودة الى اوربا ، وكان من المستحيل القيام بهذا العمل دون مساعدة بيزنطة . وليس من اللائق ايضاً أن يستهل المندوب البابوي الجديد في الشرق نيابته بعمل ينكره معظم المسيحيين الشرقيين . فتقررت دعوة دايمبرت للقدوم الى المعسكر في جبـــلة . وإذ واجهته مظاهرات عدائية من قِبل القـــادة والزعماء ، ادرك خطـأه وسحب الاسطول البيزواي . وكان لزامـــاً على بوهمند أن يتخلى عن حصار اللاذقية ، بعد ان امتنعت مساعدة الاسطول البيزواي ، فضلاً عن غضب زملائه وسخطهم عليه . وعندئذ دخل الى اللاذقية برضى جميع السكان ، ريموند ، يصحبه روبرت فلاندر وروبرت النرمندي ، فرفع علمه على القلعـــة الى جانب علم الامبراطور . ولمـــا علم حاكم قبرص بهذه التطورات ، أعلن موافقته ، وعرض على روبرت فلاندر وروبرت النرمندي أن يحملهما مع عساكرهما على سفنه بالمجان الى القسطنطينية ، في المرحلة الاولى من رحلتهم عـــائدين الى وطنهم . فقبلا الدعوة شاكرين . وارتحل الروبرتان فوصلا سالمين الى القسطنطينية ، حيث احتفل الامبراطور باستقبالهما ، غير أنهما رفضا اقتراحه حول البقـاء في الشرق في خدمته . واستأنفا رحيلهما الى الغرب ، بعد أن قامـا بزيارة قصيرة في القسطنطينية ، على أننا لا نعلم كم كان عدد من ارتحل معهما من رجالهما ، إذ يصح أن جماعة منهم

رحلت على سفن جنوية الى ايطاليا مباشرة . أمـــا ريموند فبقي باللاذقية [١] .

رحيل بوهمند الى بيت المقدس لتأدية الحج :

وفي تلك الأثناء ، انحاز دايمبرت الى بوهمند في انطاكية . والواقع ان بوهمند عرف اهمية رجله ، فلم يلبث أن استعاد نفوذه وسلطانه عليه . كان دايمبرت المندوب النبـــابوي حريصاً على أن يمضي الى بيت المقـــدس ، وقرر بوهمند ان يصحبه . فالمعروف أن بوهمند ، شأنه شأن سائر الصليبيين ، نذر ان يتعبّد بكنيسة القيامة ، وما حدث من عدم وفائه بذلك ، اضعف مكانته . فاذا تهيأت له الفرصة لتأدية الحج مع دايمبرت ، وبـــذا يظفر بمحالفته ، فينبغي ان يحرص على ألا تفلت منه . يضاف الى ذلك أنه لا بـد له ان يفكر في مستقبل بيت المقدس . اذ لم يكن لجودفري وريث شرعي ، وتعرضت صحته للتدهور . ويصح للمندوب البابوي عندئـذ أن يشرف على ولاية الحكم . وكيفما كان الأمر ، فمن الخير ومن دواعي الحكمة ، أن تكون له دراية شخصية بالموقف في بيت المقدس ، وذاع أن دايمبرت وبوهمند سوف يغادران انطاكية في اواخر الخريف ، كيما يبلغا بيت المقدس يوم عيد الميلاد [٢] .

ولما علم بلدوين كونت الرها بالأنباء ، ارسل من الرها يقول إنه سوف يصحب الحجيج الى بيت المقدس ، فهو في حاجـــة ايضاً الى ان يوفي

---

(١) Albert of Aix VI, 56 - 60 pp. 501 - 505 ,
Orderic Vitalis vol, IV, pp, 70 - 72 ,
Guibert of Nogent p, 232 .

(٢) Fulcher of Chartres I, XXX111, 1 - 6, pp, 322 - 326 .
Albert of Aix V11, 6 , p, 511 .

بوعوده وأحس أنه لا بد أن يترك الرها فترة من الزمن ، وصار واضحاً أنه من الخير ان تكون الجماعة في أتم قوة واستعداد . غير أنه كان ايضاً شديد الاهتمام بأمر وراثة الحكم في بيت المقدس . إذ كان شقيق جودفري ، وهو اقرب الناس اليه في الشرق ، لأن يوستاس بويون غادر ، فيما يبدو ، فلسطين ، عقب مسير روبرت فلاندر ، ولم يكن بلدوين أقل من بوهمند طموحاً . وجاء مع بوهمند وبلدوين ، كل من يصح الاستغناء عنه في الدفاع عن املاكها ، فضلاً عن عدد كبير من النساء . فبلغ عدد القادمين معهما ، على حد قول فولشر شارتر ، ٢٥ الف(١) .

ارتحل الحجاج في اوائل نوفمبر . فاتخـــذ دايمبرت وبوهمند الطريق الساحلي ، يحرس جناحها من جهة البحر الاسطول البيزواي . ولما اجتازا اللاذقية ، رفض ريموند ان يمدها بالمؤونة ، وعنـــد بانياس ، الواقعة على مسافة قصيرة الى الجنوب من اللاذقية ، توقفـا ، حتى يتمكن بلدوين من اللحاق بها ، إذ أنه بلغ انطاكية عقب ان ارتحل منها بوهمند ، غير ان ريموند استقبله في اللاذقية استقبالاً حافلاً . على أن سكان بانياس ، ومن الواضح أنهم من المسيحيين اليونانيين الذين يعترفون بسيادة الامبراطور البيزنطي ، لم يرحبوا بقـدوم الحجاج ، ولم يبذلوا لهم شيئاً من المساعدة بشأن المؤن . ولما اوغل الحجاج في المسير ، اشتد بهم الجوع . والمعروف أن انطرسوس التي سبق أن اجتازوها في نهاية الشهر ، عادت الى أيدي المسلمين ، وهاجمت حاميتها اولئك الذين ضلوا عن اللحاق بمؤخرة الجيش ، فأجهزت

---

(١) Fulcher of Chartres, loc, cit ,

يشير فولشر الى ان بوهمند هو الذي دعا بلدوين كيما يصحبه ، لأنـــه كلما زاد العدد ، تحقق الامان والاطمئنان . وما اورده فولشر من الاعداد عن الحجاج ، يتسم بالمبالغة .

انظر : (Ibid 8, p, 328) .

عليهم ، ولم يحصلوا منها على مؤن ، ولم يحصلوا ايضاً على شيء من الطعام من طرابلس ، إذ أن سعر الخبز بلغ من الارتفاع أنه لم يستطع ان يشتريه إلا الأغنياء ، فاقتاتوا على ما ينمو حول طرابلس من قصب السكر . وعلى الرغم من أن الحجاج فرحوا لذلك ، لأنه شيء جديد عندهم ، فانـــه لم يكن كافيـاً لسد حاجتهم ، وكان البرد في ديسمبر بالغ الشدة والقسوة ، فلم تكف الامطار عن الهطول ، ولقي حتفه عـــدد كبير من الشيوخ ، وشديدي النحافة ، وهلك عدد كبير من دواب الحمل . ومع ذلك مضى الحجاج في طريقهم ، ولم يتوقفوا إلا عند الضرورة القصوى . وفي منتصف ديسمبر وصلوا الى قيسارية ، حيث استطاعوا أن يشتروا حاجتهم من المؤن ، وفي ٢١ ديسمبر وصلوا الى بيت المقدس[١] .

فرح جودفري لقدومهم ، اذ كانت حاجته ماسة الى قوة بشرية ، وكان يأمل في ان يقنع كثيراً منهم على البقـــاء في فلسطين ، وعلى أن يحتلوا الضياع التي صار في وسعه وقتذاك ان يبذلهـــا لهم . وأصاب في ذلك قدراً من النجاح. فحينما عاد بوهمند وبلدوين الى الشمال ، بقي مع جودفري كثير من فرسانهم ورجالهم . وما اصاب المصريين من هزيمة في عسقلان ، دلت على أنه على الرغم من ان المدن الساحلية ، باستثناء يافا ؛ لا زالت في حوزة الحكام الفاطميين ، يحميها الاسطول المصري ، فانه خرج من سيطرتهم مرتفعات يهوذا والسامرة . فالمعروف أن القرى بتلك الجهات يسكنها اساساً المسيحيون ، وهم عبارة عن فلاحين مسالمين ، حرموا اجيالاً عديدة من حمل السلاح ، واستغلهم الأمراء المسلمون ، فلما ضعفت الحكومة المركزية ، رحبوا اول الامر بما حدث من تغيير السادة ، ولم يكد الصيف ينتهي حتى امتدت سلطة جودفري الى سهل جزرل (زرعين) في الشمال ، والى ما وراء

---

(١) Fulcher of Chartres' ibid 7 - 18 pp, 323 - 332 .

جبل حبرون ، الى النقب في الجنوب ؛ على الرغم من أنـــه لم تكن له السيطرة التـامة في جنوب يهوذا . لأن معظم السكان كانوا من المسلمين ، واستمر نزوح البدو اليها من الصحراء . وزاد الاهتمام بتحصين حبرون التي التي أطلق الصليبيون عليهـــا اسم St. Abrahams ، حتى أضحت تتحكم في كل المنطقة [١] .

وفي تلك الأثناء ، توغل في الجليل تانكرد وبصحبته ٢٤ فارساً بأتباعهم . وتنازع الجليـــل وقتذاك كل من الفاطميين ودقاق امير دمشق . غير أن دقاقاً لم يتسع له الوقت لاحتلال الاقليم منذ ان لحق الفاطميين الهزيمة في عسقلان . ولذا لم يصادف تانكرد مقاومة شديدة من المسلمين في الجليل . فحينما اقترب جيشه الصغير من طبريه ، عاصمة الاقليم ، هرب المسلمون الى بلاد دمشق . ولقي تانكرد استقبالاً حافلاً من المسيحيين الذين كانوا اقلية بالمدينة . اما اليهود ، وهم اكثر عدداً من المسيحيين ، فأظهروا الجفاء والسخط ، نظراً لمـا أصاب اخوانهم في بيت المقدس من السوء . وحصّن تانكرد طبريه ، ثم توجه الى مدينة الناصرة المسيحية ، ثم الى جبل الطور (Tabor) ، واكتملت فتوحه بالاستيلاء على استحكامات بيسان ، التي تتحكم في الدرب الذي يصل بين سهل جزرل (زرعين) ونهر الاردن . وبادر المسلمون في الجليل الى مغادرة الإقليم ، وأعقب تانكرد رحيلهم بما قام به ، على نحو ما يقوم العرب ، من سلسلة غارات سريعة موفقة على الاراضي الاسلامية المجاورة ، ولم يترتب على هـــذه الغارات فحسب ما امتلأت به يداه وأيدي اتباعه من غنيمة وافرة ، بل أكدت له أيضاً حيازته للجليل . وبذلك اتسعت الدولة المسيحية ، فأضحت كتلة متماسكة من الاراضي ، فصلت نهائياً بين المدن الفاطمية الواقعة على الساحل ، وبين الاراضي الداخلية فيما وراء نهر الاردن وحوران .

---

(١) لم يكن لدى جودفري سوى ٣٠٠ فارس ، ٢٠٠٠ راجل حسبما ورد في وليم الصوري.
William of Tyre IX, 19, vol, 1, pt, 1, p, 393 ,

ولم يتعرض جودفري لخطر مبـــاشر ، لأن المصريين لم يكونوا حتى وقتذاك مستعدين لأن يثأروا لمـــا اصابهم من هزيمـة في عسقلان ، ولانصراف دقاق امير دمشق الى منازعات أسَرية حادة تمنعه من القيام بحرب هجومية . وكان ذلك في صالح جودفري ، الذي لم يكن بوسعه ان يقاوم هجوماً مضاداً عنيفاً ، لأن ما كان لديه من قوة ، حسب تقدير وليم الصوري ، بما استخدمه من وثائق ذلك العصر ، لم تزد على ثلثمائة فارس والفين من الرجّالة . والواقع أن مـا حدث بين العرب من فرقة واختلاف ، هو الذي هيـأ لهذه الامارة الصغيرة الدخيلة أن تستقر بين بلادهم [١] .

تنصيب دايمبرت بطريركا :

وأثناء الرحيل صوب الجنوب ، اعد دايمبرت وبوهمند سياستهما المقبلة . احتاج جودفري الى مساعدتها ، اذ كان في حاجة ماسة الى القوة البحرية التي تبذلها سفن بيزا ، التي تدين بالولاء والطاعة لدايمبرت . واحتاج جودفري ايضاً الى كل ما يستغني عنـه بوهمند من الفرسان . أمضى الحجاج يوم عيد الميلاد في بيت لحم . ولم تكد الاعياد تنتهي حتى كشف القـادمون حديثاً عن حقيقتهم . إذ ان البطريرك ارنولف ، الذي كثر اعداؤه ، والذي صار مولاه دوق ترمنديا شديد البعد عنـه ، تقرر عزله ، على أساس ان انتخابه لم يتفق مع القانون الكنسي . وبناء على تحريض بوهمند ، جرى انتخاب دايمبرت بطريركاً لبيت المقدس مكانه . وترددت الشائعات أن ما بذله دايمبرت من الهدايا لبوهمند وجودفري ، يسر له هذا الامر . وعقب ارتقاء

---

(١) Radulph of Caen CXXX1X pp, 703 - 704
William of Tyre : 1X, 13, vol, 1, pt, 1, p, 394 .

دايمبرت كرسي البطريركية ، ركع أمامه جودفري وبوهمند ، وتلقيا منه تقليداً بأراضي بيت المقدس وانطاكية [١] .

وكان الاحتفال بالغ الدلالة ، فصار مغزاه واضحاً . فالمعروف ان الرأي العام بين الحجاج يعتبر دائمـاً أن الارض المقدسة لا بـد أن تكون من املاك الكنيسة . غير ان ارنولف لم يكن له من السلطة او الشخصية ، ما يتيح له فرض سيطرته وسيادته على السلطات الدنيوية . قدم دايمبرت على أنـه مندوب بابوي ، فاستمد مكانته وهيبته من ان البابا اربانَ هو الذي عينه ، وجلب معه من المزايا العمليـة ما يتمثل في اسطول من السفن ، وفي التأييد القوي من قبل بوهمند . ولن يستطيع المحارب الصليبي العادي ان ينكر عليه حقوقه ودعاويه . أما جودفري فانه برغم ما كان ينتابه من نوبات العتاد ، كان رجلاً ضعيفاً ، أحس أن مركزه ليس مستقراً ، فكان يشارك فيا الكنيسة من احترام صادق . كان يأمل في أن اعترافه بسيادة الكنيسة ، يجعل مركزه يستند الى اساس أخلاقي سليم ، وسوف يحملها على المساندة التامة لحكومة البلاد العلمانية . لم تكن له حتى وقتذاك معرفة بدايمبرت . اما بوهمند فلم تكن اهدافه قد تحددت ، فالاعتراف بسيادة دايمبرت لا يكلفه شيئاً ، لأن دايمبرت سوف يكون من البعد عنه ، مـا يمنعه من التدخل في امور انطاكية . وفرح بوهمند لأنه سوف يغفل حقوق بطريرك انطاكية ، وهو يوناني ، وكان يرتاب فيه ، ويعتبره من عملاء بيزنطة . فاذا جعل سيادته تستند الى كبار رجال الكنيسة اللاتينية في الشرق ، فانه بذلك هيأ للاتين الرد على كل ما يزعمه الامبراطور لنفسه من دعاوى ، ويأمل بذلك في ان يفوز بمساعدتهم الصادقة ، اذا سعى الامبراطور لمهاجمته . والراجح أن بوهمند اتخذ لقب امير انطاكية في هذه الفرصة . على أن لقب امير

---

(١) Albert of Aix V11, 7, pp, 511 - 512 ,
William of Tyre 1X, 15, vol, 1, pt, 1, p, 387 ,

(Princeps) المرتبط بحكم البلاد ، لم يكن معروفاً في الغرب إلا في جنوب ايطاليا ، حيث استخدمه بعض الحكام النرمان ، الذين استولوا على الاراضي اللومباردية ، والذين لم يعترفوا لأحد العلمانيين بالسيادة العليا ، بل بسيادة المقر المقدس . فالاعتراف بسيادة البطريرك دايمبرت يناسب تماماً بوهمند . وفي الوقت ذاته ، اتخذ ابن اخته ، تانكرد ، لقب امير الجليل ، والراجح أنه دلّ بذلك على أن سيده الأعلى ليس جودفري ، بل البطريرك . أما دايمبرت فكان فرحاً لما بذله الأمراء له من الولاء[١] . والراجح ايضاً ان اربان الثاني قصد أنه ينبغي ان تكون الاراضي المقدسة من املاك الكنيسة ، على الرغم من أنه لم يشأ ان يحطم التنظيمات الكنسية القائمة . ولا شك أنه كان يرحب بأن يتولى كل بطريركية في الشرق احد رجال الكنيسة من اللاتين ، متى تم ذلك قانوناً وفي هدوء . غير أنه يصح ان نتساءل ما اذا كان اربان الثاني يقر عملاً ، تتعالى فيه بطريركية بيت المقدس ، بادعاء السيادة على بطريركية انطاكية ، التي تعتبر أقدم منها ، ولها عليها الصدارة والأسبقية من الناحية التاريخية . وطلب دايمبرت ان يكون للبطريركية من دعاوى السيادة الدينية والدنيوية في الشرق ، ما تبلغ في السمو مثلما طلب البابا جريجوري السابع للبابوية في الغرب . وتهيأت الفرصة لدايمبرت ، لأن اربان قد مات . ولا بد ان انباء اعتلاء باسكال الثاني كرسي البابوية بلغت بيت المقدس في الشتاء . والراجح أن دايمبرت تعرف الى باسكال ، الذي كان قبله مندوباً بابوياً في اسبانيا ، وعرف أنه رجل متوسط الكفاءة والقدرة ، ولم تكن اخلاقه قوية ، وليس من الراجح أن يثير شيئاً من المتاعب طالما جرى الاعتراف بسيادته الإسمية[٢] .

---

(١) Grousset : Historie des Croisades vol, 1, pp, 194 - 196 , Moeller : op, cit.

(٢) عن باسكال انظر ما كتبه Amann عن Pascal 11 في :
Vacant & Mangenot : Dictionnaire de Théologie ,

بوهمند وبلدوين يعودان الى الشمال :

على أن بلدوين كونت الرها لم يبذل يمين الولاء للبطريرك ، وليس معروفاً ما اذا كان رفض الطلب الموجه اليه للاعتراف بالبطريرك ، او ان مسألة الاعتراف لم تجر إثارتها اطلاقاً . غير ان علاقاته مع دايمبرت لم تكن فيما يبدو ودّية (١) .

ولما انتهى الاحتفال بتنصيب دايمبرت بطريركاً ، توجه في اول السنة الجديدة ١١٠٠ ، الى املاكه ، كل من بوهمند وبلدوين . وعاد معهما معظم رجالهما وأتباعهما ، غير أنه تخلف وراءهما عدد من هؤلاء الأتباع ، فمنحهم جودفري إقطاعات في فلسطين . وصحب جودفري ودايمبرت الحجاج حتى جزرل (زرعين) ونهر الاردن ، حيث أمضوا عيد الغطاس ، ونعموا بمياهه المباركة . ثم توجه بوهمند وبلدوين صوب الشمال ، مجتازين الوادي الى بيسان ، ومنها الى طبريه . ومن ثم قررا ألا يتخذا الى بلادهما طريق الساحل ، بل يلتزمان الطريق المباشر ، الذي يجتاز بانياس ووادي الليتاني الى البقاع (Coele Syria) . لم يصادفا شيئاً من المقاومة حتى صارا في Coele Syria ، بالقرب من خرائب بعلبك . والمعروف أن هذه المنطقة تخضع لدقاق امير دمشق ، الذي دبر أمر اعتراض طريقهما في هذه الجهة . وسار الطابور وعلى رأسه بوهمند ، بينما اتخذ بلدوين موضعه في المؤخرة ، ولم يلبث ان تعرض للهجوم من قبل قوات دمشق . غير ان دقاقاً وجه كل اهتمامه الى طردهم من بلاده ، لا الى تدميرهم ، فلم يكن هجومه بالغ العنف ، فتيسر للفرنج رد الهجوم ، ثم واصلوا السير حتى بلغوا البحر عند البقيعة ، ومنها اتخذوا الطريق الساحلي ،

(١) ليس ثمة من الادلة ما يشير الى ان بلدوين بذل يمين الولاء لدايمبرت ، وتقلد منه الرها بمقتضى ذلك ، والواضح من سياق الاحداث التي جرت فيما بعد ان دايمبرت لم يثق به .

فاجتازوا انطرسوس واللاذقية ، حتى بلغوا انطاكية ، أما بلدوين فبلغ الرها قبل نهاية شهر فبراير سنة ١١٠٠ (١) .

وبفضل ما انضم الى قوة جودفري الحربية من أمداد ، استطاع ان يبسط سلطانه على سهول فلسطين الواقعة على الساحل . اذ ان املاكه لم يكن يصلها بالبحر ، إلا ممرّ يؤدي الى يافا . ففي أثناء الخريف حاول أن يوسع هــذا الممر ، بأن استولى على ميناء أرسوف الصغير ، الواقع الى شمال يافا . على ان سكان ارسوف ، الذين أدى تدخل جودفري الى رفض ما عرضوه من الاستسلام لريموند كونت تولوز ، رأوا أنه من الحكمة الاتفاق مع جودفري ، بعد أن غادر ريموند فلسطين ، فبعثوا الى جودفري بالرهائن . وفي مقابل ذلك سمحوا أن يدخل الى مدينتهم جيرار افيسنز من فرسان هاينو ، باعتباره من نزلاء المدينة من جهة ، ومن الرهائن من جهة اخرى . غير أن جودفري أراد أن تزداد سيطرته على المدينة . ففي اواخر الخريف زحف بقوة صغيرة لمهاجمة المدينة . وكان اول ضحية لهذا الهجوم ، صديقه جيرار افيسنز ، الذي بادر رجال ارسوف الى شد وثاقه وتعليقه على أسوار المدينة ، فتعرض بذلك لسهام المهاجمين . ولم يُجدِ نفعاً صياح جيرار ومناداته لجودفري ، يلتمس منه إنقاذه وخلاصه . على أن جودفري أجابه أنه ما كان ليتوقف عن تشديد الهجوم ، لو ان أخاه يوستاس هو الذي جرى تعليقه على السور . ولم يلبث جيرار أن جرى شده وجذبه الى المدينة ، وقــد اخترق جسمه اثني عشر سهماً رماه بهــا مواطنوه . غير أن استشهاده ذهب هباء . فلم يستطع رجال جودفري أن يحدثوا أثراً في اسوار المدينة . فالبرجان اللذان يسيران على عجل ، واللذان عمرهما جودفري ، دمرهما الواحد بعد الآخر ، ما قذفته عليهما حامية المدينة من

(١) Fulcher of Chartres I. XXXIII. 19 - 21, pp. 332 - 334 .

النيران الاغريقية . وفي ١٥ ديسمبر ، رفع جودفري الحصار عن المدينة ، غير أنه أبقى نصف جيشه في الرملة ، وأصدر اليهم الأوامر بأن يغيروا على الاراضي المجاورة لأرسوف ، فيستحيل بذلك على سكان أرسوف ان يفلحوا حقولهم [١] .

جودفري وأمراء الساحل :

ولما وصلت الأمداد الى جودفري ، واصل هذه السياسة على نطاق واسع. فأخذ رجاله يشنون الغارات على ظهير المدن الفاطمية الواقعة على الساحل أمثـال عسقلان وقيسارية وعكا فضلاً عن أرسوف ، حتى لا تستطيع احداها ان تحصل على مؤونتها من الريف . وفي نفس الوقت ، وبفضل مساعدة بحارة بيزا ، أعاد جودفري عمارة يافا ، وأصلح ميناءها ، فهرعت الى تلك الجهات السفن من جميع موانىء ايطاليا وبروفانس ، يجذبها الامل في التجارة مع الدولة الجديدة ، وللحاق بالبيازنة ، واقتسام الفرص والأرباح معهم . وبفضل مساعدة هذه السفن ، استطاع جودفري ان يفرض الحصار على ساحل فلسطين ، وازدادت المشقة امام السفن الفاطمية ، لجلب المؤن بحراً الى الموانىء الاسلامية . قام الجانبان (الفاطميون والفرنج) ، بأعمال القرصنة ، غير أن سكان هذه الموانىء هم الذين اشتدت معاناتهم لها [٢] .

وفي منتصف شهر مارس ، ارسل المصريون عن طريق البحر ، بنـاء على دعوة عاجلة النجدة ، سرية من الجند لتعزيز حامية أرسوف . وإذ تشجع رجال الحامية بذلك ، قاموا بهجوم مضاد على الفرنج ، غير أنهم لم يلبثوا ان وقعوا في كمين ، لقى فيه مصرعه الجانب الأكبر من جيشهم . ولما

---

(١) Albert of Aix V11. 1 - 6, pp. 507 - 511 .

(٢) Ibid. V11. 12, 14, pp. 515 - 516 .

استبد اليأس بالمدينة ، لم يسعها إلا أن تنفذ سفارة الى جودفري ، وصلت الى بيت المقدس في ٢٥ مارس ، وقد حملت اليه هدية رمزية ، عبارة عن مفاتيح أبراج المدينة ، وعرضت عليه ان تدفع جزية سنوية . فقبل جودفري خضوعهم واذعانهم ، وجعل لأقرب الفرسان اليه ، روبرت أبوليا ، حق تسلم الجزية . وبعد بضعة ايام ، دهش جودفري ، وازداد سروراً حينما ظهر فجأة في بيت المقدس ، جيرار افيستز إذ ارسلته سلطات ارسوف ، بعد أن تم شفاؤه من الجراح التي أصابته ، للدلالة على نيتهـا الطيبة . فبذل له جودفري ، بعد أن اقلق ضميره مـا تعرض له من مصير ، إقطاع القديس ابراهام (حبرون [١]) .

ولم يلبث ان احتذى بأرسوف ، عسقلان وقيسارية وعكا . ففي أوائل أبريل سنة ١١٠٠ ، اجتمع أمراء هذه المدن سوياً ، وأنفذوا الى جودفري رسلاً يحملون الهدايا من القمح والفواكه والزيت والجياد العربية ، وعرضوا عليه أن يؤدوا كل شهر إتاوة قدرها خمسة آلاف بيزنتاً (دينار) ، اذا سمح لهم جودفري بزراعـة اراضيهم في أمن وسلام . وقبل جودفري الدخول في مفاوضات معهم . ولم تلبث العلاقات الودية ان استقرت بين المدن الاسلامية وسادتها من المسيحيين . وأعلن الخضوع ايضاً عدد كبير من الشيوخ المسلمين في سفوح التلال . وبينما كان جودفري يعسكر امام ارسوف ، قدم لزيارته وفد منهم ، يحملون معهم هدايا من المؤن والطعام ، واشتد تأثرهم وازداد سرورهم لما لمسوه من البساطة في حياته ، وهي البساطة التي أملاها في الواقع تقشفه وميوله . وهذه البساطة تتفق مع مفاهيمهم عن محارب كبير متواضع ، فأضحى من اليسير اكتساب صداقتهم [٢] .

---

(١) Ibid. VII. 13. 15, pp. 515 - 516 .

(٢) Ibid . loc . cit .
William of Tyre IX. 20. vol. I. pt. I. pp. 395 - 396 .

وكان شيوخ شرق الاردن هم الذين سعوا بعدئـذ الى التفـاهم مع جودفري ، إذ درجوا من قبل على ان يرسلوا الفـائض من محصولهم الى المدن الساحلية ، غير ان الامـارات الصليبية اعترضت طرقهم . فطلبوا أن يتيسر لهم من جديد ارسال قوافلهم عبر يهودا ، فسمح لهم جودفري بذلك ، غير انه بذل كل جهده كيما يحول اكبر قدر من التجارة الى ميناء يافا المسيحي . وفي الوقت ذاته شجع الايطاليين ، متى استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، على ان يمنعوا التجارة بين المدن الساحلية الاسلامية ومصر ، وعلى ان يجعلوا هذه المدن تعتمد في تجارتها على المسيحيين . وبذا اخذت فلسطين كلها تندمج في وحدة اقتصادية شاملة ، بما صار لها من علاقات عبر البحر مع اوربا ، فكأن سياسة الصليبيين حققت عائدات عاجلة في الثروة والرخاء للدولة الصليبية (١) .

غارات على الاردن :

وترتب على ازدياد نفوذ جودفري بين المسلمين المجاورين ، أن تشجع على أن يحاول مد سلطانه على الاراضي الواقعة وراء الاردن . ففي ارض السواد في شرق الجليل ، حكم امير كان الصليبيون يطلقون عليـه اسم الفلاح السمين . والمعروف أن تانكرد شن الغارة على بلاده وحثه على ان يعترف بسيادة الفرنج ، غير ان الفلاح السمين نقض ولاءه عندما ارتحل تانكرد ، والتمس المساعدة من سيده دقاق امير دمشق . وعندذاك استنجد تانكرد بجودفري . إذ أنه متى كان للفرنج موضع بهذه الجهة ، استطاعوا ان يحولوا التجارة المثمرة من جولان وحوران الى موانىء فلسطين . يضاف الى ذلك ان منطقة السواد ذاتها اشتهرت بالخصوبة ، وحرص جودفري

---

(١) Albert of Aix VII. 14, p. 516 .

على أن يشترك في الاستيلاء عليها . ففي اوائل مايو ، جلب جودفري قواته لتشترك مع قوات تانكرد في غارة اوغلت في اراضي الفلاح السمين حتى بلغت جوف جولان . على أنــه حين عودتهم ، في ١٨ يونيه ١١٠٠ ، مثقلين بغنيمــة وافرة ، انقض دقاق على مؤخرتهم الـتي تولى حمايتها تانكرد . ولما لم يعلم جودفري بمـــا حدث ، مضى في سيره ، ولم يستطع تانكرد أن يخلص نفسه الا بعد ان فقد عدداً كبيراً من رجاله ، وأضاع كل نصيبه في الغارة من الغنيمة . غير ان دقاقاً لم يكن من القوة ما يجعله يطارد الفرنج ، فرجع الى دمشق ، بعد ان اطمأن الى انهم غادروا بلاده . وتوجه الى بيت المقدس جودفري بغنيمته ، اما تانكرد فاشتدت ثائرته للانتقام . فلم يكد جيشه يستريح فترة قصيرة في طبرية ، ويحشد امداداً ، حتى قــام بغارة جديدة على اراضي دمشق ، بلغت من العنف والشدة ، ان طلب دقاق عقد الهدنة . ومقابل ذلك بعث تانكرد الى دمشق بستة فرسان ، يحملون رسالة تتضمن انه ينبغي على دقاق إما أن يصير مسيحياً وإما أن يغادر دمشق . وإذ هاج دقاق لهذه الاهانة ، رد على الرسل ، بأنه ينبغي عليهم ان يعتنقوا الاسلام ، وإلا لقوا مصرعهم . فلم يتخل عن دينه إلا فارس واحـــد ، وتعرض الخمسة الباقون للقتل . وعندذاك طلب تانكرد الى جودفري ان ينحاز اليه للقيام بغــارة تفوق الغارة السابقة عنفاً وشدة . فظلا اسبوعين يعيثان فساداً في جولان ، بينما لزم المسلمون مواضعهم خلف اسوار مدنهم . وعلى الرغم من شدة حرص دقــاق على أن يقوم بحملة على الصليبيين ، فانــه لم يحاول مقاومتهم . ورأى الفلاح السمين ان سيده تخلى عنـــه ، وأن الفرنج انزلوا ببلاده الخراب واستباحوها ، فوافق مرة اخرى على ان يقبل تانكرد سيداً له ، وأن يؤدي له الجزية بانتظام [1] .

---

(١) Ibid. VII. 16 - 17, pp. 517 - 518 .

وعلى الرغم من أن جودفري اخـذ يربح ويكسب من جيرانه المسلمين ، فان سلطته في داخل بـلاده اخذت تتداعى . بقيت علاقاته ودية مع تانكرد ، الذي يعتبر اكبر اتباعه ، غير أن تانكرد في طلباته المتلاحقة من جودفري ، انما شكل سياسته وفقاً لرغباته وأهوائه . فبينا كان تانكرد امير الجليل يتصرف على أنه امير مستقل ، كان جودفري يدرك ان استقلاله اخذ ينتقصه باستمرار ، السيد الذي اندفع جودفري الى قبوله والارتضاء به ، وهو البطريرك دايمبرت . فلم يقنع دايمبرت بأن تكون سيادته اسمية ونظرية ، انمـا اراد أن تستند الى قوة ايجابية . ونظراً لما اشتهر به جودفري دائماً من الضعف امام الكنيسة ، ولخوفه من ضياع مساعدة البيازنة ، لم يشأ أن يرفض طلبات دايمبرت . ففي عيد الشموع ، في ٢ فبراير ١١٠٠ ، تنازل جودفري لبطريركية بيت المقدس عن ربع مدينة يافا . ثم طلب دايمبرت أنه ينبغي ألا تكون له السيطرة فحسب على كل مدينة يافـا ، بل على مدينة بيت المقدس ذاتها وقلعتها برج داود . فأذعن جودفري ايضاً ، غير أنه أصر على ارجـاء ذلك ، بعد أن حرضه على ذلك فيما يبدو فرسانه الثائرون . وفي احتفال ديني ، جرى يوم عيد القيامة ، اول ابريل ١١٠٠ ، منح جودفري البطريركية المدينتين (يافا وبيت المقدس) ، غير أنه صرح أنه سوف يبقى حائزاً لهما حتى وفاته ، او حتى ينتزع من المسلمين مدينتين كبيرتين . لم يكن ذلك حلا مقبولاً ، لأنه ليس من السهل أن يقيم مملكة منظمة حول عاصمة طارئة . ولم يكن لدى جودفري ، فيما يبدو ، جهاز حكومي سوى موظفي داره وبلاطه ، ولم يأمل ايضاً في ان يجد هذا الجهاز وقتذاك في بيت المقدس . ولو أن دايمبرت كان ادارياً كبيراً ، او كان سياسياً محنكاً من طراز ادهيمر ، لكان من الراجح أن يبقى ما تخيله من قيام سلم للوظائف الحكومية . غير ان محاولته ، التي اتسمت بقصر النظر ، والتي قضت بأن يطرد من العاصمة المدافعين العلمانيين ، الذين لا بد أن تعتمد عليهم سلامة الدولة المسيحية ،

تعتبر امراً بالغ الخطورة ، بل ان ما احرزه جودفري من فترة هدوء وراحة ، انما زادت في متاعب المستقبل . غير أن العناية الالهية بذلت رحمتها لبيت المقدس [١] .

خاتمة حياة جودفري :

لما عاد جودفري الى الجليل حوالي ١٨ يونيه من غارته في جولان ، علم أنه رسا بيافا اسطول ضخم للبنادقة . ونظراً لما يدركه من اهمية هذا الاسطول للسيطرة على السواحل ، هرع الى الشاطىء لتحيته . فارتحل من طبرية ، واجتاز عكا وحيفا الى قيسارية . ولحرص امير قيسارية على ان يظهر احترامه لسيده دعاه الى مأدبة ، أظهر له فيها كل احترام وتشريف . وتوجه جودفري من المأدبة رأساً الى يافا . فشعر بالألم عنــد وصوله ، وأصابه الإغماء والانهيار حينما وصل الى النزل الذي شيده لاستقبال كبار الزائرين . وتذكر اصدقاؤه كل ما تناوله من الفاكهة على مائدة الامير ، وتهامسوا بأنها مسمومة . والراجح ان مرضه كان تيفوداً . وفي اليوم التالي استرد جودفري صحته ونشاطه حتى صار في وسعه ان يستقبل قائــد الاسطول البندقي ، والاسقف الذي صحبه ، وأن يناقشه في الشروط التي بمقتضاها يبذلون المساعدة للصليبيين . غير أنه ما بذله من جهد كان فوق طاقته ، فطلب الى اتباعه وأهل داره ان ينقلوه الى بيت المقدس ، وأنعشه قليلاً مـا امتازت به بيت المقدس من نسيم لطيف ، غير أنـــه بلغ من الضعف أنه لم يعد في وسعه أن يقوم بعمل من الأعمال [٢] .

---

(١) Willtam of Tyre IX. 16 - 17, vol. I. pt. 1. pp. 388 - 390 .

(٢) Albert of Aix VII. 18 p. 519 .

على ان متى الرهاوي الذي اعتمد فيا يبدو على الاحاديث المحلية السائرة ، يشير صراحــة الى ان امير قيسارية دس السم لجودفري .

انظر : (Matthew of Edessa II, CLXV, p. 229)

التف حول فراش جودفري ، رجال السياسة . كان دايمبرت ينتظر بفارغ الصبر اللحظة التي يتسلم فيها المدينة . وحرص البنادقة على أن يستقر ما سبق اجراؤه من ترتيبات ، إذ جاءوا في فوجين الى بيت المقدس للتعبد في الاماكن المقدسة . قدم الفوج الاول في ٢١ يونيه ، وجاء الفوج الثاني في ٢٤ يونيه . غير أن قائدهم وأسقفهم ، مكثا زمناً طويلاً ، والراجح أنه جرى ذلك للمضي في المفاوضات . ولما سمع تانكرد بقدوم البنادقة ، وبمرض جودفري ، بادر بالمسير من الجليل صوب الجنوب . ومن حجرة مرضه ، انتدب جودفري ابن عمه ، كونت برجنديا ، واسمه وارنر جراي ، لينوب عنه في المفاوضات ، وأعلن موافقته على مـا يعرضه البنادقة من شروط . وهي تقضي بأن تطلق لهم حرية التجارة في سائر مملكة الفرنج ، وأن يكون لهم بكل مدينة في الإمارة ، كنيسة وسوق ، وأن يكون لهم ثلث كل مدينة يسهمون في الاستيلاء عليها ، وأن يكون لهم كل مدينة طرابلس ، التي سوف يؤدون عنها إتاوة لجودفري . وفي مقابل ذلك يبذلون المساعدة للصليبيين حتى ١٥ اغسطس[١] ، ثم توقفت المناقشات ، كيا يتقرر اي المدن ينبغي مهاجمتها في ذلك الصيف . تم الاتفاق على أن تكون عكا هي الهدف الاساسي ، برغم المعاهدة التي انعقدت بين اميرها وجودفري ، وينبغي ايضاً الاستيلاء على حيفا ، غير ان جودفري نفسه ، وعد بأن يبذل حيفا لصديقه جيلديار كاربنيل[٢] .

---

(١) Translatio Sancti Nicolai in Venetiam R. H. C. Occ. vol. V. pt. 1. pp. 272 - 273.
Albert of Aix VII. 19, p. 519 .

(٢) Translatio Sancti Nicolai loc. cit.
Albert of Aix VII. 20, p. 520.

وفي اثنـــاء الاسبوعين الاولين من يوليه ١١٠٠ ، شعر جودفري باضطراد التحسن في صحته ، وجرى الظن انه سوف ينهض من مرضه . وسار قدماً ما تقرر وضعه من خطط لتوجيه حملة لمهاجمة عكا ، وانحاز اليه بالعاصمة عساكر تانكرد . وتولى وارنر جراي قيـادة قوات جودفري . وعندئذ عزم البطريرك دايمبرت على أن يصحب الحملة ، كيما يظهر على أن له السلطة العليا في البلاد ، ولتكون له الكلمة النهائية في توزيع الاراضي . على ان دايمبرت لم يثق في وارنر ، ورأى انه من الخير أن يغادر (دايمبرت) بيت المقدس في الوقت الذي بلغ فيه مرض جودفري من الشدة ما يمنعه من القيـام بعمل من الاعمال ، والذي خرجت فيه كل عساكره للغزو ، والواقع أنه لم يكن ليفعل ما هو أسوأ من هذا التقدير .

وفي ١٣ يوليه ١١٠٠ ، غادر بيت المقدس البطريرك وتانكرد ووارنر وكل رجالهم ، وساروا الى يافا ليتصلوا بالبنادقة . وحينما اقتربوا من يافا ، خر وارنر فجـــأة مريضاً . والواضح أنه ليس في وسعه ان يمضي مع الحملة ، ولذا بقي في يافا اربعة ايام ، ثم جرى نقله في محفة الى بيت المقدس . وفي تلك الاثنـــاء اسرع الجيش في المسير صوب الشمال ازاء الساحل ، وتجهزت سفن البندقية للإقلاع ازاء جناحه . غير أن الرياح الشمالية ردت السفن الى الوراء ، ولم تتقدم إلا قليلاً (١) .

لم يكد وارنر يصل الى بيت المقدس ، حتى هبط قلب جودفري بالغ الضعف . وفي يوم الاربعاء ١٨ يوليه ، وبعد أن صحا جودفري ليؤدي آخر شعائر للكنيسة ، انتقل الى الراحة الأبدية دوق اللورين وحامي القبر المقدس . كان جودفري حاكماً ضعيفاً أحمق ، غير أن الرجال على اختلاف

(١) Translatio Sancti Nicolai loc. cit.

أنهم احترموه لشجاعته، وتواضعه وإيمانه. وتلقى الناس في بيت المقدس نبأ وفاته بالحزن العميق. وظل خمسة ايام مسجى في الفراش، يلقي عليه الناس نظرة الوداع، ثم دفنوه في كنيسة القيامة [1].

---

(١) Albert of Aix VII. 21, pp. 520 - 521.
William of Tyre : IX. 23, vol. 1, pt. 1, p. 399.

الفصل الرابع

مملكة بيت المقدس

في أثناء مرض جودفري ، حرر وصية جعل فيها للبطريرك مدينة بيت المقدس ، وذلك للوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه في عيد القيامة . ولما مات جودفري ، لم يكن في بيت المقدس من ذوي النفوذ والسلطان ، إلا وارنر جراي ، إذ كان البطريرك وكبار الفرسان غائبين في الحملة التي سارت لمهاجمة عكا . ولم يكن وارنر نفسه إلا رجلاً مائتاً ، غير انه أدرك ما لا بد من اجرائه . إذ نهض من فراش مرضه ، وبادر الى احتلال برج داود ، وشحنه بحرس جودفري الخاص . وبعد ان استشار رؤساء حاشية جودفري ، أمثال ماتيو الصنجيل ، وجودفري الحاجب ، وكذا روبرت أسقف الرملة ، وأرنولف البطريرك السابق ، أرسل على وجه السرعة أسقف الرملة ، وبصحبته فارسان ، الى الرها ، ليخطروا بلدوين بوفاة أخيه ، وليستدعوه للقدوم ليتولى أمر ملكه ، لأنهم لا يطيعون إلا واحداً من أقربائه . على أن هذه الحركة تقرر تدبيرها من قبل ، لأن دعوة بلدوين انما جرى توجيهها ايضاً بأسماء فرسان كانوا وقتذاك مع الجيش ، أمثال جيلدمار كاربنيل وويشر الالماني . وتألفت هذه الجماعة من رجال من اللورين ومن الفرنسيين الشماليين ،

الذين قدموا مع جودفري في الحملة او لحقوا به ، والذين اشتدت مقاومتهم للنرمان والايطاليين ، الذين وقع جودفري تحت نفوذهم . غير أن سرهم ظل مكتوماً ، ورأوا من الحكمة الابقاء على اخفائه . ولم تصل أنباء وفاة الدوق الى الجيش [1] .

على أنه بينما كانت سفن البندقية لا تزال قريبة من يافا ، تنتظر توقف الرياح الشمالية كيما تواصل سيرها ، هبط على البنادقة رسول من بيت المقدس ، انهى اليهم الخبر بوفاة جودفري . وإذ فكر قائد سفن البنادقة فيما يكون لهذا من أثر في الحملة ، بادر الى ارسال ثلاث سفن تعتبر أسرع ما لديه من السفن ، الى الساحل كيما تلحق بتانكرد والبطريرك ، وتسألهما ما سوف تكون عليه وقتئذ خططهم . جاءت الأخبار صدمة للجيش ، الذي تعلق بجودفري . على ان دايمبرت أظهر التردد ، اذ كان قلقاً على إرثه ، غير أنه كان واثقاً فيما ورد في وصية جودفري ، واعتقد ان عساكر اللورين ، أضحوا لا قائد لهم . فلما اقترح تانكرد ، الذي وطد العزم على ألا يضيع فرصة مساعدة البندقية ، تأجيل مهاجمة عكا ، والمبادرة الى الاستيلاء على حيفا ، أقره البطريرك على ذلك . غير أنه أنفذ رسولاً الى بيت المقدس ، ليتسلم باسمه برج داود [2] .

استنجاد دايمبرت ببوهمند :

تحرك الجيش الى حيفا ، وعسكر على منحدرات جبل الكرمل ، ولم

---

(١) الواضح أن زعماء الحملة لم يعلموا بخبر الوفاة إلا من البنادقة . انظر :
Albert of Aix VII. 30. p. 526.
William of Tyre X. 3. vol. I. pt. 1. pp. 403 - 404.

(٢) Translatio Sancti Nicolai in Venetiam pp. 275 - 276.
William of Tyre : loc. cit.

يلبث اسطول البنادقة أن ابحر الى الخليج (حيفا) . وكان معظم سكان حيفا من اليهود ، واستقرت بها حامية مصرية صغيرة . ولما تذكر اليهود ما صارت اليه احوال جالياتهم في بيت المقدس والجليل من السوء ، أبدوا الاستعداد للدفاع عن انفسهم حتى النهـاية . وأمدهم المسلمون بالأسلحة ، فقاتلوا بكل ما اشتهر به عنصرهم من الصلابة . ولما فقد البنادقة سفينة لهم في المعركة التي دارت في الميناء ، تحركوا خائري القوى الى الخليج . أما تانكرد الذي ثار حينما علم فجأة أن جودفري وعد جيلدمار كاربنيل بأن ينال حيفا ، فاستدعى عساكره ولجأ الى خيمته حزيناً متجهماً . وبذل دايمبرت كل ما في وسعه من جهد لحمل تانكرد على مواصلة القتال ، فأشار الى أن البنادقة أخذوا يتجهزون للإقلاع ، ووعد بأنه سوف يأخذ في الاعتبار بأن يمنح يافا لخير الرجال . ولما وافق تانكرد على التعاون مرة اخرى ، تقررت المبادرة بالهجوم ، وبعد نضال عنيف ، جرت مهاجمة البرج الرئيسي في خطوط الدفاع ، وشق الجند طريقهم اليـــه . وهرب الى عكا وقيسارية كل من استطاع أن يفر من المدينة من المسلمين واليهود ، غير أن الغالبية لقيت مصرعها [1] .

وسقطت حيفا حوالي ٢٥ يوليه ، وتلى ذلك أن عقد قادة الجيش مجلساً ليقرروا أيهم تكون من نصيبه . كان لدى تانكرد أضخم قوة عسكرية ، فضلاً عن مساندة دايمبرت له . ولما لم يكن بوسع جيلدمار كاربنيل أن يناوىء تانكرد ، تقرر طرده من المدينـة ، فانسحب وبصحبته من كان بالجيش من عساكر اللورين ، واتخـــذ طريقه الى جنوب فلسطين ، حيث استقر في حبرون ، وكان سيدها السابق جيرار افيسنز لا يزال ، فيما يبدو ،

---

(١) Albert of Aix VII. 22 - 25, pp. 521 - 523.
Translatio Sancti Nicolai pp. 276 - 278.

في حيفا بصحبة تانكرد [1] . ثم اجتمع سوياً دايمبرت وتانكرد للتشاور في مسألة اكثر أهمية ، وهي مستقبل حكومة بيت المقدس . إذ أن دايمبرت وقف حينئذ على أخبار بيت المقدس . ذلك أن الرسول الذي بعثه الى بيت المقدس اكتشف أن وارنرجراي استولى على برج داود ، ولم يرض بتسليمه الى ممثلي البطريرك ، وعلم أنـــه تقرر استدعـــاء بلدوين للقدوم صوب الجنوب . مات وارنر في ٢٣ يوليه ، متأثراً بمـــا بذله اخيراً من جهود ضخمة . وعلى الرغم من أن اصدقاء البطريرك لمسوا في موتـــه المساعدة الإلهية ، بأن أنزل الله به العقاب لتجرده من التقوى ، فان ذلك لم يفدهم كثيراً ، لأن البرج لا زال في حوزة عساكر اللورين [2] . لم يأمل دايمبرت في أن تتحقق دعاويه دون أن يظفر بمساعدة ، فكان لا بد له من التحالف مع تانكرد ، لأن إمارته امتدت وقتذاك من شرق الجليل الى البحر المتوسط ، فقطعت بذلك طريق الاتصال بين بيت المقدس والشمال . والمعروف أن تانكرد نفسه كان يكنّ الكراهية لبلدوين منذ ان نشبت بينهما المنازعات في قليقية ، منذ ثلاث سنوات . وبتأييد تانكرد المطلق ، عزم دايمبرت على أن يعرض حكومة فلسطين على بوهمند ، فأمر امين سره ، موريللوس ، أن يتوجـه مباشرة الى انطاكية ، برسالة منه الى الامير (بوهمند) .

لم يقصد دايمبرت بأن يحمل بوهمند على الارتياب في طبيعة سيادتـه المقبلة . فاستهل رسالته باستعادة ما حدث من مساعدة بوهمند له في انتخابه بطريركاً على كنيسة بيت المقدس ، التي وصفها ، دون ان يكترث بدعاوى روما ، بأنها ام الكنائس ، وسيدة الأمم . ثم اخبره بما انتزعه من جودفري

---

(١) لم يرد في الوثائق ما يدل على احتجاج جيرار على أعمال جيلدمار . انظر :
Albert of Aix VII. 6. pp. 523 - 524.

(٢) William of Tyre : loc. cit.

من امتيازات وحقوق ، ونعى محاولات حاشية جودفري ، لمنعها عنــه . وردد شروط التسوية التي تمت يوم عيــد الميلاد ، وأكد أنه بمقتضى هذه التسوية لا بد من انتقال بيت المقدس اليه عند وفاة جودفري . غير ان وارنرجراي ارتكب خطأً بليغاً ، بالاستيلاء على برج داود ، وبأن بذل لبلدوين إرث جودفري . وعندئذ دعا دايمبرت بوهمند للنهوض لمساعدته ، مثلمـا قــدم والد بوهمند لمساعدة البابا جريجوري السابع ، حينما تعرض لظلم الأباطرة الألمان . على أن هــذه الذكرى ليست في صالح الكنيسة ، على عكس ما يظن دايمبرت . اذ كان لزاماً على بوهمند ان يكتب الى بلدوين يمنعه من القدوم الى فلسطين ، إلا بعــد الحصول على إذن وتصريح من البطريرك ، فاذا عصى بلدوين طلبه ، وجب على بوهمند ان يستخدم القوة لمنعه . والخلاصة أن امير انطاكية المسيحي كان لا بد له أن يعلن الحرب على كونت الرها المسيحي ، حتى يتيسر للبطريرك أن يحكم فلسطين ، دون رضى الفرسان ، الذين يتوقف عليهم الدفاع عن البلاد [١] .

ليس معروفاً ما بعث به بوهمند من رد على رسالة دايمبرت ، وليس من الراجح أن بلغت به الرعونة ان يغامر بقتال بلدوين ، بل إنه لو قدم الى فلسطين فلن يبقى طويلاً على ولائــه للبطريرك . غير أن الدعوة لم تبلغه ، وبذلك انقطع رجاء دايمبرت وأمله .

زيارات ريموند للقسطنطينية :

وفي أثنــاء الشهور القليلة الأخيرة ، حدثت تغييرات في الوضع بشمال سوريا . اذ أمضى ريموند تولوز شهور الشتاء في اللاذقية ، فكان يتولى حكمها

---

(١) Albert of Aix VII. 27, p. 524.

أورد نص رسالة دايمبرت ، وليم الصوري :

William of Tyre X. 4. 1. pp. 405 - 406.

بالاشتراك مع ممثلي الامبراطور البيزنطي . كان على علاقات ودية مع حاكم قبرص ، الذي استمد منه المؤن . وتلقى في وقت من الأوقات في فصل الربيع رسالة من الكسيوس ، يشكره فيها على ما بذله له من مساعدة ، ويطلب اليه أن يسلم اللاذقية الى السلطات البيزنطية . وتضمنت الرسالة ايضاً دعوة موجهة اليه من قبل الامبراطور ، لزيارة البلاط البيزنطي . والراجح ان الرسالة حملهـــا من القسطنطينية الطواشي بوستانيوس ، الذي ارتقى اخيراً الى رتبة قائد الاسطول البيزنطي ، والذي قدم على رأس اسطول قوي ، وبادر فعلاً الى استرداد ميناءي قليقية في الغرب ، سيلوقية وكوريكوس ، ثم أمد نفوذه وسلطانه على أمـلاك بوهمند بقليقية الواقعـــة في اقصى الشرق ، فاحتل طرسوس وأذنة والمصيصة . وقبل ريموند الدعوة ، فارتحل الى القسطنطينية في اول يونيه . والتقى في قبرص بالاسطول البندقي ، وهو في طريقه الى يافا ، ووصل ريموند الى العاصمة البيزنطية حوالي نهاية الشهر . اما زوجته الكونتيسة ايلفيرا اراجون ، التي لازمته طوال اسفاره ، فانها بقيت في اللاذقية ، مع ما تبقى من جيوش تولوز وبروفانس تحت حماية السلطات البيزنطية (١) .

ووصل الى اللاذقية في آخر يوليه ، موريللوس ، كاتم سر دايمبرت ، وهو في طريقه الى انطاكية ، فاحتجزته السلطات حتى تفحص اوراقه ، فاكتشفت الرسالة الموجهة من البطريرك الى بوهمند . ولما جرى توجيه الرسالة الى

---

(١) انظر : Anna Comnena XI. VII. 4. X. 9-10 vol. III. pp. 435 - 436.
Fulcher of Chartres 1. XXXII. 1. pp. 320 - 321.
Translatio Sancti Nicolai p. 271.
على الرغم من أن الترتيب الزمني للأحداث لم يكن واضحاً عند أنه كومنين ، فانــه جرى تحقيق التاريخ من المصادر الغربية .

رجال ريموند لترجمتها ، بلغ من ارتياعهم لما ورد بها ، أنهم منعوا وصولها الى بوهمند ، وقبضوا على موريللوس [١] .

ولو أن بوهمند تسلم الرسالة ، لازداد مستقبله إشراقاً وسعادة . ففي اول اغسطس ، سار بوهمند الذي لا يزال يجهل ما يقع من الأحداث في فلسطين ، من انطاكية الى الفرات ، تلبية لما طلبه ارمن ملطية من المساعدة . والمعروف ان بوهمند استطاع في اوائل الصيف ان يوطد الطرف الجنوبي الشرقي الواقع وراء نهر الاورنت ، بأن احبط هجوماً قام به رضوان امير حلب ، فلم يسع رضوان إلا ان يطلب المساعدة من امير حمص [٢] . على ان العلاقات بين حلب وحمص لم تكن من القوة ما تثير مخاوف بوهمند ، على الرغم من ان المسلمين استطاعوا ان يستردوا تلمنس (تل‌منس) ، التي لم يبق بها حامية كبيرة ، بعد ان غادرها كونت ريموند بيليه ، وارتحل مع كونت تولوز صوب الجنوب . وأحس بوهمند بأن لديه من القوة ما يجعله يمد ممتلكاته نحو الشمال . غير أنه نظراً لافتقاره الى قوة بحرية ، لم يكن بوسعه ان يمنع البيزنطيين من استرداد قليقية . على أنه حرص على السيطرة على دروب جبل اللكام ، التي يصح ان تجتازها كل حملة بيزنطية تقصد مهاجمة انطاكية . ولذا استجاب عن طيب خاطر ، لما التمسه منه من المساعدة ، جبرئيل الارمني امير ملطية ، لما توقعه من الهجوم من قبل الملك غازي جمشتكين (انوشتكين الدانشمند) امير سيواس . إذ أن الامير الدانشمند ظل ثلاث سنوات يغير صيفاً على املاك جبرئيل . وكل ما جرى الخوف منه وقتذاك ، أن يزحف الامير الدانشمند على المدينة ذاتها (ملطية) . واذ اتعظ جبرئيل بتجربة صهره توروس امير الرها مع بلدوين ، لم يشأ أن

---

(١) انظر : Albert of Aix , loc. cit.

(٢) Kemal ad-Din : Chronicle of Aleppo pp. 588 - 589.

يلتمس النجدة من بلدوين على الرغم من شدة قرب إمارته منه . اظهر بوهمند قدراً من الاهتمام بالارمن . فمن اصدقائه الأرمن ، سيبريان اسقف انطاكية ، وجريجوري اسقف مرعش . وبفضل وساطتهما ، عرض جبرئيل ان يسلم المدينة الى بوهمند ، متى توقف خطر الترك عنها(١) .

وقوع بوهمند في الاسر :

على ان بوهمند ، قبل ان يغادر انطاكية لنصرة جبرئيل ، اتخذ قراراً ، أدى الى القطيعة نهائياً مع اليونانيين ، وأفضت نتائجه الى اول صدع لا يجبر ، بين الكنيستين اليونانية واللاتينية . فيوحنا الرابع الذي سبق ان أعاده ادهيمر بطريركاً على انطاكية ، لا زال حتى وقتذاك يشغل هذا المنصب وكان من اليونانيين ، وارتاب بوهمند في انه يميل الى البيزنطيين ، وأنه يشجع الارثوذكس في بطريركيته على ان يأملوا في الخلاص على يد الامبراطور . فطرده بوهمند من المدينة ، وعين مكانه بطريركاً من اللاتين ، اسمه برنارد فالنس ، كان قسيساً لدى ادهيمر ، ثم جعله بوهمند اسقفاً في ارتاح ، واصطحبه معه الى بيت المقدس لرسامته . على ان اللاتين المتأخرين ، أمثال وليم الصوري ، الذين حرصوا على اقرار شرعية سلسلة البطاركة اللاتين في انطاكية ، أعلنوا أن يوحنا اعتزل منصبه فعلاً . والواقع ان يوحنا لم يعتزل منصبه إلا بعد أن وصل الى القسطنطينية ، فخلفه في هذا المنصب احد اليونانيين . أقام في دير اوكسيا ، حيث كتب رسالة ، ينكر

---

(١) انظر : Albert of Aix , loc. cit.
Matthew of Edessa II. CLXVII. pp. 230 - 231.
Michael The Syrian (ed. Chabot) III. III. p. 187.
Ibn al-Athir op. cit. pp. 203 - 204.

فيها التقاليد والطقوس اللاتينية ، وتحدث فيها بمرارة عن ظلم اللاتين ، وانتقلت حقوقه الى بطريرك انتخبه رجال اكليروسه بالمنفى . وبهذا قامت في انطاكية فئتان من الأساقفة اليونانيين واللاتين ، ولم ترض احداهما ان تذعن للأخرى . على أن بوهمند ، هو الذي احدث الانشقاق النهائي بين الكنيستين (اليونانية واللاتينية) في انطاكية . أما الامبراطور فانه أضاف الى طموحه في إعادة انطاكية الى الامبراطورية ، العزم والتصميم على ان يعيد أرباب الحق الشرعي في البطريركية الى كرسي البطريركية بانطاكية [١] .

وبعد ان استأصل بوهمند بذالك المصدر الاساسي للخيانة المحتملة في انطاكية ، توجه الى ملطية . ولما لم يشأ بوهمند ان يترك عاصمته ، دون أن تتوافر بها حامية كبيرة ، لم يصحب معه إلا ابن عمه ، ريتشارد امير سالرنو ، وثلثمائة فارس وأتباعهم من الرجالة . وصحبه ايضاً اسقفا انطاكية ومرعش الارمنيان ، ولعله كان من بين فرسانه جماعة من الأرمن . ولاعتقاد بوهمند انه يستطيع ان يقهر الترك بقوة صغيرة العدد ، سار دون اكتراث ، فارتقى التلال التي تفصل ملطية عن وادي نهر اقسو . على ان الامير الدانشمند تربص له في ذلك الموضع ، فانقض فجأة على بوهمند .

---

(١) انظر : William of Tyre : V1, 23, vol, 1, pt, 1, pp. 273 - 275.
Orderic Vitalis vol. IV. p. 141.
زعم فيتاليس أن التغيير وقع أثناء غيبة بوهمند في الأسر ، وهذا يخالف المنطق ، اذ ان بوهمند عين خليفة البطريرك .
Radulp of Caen. CXL. p. 704.
Leib : Deux Inédits Byzantins pp. 59 - 69.
ما حدث من تنازل يوحنا ، بتاريخ اكتوبر ١١٠٠ ، ورد في مخطوطة في سيناء . انظر :
Benechewitch : Catalogus Codicum Manuscriptorum **Graecorum** p. 279.
Grumel : « Les Patriarches d'Antioche du nom de **Jean** ». **in Echos** d'Orient vol. XXXII. pp. 286 - 298.

وأخذ الفرنج على غرة ، وأتم تطويقهم . وبعد قتال شديد العنف قصير الأمد ، تحطم جيش بوهمند . فلقي الأسقفان الأرمنيان مصرعها . اما بوهمند الذي طالما أثار الرعب في نفوس المسلمين ، وريتشارد امير سالرنو ، فجرى حملها الى الأسر المهين (١) .

لم ينقذ شمال سوريا العالم المسيحي إلا بلدوين . اذ أن بوهمند حينما رأى أنه وقع في الأسر ، قطع خصلة من شعره الاصفر ، وبعث بها مع جندي ، استطاع أن يتسلل بين الأتراك المحدقين به ، وأسرع الى الرها . وفي الرها سلم بلدوين رسالة بوهمند ، بعد أن اظهر شعر بوهمند ليتحقق من صدق كلامه . توسل بوهمند في رسالته ان يتم خلاصه ، قبل ان تتهيأ الفرصة للترك لنقله الى جهة نائية في جوف آسيا الصغرى . غير أن بلدوين كان اكثر اهتماماً بسلامة إمارات الفرنج ، لا بشخص صديقه ومنافسه القديم . فبادر بلدوين بالخروج في قوة صغيرة لم تشتمل إلا على ١٤٠ فارساً ، على أن كشافته كانت بالغة الروعة ، وما سبقه من الشائعات زادت في حجم جيشه . اذ أن الملك غازي جمشتكين (انوشتكين) مضى غداة الانتصار في الزحف حتى بلغ اسوار ملطية . فأظهر لحاميتها رؤوس ضحاياه من الفرنج والأرمن . غير أنه لما سمع باقتراب بلدوين ، رأى أنه من الخير أن ينسحب الى بلاده بما يحمله من غنائم وأسرى . واقتفى بلدوين أثره الى الجبال ، غير أنه خاف ان

---

(١) انظر : Albert of Aix VII. 27 - 28. pp. 524 - 525.
Fulcher of Chartres 1. XXXV. 1 - 4. pp. 343 - 347.
Radulph of Caen CXLI. pp. 704 - 705.
Matthew of Edessa loc. cit.
Michael The Syrian (ed. Chabot) III. iii pp. 188 - 189.
(يتحدث عن خيانة الارمن) .
Ibn al-Qalanisi : Damascus Chronicle pp. 49 - 50.
Ibn al-Athir op. cit. p. 203.
Kamal ad-Din op. cit. p. 589.

يتوغل في داخل البلاد ، فيسهل ايقاعه في كمين ، فضلاً عن أنه لم يثق في السكان الاصليين ، فعاد الى ملطية ، بعد ثلاثة ايام . أما بوهمند وريتشارد سالرنو ، فسارا مكبلين بالاغلال والسلاسل ، حيث ظلا معتقلين زمناً طويلاً في قلعة نقصار التي تقع في موضع بعيد في جوف جبال بُنطس [1] .

ورحب جبرئيل صاحب ملطية ببلدوين باعتباره مخلصاً له ، فبادر بجعل نفسه تحت سيادته . ومقابل ذلك خلف له بلدوين خمسين فارساً ليتولوا الدفاع عن المدينة . وبفضل هؤلاء الفرسان ، استطاع جبرئيل أن يرد ما تعرض له بعد بضعة شهور من هجوم من قِبل دانشمند ، حينما بلغ الترك من الأنباء ما يشير الى ان بلدوين غادر شمال سوريا [2] .

رحيل بلدوين الى بيت المقدس :

لم يستقبل بلدوين الرسل القادمين من بيت المقدس لإخطاره بوفاة اخيه جودفري ، إلا بعد عودته الى الرها ، وبعد الفراغ من حملته ، وذلك حوالي نهاية اغسطس سنة ١١٠٠ . امضى بلدوين شهر سبتمبر في إجراء الترتيبات اللازمة لسفره ، ولحكومة الرها . وكان ابن عمه ، بلدوين لى بور في انطاكية ، حيث كان فيما يبدو ينوب فيها عن بوهمند ، ولعله كان يعمل قائد اتصال بين الزعيمين بلدوين وبوهمند . فتقرر استدعاؤه الى الرها ، حيث قلده بلدوين حكومة الكونتية ، على أن يكون خاضعاً لسيادته . وفي ٢ اكتوبر ، ارتحل الى بيت المقدس ، بلدوين مع اهل بيته وأتباعه وحرسه المؤلف

---

(١) انظر : Albert of Aix. VII. 29. pp. 525 - 529.
انظر المراجع الواردة في الحاشية السابقة .
(٢) انظر : Albert of Aix : loc. ctt.

من ٢٠٠ فارس ، و ٧٠٠ من الرجالة ، ولم يحزن إلا قليلاً لوفاة اخيه جودفري ، على حد قول قسيسه فولشر ، على حين أنه تهلل فرحاً وسروراً لما اصابه من الإرث والملك⁽¹⁾ .

تبددت آمال دايمبرت في أن بوهمند قد يوقف بلدوين ، لأن بوهمند اضحى في الأسر ، وابتهج فرنج انطاكية للترحيب بالرجل الذي أدى تدخله الى انقاذهم من النتائج التي ترتبت على الكارثة (أسر بوهمند) . ومن انطاكية التي مكث بها ثلاثة ايام ، ارسل زوجته ووصيفاتها الرحيل بحراً الى يافا ، لأنه خشي تعرضهن للمتاعب أثناء سفره . وفي اللاذقية ، حيث لقي من سلطاتها استقبالاً حافلاً ، وقد أمضى بها ليلتين ، انحاز اليه عدد كبير من العساكر . غير أن حماسهم لم يستمر طويلاً ، اذ لم يلبث أن ذاع ان الترك في دمشق وطدوا العزم على تحطيمه ، أثناء سيره على الساحل . فعند وصوله الى جبله ، بلغت قوته من التناقص والتضاؤل ، أنها لم تتجاوز مائة وستين فارساً ، وخمسمائة من الرجالة . غير أنه وصل سالماً الى طرابلس ، بعد ان أغذ السير وتحمل متاعبه ومشقاته . كانت العلاقات بين امير طرابلس الجديد ، فخر الملك ، ودقاق امير دمشق ، بلغت منتهاها من السوء ، نظراً لأن دقاقاً حاول ان يمد سلطانه ونفوذه حتى الساحل اللبناني ، ولذا اعلن فخر الملك عن ارتياحه وسروره ، لا فحسب بامداد بلدوين بالمؤن التي يحتاجها ، بل ايضاً بالمعلومات عن تحركات دقاق وخططه .

وحينما يقترب من بيروت الطريق الساحلي القادم من طرابلس ، عند اجتياز نهر الكلب ، يسير على امتداد حافة ضيقة ، بين الجبل والبحر . ولهذا الدرب الضيق شهرته منذ العصور القديمة ، اذ ان كل فاتح اجتازه منذ

---

(١) Fulcher of Chartres II. i. 1. pp. 352 - 354.
Albert of Aix VII. 31. p. 527.

رمسيس ، فرعون مصر ، كان يخلد انتصاره ، بحفر نقش على صفحة جرف الجبل . وفي هذا الموضع ترقب الدماشقة قدوم بلدوين . واذ انذره امير طرابلس ، تقدم بلدوين في حذر شديد ، فألفى نفسه يواجه جيش دقاق بأكمله ، وجيش امير حمص معاً ، على حين أن اسطولاً بحرياً عربياً من بيروت ، كان يقف اتجاه الساحل مستعداً لاعتراض الطريق عند ارتداده . وفشلت محاولة بلدوين لاجتياز النهر ، نظراً لما صادفه من القوات الضخمة المتفوقة ، وحمد الله حينما هبط الليل ، وتيسر له الانسحاب . وحث امير حمص عساكر دمشق على أن يهاجموه في الظلام ، غير أن قادة دقاق آثروا الانتظار حتى بزوغ الفجر ، حتى يستطيع الاسطول الاسلامي ان يتعاون معهم . واكتفوا طوال الليل بقذف خطوط الفرنج بالسهام . وكتب فولشر في وصف المعركة : « وددت لو اعود الى وطني في شارتر او اورليان ، وأحس آخرون بهذا الشعور » . غير ان بلدوين لم تفارقه الشجاعة ، ففي صبيحة اليوم التالي ، اوهم العدو بأنه يرتد مرة اخرى ، غير انه حرص على ان يضع في المؤخرة خيرة رجاله المسلحين . فسار الدماشقة في إثرهم متلهفين لمطاردتهم ، غير انه حينما اخذ الطريق يضيق مرة اخرى خلف جونية ، وعلى مسافة خمسة اميال الى الشمال ، استدار بلدوين فجأة وانقض بكل جيشه على الدماشقة الذين يتعقبونه . فأذهلتهم المفاجأة ، وارتدوا على العساكر المحتشدة من خلفهم ، فوقع الاضطراب وسادت الفوضى على الطريق الضيق ، واشتد بلدوين في هجماته . ولم يكن بوسع السفن الاسلامية أن تقترب من الساحل لبذل المساعدة لحلفائها ، الذين ساد بينهم الذعر والخوف . وعند حلول الليل ، فرّ كل الجيش الاسلامي الى الجبال ، او التمس الحماية خلف اسوار بيروت . وعسكر بلدوين تلك الليلة في جونيه ، وفي صبيحة اليوم التالي ، عبر جيشه بما حمله من غنيمة ، نهر الكلب دون أن يصادف مقاومة .

ومنذئذ لم يعترض المسلمون مسيره ، فاجتاز بيروت وصيدا في سلام ، وفي صور بذل الحاكم المصري عن طيب خاطر له المؤن . وفي نهاية اكتوبر ، بلغ بلدوين حيفا ، الميناء المسيحي . والمعروف ان حيفا تعتبر من املاك تانكرد . غير أن تانكرد كان وقتذاك في بيت المقدس ، يساعد دايمبرت في محاولته الفاشلة لاستعادة برج داود من عساكر اللورين ، قبل أن يصل بلدوين . واغتنم الفرنج في حيفا فرصة غياب تانكرد ، فعرضوا على بلدوين أن يفتحوا له ابواب المدينة ، غير أنه تشكك في نواياهم ، وآثر أن يعسكر خارج الاسوار . وبعد ان استراحت عساكره في حيفا بضعة ايام ، واصل السير ازاء الساحل حتى بلغ يافا . ولما سمع تانكرد بخبر اقتراب بلدوين ، اسرع بالقدوم الى يافا ، ليمنعه من الاستيلاء على المدينة ، غير ان سكان المدينة طردوه عنها . فدخل بلدوين يافا وسط حماس السكان ، غير أنه لم يمكث بها . ففي ٩ نوفمبر اجتاز التلال ، ودخل الى بيت المقدس [١] .

تنصيب بلدوين ملكاً :

لما اقترب بلدوين من المدينة (بيت المقدس)، خرج السكان للترحيب به بأشد مظاهر الفرح والسرور . فلم يحتشد للقائه الفرنج فحسب ، بل اجتمع معهم اليونانيون والسريان والأرمن ، فالتقوا به خارج اسوار المدينة ، وصحبوه معززاً مكرماً الى كنيسة القيامة . وتفرق خصومه ، إذ انسحب دايمبرت من دار البطريركية ، ولجأ الى دير على جبل صهيون ، حيث كان يقضي الوقت

(١) انظر : Fulcher of Chartres III. 1 - 2. III. 9. pp. 354 - 366.
هذه رواية جلية واضحة لشاهد عيان عن الرحلة .
Albert of Aix VII. 32 - 35 pp. 527 - 531.

في الصلاة والرياضة الروحية . أما تانكرد فتحرك صوب الشمال الى بلاده في الجليل . وما حدث في فلسطين من الفوضى ، منذ وفاة جودفري ، لم تلبث أن زالت ، وفي يوم عيد القديس مارتن ، يوم الاحد ١١ نوفمبر ، اتخـــذ بلدوين لقب ملك بيت المقدس بموافقة الجميع وعن طيب خاطرهم (١) .

على أن بلدوين بلغ من الحكمة والتعقل ما يمنعه من الانتقام ، فخصوم دايمبرت امثــال ارنولف ، البطريرك السابق ، كانوا يأملون في أن يشهدوا المبادرة الى عزل دايمبرت . غير أن بلدوين لم يتخــذ ضده اي إجراء ، فتركه ينعم بكل مـــا حازه من حقوق ، بينما توجه في غزوة لقتال العرب ، على أن دايمبرت ادرك أنه من الخير له أن يقبل هزيمته ، ويقنع بما حدث . فلـــا عاد بلدوين الى بيت المقدس في منتصف ديسمبر ، ابدى دايمبرت استعداده لمصالحته . وتبددت آمـــال دايمبرت في اقامة حكومة ثيوقراطية قـــوية ، غير أن بوسعه أن يظل محتفظاً بسيادته الاسمية ، وأن يكون له نفوذ كبير على المملكة . امـــا بلدوين الذي لم يكف مطلقاً عن ادراك ما لدايمبرت من سيطرة على مساعدة البيازنة ، فاغتبط للعفو عنه ، وأقره في البطريركية . على أن تانكرد كان اكثر ضراوة وصلابة ، فاستدعاه بلدوين للقدوم الى بيت المقدس ، ليرد على ما حدث من تمرده على رغبات جودفري المعروفة ، حول تسلم حيفا . غير أن تانكرد رفض مرتين ما وجهه اليه بلدوين من دعوة ، ثم وافق آخر الأمر على أن يلتقي به على شاطىء نهر العوجا الصغير ، بين يافا وأرسوف . غير أنه لما حان وقت اللقاء ، لم يظهر تانكرد ، انمـا طلب

---

(١) انظر : Fulcher of Chartres II. iii, 13 - 14. pp. 368 - 369.
Albert of Aix VII. 36. pp. 531 - 532.
William of Tyre *X*. 7. 1. pp. 410 - 411.

أن يكون مكان الاجتماع في حيفا بدلاً من ذلك . ولم يلبث أن ظهر حلّ بالغ اليسر والسهولة ؛ ذلك أنه لم يكن للفرنج في انطاكية أمير بعد أسر بوهمند ، وارتحال بلدوين لى بور ليتولى مقاليد الحكم في الرها ، فاقترح فرنج انطاكية بأن يقدم اليهم تانكرد ليتولى الوصاية على انطاكية مكان خاله . وهذا الاقتراح يهيىء لتانكرد مجالاً جديداً بالغ الاتساع يحتمي فيه من بلدوين. اما بلدوين فقد كان بالغ السرور لأن يتخلص من متاعب تابع لا يثق فيه ولا يحبه . وتم الاجتماع بين بلدوين وتانكرد في حيفا في اوائل مارس سنة ١١٠١ ، في جو تغلب عليه المودة . فسلم تانكرد إقطاعه في الجليل الى بلدوين ، وارتحل الى انطاكية يحمل أمانيه الطيبة [١] .

وحدث يوم عيد الميلاد سنة ١١٠٠ ، وفي كنيسة المهد في بيت لحم ، أن يذل بلدوين الولاء للبطريرك دايمبرت ، الذي توجه ملكاً [٢] .

وعلى هذا النحو قامت مملكة بيت المقدس ، بعد ان مضى على مغادرة الصليبيين بلادهم ما يزيد على اربع سنوات . وكان الذي حاز النصر ، من دون كبار القادة ، هو بلدوين المفلس ، الابن الاصغر لكونت بولون . لقد جرى التخلص من اعدائه الواحد بعد الآخر ؛ فعاد كثير منهم الى الغرب ، امثال روبرت النرمندي ، وروبرت فلاندر ، وهيو فرماندوا ، وستيفن بلوا . اما اخوه يوستاس بولونيا ، الذي كان يأمل في ان يرث جودفري ، فانه آثر الاحتفاظ بأملاكه على القتال الانجليزي . على أن من أهم منافسيه في الشرق ، كان بوهمند ، الذي لا زال يقم في أسر الترك لا حول

---

(١) انظر: Fulcher of Chartres II. VII. 1. pp. 390 - 393.
Albert of Aix V11. 44 - 45. pp. 537 . 538.

(٢) انظر : Fulcher of Chartres 11. VI. 1. pp. 384 - 385.
Albert of Aix V11. 43. pp. 536 - 537.
William of Tyre , loc. cit.

له ولا قوة ، وريموند الذي ظل حتى ذلك الحين مجرداً من الملك والأرض، وكان وقتذاك متغيباً بالقسطنطينية ، على انه من اتباع الامبراطور . غير ان بلدوين ظل يترقب الزمن ، وينتزع كل ما تهيؤه له الفرص ، ودل بلدوين على انه اكفأ القادة جميعاً ، وأشدهم صبراً ، وأبعدهم نظراً ، فظفر بجائزته ، ودل المستقبل على انه كان جديراً بهذا الجزاء . وكان تتويجه امراً جليلاً ، وخاتمة مبشرة بالأمل لقصة الحملة الصليبية الاولى .

ملاحق

الملحق الاول

المصادر الاساسية عن تاريخ الحملة الصليبية الاولى

الواقع ان قصة الحملة الصليبية الاولى تكاد كلها قد عالجتها مصادر معاصرة او تكاد تكون معاصرة . ففي الحواشي ناقشت ما اثارته بعض المصادر الثانوية من نقاط ، على ان المصادر الاصلية الاساسية التي نستند دائماً اليها ، والتي لا تتفق باستمرار فيما بينهـا ، تحتاج عنـد تقييمها الى تقدير مبني على النقد .

١ ـ المصادر اليونانية :

والمصدر اليوناني الوحيد الذي يعتبر بالغ الاهمية ، هو كتاب الكسياد الذي ألفته أنه كومنينا ، والذي ليس إلا ترجمة لحيـــاة الامبراطور الكسيوس ، كتبتها ابنتـــه المحبوبة . ألفت أنه كتابها حينما اصبحت امرأة عجوز ، بعـد نحو اربعين سنة مضت على أحداث الحملة الصليبية الاولى . وفي بعض الاحوال قد تخدعها الذاكرة فتقع في الخطأ ، على ان تاريخها يشوبه الاضطراب في بعض الاحوال . يضاف الى ذلك انها كتبت تاريخها في ضوء مـــا حدث من تطورات متأخرة . وكانت أنه ابنة شديدة

الشغف والولاء لأبيها ، فأحبت ان تبين ان اباها الكسيوس كان دائماً عاقلاً ، بالغ الدقة في عمله ، شديد العطف والاحسان . ولذا نزعت الى ان تحذف كل ما من شأنه في رأيها ، يجري تفسيره للتشهير بـــه ، او ينتقص من قدر اصدقائه . على أنه لا تعتبر صراحة من الثقاة حينما تعالج الأحداث التي وقعت خارج حدود الامبراطورية ، حيث اطلقت لتعصبها العنان ، كما يتبين ذلك في روايتها عن حياة البـــابا جريجوري السابع . على ان المؤرخين المحدثين ليسوا مستعدين لأن ينتقصوا قدرها . كانت أنه امرأة بالغـــة الذكاء ، نالت حظاً كبيراً من التعلم ، واشتهرت بأنهـا مؤرخة يقظة الضمير ، حاولت ان تحقق مصادرها . وعلى الرغم من انها كتبت وهي في سن الشيخوخة ، فانها كانت تقصد منذ زمن طويل ان تترجم لحياة ابيها ، ولا بد انها جمعت معظم مادتها اثنـاء حياته ؛ حينما كان في متناول يديهـــا اوراقه الرسمية . وكلما اعتمدت على خبر موثوق فيه ، كالخبر الذي اوردته عن سير الحملة عبر آسيا الصغرى ، الذي يتضح انهـا استخدمت فيه تقارير تاتيكيوس ، ضبطت تعصبها . وعلى الرغم من انها ارتكبت دون شك بعض الذنب بما لجأت اليه من الحذف ، فمن العسير اثبات انها عمدت الى اغفـال الوثائق الاصلية ، عند وصف الاحداث التي وقعت في القسطنطينية او في داخل الامبراطورية . نعمت أنه بثقة والدها ، وتوافر لها شخصياً الدراية بكثير من الشخصيات والأحداث التي وصفتها . وإذا كان من اليسير ان نسلّم بمـــا اتصفت به أنّه من التقوى والتعصب ، فانه لا بد ان يكون لحكمها على الأمور المتعلقة ببيزنطة الاسبقية على سائر المؤرخين (١) .

---

(١) ان احدث طبعة لكتاب انه كومنين ، صدرت في مجموعة بوده التي نشرها لايب ، مع مقدمة وحواشي مستفيضة . وما اصدرته المسز بكلر من كتاب بعنوان انه كومنينا ، عبارة عـــن دراسة تفصيلية نقدية لكتاب الكسياد . وللاكسياد ترجمة انجليزية قام بهـــا E.A.S. Dawes وجرى نشرها في لندن سنة ١٩٢٨ .

أمــــا دراسات زوناراس وجليكاس[1] ، والمختصر المعروف باسم Synopsis Sathas[2] ، فلم تضف إلا قدراً قليلاً لما لدينا من معرفة . وما يتعلق بالحملة الصليبية الاولى من وثائق بيزنطية رسمية ، لم يبق منها إلا الرسائل التي كتبها الكسيوس للأمراء والهيئات في الغرب ، ولم تظهر إلا في الترجمات اللاتينية التي لا تعتبر فعلاً دقيقة . كما ان رسائل ثيوفيلاكت رئيس اساقفة بلغاريا ، التي لم تلق عناية كبيرة عنــد نشرها ، لم تضف إلا قدراً ضئيلاً من المعلومات[3] .

٢ ـ المصادر اللاتينية :

والمصادر اللاتينية اكثر عدداً ، وتمدنا بمعظم ما لدينا من المعلومات . فريموند اجيلر (الذي ينتمي الى ايجويــــل في مقاطعة اللوار الاعلى) ، انضم الى الحملة الصليبية الاولى في صحبة ادهيمر اسقف لى بويه ، ولم يلبث أن أضحى كاهناً عند ريموند كونت تولوز. شرع في كتابة تاريخه المعروف باسم: Historia Francorum qui Ceperunt Jerusalem اثناء حصار عكا ، وأنجزه في نهاية سنة ١٠٩٩ . جعل كل اهتمامه مركزاً على حملة الكونت ريموند ، ومع أنه كان من رجال جنوب فرنسا الأوفياء المخلصين ، فانه لم يتردد بمجال من الاحوال في نقد زعيمه ، فلم يقر الكونت على تقاعسه عن المسير من انطاكية ، ولم يرض عن سياسته الودية نحو بيزنطة . ولم يخف عــداءه اليونانيين (البيزنطيين) إلا في موضع واحد (انظر ما سبق ص ٣٢٢ –

---

(١) جرى نشرها في مجموعة بون Bonn ، المعروفة باسم :
Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae .

(٢) صدر في : Sathas , Bibbiotheca Graeca Medii Aevi vol. VII.

(٣) وردت رسائل تيوفيلاكت في مجموعة M. P. G. vol. CXXVI .

٣٢٣) . وما كان له من نصيب في حادث الحربة المقدسة ، حمل النقاد على ان يرتابوا في صدق روايته ، ومن الواضح انه كان في داخل حدوده مخلصاً ، وثبت الرواية . ولم يلبث مؤلفه ان اتسع نطاق تداوله ، إنما على الرغم من ان بعض المخطوطات المبكرة منه ، دخل بين نصوصها اضافات وزيادات ، فانه لم يجر تنقيحها من جديد [١] .

شهد فولشر شارتر مجمع كليرمونت ، ثم توجه الى الشرق في صحبة سيده ، ستيفن كونت بلوا ، وفي يونيه ١٠٩٧ صار كاهناً لبلدوين بولونيا الذي ظل منذئذ من رجال حاشيته . وكتابه المعروف باسم « اعمال حجاج بيت المقدس » ألفه في ثلاثة اقسام ، في سنوات ١١٠١ ، ١١٠٦ ، ١١٢٤ – ١١٢٧ . وهو يفوق سائر المؤرخين اللاتين في التعليم ، وفي انه اكثرهم صدقاً . وعلى الرغم من تعلقه ببلدوين ، فالواضح ان اتجاهه كان موضوعياً ، فلم تظهر عداوته للبيزنطيين إلا في القسم الثالث من كتابه . اما نظرته للمسيحيين الشرقيين فتتسم بالانصاف والمودة . وأكثر استخدام كتابه ، من تلاه من المؤرخين [٢] .

أما بارتولف نانجيس ، فالراجح انه كتب أثناء مقامه بالشام . فأصدر حوالي سنة ١١٠٨ نسخة تتألف من الفصول الاولى لكتاب فولشر شارتر مع اضافات قليلة ، ويعالج معظمها الناحية الطبوغرافية [٣] . ويرجع الى ليسيار التوري [٤] ما صدر من مختصر مجمل عن الفصول المتأخرة .

---

(١) جرى نشره في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، وثمة اتجاه لاصداره في طبعة محققة .

(٢) ما اصدره هيجنماير من طبعة محققة ، وفيرة الحواشي ، فاقت المتن الوارد في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .

(٣) صدر في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، انظر :

Cahen : La Syrie du Nord p. 11. n. 1.

(٤) ورد في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .

على ان ولیم مالمسبوري وريتشارد بواتييه ، وسيكار كريمونا ، استخدموا هذا التاريخ (كتاب فولشر) على أنه المصدر الأسامي حينما كتبوا عن الحملة الصليبية الاولى [1].

وأكثر المؤلفات المعاصرة للحملة الصليبية الاولى شيوعاً ، كان كتـاب المؤرخ المجهول المعروف باسم اعمـال الفرنج وحجاج بيت المقدس Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitorum . والراجح ان احـد اتباع بوهمند كتبه على هيئة مذكرات ، وقـد توجـه الى بيت المقدس في صحبة تانكرد . وينتهي هذا الكتاب بخبر معركة عسقلان ، سنة ١٠٩٩ . وصدر لأول مرة سنة ١١٠٠ ، او في اوائل سنة ١١٠١ . اذ قرأه ايكارد في بيت المقدس سنة ١١٠١ . على ان اقدم ما هو معروف من مخطوطاته ، تشتمل فعلاً بين نصوصها على زيادات واضافات ، مثل وصف « ادبي » لانطاكية ، وفقرة تشوه قصة اعمال بوهمند في القسطنطينية (انظر ما سبق ص ٢٣٨ حاشية ١) مستوحاة عن فقرة مستمدة من ريمونـد اجيلر . ولم يكن المؤلف إلا جندياً بسيطاً ، كان اميناً في عرض ما شهده ، غير أنـه اشتهر بسرعة تصديقه ، وشدة تعصبه ، وإعجابه ببوهمند . ومـا حازه كتاب الجستا من نجاح كبير ، يرجع اساساً ، الى جهود بوهمند ذاتـه . اذ اعتبره دفاعاً عنه ، وأثار حوله ضجيجاً في شمال فرنسا عنـد زيارته لهـا سنة ١١٠٦ [2] . وقـد نشره كاملاً للمرة الثانيـة ، في عصر مبكر ، قس من بواتو اسمه توديبود ، وكان من المحاربين الصليبيين .

---

(١) انظر : Cahen : loc. cit.
ليس لكتاب سيكار وجود مطلقاً .

(٢) أصدر بريهيه احدث طبعة لهذا الكتاب بعنوان :
Histoire Anonyme de la Première Croisade .
ولا زال لملاحظات هيجنماير وحواشيه أهمية في النسخة التي نشرها بعنوان :
Anonymi Gesta Francorum (Heidelberg, 1890) .

على ان مؤلفه وعنوانه ، الطريق الى بيت المقدس ، يتضمن بعض ذكريات شخصية [1] . وحوالي سنة ١١٣٠ صدر كتاب تاريخ الحروب المقدسة ، وهو مصنف جاف غليظ ، قام به راهب ينتمي الى دير مونتي كاسينو ، واستند فيه اساساً الى الجستا ، فضلاً عن فقرات قليلة استمدها من كتاب Radulph of Caen ، ومن مصدر لا زال مفقوداً ، ومن التقاليد الخرافية السائدة [2] . جرت اعادة كتابة الجستا مرات عديدة ، فكتبه حوالي سنة ١١٠٩ جيبرت نوجنت الذي اضاف اليه معلومات شخصية ، ونقل ايضاً عن فولشر ، وقد استهدف نهجاً نقدياً [3] اخلاقياً ؛ وكتبه ايضاً حوالي ١١١٠ بودريه بورجيل رئيس اساقفة دول ، الذي حرص على اصلاح اسلوبه الادبي [4] ، وكتبه ايضاً من جديد روبرت ريمس ، الذي ظهرت حوالي سنة ١١٢٢ [5] نسخته الابتداعية الشائعة المعروفة باسم Historia Hierosolymitana واستلهمه ايضاً كتاب مختصر لمؤرخ مجهول ايضاً ، بعنوان Expeditio Contra Turcos ، والفصول الواردة عن الحروب الصليبية في تواريخ هيو فلوري وهنري هنتنجتون [6] .

ومن اهم المؤرخين الذين كتبوا عن الحملة الصليبية الاولى ، ثلاثة لم يشتركوا فيها بأنفسهم . منهم ايكارد ، رئيس دير اورا الذي جاء الى

---

(١) ورد في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، انظر : Cahen: op. cit. pp. 8 - 9 .
(٢) ورد في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، انظر ايضاً : Cahen : loc. cit. .
(٣) ورد في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، انظر ايضاً : Cahen : loc. cit. .
(٤) ورد في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، انظر ايضاً : Cahen : loc. cit. .
(٥) ورد في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، انظر ايضاً : Cahen : loc. cit. .
(٦) ورد في المجلد الخامس من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، فقرات عن هيو فلوري وهنري هنتنجتون . وفي المجلد الثالث وردت نصوص كتابي Expeditio Contra Turcos ، وتوديبود .

فلسطين مع الصليبيين الجرمان سنة ١١٠١ ، وعنــــد عودته الى ألمانيا ، صنف كتاباً اسمه Hierosolymita ، قصد ان يجعله جـانباً من كتــاب عام عن تاريخ العالم ، كان يفكر في تأليفه . واحتوى على بعض الذكريات الشخصية ، وبعض النوادر التي رواها له ، او لصديقه فروتهلف ميكلزبرج ، افراد اشتركوا فعلاً في الحملة الصليبية الاولى ، ولحق به من المعلومات ما سبق ان ورد فعلاً في التواريخ المنشورة . وهو يشير عادة الى مصادره ، ويعتبر رجلاً صادق الرواية [١] .

قدم رادولف كاين الى الشام حوالي سنة ١١٠٨ . على أنه سبق ان دخل في خدمة بوهمند في حملة ابيروس سنة ١١٠٧ ، ولم يلبث بعــدئذ ان لزم تانكرد . وبعـد وفاة تانكرد حوالي سنة ١١١٣ ، ألف كتابه المعروف باسم : Gesta Tancredi Siciliae Regi in Expeditione Hierosolymitana . على أن هذا الكتاب الذي لم يبق منه إلا مخطوطة وحيدة ، لم يكتمل . و ينم اسلوبه على ان مؤلفه رجل جاهل ، شديد الإدعاء . لم يشمل إلا معلومات بالغة الضآلة عن بطله (تانكرد) ؛ على انه مع ذلك سار على نهج كتاب سبق تأليفه ، على ان المؤلف فيما يبدو لم يقرأ كتاب الجستا[٢] .

على ان اوفى دراسة معاصرة للحملة الصليبية الاولى ، وردت في كتاب Liber Christianae Ecclesiae الذي ألفه البرت الأخيني ، وفرغ منه حوالي سنة ١١٣٠ . لم نعـلم عن البرت سوى انه لم يقم مطلقاً بزيارة الشرق . وظل حتى منتصف القرن المـــاضي يعتبر اوثق مصدر عن تاريخ الحملة الصليبية الاولى . وفاز بثقة مطلقة من المؤرخين امثـــال جيبون .

---

(١) ورد النص في المجلد الخامس من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، ويفضل النسخة التي نشرها هيجنماير (Ekkehard von Aura, Lepzig 1888) .

(٢) ورد المتن في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .

غير انه منذ ان ظهر نقد فون سيبل الهدام ، اضحى تجريحه من قبيل الطرافة ، لا الاتصاف . وليس كتابه إلا مصنفاً تألف من نوادر وروايات لشهود عيـان ، اجتمعت سوياً ، فلم يربط بينها إلا إحساس نقدي ضئيل ، دون إثبات المصادر . فما كتبه عن الحياة المبكرة لبطرس الناسك ، من الواضح أنه لا يصح الركون اليه والوثوق فيه . أمـا قصة حملة بطرس الناسك فلا شك أنها كانت مستمدة من شخص اشترك فيها . اذ أن ما ورد بها من تفاصيل تعتبر شديدة الاقنـاع ، كالتي تتعلق بالزمن الذي استغرقته مراحل السير . ومن المحقق أنه اعتمد في قصته عن رحيل جودفري الى القسطنطينية ، واجتياز آسيا الصغرى ، على رواية اوردها جندي في جيش جودفري . والراجح أنه درج على إثبات ما يورده له من المعلومات العساكر والحجاج العائدون ، قبل ان يشرع في تأليف كتابه . ومن اليسير التعرف الى ما به من مادة خيالية ، غير أنه ينبغي احترام ما اورده في روايته من احداث عن الحملة الصليبية الاولى ذاتها [1] .

يعتبر وليم الصوري ، اعظم مؤرخي الحروب الصليبية ، ألف كتاباً بعد ستين سنة مضت على الحملة الصليبية الاولى ؛ وفيما رواه من احداث حتى نزول الصليبيين في فلسطين ، يكاد يلتزم البرت الاخيني ، اما بعد فتح بيت المقدس ، فان روايته استندت ايضاً الى ما تبقى عن مملكة الصليبيين من سجلات وتقاليد . غير أن كتابه المعروف باسم : Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum لا يصبح مصدراً هاماً إلا بعد اعتلاء

---

(١) ورد في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية. وأشهر ما كتب من المصنفات عن ألبرت، تلك التي ألفها : Beaumont , Kùhne , Kugler , Krebs (انظر قائمة المراجع). انظر ايضاً: von Sybel : Geschichte des ersten Kreuzzuges . 2 nd, ed. (Preface) . Hagenmeyer : Le Vrai et le Faux sur Pierre l'Hermit pp. 9 ff.

بلدوين العرش ، وإني لوطيد الامل في ان أعرض لهذا الكتاب بالتفصيل في مجلد آخر [١] .

على ان وجهة نظر لا تختلف إلا قليلا عن وجهة نظر وليم الصوري ، اوردها المؤرخ الجنوي كافـارو ، مؤلف حوليات جنوه ، التي تعالج السنوات الواقعة بين ١١٠٠ ، ١١٦٣ ، ومؤلف ايضاً كتاب : De Liberatione Civitatum Orientis ، الذي صنفه سنة ١١٥٥ ، غير انه لم يتم اكتشافه بين اوراقه القديمـة إلا بعد قرن من الزمن . والراجح أنـه تعرض قبل نشره لبعض التغيير . وينتمي كافارو الى اسرة جنوية ، جاءت الى فلسطين سنة ١١٠٠ ، ويغلب على كتابه روح الحماس القومي ، غير أنه يتسم ايضاً بالاتزان والصدق [٢] .

ومؤرخو غرب اوربا المعاصرون ، يشيرون جميعاً الى الحملة الصليبية الاولى ، غير انهم لم يعتمدوا إلا على كتاب او كتابين من المصادر التي سبق أن أشرنا اليها ، باستثناء تاريخ تسمرن ، الذي انفرد بما اورده من معلومات عن الصليبيين الألمان [٣] .

ونجم عن الحملة الصليبية الاولى ، ظهور الملاحم ، سواء في اللغة اللاتينية ام في لغة الشمال Langue d'Oil ، ام في لغة الجنوب Langue d'Oc . على ان اهميتها الادبية تفوق ما لها من اهمية تاريخية . فالشعراء اللاتين امثال جفري اللومباردي ، ويوسف اكستر ، وجنثر باسل ، ليس لهم قيمة من الناحية التاريخية .

---

(١) ورد في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، انظر :
Prutz : Wilhelm von Tyrus .
Cahen : op. cit. pp. 17 - 18 .

(٢) ورد في المجلد الخامس من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .

(٣) اورد منه فقرات ، هيجناير :
Hagenmeyer in Archives de l' Orient Latin. vol. II.

أما انشودة انطاكية البروفنسالية Chanson d'Antioche ، التي ألفها جريجوري بشاده ، فهي بالغة الاهمية ، وتحتاج الى دراسة جديدة . وفي لغــة شمال فرنسا ، ظهر الى جانب القصيدة التي نظمهـــا بودريه ، انشودة اخرى لانطاكية ، ألفها جرايندور دوياى ، واعتمد جانب منها على روبرت الراهب ، واستند الجانب الآخر الى انشودة سابقة ألفها ريتشارد الحاج ، الذي اشترك فعلاً في جيش روبرت كونت الفلاندر في الحملة الصليبية الاولى . وعلى الرغم من أنه كان ساذجاً ، بل كان ايضاً جاهلاً ، فقــد كانت له وجهة نظره الخاصة . مثال ذلك أنه على الرغم من انه يود ان يستولي الصليبيون على القسطنطينية ، كان صديقاً لتاتيكيوس . وثمــة ايضاً قصيدة استندت الى نفس المـــادة ، نظمها بالفرنسية جيلون ، ادخـــل عليهـــا زيادات واضافات ، شخص اسمه فولشر ، وكذا قصيدة اسبانية بعنوان : Gran Conquista d'Ultramar وهي متأخرة في التاريخ ، أفادت من بشاده وجرايندور ووليم الصوري . أما الملحمة التي يعتبر جودفري كونت اللورين بطلها ، مثل تلك المعروفة باسم : Chevalier de Cygne ، فلم تنطو إلا على تاريخ خرافي [1] .

لم يبق من الرسائل المعاصرة ، للحملة الصليبية الاولى إلا النـــزر اليسير ، غير ان ما تبقى يعتبر بالغ الاهمية ، ومنها بضع رسائل موجهة من والى البابا اربان الثاني والبابا باسكال الثاني ، ومن هذه الرسائل ، التماسان موجهان من رجال الكنيسة في الشرق ، ورسالتان من القادة الصليبيين ، وهما برغم طرافتهما لم تكونا مجردتين من الصدق والصراحة . وأكثر هذه الرسائل

---

(١) عن الملاحم انظر :

Hatem : Les Paèmes Epiques des Croisades .

وهو يدافع عما يكون لهذه القصائد من اصل شامي ، انظر ايضاً :

Cahen : op. cit. pp. 12 - 16.

جميعاً قيمة ، رسالتان عن كل من اثنين من اشهر القادة الصليبيين ، وهما ستيفن بلوا ، وأنسلم اسقف ريبمونت . كتب ستيفن ثلاث رسائل الى زوجته في وطنه ، كتب الاولى عند وصوله الى القسطنطينية وقد ضاعت . وأرسل الثانية من المعسكر الصليبي في نيقية ، وبعث بالثالثة من المعسكر الصليبي في انطاكية . وعلى الرغم من ان ستيفن كان رجلاً ضعيفاً ، فانه كان اميناً شديد الحماس ، وتعتبر رسائله اشهر ما انطوت عليه الوثائق المتعلقة بالحملة الصليبية الاولى من روح انسانية . أما رسالتا أنسلم ، فكتبهما من انطاكية ، ووجهها الى سيده ، مَنَسَّيس ، رئيس اساقفة ريمس . وعلى الرغم من انهما تنطويان على معلومات مفيدة ، فانهما تفتقران الى ما اشتهرت به رسائل ستيفن من طابع شخصي[1] .

ولا شك في اهمية ما تبقى من بعض القرارات البابوية المتعلقة بالحملة الصليبية الاولى ، والوثائق المرتبطة بانشاء المملكة الصليبية . وتشتمل دار المحفوظات التاريخية في كل من جنوه والبندقية ، على مادة بالغة القيمة ، نظراً لما كان للمدن الايطالية من مصلحة متزايدة في امور الصليبيين .

٣ ـ المصادر العربية :

على الرغم من وفرة المصادر العربيـــة وأهميتها الضخمة ، للحملات الصليبية المتأخرة ، فانها لم تمدنا إلا بمساعدة ضئيلة عن الحمـــلة الصليبية الاولى . لم يتخلف عن هذا العصر ، وثائق وتقاليد رسمية . وبرغم كثرة

---

(١) وخير الرسائل المنشورة، تلك التي أصدرها هيجنابر بعنوان Die Kreuzzugsbriefe. ووردت منها مجموعة ضخمة فيما كتبه ريان بعنوان :
Riant : Inventaire des Lettres historiques .

المشتغلين من العرب في تصنيف الكتب الموسوعة، والمؤلفات الجغرافية ، فانهم، باستثناء واحد منهم ، لم يحفلوا إلا قليلاً بهذه السنوات (الحملة الصليبية الاولى) ، فمؤلفات المؤرخين الذين عاشوا وقتذاك ، لم تصل الينا منها إلا شذرات في صورة اقتباسات موجزة عند الكتاب المتأخرين ، وليس ثمة قيمة حقيقية إلا لثلاثة كتب منها .

ابن القلانسي الدمشقي ، الذي ألف للسنوات الواقعة بين ١١٤٠ ، ١١٦٠ تاريخاً لمدينته ، دمشق ، منذ زمن الغزو التركي حتى عصره . وعنوان الكتاب الذي ألفه « ذيل تاريخ دمشق » يدل على أنه قصد ان يكون كتابة مذيلاً للتاريخ الذي كتبه هلال (الصابي) . غير أنه بينما كان هلال يهدف الى ايراد تاريخ العالم ، لم يهتم ابن القلانسي إلا بدمشق وحكامها . أمضى حياته في ديوان الانشاء بالبلاط الدمشقي ، وارتقى فيه حتى صار رئيساً له ، ولذا يعتبر ثبتاً وحجة فيما يكتب ، اذ حرص على ان يكون دقيقاً وموضوعياً في كل ما تناوله ، إلا اذا تعرضت سمعة سيده للخطر [١] .

أما ابن الاثير ، من الموصل ، فألف الكامل في التاريخ في مستهل القرن الثالث عشر ، غير أن ما اشتهر به من الاهتمام الكبير والنقد الشديد للمصادر المتقدمة ، جعل منه مصدراً بالغ الاهمية ، على الرغم من ان رواياته عن الحروب الصليبية اتسمت بالاقتضاب الشديد [٢] .

---

(١) عن ابن القلانسي ، انظر مقدمة جب لما قام به من ترجمة كل ما يحويه الكتاب من فقرات عن الحروب الصليبية في كتابه: Gibb : Damascus Chronicle (انظر المراجع).. أما النص العربي لابن القلانسي فنشره كاملاً امدروز — ليدن سنة ١٩٠٨ .

(٢) يشير رنسيمان الى الطبعة العربية لابن الاثير ، التي نشرها في ١٤ جزء تورنبرج ، في ليدن ١٨٥١ — ١٨٧٦ . أما النصوص التي تتصل بالحروب الصليبية فوردت في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية .

ابن العديم (كمال الدين) – من حلب : ألف تاريخاً عن حلب لم يتمه . وصنف بعد نصف قرن موسوعته . على أنه أفاد الى اقصى حد من المصادر المتقدمة ، وقد أشار الى اسمائها في موسوعته . وأشد ما يثير الاسف لضياعه من هذه المصادر ، تاريخ الغزو الفرنجي ، الذي ألفه حمدان بن عبد الرحيم الأثاربي الذي لم يبق منه زمن كمال الدين نفسه إلا بضع صفحات [1] .

ابن زريق المعرّي ، الذي ينتمي الى معرة النعمان ، ولد سنة ١٠٥١ ، وقــام بدور هام في احداث الحملة الصليبية الاولى ، خلّف تاريخاً عن زمنه ، لم نعرف عنه شيئاً إلا من بعض الاقتباسات .

العظيمي – مؤرخ حلب ، والمولود سنة ١٠٩٠ ، ألف كتاباً عن تاريخ شمال الشام ، زمن الحملة الصليبية الاولى ، لا زال باقياً منه عــدد غير قليل من الفقرات [2] .

٤ ـ المصادر الارمنية :

عالج فترة الحملة الصليبية الاولى ، مصدر ارمني عظيم القيمة ، وهو تاريخ متى الرهاوي . وتناول الكتاب تاريخ الشام في الفترة الواقعة بين سنة ٩٥٢ ، ١١٣٦ فلا بد اذن ان جرت كتابته قبل سنة ١١٤٠ . كان متى رجلاً بسيطاً ، شديد الكراهية لليونانيين ، ولا يحمل قدراً كبيراً من

---

(١) لم تظهر طبعة محققة لكتاب ابن العديم ، وما يرتبط بالحروب الصليبية من ١٠٩٧ حتى ١١٤١ من نصوص ، وردت في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية . المعروف ان الدكتور سامي الدهان نشر حديثاً جزءين من كتاب ابن العديم المعروف باسم زبدة الحلب في تاريخ حلب ، دمشق ١٩٥١ ، ١٩٥٤ (وفي الجزء الثاني معلومات وفيرة عن الحملة الصليبية الاولى) انظر مقدمة الناشر للجزء الاول (م ٩ – م ٧٩) .

(٢) انظر ، العريني : مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٩٣ – ١٩٥ .

الحب لمواطنيه ، الذين يدينون بالمذهب الارثوذكسي ، ولا بد أنه استمد معلوماته عن الحملة الصليبية الاولى من جندي جاهل ، من الفرنج ، على أنه يعتبر ثبتاً حجة ، في كل ما وقع من الاحداث في مدينته الرها وما يجاورها من البلاد [1] .

على أن المؤرخين الأرمن المتأخرين ، امثال صمويل أني ومختار اريفانج اللذين كتبا في نهاية القرن الثاني عشر ، وكيراكوس جانزاج ، وفارتان الكبير ، اللذين كتبا في القرن الثالث عشر ، لم يتعرضوا للحملة الصليبية الاولى إلا في شيء من الاختصار . ولعلهم أفادوا من متى الرهاوي ومن تاريخ مفقود ، كتبه يوحنا الشماس ، الذي طالما أشاد به صمويل ، والذي اظهر كراهيته ، لا فحسب للامبراطور البيزنطي ، بل ايضاً لأمه أنه دلاسينا [2] .

٥ ـ المصادر السريانية :

لم يبق من المؤلفات السريانية التي عالجت الحملة الصليبية الاولى إلا تاريخ ميخائيل السرياني ، وهو بطريرك اليعاقبة بانطاكية منذ ١١٦٦ حتى ١١٩٩ ، ولم يشر إلا باختصار لأحداث الفترة السابقة على سنة ١١٠٧ . أفاد من تواريخ سريانية سابقة تعتبر حتى الآن مفقودة ، فضلاً عن المصادر العربية . وليس لمعلوماته قيمة كبيرة ، إلا حين يصل الى الفترة المعاصرة له [3] .

---

(١) اصدر ديلوريه ترجمة فرنسية عن مخطوطة ارمنية سنة ١٨٥٨ ، وفي مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية فقرات باللغة الارمنية وترجمة فرنسية لها . أما النص الارمني الكامل فجرى نشره في بيت المقدس سنة ١٨٦٨ . لم يتيسر لي الحصول عليه ، ولذا استخدمت ترجمة ديلوريه ، وقابلتها عند الضرورة بما ورد في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية من فقرات باللغة الارمنية .

(٢) ورد في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية فقرات من مؤلفات هؤلاء المؤرخين .

(٣) نشره وترجمه الى الفرنسية شابو .

وعلى الرغم من أن بعض المصادر الأصلية عن الحملة الصليبية الاولى ، جرى نشرها مستقلة ؛ فالمجموعة الوحيدة للمصادر ، هي تلـــك المجموعة الضخمة المعروفة باسم مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، التي صدرت في باريس منذ سنة ١٨٤٤ ، وشملت هذه المجموعة ، نصوصاً لاتينية ، وفرنسية قديمة ، وعربية ويونانية وأرمنية مع ترجمات الى اللغــة الفرنسية لمؤلفات المؤرخين اليونانيين والشرقيين . على ان نشر المخطوطات لم يلق لسوء الحظ العناية التـــامة ، باستثناء المجلد الاخير (الخامس) ، الذي يضم النصوص اللاتينية ، وتوافر بها ايضاً فجوات اضطرارية ، وليست الترجمات فيها دائماً دقيقة ، ومع ذلك فان المجموعة ظلت لا غنى عنها لدارس الحملة الصليبية الاولى .

الملحق الثاني

القوة العددية للصليبيين

المعروف ان كل مؤرخ في العصور الوسطى ، مهما كان جنسه ، ينغمس فيما يسوقه دائماً من مبالغات عنيفة بارزة ، كلما تحتم عليه ايراد أرقام ليس من اليسير احصاؤها وتقديرها . ولذا صار مستحيلاً علينا في الوقت الحاضر ان نتحقق من الحجم الحقيقي للجيوش الصليبية . وحينما يروي لنا فولشر شارتر والبرت الاخيني ، ان المقاتلين بالحملة الصليبية الاولى بلغ عددهم ٦٠٠ الف ، ويقدرهم ايكارد بنحو ٣٠٠ الف ، ويقتصد ريموند اجيلر في تقديره فيجعل العدد ١٠٠ الف ، او حينما تعلن أنه كومنينا ان جودفري كونت اللورين جلب معه ١٠ آلاف فارس ، ٧٠ الف من الرجالة ، فمن الواضح أنه ليس للارقام من معنى سوى أنها تدل على أن العدد بالغ الضخامة [1] . أما

---

(١) انظر :

Anna Comnena X. IX. 1. vol. II. p. 220.
Fulcher of Chartres 1. X. 4. p. 183.
Ekkehard : Hierosolymita XIII. p. 21.
Raymond of Aguilers V. p. 242.
Chronicle of Zimmern p. 27.

ورد في تاريخ تسمرن أن جيش جودفري يبلغ عدده ٣٠٠ الف .

حينما يعالج مؤرخو العصور الوسطى أعداداً بالغة القلة فلا داعي مطلقاً للارتيـاب في هؤلاء المؤرخين ، على الرغم من أنهم نزعوا الى ان يوردوا من الارقـام الكاملة ما يجعل هذه الأعداد قريبة من الحقيقة ، ويضح ان نستخلص من أدلتهم بعض الحقائق .

ليس في وسعنا تقدير نسبة ما في الجيوش من غير المحـاربين . ومن المحقق أن النسبة كانت مرتفعة ، اذ ان عدداً كبيراً من الفرسان اصطحبوا معهم عقيلاتهم . فريموند كونت تولوز ، صحبته زوجته ، وجـاء ايضاً مع بلدوين بولون زوجته وأطفاله . اما بوهمند فكان معه على اقل تقدير احدى أخواته . ونعرف اسماء عدد من السيدات ، كان لهن دور في حملة روبرت النرمندي . وظهرت احياناً سيدات اخريات في قصة الحملة الصليبية الاولى . وكل هؤلاء السيدات جلبن معهن وصيفات ، ولا شك انه كان مع الجيش عدد كبير من النساء الوضيعات ، والشريفات والمنحرفات . ونسمع دائماً عن جماعات لم تكن من المحاربين امثال بطرس بارثولميو ومخدومه . وكان مع الجيش عدد كبير من رجال الدين . والراجح ان معظم غير المحاربين من الرجال ، اقتضت اوقات الخطر دخولهم في الخدمة العسكرية . أمـــا نسبة غير المحاربين الدائمين من النساء والشيوخ والأطفال ، فلا تتجاوز بحـــال من الاحوال ربع القوة بأكملها .

والراجح ايضاً ان نسبة الوفيـــات كانت مرتفعة ، ولا سيما بين غير المحاربين ، وعلى الاخص بين الشيوخ والاطفـــال . ومن مات من المحاربين نتيجة الامراض والمتاعب ، ازدادت نسبة الوفيات في الرجالة على الفرسان والسيدات ، نظراً لما تلقاه الفرسان والسيدات من عناية كبيرة ، ولأنهم يزيدون عليهم في القدرة على شراء الطعام . وفي المعركة زاد الفرسان على الرجالة في التعرض للخطر ، ولذا حاقت بهم خسائر فادحة .

أما نسبة الفرسان الى الرجالة ، فانها فيما يبدو عبارة عن نسبة واحد

الى سبعة ، اذ انحاز الى الرجالة كل قادر على حمل السلاح . والراجح ان ما أوردته أنه كومنينا من تقدير عن القوة النسبية لجيوش جودفري ،يعتبر صحيحاً، مع العلم بأنه لا بد من قسمة ما تورده من ارقام على عشرة على الاقل . ففي معركة عسقلان ، حينما تقرر استخدام كل من كان في متناول اليد من الرجال في فلسطين ، بلغ العدد ١٢٠٠ من الفرسان ، ٩٠٠٠ من الرجالة ، فكأن النسبة عبارة عن ١ : ٧ ½ (١) . وفي حصار بيت المقدس كان العدد حسبما أورده ريموند اجيلر ، يتراوح بين ١٢٠٠ ، ١٣٠٠ من الفرسان من مجموع الجيش البالغ عدده ١٢ الف ، على الرغم من أنــه يضم ايضاً مهندسين وبحارة من الجنويين والانجليز (٢) . على أن المقصود من مصطلح « فارس » هو راكب الفرس المسلح ، ولا يرتبط بالمعنى المعروف في نظام الفروسية ، على حين أن عدداً كبيراً من الرجالة لم تتهيأ لهم عدة كاملة من السلاح . والراجح أن الرماة وحملة الحراب لم يؤلفوا إلا نسبة صغيرة في كل الجيش .

ومن المحقق ان جيش ريموند كونت تولوز ، كان اضخم جيش لدى امير من الامراء ، غير أنه ليس لدينا إلا دليل واحد عن حجمه . فحينما سمع ريموند في كوكسون الشائعة الكاذبة بأن الترك جلوا عن انطاكية ،ارسل قوة من الفرسان عددها ٥٠٠ ، تضم جماعة من الفرسان البارزين لاحتلال المدينة (٣) . على أن العدد ٥٠٠ يبلغ من التكرار ما يجعله موضع شك ، غير أنــه يصح اعتباره الوحدة السليمة التي يجري ارسالها في غارة او حملة كبيرة من هذا القبيل . وليس من الراجح ان ريموند ادخر نصف قوة فرسانه لهذا الحصار . فاذا قبلنا هذا العدد (٥٠٠) على أنه رقم قريب من الصواب ،

---

(١) انظر : William of Tyre , IX. 12. vol. I. pt. 1. p. 380.

(٢) انظر : Raymond of Aguilers XIX. p. 292.

(٣) انظر ما سبق ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

فلا بد ان قوة فرسانه بلغت ١٢٠٠ او اكثر من ذلـك ، وبذا يكون مجموع قوته نحو ١٠ آلاف ، عدا الشيوخ والنساء والاطفال [١] .

ويروي لنا تاريخ لوكـا أن بوهمند توجـه الى الشرق مع خمسمائة فارس [٢] . ولحظت أنه كومنينا أنـه لم يكن معه جيش ضخم ، ولذا يصح اعتبار هذا الرقم صحيحاً [٣] . سمح بوهمند لتانكرد بأن يصحب معه في حملته على قليقية ، ١٠٠ فارس ، و ٢٠٠ من الرجالة ، على الرغم من أنـه أردفه بنحو ٣٠٠ من الرجالة . وهـــذه الأرقام في مجموعها تبدو مقبولة ومعقولة [٤] .

وما لدينا من دليل وحيد عن الحجم النسبي لسائر الجيوش ، نستمده من الاجراء الذي قام به ريموند في الروج ، حينما حاول ان يبذل الرشوة لمنافسيه كيما يقبلوا زعامته وقيادته . ففرض على كل من جودفري وروبرت النرمندي ١٠ آلاف سنت ، وعلى روبرت فلاندر ٦ آلاف ، وعلى تانكرد ٥ آلاف ، وعلى صغار القادة مبالغ تقل عن ذلك . ولا بد أن هـــذه المبالغ تحددت وفقاً لما يصح ان يبذله كل امير من قوة ، على الرغم من أن ما جرى عرضه على تانكرد يعتبر ترجيحاً مبلغاً كبيراً ، لا يتفق مع ما لديه من القوة ، وذلك لعزله مع اكبر عدد من النرمان ، عن بوهمند [٥] .

---

(١) من الواضح أن جيش ريموند ظل اضخم الجيوش حتى غادر فلسطين ، كما يدل على ذلك حملاته التالية .

(٢) Chalandon : Histoire de la Première Croisade, p. 133.
لم أستطع أن أكتشف المصدر الذي يشير اليه .

(٣) انظر : Anna Comnena, X. IX. 1. vol. II. p. 230.
لم يكن لدى بوهمند جيش ضخم ، لأنه لم يتوافر لديه المال .

(٤) انظر ما سبق ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

(٥) انظر ما سبق ص ٣٧١ — ٣٧٢ .

أما الدليل الوحيد الذي لدينا عن حجم جيش جودفري ، مع استبعاد الرقم الخيالي الذي أوردته أنه كومنين ، فستمد من حرص جودفري على أن يوفر ٥٠٠ فارس ، ٢٠٠٠ راجـــل لأخيه بلدوين ، ليقوم بحملته على قليقية . وليس من الراجح أنه ما كان بلدوين ليفترق بما يزيد على نصف عدد قوة فرسان جودفري ، على الرغم من أنه أصر على أن تلحق به هذه القوة من جديد قبل ان يبلغ انطاكية. ومن الطريف ان نفترض أن عرض ريموند في الروج قام على اساس بذل ١٠ سنت (صولد) عن كل فارس . فاذا قسمنا في الوقت ذاته ما أوردته أنه كومنين من الارقام على عشرة ، كان لدى جودفري عنـد وصوله الى القسطنطينية نحو الف فارس ، وسبعة آلاف راجل . ولا بـــد أنه لحقت به خسائر فادحة قبل تاريخ الاجتماع في الروج ، فضلاً عن استبعاد الفرسان الذين صحبوا بلدوين الى الرها . غير أنه قد انحاز اليه كل من بقي على قيد الحياة من رجال حملة بطرس الناسك ، ومن الحملة الألمانية الفاشلة ، فضلاً عن بحارة جاينيمر ، الذين من الطبيعي أن ينضموا الى كونت بولون وأخويه نظراً لأن سيدهم كان من بولونيا ايضاً [١] .

وتساوى روبرت النرمندي في المكانـة مع جودفري في الروج . فاذا قاد جودفري ألفاً من الفرسان ، فلا بد أن روبرت النرمندي كان يضارعه في القوة . وبعد قرن من الزمان ، كان لزاماً على نرمنديا أن تمـد دوقها بما لا يقل كثيراً عن ٦٠٠ فارس [٢] . فكان بوسع روبرت إذن أن يحشد

---

(١) انظر ما سبق ص ٢١٥ — ٢١٧ ؛ ٢٨٦ — ٢٨٧ .

(٢) Milites Regni Franciae in Bouquet, R. H. F. vol. XXII pp. 684 - 685.

أورد عن نرمنديا زمن فيليب اغسطس بأنه كان لها ٦٠ لواء ، والراجح أن كل لواء ينضوي تحته عشرة فرسان ، انظر : Ibid vol. XXIII pp. 698. اذ يشير الى ان دوقية نرمندي كان يخرج منها ٥٨١ فارس .

الحملة الصليبية الاولى عدداً من الفرسان يزيد قليلاً ، إذ يبلغ فيما يبدو ٦٥٠ فارس وانحاز اليه (روبرت النرمندي). فرسان من بريتاني، ومن عبر القنال، فانضم اليه بذلك نحو ١٠٠ ، او ١٥٠ فارس آخر . يضاف الى ذلك أنه بعد عودة ستيفن بلوا وهيو فرماندوا الى اوربا ، خضع لقيادة روبرت النرمندي ما خلفاه وراءهما من القوات . والمعروف أن ستيفن حصل على نحو ٢٥٠ او ٣٥٠ ، فارس من املاكه التي لم تكن شاسعة ، غير أنها كانت خصيبة . والراجح أن هيو فرماندو لم يجلب معه اكثر من مائة فارس، وبذا يكون مجموع من خضع لقيادة روبرت النرمندي في وقت اجتماع الروج نحو الف فارس .

وعلى هذا الاساس لا بد ان كان لدى روبرت فلاندر ستمائة فارس ، جاء بعضهم من اقليم جاره كونت هاينو ، وما يدين به روبرت فلاندر قانوناً من التبعية للملك فرنسا ، يتطلب منه عشرين فارساً بكامل اسلحتهم . غير أنه عرض سنة ١١٠٣ بمقتضى معاهدة ، بأن يمد هنري الاول ملك انجلترا بألف فارس [1] ، فيتضح من ذلك أن بوسعه أن يحشد في سهولة ويسر ستماية فارس للحملة الصليبية الاولى .

وما أشار اليه تاريخ لوكا من تقدير قوة بوهمند بنحو ٥٠٠ فارس ، يتفق مع هذه الارقام . فاذا افترضنا ان جيوش صغار السادة لا بد من تقديرها مع الجيوش الكبيرة ، وأن ما عرضه ريموند في الروج من مبالغ كان امراً شخصياً خالصاً ، كان مجموع الحملة جملة ، يتراوح بين ٤٢٠٠ ، ٤٥٠٠ فارس و ٣٠ الف من الرجالة ، ويدخل في ذلك ما اقتضته الحاجة من استخدام المدنيين . والرسالة التي كتبها دايبرت الى البابا ، جعلت عدد جيش الصليبيين نحو ٥ آلاف فارس ، ١٥ الف من الرجالة .

---

(١) انظر : Actes des Comtes de Flandres. ed. by Vercauteren, nos. 30, 41. quoted by Lot : l'Art Militaire et les Armées du Moyen Age vol. I. p. 130. note 2.

والراجح أنــه لم يدخل في الرجالة إلا المحاربون المسلحون فحسب . أما الرقم الاول فليس إلا مبالغة مقبولة عن ٤٠٠٠ فارس [١] .

ويعتبر هذا فيما يبدو جيشاً بالغ القلة . ومع ذلــك فإنا رجعنا الى الارقام التي اوردها المؤرخون عن كل معركة على حدة ، لا يزال العدد بالــغ القلة . ففي معركة بحيرة انطاكية ، حينما تم استخدام كل من تيسر الحصول عليه من الفرسان ، فانهم حسبما تشير الرواية لم يكونوا سوى ٧٠٠ فارس . غير أن عدداً كبيراً من الفرسان كانوا وقتذاك مرضى ، ويبدو من رسالة أنسلم ريبمونت أن الحاجــة الحقيقية كانت ماسة الى الخيل . وقــدر أنسلم أنه لم يتيسر الحصول إلا على نحو ٧٠٠ حصان للإفادة منها زمن حصار انطاكية ، اذ ان عدداً كبيراً منها هلك بسبب الجوع والبرد . وأعلن أنه لم تكن الحاجة ماسة الى الرجال [٢] . يضاف الى ذلــك أنه من الراجح أنــه حدث في هذه الحالة أن فرسان ريموند ظلوا معه لحراسة المعسكر . أما الحملة التي قادها بوهمند وروبرت فلاندر في السنة التاليــة من اجل الاغارة ، فانها تألفت فيما يبدو من ٢٠٠٠ فارس ، وخمسة عشر الف راجل . ومن المحقق أنه لم يشترك في هذه الحملة جيش ريموند [٣] . والمعروف أنه لم يشهد حصار بيت المقدس إلا نحو ١٢٠٠ ، او ١٣٠٠ فارس ، وما يزيد قليلاً على ١٠ آلاف من الرجالة . ويضارع ذلك العدد فعلاً قوة الجيش في عسقلان [٤] . وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من العساكر مات او لقي مصرعه ، وأن عدداً كبيراً عاد الى بلاده ،

---

(١) هذه الرسالة واردة في :
Hagenmeyer : Die Kreuzzugsbriefe p. 172.

(٢) انظر ما سبق ص ٢١٦ — ٢١٧ .

(٣) انظر ما سبق ص ٣١٢ — ٣١٣ .

(٤) انظر ما سبق ص ٤٨٣ — ٤٨٤ حاشية ١ ، ٢ .

فمن المستحيل ان يتـداعي نحو ثلثي قوة الجيش في الفترة الواقعـة بين انعقاد المؤتمر في الروج وبين الاستيلاء على بيت المقدس .

ولا يسعنا إلا ان نكرر أنه لا بـد من الاحتياط في التقدير . واني لأعتقد ان مجموع عدد الجيش في الوقت الذي غادر فيه القسطنطينية يبلغ تقريباً المجموع الذي سبق ان أوردته . وفي أثنـاء السنتين التاليتين ، لا بد أنه ازداد تناقصاً ، وفي الروج كان ريموند يستخدم حساباً لم يعـد مطابقاً للزمن ، وشديد النزوع للتفاؤل ، ليقيم عليه عروضه . وما ورد في التواريخ عن اعمال بلدوين ، من أعداد قليلة للقوات التي استخدمها بلدوين فيا قام به من اعمال ، يصح اعتبارها فيا اظن قريبة من الدقة .

ومن المستحيل ايضاً تقدير حجم جيش الحملة الأصلية التي قادها بطرس الناسك . فما اورده ألبرت الأخيني من أنه كان يبلغ اربعين الفاً ، يعتبر شديد المغالاة ، غير أن اتباعه كانوا من الكثرة ما يجعلهم يبلغون عشرين ألفاً ، على أن معظمهم كانوا من غير المحاربين [1] .

ومن اجل اغراض المقارنة ، يصح ملاحظة أن كل الجيش البيزنطي ، جرى تقديره في القرن التاسع على أنه يبلغ نحو ١٢٠ الف . وأدى ضياع إقليم آسيا الصغرى ، الى تخفيض ما يصح الحصول عليـه من القوات في نهاية القرن الحـادي عشر . والراجح ان الكسيوس كان بوسعه ان يدبر نحو ٧٠ الف رجـل ، كانت الحاجة ماسة الى معظمهم للمرابطة في اطراف

---

(١) انظر : Chalandon, op. cit. p. 59.
يقدر أن ١٠ الف شخص غادروا فرنسا مع بطرس الناسك . ومن المستحيل تقدير الرقم الصحيح . يشير تاريخ تسمرن (Chronicle of Zimmern pp . 27 - 28.) الى أنه كان مع بطرس ٢٩ الف شخص في كيفيتوت ، بعد أن لاقي مصرعه في اكسيريجوردون ٣٢٠٠ من الالمان .

بلاده النائية . ومن الراجح أن نسبة كبيرة كان يجري تسريحها كل شتاء من قبيل الاقتصاد . على أن اكبر جيش قاده البيزنطيون في هذه الفترة الى القتال ، لم يتجاوز فيما يبدو ٢٠ الف رجل ، كاملي العدة والتدريب .

ومن المستحيل ان نقدر حجم الجيوش الاسلامية . والراجح أن جيش كربوقا بلغ عدده نحو ٣٠ الف رجل ، غير أنه ليس لدينا دليل قاطع . وكان بوسعه ان يبلغ من الكفاية في حصار انطاكية مـــا لم يبلغــه الجيش الصليبي . ومن المحقق أن جيش المصريين في عسقلان ، كان اكثر عدداً من قوات الصليبيين ، غير أن حجمه الفعلي لا يصح تقديره إلا تخميناً وحدساً . وما يدعو الى الشك أن يضارع الجيش التركي في دوريليوم في الضخامة ، جيش الصليبيين . استند الترك الى هجومهم المفاجىء ، وسرعة حركتهم لتعويض ما يترتب على قلة العدد من العيوب .

المصادر والمراجع

اولا ـ المصادر الاصلية

١ ـ مجموعات المصادر

ملحوظة : ما ورد في نهاية بعض المصادر من رموز ، انما تشير الى هذه المصادر الواردة في الحواشي ،وفيما يلي من اقسام المصادر والمراجع .

ACHÉRY, L. D'. *Spicilegium sive Collectio veterum aliquot Scriptorum*, 13 vols. Paris, 1655–77. 2nd ed. (ed. L. F. J. de la Barre), 3 vols. Paris, 1723.

Acta Sanctorum (*Bollandiana*). Antwerp-Paris-Rome-Brussels, 1643– (in progress). [*Aa. Ss.*]

Acta Sanctorum Ordinis Sancti Benedicti (ed. J. Mabillon and L. d'Achéry), 9 vols. Paris, 1668–1701.

AMEDROZ, H. F. and MARGOLIOUTH, D. S. *The Eclipse of the Abbasid Caliphate: Original Chronicles of the Fourth Islamic Century*, 6 vols. and Index. Oxford, 1920–1.

Archives de l'Orient Latin, pub. Société de l'Orient Latin, 2 vols. Paris, 1881–4.

ASSEMANI, J. S. *Bibliotheca Orientalis*, 3 vols. Rome, 1719–28.

BENECHEWITCH, V. *Catalogus Codicum Manuscriptorum Graecorum qui in Monasterio Sanctae Catharinae in Monte Sinai Asservantur*. St Petersburg, 1911.

BOUQUET, M. and others. *Recueil des Historiens des Gaules et de la France*, 23 vols. Paris, 1738–1876. New series, Paris, 1899– (in progress). [*R.H.F.*]

BROSSET, M. F. *Collection d'Historiens Arméniens*, 2 vols. St Petersburg, 1874–6.

CAETANI, L. See Bibliography, p. 352.

Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium (ed. J. B. Chabot and others). Paris, 1903– (in progress). [C.S.C.O.]

Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum. Vienna, 1866– (in progress).

Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae. Bonn, 1828–97. [*C.S.H.B.*]

DÖLGER, F. *Regesten der Kaiserurkunden des Oströmischen Reiches*, 3 vols. Munich-Berlin, 1924–32.

Fonti per la Storia d'Italia, Istituto Storico Italiano. Rome, 1887– (in progress).

HAGENMEYER, H. *Die Kreuzzugsbriefe aus den Jahren 1088–1100*. Innsbruck, 1902.

HOLTZMANN, W. See Bibliography, p. 354.

JAFFÉ, P. *Bibliotheca Rerum Germanicarum*, 6 vols. Berlin, 1864–73.

JAFFÉ, P. *Regesta Pontificum Romanorum*, 2nd ed. (ed. W. Wattenbach, S. Loewenfeld, and others), 2 vols. Leipzig, 1885–8.

LEIB, B. *Deux Inédits Byzantins sur les Azymites au début du XIIme Siècle*. Rome, n.d. (1924).

Liber Pontificalis (ed. L. Duchesne), 2 vols. Paris, 1884–92.

MABILLON, J. *Annales Ordinis Sancti Benedicti*, 6 vols. Paris, 1703–39.

MABILLON, J. *De Re Diplomatica Libri VI.* Paris, 1681.

MANSI, J. D. *Sacrorum Conciliorum Amplissima Collectio*, 31 vols. Florence Venice, 1759–98. *Continuation* (ed. J. B. Martin and L. Petit). Paris, 1901 (in progress).

MIGNE, J. P. *Patrologiae Cursus Completus.*

I, *Patrologia Latina*, 221 vols. Paris, 1844–55. [*M.P.L.*]

II, *Patrologia Graeco-Latina*, 161 vols. in 166. Paris, 1857–66. [*M.P.G.*]

MONTFAUCON, B. DE. *Bibliotheca Coisliniana*. Paris, 1715.

Monumenta Germaniae Historica (ed. G. H. Pertz, T. Mommsen, and others). Hanover, 1826– (in progress). [*M.G.H.*]

MURATORI, L. A. *Rerum Italicarum Scriptores*, 25 vols. Milan, 1723–51.

NEUBAUER, A. and STERN, M. *Quellen zur Geschichte der Juden in Deutschland*, 2 vols. Berlin, 1892.

Palestine Pilgrims' Text Society, 13 vols. and Index. London, 1896–7. [*P.P.T.S.*]

Patrologia Orientalis (ed. R. Graffin and F. Nau). Paris, 1907– (in progress). [*P.O.*]

Recueil des Historiens des Croisades. Publ. Académie des Inscriptions et Belles Lettres. Paris, 1841–1906.

Documents Arméniens, 2 vols. 1869–1906. [*R.H.C.Arm.*]

Historiens Grecs, 2 vols. 1875–81. [*R.H.C.G.*]

Historiens Occidentaux, 5 vols. 1844–95. [*R.H.C.Occ.*]

Historiens Orientaux, 5 vols. 1872–1906. [*R.H.C.Or.*]

RIANT, P. *Inventaire critique des Lettres historiques des Croisades, Archives de l'Orient Latin*, vol. I. Paris, 1881.

RÖHRICHT, R. *Regesta Regni Hierosolymitani*, 2 vols. Innsbrück, 1893–1904.

ROZIÈRE, E. DE. *Recueil général des Formules usitées dans l'Empire des Francs du Vme au Xme Siècle*, 2 vols. Paris, 1859.

SATHAS, K. N. Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη, *Bibliotheca Graeca Medii Aevi*, 7 vols. Venice-Paris, 1872–9.

TOBLER, T. and MOLINIER, A. *Itinera Hierosolymitana et Descriptiones Terrae Sanctae*, 2 vols. Geneva, 1879.

UGHELLI, F. *Italia Sacra*, 9 vols. Rome, 1644–62.

VAISSÈTE, DOM. See Bibliography, p. 359.

٢ ـ مصادر غربية مؤلفة باللغات اللاتينية ، والفرنسية القديمة والالمانية

Adamnan. *Arculf's Narrative about the Holy Places* (trans. J. R. Macpherson). *P.P.T.S.* vol. III.

Aetheria. See *Pilgrimage of Saint Silvia*.

Bibliography

Aimé of Monte Cassino. *Chronicon, L'Ystoire de li Normant* (ed. O. Delarcq). Rouen, 1892.

Albert of Aix (Albertus Aquensis). *Liber Christianae Expeditionis pro Ereptione, Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae*, in *R.H.C.Occ.* vol. IV.

Alexius I Comnenus. Letters nos. I, V and XI, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Ambrose, St, Archbishop of Milan. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. XVI.

Annales Altahenses Majores, in *M.G.H. Scriptores*, vol. XX.

Annales Pisani (ed. P. Tronci), 4 vols. Pisa, 1828–9.

Anonymi Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitorum (ed. L. Bréhier as *Histoire Anonyme de la Première Croisade*). Paris, 1924. (Also ed. H. Hagenmeyer. Heidelberg, 1890.)

Anselm of Ribemont. Letters nos. VIII and XV, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Augustine, St, of Hippo. *Contra Faustum*, in *M.P.L.* vol. XLII.

Augustine, St, of Hippo. *De Civitate Dei*, in *M.P.L.* vol. XLI.

Augustine, St, of Hippo. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. XXXIII.

Bartolf of Nangis. *Gesta Francorum Iherusalem Expugnantium*, in *R.H.C.Occ.* vol. III.

Baudri of Dol. *Historia Jerosolimitana*, in *R.H.C.Occ.* vol. IV.

Baudri of Dol. *Vita di Roberti de Arbrisello*, in *Aa. Ss.* (23 February), vol. III.

Bechada, Gregory. *Chanson d'Antioche en provençal* (ed. P. Meyer) in 'Fragment d'une Chanson d'Antioche en provençal', in *Archives de l'Orient Latin*, vol. II.

Benedict of Accolti. *Historia Gotefridi*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.

Berno. *Libellus de Officio Missae*, in *M.P.L.* vol. CXLII.

Bernold of Constance (Saint-Blaise). *Chronicon*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. V.

Bohemond. Charter no. X, and letters (with other princes) nos. XII and XVI, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Caffaro de Caschifelone. *Annales Ianuenses*, in *Fonti per la Storia d'Italia*, vols. I and II.

Caffaro de Caschifelone. *De Liberatione Civitatum Orientis Liber*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. I.

Cartulaire de Saint-Chaffre (ed. U. Chevalier). Paris, 1881.

Chanson du Chevalier au Cygne (Belgian version, ed. Reiffenberg and Borgnet), 3 vols. Brussels, 1846–59.

Chanson du Chevalier au Cygne (ed. Hippeau), 2 vols. Paris, 1874–7.

Chronicon Barense, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, vol. V.

Chronique de Zimmern (German text with French trans., ed. Hagenmeyer), in *Archives de l'Orient Latin*, vol. II.

Clementia, Countess of Flanders. Charter no. VII, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Clergy of Lucca. Letter no. XVII, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Bibliography

Commemoratorium de Casis Dei vel Monasteriis, in Tobler and Molinier, *Itinera Hierosolymitana*, vol. I.

Cosmas of Prague. *Chronicon*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. VII.

Daimbert (Dagobert), Archbishop of Pisa and Patriarch of Jerusalem. Letters nos. XVIII and XXI, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

De Sancto Wlphlagio, in *Aa. Ss.* (7 June), June, vol. II.

Ekkehard of Aura. *Chronicon Universale*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. VI.

Ekkehard of Aura. *Hierosolymita*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. I.

Ennodius. *Libellum pro Synodo*, in *Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum*, vol. VI. Vienna, 1882.

Expeditio Contra Turcos (ed. at base of Tudebod), in *R.H.C.Occ.* vol. III.

Fulbert of Chartres. *Epistolae*, in *R.H.F.* vol. X.

Fulcher of Chartres. *Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium* (ed. H. Hagenmeyer). Heidelberg, 1913.

Genoese citizens. Pact with Bohemond no. XIV, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Gesta Adhemari Episcopi Podiensis Hierosolymitana, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.

Gesta Francorum. See *Anonymi Gesta Francorum*.

Gilon. *De Via Hierosolymitana*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.

Glaber. See Radulph.

Graindor of Douai. See Richard the Pilgrim.

Gregory VII, Pope. *Epistolae*, in *Monumenta Gregoriana*, vol. II of Jaffé, *Bibliotheca Rerum Germanicarum*.

Gregory VII, Pope. *Registra* (ed. E. Caspar), in *M.G.H. Epistolae*, vol. II.

Gregory of Tours. *De Gloria Martyrum*, in *M.P.L.* vol. LXXI.

Guibert of Nogent. *Historia Hierosolymitana*, in *R.H.C.Occ.* vol. IV.

Gunther of Basle. *Solymarius*, in *Archives de l'Orient Latin*, vol. I.

Henry of Huntingdon. *De Captione Antiochiae*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.

Historia Belli Sacri (*Tudebodus Continuatus*), in *R.H.C.Occ.* vol. III.

Historia et Gesta Ducis Gotfridi, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.

Hugh of Fleury. *Itineris Hierosolymitani Compendium*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.

Hugh of Lerchenfeld. *Breviarium Passagii in Terram Sanctam*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.

Itinerary of Bernard the Wise (trans. J. H. Bernard), in *P.P.T.S.* vol. III.

Itinerary of the Bordeaux Pilgrim (trans. A. Stewart), in *P.P.T.S.* vol. I.

Jerome, St. *De Viris Illustribus*, in *M.P.L.* vol. XXIII.

Jerome, St. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. XXII.

Jerome, St. *Liber Paralipumenon*, in *M.P.L.* vol. XXVIII.

John VIII, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. CXXVI.

Joseph of Exeter. *Poemata* (ed. J. Jusserand), *De Josepho Exoniensi*. Paris, 1877.

Joseph the Historiographer. *Tractatus de Exordio Sacrae Domus Hospitalis Jerosolimitani*, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.

Lambert of Arras. Canons of the Council of Clermont, in Mansi, *Concilia*, vol. XX.

Leo IX, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. CXLIII.

Leo of Ostia. *Chronicon Monasterii Casinensis*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. VII.

Lisiard of Tours. *Historiae Hierosolimitanae Secunda Pars*, in *R.H.C.Occ.* vol. III.

Liudprand of Cremona. *Opera* (ed. J. Becker). Hanover-Leipzig, 1925.

Malaterra, Gaufredus. *Historia Sicula*, in *M.P.L.* vol. CXLIX.

Martin I, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. LXXXVII.

Milites Regni Franciae, in *R.H.F.* vol. XXII.

Miracles de Saint-Benoît (ed. E. de Certain). Paris, 1856.

Miracula Sancti Wolframni Senonensis, in *Acta Sanctorum Ordinis Sancti Benedicti*, ser. III, pt. II.

Monitum in Balduini III Historiae Nicenae vel Antiochenae Prologum, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. I.

Nicholas I, Pope. *Epistolae*, in *M.G.H. Epistolae*, vol. VI.

Notitiae Duae Lemovicenses de Praedicatione Crucis in Aquitania, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. II.

Orderic Vitalis. *Historia Ecclesiastica* (ed. A. Le Prevost and L. Delisle) in Société de l'Histoire de France, 5 vols. Paris, 1838–55.

Paschal II, Pope. Letters nos. XIX and XXII, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Peregrinatio Frotmundi, in *Aa. Ss.* (24 October), Oct., vol. X.

Pilgrimage of Saint Silvia of Aquitaine (trans. A. Stewart), in *P.P.T.S.* vol. I.

Prudentius. *Carmina* (ed. J. Bergman), in *Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum*, vol. LXI.

Radulph of Caen. *Gesta Tancredi Siciliae Regis in Expeditione Hierosolymitana*, in *R.H.C.Occ.* vol. III.

Radulph Glaber. *Historiarum Sui Temporis Libri V*, in *R.H.F.* vol. X.

Raymond of Aguilers. *Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem*, in *R.H.C.Occ.* vol. III.

Richard the Pilgrim. *La Chanson d'Antioche*, in *Roman des Douze Pairs: La Chanson d'Antioche composée au Commencement du XIIme Siècle par le Pélérin Richard, renouvelée sous le Règne de Philippe Auguste par Graindor de Douai et publiée pour la première fois par Paulin Paris*, 2 vols. Paris, 1848.

Robert the Monk. *Historia Hierosolymitana*, in *R.H.C.Occ.* vol. III

Sigebert of Gembloux. *Chronicon*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. VI.

Stephen of Blois. Letters nos. IV and X, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Symeon, Patriarch of Jerusalem (with others). Letters nos. VI and IX, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Tolomeo. *Annales Lucchenses*, in *M.G.H. Scriptores* (new ser.), vol. VIII.

Translatio Sancti Nicolai in Venetiam, in *R.H.C.Occ.* vol. V, pt. I.

Tudebod. *De Hierosolymitano Itinere*, in *R.H.C.Occ.* vol. III.

Urban II, Pope. Letters nos. II and III, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Victor II, Pope. Letter no. 1 (wrongly attributed to Victor III), in *M.P.L.* vol. CXLIX.

Victricius, St. *Liber de Laude Sanctorum*, in *M.P.L.* vol. XX.

Vita Genovefae Virginis Parisiensis, in *M.G.H. Scriptores Rerum Merovingiarum*, vol. III.

Vita Lietberti, in d'Achéry, *Spicilegium*, vol. IX.

Vita Urbani II, in *Liber Pontificalis*, vol. II.

William of Malmesbury. *Gesta Regum* (ed. W. Stubbs), Rolls Series, 2 vols. London, 1887–9.

William of Tyre. *Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum*, in *R.H.C. Occ.* vol. I, pts. I and II. Old French version, *L'Estoire de Eracles, Empereur, et la Conqueste de la Terre d'Outremer, ibid.*

Willibald. *Hodoeporicon* (trans. W. R. Brownlow), in *P.P.T.S.* vol. III.

٢ ـ مصادر يونانية

Anna Comnena. *Alexiad* (ed. B. Leib), in *Collection Byzantine de l'Association Guillaume Budé*, 3 vols. Paris, 1937–45. (Also ed. Ducange, in *R.H.C.G.* vol. I.)

Attaliates, Michael. *Historia* (ed. I. Bekker), in *C.S.H.B.* Bonn, 1853.

Basil, St. *Opera*, in *M.P.G.* vols. XXIX–XXXII.

Bryennius, Nicephorus. *Historia* (ed. A. Meineke), in *C.S.H.B.* Bonn, 1836.

Cedrenus, Georgius. *Synopsis Historiarum* (ed. I. Bekker), in *C.S.H.B.* 2 vols. Bonn, 1839.

Cerularius, Michael, Patriarch. *Epistolae*, in *M.P.G.* vol. CXX.

Chronicon Paschale (ed. L. Dindorf), in *C.S.H.B.* 2 vols. Bonn, 1832.

Constantine Porphyrogennetus. *De Ceremoniis Aulae Byzantinae* (ed. J. J. Rieske), in *C.S.H.B.* 2 vols. Bonn, 1829–30. (Also ed. A. Vogt, in *Collection Byzantine de l'Association Guillaume Budé*, 4 vols. Paris, 1935–40.)

Doctrina Jacobi nuper Baptizati (ed. N. Bonwetsch), in *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaft zu Göttingen, Phil.-Hist. Klasse*, Neue Folge, vol. XII, no. 3. Berlin, 1910.

Eastern Patriarchs. Letter to Theophilus, in *M.P.G.* vol. XCV.

Eusebius of Caesarea. *Ecclesiastical History* (trans. H. J. Lawlor and J. E. L. Oughton), 2 vols. London, 1928.

Glycas, Michael. *Chronicon* (ed. I. Bekker), in *C.S.H.B.* Bonn, 1836.

Gregory Nazianzene, St. *Epistolae*, in *M.P.G.* vol. XLVI.

John VI Cancuztaenus. *Historia* (ed. L. Schopen), in *C.S.H.B.* 3 vols. Bonn, 1828–32.

John Chrysostom, St. *Opera*, in *M.P.G.* vols. XLVII–LXIV.

John the Oxite, Patriarch of Antioch. Περὶ τῶν 'Αζύμων, in Leib, *Deux Inédits Byzantins*.

Nicephorus Callistus. *Historia Ecclesiastica*, in *M.P.G.* vol. CXLVI.

Nicephorus, Patriarch. *Opuscula Historica* (ed. C. de Boor), in *Bibliotheca Teubneriana*. Leipzig, 1880.

Origen. *In Joannem*, in *M.P.G.* vol. XIV.

Passio LX Martyrum et Legenda Sancti Floriani (ed. H. Delehaye), in *Analecta Bollandiana*, vol. XXIII. Brussels, 1903.

Peter, Patriarch of Antioch. Letter to Michael Cerularius, in *M.P.G.* vol. CXX.

Synopsis Chronicon, in Sathas, Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη, vol. VII.

Theodosius, Patriarch of Jerusalem. Letter to Ignatius of Constantinople, in Mansi, *Concilia*, vol. XVI.

Theophanes Confessor. *Chronographia* (ed. C. de Boor), 2 vols. Leipzig, 1883–5.

Theophylact, Archbishop of Bulgaria. *Epistolae*, in *M.P.G.* vol. CXXVI.

Zonaras, Joannes. *Epitome Historiarum*, vol. III (ed. T. Büttner-Wörst), in *C.S.H.B.* Bonn, 1897.

٤ – مصادر عربية وفارسية

[*Note.* The titles of the works are translated into English.]

Abu'l Feda. *Moslem Annals* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Or.* vol. I. (Full text with Latin trans. ed. J. Reiske. Copenhagen, 1789–94.)

Abu'l Mahāsin. MS. passages quoted with Russian trans. in Rosen, *Emperor Basil the Bulgar-slayer*.

Agapius of Maboug. *Universal Chronicle* (ed. with French trans. by A. A. Vasiliev), in *P.O.* vols. V, VII and VIII.

Antiochus the Stratege. *Capture of Jerusalem by the Persians*, Arabic version (ed. with French trans. by A. Couret), in *Revue de l'Orient Chrétien*. Paris, 1897. See Bibliography, p. 350.

Balādhuri. *The Conquest of the Nations*, Arabic text. Cairo, A.H. 1319. (English trans. by P. K. Hitti and F. C. Murgotten, 2 vols. New York, 1916–24.)

Chronicle of Seert (ed. with French trans. by A. Scher), in *P.O.* vols. IV, V, VII and XIII.

Eutychius, Patriarch of Alexandria. *Annals* (Latin trans. in *M.P.G.* vol. CXI).

Ibn al-Athir. *History of Atabegs of Mosul* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Or.* vol. II, pt. II.

Ibn al-Athir. *Sum of World History* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Occ.* vol. I. (Full Arabic text ed. C. J. Tornberg, 14 vols. Leyden-Upsala, 1851–76.)

Ibn Khaldūn. *Universal History*, Arabic text, 7 vols. Bulaq, A.H. 1287. (Partial Latin trans. by C. J. Tornberg. Upsala, 1840.)

Ibn al-Qalānisī. *Continuation of the Chronicle of Damascus: The Damascus Chronicle of the Crusades* (selected and trans. into English by H. A. R. Gibb). London, 1932. (Full Arabic text ed. H. F. Amedroz. Leyden, 1908.)
al-Jahiz. *Three Essays* (ed. J. Finkel). Cairo, 1926.
Kemal ad-Din. *Chronicle of Aleppo* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Or.* vol. III.
Miskawaihi. *The Experiences of the Nations* (concluding portions with English trans. by D. S. Margoliouth), in Amedroz and Margoliouth, *Eclipse of the Abbasid Caliphate*, vols. I and II (Arabic text); vols. IV and V (English text).
Mukaddasi. *Description of Syria* (English trans. by G. Le Strange), in *P.P.T.S.* vol. III.
Nasir-i-Khusrau. *Diary of a Journey through Syria and Palestine* (English trans. from the Persian by G. Le Strange), in *P.P.T.S.* vol. IV.
Severus of Aschmounein. *History of the Patriarchs of Alexandria* (ed. with English trans. by B. Evetts), in *P.O.* vols. I and V.

٥ ـ مصادر ارمنية

Aristaces of Lastivert. *History* (Armenian text). Venice, 1844.
Kirakos of Gantzag (Guiragos of Kantzak). *History* (extracts with French trans.), in *R.H.C.Arm.* vol. I.
Matthew of Edessa. *Chronicle* (French trans. by E. Dulaurier). Paris, 1858. (Extracts with French trans., in *R.H.C.Arm.* vol. I.)
Mekhitar of Airavanq. *History* (Armenian text). St Petersburg, 1867.
Samuel of Ani. *Chronological Tables* (French trans.), in Brosset, *Collection d'Historiens Arméniens*, vol. II.
Sebeos. *History of Heraclius* (Armenian text). Constantinople, 1851.
Sembat, Constable of Armenia. *Chronicle* (Armenian text). Paris, 1859.
Vahram Rabuni. *History of the Rupenian Dynasty* (rhyming chronicle, Armenian text with French trans.), in *R.H.C.Arm.* vol. I.
Vartan the Great. *History* (extracts with French trans.), in *R.H.C.Arm.* vol. I.

٦ ـ مصادر سريانية

Anonymous Chronicle (ed. A. S. Tritton with English trans.) in 'First and Second Crusades from an anonymous Syriac chronicle', in *Journal of the Royal Asiatic Society*. London, 1933.
Anonymous Chronicle (ed. with Latin trans. by I. Guidi), in *C.S.C.O. Scriptores Syri*, ser. III, vol. IV. (Quoted as *Anon. Guidi.*)
Bar Hebraeus, Gregory, called Abu'l Faraj. *Chronography*. Part I, *Political History* (ed. with English trans. by E. A. W. Budge), 2 vols. Oxford, 1932. Parts II and III, *Ecclesiastical History* (ed. with Latin trans. by

J. B. Abbeloos and T. J. Lamy), 2 vols. Louvain, 1872–7. (Extracts in Assemani, *Bibliotheca Orientalis*, vol. II.)

Elias of Nisibin. *Chronicle* (ed. with French trans. by E. W. Brooks and J. B. Chabot), in *C.S.C.O. Scriptores Syri*, ser. III, vols. VII and VIII.

Michael the Syrian. *Chronicle* (ed. with French trans. by J. B. Chabot), 4 vols. Paris, 1899–1910.

'Thomas the Priest.' *Book of the Caliphs* (ed. as *Chronicon Miscellaneum ad annum Domini 724 pertinens* with Latin trans. by E. W. Brooks), in *C.S.C.O. Scriptores Syri*, ser. III, vol. IV.

٧ — مصادر عبرية

Anonymous of Mainz-Darmstadt. *Memorial* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.

Eliezer bar Nathan. *Relation* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.

Ephraim bar Jacob. *Relation* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.

Martyrology of Nuremberg, Das Martyrologium des Nurnberger Memorbuches (ed. with German trans.), in Safeld, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. III. Berlin, 1898.

Salomon bar Simeon. *Relation* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.

٨ — مصادر متنوعة

Antiochus the Stratege. *Capture of Jerusalem by the Persians*, in Georgian (ed. with Russian trans. by A. Marr), in *Textes et Recherches rélatifs à la Philologie Arménienne*, vol. IX. St Petersburg, 1909. (This work was probably originally written in Greek. The Georgian version is derived from a lost Arabic version, of which the work mentioned in Bibliography, p. 348, is an abridgement. A second Georgian and a slightly fuller Arabic version have since been discovered. See P. Peeters in *Analecta Bollandiana*, vols. XXXI and XXXVIII.)

John of Nikiu. *Chronicle* (trans. from the Ethiopic by R. H. Charles). London, 1916. (This work was originally written in Greek and translated into Arabic and from Arabic into Ethiopic. Both the Greek and Arabic versions are lost.)

ثانيا — مراجع حديثة

AMANN, E. and DUMAS, A. *L'Eglise au pouvoir des Laïques*, vol. VII of A. Fliche and V. Martin, *Histoire de l'Eglise*. Paris, 1940.

AMANTOS, K. Ἱστορία τοῦ Βυζαντινοῦ Κράτους, 2 vols. Athens, 1939–48.

AMARI, M. *Storia dei Musulmani di Sicilia*, 9 vols. Florence, 1854–72.

Bibliography

AMÉLINEAU, E. 'La Conquête de l'Egypte par les Arabes', in *Revue Historique*, vol. CXIX. Paris, 1915.

ANDERSON, J. G. C. 'The Road-System of Eastern Asia Minor', in *Journal of Hellenic Studies*, vol. VII. London, 1888.

ARCHER, T. A. and KINGSFORD, C. L. *The Crusades*. London, 1894.

ARNOLD, T. and GUILLAUME, A. *The Legacy of Islam*. Oxford, 1931.

BALLESTEROS Y BERETTA, A. *Historia de España*, vol. II. Barcelona, 1908.

BARKER, E. Article 'The Crusades', in *Encyclopaedia Britannica*, 11th ed.

BARTHOLD, W. Article 'Turks', in *Encyclopaedia of Islam*.

BARTHOLD, W. *Turkestan down to the Mongol Invasion*. Gibb Memorial Series. Oxford, 1928.

BAUDRILLART, A., VOGT, A. and ROUZIÈS, M. *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie Ecclésiastique*. Paris, 1912– (in progress).

BEAUMONT, A. A. 'Albert of Aachen and the County of Edessa', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.

BECKER, C. H. Article 'Djizya', in *Encyclopaedia of Islam*.

BERCHEM, M. VAN. 'The Mosaics of the Dome of the Rock at Jerusalem and of the Great Mosque at Damascus', ch. V in Creswell, *Early Muslim Architecture*.

BLEYE, A. *Manual de Historia de España*, 2 vols. Bilbao, 1927–8.

BOGIATZIDES, I. Ἱστορικαὶ Μελέται. Thessalonica, 1932.

BOISSONNADE, P. 'Cluny, la Papauté et la première grande Croisade internationale contre les Sarrasins d'Espagne', in *Revue des Questions Historiques*, vol. CXVII. Paris, 1932.

BOISSONNADE, P. *Du nouveau sur la Chanson de Roland*. Paris, 1923.

BRÉHIER, L. *L'Eglise et l'Orient au Moyen Age: Les Croisades*. Paris, 1928.

BRÉHIER, L. and AIGRAN, A. *Grégoire le Grand, les Etats barbares et la Conquête Arabe*, vol. V of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise*.

BREYSIG, T. 'Gottfried von Bouillon vor dem Kreuzzuge', in *Westdeutsche Zeitschrift für Geschichte*, vol. XVII. Trier, 1898.

BROWNE, L. E. *The Eclipse of Christianity in Asia*. Cambridge, 1933.

BUCKLER, G. *Anna Comnena*. Oxford, 1929.

BUHL, F. Articles 'Al Kuds' and 'Muhammed', in *Encyclopaedia of Islam*.

BURKITT, F. C. *Early Eastern Christianity*. London, 1904.

BURY, J. B. *History of the later Roman Empire from Arcadius to Irene*, 2 vols. London, 1889.

BURY, J. B. *Selected Essays* (ed. Temperley). Cambridge, 1930.

BURY, J. B. 'The Ceremonial Book of Constantine Porphyrogennetos', in *English Historical Review*, vol. XXII. London, 1907.

BUTLER, A. J. *The Arab Conquest of Egypt*. Oxford, 1902.

BYRNE, E. H. 'Genoese Colonies in Syria', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.

CABROL, F. and LECLERCQ, H. *Dictionnaire d'Archéologie chrétienne et de Liturgie*. Paris, 1907– (in progress).

CAETANI, L. C. *Annali dell' Islam*, 7 vols. Milan, 1905–14.

CAHEN, C. 'Diyar Bakr au temps des premiers Artuqides', in *Journal Asiatique*, vol. CCXXVII. Paris, 1935.

CAHEN, C. 'La Campagne de Mantzikert d'après les Sources Mussulmanes', in *Byzantion*, vol. IX. Brussels, 1934.

CAHEN, C. 'La première Pénétration turque en Asie Mineure', in *Byzantion*, vol. XVIII. Brussels, 1948.

CAHEN, C. *La Syrie du Nord à l'Epoque des Croisades*. Paris, 1940.

CAHEN, C. 'La Tughra Seldjucide', in *Journal Asiatique*, vol. CCXXXIV. Paris, 1943–5.

Cambridge Medieval History (planned by J. B. Bury), 8 vols. Cambridge, 1911–36.

CAUWENBERGH, E. VAN. *Les Pèlerinages expiatoires et judiciaires dans le droit communal de la Belgique au Moyen Age*. Louvain, 1922.

CAVAIGNAC, E. *Histoire du Monde*. See Gaudefroy-Demombynes.

CHALANDON, F. *Essai sur le Règne d'Alexis Comnène*. Paris, 1900.

CHALANDON, F. *Histoire de la Domination normande en Italie et en Sicile*, 2 vols. Paris, 1907.

CHALANDON, F. *Histoire de la première Croisade*. Paris, 1925.

CHALANDON, F. *Les Comnènes*, t. II: *Jean II Comnène et Manuel Comnène*. Paris, 1913.

CHAMICH, M. *History of Armenia* (trans. J. Avdall), 2 vols. Calcutta, 1827.

CHEVALIER, U. *Cartulaire de Saint-Chaffre*. See Bibliography, p. 344.

CHRISTENSEN, A. *L'Iran sous les Sassanides*. Paris-Copenhagen, 1936.

COGNASSO, F. *La Genesi delle Crociate*. Turin, 1934.

COURET, A. *La Palestine sous les Empereurs grecs*. Grenoble, 1869.

COURET, A. *La Prise de Jérusalem par les Perses en 614*. Orléans, 1896.

CRESWELL, K. A. C. *Early Muslim Architecture*, 2 vols. Oxford, 1932–40.

CROZET, R. 'Le Voyage d'Urbain II et ses arrangements avec le Clergé de France', in *Revue Historique*, vol. CLXXIX. Paris, 1937.

DAVID, C. W. *Robert Curthose*. Cambridge, Mass., 1920.

DELBRÜCK, H. *Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der politischen Geschichte*, 3 vols. Berlin, 1907.

DELEHAYE, H. *Les Origines du Culte des Martyres*, in *Analecta Bollandiana*, vol. XLIV. Brussels, 1925.

DELEHAYE, H. *Sanctus: Essai sur le Culte des Saints*. Brussels, 1927.

DER NERSESSIAN, S. *Armenia and the Byzantine Empire*. Cambridge, Mass., 1945.

DESCHAMPS, P. *Les Châteaux des Croisés en Terre Sainte*: vol. I, *Le Crac des Chevaliers*. Paris, 1934; vol. II, *La Défense du Royaume de Jérusalem*. Paris, 1939.

Bibliography

DEVREESSE, R. *Le Patriarchat d'Antioche*. Paris, 1945.

DIEHL, G. and MARÇAIS, G. *Le Monde Oriental de 395 à 1081*, vol. III of *Histoire Générale*, fondée par G. Gloetz, *Histoire du Moyen Age*. Paris, 1936.

DIEHL, C., MARÇAIS, G., OECONOMOS, L., GUILLAUD, R. and GROUSSET, R. *L'Europe Orientale de 1081 à 1453*, *ibid.* vol. IX. Paris, 1945.

DODU, G. *Histoire des Institutions Monarchiques dans le Royaume Latin de Jérusalem*. Paris, 1894.

DÖLGER, F. *Regesten der Kaiserurkunden des Oströmischen Reiches*, vol. II. Munich-Berlin, 1925.

DOZY, R. *Histoire des Musulmans d'Espagne* (new ed.), 3 vols. Leyden, 1932.

DUCANGE, C. DU F. *Les Familles d'Outremer* (ed. E. G. Rey). Paris, 1869.

DUCHESNE, L. *Les Premiers Temps de l'Etat Pontifical*. Paris, 1898.

DUNCALF, F. 'The Pope's Plan for the First Crusade', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.

DUVAL, R. *Histoire politique, religieuse et littéraire d'Edesse*. Paris, 1892.

DUSSAND, R. *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale*. Paris, 1927.

DVORNIK, F. *The Photian Schism*. Cambridge, 1948.

EBERSOLT, J. *Les Sanctuaires de Byzance*. Paris, 1921.

EBERSOLT, J. *Orient et Occident*, 2 vols. Paris, 1928–9.

Encyclopaedia of Islam, 4 vols. Leyden-London, 1908–34.

ENLART, C. *Les Monuments des Croisés*, 2 vols. (with albums). Paris, 1925–8.

ERDMANN, C. *Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens*. Stuttgart, 1935.

EVERY, G. *The Byzantine Patriarchate*. London, 1947.

FLICHE, A. *Le Règne de Philippe Ier, Roi de France*. Paris, 1912.

FLICHE, A. *L'Europe Occidentale de 888 à 1125*, vol. II of *Histoire Générale*, fondée par G. Gloetz, *Histoire du Moyen Age*. Paris, 1930.

FLICHE, A. 'Urbain II et la Croisade', in *Revue de l'Histoire de l'Eglise de France*, vol. XIII. Paris, 1927.

FLICHE, A. and MARTIN, E. V. *Histoire de l'Eglise*. See Amann and Bréhier.

FRITSCHE, E. *Islam und Christentum im Mittelalter*. Breslau, 1930.

FRYE, R. and SAYILI, A. 'Selcuklardan evvel Ontasarkta Türkler', in *Belleten*, vol. VII. Istanbul, 1946.

GAUDEFROY-DEMOMBYNES, J. and PLATONOV, S. F. *Le Monde Musulman et Byzantin jusqu'aux Croisades*, in E. Cavaignac, *Histoire de Monde*, vol. VII[1]. Paris, 1931.

GAY, J. *L'Italie Méridionale et l'Empire Byzantin*. Paris, 1904.

GAY, J. *Les Papes du XIe siècle et la Chrétienté*. Paris, 1926.

GIBBON, E. *Decline and Fall of the Roman Empire* (ed. J. B. Bury), 7 vols. London, 1896.

GINDLER, P. *Graf Balduin I von Edessa*. Halle, 1901.

COEJE, M. J. DE. *Mémoire sur la Conquête de la Syrie par les Arabes*. Leyden, 1900.

GORDLEVSKY, A. *Seldjuk Empire in Asia Minor* (in Russian). Moscow, 1941.

GRAEFE, E. Article 'Hakim', in *Encyclopaedia of Islam.*

GRAETZ, H. *Geschichte der Juden*, 11 vols. Leipzig, 1866–78.

GRAF, G. *Geschichte der Christlichen Arabischen Litteratur*, 2 vols. Vatican City, 1944–7.

GRANDCLAUDE, M. *Etude Critique sur les Livres des Assises de Jérusalem.* Paris, 1930.

GRÉGOIRE, H. 'Mahomet et le Monophysisme', in *Mélanges Charles Diehl*, vol. I. Paris, 1930.

GRÉGOIRE, H. 'Notes sur Anne Comnène', in *Byzantion*, vol. III. Brussels, 1926.

GROUSSET, R. *Histoire de l'Arménie des Origines à 1071.* Paris, 1947.

GROUSSET, R. *Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem*, 3 vols. Paris, 1934–6.

GROUSSET, R. *L'Empire du Levant.* Paris, 1946.

GRUMEL, V. 'Jérusalem entre Rome et Byzance', in *Echos d'Orient*, vol. XXXVIII. Paris, 1939.

GRUMEL, V. 'Les Patriarches d'Antioche du nom de Jean', in *Echos d'Orient*, vol. XXXII. Paris, 1933.

GRUNEBAUM, G. E. V. *Medieval Islam* (2nd imp.). Chicago, 1947.

GÜTERBOCK, C. *Der Islam im Lichte der byzantinischen Polemik.* Berlin, 1912.

HAGENMEYER, H. *Chronologie de la Première Croisade.* Paris, 1902.

HAGENMEYER, H. *Die Kreuzzugsbriefe.* See Bibliography, p. 342.

HAGENMEYER, H. *Peter der Eremite.* Leipzig, 1879. French trans. (without appendices) by Furcy Raynaud, *Le Vrai et le Faux sur Pierre l'Hermite.* Paris, 1883.

HALPHEN, L. *L'Essor de l'Europe*, vol. VI of *Peuples et Civilisations* (ed. L. Halphen and P. Sagnac), 2nd ed. Paris, 1940.

HANSEN, W. *Das Problem des Kirchenstaates in Jerusalem.* Fribourg, 1928.

HATEM, A. *Les Poèmes Epiques des Croisades.* Paris, 1932.

HEERMANN, O. *Die Gefechtsführung der abendländischen Heere im Orient in der Epoche des ersten Kreuzzuges.* Marburg, 1887.

HEFELE, C. J. *Histoire des Conciles* (trans. and ed. H. Leclercq). Paris, 1907– (in progress).

HERGENRÖTHER, J. *Photius, Patriarch von Konstantinopel*, 3 vols. Regensburg, 1867–9.

HEYD, W. *Histoire du Commerce du Levant* (trans. Furcy Raynaud; 2nd reimp.), 2 vols. Leipzig, 1936.

HILL, G. *A History of Cyprus*, vol. I. Cambridge, 1940.

HOGARTH, D. G. and MUNRO, J. A. R. *Modern and Ancient Roads in Eastern Asia Minor. Royal Geographical Society, Supplementary Papers* (new ser.), vol. III. London, 1893.

HOLTZMANN, W. 'Die Unionsverhandlungen zwischen Kaiser Alexios I und Papst Urban II im Jahre 1089', in *Byzantinische Zeitschrift*, vol. XXVIII. Leipzig, 1928.
HONIGMANN, E. *Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches von 363 bis 1071*, in *Corpus Bruxellense Historiae Byzantinae*, vol. III. Brussels, 1935.
HONIGMANN, E. Articles 'al Lâdhiqiya', 'Izniq', 'Macarrat al Numan', 'Malatya', 'Marash', 'Missis', 'Orfa', 'Ortoqids' and 'Shaizar', in *Encyclopaedia of Islam*.
HOUTSMA, M. T. Article 'Seljuks', in *Encyclopaedia Britannica*, 11th ed.; articles 'Menguchek' and 'Tutush', in *Encyclopaedia of Islam*.
HUART, C. *Histoire des Arabes*, 2 vols. Paris, 1911–12.
HUBERTI, L. *Studien zur Rechtsgeschichte der Gottesfrieden und Landfrieden*. Ansbach, 1892.
HUSSEY, J. M. *Church and Learning in the Byzantine Empire*. Oxford, 1937.
IORGA, N. *Histoire de la Vie Byzantine*, 3 vols. Paris, 1934.
IORGA, N. *Histoire des Croisades*. Paris, 1924.
IORGA, N. *Les Narrateurs de la Première Croisade*. Paris, 1928.
Islam Ansiklopedisi. Istanbul, 1940– (in progress).
JIREČEK, C. *Die Heerstrasse von Belgrad nach Constantinopel und die Balkanpässe*. Prague, 1877.
JORANSON, E. 'The Great German Pilgrimage of 1064–65', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.
JUGIE, M. *Le Schisme Byzantin*. Paris, 1941.
JUGIE, M. 'Le Schisme de Michel Cérulaire', in *Echos d'Orient*, vol. XXXV. Paris, 1937.
JUYNBOLL, T. W. Article 'Kharadj', in *Encyclopaedia of Islam*.
KLEIN, C. *Raimund von Aguilers: Quellenstudie zur Geschichte des ersten Kreuzzuges*. Berlin, 1892.
KNAPPEN, M. M. 'Robert II of Flanders in the First Crusade', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.
KÖPRÜLÜ, M. F. 'Anadolun Selcuklarî Tarihi'nin Yerli Kaynaklari', in *Belleten*, vol. VII. Istanbul, 1943.
KÖPRÜLÜ, M. F. *Les Origines de l'Empire Ottoman*. Paris, 1935.
KRAUSS, S. *Studien zur byzantinisch-jüdischen Geschichten*. Leipzig, 1914.
KREBS, F. *Zur Kritik Alberts von Aachen*. Münster, 1881.
KREY, A. C. 'A Neglected Passage in the *Gesta*', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.
KREY, A. C. 'Urban's Crusade, Success or Failure?', in *American Historical Review*, vol. LIII. New York, 1918.
KRUMBACHER, K. *Geschichte der byzantinischen Litteratur*. Munich, 1897.
KÜGLER, B. *Albert von Aachen*. Stuttgart, 1885.
KÜGLER, B. *Bohemund und Tankred*. Tübingen, 1862.

Bibliography

KÜGLER, B. *Geschichte der Kreuzzüge*. Berlin, 1891.

KÜGLER, B. 'Peter der Eremite und Albert von Aachen', in *Historische Zeitschrift*, vol. XLIV. Berlin-Munich, 1880.

KÜHNE, E. *Zur Geschichte des Fürstentums Antiochien, 1098–1130*. Berlin, 1897.

KULAKOVSKY, Y. 'Criticism of evidence in Theophanes' (in Russian), in *Vizantiiski Vremennik*, vol. XXI. St Petersburg, 1915.

KULAKOVSKY, Y. *History of Byzantium* (in Russian), 3 vols. Kiev, 1913–15.

KURAT, A. N. *Peçenek Tarihi*. Istanbul, 1937.

Kuseir Amra. Published by Kaiserliche Akademie der Wissenschaften, 2 vols. Vienna, 1907.

LABOURT, J. *De Timotheo I, Nestorianorum Patriarcha*. Paris, 1904.

LABOURT, J. *Le Christianisme dans l'Empire Perse*. Paris, 1904.

LAMMENS, H. *Etudes sur le Siècle des Ommayades*. Beirut, 1930.

LAMMENS, H. *L'Arabie Occidentale avant l'Hégire*. Beirut, 1928.

LAMMENS, H. *La Syrie: Précis Historique*, 2 vols. Beirut, 1921.

LA MONTE, J. L. *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem*. Cambridge, Mass., 1932.

LANE POOLE, S. *A History of Egypt in the Middle Ages*. London, 1925.

LANE POOLE, S. *The Mohammedan Dynasties*. Paris, 1925.

LANGLOIS, V. *Numismatique de l'Arménie au Moyen Age*. Paris, 1855.

LAURENT, J. *Byzance et les Turcs Seldjoucides jusqu'en 1081*. Nancy, 1913.

LAURENT, J. 'Byzance et les Origines du Sultanat de Roum', in *Mélanges Charles Diehl*, vol. I. Paris, 1930.

LAURENT, J. 'Des Grecs aux Croisés: Etude sur l'histoire d'Edesse', in *Byzantion*, vol. I. Brussels, 1924.

LAURENT, J. *L'Arménie entre Byzance et l'Islam*. Paris, 1919.

LAURENT, J. 'Le Duc d'Antioche Katchatour', in *Byzantinische Zeitschrift*, vol. XXX. Leipzig, 1929–30.

LAURENT, J. 'Les Arméniens de Cilicie', in *Mélanges Schlumberger*, vol. I. Paris, 1924.

LEIB, B. *Deux Inédits Byzantins sur les Azymites*. See Bibliography, p. 343.

LEIB, B. *Rome, Kiev et Byzance à la fin du XIème siècle*. Paris, 1924.

LE STRANGE, G. *Lands of the Eastern Caliphate*. Cambridge, 1905.

LE STRANGE, G. *Palestine under the Moslems*. London, 1890.

LOEWE, H. M. J. 'The Seljuks', in *Cambridge Medieval History*, vol. IV, ch. X, B. Cambridge, 1923.

LONGNON, J. *Les Français d'Outremer au Moyen Age*. Paris, 1929.

LOT, F. *L'Art Militaire et les Armées du Moyen Age*, 2 vols. Paris, 1946.

LUCHAIRE, A. 'Les premiers Capétiens', in E. Lavisse, *Histoire de France*, vol. II, 2. Paris, 1901.

MANSELLI, R. 'Normanni d'Italia alla Prima Crociata: Boemondo d'Altavilla', in *Japigia*, vol. IX. Naples, 1940.

MANTEYER, G. DE. *La Provence du Ier au XIIe Siècle*. Paris, 1908.
MARICQ, A. 'Un "Comte de Brabant" et des "Brabançons" dans deux textes byzantins', in *Académie Royale de Belgique, Bulletin de la Classe des Lettres*, 5ème série, vol. XXXIV. Brussels, 1948.
MÉLY, F. DE. 'La Croix des premiers Croisés', in supplementary vol. to Riant, *Exuviae Sacrae Constantinopolitanae*. Paris, 1904.
MICHAUD, J. F. *Histoire des Croisades*, 5 vols. Paris, 1817–22.
MICHEL, A. *Amalfi und Jerusalem im griechischen Kirchenstreit. Orientalia Christiana Analecta*, no. 121. Rome, 1939.
MICHEL, A. *Humbert und Kerularios*, 2 vols. Paderborn, 1924–30.
MOELLER, C. 'Godefroid de Bouillon et l'Avouerie du Saint-Sépulchre', in *Mélanges Godfried Kurth*, vol. I. Liège, 1908.
MORAVCSIK, G. *Byzantinoturcica*, 2 vols. Budapest, 1942–3.
MORDTMANN, J. H. Articles 'Izmir' and 'Eskişehir', in *Encyclopaedia of Islam*.
MUIR, W. *The Caliphate, its Rise, Decline and Fall* (rev. ed.). Edinburgh, 1915.
MUKRIMIN HALIL (YINANÇ). Article 'Danişmend', in *Islam Ansiklopedisi*.
MUKRIMIN HALIL (YINANÇ). *Türkiye Tarihi, Selcuklu Dairi*, vol. I, *Anadolun Fethi*. Istanbul, 1934.
MUNRO, D. C. 'Did the Emperor Alexius I ask for aid at the Council of Piacenza?', in *American Historical Review*, vol. XXVII. New York, 1922.
MUNRO, D. C. *The Kingdom of the Crusaders*. New York, 1936.
MUNRO, D. C. 'The Speech of Pope Urban II at Clermont', in *American Historical Review*, vol. XI. New York, 1906.
NAU, F. *Les Arabes Chrétiens de Mésopotamie et de Syrie du VIIème au VIIIème siècle*. Paris, 1933.
NICHOLSON, R. H. *Tancred*. Chicago, 1940.
NORDEN, W. *Das Papsttum und Byzanz*. Berlin, 1903.
OECONOMOS, L. *La Vie Religieuse dans l'Empire Byzantin*. Paris, 1918.
O'LEARY, DE L. *Arabia before Mohammed*. London, 1927.
O'LEARY, DE L. *A short History of the Fatimid Khaliphate*. London, 1923.
O'LEARY, DE L. *How Greek Science passed to the Arabs*. London, 1948.
OMAN, C. W. C. *A History of the Art of War in the Middle Ages* (2nd ed.), 2 vols. London, 1924.
ORMANIAN, M. *L'Eglise Arménienne*. Paris, 1910.
OSTROGORSKY, G. 'Agrarian Conditions in the Byzantine Empire', in *Cambridge Economic History of Europe*, vol. I. Cambridge, 1942.
OSTROGORSKY, G. *Geschichte des byzantinischen Staates*. Munich, 1940.
PARIS, G. 'La Chanson d'Antioche provençale et la Grande Conquista de Ultramar', in *Romania*, vols. XVII, XIX and XXII. Paris, 1888, 1890, 1893.
PAULOT, L. *Un Pape Français: Urbain II*. Paris, 1903.
PERNICE, A. *L'Imperatore Eraclio*. Florence, 1905.
PFISTER, C. *Etudes sur le Règne de Robert le Pieux*. Paris, 1885.

PIGEONNEAU, H. *Le Cycle de la Croisade et la Famille du Bouillon.* Saint-Cloud, 1877.

PIGNOT, J. H. *Histoire de l'Ordre de Cluny*, 3 vols. Autun, 1868.

PIGULEVSKAYA, N. V. *Byzantium and Iran in the Sixth and Seventh Centuries* (in Russian). Moscow, 1946.

PONTIERI, E. *Tra i Normanni nell' Italia meridionale.* Naples, 1948.

POUPARDIN, R. *Le Royaume de Bourgogne.* Paris, 1907.

PRUTZ, H. G. *Wilhelm von Tyrus.* Munich, 1883.

RAMSAY, W. M. *The Historical Geography of Asia Minor. Royal Geographical Society, Supplementary Papers*, vol. IV. London, 1890.

RAMSAY, W. M. 'The Intermixture of Races in Asia Minor', in *Proceedings of the British Academy*, vol. VII. London, 1917.

RASOVSKY, D. 'The Polovtsians' (in Russian), in *Seminarium Kondakovianum*, vols. VI–X. Prague-Belgrade, 1935–9.

REY, E. G. *Les Colonies Franques de Syrie.* Paris, 1883.

REY, E. G. 'Les Dignitaires de la Principauté d'Antioche', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. VIII. Paris, 1900–1.

RIANT, P. *Donation de Hugues, Marquis de Toscane. Académie d'Inscriptions et de Lettres, Histoires et Mémoires*, vol. XXXI. Paris, 1884.

RIANT, P. *Expéditions et Pèlerinages des Scandinaves en Terre Sainte.* Paris, 1865.

RIANT, P. *Exuviae Sacrae Constantinopolitanae*, 2 vols. Geneva, 1877–8.

RIANT, P. *Inventaire critique des Lettres historiques des Croisades.* See Bibliography, p. 343.

RICHMOND, E. T. *The Dome of the Rock in Jerusalem.* Oxford, 1924.

RÖHRICHT, R. 'Die Pilgerfahrten nach dem Heiligen Lande vor den Kreuzzügen', in Raumer, *Historisches Taschenbuch*, vol. V, Folge 5. Leipzig, 1875.

RÖHRICHT, R. *Geschichte des ersten Kreuzzuges.* Innsbruck, 1901.

RÖHRICHT, R. *Geschichte des Königreichs Jerusalem.* Innsbruck, 1898.

RÖHRICHT, R. *Regesta Regni Hierosolymitani.* See Bibliography, p. 343.

ROSEN, V. R. *Emperor Basil the Bulgar-slayer* (in Russian). St Petersburg, 1883.

ROUSSET, P. *Les Origines et les Caractères de la première Croisade.* Neuchâtel, 1945.

RUNCIMAN, S. 'Charlemagne and Palestine', in *English Historical Review*, vol. L. London, 1935.

RUNCIMAN, S. 'The Byzantine "Protectorate" in the Holy Land', in *Byzantion*, vol. XVIII. Brussels, 1948.

RUNCIMAN, S. *The Emperor Romanus Lecapenus.* Cambridge, 1929.

RUNCIMAN, S. 'The Holy Lance found at Antioch', in *Analecta Bollandiana*, vol. LXVIII. Brussels, 1950.

SACKUR, E. *Die Cluniacenser*, 2 vols. Halle, 1892–4.

SCHLUMBERGER, G. 'Deux Chefs normands des Armées byzantines', in *Revue Historique*, vol. XVI. Paris, 1881.

SCHLUMBERGER, G. *L'Epopée Byzantine*, 3 vols. Paris, 1896–1905.

SCHLUMBERGER, G. *Numismatique de l'Orient Latin*, 2 vols. Paris, 1878–82.

SCHLUMBERGER, G. *Récits de Byzance et des Croisades*, 2 vols. Paris, 1917–22.

SCHLUMBERGER, G. *Sigillographie de l'Empire Byzantin*. Paris, 1884.

SCHLUMBERGER, G. *Sigillographie de l'Orient Latin* (continued by F. Chalandon and completed by A. Blanchard). Paris, 1943.

SCHLUMBERGER, G. *Un Empereur Byzantin, Nicéphore Phocas*. Paris, 1890.

SIMON, G. *Der Islam und die Christliche Verkündigung*. Gütersloh, 1920.

SOBERNHEIM, M. Article 'Ibn Ammar', in *Encyclopaedia of Islam*.

STARR, J. 'Byzantine Jewry on the eve of the Arab Conquest', in *Journal of the Palestine Oriental Society*, vol. xv. Jerusalem, 1935.

STARR, J. *The Jews in the Byzantine Empire, 641–1204*. Athens, 1939.

STEVENSON, W. B. 'Islam in Syria and Egypt' and 'The First Crusade', in *Cambridge Medieval History*, vol. v, chs. vi and vii. Cambridge, 1926.

STEVENSON, W. B. *The Crusaders in the East*. Cambridge, 1907.

SYBEL, H. VON. *Geschichte des ersten Kreuzzuges* (2nd ed.). Leipzig, 1881.

TER MIKELIAN, A. *Die Armenische Kirche in ihren Beziehungen zur Byzantinischen Kirche*. Leipzig, 1892.

TER MINASSIANTZ, A. *Die Armenische Kirche in ihren Beziehungen zu den Syrischen Kirchen*. Leipzig, 1904.

THIBAUDET, A. *Cluny*. Paris, 1928.

THUROT, C. 'Etudes Critiques sur les Historiens de la Première Croisade', in *Revue Historique*, vol. I. Paris, 1876.

TOMASCHEK, W. *Zur historischen Topographie von Kleinasien im Mittelalter. Sitzungsberichte der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften, Philos.-hist. Classe*, vol. CXXIV. Vienna, 1891.

TOURNEBIZE, F. *Histoire politique et religieuse de l'Arménie*. Paris, 1910.

TRITTON, A. S. *The Caliphs and their non-Muslim Subjects*. Oxford, 1930.

USENER, H. *Der Heilige Tychon, Sonderbare Heilige*, no. I. Leipzig-Berlin, 1907.

USPENSKY, F. I. *History of the Crusades* (in Russian). St Petersburg, 1900.

VACANT, A. and MANGENOT, E. *Dictionnaire de Théologie Catholique*. Paris, 1899– (in progress).

VAILHÉ, S. 'La Prise de Jérusalem par les Perses en 614', in *Revue de l'Orient Chrétien*, vol. VI. Paris, 1901.

VAILHÉ, S. 'Les Juifs et la Prise de Jérusalem en 614', in *Echos d'Orient*, vol. XII. Paris, 1907.

VAISSÈTE, DOM. *Histoire de Languedoc* (ed. A. Molinier), 10 vols. Toulouse, 1874.

VASILIEV, A. A. *Byzantium and the Arabs* (in Russian), 2 vols. St Petersburg, 1900–2. Vol. I trans. H. Grégoire and E. M. Canard as *Byzance et les Arabes*, in *Corpus Bruxellense Historiae Byzantinae*, vol. I. Brussels, 1935.

VASILIEV, A. A. *Histoire de l'Empire Byzantin*, 2 vols. Paris, 1932.

VASILIEV, A. A. 'The Opening Stages of the Anglo-Saxon Immigration to Byzantium in the Eleventh Century', in *Seminarium Kondakovianum*, vol. IX. Prague-Belgrade, 1937.

VASILIEVSKY, V. G. *Works* (in Russian), vol. I, containing *Byzantium and the Petchenegs*, and *The Varango-Russian and the Varango-English Company in Constantinople*. St Petersburg, 1908.

VERLINDEN, C. 'Robert Ier, Le Frison, Comte de Flandre', in *Werken mitgegeven door de Faculteit der Wijsbegeerde en Letteren te Gent*. Ghent, 1935.

VILLEY, M. *La Croisade: Essai sur la Formation d'une Théorie juridique*, vol. VI of H. X. Aquillière, *L'Eglise et l'Etat au Moyen Age*. Paris, 1942.

VINCENT, H. and ABEL, R. *Jérusalem*, vol. II, *Jérusalem Nouvelle* (2 fasc.). Paris, 1914–26.

WELLHAUSEN, J. *Das Arabische Reich und sein Sturz*. Berlin, 1902.

WIET, G. *L'Egypte Arabe*, vol. IV of C. Hanataux, *Histoire de la Nation Egyptienne*. Paris, 1937.

WILKEN, F. *Geschichte der Kreuzzüge*, 7 vols. Leipzig, 1807–32.

WITTEK, P. 'Byzantinisch-seldschukische Beziehungen', in *Ostersche Genootschap in Nederland, Verlag van het achste Congress*. Leyden, 1936.

WITTEK, P. 'Deux Chapitres de l'Histoire des Turcs de Roum', in *Byzantion*, vol. XI. Brussels, 1936.

WITTEK, P. 'Le Sultan de Rum', in *Annuaire de l'Institut de Philologie et d'Histoire orientales et slaves*, vol. VI. Brussels, 1938.

WITTEK, P. *The Rise of the Ottoman Empire*. London, 1938.

WOLFF, T. *Die Bauernkreuzzüge des Jahres 1096: ein Beitrag zur Geschichte des ersten Kreuzzuges*. Tübingen, 1891.

YAKUBOVSKY, A. 'The Seldjuk Invasion and the Turcomans in the Eleventh Century' (in Russian), in *Proceedings of the Academy of Science of the U.S.S.R.* Moscow, 1936.

YEWDALE, R. B. *Bohemund the First*. New York, 1917.

YINANÇ. See Mukrimin Halil.

ZETTERSTEEN, K. V. Articles 'Sukman ibn Ortok' and 'Suleiman ben Outulmush', in *Encyclopaedia of Islam*.

ZLATARSKY, V. N. *History of the Bulgarian Empire* (in Bulgarian), 3 vols. in 4. Sofia, 1918–40.

الكشاف

١ ـــ أسماء الأعلام والشعوب والقبائل
والوقائع والمدن والانهار والمصطلحات والوظائف

٢ ـ أسماء البلاد والمواضع والانهار والمصطلحات والوظائف الواردة في المصادر والمراجع الاجنبة وما يقابلها في المصادر العربية

Acre. Ptolemais, Acco, Saint John	عكـا
Adalia, Attalia, Antalya	اضاليا
Adana	اذنة
Adrianople, Hadrianopolis	ادرنه
Aila	العقبة
Amanus	آمانوس ،اللكام ، جبل
Amida	آمد
Amorium, Amorion	عمورية
Anazarbus	عين زربة
Ancyra	انقره
Ani	آني
Anti-Lebanon	الجبل الشرقي
Araxes	الرس ، نهر
Arca, Irqata	عرقة
Arsur, Arsuf, Apollonia-Sozusa	ارسوف
Ashdod	اسدود
Avlona	فالونا
Barcelona	برشلونه
Barzuya, Barzayah	برزية ، برزويه
Bethshean. Ccythopolis	بيسان
Botrys, Botron	البترون ، بترون
Biredjik	البيرة
Bulunyas, Balanea, Valania, Baniyas	بلنياس

Caesarea	قيسارية بفلسطين
Caesarea Mazacha	قيسارية ،قيسارية بقبادوقيا بآسيا الصغرى
Caesarea, Shaizar	شيزر
Caesarea Philippi	بانياس
Carmel, Mount	جبل مار الياس ، الكرمل
Castile	قشتالة
Coele-Syria	البقاع
Cydnus	البردان ، نهر
Daphne	بيت الماء
Dara	الدرعاء
Edessa, Ourha, Urfa	الرها
Emmaus, Nicopolis	عمواس
Erzerum, Theodosiopolis	قاليقلا ،ارزن الروم
Erzindjan	ارزنجان
Galilee	الجليل
Gargar	كركر
Gehenna, valley of	وادي جهنم
Germanicea	مرعش
Gethsemane	جتسماني ، الجسمانية
Goksü river, Sanja, Singa	نهر سنجة
Hamah, Epiphania, Hamath	حماه
Harenc, Harim	حارم
Hebron, Saint Abraham	حبرون ، الخليل
Hercules, Pillars of	مضيق جبل طارق
Herod gate, Gate of Flowers	باب الساهرة ، باب الزاهري
Homs, Emesa	حمص
Krak des Chevaliers	حصن الاكراد
Huesca	وشقة

Jabal Ansariya h	جبل النصيرية ـ البهرة
Jabala, Gabala	جبلة
Jebusites	اليبوسيون
Jericho	اريحا
Jubail, Byblos, Gibelet	جبيل
Jezreel, Parvum Gerinum	يزرعيل ، زرعين
Jihan river, Pyramus	جيحان ، نهر
Kaisun	كيسوم
Mamistra (Missis, Mopsuesta)	المصيصة
Manbij, Hierapolis	منبج
Maraclea, Marqiyah	مرقية
Maradaites	الجراجمة
Moabites	الموابيون
Nablus, Neapolis	نابلس
Nativity	كنيسة بيت لحم
Nazareth	الناصرة
Neocaesarea	نقصار
Nicaea	نيقية ، ازنيق (في التركية)
Nineveh	نينوى
Nisibin, Nisibis	نصيبين
Nosairi mountains	جبال النصيرية ، بهرة
Olives, Mount of	جبل الزيته ، جبل الطور
Paulician heretics	البيالصة
Pella	فحل
Pentapolis	برقة
Petchenegs	البجناك
Philaretus	فيلاريت ، الفلاردوس
Pisans	البيازنة ، البياشنة

Podandus	البدندون
Raban	رعبان
Rama, Rames, Ramleh	الرملة
Ravendel	راوندان
Romania	بلاد الروم (الاناضول)
Rugia, (Chastel-Rouge).	الروج
Sangarius, river	صنغارى ، نهر
Saragossa, Zaragoza	سرقسطه
Saruj. Bathnae	سروج
Sarus, river	سيحان ، نهر
Sebastea	سيواس
Sepulchre, Holy, church of	كنيسة القيامة
Sidon, Sagitta	صيدا
Tortosa, Tartous	انطرطوس ، انطرسوس
Transoxiana	ما وراء النهر
Trebizond	اطرابيزون
Tripoli	طرابلس
Tripolitania	طرابلس الغرب
Turbessel	تل باشر
Tyana	طوانة
Tyre	صور
Varangian Guard	الورنك

المحتوى

الكتاب الثالث

الذهاب الى القتال

الكتاب الرابع

الحرب مع الترك

الكتاب الخامس

أرض الميعاد

الملاحق

المصادر والمراجع

الخرائط

اللوحات

هذه اللوحات وردت بعد صفحة ٦٤ ، ٣٦٨